

83775

2011

10/10

الإذيق العطر الفاظم الكتابه والكاتب



General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)

دكتور
محمد خليل سلام
Alexandria

بالتاريخ
٢٠١١/١٠/١٠
١٥٦٤

الناشر // منشأة اف بالاسكندرية
بلال حزي وشركاه

الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية

جلال حذى وشركاه

٤٤ ش سعد زغلول الاسكندرية تليفون /فاكس : ٤٨٣٣٣٠٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

البحث في تاريخ آداب مصر والمنطقة العربية المحيطة والتي اتصلت بها اتصالاً مباشراً عبر التاريخ منذ أقدم العصور وطوال العصور العربية والإسلامية منذ الفتح وحتى الآن مفيد لا للمعرفة وحدها ، وكشف النقاب عن آداب مصر العربية والإسلامية وحسب ، بل للتعرف على عناصر الأصالة في مجتمعا ، ومكوناته البشرية والفكرية والحضارية ، إذ أن كثيراً من عناصر هذه الأصالة في الشخصية المصرية إنما تمدّ بجذورها إلى تلك الآفاق البعيدة .

ومعروف أن تاريخ كل أمة من الأمم تاريخ موصول ماضيه بحاضره ، وأن بنور القيم الاجتماعية ، والعقدية ، والثقافية بذرت في الماضي على أرض هذه الأمة لتنتج على مدى الأيام والأزمنة نباتها وتثمر ثمارها ، يمدّها روافد من هنا وهناك فتتخذ صفة ، أو لوناً ، أو طابعا يعينه لا يغير من أصلاتها ، ولا يمحو طبيعتها التي استنبتها أرضها ، وغذاها ترابها .

ولما كانت الهوية العربية هذه الأيام ، والهوية المصرية بصفة خاصة قد تعرضت لكثير من العواصف العاتية نتيجة لحركات ، وانفعالات زلزلت من كيان المجتمع وهزت جوانبه هزاً عنيفاً حتى كاد المراقبون يتوهمون أنها قد عصفت بأصوله واقتلعت جذوره ، فأصبح مجتمعا بلا هوية ، وصارت التيارات تتجاذبه إلى اليسار حيناً وإلى اليمين حيناً ، إلى الشرق ساعة وإلى الغرب ساعة ، ظانين أنه قد فقد جذوره التي تمسكه إلى الأرض .

والجيل الجديد من مثقفينا وقد باعدت بينه وثقافته العربية الإسلامية الجادة عوامل عدة ، منها مرحلة التشكيك في الهوية الإسلامية حيناً والهوية العربية حيناً ، والهوية المصرية أحياناً . لم يعد يتعرف طريقاً يهديه إلى ذاته من هو ، وعلى أي أرض تقف به قدمه ١٩ .

بل إن بعضاً من مثقفينا — واعين أو غير واعين — سلكوا طريقاً يكرسون فيه هذا الضياع وأعملوا أعلامهم لبث الشتات ، وهدم الذات جريا وراء ما يسمى بالوحدة

في العربية ، أو الأهمية الدولية ، أو الأهمية الإسلامية .

ولا أنكر أقبلاً وطنية مغلصة ظلت تمسك بهويتها المصرية ذات الأبعاد الثلاثة المصرية والعربية والإسلامية ، أى أن تمسك بأن تظل اخوية مصرية ذات صفات مكتسبة عبر التاريخ .

وفي مجال الفكر والأدب حاول رجال مؤمنون بوطنهم أن يبرزوا ملامح هذه الشخصية المصرية في الفكر والأدب العربي ، وبحثوا جادين مخلصين متفانين منكرين لذواتهم أن يوصلوا هذا الاتجاه مما منحوه من فكرهم وجهدهم ولا أسي أن أشير من رواد هذا الاتجاه إلى الأستاذ أمين الخولي ، والدكتور محمد كامل حسين والزميل الدكتور حسين نصار ، والدكتور عبد اللطيف حمزه .

فقد دأب هؤلاء الرواد الأجلاء على بعث الروح المصرية في الأدب العربي ، والكشف عن أصولها في تاريخ الأدب ، وإلقاء الضوء على جهود مصر والمصريين في العطاء العربي والإسلامي بعد أن تناساها الناس عامدين أو غافلين .

ولاشك أن عودة الروح المصرية إلى أبناء مصر عبر العصور ومن خلال أجيال هذا التراث المصرى الأصيل في الأدب العربي دَعَمَ للذاتية المصرية ، ومحاولة لبناء الشخصية المصرية المعاصرة ، وجمع لشتاتها الممزقة بين الهويات لتلحم في وحدة واحدة متماسكة هي « مصر » .

ونحس بالجهد الذى تبذله القيادة السياسية في مصر لإعادة هذه الشخصية فيما ترفعه من شعارات « مصر أولاً » ، « مصر حينا » ، « صنع في مصر » ، « الصحوة » . وما إلى ذلك مما يدل على أن فلسفة أو « أيديولوجية » جديدة تتركز فيها إعادة الروح إلى مصر والمصرية قد أخذت طريقها إلى الوجود مرة أخرى على الساحة .

وليس معنى عودة هذه الأيديولوجية فصل مصر عن وطنها العربي بالضرورة بل إن عودة هذه الأيديولوجية تقوية للدور المصرى في الوطن العربي فهو شحذ للشخصية المصرية لتحسن العطاء ، وليعود للجسد قوته التى تمكنه من أن يجمى ، ويسيد ، بعد أن أزهقت الأيديولوجيات وأصلته الشعارات الزائفة ، حتى حلت جسده ولم يعد قادراً على العطاء لا لنفسه ولا لغيره .

ولا حاجة إلى أن نعيد التذكير بأن مصر القوية كانت دائماً درعاً لنفسها ولن حولها ، وكانت نبعاً ثراً ، يكفل الحياة لهذه الأرض بما يمدها به من غذاء الحياة .

عاشت مصر إذاً مرحلة طويلة من تاريخها المعاصر منكرة لذاتها ، وامتد هذا الإنكار للذات إلى جوانب الفكر والأدب . وكان الدرس الأدبي في معاهدنا وجامعاتنا قاصراً على العصور العربية إبان اكتمال الدولة العربية ووحدها أيام حكم دولة الراشدين بالمدينة والأمويين بدمشق والعباسيين ببغداد .

ولم يتطرق الدرس إلا نادراً لعصر الدويلات بعد القرن الثالث الهجري ، أى بعد تقسيم الدولة العباسية إلى دويلات مستقلة أو شبه مستقلة أو إمارات لا تخضع للدولة في بغداد ، إلا خضوعاً شكلياً يتمثل في الختبة ، ودفع جزء من الخراج .

وهكذا نشأت الدولة الأموية في الأندلس والدويلات في المشرق والمغرب ، والإمارات في مصر والشام والحجاز وفارس .

وتأثر الأدب والفكر العربي والإسلامي في أنحاء الدولة العربية الإسلامية بالثقافة العربية الإسلامية مكونة تلونه من البيئة ، وتوجهه وجهات معينة ، أو تترك به آثاراً تميز كل بلد عن غيره . ومن هنا بدأت ملامح إقليمية تبرز للدارسين لآداب العصور المتأخرة في الدولة العربية الإسلامية . أو في عصر عرف بعصر الدول والإمارات ، أو عصر الدول المتتابعة .

ففى أقصى الشرق ظهرت القومية الفارسية بوضوح وأطلت الثقافة الفارسية والحضارة الفارسية ، بل واللغة الفارسية لتصبح الفكر الإسلامي والحضارة العربية الإسلامية بصيغها الخاص والمميز ، وإن كان هذا الصيغ لم يغب عن حضارة الإسلام منذ فتح العرب لفارس وإن وقف في وجهه الأمويون ، ولكنه عاد من جديد ليفرض وجوده في عهد العباسيين حتى برز صبغاً فارسياً صارخاً أسعد فيه جماعة من المفكرين والأدباء الفرس مجد حضارتهم القديمة بإعادة لغتهم إلى الوجود لغة للفكر والأدب . ونبغ شعراء أمثال رودكى والفردوسى ونظامى السمرقندي ، وسنائى ، وحافظ الشيرازى وغيرهم .

كما ظهرت فى أقصى الغرب فى دولة الأمويين بالأندلس ملامح أدب عربى جديد اصطلاح فى تاريخ الأدب عربى على أنه أدب الأندلس ، وكان له صبغ خاص ،

ظهرت علاماته ، في ألوان من الأدب لم تكن معروفة في المشرق العربي كالموشح وإن كانت ملاحح هذا الأثر غير واضحة وضوح الأثر الفارسي لاحتفاظ العرب في الأندلس بأصالتهم العربية ، وإن تأثروا بالبيئة الأندلسية والمحيط الحضارى لشبه جزيرة الأندلس وأهلها من الفرنجة اللاتين الذين ينتمون إلى شعوب الشمال في أوروبا والشواطئ الشمالية للبحر المتوسط . كذلك كان الحال في بلاد المغرب وشمال أفريقيا .

وأظهرت الدراسات الأدبية ما عرف بأدب المغرب والأندلس ، ودرّس بالجامعات ودور العلم العربية وغير العربية تحت هذا الاسم ، وحاول الباحثون في مجال ذلك الأدب البحث عن خصائص وملاحح تميزه عن أدب المشرق ، وربما كانت محاولات المحدثين امتداداً لمحاولات أدباء المغرب والأندلس أنفسهم لإثبات ذاتهم خلال عصور التاريخ العربي والإسلامي في مواجهة غلبة المشرق ، وعلى اعتبار أن العلم العربي الإسلامي علم وافد من المشرق إلى المغرب ، فيصبح العلم عند المغاربة والأندلسيين علماً تابعاً ، وكذلك أدبهم أدب مقلد ، ومن هنا كانت قيلة المشاركة عند ورود كتاب « العقد الفريد إليهم » : بضاعتنا ردت إلينا .

ولكن الأندلسيين والمغاربة مع ذلك لم يرتضوا لأنفسهم ولا لأدبهم أن يكون بضاعة مزجاة ، أو تقليداً للمشرق ، ولا أن يكتفوا بمقامهم في الظل ، ويكون الأمر كله للمشرق . وكانت هذه عقدة المغاربة والأندلسيين في تاريخ العرب والمسلمين: الشعور بالنقص حيال الشرق ومحاوله مغالبة هذا الشعور بشتى الطرق فألفوا من الكتب ما ينتصرون به لعلمهم وأدبهم ، وكان كتاب « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » لابن بسام ، وكان كتاب « المطرب » لابن دحية ، وكتاب نفح الطيب للمقرئ وغيرها من الكتب التي حاولت أن تبرز للأندلسيين والمغاربة دوراً مميزاً ، وملاحح خاصة في ركب الحضارة العربية الإسلامية .

ومصر وسط هذين التيارين المشرق والمغربى الأندلسي وقفت بين بين ، فقد اعتبرها المغاربة من المشرق ، بينما اعتبرها المشاركة باب المغرب ، وعلى هذا الاعتبار كانت نظرة صاحب اليتيمة الثعالبى في دراسته لأداب أقاليم الوطن العربي والإسلامي في عصره في القرن الرابع وأوائل الخامس ، وسار على دربه من اتبع منهجه في دراسة أدب الأقاليم كالبأخرزى صاحب دمية القصر ، وعماد الدين الأصبهانى صاحب الخريدة .

وابن سعيد صاحب المغرب .

على أن المصريين لم يرتضوا لأنفسهم أن يكونوا ذليلاً للمشرق الإسلامي حيناً وطليعة للمغرب حيناً، ففعلوا ما فعل المغاربة والأندلسيون بإثبات ذاتهم المصرية وسط التيارين الكبيرين .

وبدأت هذه الذات المصرية تطل من خلال التاريخ الأدبي منذ بدأت تستقل كإمارة لها كيانتها الذاتي كغيرها من الإمارات العربية والإسلامية التي استقلت عن الدولة العربية ، وكان ذلك منذ عصر الطولونيين في النصف الثاني من القرن الثالث .

فقد حاول أحمد بن طولون وخلفاؤه أن يجعلوا من مصر إمارة لها كيانتها المادي والفكري ولها طابعها الخاص بين بلدان الخلافة الإسلامية ، وساعد على هذا بالضرورة ماضي مصر الحضاري وإمكاناتها المادية والبشرية ، وطبيعة أرضها المتميزة بالنيل والشعب الذي يسكن على ضفتيه .

ومنذ عصر الطولونيين شعر المصريون بكيانهم الذاتي ، وإن لم يكن هذا الشعور خافياً أو ضائعاً في العصور السابقة ، بل إن دورهم كان في الأحداث معروفاً طوال القرون الثلاثة الأولى بعد الفتح الإسلامي . إلا أن هذا الدور بدأ يتأكد ويأخذ طريقة إلى الوجود منذ عصر الطولونيين ، واستمر يتشكل وينمو شيئاً فشيئاً في عهد الإخشيديين حتى جاء عصر الفاطميين ، فكانت مصر مهياًة لأن تأخذ مكانتها وتقف بارزة بمكانها بين أحواتها في المشرق والمغرب وازدادت هذه المكانة رسوخاً ، في عصر الفاطميين ، بعد أن جعلوا من القاهرة عاصمة لمصر وقاعدة للخلافة الفاطمية التي ضمت كثيراً من البلاد العربية والإسلامية في المغرب والمشرق ، بل وتناجرت الخلافة العباسية في بغداد وكادت أن تأخذ منها راية القيادة ، بل إن الخطبة للخليفة الفاطمي أقيمت بعض الوقت في بغداد على يد أحد الدعاة على ماسنينه في موضعه .

أخذت مصر إذا في عصر الفاطميين وضعاً قيادياً في العالم العربي والإسلامي ناهضت به العراق وفارس ، وظلت المناجزة بين العباسيين في بغداد ومن يدعمهم من دول الفرس والديلم الترك وعرب الشام والجزيرة وبين الفاطميين في مصر ومن يدعمهم من المغاربة وعرب الحجاز واليمن .

وفي ظل هذا الكيان السياسي للدولة الفاطمية أو الأبراطورية الفاطمية كانت مصر موضع النقل السياسي والثقافي والحضاري لهذه الإمبراطورية وبنيت لنفسها على مدى سنوات هذه الدولة التي قاربت قرنين ونصف من الزمان شخصية سياسية وحضارية وثقافية مميزة . حتى إن خلفاء الفاطميين قد عرفوا مع رجالهم في كتب التاريخ والتراث لهذه المرحلة باسم المصريين .

حاولت في الفكر وميادين الثقافتين الدينية الإسلامية والعربية أن أبين سماتها ومهما قيل عن المذهب الفاطمي الإسماعيلي وعن الدعوة الفاطمية الإسماعيلية من أن أصولها مستمدة من المشرق أو المغرب ، فإن هذه الدعوة تمكنت ، وآتت ثمارها واستحصدت في مصر بما أقامه خلفاء الدولة من دعائم لهذه الدعوة تمثلت في دور الكتب ، ودور العلم ، والدعاة والعلماء . ولاشك أنهم عثروا في مصر على ضالتهم من الرجال الذين ثبتوا أركان الدولة على اختلاف مللهم وعقائدهم ، إلا أنهم كانوا مصريين ، كاليهودي يعقوب بن كلس ، ومنشأً والنصارى من أمثال عيسى بن نسطورس .

ولاشك أن المصريين على اختلاف نحلهم من مسلمين ونصارى ويهود قد شاركوا في بناء الطابع المصري للفكر والثقافة الإسلامية في هذه المرحلة ، فضلاً عما أضافة المغاربة كعنصر بارز بتلاحمهم مع الدولة وتلاحم المصريين معهم أرضاً وثقافة .

وطبيعي أن الشخصية المصرية في هذه المرحلة من الحضارة العربية الإسلامية قد أفادت من جهود كثيرة سابقة في الفكر العربي والإسلامي ، دخلت البوتقة المصرية ، فأنجزت لونهاً جديداً أثري تيار ذلك الفكر وأضاف إليه إضافات كثيرة ، كما أضاف الأدب بعطائه الكثير للأدب العربي وأمدته بتيار لاينكر كانت له آثاره البعيدة في الأدب المصري بعد ذلك ، والأدب العربي عامة في مشرق العالم العربي والإسلامي ومغربه .

وظلت آثار هذا كله طوال عصور الأيوبيين والمماليك .

وحاول بعض الباحثين ممن كلفوا بإظهار دور وعطاء مصر في الفكر والأدب أن يضعوا أيديهم على مفاتيح كنوز هذا الدور وكانت اجتهادات من سبق إلى دراسة الأدب العربي المصري في العصر الفاطمي باعتباره جزءاً من عصور الأدب المصري أو أفراد هذا الدور بدراسة خاصة .

وكان للدكتور عبد اللطيف حمزة ، والدكتور محمد كامل حسين والدكتور حسين نصار وغيرهم دور كبير في كشف ملاح كثيرة للأدب المصرى عن طريق دراساتهم القيمة . وما أنجزوه من نشر لجوانب من كتب التراث في هذه المرحلة .

مثل كتب الدعوة والمجالس الفاطمية التي اختص بها الدكتور محمد كامل حسين ، وأخبار مصر للسببى الجزء الأدبى ، وأخبار مصر والقاهرة من المغرب لابن سعيد والجزء الخاص بمصر من كتاب المغرب ، وكتاب خريدة القصر للعماد الأصبهاني . كما نشرت بعض دواوين شعراء العصر كديوان تميم بن المعز ، وديوان الشريف العقيلي ، وديوان ظافر الحداد ، وديوان ابن وكيع التنيسى .

وخص بالحديث عن أدب الفاطميين بعض هؤلاء العلماء الأفاضل ، وكان في مقدمتهم الدكتور محمد كامل حسين في كتابه القيم « أدب مصر الفاطمية » ، وكتاب الدكتور حسين نصار عن ابن وكيع التنيسى ، وظافر الحداد ، وكتاب « مصر الشاعرة الفاطمية » للأستاذ محمد عبد الغنى حسن .

وقد أفدت في هذه الدراسة من كل هذه الجهود وغيرها ، وأضفت إليها رؤية جديدة مما أتيح لى الاطلاع عليه من كتب جديدة كانت مخفية في زوايا النسيان وكشف عنها المحققون مثل كتاب الرسالة المصرية لأمية بن أبى الصلت القيروانى ، والمجالس المؤيدية ، وعيون الأخبار في أخبار الدولة الفاطمية ، والأفضليات لعل بن منجب الصيرفى ، والجزء الخاص بالأدب في كتاب المسببى عن تاريخ مصر ، وكتاب محاسن مصر والقاهرة .. إلى غير ذلك من المصادر والمنشورات النادرة التي لم تكن متاحة للباحثين السابقين .

ولم تكن الزيادة في مصادر المعرفة بالعصر الفاطمى والتراث الأدبى فيه وحدها التي حفزتنى على الكتابة في أدب العصر ، بل هناك أسباب أخرى ، منها أن رؤيتى للأدب من خلال النصوص وحدها لاتعطى هذا الأدب قيمته الحقيقية ، بل إن وضع الأدب في بيئته وعصره ، واكتشاف خفايا العلاقة بين تلك البيئة والأدب شيء هام لتذوقه والتعرف على أسراره . بل واتخاذ صورة تعكس لنا طبائع الناس وحيواتهم في ظروفها بين النعيم والبؤس ، في حالات جدهم أو لهوهم ، مأسبب ونكباتهم ، وفترات سعادتهم وبلهنتهم .

كذلك يكشف لنا أدب العصر بدراسته متصلاً بظروف الحياة والبيئة مدى علاقة إنسان العصر بأرضه ، ووطنه ، وتمثله لعناصر ذلك الوطن ومظاهر شخصيته ومكوناته التي تفرقه عن غيره من الأوطان .

وللشعب المصرى الذى أبدع هذا الأدب ملامحه ، كما أنه بتلك الملامح عكس ذاتيته على ذلك الأدب أو ذلك اللون من الأدب العربى الذى ظهر فى مصر فى ذلك الوقت ، كذلك تفاعل المصرى مع غيره من أدياء الوطن العربى والإسلامى الذين وفدوا إليه أو ارتحل هو إليهم .

وتهم هذه الدراسة بإظهار هذا كله فى أدب العصر ، ولاتكتفى بتناول جانب دون آخر ، بل تتناول جميع تلك الجوانب فتضعها معاً فى تلاحم وتفاعل .

وقد تفجأنا فى عرضنا لعصور الحياة والأدب بعض المظاهر التى لانعتاذاها اليوم أو لانسيغها ، وكانت شائعة مستساغة فى وقتها ، كذلك قد تصدمنا بعض صور السلوك أو العادات والتقاليد التى كانت لها انعكاساتها الواضحة على الأدب ، ولانستحى من إيرادها إعمالاً لمبدأ عفة الكلمة ، أو حرجاً من مخالفة لبعض القيم التى تحكمنا والأخلاقيات التى درجنا على رعايتها .

ولو أنا حكمنا مقياس عصرنا فى هذه الأمور ، وحجبنا مالا نرضى عنه أو نحيناه عن دائرة اهتمامنا ، ولم نعرضه كما كان ، نكون قد قصرنا فى واجب الأمانة فى الدرس ، ولم نوف الموضوع حقه ، ولم نستكمل كل جوانبه ، فيعود قاصراً غير مكتمل الصورة ، مشوهاً ، أو مسخاً ليس مطابقاً للواقع الذى نلمسه من خلال المصادر المتاحة . فنزيد بذلك قصوراً على قصور ، نزيد قصوراً من عندنا على قصور التاريخ وعبث الأهم بمصادر ذلك التراث التى لانكاد نتمكن من الإطالة الواضحة خلاله على العصر وأدبه .

وقد نال العبث مصادر هذا العصر حتى عادت الرؤية فيه غير واضحة وعاد الغموض يجلبه لولا ماتتكشف عنه الأيام من حين إلى حين ، وما يبذله الباحثون والدارسون من الجهد فى الإمساك بمصباح ديوجين للاهتمام به فى تلك الدجنة الخالكة التى اشتبهت فيها الأشياء ، واختلطت الظلام بالنور ، وتضاربت الأحكام .

ولعلنا فى نهاية هذا البحث نستطيع أن نبدد بعض هذا الظلام ، وأن نزيل اللبس فيه

فإذا بلغنا مطلبنا هذا نكون قد بلغنا قصداً نضىء به براساً لمن يأتي بعدنا للسفر على هداه
حتى يواصل المسيرة ويبلغ بهيمته غاية أبعد من قصدنا .

الباب الأول
الحالة السياسية

الحالة السياسية

قام الفاطميون بدعوتهم في أخريات القرن الثالث الهجري ، وبدأت سرية ثم أعلنت في شمال أفريقيا بعد وثوقهم من قوتهم ، وتمت لهم السيطرة على أفريقيا من برقة إلى المحيط الأطلسي بأقصى المغرب ، واتجهت بعد ذلك أنظارهم إلى المشرق ، فزحفوا إلى مصر واستولوا عليها بعد أن حاولوا ذلك مراراً حتى تم لهم اتخاذها قاعدة لملكهم بعد فتحها على يد قائدهم المظفر جوهر الصقلي ، ونزوح المعز لدين الله إلى القاهرة عاصمة ملكه التي بناها قائده .

وكانت القاهرة قاعدة الدولة الفاطمية ومركز نشاطها السياسي والعسكري والفكري ، ومنها توجهت جهودهم السياسية ، وانطلقت جيوشهم وأساطيلهم للسيطرة على الشام وجزر البحر المتوسط ، ومقاومة الدولة العباسية والملتفين حولها من أمراء المشرق وزعماء القبائل العربية في الجزيرة وبلاد الشام وبادية العرب ، ومنها حاولوا السيطرة فكرياً وعقدياً على العالم الإسلامي عن طريق تأهيل الدعاة في مدارسهم وبخاصة في دار العلم أو دار الحكمة ودفعتهم إلى مختلف بلاد الإسلام شرقاً وغرباً ، جنوباً وشمالاً ليثروا العقيدة الفاطمية الإسماعيلية ، ويمهدوا بهذه الدعوة الدينية للسيطرة السياسية .

وكان لموقع مصر والقاهرة الأثر البالغ في تدعيم أركان الدعوة الفاطمية ، وشد أزر الدولة ، لما لها من ثقل حضارى ووضع جغرافى ومميز بتوسطها العالم الإسلامى ووقوعها في مفترق الطرق بين المشرق والمغرب ، والشمال والجنوب .

كذلك لما لمصر من أرض خيرة ، بفضل النيل ، وماأنعم به عليها من خيرات بفضل الله ، يفيض ، فيغدى النعمة ، وينبسط العيش ، ويلقى الناس بالفرحة ، فبه يغاثون ، ويزرعون ويحصلون .

واستطاع الفاطميون باقتدار أن يستغلوا موقع مصر وإمكاناتها الحضارية والبشرية والطبيعية في تدعيم دولتهم ، وبناء حضارة إسلامية زاهرة متميزة بهذا الفكر الفاطمى

الشيعة الأصول تمتد على بساط من الأرض يكاد يلتهم ما كانت تسيطر عليه الدولة العباسية من المغرب والمشرق حتى دقت عليها أبواب بغداد نفسها ، فخطب لأئمتهم حيناً على منابرها ، ولو مد الله من عمر هذه الدولة وهياً لها جماعة من كبار الخلفاء الذين أتبعوها في بداية عهدها كالمعز والعزير والحاكم لكان انشأن غير ما انتهى إليه الحال ، ولتغير وجه العالم الإسلامي .

ولكن لحكمة يعلمها الله ظل الصراع بين عنصري الدعوة الإسلامية أهل السنة والشيعة في حدود التوازن ، فلم يكتب الغلبة لأحدهما على حساب الآخر حتى جاءت موجة الصليبيين من الغرب لتقلم أظفار الفاطميين وتضعف من قوتهم في الشام بعد الصراع المتكرر بينهم والروم والبيزنطيين الذي لعبوا دوراً في تمهيد الأرض للغزوة الصليبية بالشام .

ومهما يكن الموقف من الناطميين ودولتهم بين مؤيد ومعارض ومنتصر لهم ، فقد لعبوا في تاريخ مصر والعرب والإسلام دوراً هاماً ظل ما يقرب من قرنين من الزمان تركوا فيه آثاراً لا تمحى وظلت ببقية في الحياة والثقافة ، وفي الفكر والأدب وإن حاول معارضوهم تشويه هذا الدور ، ويمح آثاره ، واجتهدوا في ذلك على ما سنبينه فيما يأتي من سطور وصفحات .

بدأت الدعوة الفاطمية إذا في أخريات القرن الثالث ، وقد آذنت وسائل التفكك وعوامل الضعف بتقليص سلطان العباسيين والاعتداع من دولتهم في المشرق والمغرب ، وبدأت الدويلات والإمارات تنفصل انفصلاً تاماً أو جزئياً عن مركز الدولة بالعراق . وتتابعت الثورات في أنحاء كثيرة بالجزيرة العربية بساحل الخليج وجنوب العراق وبادية الشام ، وفي أصقاع الشام ومصر واليمن ، وشمال أفريقيا .

وتعددت الدعوات السياسية والدينية ، واستغل الشيعة ضعف الدولة ونفثوا ما كانوا يخططون له من وراثة الخلافة على اعتبار أحقيتهم من العباسيين الذين أقاموا منكمهم على أساس الانتصار لهم والانتقام لقتل الحسين والعلويين واضطهادهم على أيدي الأمويين ، ثم احتازوا الملك والسلطان لأنفسهم ولم يكتفوا بذلك ، بل تعقبوا العلويين ، وحاربوهم وَتَكَلَّمُوا بِهِمْ كَمَا نَكَلُ الْأُمَوِيُّونَ بِهِمْ بَلْ أَشَدَّ .

وثارت إذا جماعات وطوائف كثيرة لها يراث ندى العباسيين ، أو تدفعهم أطماع في الملك ، تشكلت في التاريخ الإسلامي بأشكال متعددة فمرة في شكل ثورة الزنج

بالبصرة ، أو دعوة القرامطة بالبحرين وبادية الشام ، أو دعوة الفاطميين بشمال أفريقيا
ومصر . . .

وكانت الدعوة الفاطمية أخطرهما جميعاً على الدولة العباسية وأشدّها تهديداً وقد
احتازت معظم بلاد العالم الإسلامي في وسطه ومغربه .

قال المقرئى : « فإنهم كانت اتصلت دولتهم نحواً من مائتين وسبعين سنة وملكوا
من بني العباسي بلاد المغرب ومصر والشام وديار بكر والحرمين ، واليمن وخطب لهم
ببغداد نحو أربعين خطبة . » (١).

وتحدثت كتب التاريخ عن بدء الدعوة الفاطمية سرية في الشام ، ثم ظهر عبيد الله
المهدى مؤسس دولتهم ، وجد المعزّ لدين الله على قول معظم المؤرخين وإن خالفهم
بعض منهم قائلين إن جد المعز وأول أئمتهم العلنيين هو القائم ، ويشكك بعضهم في بنوة
القائم لعبيد الله المهدى .

ودون الدخول في تفصيلات هذا الخلاف ولا في مناقشة أنسابهم وصحة دعوتهم
وادعائهم الانتساب إلى علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت النبي ﷺ واتخاذهم من
هذا النسب شرعية الدعوة والإمامة ، والخلافة التي سلبت من جدّهم علي بن أبي طالب
ظلماً — على قولهم . دون الدخول في تفصيلات هذا كله نجد أن عبيد الله المهدى هرب
من الشام خشية افتضاح أمره إلى مصر حيث اختفى زمناً عن عيون العباسيين واتخذ
طريقه إلى المغرب حيث وجد مجالاً لدعوته .

ويبدو أنه تمكن من ضم بعض قبائل البربر من شمال أفريقيا كقبيلة كتّامة وصنهاجة ،
فأصبحوا مؤمنين بدعوته ، ونصروه بسيوفهم وعددهم ومكنوا له من أفريقيا في غفلة
من الدولة العباسية وضعفها عن أن تمتد يدها في قوة لتقضى عليهم حتى استشرى أمرهم
وكونوا دولة ، وأقام عبيد الله مدينة المهديّة بتونس وجعلها قاعدة له .

وأعقب المهدى (٢) القائم بأمر الله (٣) ، والمنصور (٤) بنصر الله ، ثم المعز لدين الله .

(١) الخطط ١/٣٤٩ .

(٢) تولى بالمهديّة سنة ٣٢٢ هـ ، كانت مدة خلافته اثنتي عشر عاماً وستة أشهر .

(٣) تولى سنة ٣٣٤ هـ .

(٤) تولى سنة ٣٤١ هـ ومدة خلافة ثمان سنوات .

ونلاحظ أن خلفاءهم اتخذوا لأنفسهم ألقاباً كما فعل العباسيون ، كلها تنبئ عن القيام بأمر الدين ونصره ، أو بتأييد من الله وقوته : فالمهدي ، والقائم بأمر الله ، والمنصور والمعز لدين الله ، والعزير بالله ، والحاكم بأمر الله ، و ... الخ . وكلها تنبئ كذلك عن شرعية الإمامة لدى كل منهم ، وأنها جاءت بالوصية من الإمام القائم ، أو بوحي وتوفيق من الله . وليست خلافة بيعة من المسلمين أو جماعتهم وأولى الرأي والمشورة فيهم .

وهذا السند الديني للإمام الخليفة يجعله حاكماً مطلقاً ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فأمره مطاع ، وحكمه لا يراجع لأنه وحى أو شبيه به . وكما أن الخليفة أو الإمام الفاطمي يملك زمام السلطة الزمنية ، وحكمه فيها لا يرد ، كذلك هو يملك زمام السلطة الدينية وحكمه فيها لا يرد ، وله حق التفسير والتوجيه للنصوص الدينية مباشرة أو عن طريق الدعاة الذين يفضى إليهم بسرّه فيعلنونه للناس في مجالس الدعوة .

وإذا ما قارنا بين ثلاث الدول الكبرى التي تعاصرت في هذه المنطقة ، وهي دولتان إسلاميتان وأخرى مسيحية : العباسية ، والفاطمية ، والبيزنطية . نجدتها جميعاً تقوم على أساس ديني ، وإن تفاوتت فيما بينها في الشكل والسند أو الدستور الذي تقوم عليه . فالدولة العباسية إسلامية خلافة ، ليس للخليفة من حق إلهي ، وهو يحكم بالبيعة من المسلمين ، ولهم حق الاعتراض عليه ، وليس شرطاً أن يتوارث الخلفاء منصب الخلافة وإن خالف التطبيق الحكم فكان العباسيون يتوارثون الخلافة كما فعل الأمويون ، وإن من بين ما اعتمدوا عليه سوى البيعة انتابهم إلى بيت النبوة ، واعتبروا الخلافة إرثاً ، كغيرها ، وجادلوا أبناء علي وفاطمة في أحقية العم العباس على الإبنة فاطمة في الميراث . فالخلافة العباسية وإن كان سندها الشرعي البيعة من المسلمين إلا أنها جعلت من حق الوراثة سنداً ثانياً لانتمائهم إلى بيت النبوة . وهم لا يقولون بعصمة الخليفة ولا بحقه الإلهي ، ولا بالوصية .

أما الخلافة الفاطمية فهي إمامة دينية ، الخليفة فيها هو الإمام المعصوم الذي نال الخلافة بالوصاية . ولاحق للناس في خلافه أو معارضته ، كما أنه لا حق لهم في احتباره أو في بيعته ، فهو موصى إليه بالإمامة على الناس والقيام بأمر دينهم ودنياهم ، وهم يجيرون على الطاعة له والالتزام بأمره . وكل خارج عليه خارج على ديه ومأمر به من

طاعة الإمام ، فهو حكم استبدادى يستند إلى قوة الدين :

وأما قيصرية بيزنطة فكان يتمثل فيهم كذلك السلطان الدينية والدينية منذ قسطنطين وكان القيصر يمثل السلطة الدينية الكبرى أو العليا فهو بطريك الأكبر وله حق تولية بطاركة الكنيسة وحكام البلاد وأمراءها سواء بسواء (١).

ومهما يكن من أمر الخلافة الفاطمية وخلفائها ، فإننا نتوقف عند أول من قام منهم بمصر وهو المعز لدين الله الفاطمي ، ولعله أقوى هؤلاء جميعاً ، والمؤسس للولتهم الكبرى في المغرب والمشرق .

والمعز لدين الله هو أبو تميم معد . تولى الخلافة بعد والده المنصور بنصر الله أو الظاهر إسماعيل سنة ٣٤١ هـ وعمره آنذاك نحو أربع وعشرين سنة .

وشخصية المعز متعددة الجوانب فهو رجل دولة من الطراز الأول داهية ذكي متعدد المواهب ، يعرف كيف يجتذب إليه الرجال ، ويطوى عقول الرعية وينال رضاهم وطاعتهم ، فيتألفهم بالعمى أذنبا أحيانا ، وباغداق الصلات وبذل المال أحيانا ، وثالثة قد يغريهم بالمناصب ، أو المنح الغامرة من الدور واللباس ، والمأكل والشراب .

وهو في الوقت نفسه قوى حازم شجاع لا يتوانى عن اتخاذ القرار الحاسم في الوقت المناسب ، ولا يتردد في مواجهة الشدة وقطع رعوس الفتنة بقوة وعزم .

ومما يروى عن دهائه ما نقله المقرئى . قال إن المعز لما كان بعض الأيام استدعى في يوم شات عدة من شيوخ كتامة ، فدخلوا عليه في مجلس قد فرش باللبود ، وحوله كساء ، وعليه جبة ، وحوله أبواب مفتحة تفضى إلى خزائن كتب وبين يديه دواة وكتب ، فقال : يا إخواننا أصبحت الآن في مثل هذا الشتاء والبرد ققلت لأم الأمراء — وإنما الآن بحيث تسمع كلام — أترى إخواننا يظنون أنا في مثل هذا اليوم نأكل

(١) قد يرى بعض الباحثين أن الدين 'نسيحي' كان يعترف بانفصال السلطتين الدينية والزمنية على أساس ما لقيصر لقيصر ومالله لله . والتاريخ يثبت أن ذلك لم يكن مطبقا تماما في الدولة الرومانية الشرقية ، وأن اخذت به أوروبا المسيحية في العصور الوسطى وظلت سلطة البابا وكرادلة الكنيسة بعيدة على سلطان الملوك . وإن حضع هؤلاء الآخرون نسلطة البابوات والكرادلة أحيانا .

ونشرب ، ونتقلب في المثلث والديباج والحرير والفنك والسمور^(١) والمسك والخمر والغناء كما يفعل أرباب الدنيا . ثم رأيت أن أنفذ إليكم فأحضرتكم لتشاهدوا حالى إذا خلوت دونكم واحتجبت عنكم ، وإنى لا أفضلكم في أحوالكم إلا بما لا بد لى منه من دنياكم ، وبما خصنى الله به من إمامتكم .^(٢)

وقال : وإنى مشغول بكتب ترد إلى من المشرق والمغرب أجيب عنها بخطى ، وإنى لا أشتغل بشيء من ملاذ الدنيا إلا بما يصون أرواحكم ويعمر بلادكم ويذل أعداءكم ، ويقمع أعداءكم فافعلوا ياشيوخ في خلواتكم ماأفعله ، ولا تظهروا التنبر والتجبر ، فينزع الله النعمة عنكم وينقلها إلى غيركم ، وتحننوا لى من وراءكم ممن لا بد لى إلى كتحثنى عليكم ليتصل فى الناس الجميل ، ويكثر الخير وينتشر العدل . وأقبازا بعدها على نسائك ، والزمو الواحدة التى تكون لكم ، ولا تشرهوا إلى التكثر .^(٣) والريبة فهن فينتقض عيشكم وتعود المضرة عليكم وتتهكوا أبدانكم ، وتذسب قبوتكم ، وتضعف شائزكم ، فحسب الرجل الواحد الواحدة .

ومع أن هذه الفقرة تصور المعز خليفة زاندا ، إلا أنه فى الحاقية لم يتراف عن مظاهر الملك ، وأبهة السلطان ، بل لعله بالغ فيها ، ليكسب الهية فى النفوس . وربما تشبه ببعض ملوك الفرنجة والعرب فى اتخاذ التاج . فقد أورد العلامة حسن حسنى عبد الوهاب فى بعض أوراقه أنه كان من عادة المعز وضع التاج على رأسه ، كما وصفه الشعراء بذلك ومنهم ابن هانىء شاعره المفضل^(٤) .

كذلك كان عالماً أديباً يعرف بعض لغات من يحكم أو يتصل به سلطاناه ، فتد تعلم البربرية ليخاطب البربر ، واليونانية ، والسودانية لى جانب اتقانه العربية وآدابها ، وتعمقه فى فقه الدين ، وأسرار القرآن ، والسيرة والتاريخ .

واتخذ لنفسه جماعة من جهابذة الرجال لمعاونته فى الحكم ، واتمكين لى قوة على رأسهم الأستاذ جوذر ، والقاضى نعمان ، والوزير يعقوب بن كلس .

(١) الفنك والسمور أنواع من العود الفاخر يتجده النبوك والأمرء للاسهم شنة

(٢) الحفظ ٣٥٢/١ .

(٣) راجع الأوراق قسم ٢/ص ٢٠٤ .

وقرب جوذر الأستاذ بعد توليه الخلافة واستقراره بالمنصورية ، واسكنه معه في قصره بدار البحر . وجاء على لسان جوذر أن المعز قال له عند دعوته للإقامة معه في قصره : « إنك لن تعدم بقربك منا خيراً تفيده ، ومسرّة تغتبط بها ، وتطيب نفساً بورودها ، ونعمة تستحوزها وتستفيدها ، كما لا يعدم من قرب من عدونا ، وحل من خاصته محلك منا من غضب الله ولعنته عنده أجل وأعظم مما يظنه أو يسمو إليه . أمله . » .

فقبل الأستاذ الأرض بين يديه ومن حضر ممن خصه بقربه ، وحمدوا الله على ما أولاهم من فضله ، وشكروا ذلك له بما قدروا عليه . (١) .

واستغل المعز ذكاه ، وعلمه ، ومعرفته باللغة والأدب في خطابه ، وخطابه للناس من رعيته أو انصاره ، وغيرهم ، واستغل عقائد الدعوة الفاطمية للتمكين لنفسه وإمامته . وساعده على تدعيم هذه الإمامة جماعة ممن أشرنا إليهم ممن تعمقوا أصول الدولة وتمكنوا فيها ، وأحاطوا بأسرار الدعوة الاسماعيلية واستغلوا علمهم بشتى العلوم والمعرفة المتاحة لهم من علم الدين والانساب واللغة والحساب والفلك والطبيعة والرياضة والفلسفة والطب والهندسة ، فاستغلوا هذا كله في تثبيت دعائم الدعوة وتأويل النصوص الدينية بما يرضع في أيديهم حججاً على أقوالهم .

ومن أشهر أولئك العلماء الدعاة الذين ساندوا المعز وثبوا تعاليمه في الآفاق كالأستاذ جوذر ، والقاضي النعمان داعي الدعوة .

وكان المعز نفسه لسناً جدلاً يحاور معارضيه ويدفع عن رأيه بالحجج العقلية والعقلية . واستطاع المعز بسياسته وبعد همته أن يملك شمال أفريقيا من برقة إلى فاس فالحيط الأطلنطي في أقصى المغرب ، وضم إليه بعد ذلك مصر والشام والحجاز واليمن وبعض جزر البحر المتوسط مثل صقلية وكريت أو إقريطش كما كان العرب يسمونها .

وبنى أسطولا كبيرا كان يجوب البحر وينازل الروم في كثير من المواقع البحرية ويتنصر عليهم ، كما نازل بعض أعدائه من الأمويين في الأندلس .

(١) عيون الأخبار ص ٣٥ .

المعز وفتح مصر :

لم يكن فتح المعز لمصر أول محاولة من الفاطميين ، بل سبقتها محاولات في عهد أسلافه القائم والمنصور ، بلغت فيها جيوشهم الإسكندرية وتجاوزتها إلى مابعدھا ولكن العباسيين استطاعوا أن يصدوا تلك المحاولات بإرسال جيوشهم يقودھا قادة من أمراء الأتراك . مثل مؤنس الرجل القوی آنذاك .

ولكن المعز عمل جاهداً على تحقيق ما لم يتمكن آباؤه من تحقيقه ، فأعد لحملة عدتها ، إذ بعث الدعاة لتمهيد الأرض في مصر لاستقبال الغزاة ، أو كسبر حدة المقاومة ، وساعد على ذلك ضعف الدولة الإخشيدية بعد وفاة كافور .

جمع المعز جيشاً كبيراً ، ودعيت القبائل إلى الانضمام تحت لوائه . وبعد أن اكتملت تعبئة القوات ، خرج المعز لعرض القوات وتوديع الجيش الذي عين أخذ خالصاته جوهر الصقلي قائداً عاماً له بعد أن حقق انتصارات كبيرة في شمال أفريقيا ، ووثق المعز في كفاءته .

وغادر جوهر القيروان في شتاء عام ٩٦٩ م في شهر فبراير على رأس جيش تعداده مائة ألف مقاتل مجهزين بخير العتاد ، وعساده من قبيلة كتامة أشد أنصار الفاطميين . وبصحبتهم ألف جمل وعدد لا يحصى من الخيل والتي حملت جميعها قدراً وافراً من المؤن والذخائر .

وزحف الجيش شرقاً إلى الحدود المصرية ، واستسلمت الحاميات بالإسكندرية وغيرها ، ونزل الجيزة ثم عبر إلى الفسطاط فاستولى عليها في شهر أغسطس من العام نفسه .

وبعد أن تم لجوهر الاستيلاء على الفسطاط ، أقطع جنده أرضاً حولها ، ليستقروا بها ودخل القائد مسجد عمرو بن العاص على صهوة جواده الكमित وعليه مطرف حرير موثى بالذهب . وفي أول خطبة بالمسجد دعا خطيب المسجد للامام الخليفة المعز بعد الدعوة للخليفة العباسي . ثم قطعت الدعوة للعباسي بعد ذلك .

وضربت السكة الفاطمية ، وأذن بالأذان الشيعي حتى على خير العلم . وهكذا أصبحت مصر دولة علوية فاطمية اسماعيلية منذ ذلك الحين .

وبنى القائد جوهر القاهرة ، وشيد قصرأ لسيده الخليفة المعز ، وبنى الجامع الأزهر ، ثم دعا خليفته المعز للحضور .

وجاء المعز من المنصورية في جمع حاشد ، حاملاً معه كل ما استطاع من مال ومتاع ، بل قيل انه حمل عظام آبائه في توابيت لدفنها بجواره في القاهرة .

وعبر بهذا المركب المهيب حتى بلغ الاسكندرية وانحدر منها إلى الجزيرة فلما بلغها لقيه بها جوهر ، وكان قد عقد له جسراً على النيل ليعبره إلى بر الفسطاط والقاهرة ، فعبه حتى بلغ الفسطاط وكانت قد زينت له ، فطاف بها ولم يشقها بموكبه بل اتجه مباشرة إلى القاهرة عاصمته الجديدة .

وحط الرجال مع جميع أخوته وأولاده وسائر أولاد عبيد الله المهدي ، ومن معه من نساء وتوابيت الآباء وذلك في سبع خلون من رمضان عام ٣٦٢ هـ ومابلغ ساحة القصر حتى صلى ركعتين فاتحذاه من تبعه . وبات ليلته ثم أصبح فعقد مجلساً للتهنئة وأمر بكتابة منشور إلى سائر مدينة مصر باقرار الدعوة الفاطمية والدعاء بعد النبي والصلاة عليه لعلي ابن أبي طالب .

وقيل إن حملة المعز كلفت أربعة وعشرين مليون دينار آنذاك غير ما حمله المعز معه من ذهب وأموال ومتاع لا يقدر ثمنه .

كان عمر المعز عند حضوره ثلاثة وأربعين عاماً . وسار في مصر سياسة تجمع بين الإغراء بالمال والاصلاح بالحسنى ، والحزم الذي لاتهاون معه وقت الضرورة ، تلك السياسة التي عرفت « بسيف المعز وذهبه » . فمن لا يصلحه المال ، أصلحه السيف والعكس صحيح ، فإنه قد يبدأ بالسيف من يرى فيه العناد حتى اذا ملكه اصطفاه بذهبه وما يغدق عليه من المناصب والجاه والمال حتى يصبح ولياً طيعاً .

وسارت تلك سياسة خلفه من ابنائه وأحفاده .

وهكذا أقام المعز دولة الفاطميين في مصر وجعل عاصمته القاهرة ، وجعل أسس هذه الدولة قائمة على قوة الجيش والأسطول ، وقوة الدعوة بالعلم وعقد مجالسه في دار العلم أو الحكمة ، أو بالنصر لاعداد الدعاة والتمكين للدولة عقيدة ، إلى جانب التمكين بالسلطان والقوة ، وكانت دعامة الثالثة المال ، وقد عمل على أن تصبح الدولة غنية بما

يوفره من اصلاحات ، وما يعقده من صفقات تجارية مع ماحولها من بلدان .
وشهدت مصر في عهده بدء ازدهار حضارى ، وعصر رفاهية وترف بلغ غايته في
عصر خليفته العزيز وابنه الحاكم .

وفي شهر ربيع الآخر من عام ٣٦٥ هـ توفى المعز وله من العمر خمس وأربعون سنة
وستة أشهر . وكان مقامه بمصر سنتين وتسعة أشهر .

العزيز بالله نزار

ثاني خلفاء الفاطميين بمصر ، وثالث أبناء المعز ، وقد ولاه أبوه العهد بعد وفاة ابنه
عبد الله الأوسط متخطياً بذلك ابنه الأكبر تميم وهو الشاعر المعروف ، والذي كنى به
المعز فعرف بأبى تميم وتحدثت كتب التاريخ عن الأسباب التي جعلت المعز يعدل بولاية
العهد عن ابنه الأكبر تميم إلى ولديه الثاني والثالث بعد وفاة عبد الله .

فمن قائل إن سبب ذلك عدم ثقة المعز بولده تميم لأمر لاحظها عليه ، وأنبأه بها
الأستاذ جوذر تدور حول طمع تميم في الخلافة في حياة والده ، وأن أمراً دارت بينه
وبعض أمراء البيت الفاطمي وأبناء بعض الولاة ، وبخاصة ابن والى المعز على صقلية .
ولم يرد المعز أن يأخذ ابنه بالشدة ، بل كان يعمل على مداراته ويدفع بعض رجاله إلى
نصيحته وتقويمه هو ومن معه .

وقيل إنه عدل عن توليته لأنه رأى فيه ميلاً إلى اللهن ، والخلاعة وعدم الالتزام
بواجبات ولاية العهد ، من حبه للسمع وقول الشعر والغناء مما قد ينتقص من مروءة
وهيبة من يرشح للخلافة ، ويريد المعز لمن يخلفه أن يسير على سياسته ليحفظ للدولة
قوتها وللخلافة احترامها بين الناس ، والأعداء يرصلونها في كل مكان ويترهبون بها ،
ويبحثون عن زلات تهدم ركن بنائهم .

ومن قائل إن المعز عدل عن ولاية العهد لتمامه لأنه لم ينجب ، ولم يكن له قدرة على
الإنجاب ، وخشى أن ينقطع نسله ، فتنقطع بذلك دولتهم .

- ومهما يكن من أمر فإن نزاراً تولّى الخلافة بعد موت المعز ، وظل أخوه الأكبر بمنأى
عن أعبائها ، وبعث بينىء أخاه شعراً ويعلن له الولاء والطاعة في كثير من تدساته . إلا

أن هذا الولاء لم يكن خالصاً فيما يبدو ، بل كان يشوبه من حين إلى آخر فكرة في الخلافة وأنه كان أحق بها ، وكان هذا الفكر ينغص عليه وقته ، ولا يستطيع كتمانته فتبدر منه بوادر تروج فتصل إلى أسماع أخيه الخليفة .

ولكن العزيز بالله كان يدارى أخاه رغم علمه بهواجسه ، ويحاول تعويضه باغداق المال والعطايا كلما سنحت فرصة حتى يشغل بملاهيه وملاذه بين خاصته من الشعراء والجواري والغلمان وبين الكاس والمطعم والملأشى في القصور والبساتين ، فلا يفكر في الخلافة .

وكان يجامله بين الحين والآخر بالدعوة للقاء أو الذهاب لزيارته بين بساتينه وفي قصوره .

ولكن الأمور مع هذا لم تستقم تماماً فيما يبدو بين الأخوين ، وانتهت بأن أحس الخليفة نزار بشيء ما يدبر له من أخيه ، فأمر بإبعاده خارج مصر حتى يتلمش على نفسه وعرشه ، وبخاصة أن أعوان السوء ينتهزون دائما مثل هذه الظروف لدفع الشك في النفوس لتتقرب من صاحب الكرسي أو الطامع فيه على حد سواء عسى أن ينالوا مايطمحون إليه من مكاسب .

ونسلم في شعر تميم أصداء لهذا كله على ما سنعرضه بعد .

وهكذا تولى نزار خلافة النباطيين إذا بعد وفاة المعز سنة ٣٦٥ هـ ، وكانت ولادته بالمهدية ، وجاء إلى مصر صحبة أبيه شاباً .

وكان شاباً أسمر طويلًا فارغاً أصهب انشعر عريض المنكين ، حلو العشرة ليس فظلاً ، ولا غليظاً ، بل مجاملاً ، متسامحاً عادلاً . حلوماً وقوراً . كثير العفو ، لا يؤثر سفك الدماء .

وكان فارساً ، عارفاً بائخيل ، محباً للأبهة وحياة الرفاهية ، ميالاً لبناء القصور واقتناء الجواهر .. ابتدع نوعاً من العمامم المحلاة ببيوط الذهب وسروجاً معطرة بالعنبر ، واقتنى كثيراً من الطرف يزين بها مواعده .

جعل نقش خاتمه : « بنصر العزيز الجبار يتنصر الإمام نزار » -

وكانت أيامه بمصر أيام دعة ونعمة .

وشغف العزيز بالصيد ، واقتنى جوارح الطير لذلك ، كما جلب الطيور ونادر الحيوان من السودان لقصوره وبساتينه .

وكانت له إلى جانب هذه الهوايات دراية واسعة بالعلوم والآداب وبقول الشعر ، وكانت له كآبائه مجالس علم ووعظ .

واعتاد دخول مجالسه العزيز والدليل ، والقوى والضعيف ، فذاك يسمع علمه ووعظه ويأخذ ، وهذا يسأل نواله فيعطى فوق مايسأل . وقد يشكو إليه المظلوم من ظلم فيعاقب ظالمه بظلمه .

وأمر بالمجالس التي تعقد في القصر بأن تُدَوَّن وتقرأ على المؤمنين بالعقيدة الفاطمية . واستطاع نزار بهذه السياسة الحكيمة ، والعدل ، والانصاف أن يكسب ثقة رعيته من المصريين وغيرهم في سائر البلاد ، وأن يحصل على مودتهم والاستكانة إلى حكمه ، فأمن الداخل ، وفرغ للملاقة أعدائه خارج البلاد .

وقرب نزار النصارى واليهود في مصر ، ولعله رأى في ذلك سياسة تكسر حدة النزاع الديني بين الطوائف ، بل إنه تزوج أخت أحد البطارقة ليزيد الفوارق الدينية ، أو يخفف من حدتها وليكسب ود النصارى ومن يساندتهم من القوى الأخرى خارج البلاد ، وكان في حاجة إلى أن يكسب ود بيزنطة ، أو أن يهادنها ، حتى يستطيع أن يبنى الدولة دون الحاجة إلى صدام يضيع ثروتها ويبدد امكاناتها . ولعله استطاع أن يبلغ غايته تلك ، بل وأن يعاهد بيزنطة على حماية المسلمين في بلاد الروم والبلاد الخاضعة لهم ، وإحقاق حقوقهم عملاً بالمثل .

ولم يكن بعيداً عن أذهان الفاطميين وغيرهم من حكام المسلمين أن بيزنطة وقياصرة الروم كانوا يدعمون النصارى في بلاد الاسلام ، ويعتبرون أنفسهم حماة للنصرانية فيها .

ولعل في تقريب نزار للنصارى واليهود من المصريين وغيرهم هدفاً آخر هو الإفادة من خيراتهم الإدارية والمالية لمعرفة المتوارثة من قديم بشعون هذه البلاد منذ ما قبل العصر الإسلامي .

ولّى عيسى بن نسطورس كتابته ، واستناب بالشام منشأ اليهودى فاعتز بهما
النصارى واليهود — كقول المؤرخين (١) — وآذوا المسلمين . فعمد أهل مصر وكتبوا
قصة (شكوى) وجعلوها فى يد صورة عملوها من قراطيس (ورق) فيها قولهم
« بالذى أعز اليهود بمنشأ ، والنصارى بعيسى بن نسطورس ، وأذل المسلمين بك إلا
كشفت ظلامتى . » ، وأقعدوا تلك الصورة على طريق العزير والرقعة بيدها ، فلما
رآها أمر بأخذها ، فلما قرأ ما فيها ورأى الصورة من قراطيس علم مأربد بذلك ، فقبض
عليهما — على منشأ و نسطورس — وأخذ من عيسى ثلاثمائة ألف دينار ، ومن اليهود
شيئاً كثيراً . » .

واعتمد نزار سياسة خارجية حازمة مع أعدائه فى المشرق والمغرب ، وكانت فى
عهده أمور المغرب مستتبة إلى حد ما ويتولاها نائبه فى القيروان باديس بن زبرى
تصباحى . أما المشرق فقد وقف فيه بصلابة فى وجه أعدائه من القرامطة والأتراك
والحمدانيين ومن وراء هؤلاء جميعا العباسيون ، كما نكل ببعض زعماء العرب ورؤساء
القبائل من طى وكلاب وغيرها وهدانهم أحيانا ، واحتوأمهم .

وواجه الروم بالحرب البحرية والبرية ، أو بالمهادنة والمسالمة .

وكانت حملاته بالشام وبعض بلاد الجزيرة العربية قد انتهت بتأكيد نفوذ الدولة
الفاطمية على معظم بلاد الشام والجزيرة الفراتية والحجاز واليمن . وقاد فى حياته
حملة للزحف على أملاك الدولة العباسية ، وكان يطمع بهيمته إلى إسقاطها وإقامة الدعوة
الفاطمية فى بغداد .

ولكن العمر لم يمتد بالعزير نزار طويلاً ، فقد توفى فى بلبس وهو على رأس جيشه
الزاحف إلى الشام سنة ٣٨٦ هـ بعد أن تولى الخلافة واحداً وعشرين عاماً وخمسة أشهر
ونصفاً ، وكانت سنه عند وفاته اثنتين وأربعين سنة وثمانية أشهر .

الحاكم بأمر الله المنصور بن نزار

وشخصية الحاكم أشهر شخصية تولت الخلافة بعد المعز ، بل لعل شهرته فاقت

(١) راجع الكامل لابن الأثير ٧٧٧

شهرة جده ، لما أحاط بهده الشخصية وسيرتها من عموض وروماسية -عند موضوعاً لكثير من الروايات الغريبة التي تبعث على الخيال والشطط فيه .

وأما شخصه فقد روى المؤرخون أنه كان ضخم البناء ذا وجه تشوبه سمرة مختلطة بالبياض ، ذا عيني واسعتين انساناهما يختلط فيهما السواد بالخنضرة ، ذا وجه مصرى عربى تتجاذبه ملامح الهيبة والسماحة والزهد والانصراف عن الدنيا بالقسوة والصرامة .

ولد الحاكم لأم مصرية ملكانية نصرانية اسمها « تغريد » ، وكان أخوها بطيركين من بطاركة النصارى .

وكانت أمه تجمع بين الجمال الفائق وقوة الشخصية ، مما بهر الخليفة نزار فاتخذها أم ولد أنجبت له بنتا هى ست الملك ، وابنا هو المنصور الذى سمى الحاكم بأمر الله .

وحاول بعض المؤرخين نفى ولادة الحاكم لهذه السيدة النصرانية إلا أن الرقائق وثقاة المؤرخين يشتون أمومتها للحاكم وست الملك .

ولا يمنع شىء من صحة هذا النسب ، ولاصحة زواج العزيز نزار من السيدة النصرانية الملكانية « تغريد » لتلد له ست الملك والحاكم .

فإن ظروف الفاطميين فى مصر وسياستهم المتسامحة مع النصارى واليهود وماعرف عن تلقى العزيز العلم على يد بعض الاساتذة من نصارى المصريين قبل تولية الخلافة . كل هذا يدعو إلى القول بأن زواج العزيز لهذه المرأة المصرية النصرانية أمر قائم غير مستغرب .

وشخصية الحاكم بغرابتها ، وتصرفاتها بين الزهادة والانصراف عن الدنيا والرغبة فى سلام الرعية والعطف عليهم ، والتردد بين الأحكام بما يصل إلى درجة التناقض أحيانا بين الأمر بالفعل وعكسه كل هذا يغلب الاحتمال بتأثير أمه النصرانية ، وعقائد النصارى ، وبخاصة أنه اعتاد أن يرتاد فى أثناء ولايته ديرا بجبل المقطم عرف بدير القصر ، وأنه كان يلبس الصوف وخشن الثياب كزهاد النصارى ورهبانهم ، ويركب حماراً أبيض ، ويصر على اتخاذ الحمار مركبا له فى غدواته وروحاته ، ومعلوم تلك الصلة بين الحمار والعائلة المقدسة والمسيح عليه السلام ، وقد احتفظت الصور فى بعض الكنائس ودور العبادة المسيحية بهذا الحمار فى صحبة المسيح وأمه .

كانت شخصية الحاكم إذا كما يروى التاريخ ملاحظها وسيرتها متناقضة الطابع والسلوك بين القسوة وشدة البطش والميل إلى القتل وسفك الدماء ، وأخذ المذنبين بالقوة على عكس آبائه العزيز والمعز ، وبين الطيبة والزهادة في حياة الملك وترف الخلافة كأبيه نزار ، والانصراف عن بهرج الحياة ، والخلوة إلى بيعة ينصرف إليها في المقطم وحده ، لا يشاركه سوى خادم وحمارة الأبيض .

كما عرف الحاكم بالعطف على الفقراء ، والتسامح مع عامة الناس وكثيراً ما حاول رفع المعاناة عنهم ، بتعقب اللصوص ، والمغالين من التجار ، وإجزال العطاء .

وهذا إلى تدينه وتزمته أحياناً في سلوكه الدينى مع رغبته الملحة في العلم ، وتشجيع العلماء . ولهذا بنى دار العلم المعروفة بدار الحكمة بالقاهرة . وأنشأ كثيراً من المساجد ومنها مسجد الحاكم المعروف بالمسجد الأنور ، ومساجد أخرى في أنحاء القاهرة . وتعمير كثير مما هدم أو هجر من المساجد القديمة كجامع عمرو بالفسطاط .

وصفه بعض المؤرخين بالجنون لما أصدر من أوامر وقرارات وأحكام ، وما عرف عنه من صور السلوك التي بدت في عيون الناس غريبة من خليفة للمسلمين وحاكم له تلك المكانة وله ذلك السلطان الواسع ، ويمكن أن يكون انطباع الناس لأول وهلة تلك الغرابة والشذوذ ، إلا أنهما ربما انطوت بعد تأنى الفكرة ، وأعمالها على عمق في الفهم ، وحكمة . أو لعلها تكون صادرة عن عقيدة لدى الحاكم ونظرة خاصة ذاتية لها مبرراتها ودوافعها .

وحمل عليه المؤرخون ، والمعارضون له ولعقيدة الفاطميين ودولتهم كثيراً من التصرفات والأفعال التي قد تصلم العقل ، ولا تتفق وسيرة الرجل العامة وظروف حياته كما قيل عن إحراقه بيع النصارى وكنائسهم ، أو ما قيل عن حرقه للقاهرة التي بناها جده ، وشيد هو نفسه أو أمر بتشييد كثير من عمائرها ، وحرص على جعلها لائقة بعاصمة الخلافة حتى تنافس بغداد عاصمة العباسيين منافسهم التقليديين .

واتهم الحاكم أحياناً بادعاء الألوهية . وهناك وقائع يرويها المؤرخون تبدد هذا الادعاء وتكذبه منها ما ثبت من أقوال بعض المؤرخين كالمقرئى من أنه أخذ من حاول ذلك أخذاً شديداً ، ويذكر هذا الموقف بما وقفه عبد الله بن سبأ من ادعاء الوهية على بن أبى طالب وفتك الإمام به .

ولانريد أن نخوض في جوانب شخصية الحاكم فتحاول اتهامه أو الدفاع عنه ، فة
تولى بعض الباحثين هذا الأمر حتى تعود الصورة المشوهة التي حاول معارضوه رسمها
إلى الصورة الصحيحة أو القريبة منها على قدر الاجتهاد .

ولاشك أن الحاكم كان خليفة يملك الذكاء والدهاء والفتنة إلى جانب السياسة
والحزم ، واتخاذ القرار المناسب ، وإلا تفلتت أجزاء الدولة من بين يديه ، وقد ورا
الحكم صيباً ، وأمكنه الحفاظ على البلاد في أقسى ظروف واجهتها من ثورات داخلية قا
بها العربان في غربي الدلتا وصعيد مصر ، ومهم عرب ببي قرة ، أو حروب خارجي
وإنتفاضات بالمغرب كتلك الثورة العارمة التي قادها « أبو ركوة » الأموي وتبعه جماع
من أهل السنة ممن لم يرتضوا مذهب الشيعة الإسماعيلية ، وعززوا أبا ركوة في المغرب
فهزم جيوش الحاكم مرة أثر مرة حتى هاجم حدود مصر الغربية وتوغل في البلاد
واكتسح أمامه الفيوم وبعض مدن الصعيد ، وكادت أن تستنق مصر في يده لولا حزم
الحاكم ودهاؤه وتماسكه وصبره وشجاعته حتى تمكن من عدوه فهزمه بالصعيد ، وقبض
عليه وقتله بعد أن شهر به في القاهرة .

كذلك واجه انتفاضات بلاد الشام ، وعداوة بني الجراح من طى بيادية الشام
وفلسطين ، كما واجه الحمدانيين ، وبني مرداس الكلابيين بالجزيرة وحلب ودمشق .

كل هذا فعله الحاكم واستطاع أن ينجو بملكه من تلك العواصف العاتية ، وأن يسلم
الخلافة إلى ابنه الظاهر لإعزاز دين الله سنة ٤١١ هـ بعد أن اختفى هذا الاختفاء
الغريب والأسطوري الذي فتح المجال أمام كثير من الظنون ، وكثرت حوله الأهاجيس
حتى ظنوه رفع إلى السماء !! في صحراء المقطم .

قضى الحاكم في الخلافة خمساً وعشرين سنة واختفى وعمره ست وثلاثون سنة
٤١١ هـ . وتولى ابنه الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن على بعد فترة من الزمن تحققوا
فيها من عدم عودة أبيه ، وتولت ست الملك شؤون الدولة ، وكان عمر الظاهر عند توليه
سنة عشر عاماً .

وظلت ست الملك عمه الظاهر وصية عليه حتى سنة ٤١٥ هـ حين توفيت ، وكانت
أظهرت من الحكمة في ادارة شؤون الخلافة ماحفظ البلاد ، وانفرد الظاهر بعدها
بالسلطة

قال فيه صاحب عيون الأخبار (١) ونشر أمير المؤمنين الظاهر لاعزاز دين الله عدله وعرف كل الناس فضله ، وقامت به قواعد الملة ، واستقامت الأمور على ساق ، وأحمد الله ناجم البغي والعدوان ، وانتظمت له الأحوال ، ونال به أهل دعوته الآمال وأكثر عليهم من الأنعام والأفضال ، ودانت جهات المملكة ، ولم يعانده فيها معاند خوف الجزاء والهلكة ، وأيد الله به دينه ، وأظهر حججه وبراهينه . وظهرت دعوته لشيراز وأرض فارس والأهواز .

ولم ينتفع بالخلافة طويلاً فقد مرض بالاستسقاء ، ومات بعد أن انفرد بالحكم اثنا عشرة سنة بعد وفاة عمته . وكانت وفاته سنة ٤٢٦ هـ . .

وكان الظاهر مترخصاً في دينه ، لا كأبيه مترمماً متعبداً ، قيل عن سيرته في رعيته إنه كان جميل السيرة حسن السياسة ، منصفاً للرعية ، وعن سيرته الخاصة أنه كان منصرفاً إلى لذاته من شرب للخمر وسماع للغناء ، كما رغب الناس في الشراب واللهو وأغفل شئون الحكم ومتابعة مهامه ، وأوكلها إلى وزيره الجرجاني . فكان هذا بداية لحكم الوزراء . وتسلطهم على شئون الدولة ، وعزل الخلفاء عنها . وقد استشرى هذا الوضع بعد ذلك في عهود خلفائه : المستنصر ومن تبعه . وصار حكام مصر الحقيقيين أولئك الوزراء الكبار وتلقبوا بالسلطين ، وجرى على خلفاء الفاطميين ماجرى على خلفاء بنى العباس من تحكم الخدم والقادة وكبار الوزراء من الأتراك والفرس والعرب . كذلك كان الحال في عهد الظاهر حيث ضعف سلطان الخليفة وقلت هيئته ، وتحكم جماعة من الخدم وقادة الجند على ما يروى أحد مؤرخي العصر المُسبَّحى عمن يدعى شمس الملك ، وهو سوداني أسود من موالى الخلافة وخدم القصر تدرج بتقربه من السيدة والدة الخليفة حتى حظى بالسلطان وصار متصرفاً في كثير من الشئون .

وواصل الظاهر سياسة جدته في التأنق ، والحب للأبهة ، فاستكثر من الخدم والجواري ، وأحب الغناء ، واحتفظ بالجوارى المغنيات ، وشغف بفخامة اللباس ، قلبس الثياب الموشاة بالذهب ، والعمائم المطرزة به . واتخذ المراكب الفخمة ، من الخيل ، تكسى بأغشية من الوشى . واستكثر من شراء الجوهر .

(١) عيون الأخبار ص ٣١٨ .

ورغم هذه المظاهر من الثراء والأبهة للخليفة وحاشيته من الوزراء والأمراء والخدم ، ونساء القصر ، وماتنعم فيه القصور من كل ما يعجب العين ويلذ النفس ، فإن أحوال الناس في عهد الظاهر قد تقلبت ، وتغيرت بين مسرة وألم ؛ وبين نعيم وشقاء .

فقد منى الناس في أول سنة لانفراذه بالحكم بالضييق في العيش ، واكتناز بعض ذوى النفوذ للمال على حساب عامة الشعب ، وقيام بعض ذوى النفوس الضعيفة باحتجاز بعض الأموال بالباطل تحت رقابة ذوى النفوذ والسلطة ، مما اقتضى الخليفة إصدار منشور يحذر فيه من ارتكاب تلك المخالفات والجرائم في حقوق الناس والتستر وراء ذوى القرى من أصحاب النفوذ أو الخطوة بالقصر .^(١)

كذلك حدثت بعض الفتن نتيجة اضطراب الأمن في عام ٤١٥ هـ .

يقول المقرئى :

« وفي هذه السنة كثر الخوف من الزغار التى تكبس ، حتى إنه لما عمل السماط في عيد النحر بالقصر كبنس العبيد على السماط وهم يصيحون : الجوع !! ونهبوا سائر ما كان عليه .

ونهب الأرياف وكثر طمع العبيد ونهبهم وجرت أمور من العامة قبيحة ، واجتمع نحو من ألف عبد لنهب البلد من الجوع فنودى بأن من تعرض له أحد من العبيد فليقتله » . وندب جماعة لحفظ البلد ، واستعد الناس ، فكانت نهبات بالساحل ووقائع مع العبيد احتاج الناس فيها إلى أن خندقوا عليهم خنادق ، وعملوا الدروب على الأزقة والشوارع » . قال المقرئى : « وانقضت السنة (٤١٥ هـ) والناس في أنواع البلاء . »^(٢)

وهذا الفساد الذى اشترك فيه بعض خدم القصور والعبيد دعا الظاهر إلى إصدار منشور بالتحذير والأخذ بالشدّة على يد كل من تسوّّل له نفسه الخروج على النظام من رجال القصر أو خدمه وعبيده يقول فيه :

(١) ذكره المسبحى ص ٢٤/٢٣ تحقيق وليم ج ميلورد طبع الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٠ ونقله المقرئى في الانعاط

١٣٣/٢

(٢) المخطوط ٣٥٥/١

« إلى سائر الحاضرين من أنصار الدولة وجنودها ، وسائر المائلين فيها من خدم المملكة وعبيدها ينهى جماعتهم عن قبول منتسب إليهم أو متطرح عليهم لا اسم له في الجرائد المجلدة ، ولا رزق له في العطايا المقررة ، وإسقاط من هذه سبيله ، ووضع اسمه ، وحذف ذكره ، وإزالة رسمه ، والإضراب عن الخطاب بنسب أحد منهم في حد أو حق أو دم ، إذ كان أمير المؤمنين — محله من الإمامة ، ومكانه من الخلافة — يأخذ في الحق من القوى للضعيف ، ومن الشريف للمشروف ، ولاتأخذه لومة لائم في إقامة حد الله — جل وعز — على واجبه المحتوم حتى تهذب كل طائفة من الدخلاء والأوغاد ، وتتميز كل قبيلة من أهل الربوب والفساد ... ولتحقق الجماعة أنه من تجاوز مائسئ في هذا السجل فقد تعرض لغليظ الإنكار ، ووجب عليه ما يجب على أهل الإصرار بعد الإعدار والإنذار » (١) .

كذلك فإن إباحة الظاهر للناس التمتع بالملاهي والتحرر بعض الشيء بعد سنوات من الكبت عانوها في عهد الحاكم جعلهم يتأدون ، ويسرفون ، فيقع منهم القبيح في الفعل والسلوك ، والاستهتار بالحرمت ، وعدم مراعاة الشعور العام ، والقيم الإسلامية التي تحكم المجتمع مما دفع بالظاهر إلى إعلان منشور أو سجل آخر بالكف عن تلك الأمور الخلة .

يقول المسيحي إنه في يوم الجمعة لست خلون من رجب سنة ٤١٤ هـ قرىء في الأسواق بمصر (الفسطاط) سجلٌ برفع المناكير وترك التظاهر بشيء منها ، وألا تخرج النساء بعد العصر إلى الطرقات بالقرافة للتنزه ، وأن تنزه هذه الأشهر — الحرم — الشراف من المناكير ، وأن لا يجتمع الناس كما كانوا يجتمعون بالجيزة ولا بالجزيرة ولا بالقرافة على شيء من المحظورات ، وأن يمنع الغناء ظاهراً أو التشهير بشيء منه إلا الغناء بالقصبة (يعني الأرغول — والمزمار — والشبابة) لاغير ، فإنه مباح . » (٢) .

والمخفف النبل في هذه السنة نفسها فعانى الناس من شح الأقوات ، واضطر الظاهر إلى أخذ اصحاب الخنايز وتجار الغلال وسائر الأقوات بالشدة حتى يخرجوا مالدتهم ، ولا يرهقوا الناس بما يتقاضونه من سعر غال .

(١) أخبار مصر في سنتين للمحاسبي ص ٢٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٤ .

وانقضت سنوات الظاهر مجلوها ومرها ، وإن غلب عليها بسطة العيش وأعقبه ابنه المستنصر .

المستنصر بالله أبو تميم معد بن الظاهر

رآه ناصر خسرو في احتفال الخليج بدء حكمه ووصفه بأنه شاب صغير حسن الوجه حليق اللحية تولى بعد وفاة أبيه ، وقد وافق اسمه وكنيته ، اسم جده الكبير المعز وكنيته ، ولكن شتان بين الرجلين والعصرين . تولى المستنصر سنة ٤٢٧ هـ وعمره سبع سنين وحكم ستين سنة وأشهرأ ، وتعد مدة حكمه أطول ماحكم الفاطميون وكانت سنى حكمه الطويلة هذه كمايقول المقرئى جامعة لغرائب الأحوال والأحداث قال : وكانت خلافته فيها أنباء وقصص شنيعة بديار مصر .

كانت أم المستنصر أمة سوداء لتاجر يهودى ، ولما ولى ابنها صبيأ كانت تتدخل في شئون الدولة كما كانت تفعل بعض نساء القصر مثل ست الملك ، وأم الظاهر فكانت كذلك أم المستنصر تدس أنفها في أمور الحكم ، وتتدخل في أعمال الوزراء وكبار رجال الدولة ، بل وتعمل على تقريب واحد وإبعاد آخر ، وتعين فلان ، وإقالة علان .

وشهدت خلافته بداية الضعف في خلافة الفاطميين ، وضياح هيبة الخلفاء . كما شهدت كثيراً من الكوارث والنكبات التى حلت بالناس والدولة ، فقد أصاب الناس الفقر بعد الغنى ، والبؤس والشقاء بعد البهنية والنعيم ، فحدثت المجاعات وقصر النيل عن مده عدة سنوات : سنة ٤٤٤ هـ ، وسنة ٤٤٦ هـ فنال الناس بؤس شديد ، وحدثت تلك الشدة المعروفة في التاريخ بالشدة المستنصرية حتى أكل الناس الحيوان من القطط والكلاب ، بل تعدى هذا إلى أكل بعضهم بعضا كما تروى بعض الروايات .

وفى عهده غلب الوزراء على الخلفاء ، وكان من كبار وزراء العصر اليازورى ، وبدر الجمالى ، والأفضل بن بدر الجمالى ، ويقال أنه تعاقب فى عصره أكثر من ثلاثين وزيراً .

وغلب — كما يقول المقرئى — الرعاع على القصر فاضطربت سياسة الخليفة ، وتقلبت به الأحوال ، وتناقضت القرارات ، وتزعزعت أركان الدولة بكثرة التغير فى الوزراء والقادة .

يقول المقرئى فى أحداث سنة ٤٥٣ هـ :

« وفى سنة ثلاث وخمسين كثر صرف الوزراء والقضاه وولايتهم لكثرة مخالطة الرعاع للخليفة ، وتقدم الأراذل بحيث كان يصل إليه فى كل يوم ثمانمائة رقعة فيها المرافعات والسعايات ، فاشتبهت عليه الأمور ، وتناقضت الأحوال ، ووقع الخلاف بين عبيد الدولة ، وضعفت قوى الوزراء عن التدبير لقصر مدة كل منهم ، وخربت الأعمال وقل ارتفاقها ، وتغلب الرجال على معظمها مع كثرة النفقات والاستخفاف بالأمر وطغيان الأكابر إلى أن آل الأمر إلى حدوث الشدة العظمى ، وكان من قديم أمير الجيوش بدر الجمالى فى سنة ٤٦٦ هـ وقيامه بسلطنة مصر .

فلم يزل المستنصر مدة أمير الجيوش ملجماً عن التصرف إلى أن مات سنة ٤٨٧ هـ فأقام العسكر بعده فى الوزارة ابنه الأفضل شاهنشاه فباشر الأمور يسيراً ومات المستنصر سنة ٤٨٧ هـ بعد تولى الأفضل .

وحدثت فى عهده أحداث داخلية جسام غير تلك الشدة العظمى ، هدمت من أركان الدولة وزعزعت استقرارها . منها انتفاضة بنى قرة سنة ٤٤٣ ، وهم من الأعراب ذوى القوة فى غربى البلاد كانوا بالبحيرة وزحفوا إلى الفيوم وصعيد مصر ووصلوا فى ثورتهم على المستنصر إلى بر الجيزة وهددوا القاهرة .

ولقى المستنصر كثيراً من المتاعب الخارجية رغم أن سلطان الدولة فى عهده بلغ بغداد ، ودعى له على المنبر فيها بعد استيلاء البساسيرى على شؤون الخلافة العباسية لكن الأمر لم يدم طويلاً ، فسرعان ماعاود الأتراك الكرية ، وأعادوا العباسى إلى كرسية .

وبدأت فى عهده موجة الحروب الصليبية ، واستولى الصليبيون فى أخريات عصره على أجزاء من الشام بمعاودة بيزنطة .

ونخلع المغرب ولاءة للدولة ، وأعلن المعز بن باديس استقلاله والدعوة لبنى العباس من جديد ، واحلال مذهب أهل السنة محل مذهب الفاطميين الذى فرضوه على تلك البلاد مدة قوتهم . وقد دعا هذا العمل من بنى صنهاجة حكام القيروان إلى أن يطلق الخليفة بايعاز من الوزير البازورى قبائل بنى هلال وبنى سليم من صعيد مصر ليزحفوا على القيروان انتقاماً من المعز بن باديس . وتم لهذه القبائل الاستيلاء على كثير من ملك

الصنهاجيين وتخريب القيروان . وخلدت تلك الهجرة العربية في ملحمة « بنى هلال » الشعبية التي تتردد على ألسنة الشعراء الشعبيين في سعيد مصر .

ويرجع ابن الأثير أسباب ضعف الخلافة في عهد المستنصر إلى عدة أسباب منها : أن والده الخليفة في بدء عهده كانت غالبية على أمره ، وأنها اصطنعت التسترى اليهودى فصار وزيراً لها ، وأصبحت تدسّ لقتل من لا يعجبها من الوزراء وتولّى من تريد حتى ولى الوزير اليازورى ، فلم يخضع لها وقتل ثم وزر بعده البابلى .

ونشوب النزاع بين العبيد السودانيين والأتراك من جند الخلافة ، وكانت أم المستنصر تغرى السودانيين من بنى جنسها بالأتراك ، بينما كان المستنصر ينتصر للاتراك على السودانيين 11 . وحدثت بين الفريقين معارك طاحنة خربت لها البلاد . وهزم السودان ، وانتصر الأتراك فطالبوا برواتبهم ، وكانت خزائن القصر خاوية ، فاعملوا النهب وسيطروا على القاهرة وماحولها ، وانهمز السودان إلى الصعيد ونهبوه وسيطروا عليه .

كما أن ناصر الدولة الحمداني جاء إلى مصر ، وشارك في كثير من الأحداث العظام التي أفضت مضجع الخلافة الفاطمية قبل وصول بدر الجمالى ، بما أعمل من الفساد وارتكب من الآثام ، ومادار بينه وبين غيره من الفئات من قتال .

وهكذا انقضى عهد المستنصر والخلافة الفاطمية في مصر قد ثلثت عروشها ، وانزوى الخليفة في قصره لايملك من أمره شيئاً ، بل يملك أمره غيره من الوزراء ، وتسلطن الوزراء ، وامسكوا بأيديهم زمام الحكم كما فعل البويهيون والسلاجقة بخلفاء العباسيين في بغداد . والتاريخ يعيد نفسه ، وتتكرر الأسباب والمسببات التي تؤدى إلى النتائج نفسها في ضعف الدول وانكسار شوكتها .

ومات المستنصر ولا حول له ولا قوة سنة ٤٨٧ وكان عمره سبعاً وستين سنة وتولى بعده ابنه المستعلى .

المستعلى

وتولية المستعلى بالله كانت بمؤامرة من الوزير الأفضل ، لأنه كان ابن أخته ، فأقامه بدلاً من نزار الذى كان مستحقاً للخلافة بتوصية أبيه المستنصر .

يروى ابن سعيد خير وصية المستنصر لنزار ولده دون المستعلي بالله أبو القاسم أحمد فيقول : (١)

« وصل إلى المستنصر الحسن بن صباح القائم بدعوة الاسماعيلية النزارية في زى تاجر فكلمه في إقامة الدعوة له في بلاد العجم ، فأذن له في ذلك سراً . فأظهرها ابن صباح واستولى باسمه على القلاع والبلاد . وقال المستنصر : ومن إمامي بعدك ١٩ فقال : ابني نزار — وهو أكبر أولاده ، فخطب له وقام بدعوته . فلما مات المستنصر عدل الأفضل الوزير عن إقامة الدعوة لنزار وأقامها لأخيه المستعلي وثار نزار بالاسكندرية ، وبايعه أهلها وسموه : « المصطفى لدين الله » فخطب لنفسه ولعن الأفضل ، وتجهز الأفضل له ، فحصره بالإسكندرية ، وجاء به أسيراً إلى المستعلي ، فبنى عليه حائطا فمات .

واحتال ابن صباح في وصول بعض أولاد نزار إليه ، فوصل وأقام دعوته .

وكان المستعلي قد ولد سنة ٤٧٦ هـ وبويع له بعد موت أبيه على ما ذكرنا وله من العمر عشرون سنة وقضى في الخلافة سبع سنين ، وظل الأفضل خاله وزيراً له ومستولياً على البلاد طوال مدة خلافته . وتوفى سنة ٤٩٥ هـ .

وخلفه ابنه الأمر وكان صبيياً في الخامسة من عمره ، ووزيره آنذاك الأفضل المتحكم في دولته .

وظل الأمر بيد الأفضل حتى قتل سنة ٥١٥ هـ ، فوزر له من بعد المأمون البطائحي فاستولى عليه كذلك وأساء السيرة فقتله الآخر سنة ٥١٩ هـ وقتل معه خمسة إخوة .

وكان من سياسة الأفضل وغيره من وزراء الدولة الذين استبدلوا بالأمر منذ عهد المستنصر أن يشغلوا الخلفاء الصغار باللهو والملاذ ، وأن يغر قوهم في مثل تلك الأمور لتبعدهم عن مهام الملك .

ويصف المقرئى استيلاء الأفضل على المستعلي ابن أخته فيقول : (٢)

« وبويع بالخلافة سنة ٤٩٠ هـ يوم مات أبوه وهو طفل ، فأحضره الأفضل ابن أمير

(١) النجوم الزاهرة في حل حضرة القاهرة تحقيق د . حسين نصار ص ٨٠ .

(٢) الخفض ٢٩٠/٢

الجيش ، وبيع له ^(١) ونصبه مكان أبيه ، ونعتة بالآمر بأحكام الله ، وركب الأفضل فرساً ، وجعل في سرجه شيئاً مرتفعاً وأركبه عليه لينمو شخص الأمر ، وصار ظهره في حجر الأفضل ، فلم يزل في حجره حتى قتل الأفضل ليلة عيد الفطر سنة ٥١٥ . « .
 فقال المقرئى : « فاستوزر الأمر بعده القائد أبا عبد الله محمد بن فاتك البطائحي ولقبه المأمون ، فقام بأمر دولته إلى أن قبض عليه ليلة السبت رابع شهر رمضان سنة ٥١٩ هـ . ففرغ للأمر بنفسه ، ولم يبق له ضد ولا مزاحم ، وبقي بغير وزير ، وأقام صاحبي ديوان أحدهما جعفر بن عبد المنعم ، والآخر سامريُّ يقال له يعقوب بن إبراهيم ومعهما مستوف يعرف بابن أوى نجاح كان راهباً ثم تحكّم هذا الراهب في الناس وتمكّن من الدواوين ، فابتدأ في مطالبة النصارى ، وحقق من جهاتهم الأموال وحصلها أولاً فأولاً ، ثم أخذ في مصادرة بقية المباشرين والمعاملين والضمضاء والعمال ، وزاد إلى أن عم ضرورة جميع الرؤساء والقضاة والكتاب والسوقة بحيث لم يخل أحدٌ من ضرره ، فلما تفاقم أمره قبض عليه الأمر وضربه بالنعال حتى مات !! ، فجرُّ إلى كرسي الجسر وسمر على لوح وطرح في النيل وجذف حتى خرج إلى البحر المالح » .

وكان الأمر شاباً أسمر شديد السمرة ، — لعله لجدته أم أبيه — حفظ القرآن صغيراً كعادة غيره من أبناء الخلفاء .

وكان يعشق اللهو والغناء ، ويقول الشعر . ومن شعره :

دع اللوم عنى لست منى بموثق فلا بدلى من صدمة المتحسّق
 فأسقى جيادى من فرات ودجلة واجمع شمل الدين بعد التّفسّق

ومنه :

أما والذى حُجّث إلى ركن بيته جرّائم ركبّان مقلّدة شُهّهّا
 لا تقمّن الحرب حتى يقال لسى ملكت زمام الحرب فاعتزل الحربا
 وينزل روح الله عيسى بن مريم فيرضى بنا صحباً ونرضى به صحبا

وأحب الأمر فتاة بدوية ، فشغف بها ، وبنى لها منظره بجزيرة الروضة سميت

(١) لم يكن من عادة الفاطميين عند إقامة الخليفة أحد البيعة له ، لأن قيام الخليفة الحديد كان يوجب من الخليفة القائم أو السابق ، إذ الخلافة عندهم إمامة بالروحية لا بالبيعة .

« المودج » وكان يعبر إليها الجسر الممتد على النيل من بر الفسطاط إلى الجزيرة .

وكان يحب النزهة والاستمتاع بالغناء والطرب ، ومركبه للنزهة يوماً السبت والثلاثاء من كل أسبوع ، ويركب عشاريه ومن حوله اتباعه في الخليج حتى قصر اللؤلؤة .

وقام ببعض التغييرات والإصطلاحات الإدارية مخالفاً ماجرت عليه عادة آباءه من الخلفاء ، فبعد أن عزل المأمون البطائحي امتنع عن تولية وزير حتى لا يستبد بالأمر وأعاد للخلافة قوتها وامتلك أمور المملكة بنفسه .

قال المقرئى : « وهو الذى جدد رسوم الدولة ، وأعاد إليها بهجتها بعد ما كان الأفضل أبطل ذلك . وتقل الدواوين والأسمطة من القصر بالقاهرة إلى دار الملك بمصر (الفسطاط) . »^(١)

« وكان الأمر — كما قال المقرئى — كريماً ، سمحاً إلى الغاية ، محباً للمال والزينة ، وكانت أيامه كلها هوراً وعيشة راضية لكثرة عطائه وعطاء حاشيته بحيث لم يوجد بمصر والقاهرة إذ ذاك من يشكو زمانة البتة إلى أن نكذ بالراهب على الناس ، فقبحت سيرته ، وكثر ظلمه واغتصابه للأموال . »

وكثرت المرافعات فى أيامه وأحدثت رسوم لم تكن « وعمرت بعض الأماكن بالجزيرة وتيس ودمياط .

وكان من رجال دولته المشهورين القاضى الجليس بن نعمة الله بن بشير الناهلى ، كما كان من كتاب انشائه سناء الملك أبو محمد الزيدى الحسنى ، والشيخ أبو الحسن بن أبى أسامة ، وتاج الرياسة أبو القاسم على بن منجب الصيرفى ، وابن أبى العرم اليهودى .

وكان نقش خاتمه : « الإمام الأمر بأحكام الله أمر المؤمنين »

رغم أن معظم أيامه كانت رخاء ، إلا أن مصادراته للأموال فى عهد ولاية الراهب كما يقول المقرئى أوقعت الناس فى الخوف والحاجة ، كما أن الغلاء اشتد فى آخر دولته فكان ذلك مما أقلق الناس .

(١) المعط ٢٩١/٢ .

ويتهمه المقرئى رغم مدحه له بالسماحة والأدب بالجرأة على سفك الدماء وارتكاب المحظورات واستحسان القبائح .

وساءت أحوال الدولة الخارجية فى عهده ومنيت بعدة هزائم من الأعداء فقد هاجم الصليبيون بمعاونة الروم البيزنطيين كثيرا من بلاد الشام وثوروه واستولوا على بعض المعاقل والحصون ، فملكك عكا فى شعبان سنة ٤٩٧ هـ وغزة فى رجب سنة ٥٠٢ ، وطرابلس فى ذى الحجة سنة ٥٠٢ هـ ، وبانياس وجبيل وقلعة بنين بعدها وظلوا يتقدمون ويستولون على البلاد بلداً بعد الآخر حتى سقطت صور سنة ٥١٨ هـ .
وتحتها الهزائم النكراء التى حلت بالمسلمين بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس سنة ٤٩٢ فكانت الطامة الكبرى ، والنقطة السوداء فى تاريخ الفاطميين حتى استعادها الأيوبيون من بعد .

وانتهت حياة الأمر بمقتله على يد النزارية — كما قيل — وهو فى طريقه إلى معشوقته بالجزيرة سنة ٥٢٤ هـ وله من العمر أربع وثلاثون سنة (١).

الحافظ لدين الله : أبو الميمون عبد المجيد : (٥٢٤ — ٥٤٣)

ولم يكن من ولد الخليفة الأمر ، بل كان ابن الأمير أبى القاسم محمد بن الخليفة المستنصر .

« بويح له بولاية العهد فى اليوم الذى مات فيه الأمر — ولم يكن منهم منذ قام المهدي من أبوه غير خليفة الا الحافظ والعاقد » (٢)

قال ابن الأثير (٣) : « ولما قتل الأمر لم يكن له ولد بعده ، فولى بعده ابن عمه أبو الميمون عبد المجيد ابن الأمير أبى القاسم ابن المستنصر بالله . ولم يبايع بالخلافة وإنما بويح له لينظر فى الأمر نيابة عن الإمام حتى يكشف عن حمل إن كان للأمر فتكون الخلافة فيه ، ويكون هو نالبا عنه . » .

(١) الخطط ٢/٢٩٢ ، والنجوم الزاهرة وحل حضرة القاهرة ص ٨٤ .

(٢) النجوم الزاهرة ٨٦

(٣) الكامل ٩/٢٥٥

وظل الحافظ نائباً لمدة عامين ، تولى بعدهما الخلافة بصورة رسمية أصلية بعد أن كان يتولاها بالنيابة .

ووزر للحافظ الوزير أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي ، فاستبد بالأمر دون الخليفة ، وحجر عليه ، وألزمه بمخزاة في القصر لا يدخل عليه أحد إلا من يريده أبو علي الوزير . « وبقي الحافظ اسماً لامعاً تحتته » على حد قول ابن الأثير .

ونقل ابن الأفضل كل مافي قصر الخلافة إلى داره من الأموال وغيرها ولم يزل الأمر كذلك إلى أن قتل الوزير سنة ٥٢٦ هـ ، فاستقل الحافظ بالأمر وحكم في دولته وتمكن من ولايته وبلاده .

وظل حال الخلافة الفاطمية في ضعف ، وقوتها العسكرية في اضمحلال وأملاكها في ضمور سواء في أفريقيا أو الشام والمشرق الإسلامي .

وسبق القول بأن موجة الصليبيين كانت قد بدأت تجتاح الشام في أخريات القرن الخامس الهجري والحادي عشر الميلادي.وانتهى الأمر بقيام مملكة بيت المقدس وإمارات طرابلس وأنطاكية والرها .

كذلك فإن قوة الأتراك السلاجقة ، وهي قوة إسلامية نشأت في المشرق وحلت محل البويهيين — قد أخذت تتزايد رغم انقسامها إلى ثلاث دول في العراق وفارس والشام ، وأرمينيا والأناضول .

وبدأت هذه القوة السلجوقية تتحرك في مواجهة الروم والصليبيين والفاطميين وحدثت مواجهات عديدة بين هذه القوى الثلاث ، تراجعت بعدها قوة الفاطميين وتقلص نفوذهم في الشام إلى أدنى حد فلم يعد في أيديهم سوى عسقلان وجزء ضئيل من جنوب فلسطين .

وانشغل خلفاء الفاطميين في الداخل بالصراعات بين الطوائف والقادة والوزراء .

وكان الوزير ابن الأفضل كغيره من الوزراء المستبدين الذين ساعدوا على اهتزاز صورة الخليفة وضياع هيئته بين الناس ، كما قوضوا من مكانة الخلافة واحترامها بين الرعية .

بل ساعد ابن الأفضل وغيره من أمثاله الوزراء على تقويض المذهب الإسماعيلي الذي كانت تقوم عليه دعوة الفاطميين ، ويعتبر المرتكز العقدي لحكمهم وخلافتهم .

قال ابن الأثير إن أحمد بن الأفضل وزير الحافظ أسقط من الدعاء على المناير ذكر إسماعيل الذي هو جد هم (الفاطميين) وإليه تنتسب الإسماعيلية وهو ابن جعفر بن محمد الصادق ، وأسقط من الآذان « حى على خير العمل » ، ولم يخطب للحافظ ، وأمر الخطباء أن يخطبوا له بألقاب كتبها لهم وهى :

« السيد الأفضل الأجل سيد ممالك أرباب الدول ، والحامى عن حوزة الدين وناشر جناح العدل على المسلمين الأقربين والأبعدين ، ناصر إمام الحق فى حالتى غيبته وحضوره ، والقائم بنصرتة بماضى سيفه وصائب رأيه وتدييره ، أمير الله على عباده ، وهادى القضاة إلى اتباع شرع الحق واعتماده ، ومرشد دعاة المؤمنين بواضح بيانه وإرشاده ، مولى النعم ، ورافع الجور عن الأمم ، ومالك فضيلتى السيف والقلم ، أبو على أحمد بن السيد الأجل الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش » .

وغريب أن يدعى رجلٌ لنفسه هذا كله ، مهما كانت مكانته ، أو كانت منزلته فى الدولة ، فما بال رجل يحتل منصب الوزارة غصباً فى دولة تنهاوى أركانها ويتآلب عليها الأعداء ويحيطون بها من كل مكان ، وتسقط عنها أملاكها بلدا إثر الآخر ولا تملك ردهم ، ولا يطبق هذا الدعوى الصمود .. ويكتفى من كل هذا بالكلام دون الفعل ، وكأنه يرضى فى نفسه غروراً يقضه ، وحمقاً دفيناً ، مع ضعف عن العمل وقصور فى حماية الثغور ويسمى نفسه بعد هذا شاهنشاهاً وأميراً للجيوش .

وقد علق ابن الأثير على ما اتخذ هذا الوزير لنفسه من القاب ودعا الناس إلى الدعاء بها بقوله : « وإنما ذكرت ألقاب أبى على تعجباً منها . ومن حماقة ذلك الرجل ، فإن وزير صاحب مصر وحدها إذا كان هكذا فينبغى أن يكون وزير السلاطين السلجوقية كنظام الملك وغيره يدعون الربوبية . على أن تربة مصر هكذا تولد ، ألا ترى إلى فرعون يقول أنا ربكم الأعلى !! » .

ويغمز ابن الأثير مصر ، وكأنه يريد أن يقول إنها تصنع المستبدين والفراعين ترفعهم من عامة الناس ، وتضعهم بموضع التقديس ، وتعبدهم عبادة الأصنام فيظنوا أنفسهم آلهة ، وهم من الطين !! .

وتضع الظروف هذا الأرميى الدعى الذى جاء جده من الشام لحماية عرش أسياده ، فإذا به يغصبهم السلطة ، ويتسمى بأمر الجيوش وابنه وحفيده بشاهنشاه ويشاء الله أن يسخر الناس ، والتاريخ من أمراء الجيوش وشاهنشاهات الزمان بأن ساق إليهم جيوشاً عبر البحار لتحتل البلاد ، وتقيم مملكة بيت المقدس ويتراجع هؤلاء أمامهم ولا يخنون ، بل يظلمون فى تباهمهم وادعاءاتهم ، كالمهر يحكى انتفاخاً صولة الأسد كما قال شاعر الأندلس :

مما يزهدنى فى أرض أندلس ألقاب محمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة فى غير موضعها كالمهر يحكى انتفاخاً صولة الأسد

وبعد أن قتل الحافظ وزيره المستبد ، شقبي بانه ، الذى تدخل فى شئون الخلافة بعد أن بلغ الرجل من الكبر مبلغاً ، وظلت أحوال البلاد فى عهده بعد أن حسنت حال الرعية فى سكون ، وإن لم يزد عليها شىء ، وظلت حال الدولة من الضعف وتغلب الأعداء ، لم تستطع استرداد شىء من أملاكها التى فقدتها .

وتولت دولة الحافظ الذى ملك مايقرب من عشرين سنة بلغ منها من العمر سبعاً وسبعين سنة عند وفاته ٥٤٣ هـ أو سنة ٥٤٤ هـ .

الظافر بأمر الله اسماعيل بن الحافظ (٥٤٤ — ٥٤٩) وابنه الفائز (فى سنة ٥٥٥) ببيع فى اليوم الذى توفى فيه أبوه ، ووزر له العادل ابن السلار الكردى ، فقتل وتولى الوزير عباس الصنهاجى ، وتمكن ابنه نصر من الخليفة وولى أبوه الوزارة ، وتقرب هو من الخليفة حتى صار نصر من جلسائه وخدمائه .

واشتهر عباس كما يذكر المؤرخون بالحزم والجلد . واستطاع عباس وابنه أن يقتلا الخليفة . فسادت الفوضى البلاد ، وظهر وهن الدولة .

وتمكن الصليبيون فى عهد الظافر من الاستيلاء على عسقلان وبعد مقتل الظافر على يد عباس وابنه نصر ، أجلس ابن الخليفة الطفل وله من العمر خمس سنين على سرير الخلافة .

ونهب عباس القصر ، واحتاز كنوزه ، ولم يتم الأمر له ، بل اختلفت عليه الكلمة ،

واستنصر نساء القصر بالملك الصالح طلائع بن رزّيك ، ووجهوا له شعورهن طي
الكتب ، وكان واليا على المنيا ، فسار إلى القاهرة ، وفر أمامه عباس بالذخائر التي لا
تحصى إلى الشام ، فأسره الأفرنج الصليبيون في الطريق واستولوا على مامعه وقتلوه .

ودخل طلائع إلى القاهرة بأعلام سود وثياب سود حزنا على الظافر ، وشعور النساء
التي أرسلت إليه من القصر معقودة على رعوس الرياح .

وفاوض الصليبيون في إعادة نصر بن عباس إلى القاهرة ويترك لهم مالا حتى أسلموه
إليه ، فقتله الصالح وصلبه على باب زويله .

وسكنت الأحوال بعض الوقت في عهد الصالح ، بعد أن بطش برعوس الفتنة ،
وانزل بكبار رجال الدولة العقاب واستولى على الأموال ، واستبد بالأمر إلى أن قتل .

العاضد لدين الله (٥٥٥ — ٥٦٧ هـ)

وهو آخر الخلفاء الفاطميين ، تولى طفلاً ، وقام بأمره الوزير طلائع ابن رزّيك حتى
قتل في أحد دهاليز القصر ، فوزر له ابنه رزّيك من بعده ، ولكن العرب تمكنوا منه
 وقتلوه ، وتولى شاور الوزارة ، ونافسه فيها ضرغام ، وقام الصراع بينهما وتدخل فيه
 نور الدين محمود بن زنكى وملك بيت المقدس ، حتى انتهى الأمر بحريق الفسطاط . في
 تلك الفتنة . وجيء أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين .

وبعد موت العاضد . استولى صلاح الدين على مصر وأقام دولة الأيوبيين . وذلك

سنة ٥٦٧ هـ .

رسوم الخلافة

احتفظ الفاطميون طوال مدة حكمهم في مصر للخلافة ببياء رسومها ، وفخامة مظهرها بما اتخذوه من القصور الفارحة ، المجهزة بأفخر الرياش والتي حشدوا لها من الأموال لإضفاء الفخامة ما تحدثت به كتب التاريخ حتى عدت من البهاء والرونق ، كما رسمها خيال المؤلف لقصور ملوك ألف ليلة وليلة .

وذكر المؤرخون بناء الخلفاء كثيرا من القصور ، من أولها ما بنى للمعز من القصرين الشرق والغربي ، ثم قصر اللؤلؤة ، وقصر الذهب وغيرها من القصور والمناظر التي بنيت على الخليج ، أو على شاطئ النيل أو بحيرة الحبش جنوب القسطنطينية ، أو بجزيرة الروضة .

وكان ثراء تلك القصور خرافيا .

ففي قصر الذهب كانت توجد قاعتان ، قاعة الذهب ، وقاعة الفضة ، الأولى كانت قاعة العرش أو كرسي الخلافة ، والثانية كانت قاعة المجالس والمقابلات وكسيت جدران القاعة الأولى بالذهب وطعم سرير الخلافة بالأحجار الكريمة ووضع على منصة عالية تنصدر القاعة مذهبه ومحلاة بالوشى .

وقد أحاطت أجمات من النخيل المذهب المثقل بحمله من الجواهر على هيئة التمر والشجر المثقل بالجواهر كذلك على شكل الزهر والثمار ، كما صنعوا من الخلي والأحجار الكريمة على هيئة الطير الواقفة على غصون الأشجار وبعضها صنع من الذهب المزخرف بالمينا متنوعة الألوان ، تصدر منها أصوات أشبه بالصغير والتفريد .

ونجترىء من بعض كتب التاريخ ما يرسم لنا صورة لتلك القصور . يقول المقرئى : (١)

« علم أنه كان للخلفاء الفاطميين بالقاهرة وظواهرها قصور ومناظر ؛ منها القصر الكبير الشرقى الذى وضعه القائد جوهر عند ماأناخ في موضع القاهرة ، ومنها القصر الصغير الغربى ، والقصر اليافعى ، وقصر الذهب ، وقصر الاقبال ، وقصر الظفر ،

(١) ٣٨٣/٢ الخطط

وقصر الشجرة ، وقصر الشوك ، وقصر الرمرد ، وقصر النسيم ، وقصر الحريم ، وهذه كلها قاعات ومناظر من داخل سور القصر الكبير ، ويقال لها القصور الراهرة ، ويسمى مجموعها القصر

وكان بجوار القصر الغربى الميدان والبستان الكافورى . وكان لهم عدة مناظر وأدر سلطانية غير هذه القصور ، منها دار الضيافة ، ودار الوزارة القديمة ، ودار الضرب والمنظرة بالجامع الأزهر ، والمنظرة بجوار الجامع الأحمر ، ومنظرة اللؤلؤة على الخليج بظاهر القاهرة ، ومنظرة الفزالة ، ودار الذهب ، ومنظرة المتس ، ومنظرة الدكة .. وقبة الهواء بالمقطم (مكان القلعة الآن) والبساتين الجيوشية ، والبستان الكبير .. ودار الملك بمدينة مصر (الفسطاط) ومنازل العز بها ، ومنظرة الصناعة بالساحل ، ومنظرة بجوار جامع القرافة الكبرى المعروف اليوم بجامع الأولياء .. والمنظرة ببركة الحبش .

ويصف المقرئى القصر الخبير (الشرقى) فيقول :

« وهذا القصر كان دار الخلافة ، وبه سكن الخلفاء إلى آخر أيامهم .

وكان هذا القصر يشتمل على مواضع منها « قاعة الذهب » . وكان يقال لقاعة الذهب قصر الذهب وبهذه القاعة كانت تجلس الخلفاء في المركب يوم الاثنين ويوم الخميس ، وبها كان يعمل سماع شهر رمضان وسماع العيدين . وبها كان سرير الملك .

ويكون المجلس المذكور معلقاً فيه ستور الديباج شتاء والديباج صيفاً ، وفرش الشتاء الصوف مطابقاً للديباج ، وفي الصيف الحرير مطابقاً للديباج ما بين ظهريه ولبيرستانى مذهب معلوم المثل . وفي صور المجلس المرتبة المؤهلة لجلوس الخليفة في هيئة جليلة على سرير الملك ، فيكون في وجه الخليفة عليه قبالة وجوه الوقوف بين يديه .

فإذا تمياً للجلوس استدعى الوزير من القطع إلى باب المجلس المذكور وهو معلق وعليه ستر ، فيقف بخدائه ، وعن يمينه زمام القصر (صاحب القصر المشرف على ادارته) ، وعن يساره زمام بيت المال ، فإذا انتصب الخليفة على المرتبة رنم أمين الملك — أحد الاستاذين الخواص — الدواة مكانها من المرتبة ، حرج ... فإذا الوزير واقف أمام باب المجلس وحواليه الأمراء المطوقون بأرباب الخدم الجليلة والبرهمن ، وفي خلاصهم قراء الحضرة ، فيشير صاحب المجلس إلى الأستاذين ، فيرفع كل منهم جانب الستر فيظهر الخليفة جالساً بمنصبه المذكور ، فتستصح القراء بالقرآن الكريم .

الوزير بعد دخوله إليه ، فيقبل يديه ورجليه ا ، ويتأخر ممدار ثلاثة اذرع وهو قائم قدر ساعة زمانية ، ثم يؤمر بأن يجلس على الجانب الأيمن ، وتطرح له مخدة تشرفها ، ويقف الأمراء في أماكنهم المقررة ؛ فصاحب الباب وأسفهلار العساكر من جاتي الباب يمينا ويساراً ، ويلبهم من خارجه لاصقاً بعتبه زمام الأمرية والحفاظية كذلك ثم يرتبهم على مقاديرهم ، فكل واحد لا يتعدى مكانه هكذا إلى آخر الرواق ، وهو الإفريز العالى عن أرض القاعة ، ويعلوه الساباط على عقود القناطر ... » .

وهكذا يترتب الناس في المجلس هذا كل حسب مقامه ، ومنزله في الدولة ويقف الحاجب بالباب ينادى على من يدخل باسمه ، يقول المقرئى :
« فإذا انتظم ذلك النظام ، واستقر بهم المقام فأول مائل للخدمة بالسلام قاضى القضاة والشهود المعروفون بالاستخدام فيجيز صاحب الباب القاضى — أى يدخله — دون من معه ، فيسلم متأدبا ، ويقف قريبا ، ومعنى الأدب في السلام أنه يرفع يده اليمنى ويشير بالمسبحة . ويقول بصوت مسموع : السلام على أمير المؤمنين ورحمه الله وبركاته ، فيتخصص بهذا الكلام دون غيره . من أهل السلام .

ثم يسلم الأشراف الأقارب — من الفاطميين ، والأشراف من الطالبين يقدمهم نقيبهم .

ويدخل بالسلام من خلع عليه الولايات (أى أمراء الأقاليم) .
وبعد أن تنتهى مراسم المجلس ، وأعماله ، يخرج الناس ، أو يؤمرون بالخروج حتى يكون آخر من يخرج الوزير بعد تقبيل يد الخليفة ورجله ، ويخرج فيركب إلى داره على عادته .. ثم يرخى الستار ، ويفلق باب المجلس إلى يوم مثله فيكون الحال كما ذكر .. » (١)

وقد تلبو هذا المراسم غريبة في دولة إسلامية بأمر دينها بالبساطة والتواضع وبخاصة من أمير المؤمنين وخليفة المسلمين ، ومن هنا يظهر لقارئ التاريخ الإسلامى كيف أن حكام المسلمين قد ابتعدوا عن روح الإسلام وبساطته ، ونبلوا سيرة النبي صاحب هذه الدعوة ، وخلفائه الراشدين ، وانجبهوا بمراسم السلطنة إلى ماورثوه أو تأثروا به عن

(١) الخطاط ٣٨٦/١

قياصرة الروم ، وأكاسرة انفرس ، وما كان لهم من الطقوس لإظهار الحاكم بمظهر الهيبة والتقديس الذي يقترب من الإجلال والتعظيم للمعبود لا للفرد العادي من البشر ، وإلا ففيم هذه المقصورة والستر وفيم هذا الإجلال والتعظيم ، وفيم هذا الحرس الشديد ، والأعوان وفيم التحقير والتهوين للرعية ، وإلزامهم ، بالركوع والسجود وتقبيل الأرض ، وتقبيل الأيدي والأرجل للخلفاء . وأين هذا كله من المثل الإسلامية ، والدعوة إلى أن لا يتكبر المؤمن ولا يتجبر ، فإنه لن يخسرق الأرض ولن يبلغ الجبال طولاً .

وقد وصف الله سبحانه عباد الرحمن بقوله : « عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا » .

فأين هذه المثل الإسلامية في القرآن وسنة الرسول وسيرته وسيرة صحابته مما فعله حكام المسلمين والذين ادعوا الخلافة والإمامة من عباسيين أو فاطميين ، ومن غير العباسيين والفاطميين ممن كانوا أقل قدراً ، وإن حاولوا التقليد ، بمناذاة الكبار .

ولم تكن رسوم الفاطميين قاصرة على مجالسهم في التصور ، بل نعدتها إلى مواكبهم في المناسبات والأعياد ، وحتى الخروج للصلاة ، أو النزهة ، أو الصيد .

ونقل عن المسبحي وصفاً لموكب الخليفة الظاهر في سنة ٤١٥ هـ بمناسبة استهلال رمضان قال : « واستهل شهر رمضان بيوم الخميس فقيه ركب مولانا — صلوات الله عليه — في عبيده وعساكره ورجال دولته ، وعليه قميص مزركش ، مذهَّب ، ديقى وعمامة مدهية مثله ، وعلى رأسه مظلة مذهبة يحملها نسيم الصقلي الملقب بيهاء الدولة ، وخلفه ابن فتوح الكتامي يحمل الرمح على رسم أبيه . وخرج بين يديه الأتراك ، والكتاميون ، والقيصرية والعبيد ، والباطنية ، والديلم ، وسائر الطوائف . وركب سائر رجال دولته — عليه السلام — خلفه مع نسيم الصقلي ولم يستدع من الشيوخ أحداً لمسايرته ، وسار إلى أن قرب من مسجد تبر . وعاد إلى قصره سالماً والحمد لله .. » .

وقال في موكب خروجه لصلاة الجمعة :

« وفي يوم الجمعة لليلتين حننا من شهر رمضان ركب مولانا — صلوات الله عليه — إلى صلاة الجمعة في الجامع الأزهر . وركب بين يديه سائر شراة وخوادم دولته ،

وعليه طيلسان شرب مفرّط ، وعلى رأسه عمامة قصب بياض مذهبه ، وعليه ثياب ديبقى بياض ، والمظلة ديبقى مذهبة في ذهابه ، فلما عاد كان على رأسه مظلة ديبقى بياض مختومة ، مذهبة . وطلع معه المنبر قاضي القضاة أحمد بن محمد بن أبي العوام ، وإبراهيم الصائغ المؤدب المعروف بالجليل ، فأرخيا عليه شخص القبة التي في أعلا المنبر وهي منشأة بمصنمت بياض ، والعنبر يُسجّر بين يديه في المداخن الذهب والفضة والجوهر ، وخطب أحسن خطبة وأتمها وأكملها ^(١) .

وكان من رسومهم عند تولى الخليفة أن يشق موكبه العاصمة على فرسه والنبلاء وعلية القوم يسرون خلفه على أقدامهم حتى باب زويلة ، وباب الفتوح ويمر الخليفة على فرسه الأبيض محاطاً بالخصيان يحملون في أيديهم الجمار يحرّق فيها العنبر والصبر ، وتتطاير أدخنة الندّ .

وكانت العادة أن يسجد الناس على الأرض لحظة مرور الخليفة ووقوع أعينهم عليه داعين له بالخير .

(١) أخبار في عامي ٤١٤ ، ٤١٥ هـ .

وزراء الفاطميين

اشتهر في العصر الفاطمي جماعة من كبار الوزراء كان لهم الشأن الأكبر والأثر الواضح في تسيير دفة الأمور في الدولة ، وكانوا في عصر قوة الخلفاء عصر المعز والعزیز والحاكم والظاهر رجالاً مرموقين معروفين بالمقدرة الادارية والعلمية والاشيائية ، فكانوا مستشارين للخلفاء ومشاركين في توجيه سياسة الدولة ، وإن استبد الخلفاء الأترياء بهم ، فكانت الكلمة كلمتهم على عكس ما حدث بعد ذلك في عصر ضياع الخلفاء منذ عهد المستنصر والمستعلی والآسر والحافظ حتى آخر الدولة عندما استبد الوزراء بالأمر دون الخلفاء . فكانوا أصحاب الحبل والعقد ، واتخذوا لأنفسهم ألقاب أمراء الجيوش والشاهنشاه ، والسلطين ، وحجروا على الخلفاء ، فلم يعد لهم ذكراً إلى جانبهم .

فمن وزراء الفتة الأولى يعقوب بن كلس^(١).

ولم يلقب بهذا اللقب بادئ الأمر ، لأن هذا اللقب لم يكن مقبولاً عند الفاطميين ، « وكان قاضى القضاة أجل أرباب الوظائف عندهم ، ولم يتخذ خلفائهم وزراء إلا في عهد الخليفة الفاطمي الثاني العزيز بالله ، وهو الوزير ابن كلس الذى كان يهودياً فأسلم (توفي عام ٣٨٠ هـ — ٩٩٠ م) »^(٢).

وكان ابن كلس يعمل في دولة الإخشيد ، وكان « من أهل ملة موسى ودين اليهودية » وهو من أولاد هارون بن عمران ، ثم أسلم أيام كافور الإخشيدى فحسن إسلامه ، وكان ذا فطنة وذكياً ، وكان له تفنن في علم التوراة وغيرها من العلوم ، ولما وصل القائد جوهر إلى الديار المصرية تعلق بخدمته ، وارتفع عنده في درجته لما رأى فيه من الفطنة وعلو الهمة وحسن الأدب والنظر من العلم في كل باب . ثم هاجر إلى أمير المؤمنين المعز لدين الله إلى أرض المغرب . ولم يزل يعملو صعداً ، ويزدلف علواً مع أولياء أهل الهدى ، وعاد مع المعز لدين الله حين قدومه إلى مصر فارتفع عنده في الفضل

(١) راجع ترجمته في الكامل ٤٤٨/٧ ونبذة ص ١٩

(٢) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع قديم متر ١٥١/٢ — ترجمة د محمد عبد الهادي ، ص ١٠٠

والتندر حتى جعل له المعز لدين الله في وزارته مع عسلوج ابن الحسن في بقية أيام المعز لدين الله بعد وفاة الوزير أبي الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات .

ولما جاء العزيز رفع من قدر ابن كلس واختصه بأمر الدولة وأموالها ، رلقبه بالوزير الأجل . وأمر أن لا يخاطبه أحد ولا يكتبه إلا به . « (١) » .

ويقول صاحب عيون الأخبار : « وكان يعقوب الوزير عند إمامه مقرباً ، مكرماً ، معززاً ، مقدماً وله أخلاق سنية وسيرة صالحة ، وأعمال رضية ، وحسن سياسة وعدل ، ومكارم ظاهرة ، وفضل وعلو همة ، مقتنياً فعله لآثار الأئمة متأدياً بأدابهم ، مجهداً نفسه في سلوك منهجهم ، واقتفاء آثارهم ، محباً للعلم ، مؤثراً لأهله ، مقدماً لهم في قوله وفعله . » .

وتعمق ابن كلس في فقه الفاطمية يقول ابن الصيرفي : « في سنة سبعين وثلاثمائة أحضر جماعة الفقهاء وأهل الفتيا وأخرج لهم كتاب فقه عمله وقال : هذا عن مولانا العزيز بالله عليه السلام عن آباءه الكرام . وقرأ عليهم رسالته وبعض كتاب الطهارة . وهذا الكتاب يعرف بالرسالة الوزيرية . »

وبلغ من العزيز بالله منزلة رفيعة حتى إنه زاره في مرضه عائداً فقال له : وددت لو أنك تبتاع فأبتاعك بملكى ، أو تغدنى ، فأفديك بولدى ، فهل من حاجة توصى بها يا يعقوب ؟ . فبكى وقبل يده ، وقال : أما فيما يخصنى فأنت أرى لى من أن أسترعيك إياه .. ولكنى أنصح لك فيما يتعلق بدولتك . سالم الروم ماسالموك ، وأقنع من الحمدانية بالدعوة والسكة ، ولاتبى على مفرج بن دغفل متى اعترضت لك فيه فرصة ومات . فأمر العزيز عليه السلام بأن يدفن في داره في قبة بناها وصلى عليه وألحده بيده في قبره وانصرف حزينا لفقده ، وأمر أن تغلق الدواوين أياماً بعده . « (٢) » .

وتعاقب الوزراء من بعده والقائمون بأعمال الوزارة في أيام العزيز بالله وابنه الحاكم بأمر الله والظاهر ، ولم يكن شأن الوزير آتئذ بالشأن الخطير ، بل كان عمله تدير الأمور ، والإشراف على الدواوين ، ولم تكن له الكلمة مع الخليفة وإن حاول بعضهم

(١) عيون الأخبار ص ٢٢٩

(٢) الإشارة ص ٢٣ .

الاستبداد مثل برجوان في بداية عهد الحاكم ، فكانت نهايته القتل وهكذا كانت خاتمة كل من حاول أن تكون له الكلمة إلى جانب الخليفة ، أو لاحظ عليه الخليفة انحرافاً ، أو محاولة لاكتساب المال وجمع الثروة ، فتكون النتيجة العقاب الشديد بالإقالة ، والمصادرة للمال ، والحبس ، وقطع اليد ، والقتل .

وقد نكل الحاكم وقتل كثيراً من وزرائه وكبار رجال دولته

وجاء المستنصر بالله فعظم شأن الوزارة لضعف الخليفة ، وتسلمت بعض نساء القصر وخدمة ، وبدأ بعهد المستنصر عهد الوزراء العظام ، وأولهم الوزير اليازورى .

اليازورى : أبو محمد الحسن بن علي بن عبد الرحمن

تولى الوزارة للمستنصر عام ٤٤٢ هـ ولقب بألقاب الوزير الأجل الأوحى المكين سيد الوزراء ، تاج الأصفياء قاضى القضاة ، وداعى الدعاة ، علم المجيد ، خالصة أمير المؤمنين .| ولقب كذلك بالناصر للدين غياث المسلمين . ثم عوّض من لقب خالصة أمير المؤمنين بخليل أمير المؤمنين .

قال ابن الصيرفى : ونظر فى الوزارة فهض ، وكان يبدأ باسمه فى عنوانات الكتب ورفأه ملوك الأطراف فى المكاتبه حقه من الرياسة ماخلا المعز بن باديس الصنهاجى صاحب القيروان ، فإنه قصر به فى الكتابة عما كان يكاتب به من تقدمه من الوزراء . فاستدعى نائبه وعتمه عنده عتياً جميلاً .. وهدد اليازورى المعز بن باديس بذبحه وأخذ بسكين من دواته وقال لنائبه :

« اكتب إلى هذا البربرى الأحمق ، وقل له إن عقلت وأحسنيت أدبك ، وإلا جعلنا تأديك بهذه » .^(١)

وكان ماكان من خروج ابن باديس وما تحت حكمه فى أفريقيا عن طاعة المستنصر ، والخطبة للخليفة العباس ، وانتقاض أمر الدعوة الفاطمية ، وعودة الدعوة لأهل السنة ومحاصرة الشيعة الفاطميين ، والتنكيل بهم فى القيروان ، مما حفز المستنصر بتحريض من اليازورى على دفع بعض قبائل العربان من صعيد مصر لعرو شمال أفريقيا وتخريب

(١) الإشارة ص ٤٢ .

القيروان ، والاستيلاء على بلاد ابن باديس .

وتصدى اليازورى كذلك لبعض الأحداث الداخلية الخطيرة ، ومنها ثورة قبائل بني قرة والطلحين في شمال غرب مصر وبعض مدن الصعيد .

وكان موقف اليازورى حرجاً بهذه الأحداث ، حتى تم النصر ، فاصدر الخليفة المستنصر أمراً قرىء بمساجد مصر وأسواقها يحثوى على تفخيمه وتكريمه ، « وتهدد المشنعين عليه وتمثل لهم بقول الله تعالى : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ، ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ، سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ ويتضمن أبيات ابن دانيء :

إني لما تهواه ركباً
ولا عافياً شيباً ولؤديف لي
واللذي تخرج شراب
من كفك الملقم والصاب
ما حطك الواشون من رتبة
عندي ولا نرك منصاب
كأنما اتنوا ولم يعلموا
عليك عندي بالذي عابوا

وبهذا ارتفعت منزلته عند الخليفة ، وتمكن منه ، وازداد به وثقاً . بعد أن حاول بعض معارضيه انتهاز فرصة تلك الأحداث التي أشرنا إليها والدس له والوقعة حتى تسقط هيئته ، وتندفي منزلته عند المستنصر .
وحدثت في عهد اليازورى الشدة المعروفة

ومن الأحداث الخارجية الهامة في عهده ، انتفاض البساسيري في بغداد على الخليفة العباسي وانحيازه إلى القاطمين ، وقد كاتب البساسيري اليازورى بذلك ، فعاضده اليازورى وبعث إليه بالمؤيد في الدين أبي نصر هبة الله بن موسى داعي الدعاة ، وأصبحه الأموال .

وأنصر البساسيري بتأييد من مصر على طغرلبيك التركي السلجوقي في وقعة سنجار التي قال فيها ابن حيوس (ت ٤٧٣ هـ) :

عجبت للمدعي الآل حاق ملكاً
ومن مستخلف بالهون يرضى
وغايته يفسداه الركـ
يذاذ عن الحاض ولا يدو

وأعجب منهما سيف بمصر تقام به يستنجاؤا الحسادو

يغمز الخليفة العباسي لضعفه وتهاونه ويشيد بالفاطميين وقوتهم ، وهمة أعزائهم .
ومن صفات اليازوري — كما روى ابن الصيرفي — أنه كان لا يستبد برأيه ، ولا
يأنف من مشاورة أصحابه من ثقة أصفياؤه . وكان كثير الحياء .

ومع ما أنجزه اليازوري في وزارته ، ومع صفاته ، وما قيل من قربه ، وثقة الخليفة
المستنصر به إلا هذا كله لم يشفع له في خاتمة وزارته فقد بلغ التآمر ضده ، والدس عليه
واتهم باستحوذ الأموال وتهريبها إلى الشام ، وبوقائع أخرى منها أنه عول على الهرب ،
فقبض عليه في محرم سنة ٤٥٠ هـ وسير إلى تينس فقتل هناك .^(١)

وتوالى الوزراء من بعده ، واتخذ المستنصر عدداً لم يكن بينهم من بلغ مكانة
اليازوري على الرغم مما اتخذوا لأنفسهم أو أضفى عليهم من الألقاب والصفات حتى
انتهى الأمر إلى ما يشبه الفوضى لكثرة عزل الوزراء وتولية غيرهم ، وتدخل خدم القصر
ونسائه فيمن يعزل أو يولى حتى استدعى بدر الجمالي من الشام .

بدر الجمالي : أمير الجيوش المستنصري

وكان من ممالك الفاطميين ، أرمنى الأصل ، ربي في القصر ، وتلرج في الخدمة
حتى ولّى بعض ولايات بالشام ، وصارت له دمشق وسائر الشام .

واستدعى الجمالي من الشام بعد أن فسدت الأمور في القاهرة ليعيد النظام ، والهيئة
إلى قصر الخلافة .

قال ابن الصيرفي : « وكانت الأحوال يومئذ بالحضرة قد فسدت ، والأمور قد
تغيرت وطوائف العساكر قد تبعثرت وتخرّبت ، والفتن بينهم قد اتصلت وتأكدت ،
والوزراء يقتعون بالاسم دون الأمر والنهي .

والرخاء قد أيس منه ، والصلاح لا يطمع فيه ، ولو أنه قد ملكت الريف ، والصعيد
بأيدي العميد ، والطرقآت قد انقطعت برأ وبجراً إلا بالخفارة الثقيلة والكلفة الكبيرة مع
ركوب الغرر وشدة الخطر .

(١) الإشارة ص ٤٥

والمارقون ينوى بعضهم لبعض الاحتيال والغدر ، ويضمر كلٌ منهم لصاحبه الاغتيال
والبغى . »

وكان سبب استدعاء المستنصر لبدر الجمالى ماأشرنا إليه من الفوضى التى انتهت
باقتتال جند الخلافة بين الأتراك والعميد والعرب ، وكانت الأحداث بين قائدين من قواد
الجنود هما « بلدكوز » التركى ، وحسن بن حمدان ، وتمكن فى نهايتها بلدكوز من قتل
ابن حمدان والاستيلاء على السلطة والحجر على الخليفة .

قال ابن الصيرفى : « وكان بدر الجمالى يتحسر على مايلغنه من أمرها — الخلافة
والقاهرة — ويتلهف على كونه بعيداً عنها ، ويتنظر فرصة ينتهزها فى المهاجرة إليها وحين
وصله أمر الخليفة المستنصر بالقبض على بلدكوز التركى وايداعه خزانة البنود ، وانتهى
أمره بها . هم بالإسراع إلى القاهرة ليرد إليها النظام فكان دخوله فى شهر ربيع الآخر
سنة ست وستين وأربعمائة (٤٦٦ هـ) .

قال ابن الصيرفى : فخلع عليه ورد النظر إليه ويطل حينئذ أمر الوزارة .^(١)
وفى هذه العبارة الأخيرة دلالة على تغير هذا المنصب ، فلم يعد الوزير كما كان شأنه من
قبل من رجال القلم ، بل حل محله من يقوم بأمر الخلافة جامعاً بين عمل الوزارة
وقيادة الجيوش ، بمثابة النائب عن الخليفة والسلطان الذى بيده تصريف أمور الدولة
كلها كما فعل البيهقيون بالخلفاء العباسيين فى بغداد والسلاجقة من بعدهم .

وعمل بدر الجمالى عقب دخوله القاهرة على استتباب الأمن ، وإعادة أمور الدولة إلى
ماكانت عليه ، والضرب على أيدي العصاة والمخربين ، ودحر الثائرين والمارقين
الطامعين . وأصلح الأحوال بالباب (أى القصر) وأقام الهيبة ، ورفع منار الدولة ورتب
الدواوين والمستخدمين ، وقرر أمر الرجال والأعمال على ما هو مستقر . »

وبعد أن فرغ من ترتيب أحوال الدولة ، ودواوينها ، وإدارتها توجه إلى إخماد الفتنة
والقضاء على رعيوسها داخل البلاد وخارجها . فتوجه إلى حرب لواته ، واسترد ماكان
من الأعمال بأيديهم ، ثم افتتح بعد ذلك بلاد الصعيد ، وجعل الأعداء بين قتيل وجريح
وشريد أو طريد .

(١) الإشارة ص ٥١ .

وكان أحد قادة الأتراك وعضو اتهمز بن أدق الخوارزمي قد هاجم شمال البلاد واستول على بعض قرى الريف في شمالى شرق مصر ، فخرج إليه بدر الجمالى وكسره وقتل جميع رجاله .

وأخذ بدر فى تقوية الجيش ، والأسطول ، وأساليب الدفاع عن العاصمة حتى لا تحدث أحد الخارجين نفسه بالاستيلاء عليها ، فأقام سور القاهرة الكبير الذى لا تزال بعض أجزائه إلى الآن ، وقوى أبوابه وبنى أبواباً جديدة . يقول المقرئى : أن السور الثانى للقاهرة بناه أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) وزاد فيه الزيادات التى فيما بين باى زويلة وباب الفتوح وزاد عند باب النصر أيضا جميع الرحبة التى تجاه جامع الحاكم إلى باب النصر .

وبنى بعض المساجد ، وقام بالعمارة والإصلاحات فى القاهرة .

وكان فى شخصيته عزوف النفس ، شديد البطش ، على الهمة ، عظيم الهبة ، مخوف السطوة .

وتوفى الجمالى سنة ٤٨٨ هـ .

الأفضل بن بدر الجمالى (٤٨٨ هـ)

تولى بعد أن اشتد المرض بوالده ، وكان قد خشي أن يشب على المنصب أحد أتباع والده ، واسمه صافى ويلقب بأمين الدولة .

وبعد توليه وصدور المرسوم بذلك من الخليفة الناصر ، لقب كأبيه بالسيد الأجل الأفضل سيف الإمام جلال الإسلام ، شرف الأنام ناصر الدين ، خليل أمير المؤمنين أبو القاسم شاهنشاه .

وقصة غلام بدر الجمالى صافى مع ابن سيده الأفضل تصور ما كان يحدث بين رجال القصر والخدم من طموح ، وانتهاز للمفروض كى يشبوا إلى مناصب الوزارة بالتآمر ، وجمع الأعوان ، والضحك على الناس والتقرب إليهم بكل قول مفترى .

يقول ابن الصيرفي : « وكان سبب توليه — الأفضل — مع بقاء أبيه وحياته والبدار
 بذلك من عبر انتظار لوفاته أن غلاماً له يسمى صافياً ويلقب بأمين الدولة كان استخلصه
 وقدمه وفخمه وعظمه وذخره لعقبه ، وأسلمه حسن الظن به يمس من عافية مولاه فسوّلت
 نفسه ، وزين له هواه أن ينتصب في منصبه ويتولى الأمر من بعده ، وجهل أن سيادة
 البرايا ، وسياسة الرعايا ، ونفاذ الأمر والحكم ، ونيل السلطان والملك شيء لا يدرك
 بالسعي ، والحرص ، ولا يبلغ بأمانتي النفس ، وإنما هو أمر يخص الله سبحانه به من
 يصطفيه ، ويعقده تعالى لمن يراه أهلاً أن يجعله فيه . وأخذ أمين الدولة هذا يعجل تكفير
 النعمة بغياً واغتراراً ، ويصرُّ على المعصية عتواً واستكباراً ، ويستنجد بمن رباه مولاه لخدمة
 ولده من الرجال ، ويستعين بما أعده له وجمعه من الأموال . وجلس في داره فاجتمع إليه من
 خدعه واستهواه وإستماله واستغواه . وخيل له أن الإمام المستنصر بالله يخاره على السيد
 الأجل الأفضل ، ويؤثره ، ويعتمد عليه في دولته ، ويستوزره . فراسله السيد الأجل الأفضل
 مستميلاً له مستصلحاً ومستهجناً لهذا الفعل مستقبحاً ، ومدكراً بما له ولوالده عليه من
 الحقوق ، وتحذيراً سوء عاقبة المروق والعقوق . وهو يتأدى في التمرد والطغيان ، ويستمر على
 الظلم والعدوان . وركب إلى باب الذهب في لفته وجماعته طامعاً في انتظام حاله وبلوغ
 إرادته ، فلما لم يصل إلى الإمام المستنصر بالله انكسف باله ، واستحکم بأسه ، وصعقت
 نفسه ، وانحل أمره . وركب السيد الأجل الأفضل إلى باب العبد فأبى أمير المؤمنين في أمره
 إلا حكم الوفاء ، وكرم الخلفاء ، والسمو به إلى أعلا مراتب الاصطفاء ، فحقق له ماتمناه
 وودّه ، وأجراه مجرى أبيه ، وستر به مستره . فعند ذلك طلب منه أمين الدولة أن يشملمه
 بعفوه ، وأن يؤمنه على نفسه ، فأسعفه بمطلوبه ، وصفح له عن ذنوبه ، وأبقاه واحداً من
 أمراء الدولة من غير تعويل عليه في خدمة . »

وهكذا تولى الأفضل بعد أن حاول ذلك الغلام ريبب والده أن يشب على الوزارة والإمارة
 فضولاً ، وطمعاً .

وجُمع للأفضل ما كان لأبيه من السيف والطيلسان علامة قيادة الجيوش وقضاء القضاة ،
 أو أعمال الحرب وأعمال الإدارة ، قيادة الجيوش والوزارة .

وظل الأفضل في منصبه يولى مكان أبيه بعد وفاته ، ومالئ الخليفة المستنصر أن توفي
 بعده في العام نفسه ، فاستلم الأفضل على تولية المستنصر ابن المستنصر ، وهو في الرتبة

نفسه أصغر أبنائه ، وابن أئنت الأفضل ، وكان يكبره ثلاثة إخوة ، أكبرهم نزار الذى كان حين وفاة أبيه بالإسكندرية فلما علم بما فعله الأفضل رفض الطاعة للمستعلى وكان طفلاً ، وغضب على الأفضل واعتصم ومن ناصره بالإسكندرية . ويبدو أن أمين الدولة المذكور كان مع نزار .

وقامت بين الأفضل ونزار أحداث حاصر الأفضل الإسكندرية بجنوده ، ومالبت أن يستسلم نزار للأفضل فجاء به إلى القاهرة أسيراً ، وسلمه للمستعلى فبنى عليه حائطاً ومات نزار مقهوراً .

وأشيع أن المستنصر استخلف نزاراً إبنه الأكبر ، ونحالف الأفضل هذا الأمر بتنصيب المستعلى ، وثار أنصار نزار وخرجوا على الطاعة ، ولما غلبوا على أمرهم تفرقوا فى البلاد ورفضوا إمامة المستعلى ، ونادوا بامامة نزار .

ومنذ ذلك الحين انقسم الفاطميون الإسماعيلية إلى فرقتين النزارية وأنصار المستعلى . وظل النزارية يترهبون بالأفضل ، والمستعلى حتى تمكنوا منه فقتلوه .

وأخلف الحسن الصباح داعية الإسماعيلية لنزار ، ودعا أتباعه إلى إمامته ، واعتصم بقلعة الموت ببلاد فارس . وكان لهؤلاء النزارية دور كبير فى السياسة والحرب طوال القرنين الخامس والسادس .

وعلى الرغم من أن الأفضل استطاع أن يضبط الأحوال الداخلية فى الدولة ، وأن يخضع الرعية لحكمه ، ويكون هو الرجل الأقوى فى مصر كلها ومايتبعها من ولايات ، إلا أنه منى بكثير من النكسات فى بلاد الشام ، لضغط الصليبيين الوافدين من البحر والروم ، وأعداء الفاطميين التقليديين من الأتراك السلاجقة ، وعرب طى بزعامة بنى الجراح ، وعرب كلاب والحمدانيين أو بقاياهم فى شمال الشام .

وحدثت فى عهده نكسة احتلال الصليبيين لبيت المقدس بعد حصار إستمر أربعين يوماً فى يوليو سنة ١٠٩٢م شعبان سنة ٤٩٢ هـ . فقتل الصليبيون من المسلمين بالمسجد عدداً هائلاً من الرجال والنساء ، الكبار والصغار ، البنين والبنات بلغ عددهم داخل المسجد الأقصى ماينيف على سبعين ألفاً^(١)

(١) الإشارة ص ٦٠

قال ابن الصيرفي^(١): « وما زال الأفضل يجتهد في جهاد الفرنج (الصليبيين) نيفاً وعشرين سنة إلى أن اغتيل سلخ رمضان من سنة ٥١٥ هـ فمضى شهيداً إلى رحمة الله ورضوانه وخرج من الدنيا والعدو باق بالشام مستول على معظم ثغوره وعمله ، متصرف في سهله وجبله والله عز وجل يجعل عزمات المقام الأعظم المأمونى ماضية بمجواره ومعفية على آثاره » .

وذكر ابن سعيد أن النزارية قتلوه لاغتصابه الإمامة والخلافة من إمامهم نزار إلى المستعل ، وقيل أن الأمر وضع عليه من قتله . وكان عمره عند مقتله سبعمائة وخمسين سنة ، وكانت ولايته بسد أربعمائة وعشرين سنة .

وكان الأفضل أدبياً يتقن الشعر ويتقرب الأدباء والشعراء ، وخدم في قصره كثير من الأُدباء والشعراء أمثال ابن الصيرفي ، وأميرة ابن أبي الصلت القيروانى ، وظافر الحداد السكندرى ، وقصده ابن مكنسة فلم يحظ عنده ، ووفد إليه عديد من شعراء مصر والشام وسائر بلاد العرب والإسلام فأعطاهم وأجزل لهم العطاء .

وكان الأفضل يعيش في محبوبحة من العيش ، يضيف على مجالسه مظاهر الثراء ويقتنى من الأموال والجواري والغلمان ما لا يحصى عدداً . وقد صادره الأمر بعد مقتله .

وتولى بعده أحد رجاله وهو المأمون البطائحي ، ثم ابنه الذى استبد بالخليفة حتى قتل ثم ورر أحد رجال كتامه وهو عباس وابنه نصر ، ثم جاء الصالح بن رزيك وهو آخر الوزراء الكبار في دولة الفاطميين .

طلائع بن رزيك (ت سنة ٥٥٦ هـ)

لقب بأبى الغارات الصالح .

قال عنه المقرئى في ترجمته^(٢): فارس المسلمين نصير الدين ، قيل إنه أرمنى الأصل وانتسب إلى الغساسنة .

كان من الشيعة الإمامية وقدم أول أمره مع جماعة من فقهاء الشيعة لزيارة مشهد على

(١) المصدر نفسه ص ٦١

(٢) لخطوط ٢٩٣/٢ وراجع في ترجمته الوفيات ٢٣٨/١ ، والخريفة ١٧٣/١ شذرات الذهب ١٧٧/٤ ، والنجم

الزاهرة في حل حصرة القاهرة - تحقيق حمير بشار ص ٢١٧

رضى الله عنه بالنجف من أرض العراق ، وتنبأ له أحد الشيعة هناك بتولى مصر .
وهكذا وفد إلى مصر واتصل بالفاطميين ، وتولى لهم المناصب ، وترقى في الخدم
حتى ولى أمر منية بنى خصيب بصعيد مصر . فلما قتل نصر بن عباس الصنهاجى
الخليفة الظافر على ماذكرنا استجار نساء القصر بالصالح ابن رزيك ، فدخل القاهرة مع
جنده وأنصاره ، وفر أمامه عباس وابنه نصر .

وبعد دخوله خلع عليه الوزارة ونعت بالملك الصالح ، فارس المسلمين نصير الدين
فباشر البلاد أحسن مباشرة ، واستبد بالأمر لصغر الخليفة الفائز بنصر الله إلى أن مات
فأقام من بعده عبد الله بن محمد ولقبه بالعاقد لدين الله ، وبايع له . وكان صغيراً لم يبلغ
الحلم . فقويت حرمة طلائع وازداد تمكنه من الدولة ، فشغل على أهل القصر لكثرة
تضييقه عليهم واستبداده بالأمر دونهم ، فوقف له رجال بدهاليز القصر وضربوه حتى
سقط على الأرض على وجهه ، وحمل جريحاً لا يعى إلى داره فمات يوم الإثنين ١٩
رمضان سنة ٥٥٦ هـ .

وكان شجاعاً كريماً ، فاضلاً ، محباً للأدب وأهله ، جيد الشعر . رحل وقته فضلاً ،
وعقلاً ، وسياسة وتدبيراً وكان مهاباً في شكله ، عظيماً في سلطوته .

جمع أموالاً عظيمة ، وكان محافظاً على الصلوات ، فرائضها ونوافلها ، شديد المغالاة
في التشيع .

صنف كتاباً سماه « الاعتماد في الرد على أهل العناد » وجمع له الفقهاء فناظرهم
عليه ، وهو يتضمن إمامة على بن أبى طالب — رضى الله عنه — والكلام على الأحاديث
الواردة في ذلك .

وله ديوان شعر جيد ضمنه عقيدته يقول من أبيات أوردتها المقرئى :

ياأمة سلكت ضلالاً بيئاً	حتى استوى إقرارها وجمودها
لملم إلى أن المعاصى لم تكن	إلا بتقدير الإله وجودها
لوصح ذا كان الإله بزعمكم	منع الشريعة أن تقام حدودها
حاشا وكلا أن يكون إلهنا	ينهى عن الفحشاء ثم يريدنا

قصيدة سماها الجوهريّة في الرد على القدرية . أى المخويرة .

وذكر المقرئى أن مذهبه فى التشيع كان مذهب الإمامية مخالفاً لمذهب الفاطميين الإسماعيلية ولهذا فإنه على حد قوله لما ولى الوزارة مال على المستخدمين فى الدولة وعلى الأمراء ، وأظهر مذهب الإمامية ، وهو مخالف لمذهب القوم .

قال : وباع ولايات الأعمال للأمراء بأسعار مقررة ، وجعل مدة كل متول ستة أشهر ، فتضرر الناس من كثرة تردد الولاة على البلاد ، وتعبوا من ذلك . وكان له مجلس بالليل يحضره أهل العلم يدونون فيه العلم والشعر .

ولم يترك مدة أيامه غزو الإفرنج وتسيير الجيوش لقتالهم فى البر والبحر ، إلا أنه لم يحصل منهم على طائل ولم يسترد ماأخذوه أيام الأفضل ، وظل بيت المقدس فى أيديهم وظلوا يهددون حدود مصر من الشرق ومن البحر فى الشمال .

وكان يخرج البعث فى كل سنة مراراً ، وكان يحمل فى كل عام إلى أهل الحرمين مكة والمدينة من الأشراف سائر ما يحتاجون إليه من الكسوة وغيرها حتى يحمل إليهم ألواح الصبيان التى يكتب فيها ، والأقلام والمواد وآلات النساء .

وكان مجلسه ملتقى لأهل العلم والأدباء والشعراء ، يفدون إليه من سائر البلاد ، فلا يجيب أمل قاصد منهم ، ويفدق العطاء .

وأشتهر فيمن يجلس إليه عدد من شعراء مصر والشام فى أيامه كالمهذب بن الزبير وعمارة اليمنى ، والقاضى الجليس بن الجباب ، وأسامة بن منقذ .

وذكره ابن العماد فى الخريدة^(١) فأشاد بفضله وأدبه ، واستحسن شعره . قال : « هو سلطان مصر فى زمان الفائز ، وأول زمان العاضد ، ملك مصر ، واستولى على صاحب القصر ، ونفق فى زمانه النظم والنثر . وقرب الفضلاء واتخذهم جلساء ، ورحل إليه ذوو الرجاء ، وفاض لإحسانه على جميع الأرجاء . »

مدحه الشعراء ، وجمع مدحه فى كتاب سسمى « الدر المنظوم » يحتوى على جملة شعراء ما بين شريف وجليس ، وحسيب ، وعالم ، وشاعر قاصد ، وكاتب^(٢) .

(١) خريدة القصر : طبع مصر ١٧٥/١

(٢) النجوم الزاهرة فى حللى حضرة القاهرة ص ٢١٨

وانقضى عهد الصالح بن رزيك بجلوه ومره ، بايجابياته وسلبياته ، ولا ضير من ذكر ماله من أيداد على الحياة الأدبية والاجتماعية والعمرائية في مصر على الرغم مما روى إفي سيرته الذاتية من إنحراف عن دعوة الإسماعيلية وتشدد في التشيع للشريعة الإمامية ، وميل إلى إكبت الأعداء ، والرغبة في الاستحواز على المال .

وقد عدّه بعض مؤلفي الشيعة^(١) من كبار فقهاءهم ، ورجالهم ونسبكتهم المعدودين ، فضلاً عن علمه وشعره .

وتبع الصالح ابنه رزيك ، ولم يكن من الخنكة على قدر ما كان عليه أبوه ، فتحرش به شاور وكان من رجال الدولة الأقوياء ، وكان الصالح قد حذره من معاداته ، لكنه لم يتبع مشورته ، فكان أن غلبه شاور على الوزارة ، ثم انتقض عليه ضرغام ، وصدرت الحرب سجلاً بين شاور وضرغام في عصر الخليفة العاضد .

ولم يكن الخليفة يملك من أمره شيئاً ، واستنجد بالأمير نور الدين محمود في دمشق ، فبعث إليه بأسد الدين شيركوه ، واستنجد الآخر بملك بيت المقدس .

وظلت مصر والقاهرة مسرحاً للصراع بين هذه القوى الثلاثة الفاطميين ، والزنكبيين والأيوبيين ، ثم الصليبيين حتى حسمت المعركة لصالح الأيوبيين . واستولى صلاح الدين على السلطة .

جنس الخلفاء :

كان من عوامل ضعف الدولة الفاطمية استكثار الخلفاء من العبيد السودان والأتراك والصقالبة . يقول صاحب عيون الأخبار^(٢) :

« وعمل الوزير يعقوب بن يوسف على شراء العبيد الأتراك والسودان ، وأسكنهم خلف دار الوزارة ، ويسمى الموضع الذي أسكنهم فيه حافة الوزارة . وأضاف إليهم كثيراً من العسكرية . وقال : إن تغيرت كتامة (وهم عصب جنس الفاطميين وأعوهم) فمن ذا الذي يكسر شوكتهم ، ويفلّ حدّهم ؟ »

(١) عيون الأخبار ص ٢٤١

(٢) محمد هادي الأسيى جامع . ج ١ . طبع المكتبة الأهلية بالسف ١٩٦٤

فكان ابن كلس نصيح المعز والعزیز بالاستكثار من السودان والترك والصقالبة ليعادل بهم قوة جند الكتاميين البربر من شمال أفريقيا والذين جاء بهم المعز معه إلى مصر وأسكنهم ظاهر القاهرة بين المقطم والقرافة وسور القاهرة .

وكانت كثرة طوائف الجند واختلاف أجناسهم من أسباب إثارة الشغب والمتاعب أحياناً ، فكثيراً ماقتتل الأتراك والسودان ، أو كثيراً ماثار السودانيون ، وتحرشوا بالتجار في الأسواق ، بل وهجموا على قصور أسيادهم الفاطميين في بعض المناسبات والأعياد ، عندما يمد السماط للطعام .

يقول المسيحي في تاريخه^(١) في مناسبة عيد الأضحى سنة ٤١٥ هـ أيام الخليفة الظاهر « ثم دخل مولانا — صلوات الله عليه — إلى قصره ، ومشى إلى المنحر بصحن القصر مقابل ديوان الخراج . فنحر تسعة رؤس من النوق ، ثم انصرف ، وحضر أبو الحسن على بن محمد الطريفي ، كاتب قاضي القضاة لتفرقة اللحم على أرباب الرسوم ، فنهته العسكرية وجرى على الطريفي منهم كل قبيح . ثم استحضر شيوخ الدولة الأقارب والكتاميين وغيره من الضيوف ومن جرى لهم رسم بالحضور إلى السماط ، فلما جلسوا على السماط ولم يحضر مولانا — عليه السلام — كبس العبيد بالقصر وصاح جميعهم : الجوع ! الجوع ! نحن أحق بأكل السماط ، فضربهم الصقالبة بالعصى ، فلم يبالوا بهم ، وهجموا فدخلوا القصر وتهاوتوا على الطعام ، وضرب بعضهم بعضاً ونهبوا جميع ماأصلح من الأخباز والأشوية والحلوى ، ونهبوا القصاع والطنافير والزبديات ، وكان أمراً صعباً ، وأخذوا ثلاثمائة زبدية ، ولم يصدق الحاضرون أنهم تخلصوا منهم ولا يخرجون سالمين »

ويبدو أن كل طائفة من خدم القصر كان لهم مقدم كبير من أصحاب المقام عند الخلافة يدافع عنهم إذا ماشغبوا ، أو أثاروا فتنة ، من ذلك ما ذكره المسيحي عن الخادم الأسود « معضاد » الذي كان ذا مكانة في قصر الخلافة وكان العبيد من السودان يحمون بجأه .

قال المسيحي :

« ورد الخبر أن الجوالدة من العبيد نهب بلداً بالأشمونين بأسره ، والعرب معهم ،

(١) تاريخ المسيحي تحقيق وليم الورد ص ٢٠٣ طبع هيئة الكتاب سنة ١٩٨٠ .

وأنتهم حصلوا من النهب على مال كثير ، وحضر متولى ديوان العرائف ، فشكا ذلك إلى معضاد هذا الخادم الأسود ، وذكر نهب البلد فكان جوابه : متقبّل من عبيد مولانا . فلم يجبه أى هذا المسئول خوفاً من سطوته قال المسبحى : « وكان في هذا الجواب مافيه من فساد الأحوال وإطماع العبيد في النهب » .^(١)

وكانت الدولة تجرى على هذا الجند من مختلف الطوائف الأرزاق من الرواتب والأموال ، فإذا قصرت الأحوال ولم تف برواتبهم ولا أقواتهم ثاروا ونهبوا دكاكين التجار ، ومالوا على الضياع في الريف ، فساقوا أمامهم كل ما استطاعوا من ميرة ودواب .

ولم يكن الجيش الذى يتكون من هذه البرق المرتزقة والمشتراة من العبيد بالجيش الذى يعتمد عليه أو يصمد في وجه الأعداء ، إذ أن روح الجهاد ، والرغبة في الدفاع عن الدين والوطن كانت معدومة لديهم ، وإنما كانوا مأجورين يقاتلون بأجر ، ولأنهم عبيد شراء يفعلون ما يأمر به الأسياد .

وهذا ماترى من ضعف جيش الفاطميين بعد أن كثرت فيه عناصر المرتزقة ، وقلت عناصر المغاربة من الكتاميين وغيرهم الذى ساندوا الدولة في بدء ازدهارها وكسبوا كثيرا من المعارك ربما بسبب اعتقادهم وانتصارهم لدعوة الفاطميين .

حال الأسطول :

كان للفاطميين أسطول قوى في البحر المتوسط استطاع أن يحمى شواطئ دولتهم في شمال أفريقيا ومصر ، وأن يخوض كثيرا من المعارك المظفرة .

وقد أنشأ المعز كما ذكر المؤرخون هذا الأسطول من ستائة مركب لم ير مثلها في البحر ، وعندما جاء إلى مصر ، عمل على تقوية دار الصناعة المنقى على شاطئ نيل القاهرة أمام الفسطاط ، وكان الأسطول يجهز هناك ، فإذا تم تجهيزه وتحرك لحرب العدو الأفرنجي في البحر المالح خرج إليه من نيل القاهرة مبحراً شمالاً وكان أنثليفة الفاضى يسترضه جالساً في مظرة على النيل . ويقوم الأسطول أمامه نسورة لإظهار استعدادده ،

(١) تاريخ المسحر ص ٢٠٤

وتمام عدته للملاقة العدو . فينعم الخليفة على قائد الأسطول ، وقادة الشواني وبقية الوحدات ثم يأمرهم بالتوجه إلى العدو ، ويدعو لهم بالنصرة ، فينحدر الأسطول إلى دمياط بفرع دمياط ، ثم ينزل إلى البحر .

ويعصف المقرئى هذا الاحتفال فيقول :^(١)

« ... فإذا تكاملت النفقة وتجهزت المراكب ، وتهيأت للسفر ركب الخليفة والوزير إلى ساحل النيل بالمقس خارج القاهرة . وكان هناك منظره على شاطئ النيل يجلس فيها الخليفة يرسم وداع الأسطول ، ولقائه إذا عاد .

فإذا جلس للوداع جاءت القواد بالمراكب من مصر (الفسطاط) إلى هناك للحركات في البحر بين يديه ، مزينة بأسلحتها وبُعْدِهَا ، وما فيها من المنجنيقات ، فيرمى بها وتنحدر المراكب وتقلع ، وتفعل سائر ما تفعله عند لقاء العدو ، ثم يحضر المقدم والرئيس إلى بين يدي الخليفة ، فيودّعهما ، ويدعو للجماعة بالنصرة والسلامة ويخرج من دمياط إلى بحر الملح فيكون له في بلاد العدو صيت عظيم ، ومهابة قوية . »

ولقوة ما كان للأسطول الفاطمي من فعل في جزر البحر ، وعند ملاقة أسطول البيزنطيين الروم والفرنجية الصليبيين صدّ حملاتهم على شواطئ الشام ومصر .

ولما كان للأسطول الفاطمي من خطر في البحر على مواصلات الصليبيين البحرية وامتداداتهم من أوروبا كان أول ما طلبه الملك مري أو إمري ملك بيت المقدس عند حضوره إلى مصر مع حملته في أخريات عهد الدونة الفاطمية ، وأيام فتنة شاور وضرغام ، كان أول ما طلبه من شاور حرق الأسطول ودار الصناعة في الفسطاط حتى لا تقوم له قائمة .

(١) الخطوط ١٩٣/٢

أحوال الدولة في شمال أفريقيا

عرفنا أن نشأة الفاطميين كانت في تونس من شمال أفريقيا ثم بسطوا نفوذهم بعد ذلك بين ربوع المغرب معتمدين على بعض قبائل البربر والعرب هناك ، تدعيمهم دعوتهم ، ويساعدهم على التمكين لأنفسهم ماكان بين القبائل من صراع وتنافس ، واستطاع الفاطميون أن يكسبوا إلى جانبهم قبائل كتامة ، وصنهاجة وغيرها .

وسيطروا على بعض جزر البحر المتوسط كصقلية وكريت ، وكانت لهم حروب مع الفرنجة والروم والأمويين في الأندلس للسيادة على تلك الجزر . وهاجم أسطولهم ثغر المرية بالأندلس التابع لدولة الأمويين ، كما اشتبكوا معهم ومع الروم في حروب برية ونخرية سنة ٣٤٥ هـ .

وتوجه القائد جوهر الصقلي بجيش كثيف بأمر المعز لدين الله إلى المغرب الأقصى لإتمام فتحه ، وتم له النصر سنة ٣٤٧ هـ ، ودان له بذلك المغرب كله حتى البحر الأعظم أو المحيط الأطلسي .

ولما تمت للمعز السيطرة على المغرب وشمال أفريقيا حتى حدود مصر الغربية ، بعث بجيشه لفتح مصر ، وجاء إلى مصر وجعل قاعدته القاهرة ، وولى على القيروان وأفريقيا نائبا له من صنهاجة .

وكان الفاطميون قد اتخذوهم أعوانا ، وعينوا منهم قادة ، وكان أشهرهم يوسف بن بلكين بن زيري ، وقد تمكن يوسف هذا من القضاء على أحد الخارجين من قبيلة زناتة وقتله وقضى على ثورته سنة ٣٦٠ هـ .

وكان الفاطميون قد تعاونوا كذلك مع كتامة ، واتخذوا من رجالها سندا وقوة لجيوشهم وخاصة التي شرقت لفتح مصر والشام .

وظلت صنهاجة ورجالها يلون للفاطميين نيابة عنهم حكم شمال أفريقيا والمغرب حتى عهد المعز بن باديس الذي أعلن أنتقاضه على سلطة الخلافة العاطمية بالقاهرة في-عصر المستنصر بالله ، والدعوة للخليفة العباسي في بغداد .

يقول ابن الأثير: (١) « في سنة ٤٣٥ هـ أظهر المعز (بن باديس) ببلاد أفريقية الدعاء للدولة العباسية ، وخطب للإمام القائم بأمر الله أمير المؤمنين ، ووردت عليه الخلع والتقليد ببلاد أفريقية ، وقطعت خطبة الفاطمية من ذلك الوقت ، وأحرقت أعلامهم ، فغاظ ذلك الوزير اليازوري ، فكان ماكان من تحريض عرب بنى هلال وبنى سليم على غزو أفريقيا وتخريب القيروان . » .

ويروى المؤرخون أسباباً كثيرة لخروج المعز على طاعة المستنصر والدولة الفاطمية فابن الصيرفي يرى أن سبب ذلك عدم احترام المعز للوزير اليازوري في خطابه له ، مما أغضبه عليه ، فأغلظ له القول ، ومنها أن أهل تلك البلاد في شمال أفريقيا كانوا لا يدينون بالولاء للعقيدة الفاطمية ، فكثير منهم كانوا من السنة المتحمسين لمذهب الإمام مالك ، وقد اضطر هؤلاء إلى عدم الجهر بعدائهم للشيعة تحت ضغط القهر من الأئمة الفاطميين في أثناء وجودهم بالمهدية والقيروان والمنصورية . فلما خرج المعز إلى مصر ، قلت هيبتهم في النفوس ، وتحرر أهل البلاد من الكبت ، فعادوا إلى الجهر بعدائهم للشيعة وانتصارهم لمذهب مالك ، وكان على رأس هذه الدعوة إلى عودة المالكية ومعاداة الشيعة فقيه مالكي معروف في تلك البلاد هو التفرى .

وقيل إن أهل السنة ثاروا على الشيعة بالقيروان في أول ولاية المعز بن باديس فقتلوا جماعة من الشيعة ، وقتلوا نساءهم وأولادهم ، وظلت الفتنة بالقيروان بين أهل السنة والشيعة ، ولجأت جماعة من الشيعة إلى الجامع بالمهدية فقتلوا فيه . وكان لا يرى أحد منهم بالقيروان في الطريق إلا ضرب ضرباً عنيفاً ، وربما قتل وأحرق . واجتمع منهم قدر ألف وخمسمائة رجل تحت قصر المنصورية واستغاثوا بالمعز فأمر بالكف عنهم .

قال صاحب المؤنس: (٢) « والمعز هذا هو الذي طهر الله تعالى على يده أفريقية من مذهب الشيعة — وإن كان من عمالمهم — يعني الفاطميين — إلا أنه كان يتمذهب بغير مذهبهم . وحمل الناس في أيامه على مذهب الإمام مالك رضى الله عنه ، وقطع ماعدها ، ولما اشتدت سلطته خرج على طاعة بنى عبيد ، وخطب لبنى العباس سنة ٤٣٥ هـ وقطع خطبة المستنصر سنة ٤٤٠ هـ ، وقطع بنودهم وأحرقها .

(١) الكامل في أحداث سنة ٤٣٥ هـ ٢٩٥/٨ - ٣٠٢

(٢) المؤنس في أخبار تونس ص ٨٢

وكان انتقام المستنصر الفاطمي من المعز ورجال القيروان متمثلاً في اطلاق قبائل بني هلال وبني سليم وغيرهم من صعيد مصر لغزو أرض المعز وتخريب سلطانه . قال صاحب المؤنس : « وفي أيام المعز بن باديس والمستنصر بالله جاءت العرب من المشرق وسكنوا بأفريقية . وسبب دخول العرب إلى أفريقية أن المعز بن باديس لما قطع خطبة صاحب مصر وهو المستنصر بالله كان يسبّ بني عبيد سراً إلى أن صرّح به على المنابر . وكان يكاتب وزير المستنصر (اليازوري) ويستميله ، ويعرض له بالتحريض عليهم^(١) وإنما يكتب له تلميحاً لا تصريحاً ، وكتب إليه قطعة بخط يده ، وتمثل بيت من الشعر وهو :

وفيك صاحبت قوماً لا خلاق لهم لولاك ما كنت أدري أنهم خلّفوا

فقال الوزير (اليازوري) لبعض أصحابه : ألا تعجبون من صبيّ بربريّ مغربيّ يحسب أن يخدع شيخاً عربياً عراقياً ؟ .

وإنما أراد المعز أن يوقع بين الوزير وخليفته الشرّ .

ولما خلع المعز بن باديس طاعة بني عبيد ، وجاءته الخلع من بغداد أشار الوزير على المستنصر العبيدي بإرسال العرب ، فأرسل المستنصر إلى عرب الصعيد الذين بمصر وكانوا يسكنون شرق النيل ، وهم بطون من بني عامر بن صعصعة من بني هلال ومعهم بطون من بني سليم من عرب نجد ، وكانوا قد نزحوا إلى مصر في عصر الفاطميين واستقروا في الصعيد شرق النيل . «

وهكذا أطلق المستنصر بني هلال وبني سليم من الصعيد إلى تونس والقيروان وبرقة ، فأباحها لهم ، وأعانهم على ذلك بمال — وهم بطون رياح وزغبة ، وعدى ، وبطون من بني عامر بن صعصعة ، فلما دخلوا إلى أفريقية عاثوا فيها كيف شاءوا ، وملثت أيديهم من النهب ، فتسامعت بنوعمهم في مصر بذلك ، فطلبوا من الخليفة اللحاق بمن تقدمهم فمنعهم من ذلك إلا أن ينطوه شيئاً من أموالهم ، فأخذ منهم أضعاف ما أعطاه لبني عمهم وسرحهم ، ولما وصلوا إلى المغرب كانت لهم وقعاتٌ مع زناتة بإقليم طرابلس ، وكثر ضررهم وأفسدوا البلاد .

(١) يخالف صاحب المؤنس في هذا قول ابن الصيرفي في الإشارة

ولما قربوا من أفريقية — تونس — خرج المعز في جمع من صنهاجة وزناته ، فاجتمع له عسكر عظيم ، فالتقى معهم ، وكانت بينهم مصاف ، فخذلته زناته ، وانهمزت صنهاجة حتى لم يبق معه إلا عبيده ، وكان عدد العبيد عشرين ألفاً ، وثبت المعز في تلك الحروب ثباتاً لم يثبته أمير هزم جيشه ، وآخر الحال انهزم ورجع إلى المنصورية ، وأقبل العرب حتى نزلوا بإزاء القيروان ، واقتتلوا بين رقادة والقيروان ، ومات من الفريقين خلق عظيم وكان ذلك حوالي سنة ٤٤١ هـ .

ولما رأى المعز ماحلً به ركن إلى الصلح ، ورفع الحرب بين العرب وبينه ، وأباحهم دخول القيروان ليشتروا منها ما يحتاجون إليه ، وظن أنهم يرجعون إلى بلادهم ، فلم يغن عنه ذلك ، وملكوا البلاد بأسرها ، واقتسموا براريها ، وأفسدوا حواضرها . وكان الخطبُ جليلاً ، فلما رأى المعز كثرة ضررهم ، وعجز عن دفع أذاهم رحل إلى المهديّة ، وبها حشمه ، وكان ولده تميم والياً عليها ، وخرج في رمضان سنة ٤٤٩ هـ . ونهبت العرب القيروان وكان ذلك سبب خرابها وجلاء أهلها عنها .

ولما وصل إلى المهديّة تلقاه ولده تميم ، وترجّل له ، وقبّل يده ، وأدخله البلد ، فسلم الأمر إلى ولده تميم في حياته ، فقام بأمور الدولة أحسن قيام وتوفى المعز سنة ٤٥٣ هـ . فكانت أيام ولايته ٤٩ عاماً .

وباضطراب أحوال أفريقيا ضعفت الصلة بينها وبين الخلافة في مصر حتى انقطعت أسبابها تماماً .

أحوال الشام والمشرق العربي

جاء المعز لدين الله إلى القاهرة وفي خطته أن يغزو الشام ويستولى على ملك العباسيين ولم يزل ذلك حلم الخلفاء الفاطميين حتى انقضت دولتهم .

وفي سنة ٣٦٣ هـ تم استيلاء جيش المعز على دمشق ، ونهب المغاربة البلد واستوحش أهلها منهم ، ووقعت فتنة وحروب بين الجانبين ، ولايستطيع المرء أن يستبعد أحداث التاريخ وماتزرعه في النفوس من أحاسيس ومشاعر تؤثر على تصرف البشر وتوجهاتهم ولاشك أن الفاطميين العلويين كانوا يحملون لدمشق مشاعر العداة ، لما سطره تاريخها وقد كانت عاصمة الأمويين من أحداث دامية ضد العلويين ، بين على ومعاوية ، وبين أبناء معاوية وخلفائه وأتباع على وخلفائه .

وكذلك كانت دمشق وأهلها ومعظمهم من أهل السنة المتحمسين كانوا لا يحبون الفاطميين ولا يقبلون حكمهم ، من هنا لم يستقر أمر الفاطميين مع دمشق وأهلها ، وكثيرا ماقامت الفتن ، وانتقض أهل دمشق ضد الفاطميين وولاتهم .

وفي تلك السنة ٣٦٣ هـ كثرت الوقائع بين العامة وجند المعز داخل أسوار دمشق وخارجها . قال ابن الأثير :^(١) « وألقى المغاربة النار من ناحية باب الفراديس ، وأحرقوا تلك الناحية ، فاحترق من البلد كثير ، وهلك جماعة من الناس ومالا يُحَدُّ من الأثاث والرجال والأموال ، وبات الناس على أقبح صورة . »

ولم تستقر الأحوال في تلك السنة ، بل عادت الفتنة مرة أخرى في جمادى الأولى . قال ابن الأثير : فقد زحف جيش من العسكر إلى البلد ، وقاتله أهله ، فظفر بهم وهزمهم ، وأحرق من البلد ماكان سلم ، ودام القتال بينهم أياماً كثيرة ، فاضطرب الناس وخافوا ، وخربت المنازل ، وانقطعت المواد ، وانسدت المسالك ، وبطل البيع والشراء ، وقطع الماء عن البلد ، فبطلت القنوات والحمامات ، ومات كثير من الفقراء على الطرقات من الجوع والبرد . »

(١) الكامل أحداث تلك السنة ص ٧

وكانت الشام ميداناً للصراع بين كثير من القوى ، بين العباسيين والفاطميين والحمدانيين ، والقرامطة والعرب ، والأتراك ، والروم البيزنطيين ثم للصليبيين من بعدهم .

وكان بعض أطراف هذا النزاع يسيطر على المنطقة كلها أو كثير منها أحياناً وأحياناً أخرى يتقلص نفوذه ، وينحجر ليعود فيمتد وينبسط ، كما أن بعض الأطراف كان حليفاً للآخر زمنياً ، أو فترة من الوقت ، ثم يعود لينقض الحلف إذا أتاحت له فرصة الانقضاض ، أو آنس من حليفه ضعفاً أو وجد حليفاً آخر من تلك القوى أشد وأقوى ، وأقدر على تحقيق المصلحة من الحليف السابق .

كان الحمدانيون ، والقرامطة والفاطميون ، والبويهيون في بغداد علويين شيعة ، وإن اختلفت انتماءاتهم بين إمامية ، واثنا عشرية ، وإسماعيلية وروافض ، منهم المغالون ، ومنهم المعتدلون ، مع انتمائهم في النهاية إلى التشيع لعلى وآله .

وكانت بين هذه الأطراف والقوى العلوية مصالحات ، ومهادنات أحياناً وصراعات ، وحروب دامية ، وعداوات أحياناً أخرى ، كما كان بين الفاطميين والقرامطة ، والقرامطة والبويهيين ، والبويهيين والحمدانيين ، ثم بين الحمدانيين والفاطميين .

ولا يغيب عن الذهن أن منشأ الدعوة الفاطمية في مرحلة الستة أو الاختفاء ، كان بالشام ، فقد أقام مؤسسها في إحدى القرى هناك ، وظل يدعو سرا خشية من بنى العباس خلفاء بغداد .

قال المقرئى : (١) « وإنما كان القوم — أعنى بنى على بن أبى طالب تحت ترقب الخوف من بنى العباس لتطلبهم لهم في كل وقت وقصدتهم إياهم دائماً بأنواع العقاب ، فصاروا بين طريد وشريد ، وبين خائف يترقب . ومع ذلك فإن لشيعتهم الكثرة المنتشرة في أقطارهم من المحبة لهم والإقبال عليهم مالا مزيد عليه »

وقال : « وتكرر قيام الرجال منهم مرة بعد مرة ، والطلب عليهم من ورائهم ، فلاذوا بالاختفاء ولم يكادوا يعرفون حتى تسمى محمد بن إسماعيل الإمام جد عبید الله المهدي بالمكتوم ، أسماءه بذلك الشيعة عند اتفاقهم على إخفائه حلزوا من المتكلمين عليهم ،

(١) الخطط ١/٢٤٩

وكانت الشيعة فرقةً ، فمنهم من كان يذهب إلى أن الإمام من ولد جعفر الصادق هو إسماعيل ابنه — وهؤلاء هم « الفاطمية الإسماعيلية » ومنهم من يرى غير ذلك .

وكان هذا الاختفاء من أئمة الفاطميين قبل إعلان عبيد الله المهدي الدعوة في شمال أفريقيا بعد أن وجد الفرصة وتقوى بقبائل البربر سبباً أعان العباسيين في حربهم الدعائية ضد الفاطميين ، بادعائهم النسب إلى فاطمة وعلى بن أبي طالب ، وأنهم كاذبون في ذلك النسب ، بل إن نسبهم في الحقيقة كما يقولون إلى رجل دعى من اليهود بالشام .

وقد نفى المقرئى هذا الاتهام من قبل العباسيين فقال^(١) :

« فهذه أقوال إن أنصفت تبين لك أنها موضوعة ، فإن بنى على بن أبي طالب رضى الله عنه قد كانوا إذ ذاك على غاية من وفور العدد وجلالة القدر عند الشيعة في الحامل لشيعتهم على الإعراض عنهم والدعاء لابن مجوسى^٢ أو لابن يهودى . فهذا مالا يفعله أحد ، ولو بلغ الغاية في الجهل والسخف ، وإنما جاء ذلك من قبل ضعفة خلفاء بنى العباسى عندما عَصُوا بمكان الفاطميين » .

ولم تكن حرب الدعاية بين الفاطميين والعباسيين مقصورة على هذا ، بل كان كل من الفريقين يحاول استقطاب العلماء والشعراء ، والأدباء ، ليكونوا أدوات أعلام لهم وتمكين بين الناس .

ولم تحدث مواجهة عسكرية واضحة بين العباسيين والفاطميين لضعف العباسيين كما قال المقرئى ، بل جل ما استطاعه خلفاء بغداد إيفاد بعض القادة من الأتراك لصد غارات الفاطميين على مصر أيام الإخشيديين ، وعلى الشام في بداية عصر الفاطميين في مصر والشام .

ويعتبر الصراع بين البويهيين والفاطميين امتداداً للصراع بين العباسيين والفاطميين لأن أولئك كانوا يملكون شؤون الخلافة ، وإن قامت بينهم وبين الأتراك من جند الخلافة صراعات . ومها يكن فإن في آخر عهد المعز لدين الله قامت فتنة أفتكين التركي بالشام واستمرت حتى أول عام في حكم العزيز بالله .

وكان أفتكين أحد أتباع معز الدولة بن بويه ، واختلف مع بختيار بن معز الدولة ،

(١) الخطط ١/٣٤٩

فخرج من بغداد مع طائفة من أتباعه من جند الأتراك فوصل إلى حمص ، وتوجه إليه وإلى دمشق من قبل المعز فلم يتمكن منه ، وعاد إلى دمشق ، فتبعه أفتكين إلى دمشق ، وقابله أهلها بالترحاب لضيقهم بجند المعز من المغاربة ، وكرهيتهم لحكمهم لمخالفتهم في الاعتقاد وظلمهم . فدخل أفتكين دمشق وقطع خطبة الطائع العباسي في شعبان سنة ٣٦٤ هـ .

قال ابن الأثير عن أفتكين : وأبان عن شجاعة وقوة نفس وحسن تدبير فأذعن أهل دمشق له ، وكتب المعز بمصر يداريه ويظهر له الانقياد ، وبعث إليه المعز ليحضر إليه ليخلع عليه ، فامتنع أفتكين خشيةً .

وجيز المعز جيشاً إلى دمشق ، ولكن الموت عاجله ، فتولى المهمة ابنه العزيز من بعده وظل أفتكين يتوسع بضم أجزاء من الشام ، حتى بعث إليه العزيز بالله جوهر الصقل على رأس جيش كبير ، وظلت الحرب بين الجانبين سجالاً ، وتقوى أفتكين ببعض أهل الشام والقرامطة ، والتقى مع جوهر بالرملة من أرض فلسطين ، فانسحب جوهر إلى عسقلان ، فتابعه أفتكين ومن معه وحاصروه في عسقلان ، ولقى جوهر وعسكر الفاطميين متاعب شديدة في الحصار حتى دعا جوهر أفتكين إلى لقائه . قال ابن الأثير : فالتقيا ، واتفقا على أن يفك الحصار عن جوهر وجيشه ويسمح له بالعودة إلى مصر .

وعاود العزيز الكرة بالخروج مرة أخرى لملاقاة أفتكين والقرامطة بالرملة سنة ٣٦٧ هـ وفي هذه الحملة هزم أفتكين ومن معه من القرامطة ، ووضع فيهم العزيز وجيشه السيف ، فأكثروا القتل ، وبلغ عدد القتلى نحو عشرين ألفاً .

وهرب أفتكين بعد انكساره وبذل العزيز لمن يأتي به مائة ألف دينار ، وكان ابن مفرج الطائي من شيوخ الأعراب في الشام وصاحب الرملة قد تمكن من أسر أفتكين فأرسله أسيراً إلى العزيز ، فأكرمه العزيز وصحبه معه إلى مصر وجعله من خاصته .

وكان القرامطة مصدر قلق للفاطميين ، مع ماكان بينهم من علاقات في الدعوة والعقيدة . فقد انشق عليهم الحسن القرمطي وناجزهم الحروب بغارات متتالية كان منها تلك الغارة على مصر والتي بلغ فيها أبواب القاهرة ، لولا أن تمكن المعز بدهائه وماله أن يغرى بعض أعوان القرمطي ، فانسحبوا عنه وتخاذلوا وتمكن المعز من هزيمته سنة ٣٦٣ هـ إلا أن القرامطة ظلوا يسعون الحروب بالشام ، ليقتضوا مضاجع الفاطميين

ويزعزعو قبضتهم على البلاد هناك . وتحالفوا مع بعض القوى المعارضة كما رأينا من تحالفهم مع أفتكين الذى انتهى أمره بالخذلان .

وكان آل الجراح مفرج وأبناؤه حسّان وعلّى ومحمود شيوخ الأعراب بالرملة ، ومن القوى البارزة في فلسطين وبادية الشام قد ناوأوا الفاطميين وقامت بينهم منازعات ، قد تهدأ أحيانا ويسود الصلح ، وقد تنور فتستعر الحرب ، وكان أول نزاع مسلح بين آل الجراح والفاطميين زحفهم صحبة الحسن القرمطى إلى القاهرة سنة ٣٦٣ هـ وانخذلهم عن القرامطة بعد إغراء المعز لهم بالذهب .

ثم عادوا فتحالفوا مع أفتكين في أخريات عهد المعز وأول عهد العزيز ، ولكنهم تخلوا عنه وأسروه وقدموه للعزيز بالله بعد انكساره على ماعرفنا ، وساد السلام زمنا بين الجانبين حتى عهد الحاكم بأمر الله .

وعادت العداوة بينهما تظل من جديد بعد أن بعث الحاكم أحد قواده ياروختكين إلى الشام لإعادة الهدوء إليها ، وضبط أمورها ، وفرض سيطرة الدولة التى عبث بها الروم ، والحمدانيون في الشمال .

وكانت جيوش الفاطميين قد عانت كسرة على أبواب حلب على يد باسيلوس أو باسيل إمبراطور الروم .

ولم يطمئن آل الجراح إلى قدوم جيش الحاكم بقيادة ياروختكين فنازلوه ، وتمكنوا من أسره . وكان للفاطميين حامية بالرملة استطاعت الصمود أمام حسّان بن مفرج وجنده من الأعراب ، ولم تلبث تلك الحامية أن استسلمت تحت ضغط حشود الأعراب بتحريض من الوزير الحسين بن على المغربي^(١) . وبالغ بنو الجراح في عداء الفاطميين فقتلوا ياروختكين بعد أن أمعنوا في إذلاله .

وأطمح انتصار آل الجراح في فلسطين والرملة آمالهم ، وزكّأها الوزير المغربي المتور من الحاكم الفاطمى لقتله أباه وإخوته ، وحسّن لهم إغراء شريف مكة بتولى الخلافة ، على أن يكونوا أنصاره بسيفهم ، وبتأييدهم .

وكانت علاقة بنى الجراح بالحاكم بأمر الله قد بلغت نقطة اللارجوع ، وكان ابن المغربى يدرك ذلك ، فتفتق ذهنه عن خطة بارعة ، وهى أن يوجد الخليفة البديل الذى

(١) راجع الوزير المغربى لإحسان عباس ص ٤٢ طبع ونشر . ر الشروق بعمان الأردن ١٩٨٨

يستند إليه بنو الجراح في استمداد « غطاء الشرعية » لسלטانهم ، ووجده ، فاجتمع بالمفرج وأولاده وقال لهم : كسفتم القناع في مباينة الحاكم ، ولم يبق من بعد للصلح موضع . والتفت إلى مكة ، ولفت إليها انتباههم قائلاً : هذا أبو الفتوح الحسن بن جعفر العلوي صاحب مكة لا مطعن ولا مغمز في نسبه ، وهو في بيته وفضله وكرمه بمكان رفيع ، والصواب أن ننصبه إماماً ، ونقوم معه على الحكم . فافتتح بنو الجراح بوجهة نظره ، وأمره حسن بالتوجه إلى أبي الفتوح بمكة ، وعرض الأمر عليه . ولما نزل على أبي الفتوح أطمعه في الرئاسة والخلافة ، وضمن له طاعة حسان وقومه .

وكانت العقبة الكبرى هي قلة مافي يد أبي الفتوح من مال ، يستميل به الأنصار والمؤيدين ، وحين شكنا ذلك إلى ابن المغربي أشار عليه بأخذ مافي خزانة الكعبة من الأموال ، وانتزاع ماعليها من أطواق الذهب والفضة وضربها دراهم ودنانير ، ففعل ذلك .

وهكذا تم لنوزير المغربي وحسان بن مفرج ماذهبوا إليه من تنصيب خليفة بدلاً من الحاكم ، وركب أبو الفتوح في يوم الجمعة ، والمفرج بن الجراح وأولاده بين يديه مشاة حتى دخل المسجد ودعا ابن نباتة عبد الرحيم بن محمد الفارق الخطيب ، وأمره بالخطبة فصعد المنبر وخطب بقوله :

﴿ طسم ، تلك آيات الكتاب المبين ، تلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم ، إنه كان من المفسدين ، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ولجعلهم أئمة ، ولجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾

وواضح إشارة ابن نباتة ، وتلميحه بالحاكم وتعرضه به لإرضاء بنى الجراح ، والخليفة المزعوم .

وشارك في مؤامرات بنى الجراح ضد الخلافة الفاطمية الشاعر المعروف أبو الحسن التهامي ، وقد جاء إلى مصر موفداً منهم لتأليب بعض قبائل الأعراب في مصر على الحاكم بأمر الله ، حتى يمكن إسقاط دولته ، إلا أن أمره انكشف فقبض عليه وأودع خزانة البنود وظل بها حتى مات .

ولم تكلل مؤامرات بنى الجراح وآمالهم التي زينها لهم ابن المغربي بالنجاح بل إن

الحاكم سرعان ما فهم الغاية مما يجري من حوله ، فتعامل معهم بأساليب تمزج بين الدهاء ، والمداهنة إلى حين يقتنص فرصة للانقضاض والإيقاع بهم . ولوَّح الحاكم لحسان ابن المفرج بالمال والقرى ، كما ألح إلى التغاضي عن جريمة قتل ياروختكين ، وطلب إلى حسان مقابل ذلك نقض الاتفاق الذي عقده مع الخليفة المزعوم أبى الفتوح .

وأغرى الطمع حسان ، كما أغرى أباه من قبل في عهد المعز . وسال لعابه له ، وأحسَّ الخليفة المزعوم بما يدور حوله فبادر بالعودة إلى مكة والاعتذار إلى الحاكم وطلب الصفح منه .^(١)

وانتهت مؤامرة بنى الجراح بسبب يقظة الحاكم ورجاله ودهائه ، وانتهت بذلك متاعب الفاطميين منهم ، وواجهوا غيرهم ممن كانوا يناوئوهم بالشام ومنهم الحمدانيون أصحاب الموصل وحلب .

بين الفاطميين والحمدانيين

كتب المعز لدين الله إلى جوهر قائده بعد استيلائه على مصر : ... وأما ما ذكرت يا جوهر من أن جماعة من بنى حمدان وصلت إليك كتبهم يبذلون الطاعة ، ويعلمون بالمسارعة في المسير إليك ، فاسمع لما أذكره لك . أحذر أن تبتدىء أحداً من آل حمدان بمكاتبة ترهيباً له ولا ترغيباً . ومن كتب إليك كتاباً منهم فأجبه بالحسنى والجميل ولا تستدعه إليك . ومن ورد إليك منهم فأحسن إليه ، ولا تمكن أحداً منهم من قيادة جيش ولا ملك أطراف ، فبنو حمدان يتظاهرون بثلاثة أشياء عليها مدار العالم وليس لهم فيها نصيب :

يتظاهرون بالدين وليس لهم فيه نصيب
ويتظاهرون بالكرم ، وليس لواحد منهم كرم في الله .
ويتظاهرون بالشجاعة ، وشجاعتهم للدنيا لا للآخرة
فاحذر كل الحذر من الاستناد إلى أحد منهم .^(٢)

وكان الروم قد اجتاحتوا إمارة سيف الدولة في حلب قبل وفاته ، وخلفه ابنه . كان

(١) راجع الوزير المقرئ لإحسان عباس ص ٤٩ - ٥٢

(٢) المخطوط ٣٥٢/١

نقفور البيزنطى قد عمل على تحطيم قوة المسلمين والعرب في الشام وثغوره ، وبدأ بإمارة الحمدانيين .

قال ابن الأثير في حوادث سنة ٣٥٩ هـ : « وجعل نقفور همه قصد بلاد الإسلام والاستيلاء عليها . »

وبعد وفاة سيف الدولة ، خلفه ابنه سعد الدولة ، وكانت علاقته بالفاطميين مضطربة حتى توفي فخلفه أحد أبنائه ، وكان قد ترك ولدين صغيرين ، وكفلهما لؤلؤ تابع سعد الدولة فاستبد بالسلطة في حلب دون الأمير الصغير ، وكانت بين لؤلؤ والفاطميين أحداث ، لم يستقر فيها الوضع على حال ، وأغرى حال إمارة الحمدانيين في حلب بعض شيوخ العرب الأقوياء ممن كانوا ينافسون الحمدانيين وهم بنو مرداس الكلايين الذين ورثوا إمارة حلب من بعد ، وأصبحوا ملوكها بعد منازعات ومصادمات بينهم وبين كل من الحمدانيين والفاطميين والروم .

وجدير بالذكر أن بعض أمراء الحمدانيين جاءوا إلى مصر وتولى أحدهم منصباً رفيعاً ، وشارك في الأحداث التي اضطرت في مصر في القرن السادس وانتهى الأمر بمقتله وأعنى الأمير ناصر الدولة الحمداني .

وكان الوزير الداهية يعقوب بن كلس قد أوصى العزيز أن لا يأمن لبني حمدان وكانت أحوال الشام قد اضطرت في عهد المستنصر بالله حتى بعث بقائده أنوشتكين الدزبرى — وكان صارماً — أمكنه حفظ البلاد والوقوف أمام الخارجين وهزيمة الروم إلا أن الأمور ساءت بينه وبين الوزير الجرجرائى . فحرض هذا الوزير بعض جنود الشام على أنوشتكين ، وتمكنوا منه فهرب ، وانتهى الأمر بموته سنة ٤٥٣ هـ .

وقال ابن الأثير في حوادث هذه السنة^(١) : « فسد أمر بلاد الشام ، وانتقضت الأمور بها ، وزال النظام ، وطمعت العرب ، وخرجوا من نواحيه ، فخرج حسّان بن مفرج الطائى بفلسطين وخرج معز الدولة بن صالح الكلايين بحلب ، وقصدها وحصرها وملك المدينة . »

والمتبع لدور الحمدانيين في الشام ومنذ نشأتهم ير أنهم عملوا على بسط نفوذهم على

(١) راجع الكامل في أحداث هذه السنة الجزء الثامن .

الجزيرة وشمال الشام ، واقتطاع كما ما يمكن اقتطاعه من أرض الخلافة العباسية ، أو أملاك الفاطميين في تلك الجهات ، سواء أكان ذلك بانتهاز فرصة ضعف أى منهما ، أو مخالفة أحدهما ضد الآخر أو حتى مخالفة الروم والارتقاء في أحضانهم ضد كلاهما أو ضد واحد منهما إذا مارأوا في ذلك كسبا أو مصلحة لهم .

يبين الفاطميين والسلاجقة

بدأت قوة السلاجقة الأتراك في الظهور في القرن الخامس — الحادى عشر الميلادى — ، وناجزوا البويهيين للسيطرة على شرق العالم الإسلامى ، والخلافة العباسية في بغداد ، وتدخل الفاطميين في هذا الصراع المثلث الأطراف محاولين النفوذ إلى غايتهم في السيطرة على بغداد عاصمة العباسيين والدعوة لأنفسهم على منابرها .

وكان لدعاتهم فضل تمهيد الأرض أمام بسط نفوذهم في تلك الأرجاء : وقد مر بنا ماكانوا يفعلونه من بث الدعاة ، وماكان من أمر الحسن الصباح صاحب قلعة الموت ، كذلك كان لأحد دهاة دعاتهم وهو المؤيد للدين داعى الدعاة دور كبير في الانقلاب الذى حدث في بغداد على يد البساسيرى أحد أعوان الفاطميين من جند الأتراك سنة ٤٥٠ هـ إذ ثار على الخليفة العباسى وأعوانه ، وكاتب المستنصر ودعا له بمسجد بغداد وغيرها . ولم يدم ذلك طويلا ، إذ سرعان ماأعاد السلاجقة الأتراك هجومهم على بغداد وتمت هزيمتهم للبساسيرى وأعادوا الخليفة العباسى إلى موقعه ، والخطبة له على المنابر من جديد .

واستطاع السلطان السلجوقى طغرلبيك بعد الاستيلاء على بغداد والقضاء على البساسيرى أن يتعقب دعاة الفاطميين ورجالهم ، كما هاجم أملاكهم في الشام وطاردهم خلفاؤه في أنحائها ، وظل سلاجقة الشام والروم في حرب مع الفاطميين حتى تقلص نفوذهم بالشام . فاستولوا على حلب ، وهاجموا دمشق ، واتجهوا جنوبا إلى فلسطين وبيت المقدس سنة ٤٦٣ هـ .

وكان السلاجقة ممن اتخذوا من مذهب أهل السنة عقيدة لهم ، وتحمسوا له وعارضوا الشيعة وفرقهم ، وحاربوهم في المشرق والعراق والشام ، وانضم إليهم كل أهل السنة في تلك البلاد وعضدوهم ، وآزرهم في حربهم للفاطميين ومن لف لفهم .وقد نشطت فرق الشيعة الباطنية في تكوين جمعيات سرية فداوية ، كانت تتعقب سلاطين

السلاجقة وكبار رجالهم ، وتغلبهم ، لتعيق حركتهم في محاربة الفاطميين والشيعية .

ويقول أحد الكتاب في تصوير قيام الدولة السلجوقية وعملها على دفع موجات الروم والصليبيين بعد توحيد كلمة المسلمين :

« كان سبق للمسلمين أن شهدوا في القرن الخامس الهجري (الحادى عشر الميلادى) وحدة في صفوفهم يوم قامت أولى امبراطوريات الأتراك على سواعد السلاجقة ، وامتدت أطرافها حتى ضمت مع ممتلكاتها أراضي الخلافة أيضا . وقد رفع قواعدها السلطان طغرل بك سنة ٤٢٥ هـ — ٤٤٥ هـ (١٠٣٣ — ١٠٦٣ م) فاستولى في سنة ٤٢٥ هـ على خراسان ، وخطب له في نيسابور ، ومازال أمره في علو حتى هابه ملك الروم ، وهاداه ثم أنفذ رسوله إلى الخليفة القائم بأمر الله وسار يريد بغداد حتى دخلها سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) ، وأزال دولة البويهيين .

وملك بعده السلطان ألب أرسلان الذى وسع رقعة دولته حتى حنود الروم ، وكانت بينه وبين ملك الروم آتذ وقعة ملاذكرد الفاصلة سنة ٤٦٣ هـ / ٤٦٤ هـ والتي تم فيها النصر له فرجحت منذ ذلك الحين كفة السلاجقة في المشرق الإسلامى ، وأصبحوا هم السادة الجدد للمنطقة . وبعد ألب أرسلان ملك السلطان العظيم ملكشاه ، ووزيره الخطير والمصلح الكبير نظام الملك ، وفي عهد ملكشاه ، استولى السلاجقة بقيادة تتش على جزء كبير من الشام ، وجعلوا قاعدتهم بها دمشق واستقر بها تتش .

وبعد ملكشاه انقسمت الدولة السلجوقية إلى ثلاث دول . دولة المشرق ، وسلاجقة الشام ، وسلاجقة الروم .

واستمر النضال بين سلاجقة سوريا أو الشام والفاطميين في مصر طوال النصف الثانى من القرن الخامس ، وكان أبطال هذا النضال من السلاجقة تتش ، وسليمان بن أرتق حاكم القدس ، ومن جانب الفاطميين أمير الجيوش بدر الدين الجمالى وابنه الأفضل الذى استطاع أن يطرد الأرتقيين من بيت المقدس ويعيده مرة أخرى إلى سلطة الفاطميين سنة ٤٨٩ هـ ، ثم سقط بعد ذلك بقليل في أيدي الصليبيين وكانت قد بدأت جموع الصليبيين تجتاح الشام في أخريات القرن الخامس الهجرى وطوال القرن السادس .

وظهر من أتباع السلاجفة أحد أمرائهم بالموصل وهو عماد الدين زنكى فقاد عدة حملات ضد الصليبيين لتخليص نفوذهم بجزيرة الفرات وتغور الشام واستطاع أن يستعيد الرها من قبضة الصليبيين سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م)

ثم ملك بعد زنكى أبناؤه ، وبرز منهم سيف الدين غازى ونور الدين محمود واستولى نور الدين محمود على دمشق. وحدثت بينه وبين الفاطميين مفاوضات واتفاقات ، ومراسلات اشترك فيها أو فى بعضها أسامة بن منقذ ، والصالح طلائع بن رزىك ، وبعد مقتل طلائع واضطراب الأمر وخروجه من يد ولده وصراع السلطة بين الوزير شاور وضرغام تدخل الصليبيون ، وبعث الخليفة الفاطمى فى طلب النجدة من نور الدين محمود فأرسل شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين .

ثم حدث ماحدث من القتال بين هذه الأطراف حتى استقر الأمر لشيركوه ومن بعده لابن أخيه صلاح الدين .

بين الفاطميين والروم البيزنطيين

كان اللقاء بين الروم البيزنطيين والفاطميين قبل دخول الأخيرين مصر وفى أثناء ملكهم شمال أفريقيا ، وكان النزاع بين القوتين فى البحر للسيطرة عليه ، وتملك بعض جزره الهامة .

وقد حرص الفاطميون منذ البداية على بناء قوة بحرية تمكنهم من مناخزة الروم وغيرهم فى البحر المتوسط. واستطاعوا السيطرة على بعض تلك الجزر كما عرفنا ، ولم يسلم لهم الروم بذلك بل حاولوا انتزاعها منهم ، كما حاولوا انتزاع السيطرة على البحر وبخاصة فى الجزء الشرقى منه .

وكانت حملات الروم البيزنطيين مستمرة على الجزيرة الفرانية وشمال الشام وتغوره لردع بعض غارات المسلمين ، من أمراء الشام والجزيرة ، وأبرزهم فى الوقت السابق على دخول الفاطميين مصر أمراء الحمدانيين فى الموصل وحلب . وكانت إمارة الحمدانيين فى حلب قد ضعفت فى أخريات حكم سيف الدولة ، وتعرضت لحملات من الروم البيزنطيين ، بقيادة نقفور .

قال ابن الأثير : « وجعل نقفور همه قصد بلاد الإسلام والاستيلاء عليها وتم له ما أراد باشتغال ملوك الإسلام بعضهم ببعض ، فلوّخ البلاد ، وكان قد بنى أمره على أن يقصد سواد البلاد فينبه ويخرجه ، فيضعف البلاد فيملكها . وغلب على الثغور الجزرية والشامية ، وسى وأسر بما يخرج عن الحصر . وهابه المسلمون هبة عظيمة ، ولم يشكروا في أنه يملك جميع الشام ومصر والجزيرة وديار بكر لخلو الجميع من مانع ، فلما استعجل أمره أتاه أمر الله من حيث لم يحتسب وقتل سنة ٣٥٩ هـ .^(١) »

وجاء الفاطميون إلى مصر وبسطوا نفوذهم على الشام ، واستشعر الروم البيزنطيون بقوة الفاطميين أيام المعز والعزیز بالله ، وحاولوا جس نبض هذا السيد الجديد بالشام ، فقام الامبراطور باسيل بحملة إلى الشام عبر فيها الحدود إلى حلب وبعض مدن الشام ثم عاد أدراجه

وظل الروم يعملون حساب الدولة الفاطمية في مغامراتهم بالشام على الرغم من وجود خلافات ونزاعات بين الأطراف العربية والإسلامية بها والتي كانوا يسعون إلى زيادتها لضعف الشوكة والانقضاء كلما أتحت فرصة .

وهدأت الأحوال بين الفاطميين الروم بعض الوقت أيام العزيز والحاكم وتبادلوا السفارات ، وعقد الاتفاقات على أن يحفظ الفاطميون للتصاري حقوقهم فيما يملكون من البلاد ، ويفعل الروم مثله مع المسلمين من رعاياهم .

وانتقض الحال ، وعاود الروم نشاطهم بأرض الشام في دولة الظاهر بالله والمستنصر ، ففي سنة ٤٢٢ تحرك الامبراطور أرمانوس إلى شمال الشام والجزيرة فقتلوا المسلمين ، واحتلوا مدينة الرها ، وملكوا قلعة أفامية من الفاطميين ، وأغاروا على بعض البلاد

ثم جاء المستنصر فهادن الروم في سنة ٤٢٩ هـ وشرط عليهم إطلاق خمسة آلاف أسير من المسلمين ، وشرط الروم عليه أن يعمرها بيعة « قمامة » أو كنيسة القيامة بالقدس ، فأرسل المستنصر إليها من عمرها ، وأخرج عليها مالا كثيرا .

ولم يلبث الروم أن نقضوا الهدنة فأغاروا بجيوشهم سنة ٤٣٢ هـ على شمال بلاد الشام

(١) الكامل ٧ / حوادث سنة ٣٥٩

فسير إليهم المستنصر قائده الذيرى على رأس جيش قوى لقمهم قرب حماة ، فكان النصر للفاطميين ، وقتل من الروم عدد كبير ، وأسر ابن عم ملك الروم فبدلوا في فدائه مالا جزيلا وعدة وافرة من أسرى المسلمين .

وفي سنة ٤٣٩ هـ تجددت الهدنة بين الروم والمستنصر وحمل كل من ملك الروم والخليفة لصاحبه هدية عظيمة .

وظلت الأحوال بين الفاطميين والروم هكذا بين الحرب والمهادنة حتى أخذ حكم الفاطميين في الانحسار عن الشام مع دخول السلاجقة واستيلائهم على دمشق وزحفهم إلى بيت المقدس ، في آخر عهد المستنصر ، وأول عهد المستعلي والوزير الأفضل ابن بدر الجمالي . وزامن هذا بدء الموجات الصليبية على أرض الشام ، واحتلال بعض الثغور وإقامة الإمارات ، وفي النهاية احتلال بيت المقدس سنة ٤٦٢ هـ فلم يبق للفاطميين سوى أجزاء قليلة في جنوب الشام وفلسطين .

الفاطميون والصليبيون

جاء الصليبيون إلى الشرق الإسلامي ونزلوا بلاد الشام بعد أن آنسوا من ملوك المسلمين ضعفاً ، وتخاذلوا ، ووجدوا بينهم الشحنة والحروب المتتابعة ، فبدأوا هجومهم على جزر البحر المتوسط ، واستخلصوا صقلية بواسطة النورمان .

وعبر الفرنج من الصليبيين آسيا الصغرى ، وقطعوا سهل الأناضول حتى بلغوا شمال الشام بقيادة بوهند وبلدوين ، وسقطت في أيديهم عدة مدن كالرها وانطاكية ثم زحفوا جنوباً قاصدين بيت المقدس على الساحل خوفاً من غارات المسلمين لدى توغلبهم داخل البلاد . وحتى يكونوا قريبين من المدد الذى يأتيهم عبر البحر من بلادهم في أوروبا

وزحفت جيوش الصليبيين على ساحل الشام حتى عكا ، وحيفاً وقيسارية أرسوس وتوغلوا قليلاً في الداخل في أرض فلسطين حتى وصلوا مدينة الرملة ، فعادرتها حاميتها قبل بلوغها خوفاً ، وهكذا سقطت الرملة في أيديهم دون حرب ، ومنها أطلوا على مدينة بيت المقدس ، وتجهزوا لحصارها . وكانت حاميتها من جيش الفاطميين وتقدر بألف رجل ، وأما الصليبيون فكانوا يقدرون بأربعين ألف . حاصروا المدينة أكثر من شهر حتى سقطت في أيديهم .

وكانت مدينة بيت المقدس خاضعة لتاج الدولة تتش من السلاجقة بالشام ومستقرة بدمشق فأقطعها لأحد قواده الأمير سلمان بن أرتق ، فلما ظفر الصليبيون بالأترك السلاجقة في أنطاكية وقتلوا فيهم تفرقوا وضعفوا ، ولما رأى الفاطميون هزيمة الأترك السلاجقة وضعفهم هاجموا بيت المقدس واستردوها منهم بقيادة الأفضل بن بدر الجمالي . وذلك في شعبان سنة ٤٨٩ هـ بعد حصار دام نيفاً وأربعين يوماً .

وترك الفاطميون حامية بالقدس ، وظلت كذلك حتى داهمها الصليبيون سنة ٤٩٢ هـ بعد حصار عكا وعدم تمكنهم من اقتحامها .

وسقطت مدينة القدس ضحوة نهار يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان ، الموافق ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ م ، وقد وافقت حاميتها على التسليم للصليبيين على أن يسمح لهم بالرحيل إلى عسقلان سالمين . غير أن الصليبيين نكثوا بوعدهم ، وأعملوا السيف في رقاب الحامية وأهل المدينة في مذبحه عظيمة جرت فيها الدماء بالشوارع وخاضها جنودهم حتى ركب الفرسان كما توصف في بعض المصادر .

يقول ابن الأثير^(١) : « وركب الناس السيف ، ولث الفرنج في البلدة أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين ، واحتفى جماعة من المسلمين بمحراب داود ، فاعتصموا به وقاتلوا فيه ثلاثة أيام فبذل الفرنج لهم الأمان فسلموه إليهم ووفى لهم الفرنج فخرجوا ليلاً إلى عسقلان ، فأقاموا بها . وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً ، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف . »

وكان من أسباب هزيمة المسلمين هذه واحتلال بيت المقدس الاختلاف وكثرة الحروب بينهم . قال ابن الأثير : « واختلف السلاطين على ما ذكره ، فتمكن الفرنج من البلاد وصدق الأبيوردى إذ يقول :

رماخهم والدين واهى الدعائم
ولا يحسبون العار ضربة لازم
ويغضى على ذل كماء الأعاجم

أرى أمتي لا يشرعون إلى العدا
ويجتبون النار خوفاً من السردى
أترضى صناديد الأعساريب بالأذى

(١) الكامل للمجلد التاسع ص ٢٠

ولين صناديد الأعراب الذين ذكرهم الشاعر وقد ذهبت ريجهم ، وولت دولتهم ،
وملك أمرهم الخدم ، والعجم والأرمن . ٢ ، وقد حذر المتنبى الشاعر من هذا المصير
المؤلم وكأنه يرى تلك النهاية الفاجعة لأمة العرب والمسلمين في كثير من قصائده .

وحاول الأفضل أن يسترجع القدس فخرج إلى البلد بجيش كان على رأسه ، وانطلق
من عسقلان قاعدة الفاطميين الباقية في الشام لملاقاة جند الصليبيين ، إلا أنهم هزموه ففر
مع جنده إلى عسقلان ، قال ابن الأثير : « وانهمز الأفضل فدخل عسقلان ومضى جماعة
من المنهزمين ، فاستروا بشجر الجميز ، وكان هناك كثيرا ، فأحرق الفرنج بعض الشجر
حتى هلك من فيه ، وقتلوا من خرج منه ، وعاد الأفضل في خواصه إلى مصر ونازل
الفرنج عسقلان ، فبذل لهم أهلها المال فتركوها عائدين إلى القدس .

وكانت عودة الصليبيين من عسقلان في شهر أغسطس (آب ١٠٩٩ م) ، وكان
قادتهم ريموند وجودفري . واستطاع الملك الصليبي بلدوين أن يعاود الكرة لينتزع
عسقلان سنة ٥٤٨ هـ وظل الصليبيون يكتنون لأنفسهم في الشام ، ويبتسعون في ضم
الأرض إلى مملكة بيت المقدس حتى امتدت هذه المملكة لتشمل أرض فلسطين وتمتد على
طول ساحل الشام شمالا حتى بيروت ، وجنوبا إلى العريش في مصر . ولكنها لم تتسع
شرقا إلى أبعد من مقاطعة الأردن خوفاً من التوغل في الصحراء . وقد أقاموا على
حدودها الشرقية القلاع الحصينة مثل قلعتي الكرك والشوبك .

وكانت الحالة في مصر قد بلغت من السوء والفوضى والضعف بسبب الخلفاء
وتسلط الخدم وجند الخلافة والنساء على القصر ، وصراع القوى بين رجال الدولة
والقادة العظام حتى قتل الصالح طلائع بن رزيق ، وابنه ، وقامت الفتنة بين شاور
وضرغام واتهم الصليبيون الفرصة ليزحف ملك بيت المقدس إلى مصر لضمها إلى
ملكه .

الباب الثاني
الحياة الاجتماعية

مصر والنيل يجرى وسطها ، يشقها من الجنوب إلى الشمال حيث يتفرع بعد القاهرة إلى فرعيه دمياط ورشيد تمثل بهذا الوضع وادى النيل في قطاعه الشمالي (مصر) وهي كذلك منذ الأبد بصورتها المكانية تحف الوادى الأخضر بأرضه الزراعية على جانبي الضفتين ، وتحيط بهما من الشرق والغرب الأرض الصحراوية ، يشقها النيل مكونا واديه فتبدو في الجنوب أطراف الضفتين وكأنها تلال وجبال : الحاجر الغربى والحاجر الشرقى ولا تزال هذه الحافة تنخفض في ارتفاعها وتبتعد عن الوادى حتى قرب الجيزة فالقاهرة حيث تتفرع الدلتا بفرعى النيل ، ولا يبدو لهذه التلال أثر بل أرض صحراوية ممتدة شرقاً ، وأخرى ممتدة غرباً ... على مرمى البصر .

تلك هي مصر ويحدها من الشمال البحر المتوسط ومن الغرب الصحراء الليبية ، ومن الشرق جبال البحر الأحمر والصحراء الشرقية والبحر الأحمر ، بفرعيه اللذين يختصنان شبه جزيرة سيناء بجبالها ووديانها وسهولها الساحلية في الشمال .
ومصر على هذه الصورة قسمت منذ القديم إلى عدة أعمال ، وعلى كل عمل والى حرب وعامل خراج وقاض ، ولكل عمل مصر أو عاصمة ، وهذه الأعمال عشرون عملاً منها بالوجه القبلى أو الصعيد عشرة أعمال بالوجه البحرى عشرة ، فأعمال الصعيد الإطفيحية ، والجيزية ، والفيومية ، والبوصيرية والبهنساوية ، والأشمونية ، والأسبوطية ، والإخممية ، والقوصية والواحات .

وكانت هذه الأعمال منفصلة ، ثم انقسمت إلى قسمين البحرية وتتبع القاهرة ، والقبلية وتتبع الفسطاط .

فمن أعمال القاهرة : القليوبية والشرقية ، والمنوفية ، والدنجاوية وجزيرة بنى نصر ، وجزيرة قويسنا ، والسمنودية ، والغربية ، والدقهلية والمرتاحية ، والأبوانية ، والتتيسية ، والبحيرة وحوف رمسيس .

هذا فضلاً عن الثغور وهي ثغر دمياط ، وثغر رشيد وثغر الفرما ، وثغر الإسكندرية .

ويتمثل في هذا التقسيم الإدارى لمصر جوانب العمران الحضرى والبدوى جميعاً أى القرى ومن بها من فلاحين مستقرين يعملون بالزراعة ، وبادية على أطراف الوادى

يسكنها جماعات البدو والأعراب الرحل غير المستقرين والذي يعيش بعضهم على الزراعات المطرية ، أو الرعى وينتقلون من مكان إلى مكان

ومعظم قرى الصعيد ومدنه وأمصاره تنتثر على ضفتى النيل ، وأكثر الأمصار والمدن يقع على الضفتين لسهولة الاتصال عن طريق النيل وهو الطريق الرئيسي للاتصال بين البلاد شمالاً وجنوباً .

وكتيرا مانجد القرى والمدن المصرية تقوم على تلال أو مرتفع من الأرض لتأمن فيضان النيل ، وتمتد بين بعضها الجسور . وتتخذ بعض المدن والقرى من المرتفعات عرى النيل وشرقيه مكاناً لتأمن غائلة الفيضان وبخاصة في الصعيد .

وكانت تشق أرض الصعيد ، وشمال البلاد بعض الخلجان (الترع) مثل خليج المنى أو بحر يوسف في الصعيد ، وخليج أمير المؤمنين غربى القاهرة ، وخليج الإسكندرية الذى يخرج من فرع رشيد .

وتقوم الزراعات البقلية على مياه الفيضان ، وأهمها الحبوب كالقمح والبقول والعدس ، كما تقوم بعض الزراعات الموسمية الأخرى على المطر فى البوادي وتزرع الحدائق والخضروات على المجارى المائية من النيل بواسطة السواقي والآلات الأخرى كالطنابير والشواذيف وماليتها .

واعتاد المصريون زراعات أرض الشراقي التى لا يصلها ماء النيل على السواقي وقد ابتدعوا من قديم الزمان حفر السواقي العميقة ، التى ترفع مياهها بواسطة القواديس على مستوى واحد أو مستويات متعددة حسب عمق البئر أو انساقية .

وكانت مصر تعتمد على ثروتها الزراعية من القرى اعتمادا كبيرا فى حياة الناس ومعاشهم ، وكان من عادة مؤرخى مصر الحديث عن سعر القمح فى حالى الشدة والرخاء وتوفر رغيف العيش أو اختفائه ، ولم تكن مصر لتستورد القمح بطبيعة الحال ، بل كانت تنتجه وتصدره إذا فاض عن حاجة أهلها فى أوقات الرخاء وسخاء النيل

كان النشاط الزراعى فى قرى مصر بالصعيد والوجه البحرى هو النشاط الرئيسى للسكان ، كما أن الفلاحين يمثلون الغالبية العظمى منهم ، وهم جلُّ أهل القرى فيما عدا أعداد قليلة من البشر يقومون بالخدمات المساعدة ، والحرف أو المهس الأخرى

كالتجارين والسقائين ، والتجار ، والمعلمين أو الشيوخ في كتابت القرى الذين يعلمون
أبناءها القرآن ، ويؤمن الناس في المساجد ويخطبون أيام الجمع ، ويميئون ليالى
رمضان ، وفي المناسبات .

وكانت حواضر مصر من البنادر على طول انعمور الوسطى ، وبالضرورة في العصر
الفاطمى تمثل النشاط المدني ثلسكان إلى جانب النشاط الزراعى لبعض كبار الملاك .
واهتم المؤرخون ، وكتاب الدواوين بخصر عدد قرى مصر وحواضرها في سجلات وكتب ،
ومنها كتاب ابن مباتق والوطواط (ت ٧١٨) (١) . .

ويذكر الوطواط حواضر مصر المشهورة ، فيسميها مصرأ بمعنى المدينة^(٢) أو المدينة
الكبيرة « والتي تشرف إدارياً على مجموعة من الأقسام الإدارية « الأعمال » ومنها
الفسطاط التي كانت تشرف على أعمال الوجه القبلى . والقاهرة التي تشرف على أعمال
الوجه البحرى .

ويستعملها على معنى العاصمة الاقليمية للعمل أو لعدة أعمال كالجزيرة ، التي تشرف
على عملها ، وقلوب التي تشرف على أعمال القليوبية ، وقد تشرف إحدى هذه
العواصم على عدة أعمال يتولاها وإلى حرب واحد كأعمال الدقهلية والمرتاحية
والأبوانية فهى كلها يتولاها والى واحد وعامل واحد وقاض واحد ، ومصر الجميع
أشمو طناح وكذا الحال فى الصعيد هناك ولايات كبرى لها عاصمة كالأشمونية ،
وأسيوط وقوص تضم عدة أعمال . كذلك كانت الأعمال البوصيرية وعاصمتها بوصير
فى إقليم بنى سويف .

كذلك أعمال الاسكندرية واليا ثغرة ثغرة الإسكندرية وتضم منطقة الإسكندرية
وماحولها ، وتضم إليها أحيانا أعمال فوة .

ومن الثغور الهامة ثغر الإسكندرية ، وثر دمياط ، وثر تئيس وثر الفرما فى
الشمال ، وثر أسوان بالجنوب والقصير وعيذاب على البحر الأحمر .

(١) منابع الفكر ومباحث العر للوطواط صفحات مه تحقيق د. عد انعال عبد المنعم الشامى طبع الكويت سنة

١٩٨١

(٢) المصر بمه المقدمة ص ٢٠

وذكر المسبحى فى تاريخه أن قرى مصر أسفل الأرض — أى بالوجه البحرى — ألف وأربعمائة وتسع وثلاثون قرية . ونقل المقرئزى عن أحد كتاب الخراج الأقباط أن عدد كور مصر وقرائها سنة ٣٤٥ هـ بالصعيد والوجه البحرى كان ألفين وثلاثمائة وخمسة وتسعين قرية منها بالصعيد تسعمائة وست وخمسون قرية وبالوجه البحرى ألف وأربعمائة وتسع وثلاثون قرية .^(١)

ومن مقارنة عدد قرى الصعيد فى كتاب المسبحى الذى عاش فى القرن الخامس الهجرى وألف كتابه بعد الكاتب القبطى بما يقرب من سبعين عاماً يتضح أن عدد قرى الصعيد ينقص مرتين عما كان أيام الإخشيديين ، ربما كان ذلك بسبب خرابها أو انضمامها إلى قرى أكبر .

وعلى أية حال فإن عدد القرى بالصعيد أقل منه بالوجه البحرى لكثافة سكان الوجه البحرى وسهولة مواصلاته ، واعتدال مناخه ، وحسن رعاية الولاية له لقربه من العاصمة وثغور الدولة ومصالحها الرئيسية .

قال المقرئزى : « وقد تغيرت بعد ذلك بخراب ماخرب منها » . ولعل خراباً كبيراً قد حدث بعد إحصاء المسبحى ، وبخاصة بعد الشدة المستتصرية التى هجر فيها كثير من الفلاحين قراهم ، فخربت ، ودمرت ، وزاد الخراب بثورات الأعراب ، واضطراب الأحوال فى مصر الفاطمية بعد ذلك نتيجة ضعف سلطة الدولة للتزاع على الحكم بين الخلفاء والأمراء والوزراء حتى سقوط الدولة وقيام الدولة الأيوبية .

ويتكون سكان مصر فى عصر الفاطميين من المصريين « الأقباط » مسلمين ومسيحيين ، ويطلق عليهم اسم « القبط » فى التواريخ الإسلامية المتقدمة ، ثم غلب اسم القبط على المسيحيين من أهل مصر بعد ذلك ، وخلط بعض كتاب التاريخ فى التفرقة بين الدلتين .

وكان الأقباط المسيحيون قد ثاروا على بعض ولاية المسلمين لزيادة ضريبة الرعوس على أهل الذمة ، وهى الجزية المقررة ، وكان مقدارها ديناراً فرادوها دراهم ، وانتقض الأقباط مسيحيين ومسلمين لمغالاة الولاية فى جمع المال من الجزية والخراج ، بل شارك الأقباط بعض القبائل العربية التى استوطنت فى أنحاء الوجه البحرى والصعيد ، كما ثار

(١) راجع المخطوط للمقرئزى ٧٣/١

أهل الشرقية سنة ١٨٧ هـ^(١) وكانوا من العرب القيسية ، وظلت ثورات أهل الشرقية متتابعة حتى سنة ٢١٤ هـ

قال المقرئى : « ... فلما كان فى جمادى الأولى سنة ٢١٦ هـ انتقض أسفل الأرض (الوجه البحرى) بأسره : عرب البلاد وقبطها ، وأخرجوا العمال ، وخلعوا الطاعة لسوء سيرة عمال السلطان فيهم ، فكانت بينهم وبين عساكر الفسطاط حروب امتدت إلى أن قدم الخليفة عبد الله أمير المؤمنين المأمون إلى مصر لعشر خلون من المحرم سنة ٢١٧ هـ . »

وقال المأمون لوالى مصر آتمذ : « لم يكن هذا الحدث العظيم — أى ثورة المصريين فى الوجه البحرى — إلا عن فعلك وفعل عمالك . حملتم الناس مالا يطيقون ، وكنتمنى الخبر ، حتى تفاقم الأمر ، واضطرب البلد . »

ويحكى المقرئى قصة وقعت للمأمون تشير إلى مدى غنى بعض أقباط مصر فى الوجه البحرى قال المقرئى^(٢) : « ويقال أن المأمون لما سار فى قرى مصر كان يبنى له بكل قرية دكة يضرب عليها سرادقة والعساكر من حوله . وكان يقيم فى القرية يوماً وليلة فمر بقرية يقال لها وطاء العمل فلم يدخلها لحقارتها فلما تجاوزها خرجت إليه عجوز تعرف بمارية القبطية صاحبة القرية ، وهى تصيح ، فظنها المأمون مستغيثة متظلمة فوقف لها . وقالت له القبطية : نزلت فى كل ضيعة وتجاوزت ضيعتى والقبط تعيرنى بذلك وأنا أسأل أمير المؤمنين أن يشرفنى بحلولة فى ضيعتى ليكون لى الشرف والعقبى ، ولاتشمت الأعداء بى ، وبكت بكاء كثيراً فرق لها المأمون ، وثنى عنان فرسه إليها ونزل . » وأكرمه العجوز القبطية لإكرام الملوك ، وقدمت له من الهدايا ما أدهش المأمون . قال المقرئى : « ثم أحضرت للمأمون من فاخر الطعام ولذيذه شيئاً كثيراً ، حتى أنه استعظم ذلك ، فلما أصبح وقد عزم على الرحيل حضرت إليه ومعها عشر وصائف مع كل وصيفة طبق ، فلما عاينها المأمون من بعد قال لمن حضر : جاءكم القبطية بهدية الريف الكاوخ والصحناء. والصير ، فلما وضعت ذلك بين يديه إذا فى كل طبق كيس من ذهب فاستحسن ذلك وأمرها بإعادته فقالت : لا والله لا أفعل . فتأمل الذهب فإذا به ضربُ عام واحد كله . فقال : هذا والله أعجب . ربما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلك . »

(١) الخطط ١/٨٠

(٢) الخطط ١/٨١

فقلت : يا أمير المؤمنين : لا تكسر قلوبنا ولا تحتقر بنا . فقال : إن في بعض ما صنعت لكفاية ولانحسب الثقل عليك ، فردى مالك ، بارك الله فيك . فأخذت قطعة من الأرض وقالت : يا أمير المؤمنين ، هذا وأشارت إلى الذهب ، من هذا وأشارت إلى الطينة التي تناولتها من الأرض ، ثم من عدلك يا أمير المؤمنين . وعندى من هذا شيء كثير . فأخذته منها وأقطعها عدة ضياع ، وأعطائها من قريتها « وطاء التمل » مائتي فدان بغير خراج ، وانصرف متعجبا من كبر مروعتها وسعة حالها . »

وهذه القصة تدل على أشياء كثيرة أهمها غنى أرض مصر ، وسماحة حكام المسلمين مع أهلها وأبنائها خاصة وعدم مصادرتهم ، وأخذ أموالهم دون حق ، ومراعاة أحوالهم وجزائهم على حسن معاملتهم بما يستحقون . وبلوغ بعض الملاك في ريف مصر من الثراء والجاه مبلغاً عظيماً .

ولاشك أن الحال استمر على هذا طوال حكم العباسيين وأمرائهم بمصر بقية القرن الثالث وفي القرن الرابع عصر الأخشيديين وحتى بدء العصر الفاطمي .

وثناء مصر في القرن الثالث يحدثنا عنه حكم الطولونيين ، ومدى ما كانوا ينعمون فيه ، ويكفي الإشارة إلى بدخ حماروية .

وهكذا عاش سكان مصر من الأقباط في قرى الوجه البحرى والصعيد ، وشاركهم العرب الوافدون من الجزيرة العربية في صورة هجرات قبلية متتابعة على مدى الحكم الإسلامى منذ عصر الولاة في عهد الراشدين والأمويين والعباسيين .

قال المقرئى : « وكان من خير أراضى مصر بعد نزول العرب بأريافها ، واستيطانهم وأهلهم فيها ، واتخاذهم الزرع معاشاً وكسباً ، وانقياد جمهور القبط إلى إظهار الإسلام ، واختلاط أنسابهم بأنساب المسلمين لنكاحهم المسلمات أن متولى خراج مصر كان يجلس في جامع عمرو بن العاص في القسطنطينية في الوقت الذى تنهياً فيه قبالة الأراضى ، وقد اجتمع الناس من القرى والمدن فيقوم رجل ينادى على البلاد صفقات صفقات وكتاب الخراج بين يدي متولى الخراج يكتبون مايتهدى إليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس . »

وأهم قبائل العرب التى وفدت إلى مصر ، وتفرقت في نواحيها بالوجه البحرى

والصعيد من عرب القحطانية جهينة ويلي وجندام ، ويتبعهم بطرق متعددة وفدت على مراحل وهجرات متعددة وتوارىخ متعاقبة ، كما ينتسب إليها قبائل مغربية مختلطة بدماء بربرية وفدت إلى غرب مصر مثل بنى قرّة ، ولواته ، وهوارة ، وتنقلت هذه القبائل اليمنية الأصول وانتشرت في أنحاء كثيرة بمصر شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، واختلطت بأبناء البلاد من القبط واختلطت بغيرها من القبائل المصرية التي نزحت كذلك إلى مصر على هجرات متعاقبة ومتعددة منذ الفتح الإسلامي وحتى عصر الفاطميين .

ومن أهم قبائل مصر قيس أو قيس عيلان ، ومن بطونها فزارة ، ومنهم من دخلوا مصر وسكنوا بعض نواحي وقرى القليوبية في قلقشندة وزفتا ، ومنهم جماعات من هوازن من بنى عامر بن صعصعة ، وخاصة من بنى هلال ، وفدوا إلى جنوب مصر وسكنوا الصعيد في الضفة الشرقية للنيل مع بنى سليم ، وجماعات أخرى من قيس . ونقل القلقشندى أنه كانت لهم بلاد الصعيد كله إلى عيذاب . وهاجرت جماعات منهم إلى المغرب .

كذلك نزحت قبائل من قيس إلى بلاد الشرقية في الحوف الشرقي . ونزحت قبائل و بطون من ربيعة من شرق الجزيرة إلى كثير من مناطق مصر . كما وفدت جماعات من قريش في عصر الولاة ، وجاء إليها من الهاشميين جماعات في عصر الفاطميين وبخاصة الطالبيين .

ونزح من ربيعة بطون استقر معظمها في الصعيد الأعلى قرب أسوان ومنهم الكنوز . وشجع الفاطميون لانتسابهم إلى أسرة عربية عريقة هي قريش العرب وبخاصة قيس والمغاربة على النزوح إلى مصر ، واستخدموهم في غزواتهم ، وفي بعض نزاعاتهم مع القبائل الأخرى اليمنية والبربر في شمال أفريقية .

يقول الدكتور عابدين^(١) : « فالفاطيون على الرغم مما قيل في نسبهم يعتزون بالانتساب إلى قريش ويحجرون على سياسة تشبه سياسة الأمويين في الاعتماد على العناصر العربية والاستعانة بهم في حروبهم وفي تدعيم قوتهم ، وفي استغلال العصية بينهم

(١) البيان والإعراب للمقريزي دراسة د. عبد المجيد عابدين ص ١١٦
طبع عالم الكتب بالقاهرة سنة ١٩٦١

أحياناً . « ولعل أخبار بنى هلال مع الفاطميين مثل واضح على ذلك كله ، فقد شجع الفاطميون هجرة بنى هلال وحلفائهم إلى مصر . فاكتظت بهم أنحاء مصر الشرقية ، ثم أدركتهم شريعة الصحراء فجعلوا يشغبون حتى سمح لأكثرهم بالهجرة إلى بلاد المغرب لمحاربة بنى باديس »

وكان بتوقره: الجذاميون يمثلون قلقاً للفاطميين في إقليم البحيرة غربى الدلتا ، فقد تحالفوا مع أبى ركوة الثائر المشهور في عصر الحاكم بأمر الله . ولما قفى على أبى ركوة ، عاود بنو قرة مرة أخرى الشغب بإقليم البحيرة واستولوا على الإسكندرية ، نتصدى لهم الفاطميون مرة أخرى سنة ٤٤٢ هـ وهزموهم فانسحب بنو قرة إلى الصعيد وتفرقوا بقراه . ولا زالت في إقليم أسيوط قرية بهذا الاسم .

وعرفت كثير من القرى بأسماء مصر شمالاً وجوباً بأسماء قبائل عربية سكنتها . ككنفور العائد في مركز بليس سكنها جماعات من العائد من جذام ، أبى عدى ، وبنى محمد ، وبنى حسين ، والدناجلة ، والبلازة .

كان إذا لاختلاط العرب النازحين من الشرق أو من المغرب على اختلاف عصور التاريخ الإسلامى منذ الفتح وحتى عصر الفاطميين في النصف الثاني من القرن الرابع الهجرى وطوال القرنين التاليين حتى القرن السادس أثر كبير في الاسراع بتعريب مصر ، جنساً ، ولغة ، وثقافة واعتناق معظم المصريين للدين الإسلامى .

وقد تعايش العرب والأقباط في قرى مصر ونجوعها ، وتصاهروا وتناسلوا وامتزجت الحضارات المصرية القديمة بالحضارات العربية الإسلامية الوافدة ، وظهرت على مدى العصور الإسلامية بمصر هذه السمات الخاصة والمميزة للشعب العربى في مصر والتي تميزه عن غيره من الشعوب العربية الإسلامية في البلاد الأخرى .

لقد كان نتيجة هذا الاختلاط نوع جديد من الحضارة تبنى في طرق العيش في قرى الريف في بناء المساكن وأنظمتها ، وآلاتها ، وطرائق الطعام والشراب ، وأنواع السلوك والتعامل مع الأرض والزراعة وأتباع ماعرفه المصريون القدماء من أقام العصور من مواقيت الزراعة والحصاد ، وبذر البنور ، وجنى الثمار وترتيب ذلك حسب الشهور القبطية ، وجرت بها أقوال دارحة على ألسن النلاحين في ترى مصر شمالها وجنوبها مثل قولهم في أمثاضم :

« اللّى ماتشبع برسيم فى كياك إدعو عليها بالهلاك »
وكيهك من الشهور القبطية ، وهو سابق لشهر طوبة ، وبه ينضج البرسيم فترعاه الماشية وتدر اللبن .

وكقولهم فى برمهاات :

« برمهاات روح الغيط وهات »

يعنى أن هذا الشهر القبطى هو شهر نضج البقول كالقول والعدس ، والبر القمح .

وهكذا واعتاد المصريون من المسلمين والمسيحيين من العرب والقبط ماورثوه عن أجدادهم المصريين القدماء فى تدبير الإفادة من مياه النيل بحفر الترع وتنظيم الري ، ويذكر المقرئى اهتمام المصريين بهذا حتى يفيدوا من مياه النيل أكبر فائدة ، ويجنوا من زراعة أرضهم بالصعيد أكبر ما يستطيعون .

ويذكر كيف كان ولاية الأعمال يحرصون على تطهير الترع والخلجان ، ويجمعون لهذا الرجال من عمال الفلاحين ، ويوفرون لهم العدد التى يعملون بها طوال العام .

ومن أشهر خلجان مصر فى العصر الإسلامى والتى ظلت إلى عصر الفاطميين وبعده خليج القاهرة ، أو خليج أمير المؤمنين ، وخليج الإسكندرية ، وخليج سخا وخليج سردوس وخليج الفيوم والمنهى (بحر يوسف) ، وبحر أبى المنجا الذى حفره ابن أمير الجيوش الأفضل بن بدر الجمالى سنة ٥٠٦ هـ . وكان حفره أبو المنجا ابن شعيا اليهودى فعرف به .

وكانت الأرض تقسم فى مصر حسب جودتها إلى أقسام ، كما أنها تضم بمساحاتها فى قبالات ، وكذلك تسمى بالوجه القبلى جمع « قبالة » أو حوض ، وفى الوجه البحرى تعرف بالأحواض ، وكان لكل قبالة أو حوض ، أو مجموعة قبالات أو أحواض متعهدين ، ويقول المقرئى : « واعلم أنه لم يكن فى الدولة الفاطمية بديار مصر ، ولا فيما مضى قبلها من دول أمراء مصر لعساكر البلاد اقطاعات بمعنى ما عليه الحال اليوم فى أجناد الدولة التركية ، وإنما كانت البلاد تُضمن بقبالات معروفة لمن شاء من الأمراء ، والأجناد ، والوجوه ، وأهل النواحي من العرب والقبط وغيرهم ... »

وكان كل من اختار زراعة أرض يقبلها ، وحمل ما عليه لبيت المال ، فإذا صار مال

الخراج بالديوان أنفق في طوائف العسكر من الخزائن . وكان مع ذلك إذا اشط النيل عن الأراضي ، ونقصت نواحي مصر من أصناف الزراعات ندب من الحضرة من فيه نباهة وخرج معه عدول يوثق بهم ، وكانت لهم معرفة بعلم الخراج وكثيرا ما كان هذا كاتباً من النصارى الأقباط ويخرج إلى كل ناحية من ذكرنا فيحررون مساحة ماشمله الرى من الأراضي مما لعله بار أو شرق ، ويكتب بذلك مكلفات واضحة بالفندن (الأقدنة) والقطائع على جميع الأصناف المزروعة ، ويحضر إلى دواوين الباب ، فإذا مضى من السنة القبطية أربعة أشهر ندب من الأحناد من عرف بالحماسة وقوة البطش وعين معه من الكتاب العدول من اشتهر بالأمانة وكاتب من نصارى القبط غير من خرج عند المساحة وساروا إلى كل ناحية كذلك فاستخرج مباشرة البلد ثلث ماوجب من مان الخراج . «^(١)

وقد تغير هذا النظام في عصر الأيوبيين والمماليك إلى نظام الاقطاع العسكرى إذ كان كل أمير من أمراء الجند الأتراك يقطع أرضاً ، يقوم على ملكها والسيطرة على أرضها وفلاحها ، وكان يفرض على الفلاحين قدراً بعينة من الخصول أو المال ، ويمنح زراع الأرض كالعبيد لا يملكون أن يعتقوا كالعبيد ، ولا أن ينادروا الأرض . وقد أدى هذا النظام الاستبدادى إلى ضمور كثير من القرى والكفور وتدهور الزراعة والأرض الزراعية حتى عصر الدولة المملوكية الثانية وفتح الأتراك العثمانيين لمفسر فازدادت الأمور سوءاً .

وكان المصريون كما قلنا يهتمون بزراعة القمح بالأراضي الجيدة . يقول المقرئى^(٢) : « وأصلح مازرع القمح في أثر الباقى (وهى أجود الأراضي ، والشرقى ، لأنها كانت تستريح دورة ، فتستعيد خصوبتها .) . وكان يزرع بالصعيد القمح على أثر القمح لكثرة الطرح ، وربما زرع هناك على أثر الكتان والشعير .

ويزرع القمح من نصف شهر بابه إلى آخر هاتور ، وهذا فى الجوائى من الأرض وكانت قطعة فدان القمح أيام الفاطميين ببلاد الصعيد ثلاثة أراذب ، ذاماً بنت البلاد فى سنة ٥٧٢ هـ تقرر على كل فدان أرتبان ونصف ثم صار يؤخذ أرتبان . هذا

(١) الخطط ١/٨٥ - ٨٦

(٢) الخطط ١/١٠١

بالصعيد ويبدو أن الأمر كان يختلف في أسفل الأرض أى بالوجه البحرى ، فكان يؤخذ خراجها عيناً أى نقداً ، لا غلة . ويزرع الفول كذلك ويتصل من الفدان على عشرين إردبا إلى مادون ذلك وكذلك يزرع العدس . وغيره من الحبوب .

وكان المصريون يهتمون بزراعة الكتان ، ويستخرج من بذره الزيت الحار ، ويؤخذ على الفدان خراجه عينا مابين خمسة إلى ثلاثة دنانير ، وفي بعض الأراضى التى يوجد فيها كأرض دلاص بالصعيد ثلاثة عشر دينارا .

تلك أهم المحاصيل الشتوية ، وهناك محاصيل صيفية وخضروات وفاكهة كانت تجود بها أرض مصر ولازالت .

وكان الخراج يحصل على ماتغله الأرض من حب وفاكهة وخضروات ، ومايقوم به الناس من أنواع النشاط كالحرف والصناعات والتجارة . وقد قرر ابن المدثر أحمد بن محمد لما تولى خراج مصر بعد سنة ٢٥٠ هـ عدة موارد للخراج وجبى المال ، قال عنها المقرئى أنها بدع صارت مستمرة من بعده لاتنقض ، فأخذ على القبطون وكان مباحاً للناس ، وقرر على الكلا الذى ترعاه البهائم مالا سماء المراعى ، وقرر على مايطعم الله من البحر مالا وسماه المصايد ... إلى غير ذلك . فانقسم مال مصر إلى خراجى وهلالى ، وكان الهلالى يعرف فى زمنه ومابعده بالمرافق والمعاون . ثم اسقطت بعد ذلك فى عهد الخليفة العباسى المعتمد على الله ، وكان هذا الخراج الهلالى أو المرافق يبلغ فى مصر مائة ألف دينار كل سنة .

ثم أعيدت الأموال الهلالية فى أثناء الدولة الفاطمية عندما ضعفت ، وصارت تعرف بالمكوس ، وجاء صلاح الدين بعد ذلك فأسقطها .

كانت أحوال الفلاحين خاصة ، وأهل مصر فى عهد الفاطميين طيبة ، وكانت ثروة البلاد ، وخيراتها تعم أهلها فيما عدا أيام الشدة ونقص النيل .

وعاش الفلاحون فى قراهم ومارسوا أنشطتهم فى الزراعة ، والحياة اليومية بين العمل فى الحقول والبحث عن العايش ، وتختلف طبائع سكان مصر باختلاف منازلهم ، ومواقعهم من الصعيد أو توجه البحرى ، وكان عدد قرى الوجه البحرى يبلغ مايقرب من ضعف قرى الصعيد ، وقد وصف المقرئى أهل مصر من المصريين عامة دون

تحديد جنسهم أو أصولهم صفات ليست بالكريمة ، فأقل ما وصفهم به ضعف الطبيعة والجن والخنوع للحاكم ، والصبر والذل . ونقل عن بعض الكتب أقوالاً تؤيد هذا القول ، وأرجعها بعضهم إلى طبيعة أرض مصر ومناخها الذى يقترب من الحرارة ، ولا يميل إلى الاعتدال إلا فى شهور قليلة من السنة وفى الوجه البحرى مما أثر على أمزجة الناس وطباعهم وأجسادهم .

ولاندرى سبباً لحملة بعض علماء العرب وكتاب المسلمين على المصريين ، فانهم وهم اتهامات غير كريمة ، ووصفهم صفات لاتدل على حقيقة ، وربما خلطوا فى هذا بين أقباط مصر وعرب مصر ، ومن سكنوا مصر من أجناس أخرى وافدة ككركيق وعبيد مجلوب ولم يكونوا من سكان مصر ولا يدينون لها بالولاء ، وقد أتاحت لهم أعراقهم المختلطة أن يداهنوا الحكام ، وأن يتصفوا بصفات قد تكون غير صفات المصريين الخالص من القبط أو العرب أو ممن نسلوا منهم جميعاً فى صعيد مصر أو وجهها البحرى . وبصفة عامة فإن المصرى الذى امتزجت دماؤه بتراب أرض مصر ، وامتدت اعراقه فى طينها يمتاز بصفات خاصة تميزه عن غيره من أهل البلاد المحيطة فهو طيب المعشر ، صافى القلب ، ودود ، متدين ، محب للأرض والأهل متمسك بما نشأ عليه من الخلق والعقائد ، لا يتخلى عنها بسهولة ، ألوف لا يخون ، ولا يعق ، صبور طويل الصبر ، لكنه إذا فاض به ثار فكانت ثورته عارمة .

ولاشك أن بعض هذه الصفات اكتسبها من عراقة الحضارة التى عاشها آلاف السنين ، وأضافت عليها الهجرات العربية صفات أخرى اكتسبها من الشخصية العربية ، كالحمية ، وإباء الظلم ، والغيرة على العرض والدفاع دونه ، والحرص على نقاء النسب ، وعدم اختلاط الدماء .

وعرف المصرى على مدى الزمن باعتزاز به بالحرية الشخصية ، بداخله ، رغم تظاهرة بالطاعة لسلطة الدولة . ولعل ملاحظة كثير من المؤرخين على المصرى خضوعه للسلطان مرجعه لاعتياده على نظام الدولة المركزية القوية منذ عهد الفراعنة من آلاف السنين .

وليس كذلك البدو والأعراب الذين لم يعتادوا نظام الدولة إلا بعد ظهور الإسلام وتكوين أمة لها حاكم واحد ودولة تدير شئونهم ، وقد قاست الأنظمة الإسلامية انخاضة من تمرد الأعراب والبدو وانتقامهم كثيراً رغم محاولة تلك النظم الساذجة وهادئة .

الشريعة الإسلامية تم تسييس الأعراب ، وتعويدهم أو طبعهم على طاعة الدولة .

والمصرى أُدِينَ بطبعه ، عرف الدين وسرى في عروقه منذ آلاف السنين وكانت أرضه مصر مهذاً لعدد من الأنبياء ، ومسرحاً لكثير من الرسائل السماوية منذ إبراهيم عليه السلام وقبله من أنبياء ورسُل سمعنا عنهم ولم تأتنا أخبارهم تفصيلاً ولكن جاء مصر من الرسل الكبار يوسف . وموسى وعيسى كما زارها عدد من الأنبياء كيعقوب ، وهارون .

ويبدو أن العبادة المصرية القديمة فرضت في طقوسها بعض مظاهرها على ديانة المصريين سواء أكانوا مسيحيين أم مسلمين ، وربما كان في التثليث المسيحي بعض آثار الثالوث المقدس القديم عند الفراعنة أعنى أوزوريس وإيزيس وحورس (أو أوزير وإيزي وحور) . كذلك بناء الكنيسة وبعض طقوسها تمت إلى المعبد المصرى القديم بأسباب .

ولم يخل التطبيق المصرى للإسلام ، أو الإسلام في صورهِ السلوكية في حياة المصريين قد شابهته بعض شوائب من حضارة مصر القديمة كتقدّيس الأولياء وزيارته في قبورهم ، وتقديم النذور والذبايح لهم . وتكاد لا تخلو قرية مصرية من مزار ولى أو شيخ . واختلطت بعض عقائد الطرق الصوفية بالعقائد المصرية القديمة ، كالاعتقاد باجتماع الأولياء في أماكن متعددة كاجتماع الأرباب يصرفون أحوال الدنيا ، ويكتبون مقادير الناس ومصائرهم .

ولا يغرب عن الأذهان قصة ذى النون المصرى الذى نشأ في صعيد مصر ، وكان في عقيدته الصوفية غريباً تأثر فيها بموروث التراث الدينى المصرى القديم .

لقد احتفظت كل قرية من قرى مصر بمسجد وكنيسة إذا كان بها أقباط مسيحيون وربما كان هناك أكثر من مسجد وكنيسة . كما كثرت على نجانبى الوادى البرانى والبيح والأديرة التى كان يسكنها رهبان المسيحيين إوقسيسيهم ، ويؤمنها المسلمون والمسيحيون جميعاً في أعياد النصرارى التى كان كثير منها أعياداً مصرية أو قومية قديمة كعيد النيروز أو النيروز وغيره .

وكان لمدن مصر سماتها الخاصة التى تجمع بين سمات المدن الإسلامية مع ملامح مصرية مميزة لها .

فمن مميزات المدينة المصرية أو القرية الكبيرة السنوية الأسبوعي الذي يعقد في أحد أيام الأسبوع ويجمع فيه الناس من القرى القريبة للبيع والشراء والمباذلة .

وقريب من هذا السنوي في صورته ووظيفته المولد السنوي للولى أو الشيخ الذي يوجد مزاره بالمدينة أو العاسمة « المصنر » ويعقد كل عام ، وكم ذا بمصر من الموالد لأولياء الله الصالحين الكبار والصغار والذين تعقد موالدهم على مدى العام في مواسم فراغ الأرض من المحاصيل ، وأوقات الحصاد إذ تملأ جيوب الفلاحين بالمال فيجفون لإلغائه في المدينة لزيارة الولي والفرجة على المولد وقضاء بعض ما يروونه من زيارة دينية ترضى الولي عنه وربما يستجيب لدعوته ليرضى نفساً ويعود مطمئناً لرباه ، وسعيداً بقضاء أوقاته من الصفاء والسعادة في مريح وسرور بين مباحج المولد فيشترى من حاجاته ما يطلبه ، ويمتع نفسه بالفرجة على ما يفتن به المولد من ألعاب وملاهي .

ولا يحتاج إلى التذكير بأن هذه الموالد قرية الشبه بما كان يصنع في مصر القديمة لمعبودات المصريين من احتفالات وأيام زينة كما جاء في القرآن الكريم حيث يرأس الحاكم أو الفرعون الاحتفال المهيب بمولد المعبود ، ويطلق المركب الذي يضم صورة المعبود أرض المدينة تحف به مظاهر المهابة والاجلال والفرحة وأنواع الزينة .

وغيره أن تصبح مواكب المعبود القديم مواكب لأتواب الشيوخ التي توضع حل مقاماتهم بتقديمها « الخليفة »^(١) ومن يمثل السلطة من أمير أو حاكم للإقليم .

ومعظم القرى والمدن والخواضر المصرية قديم منذ عهد الفراعنة والعصور المتعاقبة اليوناني والروماني ، وبعضها قرى ومدن قامت في العصر الإسلامي أقامها العرب الرافدون ، حيث استقروا من البلاد ، وسُميت بأسماء عشائرتهم كبنى قرة ، وبنى مزار ، وبنى محمد ، وبنى حسين ، وبنى مر ، والعامية ، والدناجلة ، وأولاد الياس ، والعواصم والخواضر الكبرى التي احتفظها الولاة والحلفاء مثل المسطاط ، ومنية بنى خصيب ، والقاهرة .

وأما البلاد والقرى الفرعونية ، أو التي أنشئت في العصر اليوناني والروماني فنعرف بأسمائها غير العربية والمعمورة مثل ميهوط أو مني أوط ، وفي العصر اليوناني لهكتوروليس ،

(١) حلقة الولي أو الرجل المساخ

والإسكندرية ، نسبة إلى الإسكندر ، ودهشور ودهروط التي عربت إلى دهروط ،
والبهنسا ، والأهوليون ، ولقدح ، وبوتيج ، أبوتيج وغيرها من عشرات الأسماء التي
لا زالت تحمل السمات الفرعونية أو اليونانية القديمة .

ومنها بعض المدن ذات الأصول القديمة التي جاء العرب المسلمون فاطلقوا عليها أسماء
عربية كالأقصر على مدينة طيبة .

واحتفظت تلك المدن القديمة بطابعها القديم إلى جانب الملامح الإسلامية الواضحة ،
فاجتمعت في تحيطها معالم الحضارتين المصرية القديمة والعربية الإسلامية .

وأما المدن التي انحطت المسلمون وأبنواها فقد احتفظت بالطابع العريق الإسلامي
بخالص ، والذي يمثل في وجود المسجد الجامع في سرة المدينة ليعطيه به الأصوات ،
والقيساريات ، ثم تتوزع الأسماء بعد ذلك وتنتشر حول المسجد والعمارة كالبروطة ،
وخالها ما تكون مدناً مدورة .

ولخص بالحديث العواصم وبعض المدن الكبرى في الصعيد والوجه البحري .

الإسكندرية :

وأول ما يبدأ به الحديث مدينة الإسكندرية التي بناها الإسكندر بن نيبط المقدوني
على ما يذكر المؤرخون وسميت باسمه ، وظلت عاصمة لبطالسة خلفاء الإسكندر من
اليونانيين الذين ضمروا بعد ذلك ، وأقاموا حضارة امتزجت فيها الحضارة المصرية
القديمة بالحضارة اليونانية وكانت الإسكندرية في عصرهم عروس البحر المتوسط ،
ومسرة العلم والفكر والحضارة ، بها مكعبها الزاهرة العظيمة ودار الحكمة ، فضلاً عن
لقصور البطالسة ، ومنشآتهم العظيمة وعرفت الإسكندرية في العصور البيزنطية
وأوائل العصر الإسلامي بمنازلها الحجرية البيضاء التي تهر الأهرن بشدة بياضها ، والتي
بالغ بعض المؤرخين العرب والمسلمون في وصفها فقالوا إنها لبياض بيومها كانت تظن
أهلها عن إيقاد السرج لفضوء لم ليلاً ، وبطالسة في الليل المنيرة . وهر هؤلاء بما
علمه ملوك الإسكندرية ورواها من قبل الروم من آثار عظيمة كالمنارة المشهورة ،
وملعب الإسكندرية ، وجمود السورق .

ولما دخل المسلمون المدينة أتوا أهل طابعها القديم واثمها ، ولحطتها وأسوارها

وأبوابها ، وأضافوا لها حديداً ، أو جددوا مآنهار أو هُدم منها ، كسورها العتيد الذي أعيد بناؤه ، واضيفت أحياء سكنية للعرب الذين وفدوا إلى الإسكندرية فسكنوا بعض ضواحيها ، كذلك بنيت المساجد ، والزوايا ، واستقر بها كثير من علماء المسلمين وعبادهم ، وفي عصر الفاطميين بنى بها بدر الجمالى مسجده المشهور بالعطارين واستقر بها علماء معروفون كالحافظ السلفى نزيل الإسكندرية ، والمحدث المشهور وخرج منها الطرطوشي ، وابن عطاء الله السكندري ، وضمت جماعة من كبار الصوفية ورجال الدين الذين أجلهم أهلها واحتفظوا لهم بمكانة بينهم كأبى العباسى المرسى ، والبوصيرى وكانت لهم مساجدهم التى يجتمعون فيها إلى أهل الإسكندرية يأخذون عليهم العلم ثم ضمت بعد ذلك أضرحتهم بعد الموت .

ونشأ بالإسكندرية فى العصر الفاطمى جماعة من الأدباء والشعراء أشهرهم ظافر الحداد وابن قلاقس . وقد وصف ظافر مدينة الإسكندرية ، وبعض معالمها كالمنازة والبحر وخليجها المعروف . كما وصف بعض قصور أثريائها بحمى الرمل .

ويعتبر خليج الإسكندرية من أجمل منازها . وهو الذى يجلب إليها ماء النيل ليشرب منه أهلها . وحفر منذ قديم الزمان ، وقام على إعادة حفره ولاية مصر فى العصر الإسلامى فقد حفر سنة ٢٤٥ هـ فى عهد الواثق الخليفة العباسى ، وأعيد حفره فى عهد أحمد بن طولون سنة ٢٥٩ وأعاد الحاكم بأمر الله حفره سنة ٤٠٤ هـ .

وذكر المقرئى أن خليج الإسكندرية كان يسقى الإسكندرية وبلاد مريوط ، وكانت بلاد مريوط فى نهاية العمارة ، والجنان المتصلة بأرض برقة . وكانت السفن تجرى فى النيل وتمخر فى الخليج حتى تدخل الإسكندرية وتتصل بأسواقها ، وكانت أرضه وأرصفته بها مبلطة بالأحجار والمرمر (١)

وعرف أهل الإسكندرية بالعمل بالبحر والاشتغال بالصيد ، وعمل السفن ، والتجارة وبعض الصناعات ، واشتهر بها نسيج الكتان ، وعمل بعض الملابس والنسوجات التى اشتهرت فى أنحاء مصر وغيرها من الأقاليم .

ولما كانت ثغراً على البحر فقد سكنها أجناس من أهل الجزر وكثير من المغاربة الذين

(١) الخطط ١٧١/١

كانوا يستقرون بها لأنها أول ما يلقاهم من حواضر مصر في طريق الحج ، ولذلك كانت تعرف بباب المغرب .

وقد وفد إليها واستقر بها كثير من علماء المغرب ورحالها وشعرائها طوال العصور الإسلامية .

كذلك عرفت الإسكندرية بأنها أم الكنيسة المرقسية الأرثوذكسية المصرية وبها أقام مرقس داعية المسيحية في مصر والذي سميت الكنيسة باسمه .

ويصور على بن ظافر بقلمه لمحة من الإسكندرية فيقول في أحد قصورها بكتاب البدائع^(١)

« قال على بن ظافر وحضر يوماً عند بنى خليف بظاهر الإسكندرية في قصر رسا بناؤه وسما ، وكان يمزق بمزاحمته أثواب السما ، وقد ارتدى جلابيب السحاب ولات عمائم الغمام ، وامتسحت ثنايا شرفاته ، واتسمت بالحسن حنايا غرفاته وأشرف على سائر نواحي الدنيا وأقطارها ، وحبته السحاب بما أوتمنت عليه من ودائع أمطارها . والرمل بفنائه قد نثر تبره في زبرجد كرومه ، والجو قد بعث إليه بطييه نسيمه ، والنخل قد أظهرت جواهرها ، ونثرت غدائرها ، والطلُّ ينثر لؤلؤه في مسارب النسيم ومساحبه ، والبحر يرعد غيظاً من عبث الرياح به . »

ويقول شاعر الإسكندرية في العصر الفاطمي ظافر الحداد في وصفها^(٢) :

بداك الثغر أضحكسى زـمـان	بكائى عليه نوح وانحـاب
سقى تلك المعاهد كل عهد	تفيض على الهضاب له هضاب
مضت لى لى جزيرتها لى لى	لآلها هن لوقيل الصواب
فلو نظمت قلائد للغـواى	لما رضيت عن الدر الرقاب
كأن البدر فيها عين مساء	لها من فائض النور انسكاب
تضىء بها المساجد فوسى تزهر	بباضاً مثلما تزهر الكـباب
تجاورها منارتها وفيهـا	وفى فانوسها عجب عـباب

(١) بدائع البدائة ص ٢١٦

(٢) ديوانه ص ٢٦/٢٥ ترويض د. حسين نصار طبع مكتبة مصر بالقاهرة سنة ١٩٦٩

فتاةٌ غادةٌ بإزاء شـسـيـح
 سقى الله السوارى بالسـوارى
 وسيف خليجها كالسيف حـمـداً
 يمدُّ مَدَى تَلْتَبَ بالجـسـارى
 وإيقاع الضفادع فيه عـسـال
 وتكسوه الرياحُ دروع حـسـرب
 وترقصُ في جوانبه غُصُـونٌ
 وتشدو بينها الأطيـار شـسـلـواً
 وكَم لي بالكنيسة من كـنـسـاس
 وكَم لي بالمجالس من جـسـلـوس
 وبحر الملح مثل الفحل يَزْعـو
 وتحسبُ سفنه صفَةً ولـسـوناً
 وأذكر قصرَ فارسَ والمعـسـلى
 وهى من بعد قوته فأضحى

وكَم يوم لنا بالرمـل لـسـد
 حديثٌ كاسمه ميتا حـسـديتٌ
 جلسنا والرمالُ لنا حـشـسـايا
 على الكُتبانِ أكمة سـسـنـانٌ
 به القصران كالترجلين لاخـسـا
 أقاما صاحيين مع اللـسـالى
 حديثٌ مثلما نُثِرَ السـسـحابُ
 كما يسقى أحاطمياً ثغـسـابُ
 وأوراق الكروم لنا حـجـسـابُ
 وفي الأغصان أغصانَ رطـسـابُ
 على بُعد يتلهما انسـسـرابُ
 ولم ينعب بينهما اللـسـرابُ

وظافر وإن مزج الحقيقة بالخيال في هذا الشعر إلا أنه استطاع أن يرسم لنا صورة
 لبعض معالمها المشهورة كالمنارة والمنازل البيضاء وعمود السوارى ، والبحر والرمل
 وخليج الإسكندرية بما يحوطه من منازره وحدائقه .

دمياط

وقد اكتسبت دمياط أهمية في مصر الإسلامية ، وعصر الناطقين خاصة لأنها كانت مرفأ

للاسطول الفاطمي ، يخرج من الفسطاط محرراً شمالاً في فرع نيل دمياط حتى يصل البحر المالح .
قال المقرئزي^(١) : « اعلم أن دمياط كورة من كور أرض مصر بينها وبين تنيس إثنا عشر فرسخاً » ، وتقع تنيس شرقها بين بحيرة المنزلة والبحر . ويقال أن اسمها مشتق من كلمة سريانية تعني إجتماع العذب بالملح حيث يجتمع عندها نهر النيل عند مصبه بالبحر المتوسط . وتعرضت دمياط لقربها من الفسطاط عاصمة الدولة الإسلامية في مصر لغارات الروم من البحر .

وكان أقرب غارات الروم على دمياط في عصر الإخشيد سنة ٣٥٧ هـ إذ هاجمها في بضع وعشرون مركباً .

وفي أيام الفاطميين في عصر الخليفة الفائز بنصر الله ووزيره طلائع بن رزيك سنة ٥٥٠ م نزل على دمياط نحو ستين مركباً من مراكب الفرنج بعث بها صاحب صقلية ، فماتوا وقتلوا ونزلوا بتنيس ، ورشيد والإسكندرية .

وبنى المسلمون في دمياط برجاً حصيناً في مدخل البحر ، وأقاموا على مدخل النيل عند التقائه بالبحر سلسلة عظيمة تسد الطريق أمام مراكب الفرنجة ومن تحدته نفسه بالاغارة على المدينة ومحاولة إقتحام مجرى النيل بمراكبه مبحرين إلى الفسطاط والقاهرة .

وكان المسلمون قد بنوا بها مسجداً يسمى مسجد فتح ، وكتب على بابه بالقلم الكوفي أنه عمر بعد سنة خمسمائة من الهجرة ، وفيه عدة من عمد الرخام منها ما يعز وجوده على حد قول المقرئزي .

تنيس

وتنيس من المدن المشهورة في الساحل الشمالي الشرق لمصر ، وقد كانت مدينة مزدهرة في العصور القديمة والعصور الإسلامية ، ثم خربت وطمرتها مياه بحيرة المنزلة . وكان لها في بعض الروايات مائة باب ، مما يدل على سعتها وحصانيتها .

وقال المقرئزي إنها بلدة من بلاد مصر في وسط الماء ... وكانت مدينة كبيرة وفيها آثار كثيرة للأوائل . وأهلها : مياسير أصحاب ثراء ، وأكثرهم حاكة ، وبها بحالك ثياب

(١) المخطوط ٢١٣/١

الشروب التي لا يصنع مثلها في الدنيا . وكان يصنع فيها للخليفة ثوب يقال له البدنة لا يدخل فيه من الغزل سداء ولحمة غير أوقيتين ، وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تخوج إلى تفصيل ولا خياطة ، تبلغ قيمته ألف دينار . و - في الدنيا طراز ثوب كتان يبلغ الثوب منه وهو ساذج بغير ذهب مائة دينار عينا غير طراز نيس ودمياط .

وكان النيل إذا أطلق يشرب منه من مشارق الفرما من ناحية جرجير وفاقوس من خليج نيس . فكانت من أجل مدن مصر .

ويبدو أن ثياب نيس هذه كانت تصدر إلى دار الخلافة في بغداد ، وكان الحمل منها كما يقول المقرئ يبلغ عشرين ألف دينار ، فلما كانت سنة ٣٦٠ هـ بعد تولى الوزير يعقوب بن كلس الوزارة للمعز لدين الله الفاطمي منع تصدير هذه الثياب إلى بغداد .

وكان يسكن مدينة نيس ودمياط نصارى تحت الذمة . وكان أهل نيس يصيدون السماني وغير ذلك من الطير على أبواب دورهم . والسماني طائر يخرج من البحر ويقع في الشباك .

وكانت السفن تركب من نيس إلى الفرما وهي على ساحل البحر وكانت المراكب هي وسائل انتقال أهل نيس من البلدة وإليها ويبدو أن ثياب نيس ومنسوجاتها الفاخرة كانت من الهدايا التي تقدم لخلفاء الفاطميين كل عام . قال المسيحي في حوادث سنة ٣٨٤ بتاريخه : « وفي ذى القعدة ورد يحيى بن إيمان من نيس ودمياط والفرما بهديته ، وهي أسفاط ونحوت وصناديق مال ، ونخيل وبغال وحمير ، وثلاث مظال وكسوتان للكعبة .

« وفي ذى الحجة سنة إثنين وأربعمائة (٤٠٢ هـ) — في عصر الحاكم بأمر الله — وردت هدية نيس الواردة في كل سنة ، منها خمس نوق مزينة ، ومائة رأس من الخيل بسروجها ولجمها ونجافيف وصناعات عدة ، وثلاث قباب ديقية بمراتبها ، ومتحركات وبنود ، وما جرى الرسم بعمله من المتاع والمال واليز . ولما قدم الحاكم استدعت أخته السيدة ست الملك إلى عامل نيس عن الحاكم بأن يحمل مالا كان قد اجتمع قبله ويعجل توجيهه ، وقيل إنه كان ألف دينار ، وألقى ألف درهم اجتمعت من أرباض البلد لثلاث سنين وأمره الحاكم بتركها عنده ، فحمل ذلك إليها ، وبه استعانت على ما دبرت . »

(١) المقرئ ١٨١/١

« وفي سنة خمس عشرة وأربعمائة ورد خير على الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله أبي هاشم علي بن الحاكم بأمر الله أن السودان وغيرهم ثاروا بتئيس وطلبوا أرواقهم وضيقتوا على العامل حتى هرب ، وأنهم عمأثوا في البلد وأفسدوا ومثوا أيديهم إلى الناس وقطعوا الطرقات ، فأرسل الوزير الجرجرائي تجريدة من خمسين فارساً للقبض على الجناه . (١) »

قال المسعودي يصف أرض تئيس وما يخرج من أصناف الفاكهة والزرع : (٢) :
« تئيس كانت أرضاً لم يكن بمصر مثلها استواء وطيب تربة ، وكانت جنانا ونخلًا ، وكثراً وشجراً ومزارع ، وكانت فيها بحار على ارتفاع من الأرض ، ولم ير الناس بلداً أحسن من هذه الأرض ولا أحسن اتصالاً من جناتها وكرومها ، ولم يكن بمصر كورة يقال إنها تشبهها إلا الفيوم . »

وقال ابن وصيف شاه : « وحولها الزرع والشجر والكروم ، وقرى ومعاصر للخمر ، وعمارة لم يكن أحسن منها ، وكثر بها الطير والسماك ، » ولتئيس موسم يكون فيه من أنواع الطير ما لا يكون في موضع آخر ، وهي مائة ونيف وثلاثون صنفاً ، منها السلوى والقسرى ، والزرزور ، والفاخنة والفواح ... ويصل إلى تئيس طير كثير لا يعرف اسمه صغار وكبار ، ويعرف بها من السمك تسعة وسبعون صنفاً منها البورى والبلمو ، والبرو واللبب »

قال المقرئ (٣) : « وكان من جملة عمل مدينة تئيس قرية يقال لها « تونة » يعمل لها طراز تئيس ، ويصنع بها من جملة الطراز كسوة الكعبة أحياناً . قال الفاكهي ورأيت أيضاً كسوة إفارون الرشيد من قباطي مصر مكتوباً عليها : بسم الله بركة من الله للخليفة الرشيد عبد الله هارون أمير المؤمنين أكرمه الله مما أمر به الفضل بن الربيع أن يعمل في طراز تونة سنة تسعين ومائة (١٩٠ هـ) . »

ومن قرى تئيس سمناي قال المقرئ (٤) : « قرية من قرى تئيس غلبت عليها بحيرة تئيس فصارت جزيرة ، فلما كان في شهر ربيع الأول سنة ٨٣٧ هـ سبع وثلاثين وثمانمائة كشف عن حجارة وآجر بها فإذا عضادات زجاج كثيرة مكتوب على بعضها

(١) المصدر نفسه ١٨١

(٢) ل مروج الذهب وبقته المقرئ ١٧٧:١

(٣) حذفت المقرئ ١٧٧/١

(٤) المصدر نفسه ١٧٧:١

اسم الإمام المعز لدين الله وعلى بعضها اسم الإمام العزيز بالله نزار ، ومنها ماعليه اسم الإمام الحاكم بأمر الله ومنها ماعليه اسم الإمام الظاهر لاعزاز دين الله ، ومنها ماعليه اسم المستنصر وهو أكثرها .

و « بورا » وكانت بين تنيس ودمياط وإليها ينسب السمك الذى يقال له البورى . وكانت بحيرة المنزلة والتي كانت تعرف في ذلك الزمان ببحيرة تنيس تحيط بالبلدة قال ياقوت : « وبحيرتها التي هى عليها مقدار إقلاع يوم في عرض نصف يوم ، ويكون ماؤها أكثر السنة ملحاً لدخول بحر الروم إليه عند هبوب الشمال — أى شتاء — وعند دخول الشتاء وكثرة هبوب الرياح الغربية فإن أهل تنيس تخزن الماء في جباب ويعدونه لستهم » ويقول ياقوت : « وهناك فوهة يدخل منها ماء البحر الأعظم إلى بحيرة تنيس ، وإذا تكاملت زيادة النيل في الفيضان غلبت حلاوته على ملوحة ماء البحر ، فصارت البحيرة حلوة . وعندها يخزن أهل تنيس الماء على ما ذكرت في صهاريجهم ومصانعهم لستهم » .

وذكر المقرئ أن أهل تنيس من مياه مخزونة في صهاريج تملأ في كل سنة عند عدوبة ماء البحر بدخول ماء النيل إليها .^(١)

ويحمل الماء العذب إلى تنيس خليج يخرج من النيل . وأما أهل تنيس وسكانها فقد كان بها عدد كبير من نصارى الأقباط ، معظمهم حرفتهم صناعة النسيج والحياكة ، وبعضهم يحترف الصيد . وكان هؤلاء السكان يتفاوتون في الغنى والفقير ، وبعض فقرائها من العاملين بالنسيج أو الحياكة كان يبدو عليهم البؤس . قال أحد الرحالة العرب الذين زاروا المدينة : إني لم أر من البؤس في بلد أكثر من بؤس أهلها — تنيس — ، وقد سألتهم عن مصدر هذا البؤس فأجابوني أن مدينتنا محاطة بالماء ، فلا نستطيع زرعاً ولا تربية ماشية ، والماء الذى نشره يجلب لنا من بعيد ، ونشتري الجرة منه بأربعة دراهم ، ولا شغل لنا سوى نسيج الكتان ، فنساؤنا تغزله ونحن ننسجه ونعطى على ذلك نصف درهم في اليوم من تجار الأقمشة ، ومع أن أجرتنا لا تكفى لإطعام كلابنا فإن على كل منا أن يدفع ضريبة مقدارها خمسة دنانير كل عام .

(١) المصدر نفسه ١٧٧/١

« لأنهم من أهل الذمة »

ولم يكن هذا الإرهاق يدفع الجزية قائماً في كل العصور ، بل كان استثناء في عصور بعض الولاة ، وقد مر بنا خبر أحدهم مع المأمون .

قال المقرئى : « وأخلاق أهلها سهلة منقادة ، وطبائعهم مائلة إلى الرطوبة والأنوثة . وهم يحبون النظافة والدمائة والغناء واللذة ، وأكثرهم بيتون سكارى . وهم قليلو الرياضة لضيق البلد ، وأبدانهم ممتلئة الأخلاط وأكثر أغذية أهلها السمك والجبن وألبان البقر »

وهكذا من أقوال المؤرخين يمكن أن نتصور حال تلك المدينة العامرة التي اشتهرت في العصور الوسطى منذ الفتح الإسلامى لمصر وحتى اندثرت وضاعت آثارها بعد أن خربها الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب فى سنة أربع وعشرين وستائة (٦٢٤ هـ) ، فاستمرت خراباً ، ولم يبق منها إلا رسومها فى وسط البحيرة . (١)

وخرج من تنيس علماء وأدباء وشعراء أشهرهم فى عصر الفاطميين الشاعر ابن إوكيع التنيسى شاعر الخمر والزهر ، ووصف الطبيعة والذى تأثر ببيئته ، فانعكست صور الحياة والطبيعة فيها على قصائده . ومن ذلك قوله فى مزدوجة :

واشرب عقاراً طال لنا كؤننا	يصفق من خوف الزاج لولها
من كفى ظمى من بنى النصارى	ألباناً فى حسنه حى نازى
لا سيما مع مسمع وزامير	قد سلما من وحشة التافير
دونك هذى سفة الزمبان	مشروحة فى أحسن البيبان

الصعيد وأهم بلادده

يقول الأذفوى : (٢)

إن مسافة الصعيد فى الطول مسيرة اثنى عشر يوماً بسير الجمال السر المعتاد ، وأما عرضه ثلاث ساعات وأكثر وأقل بحسب الأماكن . ويتصل عرضه فى الكورة الشرقية

(١) الخطط ١/١٨١

(٢) الخطط ١/١٨٩ - ١٩٠

بالبحر المالح (بحر القلزم أو البحر الأحمر) وبأراضي البجاة — شرق أسوان . وفي الكورة الغربية بالواحات) .

وهو — الصعيد — كورتان شرقية وغربية ، والنيل فاصل بينهما . ومن أهم مدن الصعيد ، الجيزة ، والبهنسا ، والأشمونين ، وأسيوط ، وقوص ، وقنا ، وأسوان .

وقد اشتهرت أرض الصعيد بخصوبتها ، ويكثر النخيل على ضفتي النيل ويحيط ببلادها وقراها . وقيل إن تمر الصعيد في تلك الأيام كان من أجود التمر وبخاصة في أسوان وقوص . وكان مصدر رزق لأهل الصعيد إلى جانب الزراعة والعمل ببعض الصناعات التي كانوا يجيدونها .

وكثر بأرض الصعيد الضأن والماشية ، لاهتمام أهله بتربيتها . قال المقرئزي : « وأرض الصعيد كثيرة المواشي من الضأن وغير ذلك لكثرة نتاجه حتى أن الرأس الواحد من الضأن يتولد منه في عشر سنين الف وأربع وعشرون رأساً » ١ . ولاندرى إن كانت هذه الاحصائية صحيحة ، لكنها على أية حال تشير إلى كثرة انتاج الضأن بالصعيد .

وأما عن سكان الصعيد الأعلى فيقول المقرئزي : « وكانت الكثرة والغلبة ببلاد الصعيد لست قبائل وهم : بنو هلال ، وبلبي ، وجهينة ، وقريش ، ولواته ، وبنو كلاب (من عامر بن صعصعة) . وكان ينزل مع هؤلاء عدة قبائل سواهم من الأنصار ، ومن مزينة وبنى دراج وثعلبة وجذام .

مدينة أسيوط :

ومن أشهر مدن الصعيد أسيوط ، وكانت عاصمة لإحدى أعماله الأسيوطية .

قال الرطواط (١) :

« مدينة أسيوط على غرى النيل ، بلد قرح بهيج ، نخطر ، جليل ، به الأسواق والقياسر والحمامات والمساجد والمدارس ، ولأهله شارة حسنة ومروءة ظاهرة ، ولهم بيوت وأقدار ، ورياسة وبستان . »

(١) مباحج الفكر — صفحات من جغرافية مصر — دراسة وتحقيق دكتور عبد العال عبد المعصم الشامى

طبع الكويت ١٩٨١ م ص ٩٤

وتتصل مساكن أسيوط بالجبل الغربى ، ويفصلها عن النيل مسافة ، بها الحقول والبساتين ، وقد أعجب بها كل من زارها فى تلك الآونة من الرحالة العرب والمسلمين وذكروا أن بها عدداً كبيراً من الأقباط النصارى ، وتوجد لهم بها كنائس كثيرة . كما تنتشر حولها بجبل أسيوط الغربى الأديرة الكثيرة والبيع التى أكثرها من وصفها وبخاصة فى بلدة درنكة فى جنوبيها الغربى .

ويصل بينها وبين غربى السودان درب الأربعين الذى كان يسلكه تجار السودان والأفارقة من بلاد تشاد ونيجيريا ومالى ، ويحملون إليها بضائع تلك البلاد من العاج والأبنوس ، وريش النعام وما إليها .

وكان بأسيوط جوامع ومساجد يؤمها الشيوخ والعلماء ويتلقون العلم فى حلقاتها وتخرج فيها جماعة من الأدباء والعلماء والشعراء منهم آل ممانى فى أخريات العصر الفاطمى وأول العصر الأيوبى فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى .

مدينة قوص :

وهى من الأمصار الخطيرة فى مصر الإسلامية ، المقصودة بالتجار ، ولاسيما عندما يرد عليها تجار الكارم من بلاد السودان . وبها الأسواق العامرة بالتجار والصناعات والقياسر بأصناف البر ، وسوق عطر قل أن يكون فى بلد مثله لعمارته ، وبها الفنادق والحمامات والمدارس ، والمنازل والدور التى تدل على جلاله سكانها وتعاستهم وسعادتهم .

وتقع شرقى النيل ، ويتبعها عدة بلاد من الصعيد تعتبر من المدن العامرة مثل قنا واسنا وادفو واخميم واسوان وقفت .^(١)

ويقول المقرئى^(٢) : « اعلم أن قوص أعظم مدائن الصعيد ، وهى على النيل ، بنيت بعد قفت » وحكى المؤرخون أنها شرعت فى العمارة وشرعت قفت فى الخراب من سنة أربعمائة فى عصر الحاكم بأمر الله الفاطمى .

وعرفت بطيب زراعتها وكثرة بساتينها ، وبخاصة بساتين النخيل . وكان البستان فى لغتهم يسمى مغلماً وهو من عشريين فدانا ، وله ساقية بأربعة أوجه .

(١) المباحج للبيضاى ص ٩٦

(٢) المقرئى المختصر ٢٣٦/١

وذكر الإدريسي أنها مدينة كبيرة بها أسواق جامعة ، وتجارات^(١) ، وذكر ناصر خسرو أنها مدينة قديمة محاطة بسور من الحجر ، وأكثر أبنيتها من الحجارة الكبر^(٢) . وذكر ابن جبير أنها مدينة حافلة بالأسواق ، متسعة المرافق ، كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والمنديين ، وتجار أرض الحبشة ، لأنها محط لرحال ، ويجتمع الرفاق وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والإسكندريين ومن يتصل بهم ، ومنها يفوزون بصحراء عيذاب ، وإليها انقلبهم في صدرهم من الحج . وكانت أيام الفاطميين والأيوبيين قصبة صعيد مصر . وزاد من أهميتها كونها مركزاً للحجاج ، ومقعداً لهم عبر الصحراء الشرقية إلى ثغر عيذاب ، ومنه إلى جدة فسكة .

يقول الأدفوى : وهي باب مكة واليمن والنوبة ، وسواكن والباله^(٣) . وفيها يقول الشيخ العالم نجم الدين أحمد بن ناشي القوصي القاضي :

قوص دهليز يثرب فإلى كم وسط دهليز يثرب أتبختر

قال الأدفوى^(٤) : قال ابن حوقل في كتابه المسمى بـ « الممالك والمسالك » : إن ماء مصر أشد عذوبة وحلاوة وبياضاً من أنهار الإسلام ، فإذا كان كما قال فماء إقليم قوص أجمع لهذه الصفات .

وذكر الأدفوى « أن قوص وبلادها كانت كثيرة النخل ، يقول ومن محاسنها كثرة نخيلها وأشجارها على شاطئ النيل من الجانبين الشرق والغرب ، يشق بينهما مسافة سبعة أيام لا يخلو منها إلا القليل ، والذي أظنه أن مساحة الأراضي التي فيها النخيل والبساتين تقارب عشرين ألف فدان . »

وإلى جانب النخيل ، كانت تزرع العنب واشتهرت به . ويقول الأدفوى إن فاكهة هذا الإقليم شديدة الحلاوة حسنة المنظر . وكذلك رياحينه عطرة الرائحة .

روى الأدفوى عن أحد شيوخه وهو القشيري قوله له : تروح إلى قوص تدرس الحديث

(١) رهة المشتاق ٤٩

(٢) سفرنامه ٧١

(٣) الضاع سب ٢٥

(٤) مصر - بيروت ٢٦

بها . فذكرت له بعدها وحرارتها فقال : أين أنت من طيب فاكهتها وعطرة رباحيتها .
ورطبها من أحسن الرطب ، صادق الحلاوة ، كسير السقر (العسل) . وفيه شيء تُسَلُّ
النواة منه وهو على عرجونه قبل أن يقطف .
وذكر ابن زولاق أنه ليس نوعٌ من أنواع التمر بالعراق إلا وفي صعيد قوص مثله ، وفيه
ما ليس في العراق .

واشتهرت قوص وإقليمها بالزراعة ، والتجارة ، وقد اتسعت تجارتها في تلك الآونة لكونها
مخطاً للحجاج الذين يفدون إليها كما ذكرنا ، ويتجهون منها إلى عيذاب والمالدين من مكة
إلى بلادهم .

يقول الادفوى إن هذا الاقليم اشتهر بكثرة الأمن ، يسير الانسان ليلاً ومعه ما شاء فلا
يجد من يعترضه . والشتاء فيه طيب مخصب ، كثير الألبان والبقولات ، كثير الدفا ، طيب
الاقامة جداً .

وكثرت في قوص وإقليمها المدارس والجوامع التي يتلقى فيها الناس العلم ، واشتهرت بكثرة
من خرجت من العلماء على مدى العصور منذ عمرانها في العصر الفاطمي وطوال العصرين
الأيوبي والمملوكي .

وكان معظم بلدان (١) الاقليم يدينون بالتشيع على مذهب الاسماعيلية الفاطمية أو
الإمامية ، وكانت لهم مع صلاح الدين بعد استيلائه على الحكم من الفاطميين وقائع مثل
واقعة كنز الدولة الذي زحف بمجموعه سنة ٥٧٠ هـ إلى القاهرة يريد إعادة الحكم
للفاطميين إلا أن صلاح الدين هزمه وقتله (١) .

واشتهرت شرقى قوص صحراء عيذاب بأنها دربُ الحجاج الراحين والغادين ، قال
المقريزي : « اعلم أن حجاج مصر والمغرب أقاموا زيادة على مائتي سنة لايتوجهون إلى مكة
شرفها الله تعالى إلا من صحراء عيذاب ، يركبون النيل من ساحل مدينة مصر الفسطاط إلى
قوص ، ثم يركبون الإبل من قوص ، ويعبرون هذه الصحراء إلى عيذاب ثم يركبون البحر في
الجلاب إلى جدة ساحل مكة . وكذلك تجار الهند واليمن والحبشة يردون في البحر إلى
عيذاب ثم يسلكون هذه الصحراء إلى قوص ، ومنها يردون مدينة مصر ، فكانت هذه

(١) راجع في هذه الأحداث : انظر من لأبي الأثير ١٥٦/١ ، الروصتين ٢٣٥/١ والمختصر لأبي الفدا ٥٦/٣ وخط
المقريزي ١٩٨/١

الصحراء لاتزال عامرة آهلة بما يصدر أو يرد من قوافل التجار والحجاج حتى إن كانت أحمال البهار كالقرفة والغفل ونحو ذلك لتوجد ملقاة بها والقفول صاعدة وهابطة لايعترض لها أحد إلى أن يأخذها صاحبها . فلم تزل مسلكاً للحجاج في دهاجهم وإياهم زيادة على مائتي سنة من أعوام بضع وخمسين وأربعمائة — عصر المستنصر بالله الفاطمي — إلى أعوام بضع وستين وستائة عصر السلطان الظاهر بيبرس — الذي اخرج قافلة الحججاج إلى البر وغير سلوك طريق النيل وعبور صحراء عيذاب^(١) .

أسوان

وتعتبر أسوان ثغر مصر الجنوبي ، وشهرتها كمدينة كبيرة لما هذا الموقع الخطير منذ أقدم العصور ، وازدهرت أسوان في العصور الإسلامية ، وتوافد عليها كثير من قبل العرب ، وسكنها وأقام حولها بصحرائها الشرقية جماعات من ربيعة عرفوا بالكنوز نسبة إلى كنز الدولة وكان يولأؤهم للفاطميين .

قال المقرئزي^(٢) : وأسوان في آخر بلاد الصعيد ، وهي ثغر من ثغور الإقليم ، يفصل بين النوبة وأرض مصر ، وكانت كثيرة الحنطة وغيرها من الحبوب والفواكه والخضروات والبقول . وكانت كثيرة الحيوان من الإبل والبقر والغنم ، ولحمانها هناك غاية في الطيب والسمن . وكانت أسعارها أبداً رخيصة ، وبها تجارات وبضائع تحمل منها إلى بلاد النوبة . وفي جنوبها جبل به معدن الزمرد ، وهو في بَرية منقطعة عن العمارة ، وعلى خمسة عشر يوماً من أسوان معدن الذهب .

وحولها بساتين النخيل على شاطئ النيل ، يقول الأذفوي^(٣) : « ونخيلها تشق الركب فيه مسيرة يومين » وقال المقرئزي : والبلد كثير النخل خصيب كثير الخير .

قال : « وأسوان حجارة صوان . ذكر ابن سعيد أن عمود السوارى الذي بالاسكندرية منها » وكذلك كانت تقطع مسلات المعابد من حجارتها أيام الفراعنة . قال الأذفوي : وبها حجارة سودّ تشبه القار . وتنتشر هذه الحجارة البازلتية في بحرى النيل عند أسوان مكونة الجنادل ، وتكسبه هناك منظرأً جذاباً .

(١) راجع الخطط ٢٠٣

(٢) الخطط ٤٤

(٣) الطالع السعيد ٣٢

قال : وهى كثيرة السمك ، والجنادل بها نزهة من نزه الدنيا ، بهجة المناظر كأنها مقطعات نيل — جزر — . وهى معتدلة الهواء ، قليلة الوباء ، وبها جبل الطفل يعمل منه الفخار وكيزان الفخار ، ولايوازيه شئ من نوعه .

ومقابل البلد جزيرة ، وبها نخيل ورياحين ، تهب رائحتها على البلد . وهى كثيرة المزارات والنزه ، دائرة على البحر .

والغالب على أهلها سمرة الألوان ، قال المسعودى : ومدينة أسوان يسكنها خلق من العرب من قحطان ونزار بن ربيعة ومضر ، وخلق كثير من قريش ، وأكثرهم من الحجاز وكان بشعر أسوان بنو الكنز من ربيعة ، وكان منهم أمراء ممدحون ، ألف فيهم أبو الحسن بن عزم سيرة ذكر فيها مناقبهم وأسماء من مدهم ، ومن ورد عليهم .

قال الأدفوى (١) : ولما كانت البلاد للعبديين غلب على أهلها التشيع . وكان بها قديماً أيضاً .

ولأن أسوان كانت على حدود مصر الجنوبية ، فقد كان بها رباط وحامية قوية ، كما كان أهلها فى رباط دائماً ، لأن ممالك النوبة المسيحية بالسودان الشمالى كانت مجاورة لهم ، وكان ملك النوبة كثيراً ما ينتهز فرصة ضعف الحكم بمصر أو غفلة الحكام ، وانشغالهم فيغير على ثغر السودان ، حدث ذلك قبيل قيام الدولة الفاطمية سنة ٣٤٤ هـ فى عهد الإخشيديين إذ أغار ملك النوبة على أسوان وقتل جمعاً من المسلمين ، واستطاع أحد قادة مصر رده ، وقتل عدد من رجاله ، وأسرى عدد آخر ، وقد حفظ الفاطميون ثغر أسوان وأقاموا به حامية قوية . قال المقرئى (٢) : « وكان بأسوان رجال من العسكر استعملون بالأسلحة لحفظ الثغر من هجوم النوبة والسودان عليه . فلما زالت الدولة الفاطمية ، أهمل ذلك » .

وكانت أسوان أيام الفاطميين من الغنى والثراء والازدهار العظيم بسبب ما تنتجه زراعتها ، وبساتينها ، ذكر المقرئى أنه تحصل من ثغر أسوان فى سنة ٥٨٥ هـ خمسة وعشرون ألف دينار . وقال الأدفوى أنه تحصل من أسوان فى سنة واحدة ثلاثون ألف أردب تمرأ .

(١) المصدر نفسه ص ٣٤

(٢) الخطوط ١٩٨/١

وخرج في أسوان جماعة من العلماء والفضلاء والأدباء والشعراء من أبرزهم في العصر الفاطمي ابن عرام ، والقاضي الرشيد ، والمهذب ممن سيأتي الحديث عنهم .

ونصل بعد عرضنا لصورة الحياة في بعض أقاليم مصر شمالاً وجنوباً إلى التعرف على عاصمتي مصر في هذا العصر ، ونعني الفسطاط أو مصر ، والقاهرة ، وصور الحياة فيهما . وهذه تلقي كثيراً من الضوء على المجتمع المصري خاصة والإسلامي العربي عامة في عصر هذه الدولة .

الفسطاط

يقول امية بن أبى الصلت^(١) : « وليس تشمل أرض مصر بعد النسطاط الذي هو قصر الملك وكبرى الدولة على مدائن لها قدر في كثرتها وفخامتها ، لكن أجل مدائنها وأفخرها أما في الجهة الشمالية من الفسطاط فالاسكندرية وتينيس ودمياط ، وأما في الجهة الجنوبية إلى أقصى الصعيد فقوص وقفت » .

يقول أمية في مدينة الفسطاط : « واختط عمرو بن العاص مدينته المعروفة بالفسطاط فانسرب أهل مصر وغيرهم من العرب والعجم إلى سكنائها ، فصارت قاعدة ديار مصر ومركزها إلى وقتنا هذا »^(٢) .

قال ابن سعيد المغربي^(٣) : « من كتاب الكمامم » : « وأما فسطاط مصر فإن مبانيها كانت في القديم متصلة بمباني مدينة عين شمس ، وجاء الإسلام وبها مبنى يعرف بالقصر حوله مساكن وعليه نزل عمرو بن العاص وضرب فسطاطه حيث المسجد الجامع الآن المنسوب إليه .

وقال : وقد أمعنت السؤال عنها فأخبرت أنها مدينة مستطيلة يمر النيل مع طولها ، وتخط في ساحلها المراكب الآتية من شمال النيل ومن جنوبه بأنواع الفوائد ، ولها متزهات » .

قال ابن سعيد : ولاينزل فيها مطر إلا في النادر ، وترايبها ثمره الأرجل ، وهو قبيح اللون تتكدر منه أرجاؤها ، ويسود بسببه هواؤها ، ولها أسواق ضخمة ، إلا أنها ضيقة . ومبانيها

(١) الرسالة المصرية ص ١٧ من نواذر المخطوطات الجزء الأول تحقيق عبد السلام هارون

(٢) الرسالة المصرية ص ٢٩

(٣) المغرب بتحقيق د. ركني محمد حسن ود. شوقي صيف ود. سيدة النكاشد.

طبع جامعة قزاق سنة ١٩٥٣

بالقصب والطوب طبقة على طبقة. ومنذ بنيت القاهرة للخلفاء الاسماعيليين المتوئين عليها من المغرب ضعفت مدينة الفسطاط — وبينهما نحو الميلين .

وقال : والفسطاط هي قصبه مصر ، والجبل المقطم يشريقها ، وهو متصل بجبل الزمرد — يعنى الذى قرب أسوان .

وقال ابن حوقل : والفسطاط مدينة حسنة ، ينقسم النيل لديها ، وهي كبيرة — نحو ثلث بغداد — في عصر المؤلف في القرن الرابع — ومقدارها نحو فرسخ على غاية العمارة والطيب واللذة . ذات رحاب في محالها . وأسواق عظام فيها ضيق ، ومتاجر فخام . ولها ظاهر أنيق وبساتين نضرة ، ومنتزهات على مر الأيام خضرة . وبالفسطاط قبائل وخطط للعرب وتنسب إليها كالكوفة والبصرة ، إلا أنها أقل من ذلك . وهي سبخة الأرض ، غير نقية التربة وتكون الدار بها سبع طبقات وستاً ، وخمساً ، وربما يسكن الدار المائتان من الناس .

وفي الفسطاط دار تعرف بدار عبد العزيز يصب فيها لمن بها في كل يوم أربعمئة راوية ماء . ومعظم بنيانهم بالطوب ، وأسفل دورهم غير مسكون ، وبها مسجدان للجمعة ؛ بنى أحدهما عمرو بن العاص في وسط الفسطاط والآخر على الموقف — شمالي الفسطاط — بناه أبو العباس أحمد بن طولون .

وأراد ابن سعيد أن يرى الفسطاط رأى العين فرحل إليها من الأسكندرية . قال : ولما استقررت بالقاهرة تشوفت إلى معاينة الفسطاط ، فسار معي إليها أحد أصحاب العزمة ، فرأيت عند باب زويلة من الحمير المعدة لركوب من يسير إلى الفسطاط جملة عظيمة لأعهد لي بمثلها في بلد ، فركب منها حماراً وأشار إليّ أن أركب حماراً آخر ، فأنفت من ذلك جرياً على عادة ما خلفته من بلاد المغرب ، فأعلمني أنه غير معيب على أعيان مصر — وكانت البغال من مراكب القضاة والشيوخ من العلماء وأصحاب المناصب — وعابنت الفقهاء وأصحاب البيزة والشارة الظاهرة يركبونها ، فركبت ، فعندما استويت راكباً أشار المكاري على الحمار فطار لي وأثار من الغبار الأسود ما أعمى عيني ودنس ثيابي وعابنت ماكرهته . ولقلة معرفتي بركوب الحمار وشدة عدوه على قانون لم أعهده ، وقلة رفق المكاري وقعت لي في تلك الظلمة المثارة من ذلك العجاج . وقلت :

لقيت بمصر أشد السواز رُكوبَ الحمارِ ، وكَحْلَ البُغازِ
وخلفي مكار يدسوث الرِيسا ح ، لإعرف الرفق مهما استطاز

أناديه مهلاً ، فلا يرعوى إلى أن سجدت سُجود العشار
وقد مُد فوق رواق الثسرى وألحد فيه ضياء النهار

فدفعْتُ إلى المكارى أجرته ، وقلت له : إحسانك إليّ أن تتركني أمشي على رجلي ،
ومشيئاً إلى أن بلغتُها . وقدرتُ في الطريق بين القاهرة والفسطاط وحققته بعد ذلك نحو
الميلين .

قال ابن سعيد : ولما أقبلت على الفسطاط أدبرت عنى المسرة . وتأملت أسواراً مثلثة
سوداء ، وآفاقاً مغبرة . ودخلت من بابها — وهو دون غلق — يفضى إلى خراب مغمور
بمبان مشتتة الوضع ، غير مستقيمة الشوارع ، قد بنيت من العلوب الأدكن والقصب
والنخيل طبقة فوق طبقة ، وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس
النظيف ، ويفضّ طرف الظريف ، فسرتُ وأنا معاينٌ لاستصحاب تلك الحال إلى أن سرتُ
في أسواقها الضيقة ، فقايسيت من ازدحام الناس فيها بمجوائح السوق والروايا التي على الجمال
ما لايفى به إلا مشاهدته ومقاساته ، إلى أن انتهيت إلى المسجد الجامع ، فعانيت من ضيق
الأسواق التي حوله ماذكرت به ضده في جامع أشبيلية وجامع مراكش . ثم دخلتُ إليه
فعانيت جامعاً كبيراً ، قديم البنية ، غير مزخرف ، ولا محتفل في حُصْرِهِ التي تدور مع
بعض حيطانه وتبسطُ فيه وأبصرتُ العامة رجالاً ونساءً قد جعلوه معبراً بأوطقة أقدامهم —
يجوزون فيه من باب إلى باب ليقرب عليهم الطريق والبياعون يبيعون فيه أصناف المكسرات
والكعك ، وما جرى مجرى ذلك ، والناس يأكلون منه في أماكن عدة ، غير محتشمين ،
لجري العادة عندهم بذلك . وعدة صبيان بأواني ماء يطوفون على من يأكل ، قد جعلوا ما
يحصل لهم منهم رزقاً . وفضلات مآكلهم مطروحة في صحن الجامع وفي زواياه .
والعنكبوت قد عظم نسجه في السقوف والأركان والحيطان ، والصبيان يلعبون في صحنه ،
وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمره بخطوط قبيحة مختلفة مختلفة من كتب فقراء العوام .

إلا أنه مع هذا كله على الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول وانبساط النفس
مالاتجده في جامع أشبيلية مع زخرفته والبستان الذي في صحنه ، وما يتبع ذلك .
ولقد تأملت ما وجدته فيه من الارتياح والأنس دون منظر يوجب ذلك ، فعلمتُ أنه سرٌّ
مودعٌ من وقوف الصحابة رضوان الله عليهم في ساحته عند بنائه . واستحسننت ما أبصرته
فيه من حلق المصدرين لإقراء القرآن والفقهِ والسحر في عدة أماكن . وسألت عن مواد

أرزاقهم ، فأخبرت أنها من فروض في الزكاة وما أشبه ذلك ، ثم أخبرت أن اقتضاءها يصعب إلا بالجهد والتعب . فنقصت عندي تلك القاعدة الفرصة التي وجدتتها من اجتماع العلماء على أرزاق تفرغ المعلم للتعليم . وتنشط المتعلم للاستفادة .

ثم انفصلنا من هنالك إلى ساحل النيل ، فرأيتُ ساحلاً كدر التربة غير نظيف ، ولا متسع الساحة ، ولا مستقيم الاستطالة ، ولا عليه سورٌ أبيض يبهجُ العيون بلونه وحسن استقامته ، إلا أنه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التي تصلُ من جميع أقطار النيل . ولكن قلت إنى لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فإني أقول حقاً . والنيل هنالك ضيقٌ لكون الجزيرة التي بنى فيها سلطان الديار المصرية الآن^(١) قلعتة قد توسطت الماء ومالت إلى جهة الفسطاط ، وبحسن سورها المبيض الشاخص حسن منظر النرجة في ذلك الساحل .

وقد ذكر ابن حوقل الجسر الذي يمتد من الفسطاط على النيل إلى جزيرة الروضة ومن الجزيرة إلى برُّ الجزيرة .

قال ابن سعيد : وبتنا في ليلة بطيارة مرتفعة على جانب النيل — يعنى نوعاً من المراكب كان معروفاً بالعراق ، وصنع مثله بمصر .

وقال ابن سعيد يصف موضع النيل وشاطئ الفسطاط وجزيرة الروضة :

نزلنا من الفسطاط أرفع منزل	بحيث امتداد النيل قد دار كالعقد
وقد جمعت فيه المراكب سُحرة	كسرب قضا أضحى يرك على وزد
وأصبح يطغى الموج فيه ويرتسى	ويطفو حناناً وهو يلعب بالترد
غدا ماؤه كالرقيق لمن أحبه	فمدت عليه حلية من حل الخد
وقد كان مثل الزهر من قبل مده	فأصبح لما زاده المد كالسورد

قال : قلت هذا لأنى لم أذق في الحياة أحلى من مائه ، وأنه يكون قبل المد الذي يزيد به ، فيفيض على أقطاره أبيض ، فإذا جاء عباب النيل صار أحمر .

وذكر ابن سعيد أهل الفسطاط فقال :

« لم أر في أهل البلاد ألطف من أهل الفسطاط ، حتى إنهم ألطف من أهل القاهرة ، وبينهما نحو ميلين ... وجملة الحالة أن أهل الفسطاط في نهاية من اللطافة واللين في الكلام ، وتحت ذلك من الملق وقلة النبالة برعاية قدم الصحبة ، وكثرة الممازحة والألفة ما يطول ذكره . »

(١) هو السلطان الصالح نجم الدين أيوب

وهذه الصورة القلمية التي أعطاها ابن سعيد لمدينة الفسطاط في عصر السلطان الصالح نجم الدين أيوب ويغد ما يقرب من مائة عام على نهاية الدولة الفاطمية تعطي صورة قائمة لمدينة الفسطاط التي كانت عاصمة للدولة المصرية ، أو لإقليم مصر وقاعدة لولايتها من عصر عمرو بن العاص وحتى الخليفة المعز لدين الله الفاطمي ، ولا شك أن الفسطاط كانت أكثر إشراقاً وجمالاً مما وصفه لنا ابن سعيد ، إلا أن الخطوط الرئيسية أو الشكل العام للمدينة ومسجدها وأسواقها تظل هي هي لا تتغير ، ولا ننسى ما حل بها من الخراب والحريق في آخر العصر الفاطمي . وما حل بها من إهمال بعد ذلك ، وإن حاول صلاح الدين وخلفاؤه إعادة الحياة إليها ، وإن كان اهتمامهم بها أقل من الاهتمام بالقاهرة التي جعلوها عاصمة لهم كالفاطميين .

ولأن الفسطاط كانت العاصمة الشعبية ، والقاهرة كانت مقر خلفاء الفاطميين ومن بعدهم سلاطين الأيوبيين ، فقد ذكر ابن سعيد ملامح هذا الخلاف بين المدينتين فقال : « وبالفسطاط مطابخ السكر والصابون ومعظم ما يجرى هذا الجرى ، لأن القاهرة بنيت للاختصاص بالجنود ، كما أن جميع زى الجنود هو بالقاهرة أعظم منه بالفسطاط ، وكذلك ما ينسج ويصاغ ، وسائر ما يعمل به من الأشياء الرفيعة السلطانية . والخراب في الفسطاط كثير . والقاهرة أجدر وأعمر وأكثر زحمة بسبب انتقال السلطان إليها . وسكنى الاجناد فيها . »

وكان ساحل الفسطاط غاصاً بالسفن التي تحمل التجارة من الاسكندرية من البحر المتوسط ومن دمياط ، ومن البحر الأحمر عبر النيل . وما يرد منها لساحل الفسطاط على قول ابن سعيد فوق ما يوصف ، وبها يجمع ذلك لا بالقاهرة وكان بالفسطاط لكل مهنة سوق خاصة ، إلا أصحاب المطاعم والشوؤون والخبازون وباعة المشروبات ، فقد كانوا ينتشرون في كل مكان .

ففى سوق الحدادين كان المرء يرى الصناع منكفئين على أعمالهم ، وقد غطاهم سواد الفحم ، والمألوف أن يرى بعضهم يشنون حدوات الخيول .

وكان بالفسطاط سوق يسمى سوق القناديل حيث كانت تباع تحف فنية لا توجد في مكان آخر ، وقد اشتهر العصر الفاطمي بقناديله الزجاجية المتقنة الصنع ، ومن التحف الزجاجية كذلك في مصنوعات الفسطاط الأواني الزجاجية. والمحارية الدقيقة التي كانت علامة بارزة على تقدم هذه الصناعة في هذا العصر .

كذلك كانت تعرض المشغولات الصدفية كالصناديق المكففة بالصدف والأمشاط ومقابض السكاكين .

كما كان يعرض بهذه السوق أنواع من الصناعات والتحف المستوردة من أقطار أوروبا والعالم الاسلامى المختلفة .

وتعرض بأسواق الفسطاط كذلك كميات من الخضر والفاكهة ، وقد عدد منها ناصر خسرو حين زارها أربعة وعشرين نوعاً ، وكان السعر محددأ بواسطة المحتسب ، فإذا زاد البائع السعر قبض عليه وشهر وطافوا به في المدينة على جمل أو حمار وعلق في عنقه جرس .

وكان المألوف في شوارع الفسطاط والقاهرة أن يركب عامة الناس الحمير ، ويركب ذوو المناصب من أصحاب القلم أو شيوخ الدين والقضاة البغال ، بينما يركب أصحاب السيف من الجند ، وقادة الجيش الخيل . ولذلك كان ابن سعيد وهو من أصحاب القلم متحرجاً من ركوب الحمار لانه مركب العامة .

وقد اهتم الفاطميون بالأمن في المدن والعواصم خاصة ، ويشدد رجال الدولة على ذلك حتى إن الصائغ كان لايبالى أن يترك دكانه فيغيب عنه زمنا دون أن يخشى عليه من سطر اللصوص ، وكان يكتفى بأن يمد حبلأ أو شبكة على مدخل دكانه إشارة إلى عدم وجود صاحبه .

وكان هذا بالضرورة عند استتباب الأمور في عصور الخلفاء الأقوياء ، والحكام القادرين من الوزراء والأمراء .

وكان بعض الدواوين في العصر الفاطمى بالفسطاط ، كما أن بعض وجوه الدولة ومعظم الشيوخ ورجال القلم والقضاة كانوا يسكنون الفسطاط ، وكان لبعضهم دار بالفسطاط وأخرى بالقاهرة .

وللفسطاط متنزهات كثيرة خارجها في المرج والحقول المحيطة بها ، وبجبل المقطم . ومن أشهرها بركة الحبش . وكانت متنزها معروفاً لأهل الفسطاط والقاهرة .

وبركة الحبش منخفض من الأرض جنوب الفسطاط تغطيها الخضرة في معظمها بعض أيام السنة في أخريات الشتاء بطوال شهور الربيع وحتى الفيضان ، حيث يفيض النيل فيملاً هذا المنخفض الذى يبلغ طول كل جانب من جوانبه ميلاً وتتحول إلى بركة عرفت ببركة الحبش . وأقيم حينها الخدائق التى أحاطت بها ، فاكسبتها بهجةً ومنظراً أنيقاً تغنى به الشعراء .

يقول ابن سعيد : « وعانيت من هذه البركة أيام فيض النيل عليها أهبج منظر . ثم زرتها أيام غاض معظم الماء . وبقيت فيها مقطعات بين خضر من القرط والكتان تفتن الناظر . وفيها أقول :^(١) »

يا بركة الحبش التي يرمى بها	طول الزمان مبارك وسعيد
حتى كأنك في البسيطة جنة	وكان دهرى كله بك عيد
يا حسن ما يبدو بك الكتان في	نواره أو زرة معقود
والماء منك سيوفه مسلولة	والقرط فيك رواقه ممدود
وكان أبراجاً عليك عرائس	جلبت وطيرك حولها غريد
يا ليت شعري هل زمانك عائد	فالشوق فيه نبدة ومعيد

ويقول أمية بن الصلت عن فيضان النيل وكيف تبدو في أثنائه نواحي مصر جميلة المنظر « وفي هذا الوقت من السنة تكون أرض مصر أحسن شيء منظراً ، ولاسيما متنزهاتها المشهورة ودياراتها المطروقة كالجزيرة وبركة الحبش »^(٢)

ويقول إن أهل الخلاعة وذوى الأدب والطرب كانوا يتتابون هذه الأماكن النزهة . قال : « واتفق أن خرجنا في مثل هذا الزمان — الفيضان — إلى بركة الحبش فافترشنا من زهرها أحسن بساط ، واستظللنا من دوحها بأرفى رواق ، وطلعت علينا من زجاجات الأفداح شمس في خلع البدور ، ونجوم بالصفاء تُنور ، إلى أن جرى ذهب الأصيل على لجين الماء ، ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء فقال في ذلك بعضنا :

لله يرمى في بركة الحبش	والأقش بين الضياء والغبش
والنيل تحت الرياح مضطرب	كصارم في يمين مُرتمش
قد نسجتنا أيدي الغمام لنا	فحنن من نسجها على فُرش
ونحن في روضة مُفؤفة	دُبج بالنور عطفها ووشى

وقال أيضا :

علل فؤادك باللذات والطرب	وباكر الراخ بالنايات والتخب
أما ترى البركة الغشاء لابسة	وشياً من الثور حاكته يد السحب
وأصبحت من جديد النبت في حُلل	قد أبرز القطر فيها كل محتجب
من سوسن شرق بالفل محجره	وأقحوان شهى الظلمة و الثنت
وانظر إلى الورد يحكى خد محتشم	من نرجس ظل يُدى لحظ مرتقب

(١) المعرب ص ١٠

(٢) الرسالة المصرية ص ٢٠

وكان لبعض خلفاء الفاطميين عليها مناظر (استراحات) وبساتين ، وأغرم بها الأمير الشاعر تميم بن المعز ، وكان له بستان عليها اسمه المختار ، كان يعتاده فيه بالزيارة أخوه الخليفة العزيز بالله .

يقول في بستانه المختار هذا :^(١)

يارب ليل بته لاعمماً	بين ربا المختار فالجنسر
أخرج فيه نصباً من صبا	واستحك الخمر بالخمير
وعده الألفاظ ممشوقية	ساحرة الأوتار والشعر
فلم أزل أشرب من كفيها	واجنى الشهد من الثمر
والبدر قد مد على نيله	منطقة من خالص القبر

ويقول تميم في بركة الحبش :

انظر إلى البركة الغناء مفعمة	بالماء والشمس من حُسن لغايرها
والريح تلمب في أمواجها جدلاً	فما تسالمها إلا تبارؤها
والنبث قد حفها من كل ناحية	بكل غصن أنيث فهو حائرها
كأنها بُسط يعض إذا برزت	للعين مخضرة منها فراورها

وقد بنى الخليفة الأمر بها منظر من خشب مدهونة فيها طاقات تشرف على خضرة البركة وكان إلى جوار بركة الحبش هذه دير مرحنا — قرب فم الخليج الآن — على شاطئ البركة من الجهة الغربية ، وإلى جانبه بساتين للأمير تميم ، وقد جعل بها مجلساً له على عمد . وكان قرب الدير عين ذهبية في الرمال . وكان هذا الدير من مواطن اللهو وأماكن الفرجة واللذة في زمن الفاطميين يقول فيه تميم :

أيا دير مرحناً سقتك رُعود	من الفيث تهيم مرة وتعود
فكم واصلنا في رنك أوانس	يظفن علينا بالمدامة غيد
وكم ناب عن نور الضحى فيك مبسم	ولابث عن الورد الجنى محدود

وإلى الشرق من البركة وبجبل المقطم كان دير القصير ، وكان هذا الدير من منازة الفسطاط والقاهرة المقصودة للمتعة واللهو ، وكان رهبانه يرحبون بالزائرين وبخاصة في أعياد النصرى حيث يكون القصف والشراب ، والغناء ، وكان الشعراء يعجبون به ، ويقضون أوقاتاً سعيدة يتناشدون الشعر ، وذكره الشاهبشتى بين ديارات مصر. المعروفة التي بهج بها

(١) ديوانه من ٢١٥

الشعراء . وكان لهذا الدير مكانة لدى خلفاء الفاطميين ، يؤمنونه في أوقات نزعتهم ، كما كان يتردد عليه الحاكم بأمر الله في زهده لقضاء أوقات بين رهبانه .

وتغنى به الأمير الشاعر تميم بن المعز^(١) قال :

كم بدير القصر لى من بكور وروح على الصبا بالعقار
حيث أخلو بما أحب من القصد في قليل الوقار لسك أداري
كم صبح شدته بعبوق وظلام وصلته بنهار

وقال :^(٢)

إلى دير القصر صبا فؤادي وقد يصبو الخطير إلى الخطير
محل جمل أن تعزى إليه محلات الخورنق والسدير

ويقول :^(٣)

أزى الليل في دير القصر كأنما تطالعنا من ساحته شمس
يلد التصابي في ذراه كأنما تجدد للزوار فيه نفوس
فمن كان محبوساً على حب لذة فإنى على دير القصر جليس

ويقول :^(٤)

غمرك الملقى واجتنب الثاويسا وساغدت في الدير القصري إبليسا
وهل يعجز اللذات إلا مسرف ويتركها إلا أمرؤ باث محبوسا
رُباً عظمتهن النصارى ولم أزل أعرس باللذات فين تعريسا
أصول بقرع البم والزهر بمده إذا قرعوا عند الصلاة التواقيسا
وإن عظمت فيه النصارى صليهم وحركت الناقوس أو عبت عيني
فرعت إلى دين النبي محمد وقدسك فيه رب أحمد تقديسا

وظل هذا الدير مرتاداً للشعر حتى القرن السابع ، ويذكر الشاعر علي بن ظافر في كتاب « بدائع البدائه » أنه ذهب إليه مع بعض صحابته . قال :^(٥) « ومضيتُ أنا وجماعة من صحابتي إلى الدير المعروف بالقصير إيثارا لنظر تلك الآثار ، فلما تنزهنا في حسن دنظره ، وقضينا الوطر من نظره تعاطينا القول فيه جرياً على عادة الخلعاء والبلغاء ، وظرفاء الأدباء ، ومجان الشعراء الذين نبذوا الوقار بالعراء » .

(٢) ديوانه ص ٢٤١

(٤) ديوانه ص ٢٥١

(١) ديوانه ص ٢٣٥

(٣) ديوانه ص ٢٤٨

(٥) بدائع البدائه ص ٢٢٧ بتحقيق أبو الفضل إبراهيم .

ومن منازة الفسطاط والقاهرة القرافة بحجن حفضم بين الفسطاط والقاهرة وقد يعجب المرء أن تكون مدينة الأموات نزهة ومكانا يأنس إليه الأحياء ، ولكن هكذا كان الحال وظل ، وللمصريين عادات غريبة تختلف عن غيرهم ، ومن هذه العادات الغريبة أنسهم للأموات ، واحتفالهم معهم في الأعياد يذهبون إليهم ، ويعتقدون مشاركتهم لهم فيها .
ومن هنا كانت القرافة مكاناً يجتمع فيه الناس للفرجة ، بدلاً من كونها قاصرة على العبوة بالموت ، فالمصري يعتقد من قديم أن الموت مرحلة ينتقل بعدها الانسان من طور إلى طور ، ولا يفنى ، فهو باقى فى الحياة الآخرة يعمل ما كان يعمل فى حياته الدنيا . وقد انتقلت هذه العقيدة إلى المصرى المسلم ، وجمع بينها وبين ماجاء عن البعث فى الإسلام وحياة القبر وما إلى ذلك .

وذهب إليها ابن سعيد قال (١) : « ويت ليلالى كثيرة بقرافة الفسطاط ، وهى فى شرقها بها منازل لأعيان الفسطاط والقاهرة ، وقبور عليها مبانٍ معتنى بها ، وفيها القبة العظيمة العالية المزخرقة التى فيها قبر الإمام الشافعى رحمة الله عليه ولا تكاد تخلو من طرب ولاسيما فى الليالى القمرية ، وهى معظم مجتمعات أهل مصر وأشهر متنزهاتهم . وفيها أقول :

إن القرافة قد حوث ضلدين من	دنيا وأخرى ، فهى نعم المنزل
يفشى الخليع بها السماع مواصلاً	ويطوف حول قبورها المتجمل
كم ليلية بتاياها ومداًئنا	لحن يكأذ . يدوب منه الجندل
والبدر قد ملأ البسيطة نورة	لكأنا قد فاض فيها جندول
وبدا يضاحك أوجهاً حاكينهُ	لما يكمل وجههُ المتهلل

قال ابن سعيد : « وفدى القرافة فى شرقها جبل المقطم ، وليس له علو ولا فيه اخضرار ، وإنما يقصد للبركة . وهو نبيه الذكر فى الكتب ، وفى سفحه مقابر أهل الفسطاط والقاهرة . »

وسكن القرافة أمية بن أبى الصلت العالم الشاعر الأديب القيروانى البذى وفد إلى مصر فى عهد الخليفة المستعلى ووزيره الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى وظل بمصر زمناً .
ووصف على بن ظافر انترافة بعد انتهاء دولة الفاطميين وأوائل دولة الأيوبيين (٢) :

(١) المغرب ص ١١/١٠

(٢) بدائع النبائة ٢٠٣

« كنت في بعض العشايا بالقرافة في منزل قد ارتفعت ورود أشجاره ، وابتسمت ثغور أزهاره ، وذاب كافور مائه على عنبر طابيه ، ومدت بكاسات الخلقاء بنانُ غصونه . والنسيم قد خف فاختضل ، وسقط رداؤه في الماء فاتل ، ووهت قواه فصعف في السير ، واشتد مرضه حتى ناحت عليه أنواع الطير » .

وقال :^(١) « واجتمعنا بالقرافة في ليلة وقد عم السرور الأرض بسحابه ، وغمرها بفائض تسكابه ، فأنبت نواحيها زاهي جلتار من شعل النار ، في غصون مائسات ، كحبال الفرقيات ، وكشف بها التور سُجف الظلماء » .

القاهرة :

بنى الفاطميون القاهرة على بعد ميلين شمال مدينة الفسطاط ، لتكون مدينة الخلفاء ومستقر ملكهم ، مع حريمهم وعبيدهم وجندهم المقربين ، فلم تكن أول الأمر تحفل بالأحياء الشعبية والأسواق ، بل لم يكن بها بعض دواوين الدولة التي ظلت بالفسطاط مصر . وبنوا فيها قصورهم الفارهة المزدهرة ، كالقصرين الكبيرين الشرق والغربي اللذين بناهما جوهر للخليفة المعز لدين الله ، وأضاف إليها العزيز بالله والخلفاء من بعدهما أجنحة وقاعات كثيرة .

وكان بالقصر الشرق الكبير تسع بوابات تعلو إحداها منظره يظهر الخليفة في شرفاتها عند الاحتفال بمواسم معينة . ومن أسماء هذه البوابات : باب الزمرد ، وباب السلام ، باب الفتوح إلخ .

ويربط القصرين بعضهما ببعض ، كما يربط بعض قاعاته أنفاق ورسايب لانتقال الخليفة محفورة تحت الأرض .

وكان هذا القصر الشرق مشيداً في الزاوية الشمالية الشرقية من المدينة ، روى ناصر خسرو أنه عندما كان يرى من بعد كان يبدو كالجبل لضخامته وارتفاع مبانيه . وقد شيد مكان بستان كافور ودير العظام .

والقصر الغربي كان ظهره يطل على الخليج ، وعلى جانبي الواجهة الشرقية امتد جناحان للبناء ، مما جعل القصر شبيهاً بمحدوة الحصان يمتد جناحها ناحية القصر الشرق الكبير وقد

(١) المصدر نفسه ٢٠٥

اضيف بعد ذلك إلى هذا القصر على الخليج قصر اللؤلؤة ، وبين القصرين امتد ميدان عظيم عرف بهذا الاسم ، « رحبة بين القصرين » وكانت قصبة القاهرة تحترقه^(١) ، وصف أحد رسل ملك بيت المقدس الصليبيين قصر الخليفة العاضد فقال : انه استقبل أمام القصر بحرس شاهرى السيوف ، ثم اقتيد عبر ممرات وسرايب وعبر ثلاثة أبواب يحرس كلاً منها جندى سودانى من حرس القصر حتى بلغوا فناء واسعاً ، كسيت أرضه بالرخام الملون والمنقوش الذهبية الموهمة ، وتتخلله نافورات بأنابيب من الذهب والفضة وتتناثر على جوانبها مجموعات من الطيور النادرة تسرح في أنحاء القصر ، كذلك شاهد حيوانات متعددة مجتلمة من أنحاء العالم .

وأفضى الحرسُ بالرسول ومن معه إلى القصر الكبير الذى قام على حراسته حرسٌ تام العدة والسلاح فى زى يلمع بالفضة والذهب ، ثم انتهى بهم الأمر إلى حجرة العرش التى استقبلهم فيها الخليفة ، وبها ستارٌ فخم يمتد من بين حائطى القاعة ، من الحرير المزخرف متعدد الألوان ، ومطرز بخيوط الذهب ، وقد صُوِّرت عليه تصاوير أناس وطيور وحيوانات ، ومطعمة بأحجار الزمرد والياقوت وغيرها .

وكان الخليفة يجلس خلف هذه الستارة ، فكشفت عند اكتمال المجلس ، وتجلَّى الخليفة فسجد الحضور ، وبدا الخليفة على كرسيه المذهب والمطعم ، وقد أحاط به مساعدوه يكسوهم الهبة والوقار .

وأفاض المقرئى فى وصف قصور الخلفاء وقاعة الذهب^(٢)

وسوى قصور الخلافة مقرهم الرسمى ومقر حريمهم وجواربهم وخدمهم وحشمهم ، وجندهم وحرسهم ، ومن يختصون بهم كان للخلفاء كذلك مناظر كثيرة بالقاهرة ومصر والروضة والقرافة وبركة الحبش ، وظاهر القاهرة ، ولهم بها وخارجها عدة متنزهات وبساتين .

ومن أشهر مناظرهم على خليج القاهرة منظره قصر اللؤلؤة ، ومنظره الدكة ، ومنظره المقس على النيل الرئيسى قرب الفسطاط ، بينها وبين الجزيرة ، ومنظره باب الفتوح ومنظره بركة الحبش ، والأندلس بالقرافة ، وقبة الهواء على المقطم .

(١) موقعه الآن فى المنطقة ما بين جامع الحسين وحن الخليل دمارستان قلايون وقد سميت باسمه رواية نجيب محفوظ « بين القصرين » لأن أحداثها تدرى فى تلك المنطقة .

(٢) راجع حطط المقرئى /١

وكان الخليفة العزيز بالله نزار ، ليعاً باشادة القصور والحدائق ، وحب استخدام الرياش
الفاتحة والثياب المنوثة بالذهب والفضة .

وقامت القاهرة في عهده بدرجة بالغة الثراء ، وعمت مظاهر الترف جميع الناس .
ومن قصورهم المشهورة بالقاهرة قصر الشوك والذي حرف من بعد على السنة العوام
فأصبح قصر الشوق .

وتنوا بالقاهرة إلى جانب القصور الجوامع والمساجد ، كجامع الأزهر الكبير الذي تحضه
الحلقات لأداء الصلوات أيام الجمع والأعياد ، وفي شهر رمضان ، حيث كان الخليفة يذهب
إليه في موكب مهيب ليلقى خطبة الجمعة ، أو خطبة العيد ويؤم الناس في الصلاة ، كما
جعل الأزهر مكاناً للعلم يتخلق فيه الطلاب حول العلماء والشيخ لتلقى أصول المذهب
الفاطمي ودراسة علوم الدين واللغة والتاريخ والأدب والعلوم العقلية والرياضية .
وبنى الحاكم الجامع الأنور ، أو جامع الحاكم ، ودار العلم أو دار الحكمة ، ومسجد المقر
والجامع الأحمر ، وتحويل بعض الكنائس إلى جوامع .

وأحاط الفاطميون القاهرة الملكية بأسوار ضخمة ، كانت لها أبواب تفتح وتغلق وقت
الحاجة ، وأول أسوار القاهرة بناه جوهر الصقلي ، ثم عاد بدر الدين الجمالي فوسع السور
حول القاهرة وأعاد بناء وبناء أبوابه .

واشتهر من أبواب القاهرة باب الفتوح ، وباب النصر ، وباب زويلة أو بوابة المتولي ،
وكان باب زويلة على الضلع الجنوبي للقاهرة مواجهاً لمدينة الفسطاط ولهذا كان أكثر
الأبواب ازدحاماً بالهاسر . لأنه كان يحد على أصحابها الجزل والمقنعة وزجال الدولة وعزتهم
إلى الفسطاط إلى فيروز بن محمد بن الملك .
وقامت حول باب زويلة بعض الأسواق ، كما شاد بعد الناس من الجند وغيرهم مساكن
لهم يظهرون ذلك .

ووصفت بعض الرحالة القاهرة في عهد الفاطميين فذكروا أن الحي الملكي سكن
الحلفاء بقصوره ورحبته كان جميلاً فخماً وأشج الأرجاء ، تبدو عليه مظاهر الأبهة والجمال
وفيما عدا ذلك ظاهراً القاهرة قامت بمساكن للناس ضيقة لدروب والحارسة ليست في
نظافة الحي الملكي ولا فخامته بطبيعة الحال .

وكان بعض الخلفاء يركب فرسه أو بعلمته أو حماره — كما فعل الحاكم — ويشق الأسواق في الأحياء الشعبية من القاهرة لتفقد أحوال الرعية والتعرف على مايجرى ، وكان بعضهم يتقدم لهم بالشكاوى للنظر فيها .

كما أن مواكب الخلفاء تشق تلك الأحياء في الأعياد والمناسبات أو عند الخروج للترفة على الخليج خارج القاهرة في عين شمس أو الفسطاط وبركة الحبش أو بالمقس وجزيرة الروضة أو للصيد في برارى سرياقوس وحولها من منطقة شرق القاهرة .

وقد بلغت القاهرة أيام الفاطميين مبلغاً من البهاء والجمال والعظمة نافست فيه بغداد عاصمة العباسيين ، وكانوا يقصدون إلى ذلك ، لأنهم منافسوهم السياسيون في العالم الاسلامى آنذاك ، فلا بد وأن تكون عاصمتهم على مايطمحون إليه من مكانة ، ولذلك لم يدعوا فرصة دون اضافة جديدة من العمارة .

وكان ناصر خسرو قد زار القاهرة في عصر الفاطميين فقال عنها :

« إن القاهرة واحدة من اكبر مدن العالم وبها ملايين عن عشرين ألف متجرا مملوكة للخليفة ، وبها أيضا حانات وحمامات ومبان عامة أخرى كثيرة العدد تعجز الحصر .

وقد شيدت القاهرة حول قصرى المعز على خلاف مدينتى الفسطاط والقطائع اللتين شيدتا حول جامعى عمرو بن العاص وابن طولون .

وكانت القاهرة أيامها تبدو تحفة فنية شكلها صائغ ماهر في أيام ، ثم وضعت . كما لو كانت توضع في صينية وسط السهل الممتد الذى ينحصر بين النيل والمقطم .

وقد شيدت المنازل بالقاهرة بعناية فائقة حتى ليخيل للرائى أنها قد شيدت من أحجار كريمة لامن ملاط وقرميد وأحجار عادية .

وكانت منازلها منفصلة الواحدة عن الأخرى حتى إن الأشجار المزروعة في واحدة منها لاتلامس أغصان المنزل الآخر . وكل منزل منها مزود بحديقة ، وأجملها مايحيط بقصر الخلافة .

ويقول ناصر خسرو : من أهم خصائص مصر أن من يريد أن ينشئ حديقة يمكنه أن يحقق رغبته في أى فصل من : فصول السنة . ولدى المصريين أشجار مزروعة في براميل خشبية موضوعة على أسطح منازلهم التى تشبه الحدائق ، وهذه الأشجار غالباً ماتكون مشمرة ، محملة بالفاكهة من البرتقال السكرى والبلدى والرمان والتفاح والسفرجل . ولدى

أهل القاهرة كذلك مشاتل للزهور من الورود والرياحين وغيرها من نباتات الزينة .
وكانت منازل القاهرة المحاطة بالحدائق الياض تشبه مدد الحدائق المنتشرة في أوروبا
الآن^(١) .

وإلى الجنوب خارج أسوار المدينة كانت توجد بركة الفيل التي سميت على اسم واحد
من اتباع ابن طولون . وكان الخليفة الفاطمي مولعاً بالخروج إليها للتنزه على ضفافها ، أو
فيها على إحدى مراكبه، شوانية أو سُمارياتة .

وقد كان المشهد ساحراً بالليل عندما تضاء المناظر والجواسق بالشموع على شواطئ
البحيرة . وقد وصف ابن سعيد المغربي بركة الفيل فقال :

انظر إلى بركة الفيل التي اكتفت بها المناظر كالأهواب باليصر
كأنما هي والأبصار ترمقها كواكب قد أداروها على القصر

وقدر ناصر خسرو مساكن القاهرة في عصره بعشرين ألف مسكن ، كل منها مكون
من خمس أو ست طوابق . وكان إيجار منزل من أربعة طوابق أحد عشر ديناراً كل شهر .
فقد طالب صاحب المنزل الذي نزل فيه الرحالة ناصر خسرو بخمسة دنانير إيجاراً شهرياً
للطابق الأخير الذي نزل به .

وكان الماء ينقل إلى المدينة على ظهور الدواب ، يحمله السقاءون من النيل الذي كان
يبتعد عن المدينة ما يقرب من الميل .

وعادة السقائين أن يحملوا الماء على ظهورهم في آنية من الفخار أو الجلد (القرية)
ويدفع القادرون ثمن الماء المحمول إلى منازلهم ، ويستقى الفقراء من الأسبلة المقامة في نواحي
البلد ، أقامها القادرون صدقةً ، وتقرباً إلى الله لإعانة غير القادرين على الحصول على الماء .
وكانت الأسبلة هذه من العمائر التي اشتهرت بها القاهرة الإسلامية منذ ذلك العهد
وطوال العهود التالية حتى عهد العثمانيين الأتراك .

قال صاحب كتاب القاهرة : كان في ذهن من بنى القاهرة حقيقتان سياسيتان

(١) راجع كتاب القاهرة مدينة ألف ليلة طبع هيئة الكتاب ص ٥ - ٧

إحداهما أن ملوكها شيعة يحيط بهم شعب مصر السننى ، وأعداؤهم العباسيون الذين لايفتأون يتربصون بهم ، ويكيدون لهم ، ويحرضون عليهم . فعملوا على اختيار موقع حصين يمكن الدفاع عنه بما يبنى حوله من الأسوار القوية .

وقال : « لقد بنيت تلك المدينة ليسكنها الغزاة المنتصرون لا رعاياهم . ولذا فقد كانت القاهرة في تلك العصور مدينة ارستقراطية للخاصة تذكرنا بالمدينة الامبراطورية في بكين ، والكرملين في موسكو ، وشيئاً فشيئاً اتخذت مظهر مدينة محرمة . وبدون تصريح كان من المستحيل أن تدخلها جمولة من خشب أو من قش . وكان على السفراء الأجانب أن يمشوا بين صفوف الحرس إذا دخلوها ، كما كان على الفارس أن يترجل عند دخوله من الباب المواجه للفسطاط باب زويلة . »

وشيئاً فشيئاً أضيف إلى هذه المدينة الملكية مساكن للناس ممن تتصل أعمالهم بهذه الطبقة الحاكمة الارستقراطية ، أو من يقومون على خدمتهم ، وهكذا عاش البسطاء من الصناع والحرفيين حياة خشنة تختلف عن حياة القصور .

وكذلك أقام التجار مساكنهم ووكالاتهم ودكاكينهم في أحياء حول قصور الأثرياء ومنازلهم ، وتكونت الحارات والشوارع الضيقة . وقد غصت بعض الأسواق بالدكاكين التي تغلق ليلاً ويقام عليها حراس خصوصيون يدفع لهم أصحابها أجورهم لحمايتها من سطو عصابات اللصوص ومناسير الحرامية أيام الاضطراب وفساد الأمور في المجاعات والمحن . وكان ذلك حافزاً على أن يقيم سكان كل حارة باباً على حارتهم يغلق على أهلها ليلاً ويقوم على حراسته حراس ولايسمح للمرور بها إلا من يعرف كلمة السر .

ومهما يكن من أمر فإن القاهرة الفاطمية قد ازدهت على غيرها من العواصم بما أولاه الخلفاء من الاهتمام بانشيد والبناء ، واضفاء مظاهر الأبهة والرفخامة واهتم العزيز بالله نزار بذلك أشد الاهتمام ، وبلغت البلاد في عهده مبلغاً من الثراء والرخاء حتى كانت القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة . قال الشاعر تميم بن المعز يصف حال الرخاء في عهد أخيه :

وعادت بك الأيام فيه أوانساً	وأصبح فيه مبعد الحير مقترباً
وزادت مدود النيل حتى كأنما	أرتك ارتقاباً تقذف الموج أو رهباً
كأن بنان الماء فاضت على الشرى	بمسلك ، ومجئت فيه غير الثرب
فقد عصت الخيل حتى كأنها	مدائن تدعو من جيوشك بالحرب

فدام لأهل مصر عمرك إنهم غدوا بك في ظل من العرش منتصب
سعوداً وإقبالاً وخصباً ونعمة ولولاك ما أبوا إلى خير منقلب

مظاهر الترف في الأعياد والاحتفالات :

واهتم الفاطميون اهتماماً بالغاً بالأعياد ، وبالغوا في اضعاف مظاهر البهجة والترف عليها ، وأسرفوا في العطاء ، وتقديم الهدايا ، واقامة المآدب وتوزيع الخلوى والمال ، وعمل المواكب ، والزينات .

واكثروا من عدد الأعياد ، فلم يقتصروا على الاحتفال بالعيدين عيد الفطر وعيد الأضحى ، بل جعلوا من كل مناسبة اسلامية عيداً ، فعيد للهجرة ، وعيد المولد النبوي ، وعيد المحمل وكسوة الكعبة ، وكانت لهم أعيادهم الخاصة بعمقيدة الشيعة كعيد يوم الغدير أو غدير خم ، وعيد العاشر من المحرم ، وليلة الاسراء والمعراج ووقفه رمضان .

وشاركوا في أعياد المصريين القومية كعيد النيروز ، وعيد كسر الخليج ووفاء النيل ، وشاركوا الاقباط النصارى أعيادهم كعيد الشهيد ، والعذراء ، والشعانين والحريق وغير ذلك .

فأما عيد الفطر ، فكان أول أيام شوال يخرج الخليفة ممتطياً صهوة جواده لصلاة العيد في فضاء متسع قرب القصر . ويخرج من قصره في موكب حافل مهيب يتقدمه الجند ، وحاملو الأعلام ، ويركب الخليفة فرسه ممسكاً بالعصا متقلداً بالسيف مرتدياً أبهى لباس من الثياب البيضاء المطرزة بخيوط الذهب ، واضعاً فوق رأسه العمامة البيضاء المزينة بأنواع الذهب والجوهر ، تظله المظلة التي يمسك بها أحد أمراء الجند من خاصة الخليفة .

وعند بلوغه مكان الصلاة يكون في استقباله رجال الدين ، وكبار رجال الدولة ، فينزل عن فرسه ، ليؤم الناس للصلاة ، ثم يخطب بخطبة العيد .

وبعد أن يفرغ من الصلاة يتهبأ للعودة في موكبه الحافل مثل ماجاء فيتوقف على باب القصر ، ويخلع عنه الوزير لباساً ليلبسه لباساً آخر جديداً هو لباس العيد --- ولعل لبس الجديد في العيد عند المسلمين في مصر ترجع إلى هذه العادة ، ويجلس الخليفة إلى مائدة أو سماط أعد لهذه المناسبة ، قد اجتمع به ألوان الطعام والشراب والخنوبى انتى تقدم في أوان

وصحاف من الذهب والفضة أو الصينى ، وأباريق من الزجاج وأكواب من البللور الفاطمى الذى اشتهرت بمصر صناعته آنذاك أو استورد من أنحاء العالم . ويتخلل السماط آنية الزهر ويمتد على حوافي المائدة صفوف أرغفة الخبز .

وتتوسط المائدة صحاف كبيرة عليها خراف مشوية محاطة بدجاج وطيور أخرى وتحيط بهذا كله أطباق الحلوى . وقد يؤتى بها بعد انتهاء الطعام محمولة على محفاب ومغطاة بأوراق الذهب مزينة بنقوش بارزة .

ويجلس الخليفة على عرشه متوسطا المائدة ، وعلى يمينه وزيره ، وينتظم المدعرون على الجانبين من حولهما كل على قدر مقامه ومنزله .

وفي أثناء الطعام كان جماعات من المضحكين والمحبطين يقومون بعروض لادخال السرور على الطاعمين .

وابتدع الخليفة العزيز بالله نزار فطرة شوال في أول أيام العيد ، وتتكون من أنواع الحلوى والنقل ، وتفرق بديوان القصر ، ثم تنقل بعدة أماكن . وكان مصروفها في كل سنة عشرة آلاف دينار .

وفي عيد الأضحى كان يجرى مايجرى في عيد الفطر ، إلا نظام « الفطرة » ، فقد كان يستبدل به نظام الأضحى ، إذ كان الخليفة يذبح بيده بعد الصلاة ناقة ، ويأمر بذبح الذبائح من الإبل ، والغنم ، وتفرق اللحم على الناس ، كما كان يأمر بتفريق الاضحيات على رجال الدولة وخاصته من رجال القصر .

وكان عيد المحمل وتجهيز الكسوة للكعبة من الأيام الحافلة التى تزين لها القاهرة ويشقها موكب كسوة الكعبة والمحمل النبوى ، وكانت تجهز كسوة الكعبة من أفخر الأقمشة التى تصنعها مصر وتزين بخيوط الذهب ، كما تزينها محسون لؤلؤة كل لؤلؤة كبيضة الحمامة ، وقد وشيت بالآيات القرآنية المذهبة المشاة باللؤلؤ والزمرد . ويطاف بها في أنحاء القاهرة حيث تتجمل لها الشوارع ، ويخرج الناس لمشاهدتها فرحين مهللين .

وفي ليلة النصف من شعبان يجتمع الناس بمجامع القاهرة ومصر ، ويجتمع الفقهاء والقراء والمنشدون ، ويحضر القاضى والداعى ووجوه البلد ، وتوقد التناير والمصابيح على أسطح الجوامع وفي صحنها ، يترضع الشموع على المقصورة وفي مجالس انماء . ويحمل إليهم

الخليفة الاطعمة والحلوى والبخور .

ومن الأعياد التي استحدثها العاطميون ليالى الوقود ، وهى أربع ليال فى أول رجب ونصفه ، وأول شعبان ونصفه ، ويشق القاهرة فيها ركب عظيم يتقدمه الشهود ، وتوزع فيه الحلوى من خشكناج وپسندود ، ويركب الوزير أو القاضى فى موكب يطوف بجوامع القاهرة ومصر (الفسطاط) فتفرق العطايا والحلوى أمامه جماعة يحملون الشموع والقناديل .
وبخور فى مجامر الذهب والفضة .

ويصف لنا المقرئى موكب الوقود فى أول رجب فىقول :

« تحمل الشموع إلى دار القاضى لركوب ليلة مستهل رجب ، فإذا كان بعد صلاة العصر من ذلك اليوم اهتم الشهود أيضا ، فمنهم من يركب بثلاث شمعات إلى اثنتين إلى واحدة ويمضى أهل مصر منهم إلى القاهرة فيصلون المغرب فى الجوامع والمساجد ، ثم ينتظرون ركوب القاضى ، فيركب من داره بهيئته ، وأمامه الشمع المحمول إليه موقوداً مع المندوبين لذلك من الفراشين من الطبقة السفلى من كل جانب ثلاثون شمعة ، وبينهما المؤذنون بالجوامع يذكرون الله تعالى ويدعون للخليفة والوزير بترتيب مقدر محفوظ »

« ويحرس القاضى جماعة من الحجاب فى زى الأمراء — أمراء الجند ، وفى ركابه القراء يطربون بالقراءة ، والشهود وراءه على الترتيب فى جلوسهم بمجلس الحكم الأقدم فالأقدم وحوالى كل واحد ماله من شمع ، فيشقون من أول شارع فى دار القاضى إلى بين القصرين وقد اجتمع من العالم فى وقت جوازهم مالا يحصى كثرة ، رجالاً ونساءً ، وصبياناً ، بحيث لا يعرف الرئيس من المرعوس ... ويظل الموكب على حاله حتى يصل إلى قصر الخلافة حيث يجلس الخليفة فى منظره على الباب . فينزلون تحتها ريثما يجلس الخليفة فيها وبين يديه شمع ، ويحضر بين يديه الخطباء ، ويذكرون استهلال شهر رجب ، وأن هذا الركوب علامته .

ثم يركب الناس إلى دار الوزارة ، فيدخل القاضى والشهود إلى الوزير فيجلس لهم فى مجلسه ويسلمون عليه ، ويخطب الخطباء أيضا بأخف من مقام الخليفة ، ويدعون له ، ويخرجون عنه فيشق القاضى والجماعة القاهرة ، وينزل على باب كل جامع ويصلى ركعتين ، ثم يخرج من باب زويلة طالبا معسر بغير نظام ، وإلى القاهرة فى خدمته حتى جامع ابن طولون فيدخل القاضى للصلاة فيجد إلى مصر عنده لثقاء القديم . وينقل إلى الفسطاط ويذهب إلى جامع عمرو فيوقد له التنور الفضة الذى كان معلقاً فيه ، وكان مباحاً و

شكله وتعليقه .

ومن أعيادهم الشعبية المشهورة التي ورثها المصريون عن أجدادهم الفراعنة فأقرهم عليها المسلمون بعد الفتح عيد وفاء النيل وكسر الخليج .

ففى الخامس والعشرين من شهر بؤونه القبطى وقبل أن يصل مقياس النيل بالروضة إلى ستة عشر ذراعاً بإصبع أو إصبعين ينفذ إلى المقياس المقرئون لقراءة القرآن ويختمون الختمة الشريفة . ويكون هذا الاجتماع فى جامع المقياس ، فيوفى الماء ستة عشر ذراعاً فى تلك الليلة .

ولوفاء النيل عندهم قدر عظيم ، إذ يتهج الناس له ابتهاجاً عظيماً زائداً ، ذلك لأنه عمارة الدار ، وبه التمام الخلق على فضل الله .

وفى هذا العيد يضرب سرادق كبير عند الخليج لينزل به الخليفة ورجاله .

ويخرج الخليفة من قصره فى كامل زينته وثيابه المذهبة ، فيقدم الهبات لمن حوله من الحاشية ، وأصحابه ورؤساء المواكب . ويصل إلى السرادق ، فيجلس تحت خيمته على كرسيه . وبعد مراسم الاحتفال التى تنتهى عادة بسماع الشعراء يقوم الخليفة لينتقل إلى منظرتة على فم الخليج ، فيطل من إحدى شرفاتها على موضع كسر الخليج ، حيث يكون العمال قد استعدوا مشدودى الأوساط ، واقفين عليه . فيأمرهم الوزير أن يكسروه فيتولاه الفعلة فى البساتين السلطانية بالفتح من الجانبين مع قراءة القرآن والتكبير من الجانب الغربى للخليج حيث مكان الخليفة ، والرهج واللعب من الجانب الشرقى .

وتجمع العشاريات من المراكب السلطانية فيعدى الخليفة فى إحداها مع الوزير إلى المقياس ويصليان هناك ويعودان أدراجهما ، فتدخل العشاريات بعد فتح الخليج ، تتقدمها عشارية الخليفة ، وبقية العشاريات وخلفها السماريات (المراكب الصغيرة) .

وقد يبدأ الصغير يليه الكبير وكلها محيط بعشارية الخليفة وتسير خلفها .

وقد توسط الخليفة مركبه ، المذينة بالذهب والفضة والستور المرقومة ، وحوله عشاريات كبار رجال الدولة والرؤساء .-ناصة فى أبهى زينة وأجمل لباس .
ويبلغ موكب الخليفة .-شيته ست عشاريات ، وغالبا ماكانت عشارية الخليفة ذهبية ، وبجانها فضية وحمراء وصفراء ، ولازوردية وصقلى (منسوبة إلى صانعها - رجل من

(صقلية)

ويسير الركب في الخليج متجها إلى قصر اللؤلؤة حيث ينزل الخليفة في منظرته هناك ليجلس مرة أخرى ويفرق الهدايا من الأكسية الحريية ، ويقدم الطعام من الخراف المشوية والحلوى وما إليها من ضروب الطعام .

كل هذا وحرس الخليفة الخاص من الفرسان من فرق المغاربة، والصقالبة والأتراك والسودان يصطفون في الثياب المزركشة على الشاطئ، وأمام القصر .

عيد النيروز :

ومن الأعياد التي شارك فيها المسلمون الأقباط بهجتهم واحتفالاتهم عيد النيروز يقول أحد الرحالة الذين زاروا مصر آنذاك : « ما رأيت أجمل من أيام النيروز والغطاس والميلاد والشعائين والمهرجان وغير ذلك من أيام اللهو التي كانوا يسخون فيها بأموالهم رغبة في القصف والعزف . ذلك أنه لا يبقى صغير ولا كبير الا يخرج إلى بركة الحبش متنزهاً . فيضربون عليها المضارب الجليلة ، والسرادات ، والممالك المحررات ، فيأكلون ويشربون ، ويسمعون ويتفكهون وينعمون . فإذا جاء الليل أمر الأمير تميم بن المعز مائتي فارس من عبيده بالعسس عليهم في كل ليلة إلى أن يقضوا من اللهو والنزهة أدهم وينصرفوا ، فيسكرون وينامون كما ينام الإنسان في بيته ، ولا يضيع لأحد منهم حبة واحدة ، ويركب الأمير تميم في عشارى ويتبعه أربعة زواريق مملوءة فاكهة وطعاماً وشراباً ، فإذا كانت الليالي مقمرة ، وإلا كان معه من الشموع ما يعيد الليل نهاراً ، فإذا مر على طائفة واستحسن من غنائهم صوتاً أمرهم باعادته ، وسألهم عما عز عليهم ، فيأمر لهم به ، ويأمر بمن يغني لهم ، وينتقل منهم إلى غيرهم بمثل هذا الفعل عامة ليله . »

وكان المصريون الأقباط يحتفلون بهذا العيد قبل الفاطميين ، وذكر المقرئ عن ابن زولاق أنه في سنة ثلاث وستين وثلاثمائة منع المعز من وقود النيران ليلة النيروز في السكك ومن صب الماء . وقال : وفي سنة أربع وستين وثلاثمائة وفي يوم النيروز زاد النعب بالماء ووقود النيران ، وطاف أهل الأسواق وعملوا فيلة ، وخرجوا إلى القاهرة بنعهم ، ولعبوا ثلاثة أيام

وأظهروا السماجات في الأسواق ثم أمر المعز بالكف ، وأن لا توقد نار ، ولا يصب ماء ،
وأخذ قوم لمحبسوا ، وأخذ قوم فطيف بهم محل الجمال .^(١)

وكان هذه الأعمال التي كان يقوم بها العامة يوم النوروز قد زادت عن حدها ، وتبأذى
بها الناس ، وكثرت شكواهم حتى أن المعز هادر بمنع الأذى وكف العامة عن مثل هذه
السماجات .

ويبدو أن الحال قد استمرت في الاعتدال بالاحتفال بهذا العيد ، ولم يخرج العوام بعد
عقوبة المعز للمخارجين والمبالغين ، إلا أننا نلاحظ بعد ذلك عودة الظاهرة من جديد في
بعض السنوات .

ويبدو أن الأفضل بن بدر الجمالي قد استحدث في هذا العيد أشياء ، وأراد الإبرم أن
تفعل كما هي وكان من العادة أن تقدم الهدايا من الثياب الجديدة والفاكهة الموسمية كالنوز
والتمر والرمان إلى بعض الطرف الأخرى ، وتقدم الأطعمة من قصور الخلافة وقد أبطل
الاحتفال بهذا العيد في عهد صلاح الدين . وذكر القزويني رسالة القاضي الفاضل بشير فيها
إلى ذلك . قال : « وقال القاضي الفاضل في تعليق المتجددات لسنة أربع وثمانين ومحمسائة
يوم الثلاثاء رابع عشر رجب يوم النوروز القبطي وهو مستهل توت . وتوت أول سنتهم . وقد
كان بمصر في الأيام الماضية والدولة الخالية — معنى دولة الخلفاء الفاطميين — من مواسم
بطالاتهم ، ومواقيت ضلالتهم ، فكانت المنكرات ظاهرة فيه ، والفواحش صريحة في يومه ،
ويركبت فيه أمته موسوم بأمير النوروز ومعه جمع كثير ، ويتسلط على الناس في طلب ريسم
رثبه على دور الأكاثر بالجمل الكبار ، ويكتب مناشير ، ويندب مترجمين كل ذلك يخرج
مخرج الطير ، ويقنع بالميسور من الهبات ، ويتجمع المؤثنون والفاسقات تحت قصر اللؤلؤة
بحيث يشاهدتهم الخليفة وبأيديهم الملاحى ، وترتفع الأصوات ، وتشرب الخمر والمزج بها
ظاهراً بينهم في الطرقات ، وترش الناس بالماء والماء والخمر ، وبالماء ممزوجاً بالأقدار ، فإن
غلط مستعملين ويخرج من دولهم ليقه من جرش الماء . ويسعد ثوابهم أو يستحقون نصرته ، إنما
فدى نفسه وإما فضح ، ولم يخرج الحال في هذا النوروز على هذا ولكن قد رش الماء في
الحارات ، وأحصى المنكر في الدور أبواب الجسارات »^(٢).

(١) الخطط ١/ ٤٩٣ | ولما ابن القزويني

(٢) الخطط ١/ ٤٩٣ — ٤٩٤

وهكذا فإن تلك العادات التي جرى عليها المصريون من ايقاد النيران واللعب بالماء قد نقلها عامتهم عن عادات الفرس ، وربما أدخلها بعض الولاة من الفرس أو الأتراك من بلاد فارس الذين كانوا يهتمون بهذا العيد ، وكان يحتفل به في العاصمة العباسية بغداد في أول السنة الفارسية فأصبح في مصر يحتفل به في رأس السنة القبطية .

ولم يستطع المسلمون بطبيعة الحال أن يختلفوا بالنوروز على رأس السنة الهجرية الإسلامية لما لهذا اليوم من وقار لايسمح ولاة الأمر بابتهاله بتلك الأعمال التي تخرج عن حدود الوقار ، وترتكب فيه أعمال خارجة على أوامر الشرع .

ومع ذلك فلم يرد هؤلاء أن يجرموا الناس من اللهو في أعيادهم ومناسباتهم ، حتى يغفلوا عن مطالبة الحاكم بما ينبغي أن يفعله في رعاية أمور الناس ، والقيام على مصالحهم . على عكس ما كان حادثا من استحواذ الخلفاء لمعظم ثروة البلاد وامتلاكهم للمال الكثير للصرف منه على قصورهم ، ومتعهم الخاصة وملاذهم ، وتقديم مايفضل عنهم للشعب من مال وطعام وإغراقهم في رغبة الطعام وملاذ الشراب ، وخلق المناسبات لإشباع نهمهم في هذا المجال .

عيد ميلاد المسيح ، والغطاس :

وشارك الفاطميون المسيحيين من أقباط مصر في أعيادهم الدينية ففي ميلاد المسيح وتعمله أقباط مصر في التاسع والعشرين من كيهك . قال المقرئزي : وما برح لأهل مصر به اعتناء ، وكان من رسوم الدول الفاطمية . فيه تفرق الجمامات المملوءة من الحلوات القاهرية ، والمتارد التي فيها السمك ، وقرابات الجلاب ، وطيافير الزلاية ، والبودي ، فيشمل ذلك أرباب الدولة أصحاب السيوف والأقلام بتقرير معلوم .

كذلك احتفلوا بعيد الغطاس من مواسم النصرارى في الحادى عشر من طوبة .

ونقل المقرئزي عن المسعودى قوله : « وليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها ، لاينام الناس فيها ، وهى ليلة إحدى عشرة من طوبة » .

وكان يحتفل بهذه الليلة في العصور السابقة ، ونكن انماطيين اهنموا بها وشاركوا النصرارى فيها كعهدهم في كل أعيادهم .

«واعتماد المصريون نصارى ومسلمين أن يشاركوا في هذا العيد بالاحتشاد له والخروج إلى النيل بالآلاف . وفي ليلة الغطاس تسرج المشاعل والشموع ، وتتلاها أنوارها منعكسة على صفحة النيل بالقاهرة والفسطاط ، ويركبون الزوارق ، وفي أيديهم الشموع والمشاعل ، ويظهرون ألوانا من الفرح والمرح ، والمآكل والمشارب ، في آلات الذهب والفضة ، ويتزينون بأنواع الزينة ، وتعلو أصوات الغناء والموسيقى .

« ويغطس أكثرهم في النيل ويرعمون أن ذلك أمان من المرض »

قال المسبحي: (١) « في سنة ثمان وثمانية وثلاثمائة كان غطاس النصارى ، فضربت الخيام والمضارب والأشعة في عدة مواضع على شاطئ النيل ، وأوقدت الشموع والمشاعل وحضر المغنين والملهون » .. إلى أن كان وقت الغطاس فغطس الناس وانصرفوا .

وقال: (٢) « وفي سنة خمس عشرة وأربعمائة وفي ليلة الأربعاء رابع ذى القعدة كان غطاس النصارى ، فجرى الرسم من الناس في شراء الفواكه والضأن وغيره ، ونزل أمير المؤمنين الظاهر لإعزاز دين الله ابن الحاكم لقصر جدّه العزيز بالله بمصر لنظر الغطاس ومعه الحرم . ونودي أن لا يختلط المسلمون مع النصارى عند نزولهم إلى البحر في الليل !! وضرب بدر الدولة الخادم الأسود نخيمته عند رأس الجسر ، وفرش فيها مرتبة مثقل ، ومرتبة ديباج ملكي ، وجلس الخليفة في الخيمة ومتولى الشرطة قائم بين يديه ، وأمر بأن يتقدّم قويد النار والمشاعل في الليل ، ففعل ذلك ، وكان وقيداً حسناً طويلاً ... وحضر جماعة من القسيسين والشمامسة بالصلبان والنيران ، فقسسوا هناك طويلاً وانصرفوا إلى حيث يغطسون » .

وكانت الأعياد والمواسم في عصر الفاطميين فرصة لأظهار ثراء الخلفاء ، وترف كبار رجال الدولة والأمراء والحاشية . يقول الدكتور محمد كامل حسين (٣): « عرف الفاطميون بمراء دولتهم ، وبذخهم الذي لا مثيل له بين ملوك الدول الأخرى ، وأكثروا من استحداث الأعياد والمواسم ، وافتتوا في إقامة حفلاتهم ومواسمهم حتى يتجمل إلى من يقرأ تاريخهم أن حياة مصر في ذلك العصر الزاهر كانت كلها أعياداً ومواسم ، وكلها لها ومرحاً »

وقد ذكر الشيخ عمارة الجيني مآثر الفاطميين في تلك المواسم والأعياد ، باكباً راثياً ،

(١) المخطوط ٤٩٤/١

(٢) رجع تاريخ المسبحي طبع في الكتاب ص ١٩٠ والمخطوط ٤٩٤/١

(٣) في الأدب الفاطمي

وفي قلبه حسرة على انقضائها فقال :

مررت بالقصر والأركان خالية
أبكي على مآثرات من مكارمكم
دار الضيافة كانت أنسَ والهدنكم
وفطرة الصوم إذ أضحت مكارمكم
وكسوة الناس في الفصلين قد درست
وموسم كان في يوم الخليج لكم
وأول العام والعديد من لكم
والأرض تهتز في يوم العدير كما
والخيل تُعرض في وشمي وفي شمية
ولا إحلتم قري الأضياف من سعة
وما خصصتم بيرة أهل ملتحكم

من الزفود وكانت قبلة القبلي
حال الزمان عليها وهي لم تجلي
واليوم أوحش من دار ومن طلي
تشكو من الدهر حيفاً غير محتمل
ورث منها جديد عندهم وتلي
يأتي تجملكم فيه على الجملي
فيهن من وتل جود ليس بالتوسل
يتز ما بين قصرتكم من الأملي
مثل العرائس في حلي وفي خللي
الأطباق إلا على الأكتاف والقجلي
حتى عمت به الأقصى من الميللي

وشارك الخلفاء رجال الدولة في البذخ والتمتع باللذات ، وتعرف أن الأمير تميم بن المعز كان حريصاً على هذا البذخ وحب التمتع باللذات في قصوره وبساتينه ، يستمتع إلى الغناء ويشترك في الاحتفالات والمواسم ، ومر بنا حاله يوم النيروز واحتفاله به مع الناس ومشاركتهم في لهوهم .

وكذلك كان « برجوان » رجل الدولة القوي من حاشية العزيز بالله ، والذي أوصى به ولده الحاكم ، فكان بيده الأمر في أول دولته حتى تخلص منه . يقول المقرئ : « ترقى أحوال برجوان — وهو خصي أبيض إلى أن بلغ النهاية فقصر عن الخدمة ، وتشاغل بملذاته ، وأقبل على سماع الغناء ، وأكثر من الطرب ، وكان شديد الخبة في الغناء ، فكان المغنون من الرجال والنساء يحضرون داره ، فيكون معهم كأحدهم ، ثم يجلس في داره حتى يمضي صدر النهار » .

ولم يسلم بعض شيوخ الدين ورجال القلم من الانغماس في تلك الملاهي وإن كانوا يتسترون عليها أحياناً ، ولا يجهرن .

ويبدو أن طبيعة الشعب المصري وحب الحياة البهجة ، واستمتاعه بنعيم الدنيا كان مشجعاً له على الاقبال على الاحتفال بالأعياد بكل ما أوتي من طاقة وسناط ، وإن بالغ أحياناً وشذ بعض الشذاذ والعوام ، فأسرفوا على أنفسهم وأرتكبوا بعض المنهس. وأظهروا

المجون ، وخرجوا على التقاليد والحرمت ، ولم يتقيدوا بما توجهه أوامر الدين مما اضطر الحكام ورجال الشرطة إلى التدخل لمنع هذه الانحرافات المخلة بالقيم الدينية والاجتماعية .

والظاهرة الواضحة الدلالة في هذا العصر مشاركة المسلمين النصارى في أعيادهم وعدم شعورهم بالحرع في ذلك ، والاختلاط بهم نساءً ورجالاً ، دون وجود قيود أو حواجز تحجز بينهم ، وكأنهم أبناء ملة واحدة .

وقد يعزو بعض المراقبين ذلك إلى خفة في دين المصريين ، أو إلى ما غير ذلك من صفات تسوءهم . وليس الأمر كذلك في اعتقادنا ، بل إن مرجع الأمر كله إلى شعور المصريين بالانتماء لمصر ، وأنهم متساوون في هذا الوطن الذي أظلمهم سماؤه ، وسقامه نيله بمائه ، فأحدث بينهم من الألفة وتمازج الأرواح ما غلب على شعور الفارق الديني بين المسلم والمسيحي .

كذلك الموروث الثقافي والحضارى لهذا الشعب العريق لعب دوراً كبيراً في التغلب على الحدود الدينية فأذاب تلك الحدود ، وعاد المصرى واحداً تتشابه ملامحه النفسية والاجتماعية مسلماً كان أو مسيحياً .

وأشار أمية بن أبى الصلت في الرسالة المصرية من منطلق عداء واضح للمصريين — ككثيرين غيره — إلى هذا التجانس بين المصريين على اختلاف دمائهم وأصولهم ، وعدم وجود العصبية القبلية بينهم فقال :^(١)

« وأما سكان مصر فأخلاط من الناس مختلفة الأصناف من قبط وروم وعرب وبربر وأكراد وديلم وحبشان وأرمن وغير ذلك من الأصناف والأجناس على حسب اختلافاتهم .. فلهذا اختلطت أنسابهم فاقتصروا من التعريف بأنفسهم على الانتساب إلى مواضعهم والانتماء إلى مساقطهم ومواقعهم » .

وقال : « وأما أخلاقهم فالغالب عليهم اتباع الشهوات ، والانهمك في اللذات والاشتغال بالنزهات ، والتصديق بالمحالات ، وضعف المرائر والعزمات .. »

وأمية يصف أهل زمانه من المصريين في آخر القرن الخامس من الهجرة في عصر الخليفة المستعلى ووزيره الأفضل .

(١) الرسالة المصرية ص ٢٣/٢٤

ولم يكن المصريون وحدهم أبناء ذلك الزمان الذين ينتمون إلى مواضعهم أو ينتسبون إلى بلادهم ، بل كانت الكثرة الغالبة على أهل الزمان وغيره من الأزمنة من يفعل هذا ، وليست النسبة إلى البلد أو الاقليم بدعة عند المصريين ولا دلالة على عدم الاهتمام بالنسب كما ادى من نقل عنه أمية وأمن عليه .

ولم يكن المصريون وحدهم من بالغوا في اللهو واتباع الشهوات ، بل إن من العرب والمسلمين في المشرق والمغرب من فاقهم بكثير في ضروب اللهو والمجون ، وخالطت حياتهم الشهوات الماجنة التي تخرج على كل حدود وقبود . وكتب الأدب العربي والأخبار حافلة بالقصص والنوادر عما يحدث في بيوت بعض الخلفاء والولاة وكبار رجال الدولة وفي هذا العصر نفسه عصر الفاطميين ، لانستثنى من كان منهم متبعاً لمذهب السلف من أهل السنة ، أو من كان متبعاً لمذهب الشيعة الإمامية أو الإسماعيلية .

ونقرأ عن شيخ تونسى كان نهاية في المجون وكان يجلس إليه أحد شعراء القيروان في القرن الخامس وهو عبد الرحمن بن محمد الفراس الشاعر الماجن . ولم يكن يتورع عن فاحش القول ونقرأ عن شيخ آخر من شيوخ القيروان يدعى عتيق بن محمد بن أبى بكر الوراق التميمى ، يبدى الخشوع وترقرق دموعه في حلقة الجامع حتى إذا كان في بيته كان في يده الطنبور ، وعن يمينه غلام مليح ، فإذا قيل له : ما أبعد ما بين حاله في مجلسه؟! قال : هذا بيت الله وهذا بيتى أصنع في كل واحد منهما مايليق به وبصاحبه .!!^(١)

ونقرأ أن أحد أمراء صنهاجة أصحاب القيروان في عهد الفاطميين كذلك وما كان يجياه في قصره ، ويحيط به نفسه من ملاذ الحياة وتمتعها ، فقد قال إن أبا الفتوح بلكين بن زبرى بن سناد كان له أربعمائة جارية وحظية ، وأن البشائر قد وفدت عليه في يوم واحد بولادة سبعة عشر ولداً .

كذلك كان يحيى بن تميم بن المعز الصنهاجى حين يقدم إلى مجلس الطعام يشير إلى جارية من حظاياها ليتكىء عليها . ومحمد بن سحنون يتمتع بتسعة أسرة لكل سرير سرية^(٢) وفي المشرق في بلاد الجزيرة الفراتية من أرض العراق يحدثنا الفارق صاحب التاريخ عن أحد أمراء العشائر ، وكيف اقتنى من النساء عدداً ، ومارس من متع الدنيا واللذات ألوانا ،

(١) حياة القيروان للدكتور ناعى ص ٨٧

(٢) المصدر نفسه ص ٧٨

ولم يكبح جماعه عن الشهوات ذلك الأمير هو نصر الدولة صاحب آمد وميا فارقين (ت
سنة ٤٥٣ هـ) .

قال الفاروق^(١): وكان — نصر الدولة — قد تزوج أربع نساء .. وكان له ثلاثمائة وستون
جارية حظايا ، وفيهن عمّالات ، وكان لاتصل نوبة إحداهن في السنة إلا مرة واحدة وكان في
كل ليلة له عروس جديدة ، وكان له من المغنيات والرقاصات والعمّالات ، وأصحاب سائر
الملاهي ما لم يكن لسواه من سائر الملوك والسلاطين . وكان كلما سمع بجارية مليحة نفذ
وبالغ في مشتراها ووزن أضعاف قيمتها . وكان رسمه أن يجلس يوماً للجند ويوماً معهم يأكل
ويشرب إلى الليل . ويخلو بنفسه ويجلس يوماً لبنى عمه وأولاده وأقاربه وخاصته فيأكل معهم
ويشرب إلى الليل ، ثم يخرج للمغنيات والرقاصات ، وجماعة أصحاب الملاهي إلى بين
أيديهم ساعة ثم يتفرقون ، ويبقى الأمير في خلوته مع جواريه .

ويجلس يوماً ثالثاً وحده على السرير ، وليس في المجلس ذكرٌ غيره ، وتُحضر حظاياها
وجواريه ونساؤه وبناته ، ويأكلون الطعام ويرقصون ، ويلعبون بسائر الملاهي طول يومه إلى
الليل ، ثم تمضي نساؤه وبناته ويجلس ويشرب وجواريه والعمّالات بين يديه إلى وقت نومه
قريب الصباح ، ويخلو بصاحبة النوبة ! ...

قيل : وكان يركب نصر الدولة من غدوة إلى الصيد ، ويعود ضحوة ، ويجلس ساعة ،
ويدخل إليه الوزير ويستأذنه فيما يحتاج إلى إذنه . ثم إنه يجلس على الطعام ويستريح إلى قبل
العصر ، ويجلس على الطعام والشراب بعد أن يكون قد صلى الظهر والبصر في وقتها ، ثم
يشرب إلى الثالث الأول من الليل ، ثم ينفض من عنده ، وتخرج الجوارى والعمّالات فيغنيينه ،
ويشرب ويلعب معهم إلى الثالث الأخير من الليل وهن بين يديه ، وهو على مسرته ، ثم يقوم
إلى الموضع لمنامه ويأتيه الخادم بصاحبة النوبة فتبيت عنده إلى السحر ، ثم يجلس فيدخل
الحمام ويخرج ويصلى الصبح في وقتها .

وقيل : إنه مدة ولايته لم تفته صلاة الصبح في وقتها . ولقد غُنّي بين يديه ذات يوم
بأبيات أبنى نواس التي أولها يقول :

(١) تاريخ الفاروق لأحمد بن يوسف بن عل طبع دار الكتاب اللبناني سنة ١٩٧٤ بتحقيق الدكتور بلوى عبد اللطيف
عوض

وهبت النوم للنوام	إشفاقاً على عمرى
وقضيت سواد اللي	بل باللذات والخمر
لما يطمع في السو	م إلا ساعة السكر

قيل : فطرب لها الأمير وقال : لله درّه . فكأنه غثى بنا في شعره !! »

تلك كانت حياة أحد ولاية المسلمين وملوكهم في القرن الخامس الهجرى في عهد المستنصر بالله الخليفة الفاطمى ، وكانت بينهما علاقات ، وقد اشترك معه في هذه الحياة كثيرون غيره في بلاد المسلمين ، قارفوا اللذات ، ولم يجمعوا عن شهواتهم ، بل اطلقوا لها العنان واستمتعوا بالنساء والغلمان ماشاءت لهم شهواتهم ، وما اتاحت لهم ثرواتهم وأموالهم التى اكتسبوها من رعاياهم ومن حكمهم لهم وتسلطهم عليهم بغير ولاية شرعية إلا ولاية انتهاز الفرصة والاستيلاء على الحكم بالاقتدار والحيلة .

حكّام مسلمون لايشبعون من لذات المال والولد والنساء والغلمان ، ومعاقره الشراب والقصف وسماع الغناء والعبث ، ويحرصون مع ذلك على أداء الصلوات وكأن الصلاة ترفع عنهم كلّ هذه الآثام ، وكأن الغلمان والنساء والخمر والعبث الماخذ لاينهى عنه الدين . أو كأن الدين والتمسك بأداب الشرع والامتناع عن الحرمات من شأن الرعية وأما هؤلاء الملوك والأمراء فقد رفعت عنهم الحرمات بل وايبحت لهم هذه الأشياء ماداموا يواظبون على أداء الصلاة في أوقاتها !!

وهكذا نرى الإسلام في قيمة التى نزلت في الكتاب الكريم وحديث الرسول وسيرته قد تدلّولتها الدول ، وقرأت كل جماعة في نصوصها مايرضيها وغفلت عما لايرضيها ، وأسرف قوم ، وتزمت آخرون ، وتساهلت جماعة ، وتمسكت جماعة ، وعادى كل مذهب من يخالفه الرأي ، وكلّ يعتقد بصحة معتقده ، وضلال معتقد مخالفه .

واعترت صور الحياة الإسلامية والمجتمع الإسلامى في تلك العصور اضطرابات في الحكم ، فمن محبذ لروح التساهل والتسامح ، والرغبة في الحياة بمبهاجها ، ومتحامل على كل زيمت مغلق الفكر والسلوك ، ومن معترض على أمثال تلك الحياة اللاهية منكر لها داع إلى التزام أصول الدين القيمّ ممثلاً في سلوك السلف الصالح في عهد الرسول والراشدين . وفريق ثالث يقف بين يري لاهو إلى هؤلاء في الجهر بالإباحة ، ولا إلى هؤلاء بالترتمت

مظهراً ومخبراً ، بل يبيح لنفسه في الستر ما لا يبيحه في العلن ، ويرى الجهر بالمعصية أو مخالفة أوامر الشرع ضرباً من التصرف قد يجلب اللوم فيتعد عنه لتظل الصورة الإسلامية النقية منوطة به في العلن ، وله بعد ذلك أن يفعل بينه وبين نفسه ما يشاء كذلك الشيخ الذي ذكرناه يقول إنه يفعل بالمسجد ما يليق بصاحب المسجد وأنه يفعل بعد ذلك في منزله ما يليق به !! .

حياة عامة الناس في معاشهم :

ونخرج من حياة اللهو والقصور بعد هذه الصحبة الطويلة لنقترب من حياة الناس العادية الجارية في معاشهم اليومية ، ولا تعيننا مصادر التاريخ كثيراً في رسم صورة لتلك الحياة كما هو الشأن في الإفاضة عن حياة القصور ، ونلجأ في تقصى بعض جوانب تلك الحياة إلى كتب الحسبة ، وبعض مصادر التاريخ والرحلات التي ترد فيها أخبار وتنف متفرقة عن تلك الحياة .

وكانت الحسبة تسند إلى وجوه الناس المسلمين وأعيان المعدلين لأنها خدمة دينية إلى جانب كونها سلطة رقابية من قبل الدولة . وللمحتسب نواب عنه بالقاهرة ومصر ، ويجلس بجامع الأزهر بالقاهرة ، وعمرو بن العاص بمصر يوماً بعد يوم .

ويطوف نوابه على أرباب الحرف والمعايش ، ويأمر نوابه بالتحتم على قدور الهرايسين ونظر لحمهم ، وكذلك الطباخون .

ويتبعون الطرقات ويمنعون الخروج على أوامر الشرع وينظرون المكاييل والموازين . وللمحتسب النظر في دار العيار ، ويخلع عليه ، ويقرأ سجله بمصر والقاهرة على المنبر . وكان جاريه في الدولة الفاطمية ثلاثين ديناراً كل شهر . ودار العيار هذه كانت داراً تُعائِر فيها المقاييس والمكاييل ، يحضر إلى المحتسب أو نائبه ليعاير المعمول به منها في الأسواق ، فإن ما صح منها أمضاه ، وإلا أمر بإعادة عمله حتى يصح ، وما زالت هذه الدار قائمة طوال عصر الدولة الفاطمية .

ويلزم رجال المحتسب رؤساء المراكب أن لا يحملوا أكثر من وسق السلامة وكذلك يفعلون مع الحمالين على البهائم .

ويأمرون السقائين بتغطية الروايا بالأكسية ، ولهم عيارٌ وهو أربعة وعشرون دلواً ، كل دلوٍ أربعون رطلاً ، وأن يلبسوا السراويلات القصيرة الضابطة لعوراتهم ، وهى زرق .

وينذرون معلمى المكاتب بأن لا يضرىوا الصبيان ضرباً مبرحاً ، ولا فى مقتل .

وكان المحتسب يحرص على سلامة الناس وصحتهم بمراعاة النظافة فى الأسواق وأن لا تتعرض السلع من المأكولات لتراب الشارع المتصاعد من أقدام المارة والحيوانات ، بل أمروا الباعة بتغطية تلك المأكولات .

كذلك حرصوا على أن لا تتصاعد الروائح الكريهة من دكاكين الجزارين وباعة الأسماك فأمرهم بغسيلها ونظافتها باستمرار ، وعدم عرض اللحم أو الأسماك التى تعرضت للتلف . وكان يجازى من يضبط مخالفاً بالعقوبة الصارمة .

ومنعوا عجين الخبز بالرجل .

وكثيراً ماتظهر صور من التجاوز والخروج على الآداب العامة فى المطرقات وأماكن اللهو والنزهة ، وفى المواسم والأعياد ، وكان متولى الشرطة يقف لهذا بالمرصاد ويمنعه .

ولا شك أن مظاهر الثراء العام فى مصر وما كان يعم المجتمع من الرخاء نتيجة وفرة المحاصيل والانتاج الزراعى ، ورواج التجارة ، وما تحصله الدولة على التجارة وقوافل الحج من المكوس كان له أثر كبير على الحياة والمجتمع وسلوك الأفراد ، بالاضافة إلى ما أشاعه الفاطميون من عادات ، ومظاهر سلوكية وافراط فى الطعام والشراب والافتتان فيهما ، وفى أنواع اللبس والرياش .

ونال الطبقات الكادحة من عامة الناس نصيب من الثراء ، ورفاهية الخلفاء ، والطبقات القادرة الغنية فى أوقات الرخاء ، كما أصابها التقيهر والعبث من الخسة والنعس أوقات الكيابة ، واخس .

ومرت بمصر والبلاد الدائرة فى فلكها والتى تقع تحت نفوذ الفاطميين ضمن وأوقات شدة تفاوتت فى ضرورتها وأثرها على الناس ، وفى طولها أو قصرها .

ورغم أن العصر الفاطمى بدأ بفترة من الرخاء فى عصور المعز والعزير والحاكم إلا أن فترات من الغلاء بدأت تتاب البلاد منذ عهد الظاهر فى عام ٤١٤ إذ غلت الأسعار وعمر الخبز ، وتلاعب التجار بأقوات الناس مما دفع بالظواهر ورجاله إلى الضرب بشدة على كل

من يحاول استغلال ظروف الناس للكسب الحرام .

يقول المسبحي :^(١)

وفي سنة ٤١٤ في شهر جمادى الآخرة « انصرف ماء النيل انصرافاً متداركاً فاحشاً ، ولم ترو منه الضياع ، ولازكت الأرضين ، فكثرت ضجيج الناس بمصر واستغاثتهم إلى الله عز وجل ، وخرج أكثر أهل البلد من الرجال والأطفال ومعهم المصاحف المنشورة إلى الجبل يستغيثون إلى الله تعالى . وتعذرت الأخباز في الأسواق ، ووقع الازدحام على الغلات »

واضطرب المحتسب أن يتدخل ليأخذ التجار بالشدة حتى يفرجوا عما اختزنوه لاغائة الناس . قال المسبحي :

« ففى يوم الأحد لخمس خلون من رجب انتهى إلى مجلس الحسبة فجلس فيه ثم أحضر الخبازين والدقاقين وضرب قوماً منهم وشهرهم . وظهرت الأخباز واستقامت أحوال الناس » .

ثم كان عهد المستنصر ومضت السنوات الأولى من حكمه طيبة رخاء حتى كان عام ٤٤٨ هـ . قال ابن الأثير^(٢) : « كان بمصر غلاء شديد ، فكان يموت في اليوم ألف نفس . ثم عم ذلك سائر البلاد من الشام والجزيرة والموصل والحجاز واليمن وغيرها » .

وفي سنة ٤٦٢ يقول ابن الأثير حدثت الشدة الثانية ، وهي الشدة الكبرى قال^(٣) : « وفيها كان بمصر غلاء شديد وجماعة عظيمة ، حتى أكل الناس بعضهم بعضاً ، وفارقوا الديار المصرية ، فورد بغداد منهم خلق كثير هرباً من الجوع . وورد التجار معهم ثياب صاحب مصر وآلاته نهب من الجوع . وكان فيها أشياء كثيرة نهب من دار الخلافة » .

الحياة الدينية والسلوك الدينى

كان الفاطميون حريصين على التمسك بالمظاهر الدينية في الصلاة والصوم وبالغوا في التظاهر بهذا التمسك في المناسبات الدينية التى استحدثوها ، والأعياد التى أقاموها . ولا

(١) أخير مصر في سنتين (٤١٤ - ٤١٥) ص ٣٢

(٢) الكامل ٢٣٥/٨

(٣) الكامل ٣٨٥/٨

ننسى أن شرعية توليهم الحكم قائمة على الدين وعقيدة الإمامة فهم أئمة دينيون . لهذا كان عليهم نصره الإسلام وإظهار أخذهم بعباداته ومعاملاته والحرص عليها ، والدعوة لها ، ومنع كل مخالفة ، أو خروج ، والتزام الشدة في ذلك أحيانا .

فمن المظاهر الاجتماعية التي حرص الفاطسيون على مراعاة أمور الدين فيها عدم خروج المرأة متبرجة في الأسواق . وقد وقف الحاكم بأمر الله من المرأة موقفاً منتسداً . فحلل سبع سنوات كاملة من حكمه لم يكن يسمح لامرأة بالخروج إلى الطريق . وكانت مشروعاتهن تتم في بيوتهن عن طريق النوافذ والطاقت .

وقد خفت هذه القيود من بعد الحاكم إلا أن الخلفاء ظلوا يحافظون على الآداب العامة ويراقبون سلوك النساء ، فيردعون من تحدثه نفسه بالإخلال بما يأمر به الشرع .

من ذلك حرصهم على أن لا تكشف امرأة وجهها في طريق ولا خلف جنازة ، ولا تبرج بلبس ثياب تكشف عن جسدها أو تظهر زينة .

قال المسبحي في أحداث سنة ٤١٤ أنه قبض على رجل وامرأته ، وأمر متولى الشرطة بضرهما وشهرهما ، وأمر بأن ينادى عليهما : « هذا جزاء من يقود على عياله مع اليهود والنصارى » .^(١)

كذلك أمر بأن يضرب في الأسواق والطرقات بالجرس وينادي أن لا يدخل الحمام أحد إلا بمئزر — حتى لا تظهر العورات ، ويستباح الحياء — وقبض على جماعة في الحمام بغير مئزر فضربوا وشهروا .

وعلى عكس ما نقرأ في كتب التاريخ والأدب من شيوع شرب الخمر بين طبقات المجتمع من خلفائهم وحتى عامتهم ، وظهر ذلك في الشعر والتغنى به إلا أننا نقرأ كذلك من أخبار بعض الخلفاء حرصهم على منع الخمر وتداولها بين الناس وأخذ من صنعها أو شربها بالشدة .

ذكر المقرئ في سنة ٣٩٩ قرىء سجل (منشور) بأمر الحاكم بمنع عمل الفقاع وهو نوع من الشراب الشعبي المسكر يصنع من الخبز ، ومع بيعه بالأسواق . كذلك أمر

(١) أخبار مصر ص ٣٢

بأن لا يحمل شئ من النيذ والمزر — نوع آخر من الخمر — ولا يتظاهر به ولا بشئ من الفقاع .

« وحرم شراء الزبيب بأكثر من الحاجة ، وكذلك العنب لغاية عصوه — أربعة أرتال فما دونها » .

وحرص الفاطميون على نشر مذهبهم الديني فور دخولهم إلى مصر ، وإن كان قد سبقهم من الدعاة ، من مهتدوا لهم ، فاتبع دعوتهم بعض المصريين إلا أن عامتهم كانوا حريصين على مذهب أهل السنة مع محبتهم لآل البيت .

يقول المقرئ :

« ولما دخل جوهر الصقلي القائد بعسكر المعز لدين الله إلى مصر وبنى القاهرة أظهر مذهب الشيعة ، وأذن في جميع المساجد الجامعة وغيرها « حتى على خير العمل » ، وأعلن بتفضيل علي بن أبي طالب على غيره ، وجهر بالصلاة عليه ، وعلى الحسن والحسين وفاطمة الزهراء رضوان الله عليهم .

وأمر جوهر إمام الجامع العتيق — عمرو بن العاص — بالفسطاط أن يجهر بالبسملة في الصلاة — وكانوا لا يفعلون ذلك — وزيد في صلاة الجمعة القنوت في الركعة الثانية .

وأمر في المواريث بالرد على ذوى الأرحام ، والأ يرث مع البنت أخ ولا أخت ولا عم ولا جد ، ولا ابن أخ ولا ابن عم .

ولا يرث مع الولد الذكر أو الأنثى إلا الزوج أو الزوجة ، والأبوان والجدة . وكان قاضى مصر قبل دخول الفاطميين أبو طاهر محمد بن أحمد يحكم بأحكام أهل السنة ، فجاء جوهر فأقره في القضاء ، وظل كذلك في عهد المعز ، وخطب جوهر هنا القاضى بأن يعدل في احكام الموارث بما يتفق ومذهب الشيعة فقال القاضى لأفعل .

وأخذ الفاطميون بالحساب الفلكى في تحديد أوائل الشهور العربية وبخاصة شهر رمضان ، ولم يعتمدوا على رؤية الهلال . قال المقرئ :^(١) « وصار صوم رمضان والفطر على حساب لهم ، فأشار الشهود على القاضى أبى طاهر — المذكور — أن لا يطلب شهود الرؤية لأن الصوم والفطر على الرؤية قد زال . فانقطع طلب الهلال من مصر ، وصام القاضى

(١) الخطط ٣٤٠/١

وغيره مع القائد جوهر كما يصوم ، وأفطروا كما يفطر » .

وفي سنة ٣٧٢ هـ أمر العزيز بالله بن المعز بقطع صلاة التراويح من جميع البلاد المصرية وكان الحنابلة وبعض شيوخ المسلمين لا يجيرون في الصلاة بالبسمة ، وخالفهم الشافعية ،^(١) وكذلك الشيعة .

وبعد أن بدأ الفاطميون بالتشدد في تطبيق عقائدهم في الصلاة والصوم وبعض الأحكام الشرعية ، رأوا معارضة من المصريين وبعض الرعية في غير مصر من البلاد وبخاصة في دمشق والقيروان ، فاضطروا إلى التخفيف من ذلك التشدد والعدول عن الأمر بالسلطان إلى الاقتناع بالدعوة .

ففى عهد الحاكم بأمر الله بدأ التخفيف من بعض الأحكام التى أصدرها المعز والعزيز بخصوص الأذان والصوم بدون الرؤية ، وأذن للناس بأن يؤذنوا الأذان الشرعى ، وأن يصوموا لرؤية الهلال ، وأذن للناس في صلاة التراويح بعد العشاء في رمضان :

ونادى الحاكم « بأن لكل مجتهد في دينه اجتهاده ، وإلى الله ربه ومعاده ، عنده كتابه ، وعليه حسابه » .

وأرجع بعض المؤرخين التصرفات الغريبة والشاذة للحاكم إلى عقائد خاصة بالفاطمية كقولهم — كما ذكر المقرئى — بأن منع الحاكم للناس من أكل الملوخية لأنها كانت محبة عند معاوية — كذلك منعه الناس من أكل النقلة المسماة بالجرجير المنسوبة إلى عائشة رضى الله عنها ، ومنعهم من المتوكلية المنسوبة الى المتوكل العباسى .

وكان الفاطميون قد أعلنوا سب أبى بكر وعمر على المقابر ، فتضايق الناس فاضطروا إلى التخفيف من ذلك والعدول عنه في بعض الأحيان .

وكان للمذهب الفاطمى آثاره على الحياة العامة وعقائد الناس وعاداتهم ، فقد بالغوا في تقديس آل البيت ومزاراتهم ، ونقل الأفضل بن بدر الجمالى رأس الحسين رضى الله عنه — على حد قولهم — من عسقلان إلى القاهرة ودفنت هناك بالمشهد الحسينى إلى الآن ، وأذنوا للناس بالزيارة والتبرك به وصارت عادة لدى المنصرين حتى الآن وكذلك الحال بالنسبة إلى

(١) وقعت الفتنة في بغداد سب الجهر بالبسمة بين الشافعية والحنابلة لعدم موافقة الحنابلة على الجهر بها . وقال الشافعية للحنابلة : إن أردتم أن لا نجهر بها فاعموا إذا من الصحف

مزارات أهل البيت كالسيدة زيب والسيدة نفيسة وغيرها .

وشاع في كتابات العصر اضفاء ألقاب دينية على الخلفاء ، ففضلاً عن تلقيه بأمر المؤمنين ؛ فقد كان يتبع اسمه بقولهم — عليه السلام — كما يفعل بعد أسماء الأنبياء ، لأن الأئمة عندهم من سلالة النبوة ، فلهم ما لهم من التقديس !!

على أن المذهب الإسماعيلي الفاطمي لم يكن السائد وحده في كل أنحاء الدولة الفاطمية ، بل لم يكن له الغلبة التامة على أهل مصر ، فقد ظلت المذاهب الأربعة على حالها من عقائد الناس يعملون بها في مصر وفي أفريقيا والشام والحجاز ، وإن غلب التشيع في بعض أنحاء صعيد مصر واليمن .

وقد ضعف المذهب الفاطمي نفسه شيئاً فشيئاً في ظل الحكم الفاطمي فلم يكن في آخر دولتهم على مثل قوته في بداية الدولة . وكانت هناك أسباب كثيرة أدت إلى هذا الضعف . منها ملاقته الدعوة الفاطمية من مقاومة عنيدة من أهل السنة بتأييد من العباسيين في بغداد ، وتآلب الخارجيين ممن عارضوا المذهب ودعوا إلى مذهب أهل السنة أمثال أبي ركونة في المغرب ، وارتداد المعز بن باديس وأهل دولته عن المذهب الفاطمي في أفريقيا ، وعودتهم إلى أهل السنة ، وانقسام الفاطميين الإسماعيلية على أنفسهم بعد تعيين المستعلي بن المستنصر دون أخيه نزار إلى فرقتين متعارضتين .

أدى هذا كله إلى ضعف المذهب في مصر وما يليها وتحول بعض الوزراء عن الشيعة الفاطمية إلى الإمامية .

فقد ذكر المقرئ أن أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي ثار على الخافض لدين الله وأعلن مذهب الإمامية والدعوة للإمام المنتظر ، ورتب أربعة قضاة اثنين من الشيعة ، واثنين من أهل السنة ، والاثنين من الشيعة أحدهما إمامي والآخر إسماعيلي ، والاثنين من أهل السنة واحد منهما مالكي والآخر شافعي لغلبة هذين المذهبين على أهل مصر والمغرب ، فحكم كل منهم بمذهبه وورث على مقتضاه وأسقط ذكر إسماعيل بن جعفر الصادق ، وأبطل من الأذان حتى على خير العمل وكذلك قولهم : محمد وعلى خير البشر .

فلما قتل أحمد بن الأفضل سنة ٥٢٦ هـ عاد الأمر على ما كان عليه من مذهب الإسماعيلية ولكن بعد تولى الصالح بن رزيك الوزارة كان على مذهب الإمامية ، وصرح بهذا بعد توليه .

ويبدو أن هذا الاضطراب الديني بين مذاهب المسلمين ، و ظهور بعض صور التحرر والضعف في العقيدة أدى إلى تجاوزات كثيرة في أمور الشرع وحدود الدين . حتى إن بعض الأمراء ، وولاة الأمر في بعض البلاد كانوا يستهينون بمحدود الشرع ، كما يروى عن أحدهم واسمه قرواش العقيلي من أمراء عرب الجزيرة الفراتية بالشام والعراق . ذكر ابن الأثير في حواش سنة ٤٤٤ هـ « أنه كان من رجال العرب من بنى عقيل من ذوى العقل ، وله حسب وله شعر حسن قيل إنه جمع بين اختين في نكاحه ، فقيل له : إن الشريعة تحرم هذا . فقال : وأى شيء عندنا تجيزه الشريعة ١٢ » .

وظهر من آثار التحلل الديني من ادعى بعودة الحاكم ، أو الوهيته .

موقف الفاطميين من أهل الذمة : اليهود والنصارى

كان موقف الفاطميين من أهل الذمة والكتائبيين من يهود ونصارى عامة موقفاً متسامحاً ونعل ذلك لأسباب عقدية ، وإدارية ، فأما الأسباب العقدية ، فإن الإسماعيلية لم يتشددوا في مواقفهم من الأديان الأخرى تشدد أهل السنة والحنابلة خاصة . وأما الأسباب الإدارية فذكر اليهود والنصارى عرفوا بمهارتهم في الإدارة وشئون المال ، ولذلك اعتمد عليهم كثير من الولاة والخلفاء حتى من غير الفاطميين . وكان لأقباط مصر دراية تامة بشئون مصر الإدارية والالية ، لذلك كانت الدواوين لا تخلو منهم ، واعتمد عليهم ولاة المسلمين منذ الفتح ، فلما جاء الفاطميون زادوا من اعتمادهم على الأقباط ، والنصارى عامة واتخذوا منهم زوجات على مينا ، كما اتخذوا وزراء وكتاباً ، وخلصاء لهم ، بعضهم عدل عن دينه وأسلم ، وبعض بقي على عقيدته .

وكان إكثار الخلفاء الفاطميين من اتخاذ اليهود والنصارى أعواناً لهم ظاهرة ملفتة في التاريخ الإسلامي ، ومنذ كان الفاطميون بأفريقيا وقبل دخولهم مصر اتخذوا اليهود والنصارى فقد كان من أطباء المعز وخلصائه يعقوب بن كلس الذي وفد عليه من المغرب هاربا من مصر وجاء إلى مصر أطلق يده في إدارة شئون الدولة .

وتعلم العزيز في مدارس النصارى وتزوج واحدة منهم ولدت ست الملك والحاكم وعين العزيز اخوة زوجته النصرانية في مناصب دينية أحدهما بطريركا للقدس والآخر بطريركا في مصر ، وهما ارسانيوس واريستطيس ، وقاما بدور هام في التقريب بين العزيز وملك بيزنطة .

كذلك عين العزيز عيسى بن تسطورس وأطلق يده في شئون الدولة ، وعين منشأ اليهودى
مسئولا عن شئون الشام في عهده .

وقد ضجّ الناس من تصرف الوزيرين لتعصبهما وعسفهما فاضطر إلى عزلهما . وكذلك
فعل الحاكم ابنه ، لكن الرأى العام جعله يعدل عن سياسة التسامح تلك ، وفرض بعض
القيود على اليهود والنصارى ، بل واتخاذ بعض الإجراءات العنيفة كتحويل بعض الكنائس إلى
مساجد ، والزام النصارى باتخاذ زى خاص بهم ، وهو اتخاذ الزنار الذى كان معمولاً به في
سائر البلاد الإسلامية يربطون به أوساطهم ، وأن يتقلدوا في أعناقهم بصلبان خشبية تتدلى
على صدورهم ، ويضعوا فوق رؤوسهم عمام سوداء .

وأما اليهود فقد أرموا بلبس العمامة الصفراء في عهد الحاكم

الباب الثالث
الحياة العقلية والفنية

احتل الفاطميون مصر وبسطوا نفوذهم على معظم شمال أفريقيا والشام واليمن والحجاز وبعض أرض الجزيرة بالعراق . ونافسوا العباسيين والبهيين سياسياً ، وحاولوا منافستهم ثقافياً وأدياً .

ويرى بعض الباحثين أن الاحتلال الفاطمي لمصر أدى إلى عزلتها ومولوها من البلاد عن بقية البلاد الإسلامية ثقافياً .

فهل كان الأمر كذلك حقاً ؟ ...

إن واقع الحياة ، وأخبار التاريخ والعلم والأدب والفن في هذه المرحلة تنكر هذا الزعم ، وتثبت عكسه . فإن العالم العربي والإسلامي ظل متصل الروابط الفكرية والثقافية من مشرقه إلى مغربه ، ولم يحل الخلاف المذهبي والسياسي دون وحدة الفكر والثقافة في العالم العربي والإسلامي .

يقول أحمد أمين :^(١)

« .. ثم جاءت الدولة الفاطمية فبسطت سلطانها على مصر والشام . والحق أنها أتت بحركة علمية نشيطة ، وقدمت العلم والأدب والفن في مصر والشام خطوات ، حتى لا يعد شيئاً بجانبها ما كان في العهد الطولوني والإخشيدى ويصح أن تقارن وتساوى بما كان في العراق ، وخاصة في مجال العلوم العقلية والفلسفية ، فإنها نبغت فيها . ويرجع ذلك إلى أمور :

أولها — أن الفاطميين جاءوا بمذهب شيعي له أسس ودعائم تخالف ما كان عليه أهل السنة في مصر والعراق ، كعصمة الأئمة ونحو ذلك ، وتأتى بشعائر ظاهرة المخالفة لشعائر السنين كذلك . كالأذان « بحى على خير العمل » والاحتفال بعاشوراء وعيد الغدير . فإتيان الفاطميين بهذا أوجد حركة عنيفة للتأييد والتفنيد من جهة ، فهب علماء مصر يفندون هذه الآراء . »

ويقول محمد كامل حسين^(٢) : « فالحياة العلمية كانت مزدهرة في مصر الفاطمية ، وعن

(١) ظهر الإسلام ١٨٨/١

(٢) ل أدب مصر الفاطمية ص ١٤٩

مصر أخذ كثير من العلماء في الغرب والشرق ، فلا غرو أن قلنا إن مصر الفاطمية كانت بدءاً للزعامة المصرية للأقطار الإسلامية»

وكان من أسباب ازدهار العلم والأدب والفن تشجيع الخلفاء لرجالها ، وإغداقهم العطايا والمال الكثير ، والسعى لاجتلاب الكتب من كل مكان وبذل المال في سبيل ذلك . ونقل عن المعز لدين الله الفاطمي أنه قال : « والله ما تلذذت بشيء تلذذى بالعلم والحكمة »^(١) وكان لوفود علماء الشيعة من المشرق إلى مصر أثره كذلك إلى ما أدت إليه رحلات الحج من المغرب ، وحرص الفاطميين على تشجيع الحجاج على الوفود إلى مصر وتأمين طريقهم ، وكان بينهم كثيرون من العلماء واللغويين والأدباء الذين استقر بهم المقام في بعض بلاد مصر في الشمال أو الصعيد في رحلة العودة من الحج .

ومن مظاهر الاهتمام بالعلم ، والعلم العقلي والطبيعي خاصة بناء « دار الحكمة » أو « دار العلم » . وكان الهدف الأول من بنائها نشر المذهب الشيعي ، إلا أنها لم تقتصر على الدعوة ، بل درست فيها العلوم الإسلامية والعربية وبعض علوم الأوائل .

وكانت دار الحكمة بناء فاخرا زود بمكتبة عظيمة نقلت إليها بعض كتب مكتبة القصر ، وسمح بالاطلاع فيها لكل راغب . وكان بها مدرسون تدفع من مال الحاكم بأمر الله الخاص ، ومن مال من بعده من الخلفاء .

قال المقرئ^(٢) : « دار العلم اتخذها الحاكم بأمر الله ، فاستمرت إلى أن أبطلها الأفضل ابن أمير الجيوش . قال المسبحي : « وفي يوم السبت العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ هـ فتحت الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة . وجلس فيها الفقهاء وحملت الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة ، ودخل الناس إليها ، ونسخ كل من التمس نسخ شيء مما فيها ما التمس ، وكذلك من رأى قراءة شيء مما فيها . وجلس فيها القراء والمنجمون ، وأصحاب النحو واللغة والأطباء بعد أن فرشت هذه الدار وزخرفت ، وعلقت على جميع أبوابها وحجراتها الستور ، وأقيم قوائمٌ وتُخلدُهم وفراشونٌ وغيرهم وسُموا بخدمتها . وحصل في هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التي أمر بحملها إليها من سائر الآداب والعلوم بالخطوط المنسوبة ... وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم من يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها ، فكان ذلك من المحاسن الماثورة التي لم يسمع بمثلها من اجراء

(١) المجالس والمسائرات للقاضي النعمان ٦١/١ -

(٢) الخطط ٤٥٨/١

الرزق السنّي، لمن رسم له بالجلوس فيها والخدمة لها من ققيه وغيره . وحضرها الناس على طبقاتهم ، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر للتعلم ، وجُعِلَ فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر .

وقد أغلقت دار الحكمة أيام الأفضل خشية الفتنة الدينية ثم أعاد الأمر فتحها^(١) .

الجامع الأزهر

ومن آثارهم العلمية الخالدة الجامع الأزهر الذي بناه جوهر الصقلی القائد بتوجيه من المعز لدين الله الفاطمي ليكون مقراً للعلم الفاطمي وتربية الدعاة وتلقيهم أصول دعوتهم . وليقوم في هذا المجال بما يقوم به الجامع أو المسجد في الحضارة الإسلامية من كونه مدرسة ، ومكاناً لجلوس الفقهاء بين تلاميذهم .

وتطور دور الأزهر فأصبح جامعة إسلامية كبرى خرجت في هذه العصور والعصور التالية كثيراً من علماء المسلمين في مختلف فروع العلم والمعرفة الإسلامية .

ومن آثارهم العلمية المكتبة الكبرى بالقصر

وقد طبقت شهرتها الآفاق مما جمعت من نادر الكتب في كل فن وعلم ، ومن النسخ الثمينة التي يعز الحصول عليها . وكان الفاطميون يحرصون على اقتنائها ويدفعون فيها من المال كل غال ولا يبخلون بشيء منه على تحصيل ماعزّ وعلا قدره من الكتب .

وكانت هذه المكتبة تحتل أربعين حجرة من القصر الكبير الشرقي . ويذكر أن عدد مقتنياتها من الكتب بلغ ستائة ألف ومليون مجلد . وقيل إنه بلغ مليونين تمثل مائة ألف عنوان من الكتب النادرة في مختلف فروع العلم واللغة والأدب والديانات ، وما وصلت إليه المعرفة في عصرهم .

وكانت الكتب كلها محفوظة في صواوين مغلقة عليها قوائم بمحتوياتها ، ويقوم على أمانتها أمين يعمل معه مساعدون ، وناسخون ، وخدم وفراشون رتبت لهم رواتب ، وعين لها ميزانية خاصة لصيانتها ، وإصلاح ما يصيبه التلف من أثاثها وفرشها واقتناء ما يلزم من الأقلام والأحبار للناسخين .

وبما يذكر من مقتنياتها احتواؤها على ألفين وأربعمائة نسخة من القرآن . الكرم مزخرفة وملونة . ومنها ما هو مكتوب بقلم ابن مقلة صاحب الخط الشهير في تاريخ الخط

(١) راجع في ذلك المقريزي في الحفظ ٤٥٩/١

الإسلامي ، وبأقلام غيره من مشاهير الخطاطين .

كذلك وجد بالمكتبة ثلاثون نسخة من كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي منها نسخة بخط يده . وعشرون نسخة من تاريخ الطبري ، منها واحدة بخط يده كذلك .

واشتملت على مائة نسخة من كتاب جمهرة اللغة لابن دريد . واعتاد بعض الخلفاء أن يرتادوا مكتبة القصر للجلوس بها بعض الوقت والقراءة أو الوقوف على بعض نسخ القرآن الكريم ، والاطلاع على كل نادر تحتويه وقد يمر الخليفة على أقسامها متفقدا ، وقبل مغادرتها يمنح أمينها منحة سخية قد تبلغ عشرين دينارا وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت .

وعلى قدر حرص الخلفاء على تلك المكتبة والعناية بها إلا أنها مع ذلك لم تسلم من العبث والنهب في أوقات الفوضى ، وضعف الخلفاء .

فقد يهجم عليها بعض الجند فيستولون على ماتطوله أيديهم من نفائسها فيبيعونه بالأسواق بأبخس الأثمان لجهلهم وعدم معرفتهم بما لها من قيمة . وبلغ بهم الاستهتار بالكتب والعبث أن جعلوا من جلودها خفافا لعالمهم .

لقد بدا العصر الفاطمي بين عصور الفكر الإسلامي ظاهرةً بينة بمعالها البارزة . وساعدت عوامل أشرنا إليها على هذا التغيير في ملامح الفكر الإسلامي السائدة من مشرق العالم الإسلامي إلى مغربه .

ولما كان علماء الاجتماع والحضارة يؤكدون على أن هناك ثلاثة عوامل فعالة تؤثر تأثيرا مباشرا على السلوك الانساني والتفكير الانساني جميعا هي الخوف والجنس والجوع فإذا الإنسان العربي المسلم في هذه المنطقة قد خضع لهذه العوامل بعنف .

فأما الخوف ، فلأن المنطقة اجتاحتها مجموعة من الأحداث والصراعات أودت بالآلاف وكانت الهجمة الصليبية في القرن الخامس والمذبحة التي وقعت للمسلمين في بيت المقدس أثرها المدمر في نفوس المسلمين من الخوف على الإسلام والمسلمين ، كذلك الكوارث والنكبات المتعاقبة من الطواعين ، وشح الأقوات ، مما جعل خيال الموت يخيم على الناس في كل مكان ، ألبسهم لباس الخوف والجوع .

وأما الجنس فإن إلسراف فيه وانحاذ السنذ الالذنى مبررا لاقتناء الجوارى والتزىذ فى ذلك وتعدى هذا إلى اقتناء الغلمان أذى إلى كثرة هذه العناصر اللى تتخذ للمتعة الجنسية فى

بيوت الناس ، وشاع الجنس في البيت الإسلامى حتى أصبح جزءاً هاماً من حياة الناس .
بدت ظواهره واضحة في الأدب ، وأدى هذا كله الى أن بعض العادات والأخلاق المتصلة
به وظلت من القيم الثابتة في المجتمع الاسلامى اخذت في التحلل شيئاً فشيئاً على مارأينا في
مجتمع الفاطميين وغيرهم ممن عاصرهم .

ولما كانت التغيرات في السلوك الإنسانى مقدمة للسلوك الحضارى والثقافى لم يكن غريباً
إزاء مانراه من تلك التغيرات الفكرية والدينية والفنية في حياة هذه الحقبة .

الدعوة الفاطمية والتحول الفكرى

أدت الدعوة الفاطمية تأثيراً بالغاً في التحول الفكرى الإسلامى طوال القرون الثلاثة التى
حكمت فيها الدولة الفاطمية من القرن الرابع وحتى أخريات القرن السادس . ولم يقتصر
التأثير على مابته الدعوة من تعاليم ، وأثاروه من قضايا فكرية في التراث الإسلامى والمعتقدات
والتطبيقات الشرعية التى كانت سائدة في العالم الإسلامى في ظل الفكر السنى بمذاهبه
الأربعة بل بما أحدثوه كذلك من ردود فعل متعددة تجاوبت أصدائها في العالم الاسلامى ،
وظهرت على صور مختلفة من التفكير المتحرر بعض الشيء من العقائد المتوارثة ، والتى تعد
من القيم الثابتة التى لا تحتل النقاش ولا الجدل ، فوجد في هذا القرن من الجرأة على
اقتحام تلك المقدسات ومناقشتها في جو من حرية الرأى مما دعا بعض العلماء المتزمتين إلى
أن رموا بالإلحاد والخروج على الدين كل من تجرأ على مس تلك المقدسات أو نظر فيها بفكر
حر .

وسنعرض لبعض هذا في حديثنا عن أبى العلاء المعرى وعصره ، وكيف أن أدبه وفكره
كان صدئى ، ومرآة انعكست عليها أفكار العصر ، بل إن فلسفته في شعره ونثره كان نتيجة
تفاعله مع قضايا عصره المثارة آنذاك في جوانب الدين والحياة .

وكان خلفاء الفاطميين حريصين كل الحرص على التزود بالعلم ، وبث أفكارهم حول
الدعوة لدعاتهم من أمثال القاضى النعمان وداعى الدعوة وغيرهما من كبار رجال الدعوة
ومفكرها . وكانت المجالس التى يعقدها الخلفاء ودعاتهم في القصور أو في غيره مجالاً لعرض
أفكارهم وحث الناس على اتباعها بالإقتناع .

وكانت هناك مجالس للرجال وأخرى للنساء في بعض أيام الأسبوع ، يجلس فيها الداعية
ليعلم الناس ماتلقاه عن الخليفة أو الإمام من آراء ، وكانت هناك علاقة غريبة بين الإمام

والداعية ، إذ الداعية هو لسان الامام المترجم عن أفكاره .

وكان الداعية أو داعى الدعاة يجلس إلى من يدعوهم من الناس في هذا المجلس الخاص بالقصر . وكان الذين يجلسون إليه ينقسمون أقساماً ، فمنهم المؤمنون ، والخاصة وعمامة الناس والنساء .

وكان الداعى يحضّر مايلقيه على المؤمنين وعلى كل فئة ، كلّ بما يناسبها من القول وينقل المؤمنون عظة الداعى وما كتب في أوراقه وألقاه إليهم بعد أن يكون عرضه على الخليفة أو الإمام .

وبعد انتهاء الموعظة أو الجلسة يحصل من المؤمنين قدراً من المال يدفع كلّ عن قدر جاهه وطاقته . ويجمع من هذا قدر وفير من المال يذهب إلى الخليفة للصرف منه على شؤون الدعوة .

وينقل المقرئى صورة لما كان يطرح في تلك المجالس من قضايا العقيدة والدين . فكان داعى الدعاة يبدأ بقوله :

« إن هذا العلم من دين محمد صلى الله عليه وسلم ماجاء بالتملى ، ولا بأمانى الرجال ، ولا شهوات الناس ، ولا بما خف على الألسنة وعرفته دهماء العامة ولكنه صعب مستصعب ، وأمر مستقبل ، وعلم خفى غامض ستره الله في حجبه وعظم شأنه عن ابتذال أسراره ، فهو سر الله المكتوم ، وأمره المستور الذى لا يطيق حمله ولا ينهض بأعبائه وثقله إلا ملك مقرب ، أو نبي مرسل ، أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للتقوى ، فإذا ارتبط المدعو إلى الداعى ، وأيسر له نقله إلى غير ذلك .

فمن مسائلهم : ما معنى رمى الجمار ؟ والعدو بين الصفا والمروة ، ولم كانت الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة ؟ وما بال الجنب يغتسل من ماء دافق يسير ، ولا يغتسل من البول النجس الكثير القدر ؟ وما بال الله خلق الدنيا في ستة أيام ؟ أعجز عن خلقها في ساعة ؟ واحدة ؟ وما معنى الصراط المضروب في القرآن مثلاً للكاتبين الحافظين ، ومالنا لانراهما ؟ أخاف أن نكابه ونجاجة حتى أولى علينا العيون وأقام علينا الشهود ؟ وقيد ذلك في القرطاس بالكتابة ؟

وما تبديل الأرض غير الأرض ؟ وما عذاب جهنم ، وكيف يصح تبديل جلد مذنب بجلد لم يذنب حتى يعذب .

وما معنى « يحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » ؟ . وما إبليس ؟ وما الشياطين وما وصفوا به ، وأين مستقرهم وما مقدار قدرهم ؟ وما يأجوج ومأجوج وهاوت وماروت وأين مستقرهم ؟

وما سبعة أبواب النار ؟ وما ثمانية أبواب الجنة ؟ وما شجرة الزقوم النابتة في الجحيم ؟ وما دابة الأرض ، وروعوس الشياطين والشجرة المعلونة في القرآن ؟ والتين والزيتون ، وما الخنثى الكنثى ؟

وما معنى الم ، والمص ، وما معنى كهيعص ، وجاميم ولم جعلت السماوات سبعا ، والأرضون سبعا ، والثاني من القرآن سبع آيات ؟ ولم فجرت الأرض اثنتي عشرة عينا ؟ ولم جعلت الشهور اثني عشرة شهرا ؟

ويسألون المرئيين : وما يعمل معكم عمل الكتاب والسنة ، ومعاني الفرائض اللازمة ؟ فكروا أولا في أنفسكم ، أين أرواحكم ، وكيف صورها ؟ وأين مستقرها وما أول أمرها والإنسان ما هو ؟ وما حقيقته ؟ ، وما الفرق بين حياته وحياة البهائم ، وفضل ما بين البهائم وحياة الحشرات ؟ وما الذى بانث به حياة الحشرات من حياة النبات .

وما معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : خلقت حواء من ضلع آدم . وما معنى قول الفلاسفة : الإنسان عالم صغير ، والعالم إنسان كبير ؟ .

ولم كانت قامة الإنسان منتصبه دون غيره من الحيوانات ، ولم كان في يديه من الأصابع عشر ، وفي رجليه عشر أصابع ، وفي كل أصبع من أصابع يديه ثلاثة شقوق إلا الإبهام فإن فيه شقين فقط ...

.. وهكذا ...

هذا لون من الأسئلة المطروحة والتي تتضمن بعض قضايا العقيدة كثر حوله الجدل بين العلماء ، وبين المعتزلة والمتكلمين والفلاسفة ورجال الدين وعلماء القرآن ، والإعجاز وعلماء الملل والنحل . وما طرح على بساط البحث بين علماء المسلمين وبعض الملاحدة من المعترضين والشاكين كاهن الراوندى ، وابن النغيلة اليهودى وغيره .

وهذا التساؤل الذى اختلف حوله الناس والأئمة ، وعدّ بعضه من المتشابه الذى لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم ، ويرى الشيعة أن تأويله لا يعلمه إلا الله ومن أولاه من لدنه علما . ويقولون : « إنا الأئمة فمن ذا يدعو للاعتصام والتمسك بشريعة جدنا محمد نحرنا ،

فإننا قلنا : إن الله عز وجل أورثنا شرفه ومجده وفخره ، وأقامنا أئمة للأمة بعده . وأوجب لنا على الناس من الطاعة بعده مثل الذى يجب له . لقد صدقنا بقول الله تعالى : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) ، فنحن والله أولو الأمر الذين يعبد الله الخلق بطاعتنا .

وما دام العلم من عند الإمام بتأويل تلك الأحاديث والآيات المتشابهات ، والقضايا التى لا يدرك حكمتها العلماء ، وإنما يعلمها الأئمة ، ويفضون بعلمها إلى من يختارون من الدعاة ، فإن تأويلها ينتقل إلى الداعى — يقول الداعى مخاطبا سامعيه :^(١)

ألا تتفكرون فى حالكم ، وتعتبرون وتعلمون أن الذى خلقكم حكيم غير مجازف ، وأنه فعل جميع ذلك لحكمة ، وله فيها أسرار خفية حتى جمع ما جمع وفرق ما فرق ، فكيف يسعكم الإعراض عن هذه الأمور وأنتم تسمعون قول الله عز وجل : (وفى الأرض آيات للموقنين) و (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) و (ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون) و (سنريهم آياتنا فى الآفاق ، وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) .

وأى حق عرفه من حجد الديانة ؟ ألا يدلكم هذا على أن الله — جل اسمه — أراد أن يرشدكم إلى بواطن الأمور الخفية وأسرار فيها مكتومة لوتبتهم لها وعرفتموها لزالتم عنكم كل حيرة ، ودحضت كل شبهة ، وظهرت لكم المعارف السنية ، ألا ترون أنكم جهلتم أنفسكم ، التى من جهلها كان حرياً ألا يعلم غيرها . أليس الله تعالى يقول : (ومن كان فى هذه الدنيا أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلاً)

ومحو ذلك من تأويل القرآن ، وتفسير السنن والأحكام ، وإيراد أبواب من التجويد والتعليل .

فإذا علم الداعى أن نفس المدعو قد تعلقت بما سأله عنه ، وطلب منه الجواب قال حينئذ : لانهجل . فإن دين الله أعلى وأجل من أن يبذل لغير أهله .. ، يعنى من الأئمة والدعاة أولى العلم .

وهكذا يستدرجه حتى يدخل فى عهده ويؤمن له .

ويقول الدكتور مصطفى غالب فى مقدمة المجالس المستنصرية :^(٢)

(١) حطط القرزى ١/٣٩٣ -

(٢) حاشية منهجه ، ص ١٠٠ ، حبيز وتقديم الدكتور مصطفى غالب طبع دار الأندلس سيروت

يتبين للباحث في تاريخ الدعوة الفاطمية ، ومبلغ تأثيرها على المجتمعات الإسلامية خلال قرون عديدة أن هذه الدعوة العقلانية الفكرية التي اعتمد عليها الأئمة الفاطميون كانت تركز على نظام دقيق صعب مستصعب .

ليس أجل في النظام الفاطمي مرتبة وأسمى من مرتبة الداعي الذي أخذ على عاتقه نشر الأفكار الفاطمية وتعميمها في كافة البلدان والأمصار .

ولقد اعتبر الفاطميون من حيث الأصول والأحكام الدعاة من حدود الدين المفروضة طاعتهم على المؤمنين ، كطاعة الإمام الذي يعتبر المحور الأساسي الذي تدور عليه كل العقائد . وعملاً بقوله سبحانه وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » .

ويذكر الدكتور مصطفى غالب أنهم جعلوا شروط الدعوة مبنية على ثلاثة أمور رئيسية هي : العلم ، التقوى ، السياسة .

ويرون أن العلم على قسمين : علم الظاهر ، وعلم الباطن .

فقالوا إن الظاهر ينقسم إلى خمسة أقسام :

- (١) الفقه والأحكام الذي به صلاح الناس ، ومنفعة الدين والدنيا ، وهو عماد الدين والشرعية .
- (٢) علم الحديث والأخبار والروايات والأسانيد عن النبي والأئمة ، وبه بقاء الدين والشرعية .
- (٣) علم القرآن والتأويل والتفسير ، ومعرفة المحكم والمتشابه ، والناسخ والمنسوخ ، والأمر والنهي .
- (٤) علم الوعظ والتذكير والقصص .
- (٥) علم الجدل والكلام الذي به يكون الجهاد في سبيل الله .

وأما علم الباطن فيتفرع إلى أنواع كثيرة :

- منها العلم المحسوس ، وهو معرفة الحدود السفلية ، ومعرفة الأعمال الشرعية وتأويلها والحكمة فيها ، ومعرفة جميع ما يتعلق بعمل مرئي أو شخص مدرك .
- والثاني هو العلم الموهوم الفكري . وهو معرفة الحدود العلوية والأعداد ومعرفة الأمثال التي أعيانها ليست بمرئية ولا محسوسة ، وإنما يُدرك ذلك بالوهم والفكر .

والثالث العلم المعقول ، وهو معرفة حقائق الأشياء ومعرفة عللها وابتدائها وانتهائها .
وهذه الشروط الثلاث التي أولها كالرضاع للصبي الذي هو المستجيب كالعلم المحسوس
في تعليمه . والثاني التربية العقلانية والإفادة بالعلم والحكمة . والثالث معرفة الآفاق
والأنفس ، والمبدأ والمعاد ، والتوحيد والتجريد والتنزيه .

ولا نريد أن نطيل الحديث في أسرار العقيدة الفاطمية ، وقولهم بالمثل والمتمثل ، ومصادر
هذه العقيدة ، واتجاهاتها ، إنما يكفي أن نلم بأطرافها ، ونتعرف على مظاهرها البارزة التي
تشير إلى مدى التغيير الذي طرحته في ميدان الفكر الإسلامي على مدى تلك القرون ، مما
كان له أثره الواضح والفعال في كثير مما تجلّى آنذاك من الظواهر الفكرية والأدبية والفنية .
ونعرض الآن لأهم دعواتهم ، وملامح من فكرهم ونتائجهم العلمي .

ونبدأ الحديث بالدعاية الأكبر الذي لزم كثيرا من أئمتهم في مطلع دولتهم ونعني به
القاضي النعمان بن محمد .

وكان من أهل العلم والفضل . التقى بالمهدى والقائم والمنصور ، واختص بالمعز لدين الله
الفاطمي فكان أثيراً عنده ، خاصاً به ، ولازمه حتى جاء المعز إلى مصر فولاه القضاء إلى
جانب قاضيا آنذاك أبي طاهر . وظل قائماً بأصول الدعوة حتى توفي أبو طاهر فاستقل
بالقضاء إلى جانب الدعوة وكان قد بلغ من العمر مبلغاً ، فتاب عنه ابنه .

وعرف النعمان بسعة العلم واطلاعه على العلوم الإسلامية ، وإلمامه بأصول الفقه على
المذاهب الأربعة وعلوم القرآن واللغة ، كما ألم بعلوم الكلام والمنطق والفلسفة قال صاحب
« عيون الأخبار » (١) :

« وله تأليفات كثيرة ، وعلوم ماثورة . وقد أقر المخالفون بفضله ، واتساع علمه ، وإنما
ألف ما ألف وجمع ما جمع وصنف ما صنف مما أخذ عن أئمته الذين عاصروهم مما ألقاه
إليهم آباؤهم الطاهرون صلوات الله عليهم أجمعين . ولم يؤلف تأليفاً ولا جمع كتاباً حتى
عرضه عليهم شيئاً فشيئاً ، فأثبتوا الثابت منه والصحيح ، وقوموا الأود بالتصحيح . ومن
بحرهم اغترف وهم عرف ما عرف ، وبفضلهم فيما ألف وصنف اعترف

(١) عيون الأخبار السبع السادس تأليف الداعي المطلق ادريس عماد الدين — طبع دار الأندلس بيروت بتحقيق الدكتور

فمن تأليفه في الفقه كتاب الإيضاح ، أى إيضاح مااجتمعت عليه الرواة في الفقه
والثابت منها بالأسايد الصحيحة ، والروايات المتفقة ، وهو مائتان وعشرون جزءاً ، كما ذكر
في قصيدته المنتخبة بقوله :

فكَلَّمْتُ في مائتي كتاب أَلْفَتْ منها مائتي كتاب تزيد عشرين على الجِسَابِ

وكتاب مختصر الإيضاح في الثابت منه فيما رواه عن الأئمة الطاهرين ، صلوات الله
عليهم أجمعين ، وكان ابتداءه تأليف كتاب الإيضاح على عهد أمير المؤمنين المهدي بالله
(عليه السلام) بأمره وعلى ما أراه ، وأصله ، وبينه وفصله . وكتاب الأخبار في الفقه ثلاثة
عشر جزءاً . وله كتاب في البيوع في الفقه أيضاً ، وكتاب الاختصار في الفقه . وكتاب
الإتفاق والافتراق فيما اختلف فيه الفقهاء ووافق قول أهل البيت عليهم السلام ، أربعون
جزءاً . وكتاب المختصر اختصر فيه كتاب الاتفاق والافتراق .

وألف كتاب دعائم الإسلام^(١) في الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن المعز لدين الله
أمير المؤمنين عن آل البيت . وذلك أنه حضر النعمان وجماعة من الدعاة عند أمير المؤمنين
المعز لدين الله (عليه السلام) فذكروا الأقاويل التي اخترعت والمذاهب والآراء التي افرقت
بها فرق الإسلام ، وما اجتمعت ، وما ادعت أكثرها وابتدعت ، فذكر أمير المؤمنين (عليه
السلام) قول جده رسول الله صلى الله عليه وسلم مما أثبت روايته آباؤه الطاهرون إذ قال
صلى الله عليه وسلم : « لتسلكنَّ سُبُلَ الأمم قبلكم حذو النعل بالنعل ، والقُدَّةُ بالقُدَّةِ ،
حتى لو دخلوا جحر ضبٌ لدخَلتموه » .

وفي حديث آخر : « لتركبنَّ سَنَنَ من كان قبلكم ذراعاً بذراع ، وباعاً ببيع حتى لو
سلكوا خَشِيراً دُبرٌ لسلكتموه » ثم ذكر لهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا
ظهرت البدعُ في أمّتي فليظْهر العالمُ علمه ، وإلا فعليه لعنةُ الله » .

ونظر المعز (عليه السلام) إلى القاضي النعمان بن محمد رضى الله عنه فقال له : أنت
المعنى بذلك في هذا الأوان يانعمان . ثم أمر بتأليف كتاب الدعائم ، وأصل له أصوله وفرع
له فروعه ، وأخبره بصحيح الروايات عن الطاهرين من آبائه عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم من غير ما اختلف فيه الرواة وابتدعته ولقفته من الاختراعات وجمعته . وقال له : إنا قد

(١) دعائم الإسلام للقاضي النعمان حقه آصف فيضى لى جزئين - نشر دار المعارف بمصر

رُوي لنا عن الصادق عليه السلام أنه قال : بُنى الإسلام على سبع دعائم : الولاية ، وهي أفضلها وبها وبالولّى يوصل إلى معرفتها ، والطهارة ، والصلاة ، والزكاة ، وصوم شهر رمضان ، والحج إلى بيت الله الحرام ، والجهاد . وأمره فابتدأ بذكر ولاية أمير المؤمنين على بن أبي طالب ، وتبيين ما خصه به النبي صلى الله عليه وسلم من فضله ، وإنه أولى الأمة بخلافته بعد ذكر الإيمان الذي لا يقبل الله عملاً إلا به ولا يزكوه إلا من كان من أهله .

وذكر ولاية الأئمة من ذرية الرسول صلى الله عليه وسلم وعليهم ، وإيجاب الصلاة عليهم والبيان بالتوقيف على الأئمة من ذرية الرسول صلى الله عليه وسلم . والإمامة لا تكون إلا بالنصّ والتوقيف ومنزل الأئمة عند الله — عز وجل — وبرائهم محمد من غلافهم ، وشيئاً من وصاياهم لشيعتهم وأوليائهم وذكر ما أوجبه الله تعالى من مودتهم ، والحض على العلم ، ومن الذين أوجب الله الأخذ عنهم . ثم ذكر فرائض الإسلام من طهارة وصلاة وزكاة وصوم ، وحج وجهاد ، وما يلي ذلك من ذكر الحلال والحرام ، والقضايا والأحكام ، والأثوبة والبيوعات ، والمأكولات ، والمشروبات ، والطلاق والمناكحات والموارث والشهادات وسائر أبواب الفقه الواجبات .

فأتم القاضى النعمان تأليف هذا الكتاب الموسوم بدعائم الإسلام على ما وصفه له أمير المؤمنين المعز لدين الله ، وأصله . وكان يعرضه عليه فصلاً فصلاً باباً باباً .

وله كتاب الاتفاق والافتراق فيما اختلف فيه الفقهاء ، ووافق قول أهل البيت ، وهو أربعون جزءاً .

وكتاب أخبار الدولة الفاطمية ، ومناقب بنى هاشم ، ومثالب بنى أمية ومعالم الهدى ، وحدود المعرفة ، وتفسير القرآن الكريم ، والتنبيه على التأويل سبعون جزءاً ، وكتاب « أساس التأويل » ، فيه تأويل الولاية ، وقصص الأنبياء ، وكتاب الصلاة ، وكتب كثيرة أخرى ذكرها صاحب عيون الأخبار (١) .

والقاضى النعمان من أشهر علماء الفاطميين ، والمؤسس النظرى لفقهم فيما ألف من الكتب ، وما قدم في مجالسه من آراء اعتمد عليها الدعاة الذين جاءوا من بعده وعلماء المذهب الذين أرسوا قواعد الفقه الفاطمى الإسماعيلى .

(١) عيون الأخبار ص ٤٣ وما بعدها

يقول الدكتور محمد كامل حسين^(١) : « لا أكاد أعرف في تاريخ مصر الإسلامية حتى نهاية الدولة الفاطمية أسرة كان لها من الأثر في الحياة العقلية والسياسية ما كان لهاتين الأسرتين أسرة عبد الحكم قبل العصر الطولوني ، وأثناءه ، وأسرة النعمان في العصر الفاطمي فبنو عبد الحكم كانوا أساتذة المدرسة المالكية في مصر ، وكذلك كان بنو النعمان أساتذة مدرسة المذهب الفاطمي بمصر .

ويعد القاضي النعمان مؤسس هذه الأسرة ، وأكثر رجالها تأليفا للكتب وتعد مؤلفاته من الأسس التي تبعها من جاء بعده من علماء المذهب .

والقاضي النعمان هو أبو حنيفة النعمان بن أبي عبد الله محمد بن المنصور ابن حبون التميمي المغربي . وقد اختلف في تاريخ مولده بين عامي ٢٥٩ هـ والعشر الأخير من القرن الثالث .

وعاش مع والده بالقيروان حيث توفي والده بها عام ٣٥١ هـ ودفن هناك واتيح له الاتصال بالمهدى العبيدي مؤسس الدولة . ويبدو أنه كان مالكيًا شأن غيره من مسلمي أفريقيا ومصر ، ثم تحول إلى المذهب الفاطمي بعد اتصاله بالمهدى وأبنائه أي منذ سنة ٣١٣ هـ .

يقول الدكتور محمد كامل حسين : « دخل النعمان في خدمة المهدى واتصل به ، ولاندرى نوع الخدمة التي كان يؤديها ، ولا الصلة التي اتصلها به . ولكن بعد وفاة المهدى اتصل النعمان بالقائم بأمر الله طوال مدة حكمه . وفي أواخر أيام القائم ولي النعمان قضاء مدينة طرابلس الغرب ، أما قبل ولايته قضاء طرابلس فلا نكاد نعرف عنه شيئاً . ولما بنى المنصور مدينة المنصورية كان النعمان أول من ولي قضاءها . بل ولاه المنصور القضاء على سائر مدن إفريقية .

وأصبح النعمان شديد الصلة بالإمام الفاطمي مقرباً إليه وظل قاضي قضاة هذه المدن ومن تحته قضاتها إلى أن ولي المعز لدين الله الإمامة فاشتدت صلة النعمان به ، حتى إنه كان يجالسه ويسايره ، وقل يفارقه بعد أن كان مستوحشاً منه عقب ولايته .

وظلت العلاقة بين النعمان والمعز على ما رأينا حتى استقر المعز بمصر سنة ٣٦٢ هـ

(١) في أدب مصر الفاطمية ص ٦٣

فاصطحب معه النعمان وبنيه . وكان النعمان إذ ذاك قاضي الجيش ، ثم ولاة قضاء مصر كما أسلفنا مع القاضي أبى طاهر الذهلي الذى كان قد ولى القضاء فى عهد الإخشيد سنة ٣٤٨ هـ .

وظل كذلك حتى توفى سنة ٣٦٣ هـ .

وكان النعمان يسكن القسطنطينية ويغادر منها إلى القاهرة كل يوم .

ومن علماء الفاطميين يعقوب بن كلثوم الوزير وقد أشرنا إليه مع الوزراء ، ولأبأس من أن نعيد ذكره مع علماء الدعوة . فقد كان إلى جانب دوره فى إدارة شئون الدولة فى منصب الوزارة عالماً من أشهر علماء الدعوة الفاطمية — الذين كان لهم أثر قوى فى الدعوة والفكر فى عصرهم .

وكان يعقوب بن كلثوم يهودياً عراقياً ولد ببغداد ونشأ بها وتعلم ، ورحل منها مع والده فى التجارة إلى الشام ، ثم جاء إلى مصر فى ولاية كافور الإخشيدى فاستطاع بدكائه وكياسته أن يتقرب من كافور ، وبلغ من نفسه مكانة رفيعة فكان كافور يثق به ويكل إليه مهام الأمور . وعرض عليه كافور الإسلام فترك اليهودية وأسلم ، ولزم التعبد ودراسة القرآن وكتب الدين والفقه . واجتهد فى الدرس والتحصيل حتى بلغ فىهما درجة عالية من العلم .

وحنق عليه الوزير أبو جعفر بن الفرات المعروف بابن حنزابه لتعلق كافور به ، وسعى ابن كلثوم لبلوغ مكانة من كافور قد تضرب بمكانة ابن حنزابه فنصب له الحياثل لإخراجه من البلاد وانتهاز فرصة وفاة كافور سنة ٣٥٧ هـ ، فطلب يعقوب بن كلثوم فوجده قد هرب إلى المغرب .

واتصل ابن كلثوم بالمعز لدين الله ، فقربه إليه ، وكان المعز قد اعتزم دخول مصر ، ولاشك أنه وجدها فرصة للتعرف على أحوالها من ابن كلثوم .

ولما تم للفاطميين فتح مصر ودخلها المعز سنة ٣٦٢ هـ صحبه يعقوب ، فولاه المعز خراج مصر وجميع وجوه الأموال والحسبة .

واستطاع بحسن تدبيره أن يكسب ثقة المعز ، ويثبت أقدامه فى دولته فولاه المعز النظر فى جميع أموره فى قصره حتى توفى المعز فتولى لابنه العزيز من بعد ما كان تولاه لأبيه وزاد فجعله العزيز بالله وزيراً سنة ٣٦٧ هـ .

وكان بذلك أول وزير في مصر الفاطمية .

واستطاع ابن كلس إلى جانب توفيقه فيما تولى من المناصب حتى الوزارة أن يبرز ويحلمى في العلم الإسلامى ، وأصول الدعوة الفاطمية .

وكان يعقوب محباً للعلم والعلماء يغدق عليهم المنح والعطايا ، ولا يخل بالمال على الكتب وقرب الشعراء ووجههم الهبات الجزلة .

روى ابن خلكان أنه كان يجمع العلماء في داره ، وكان بها قوم يكتبون القرآن الكريم ، وآخرون يكتبون كتب الحديث والفقه والأدب والطب ، ويعارضون ويشكلون المصاحف وينقطنونها .

وكان ينصب كل يوم خزاناً لخاصته من أهل العلم والكتاب وخواص أتباعه . فكان من خاصته الحسين بن عبد الرحيم المعروف بالزلازلى مصنف كتاب الأسجاع والتيمى المقدسى الطبيب الذى صنف للوزير كتاباً ضخماً في عدة مجلدات سماه : « مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء ، والتحرز من ضرر الأوباء » .

وبلغ ابن كلس من الفقه الفاطمى درجة مكنته من تأليف الكتب فيه وعقد مجالس التأويل . فقد رتب لنفسه مجلساً في كل ليلة جمعة يقرأ فيه مصنفاته على الناس ، وكان يحضر هذا المجلس القضاة والفقهاء والقراء والنحاة وجميع أرباب الفضائل ، والعدل ، وغيرهم من وجوه الدولة .

قال المقرئى :^(١) « وكان يجلس عنده في كل يوم الأطباء لينظروا في حال الغلمان ومن يحتاج منهم إلى علاج .. ورتب في داره العلماء والأدباء يقفون بين يديه ، وجمل فيها العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء والمتكلمين ، وأرباب الصنائع ، لكل طائفة مكان مفرد . وأجرى على كل واحد منهم من الأرزاق . وقد نصب مجلساً في داره يحضره كل يوم ثلاثاء الفقهاء والمتكلمون وأهل العلم والجدل والمناظرة بين يديه .

وألف ابن كلس عدة كتب في مختلف مجالات العلم ، وبخاصة ما اتصل منها بالدين والعقيدة منها : كتاب في القراءات ، وكتاب في الأديان ، وكتاب في آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتاب في علم الأبدان وصلاحتها ، ألف في ألف ورقة .

(١) الخطط ٦/٢

ومنه يبدو اهتمامه بالطب ، ويدل على ذلك حرصه على أن يجمع إليه في مجلس جماعة منهم يناظرهم ويحدثهم في مجال هذا العلم .

وكتاب في الفقه مما سمعه من الإمام المعز لدين الله ، والإمام العزيز بالله

وكتاب مختصر الفقه وهو المعروف بالرسالة الوزيرية .

ولم يبق من هذه الكتب إلا الرسالة الوزيرية في مختصر الفقه ، وهو الكتاب الذى طلب الإمام الظاهر إلى الناس أن يحفظوه . وشجع على ذلك بترتيب أموال لمن حفظه .

وأسياب فقدان كتب ابن كلس واضحة ، كذلك الأسباب التى فقدت بها كتب الفاطميين في مصر ، وهى كثيرة من نهب للمكتبات إلى ماجرى عليها من حريق في عهد الأيوبيين أتى على البقية الباقية منها .

لكن تسرب بعض تلك الكتب بين أيدي الناس هو الذى حفظ لنا بعض آثارها . وقد بلغ الوزير ابن كلس في فقه الفاطمية مبلغاً جعل الظاهر يطلب إلى الناس حفظ مختصره الوزيري نسبة إلى منصب ابن كلس وزيراً .

بل إن هذا الاهتمام بفقه الوزير كان سابقاً على عصر الظاهر إذ يحدثنا المقرئ عن تقدير العزيز بالله نفسه لفقه ابن كلس وما ألفه فيه إذ قال إن العزيز بالله أجرى لجماعة فقهاء كانوا يحضرون مجلس الوزير أرزاقاً كل شهر تكفيهم .

وما ذلك إلا لتشجيعهم على تلقي أصول هذا العلم على يديه حتى يعلموه للناس ويحدثنا المقرئ أن الناس كانوا كلفين بكتابه في الفقه . ودرّس فيه الفقهاء بجامع مصر أى بجامع عمرو بن العاص بالفسطاط .

وشجع على تلقي العلم بالجامع الأزهر وهو أول من جعل منه جامعة علمية^(١) .

وكان اهتمام ابن كلس بالأدب والشعر مثل اهتمامه بالفقه وعلوم الدين وسنعرض ذلك في مكانه عند الحديث عن الشعر .

كذلك كان للطب والعلوم الطبيعية مكانة من نفسه .

(١) في أدب مصر الفاطمية ص ٧٩

داعى الدعوة شمس الدين الشيرازى :

ويعد داعى الدعوة المؤيد . والوزير المغربى أخطر رجلين فى السياسة وتدير الأحداث والانقلابات فى القرن الخامس عشر . وفى عصر المستنصر ، وكان الأول رجل دين ودولة داعياً خطيراً من دعاة الفاطميين . وأصله من شيراز فى بلاد فارس وكان الثانى من رجال السياسة. الدهاة، وأصله من العراق ووفد إلى مصر ووزر بها وستحدث عنه فى حينه . وقد اشترك الاثنان فى أحداث السباسيرى بالعراق التى أدت إلى ضم العراق وعاصمة الدولة بغداد لسلطان الفاطميين فترة من الزمن، والدعوة للمستنصر الخليفة الفاطمى على منبر العباسيين .

كان هذا المؤيد إذا من رجال الدعوة الخطرين ، علماً وعملاً .

وهو هبة الله بن أبى عمران موسى بن داود الشيرازى ، ولد بشيراز فى العشر الأخير من القرن الرابع الهجرى ، فى أسرة اتخذت العقيدة الفاطمية مذهباً لها ، وكان أبوه حجة جزيرة فارس أيام الحاكم بأمر الله ، فنشأ ابنه فى الدعوة ، واحتل مكان والده بعد وفاته ، وكاتب الحاكم ، وأقره على أن يكون حجة فارس ، واستطاع إن يجمع قلوب أتباع الدعوة هناك حوله ، وانضم بفضل نشاطه إلى الدعوة الفاطمية عدد كبير من الأتباع حتى خشى السلطان أبوكاليجار البويهى — وهو من الشيعة الإمامية — سطوته ونفوذه ، وهم أن يقصيه مرارا عن شيراز ، لولا خشيته من كثرة أتباعه .

واستطاع المؤيد بهدائه أن يجذب انتباه السلطان ، وأن يحمله على الاستماع إليه فى مجالس كان يعقدها للمناظرة بين المؤيد وعلماء المعتزلة والشيعة وأهل السنة ، فكان المؤيد يبرز عليهم ، وشجع ذلك السلطان على أن يقتنع بقوة حجته ، وأن يميل إلى رأيه وعقيدته . وصار المؤيد يجالس السلطان ليلقى عليه شيئا من علوم أهل البيت والفقهاء الفاطمى من كتاب دعائم الإسلام للقاضى النعمان .

وظل أمر المؤيد يقوى فى فارس حتى جهر بالدعوة الفاطمية ، وعلم بذلك الخليفة العباسى ، فأوفد إلى السلطان كاليجار للقبض على المؤيد ، وأحس المؤيد بالخطر من حوله فسارع بالفرار متخفياً إلى مصر ، ودخل القاهرة سنة ٤٣٧ هـ ، وكانت الخلافة قد آلت إلى المستنصر ، ولم يكن بيده الأمر بل كان لأمه وبعض كبار دولته ، يقول معرباً عن ذلك فى سيرته :

« بلغت بشق النفس الباب الطاهر ، مترجحا بين أمل وبأس ، ومتعقبا للمتقى ما يلقاني من طرفي إجماش وإيناس ، فأما الأمل فمن جهة خدمة ما خدم مثلها غيرى ، حداني حاديها ، وناداني بالأهل والمرحب مناديا . وأما اليأس فمن حيث علمت أن المقصود شمس توارت بالحجاب ، ووجه نهار ترفع بالسحاب ، وأن المسافة لعلها تقذفني من الإضاعة في يم ، وتثويني من حيث أرادت غنما إلى غرم ... أدخلوني من باب القاهرة المعزية إلى قصر الخلافة — عمرها الله تعالى — فاستلمت على جاري العادي في مثله الأبواب ، ولحمت الثريا ترابا تحت أقدامي إذ ترشفت ذلك التراب . وأجلسوني هنيئة لأفيق من غشية الهيبة التي ملأت جوارحي ، لما غشيت المسرة بمشاهدة ذلك المقام قلبي وجوارحي . ثم أدخلوني إلى الوزير المعروف بالفلاحى — رحمه الله — فرأيت شيخاً عليه من الوقار مسحة ، ومن الإنسانية سمة ، فأدنى وقرب ، وأكرم ورَّحَّب وخرجت فأخذوني إلى دويرة كانت فرشت لي ، هي من الكرامة في الدرجة الوسطى من الحال لا بالإكثار ولا بالإقلال .. » .

ومضت الأيام بالمؤيد في مصر ، ولم يسلك سبيله في الحياة بها على ما يروم بل تقلبت الأحوال به ، الإحساس رجالات مصر من المقرين للخليفة بخطر الرجل ودهائه وطموحه لبلوغ مأرب لا يرضى منه بغير التقدم والرئاسة .

وانتهز فرصة اضطراب الأحوال في بغداد ، وقيام السلاجقة الأتراك وكانوا من أهل السنة بمحاولات للقضاء على البويهيين والسيطرة على الخلافة في بغداد فأعد العدة للجهاد ضدهم ، والعمل على كسر شوكتهم وأن يحول بينهم وبين ما يبتغون من السيطرة على بغداد ، التي كانت مطمع الفاطميين للسيطرة على العالم الإسلامي في شرقه ومغربيه .

ونفض إلى بلاد العراق واتصل ببعض الأمراء ، وبعض أعوانه ومتبعي دعوته ، مستعينا بمن استطاع من ولاة الفاطميين على الشام والجزيرة حتى استمال البساسيري إليه ومعه رجاله فرحبوا بالعمل باسم الفاطميين ... وكان ما كان من هزيمة البساسيري لطغرلبيك السلجوقي والدعوة للفاطميين على منابر بغداد حيناً من الزمن .

وقال المؤرخون إن محاولة الفاطميين استمالة الأعوان للقضاء على الدولة العباسية في بغداد اقتضت الفاطميين كثيرا من الأموال مما كان عبئا على خزانة مصر ، وأدى بها إلى الإفلاس وإلى تلك الضائقة الاقتصادية التي عرفت في عصر المستنصر بالشدة الكبرى .

وعاد المؤيد إلى مصر بعد فشل حركة البساسيري في بغداد ، وقضاء طغرلبيك عليها في

حملته الثانية . وتولى بمصر هذه المرة. رتبة داعي الدعاة الا أنه لم يستقر في هذا المنصب طويلا بل عزل عنه وأعيد اليه وتولى الإنشاء إلى غير ذلك حتى انتهى عمره وتولى سنة ٤٧٠ هـ . ودفن بدار العلم بجوار القصر .

ولم تكن مكانة المؤيد العلمية بأقل من مكانته السياسية والدينية ، فقد كان من أكبر علماء مصر في الفقه الفاطمي ، إلى جانب سعة علمه وثقافته في شتى العلوم ، مع تضلعه في علوم اللغة والأدب مما أكسبه أسلوباً جميلاً رصيناً خلافاً تدل عليه تلك القطعة التي أوردنا من سيرته .

وقد اتصل المؤيد ببعض كبار علماء عصره وأدبائه وكانت بينه وبينهم محاورات ، وحدثت بينه وبين أبي العلاء المعري محاورة اعترف فيها بفضلها حين وصفه بقوله : « سيدنا الرئيس الأجل المؤيد في الدين مازالت حجته باهرة ، ودولته عالية .. ، ولو انظر ارسططاليس لجاز أن يفحمه ، أو أفلاطون لنبذ حججه خلفه » .

ونقل ياقوت الحموي أن داعي الدعاة المؤيد لما سمع قول أبي العلاء :

غدوت مريض العقل والرأى فالقنى لتخبر أنباء العقول الصحاح

فبعث إليه المؤيد قائلاً : « أنا ذلك المريض رأياً وعقلاً ، وقد أتيتك مستشفياً فاشفني » وجرت بينهما مكاتبات كثيرة^(١) .

وكان المؤيد آنذاك بحلب قبل عودته إلى مصر بعد فتنه البساسيري .

ومما كتبه داعي الدعاة إلى المعري :^(٢)

« الشيخ — احسن الله توفيقه — الناطق بلسان الفضل والأدب ، الذي ترك من عداه صامتاً مشهوداً له بهذه الفضيلة من كل من هو فوق البسيطة . غير أن الأدب الذي هو جالينوس طبعه ، وعنده مفاتيح غيبه ليس مما يفيد كبير فائدة في معاشه أو معاده ، سوى الذكر السائر به الركبان مما هو إذا تسامع المذكور به علم. أنه له بمكانة الجمال والزينة مدام

(١) راجع ترجمة أبي العلاء ل معجم الأدباء لياقوت الحموي طبع هدية ١٩٠٧/١٩٢٧ — ج ١/١٦٢ — ٢١٦

وكتاب « تعريف القدماء بأبي العلاء » جمع وتحقيق مصطفى السقا وبعض الأساندة

طبع الهيئة المصرية للكتاب ١٩٤٤ ص ١١٨

(٢) المصدر نفسه ص ١١٩

حياً ، فإذا رمت به يد المتون من ظهر الأرض إلى بطنها فلا يحسن ذكره ينتفع ، ولا بقبحه يستضر ، وإذا كانت الصورة هذه كان مستحيلاً منه — أيده الله — مع وفور عقله — أن جعل مواده كلها منصبة إلى إحكام اللغة العربية ، والتفكير فيها ، واستيفاء أقسام ألفاظها ومعانيها ، ووفور عمره على مالا نتيجة له منها ، وترك نفسه المتوقدة نازراً ذكائها خلواً من النظر في شأن معاده ، وأن يختار من علمه ما هو أنفع ، فيمكث إذا ذهب الزبد جفاءً ، من غيره .

فإذا هو — حرسه الله — بمقتضى هذا الحكم مرتو من عذب مشرب هذا العلم ، وإنما ليس ييوح به ، لضرب السياسة . والدليل على كونه ناظراً لمعاده سلوكه سبيل شطف العيش والتزهد ، وعدوله عن الملاذ من المأكول والمشروب والملبوس ، وتعفقه عن أن يجعل من جوفه للحيوان مدفناً ، أن أن يذوق من درها لبنا ، أن أن تستطعم من طعام استكدت عليه في حرقه وإنشائه . وهذه طريقة من يعتقد أنه إذا آلمها جُوزى بألمها . وهذا غاية في الزهد .

لما رأيتُ ذلك ، وسمعت داعية البيت الذي يعزى إليه ، وهو :

غلوّت مريض الدين والعقل فالقنى
لتعلم أنباء الأمور الصحائح

شددت إليه راحلة العليل في دينه وعقله ، إلى الصحيح الذي ينبئني أنباء الأمور الصحائح . وأنا أول ملبٌ لدعوته ، معترفٌ بخيرته ، وهو حقيقٌ ألا يوطنني العشواء ، فيسلك في المجاهيل ولا يعتمد فيما يورده تلبيس الحق بالباطل .

وأول سؤالي عن أمرٍ خفيف ، فإن استنشقتُ نسيم الشفاءِ سقطتُ السؤال إلى المهم أسأله عن العلة في تحريمه على نفسه اللحم واللبن ، وكل ما يصدُر إلى الوجود من منافع الحيوان ، فأقول : أليس النباتُ موضوعاً للحيوان يمتار فيه ، وبوجوده وجوده ، وبقوة في الحيوان حساسة ما استولى على الانتفاع بالنبات ؟ ولو لم يكن الحيوان لكان موضوع النبات باطلاً لا معنى له ، وعلى هذه القضية ، فإن القوة الإنسانية مستولية على الحيوان استيلاء الحيوان على النبات لرجحانها عليه بالنطق والعقل ، فهي مسخرة له على أنواع من التسخير . ولولا ذلك لكان موضوع الحيوان باطلاً .

فتجاني الشيخ — وفقه الله — عن الانتفاع بما هو موضوعٌ له ، مخلوق لأجله إبطالاً لتركيب الخلقه . ثم امتناعه عن أكل الحيوان ليس يخلو القصد به من أحد أمرين . إما أنه

أخذه رافة بها ، فلا يرى تناولها بالمكروه ، وما ينبغي له أن يكون أرفأ بها من خالقها .
فإذا ادعى أن تحليلها وتحريمها إنما كان من بعض البشر — يعنى به أصحاب الشرائع —
وأن الله لم يبيح إراقة دم حيوان وأكله ، كان الدليل على بطلان قوله وقوع المشاهدة لجنس
السباع وجوارح الطير التى خلقها الله على صيغة لاتصلح إلا لنهش اللحم وفسخها ،
وتمزيق الحيوانات وأكلها . وإذا كان هذا الشكل قائم العين فى الفطرة كان جنس البشر
وسيع العُذر فى أكل اللحم ، وكان من أحل لهم ذلك محقاً .

والثانى : أنه يرى سفك دم الحيوان خارجاً عن أوضاع الحكمة ، وذلك اعتراض منه
على خالقه الذى أوجده .

وإذا أنعم الشيخ وساق إلى حجة أعمدها رجوت كشف المرض الذى وقع اعتراضى
به .

وكان جواب أبى العلاء إليه :^(١)

قال العبد الضعيف العاجز أحمد بن عبد الله بن سليمان :

« أول ما ابدأ به انى أعدد سيدنا الرئيس الأجل المؤيد فى الدين — أطال الله بقاءه — ممن
ورث حكمة الأنبياء ، وأعدت نفسى الخاطئة من الأغبياء . وهو بكتابه إلى متواضع . ومن أنا
حتى يكتب مثله إلى مثلى ١٩ .. مثله فى ذلك مثل الثريا كتبت إلى الثرى .. وقد علم الله
أن سمعى ثقيل وبصرى عن الأبصار ثقيل^(٢) . قضى على وأنا ابن أربع أن لا أفرق بين البارئ
والرئع . ثم توالت محنى فأشبهه شخصى العود المنحنى .. »

ثم قال : وأما قول العبد الضعيف العاجز :

غدوت مريض العقل والدين فالقسنى

فإنما خاطب به من هو فى غمرة الجهل ، لا من هو للرياسة علم وأصل ، وقد علم أن
الحيوان كإيه حساس يقع به الألم . وقد سمع العبد الضعيف شيئاً من اختلاف القدماء .
وأول ما يبدأ به : لو أن قائلاً من البشر قال : إذا بنينا القضية المركبة من المسند والمسند إليه

(١) ارشاد الأديب وتعرف القدماء من ١٢١

(٢) ثقيل : أى غريب عن الإبصار كليل .

ولها واسطتان إحداهما نافية والأخرى استثنائية ، فقلنا الله لا يفعل إلا الخير ، فهذه القضية كاذبة أم صادقة ؟ ، فإن قيل : إنها صادقة ، فقد رأينا الشرور غالبية ، فعلمنا أن ذلك أمر خفى ، ولم يزل من يُنسب إلى الذين يرغب في هجران اللحوم ، لأنها لم يوصل إليها إلا بإيلام حيوان ، يفر منه في كل أوان ، وإن الضائنة تكون في محل القوم وهى حامل ، فإذا وضعت وبلغ ولدها شهراً أو نحوه اعتبطوه فأكلوه ، ورغبوا في اللبن ، وباتت أمه ثاغية ، لو تقدر سعت له باغية . وقد تردد في كلام العرب ما يلحق الوحشية من الوجد ، والناقة إذا فقدت الفصيل فقال قائلهم :

فَمَا وَجَدْتُ كَوْجَدِي أُمَّ سَقِبٍ أَضَلُّهُ فَرَجَعْتُ الْحِينَا

وللسائل أن يقول : إن كان الخير لا يريد ربنا سواه ، فالشر لا يخلو من أحد أمرين : إما أن يكون قد علم به أولاً ، فإن كان عالماً به فلا يخلو من أحد أمرين إما أن يكون مريداً له أو لا ، فإن كان مريداً له فكأنه الفاعل ، كما أن القائل يقول : قطع الأمير يد السارق وإن لم يباشر ذلك بنفسه ، وإن كان غير مريد فقد جاز عليه ما لا يجوز على أمير مثله في الأرض ، إنه إذا فعل في ولايته شيئاً لا يرضاه أنكره وأمر بزواله . هذه عقدة قد اجتهد المتكلمون في انحلالها فأعوزهم .

وقد ذكرت الأنبياء أن الباريء — جلت عظمتة — رءوف رحيم ، ولو رآف بينى آدم وجب أن يرآف بغيرهم من أصناف الحيوان الذى يجد الألم بأدنى شيء ، وقد علم أن الوحش الراتعة يكر إليها الفارس فيطعن العير أو الأتان وهن مأسدين إليه ذنبا ، ولأى حال استوجب من يفعل بها هذا الرأفة ، وهى لم تشرب من المآثم بدئوب ، ولم تتجن ما يكتب من الذنوب ، وقد رأيت الجيوش المنتسب كل واحد منهما الى الشرع المنفرد يلتقيان ، وكلاهما في مدد ، ويقتل بينهما آلاف عدد ، فهذا محسوب من أى الوجهين ، فليس عند النظر بهين .

فلما بلغ العبد الضعيف العاجز اختلاف الأقوال ، وبلغ ثلاثين عاماً سأل ربه إنعاماً ورزقه صوم الدهر ، فلم يُفطر في السنة ولا الشر إلا العيدين ، وصبر على توالى الجديدين وطن اقتناعه بالنبات يثبت له جميل العافية ، وقد علم سيدنا الرئيس الأجل المؤيد في الدين ولأرب ، أنه قد نظر في الكتب المتقدمة ، وما حكى عن جالينوس وغيره من اعتقاد يدل

على الخبيرة . وإذا قيل إن الباري رءوفٌ رحيم ، فلم سلط الأسد على افتراس نسمة إنسيّة ، ليست بالملفّسة ولا القسيّة ، ولم مات بلدغ الحيات جماعة مشهورة ، وسلط على الطير الراضية بلقط الحبة البازي والصقر . وإن القطاة لتدع فراخها ظمياء ، وتبتكر لترد ماء ، تحمله إليها في حوصلتها ، فيصادفها دونهنّ أجدل ، فيأكلها فيهلك فراخها عطشا .

وذكر أشياء من هذا الباب ثم قال : « وأعوذ بالله وأتبرأ من قول الكافر :

ألت بالتحية أم بكر	فحيوا أم بكر بالسلام
وكأئن بالطوى طوى بدر	من الأحساب والقوم الكرام
وكأئن بالطوى طوى بدر	من الشيزى تكأل بالسنام
ألا يأم بكر لا تكرى	على الكأس بعد أحمى هشام
وبعد أحمى أيه وكان قرماً	من الأقرام شراب المدام
ألا من مبلغ الرحمن عنى	بأنى تارك شهر الصيام
إذا ما الرأس زایل منكبيه	فقد شبع الأيس من الطعام
أبوعدنا ابن كبشة أن سنحيا	وكيف حياة أصداء وقام
أيترك أن يرذ الموت عنى	ويحيني إذا بليت عظامي

ولعن الله القائل ، ويقال إنه الوليد بن يزيد بن عبد الملك :

أذنيّا منى خيلى	عبدلاً دون الإزار
فلقد أيقنتك ألقى	غير مبعوث لتبار
سأروض الناس حصى	يركبوا دين الحمصار
وأرى من يطلب الـ	جنة يسعى لحصار

وويل لابن رغبان إن كان قال :

هى الأولى وقد نعموا بأخرى	وتسويّف الظنون من السواف
فإن يك بعض ما قالوه حقاً	فإن البتليك هو المقافى

ومما حثني على ترك أكل الحيوان أن الذى لى فى السنة نيف وعشرون ديناراً ، فإذا أخذ خادمي بعض ما يجب ، بقى لى مالايعجب ، فاقتصرت على فول وبلسن ، وما لا يعذب على الألسن ، فأما الآن فإذا صار إلى من يخدمنى كبير عندى وعنده هين ، فما حظى إلا اليسير المتعين ، ولست أريد فى رزق زيادة ، ولا أوثر لسقمتى عيادة ، والسلام .

وكان جواب المؤيد داعى الدعاة عليه :

« حَوْشَى الشَّيْخِ أَدَامَ اللهُ سَلَامَتَهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ فَطَنَ مِنْ مَرَضِ دِينِهِ وَعَقْلِهِ لِعَلَّتِهِ ، وَأَجَابَ دَعْوَةَ الدَّاعِي مِنْهُ بِالْبَيْتِ الشَّائِعِ عَنْهُ لِيَنَالَ شِفَاءَ عِلَّتِهِ جَوَابًا يَزِيدُهُ إِلَى غَلَّتِهِ غَلَّةً ، إِذَا يَكُونُ كَمَا قَالَ الْمُتَنَبِّي :

أَظْمَيْتِى الدُّنْيَا فَلَمَّا جِئْتُهَا مُسْتَنْقِيَا مَطَرْتُ عَلَى مَصَائِبِهَا

كَانَ سَوَالِي لَهُ — حَرَسَهُ اللهُ — فِي شَيْءٍ يَخْتَصُّ بِنَفْسِهِ فِي هَجْرِهِ مَا يَشُدُّ الْجِسْمَ مِنَ اللَّحْمِ الَّذِي يُنْبِتُ اللَّحْمَ ، فَأَجَابَ بِمَا أَقُولُ فِي جَوَابِهِ : أَهَذِهِ أَنْبَاءُ الْأُمُورِ الصَّحَائِحِ ؟ وَهَلْ زَادَ السَّقِيمَ بِدَوَائِهِ هَذَا إِلَّا سَقَمًا ، وَالْأَعْمَى الْأَصْمَ فِي دِينِهِ وَعَقْلِهِ بِمَا قَالَ إِلَّا عَمَى وَصَمَمًا . عَلَى أَنَّ جَمِيعَ مَا ذَكَرَهُ بِنَجْوَةِ عَنْ سَوَالِي الْأَوَّلِ وَمَعزِلٍ عَنْهُ ، وَلَا مَنَاسِبَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنِهِ .

وَأَمَّا الْقَوْلُ بِأَنَّ اللَّحْمَ لَا يُوصَلُ إِلَيْهَا إِلَّا بِإِيلَامِ الْحَيَوَانَ ، فَقَدْ سَبَقَ الْجَوَابُ : لَا يَكُونَنَّ الشَّيْخُ أَرَأَفَ بِهَا مِنْ خَالِقِهَا ، فَلَيْسَ يَخْلُو مِنْ كَوْنِهِ عَادِلًا أَوْ جَائِرًا ، فَإِنْ كَانَ عَادِلًا ، فَإِنَّهُ سَبْحَانَهُ يَقْبِضُ أَرْوَاحَ الْآكِلِ وَالْمَأْكُولِ جَمِيعًا ، وَذَلِكَ مُسَلِّمٌ لَهُ . وَإِنْ كَانَ جَائِرًا لَمْ يَنْبَغِ أَنْ نَرْجِعَ عَلَى خَالِقِنَا بَعْدَ مَا جَوَرَهُ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : « وَلِلْسَائِلِ أَنْ يَقُولَ : إِنْ كَانَ الْخَيْرُ هُوَ الَّذِي لَا يَرِيدُ رَبُّنَا سِوَاهُ فَالْشَّرُّ لَا يَخْلُو مِنْ أَحَدٍ أَمْرَيْنِ ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ عَلِمَ بِهِ ، أَوْ لَا ... إِلَى آخِرِهِ » فَأَقُولُ :

قِيلَ إِنْ إِنْسَانًا ضَاعَ لَهُ مَصْحَفٌ ، فَقِيلَ لَهُ : إِقْرَأْ (وَالشَّمْسُ وَضَحَاهَا) فَإِنَّكَ تَجِدُهُ ، فَقَالَ : وَهَذِهِ السُّورَةُ أَيْضًا فِيهِ ! فَأَقُولُ أَيْضًا : إِنْ هَذَا أَيْضًا مِنْ ذَلِكَ ، وَجَمِيعُهُ ظُلُمَاتٌ ، فَأَيْنَ النُّورُ ؟ وَإِنَّمَا قَصَدْنَا أَنْ نَعْرِفَ أَنْبَاءَ الْأُمُورِ الصَّحَائِحِ كَمَا قَالَ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : لَمَّا رَأَى اخْتِلَافَ الْأَقْوَالِ ، وَأَيَقِنُ بِنِفَادِ وَزَوَالِ سَأَلِ رَبُّهُ أَنْ يَرْزُقَهُ صَوْمَ الدُّهْرِ وَاقْتَنَعَ بِالنَّبَاتِ ، فَمَا صَحَّ لِي أَنْ الرَّبِّ الَّذِي سَأَلَهُ هُوَ الَّذِي يَرِيدُ الْخَيْرَ وَحْدَهُ ، أَوِ الَّذِي يَرِيدُ الشَّرَّ وَحْدَهُ ، أَوِ الَّذِي يَرِيدُهُمَا جَمِيعًا .

وَالصَّوْمُ شَرْحٌ عَلَى أَصْلٍ مِنْ شَرْعٍ يَأْتِي بِهِ رَسُولٌ ، وَالرَّسُولُ يَتَعَلَّقُ بِمَرْسَلٍ ، وَقَضِيَّتُنَا فِي الْمَرْسَلِ مُشْتَبِهَةٌ ، يَبْعَثُ رَسُولًا يَرِيدُ أَنْ يَطَاعَ أَمْ لَا يَطَاعَ ؟ فَإِنْ كَانَ يَرِيدُ أَنْ يُطَاعَ فَهُوَ مَغْلُوبٌ عَلَى إِرَادَتِهِ ، لِأَنَّ مِنْ لَا يَطِيعُهُ أَكْثَرُ ، وَإِنْ كَانَ يَرِيدُ أَنْ يَطَاعَ فَأَرْسَالُهُ إِيَّاهُ مَحَالٌّ ، وَطَلِبُهُ حُجَّةٌ عَلَى الضَّعْفَاءِ لِيَعَذِّبَهُمْ . فَإِنْ كَانَ مَوْضُوعَ صَوْمِهِ عَلَى هَذَا ، فَلَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا ، وَإِنْ كَانَ عَلَى غَيْرِهِ مِمَّا هُوَ أَجْلَى وَأَوْضَحُ ، فَهُوَ الَّذِي أَطْلَبُهُ .

وأما حكايته قول بعض الملحدين ، واستعاذته بالله من أن يكون من المعترضين في قوله تعالى : (وأنه أهلك عاداً الأولى ، وثمود فما أبقى) ... الآيات ، فإن كان الباريء سبحانه خلقهم وهو يعلم أنهم مجرمون ، والتوبة والإنابة يُحرمون ، فكان الأولى به ، وهو العرف الرحيم ، ألا يخلقهم ، لئلا يعذبهم . وإن كان لا يعلم فهو كأمثالنا . ولا يدري ما يكون منه .

وقول الشيخ بعده : معاذ الله أن نقول ذلك ، بل نسلّم وتتلو الآية (من يهيد الله فهو المهتد ، ومن يضلل ، فلن تجد له ولياً مرشداً) . فليس الملحد إذا قال : إن السكر حلّ والحلّ حامضٌ ، لا يُقبَلُ منه لكونه ملحداً ، وقوله يقتضى جواباً ، فإن كان عند الشيخ جوابٌ فهو الذى نبغى ، وإلا فما التسليم في هذا الموضوع إلا التسليم للملحد ، لا لشيء غيره .

وأما إنشاده :

أملت بالتحية أم بكر

وما بعده من الأشعار ، وذمه من قال ولعنه ، فمن الذى اتهمه بشيء من ذلك ؟
حاشاه . وما الذى أوجب الإذكار بكفريات شعرهم ؟

وأما ختمه الرسالة بقوله : إن الذى حثه على ترك أكل الحيوان أن الذى له في السنة نَيْفٌ وعشرون ديناراً يصير الى خادمه معظمها ، ويبقى له أيسرها ، فمحمل مؤونة القنير الذى يُطعمه لو كان ثقيلاً لوجب تَحْمُلُهُ ، فكيف وهو الخفيف محمّله ، وقد كاتب مولائى تاج الأمراء حرس الله عزّه أن يتقدم بإزاحة العلة فيما هو بُلغَةٌ مثله من ألدّ الطعام ، ومراعاته به من الإدراير والدوام ، ليتكشّف غاشية هذه الضرورة ، ويجرى أمره في معيشته على أحسن ما يكون من الصورة . ثم إن قام من الشيخ نشطةً لجواب ، أعفانى فيه عن قصد الأسجاع ، ولزوم مالا يلزم فإن ملتسماً فيه المعانى لا الألفاظ ، .
وكان جواب أبى العلاء^(١)

سيدنا الرئيس الأجل المؤيد في الدين ، عصمة المؤمنين ، هدى الله الأمم بهدايته ،
وسلك بهم طريق الخير على يده .

(١) تعريف القدماء ص ١٢٨

قد بدأ المعترف بجمله ، المقرُّ بحيرته ، والداعى إلى الله سبحانه أن يرزقه ماقل من رحمته في أول ماخطبه به أن ذكر اعتقاده في سيدنا الرئيس الأجل المؤيد في الدين — ضواً الله الظلمَ ببصيرته ، وأذهب شكوك الأفتدة برأيه وحكمته ، وما نفسه عليه من الذلة والحقرية عنده ، وأنه يحسبها ساكنة في بعض السوام .

وعجبٌ أن مثله يطلب الرشد ممن لا رُشدَ عنده ، فيكون كالمقرِّ الذى هو دائبٌ في خدمة ربه ليلاً ونهاراً ، يطلبُ الحقيقة من أقمر^(١) بفلاةٍ ، يردُّ الماءَ على الصائد ويصيب قلبه بسهم .

وقد ذكر — أيد الله الحق بحياته — بيتاً من أبياتٍ على الحاءِ ذكرَ وثيه ليعلم غيره ما هو عليه من الاجتهاد في الدين ، وماحيلته في الآية المنزلة التي هي قوله : (من يهد الله فهو المهتد) . وأولها :

غدوتُ مريضَ العقل والدين فالقنى لتعلم أنباء الأمور انصائح
فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالمساً ولا تبغ قسوتاً من غريضر الذبائح

ولا يقدر أحدٌ يدفع أن الحيوان البحرى لا يخرج من الماء إلا وهو كاره ، وإذا سئل المعقول عن ذلك ، لم يقبح ترك أكله وإن كان حلالاً ، لأن المتدينين لم يزالوا يتركون ما هو لهم حلالٌ مطلق .

وأبيضَ أماتٍ أرادت صريحه لأطفاها دون الغوانى الصرائح

والمرادُ بالأبيض اللبن . ومشهورٌ أن الأم إذا ذبح ولدها وجِدَتْ عليه وجداً عظيماً ، وسهرت لذلك ليلى ، وقد أخذ لحمه ، وتوفر على أصحاب أمه ماكان يرضع من لبنها فأى ذنب لمن تخرج عن ذبح السليل ، ولم يرغب في استعمال اللبن ، ولايزعم أنه محرمٌ ، وإنما تركه اجتهاداً في التعبد ، ورحمةً للمذبوح ، رغبةً أن يُجازى عن ذلك بغفران خالق السماوات والأرض ، وإذا قيل إن الله سبحانه يساوى بين عباده في الأقسام ، فأى شىء أسلفته الذبائح من الخطأ حتى تمنع حظها من الرأفة والرُفق ١٩

فلا تفجعن الطيرَ وهى غوافلٌ بما وضعتُ فالظلمُ شرُّ القبائح

وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن صيد الليل ، وذلك أحد القولين في قوله عليه

(١) الأقر : الحمار الوحشى لونه إلى الخضرة ، أو أبيض فيه كدرة

الصلاة والسلام : « أَقْرُ الطَّيْرِ فِي وَكُنَاتِهَا » . وفي الكتاب العزيز : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ) . إلى غيرها من الآي في المعنى .

فإذا سمع من له أدنى حسُّ هذا القول فلا لوم عليه إذا طلبَ التقرب إلى ربِّ السماوات والأرضين بأن يجعل صيد الحلال كصيد الحرم ، وإن كان ذلك ليس بمحظور .

ودع ضرب النحل الذي بكسرت به كواسب من أزهار نبت لسوائح

لما كانت النحل تعاربُ الشائِر عن العسل بما تقدر عليه ، وتجتهد أن تردّه عن ذلك ، فلا غرو أن أعرضَ عن استعماله رغبة في أن تجعل النحل كغيرها مما يكره : من ذبح الأكيل ، وأخذ ما كان يعيش به لتشربه النساء كى يئدُن غيرها من بنى آدم . وقد وصفت الشعراء ذلك ، فقال أبو ذؤيب يصفُ مشتارَ العسل :

إذا لسعته النحل لم يَزُجْ لسعها وخالفها لي يبيت ثوب غوايسل

وروى عن علي عليه السلام حكايةً معناها : أنه كان له دقيق شعر في وعاء يختم عليه ، فإذا كان صائما لم يختم على شيء من ذلك الدقيق ، وقد كان عليه السلام يصل إلى غلّة كثيرة ، ولكنه كان يتصدق بها ، ويقتنع أشدُّ اقتناع . وروى عن بعض أهل العلم أنه قال في بعض خطبه إن غلته تبلغ في السنة خمسين ألف دينار . وهذا يدل على أن الأنبياء والمجاهدين من الأئمة يقصرون نفوسهم ويؤثرون بما يفضل منهم أهل الحاجة .

وقد عدل سيدنا الرئيس إلى الإيماء بأن من ترك أكل اللحم ذميم ، ولو أخذ بهذا المذهب لوجب على الإنسان ألا يصلى صلاة إلا ما افترض عليه ، لأن ما زاد على ذلك أذاه إلى كلفة ، والله تبارك وتعالى لا يريد ذلك ، ولوجب أن الذى له مأل كثير إذا أخرج عن الذهب رُبع العشر ، لا يحسُن به أن يزيد على ذلك . وقد حثُّ الناسُ على النفقات في غير موضع من الكتاب الأشرف . والعبد الضعيف العاجز قد افتقر إلى مثل ذلك . ولو مثل بحضرة السامية لعلم أنه لم يبق فيه بقية لأن يُسأل ولا أن يُجيب ؛ لأن أعضاءه متخاذلة ، وقد عجز عن القيام في الصلاة ، فإتما يصلى قاعداً ، والله المستعان . وكيف له أن يكون يصل إلا أن يدبُّ على عكاز .

(وثم اشتشهد على عجزه بأشعار العرب .)

ولإني لأعجز إن اضطجعت عن القعود ، فرمما استعنتُ بإنسان ، فإذا هم بإعانتى ،

وبسط يديه لهضتي ضربت عظامي ، لأنهن عاريات من كسوة كانت عليهن .

وأما استشهاده بييت أبي الطيب ، فمن استرشد بمثل العبد الضعيف العاجز مثله مثل من طلب في الفتادة ثمر النخلة ، وإنما حمل سائله على ذلك حسن الظن الذي هو دليل على كرم الطبع ، وشرف النفس ، وطهارة المولد وخالص الخيم .

وأما ما ذكره من المكاتبه في توسيع الرزق على ، فدل على إفعال ورثه عن أبي فآب ، وجد في إثر جد حتى يصل النسب إلى التراب ، فالعبد الضعيف العاجز ماله رغبة في التوسع ومعاودة الأطعمة وتركها صار له طبعاً ثانياً ، وإنه ما أكل شيئاً من حيوان خمساً وأربعين سنة :

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يسارى في لى ريبه

وقد علم أن السيد الأجل ، تاج الأمراء ، فخر الملك ، عمدة الإمامة وعمدة الدولة ومجدها ، ذا الفخرين ، نصيف أولاد سام وحام وياث . ود العبد الضعيف العاجز لو أن قلعة حلب ، وجميع جبال الشام جعلها الله ذهباً لينفقه تاج الأمراء نصير الدولة النبوية ، على إمامها السلام ، وكذلك على الأئمة الطاهرين من آبائه من غير أن يصير إلى العبد الضعيف من ذلك قيراط .

وهو يستحي من حضرة تاج الأمراء أن ينظر اليه بعين من رغب في العاجلة بعد مآذبه وهو رضى أن يلقي الله ، جلّت قدرته ، وهو لا يطالب إلا بما فعل من اجتناب اللحوم ، فإن وصل إلى هذه الرتبة فقد سعد .

(ثم اعتذر عن السجع بأخبار أورها ، واحتجاجات ذكرها)

وسيدنا الرئيس الأجل ، المؤيد في الدين ، لازالت ححه بأثرة ؛ ودولته عالية كما قال
ثعلبة بن صعير :

ولرب قوم ظالمين ذوى شداً لعل صدورهم بهتر هابتر
للظالمين على ماساءهم وخسأت باطنهم على بحق ظاهر
ولو ناظر أوسططاليس لجاز أن يفحمه ، أو أفلاطون لنبد حجه خلفه ، والله يجمل
بحياته الشريفة ، وينصر بحججه الملة ، وحسى الله ونعم الوكيل .

وأجاب داعي الدعاة بقوله :

ما فاتحت الشيخ — أحسن الله توفيقه — بالقول إلا مفاخرة متناكر عليه فيه . مؤثر أن يخفى من أين جاء السؤال ، فيكون الجواب عنه باسترسال ، ورفض حشمة وحذف تكلف للخطاب « بسيدنا » و « الرئيس » ، وما يجرى هذا المجرى إذ كان حكم ما يجارى فيه موجبا أن لا يتخلله شيء من زخارف الدنيا ، ولأنني أعتقد أن سيدي بالحقيقة من تستفيل دون يده يداى أخذاً منه للدنيا ، أو تمتاز نفسي من نفسه استفادة من معالم الأخرى . فما أدري كيف انعكست الحال حتى صار الشيخ — أدام الله تأييده — يُخاطبني بسيدنا والرئيس ولست مفضلاً عليه في دنيا ولا دين ، بل شاذ راحلتى إليه ، لاستفادة إن وردت موردها أو صادفت نهلاً أو عبلاً منها ، قابلتها بالشكر لنعمة ، والإسجال على نفسي بأستاذيته .

وبعد فإني أعلمه — أدام الله سلامته — أني شققت جيب الأرض من أقصى ديارى إلى مصر وشاهدت الناس بين رجلين إما منتحلاً لشريعة صبا إليها ولهج بها إلى الحد الذي إن قيل له من أخبار شرعه إن فيلاً طار أو جملاً باصر ، لما قابله إلا بالقبول والتصديق ، وكان يكفر من يرى غير رأيه فيه ويسفهه ويلعنه .

والعقل عند من هذه سبيله في مهواة وفي مضيمة ، فليس يكاد ينبعث لأن يعلم أن هذه الشريعة التي هو منتحلها لم يُطوَّق طوقها ولم يُسور سوارها إلا بعد لموع نور العقل منه ، فكيف يصح توليته أولاً وعزله آخرأ ؟ . أو منتحلاً لثقل يقول إنه حجة لله تعالى على عباده . مبطلاً لجميع المالناس فيه ، مستحقاً بأوضاع الشرائع ، معترفاً مع ذلك بوجود المساعدة عليها وعظم المنفعة بمكانها لكونها مَقَمَعَةً للجاهلين ، ولجاماً على روعوس المجرمين المجدفين ، لا على أنها ذخيرة للعقبى ، أو منجاة في الدار الأخرى .

فلما رمت إلى المرامي إلى الشام ، سمعتُ أن الشيخ وقفه الله — بفضل في الأدب والعلم قد اتفقت عليه الأقاويل ، ووضح به البرهان والدليل . ورأيت الناس فيما يتعلق بدينه مختلفين ، وفي أمره مبلبلين ، فكل يذهب في مذهبا .

وحضرتُ مجلساً جليلاً أجرى فيه ذكره ، فقال الحاضرون فيه غثاً وسمينا ، فحفظته في الغيب ، وقلتُ إن المعلوم من صلاته في زهده يحميه من الظنّة والريب . وقام لي نفسي أن عنده من حقائق دين الله سرأ ، قد أسبل عليه من التقيّة سِتيراً ، وأمرأ يميّز به عن قوم يكفّر

بعضهم بعضاً .

ولما سمعتُ البيت : « غَدَوْتُ مَرِيضَ الْعَقْلِ » تَوَثَّقْتُ مِنْ تَخَلُّدِي فِيهَا حَدَّثْتُ عُقُودَهُ ،
وَتَأَكَّدْتُ عَهْوَهُ . وَقَلْتُ : إِنْ لِسَانًا يَسْتَطِيعُ بِمِثْلِ هَذِهِ الدَّعْوَى نَعْلَقًا . وَيَفْتَقُ مِنْ هَذَا
الْفَخْرِ الْعَظِيمِ رَتْقًا ، لِلْسَانَ صَامَتَ عِنْدَهُ كُلُّ نَاطِقٍ ، مِنْ ذِرْوَةِ جَبَلٍ مِنَ الْعِلْمِ شَاهِقٍ .
فَقَصْدُهُ قَصْدَ مَوْسَى لِلطُّورِ ، أَقْتَبِسُ مِنْهُ نَارًا ، وَأَحَاوُلُ أَنْ أَرْفَعَ بِالْفَخْرِ . مَنَارًا لِمَعْرِفَةِ مَا يَتَخَلَّفُ
عَنْ مَعْرِفَتِهِ الْمُتَخَلِّفُونَ ، فَأَدْلِيْتُ دَلْوِي بِالسَّأَلَةِ الْخَفِيْقَةِ الَّتِي سَأَلْتُ عَنْهَا ، تَرْقِيًا مِنْ دُونَ إِيَّايَ
فَوْقَ ، وَتَدْرُجًا مِنْ صَغِيرٍ إِلَى كَبِيرٍ ، فَكَانَ جَوَابُهُ أَنَّهُ يَصْغُرُ عَنْ أَنْ يَكُونَ لِلِاسْتِرْشَادِ مَحَلًّا ،
فَقَلْتُ هَذِهِ زِيَادَةٌ فِي فَضْلِهِ ، وَمَا يَجُوزُ صَدُورُ مِثْلِهِ عَنْ مِثْلِهِ . ثُمَّ انْتَهَيْتُ إِلَى الْإِحَالَةِ عَلَى كَوْنِ
النَّاسِ مِمَّنْ تَقْدَمُ أَوْ تَأَخَّرُ فِي وَادِي الْخَيْرِ تَائِهِينَ وَفِي أَذْيَالِهَا مَتَعَثِّرِينَ ، فَمَنْ قَائِلٌ يَقُولُ : إِنْ
الْخَيْرَ وَالشَّرَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَجَبَّ بِجَبِّهِ : هَلْ كَانَ مَا كَانَ يَسْتَعِيدُ مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكُلِّ مَسْتَعَاذٍ مِنْهُ خَيْرًا أَوْ شَرًّا ؟ . فَإِنْ كَانَ خَيْرًا فَالِاسْتِعَاذَةُ
مِنْهُ كَذَلِكَ فَضُولٌ وَزِيَادَةٌ فِي الْمَعْنَى .

وَسؤالٌ مِنْ يَسْأَلُ : هَلْ كَانَ سَمُّ الْحَسَنِ وَقَتْلُ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ خَيْرًا أَوْ شَرًّا ؟
فَإِنْ كَانَ خَيْرًا فَالْعِنَةُ عَلَى الْقَاتِلِ مِنْ أَى جِهَةٍ وَإِنْ كَانَ شَرًّا وَاللَّهُ مَرِيدُهُ زَالِ اللَّوْمِ عَنْ
الْقَاتِلِ . . وَقَائِلٌ يَقُولُ : إِنْ الْخَيْرُ مِنَ اللَّهِ وَالشَّرُّ مِنْ غَيْرِهِ ، وَجَبَّ بِجَبِّ الْجَوَابِ الَّذِي يَقْطَعُ
بِهِ الْأَسْبَابَ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أَطَالَ بِهِ الْخُطَابُ مِنْ أَشْعَارِ الْمَلَاْحِدَةِ وَأَقْوَالِهِمْ .

فَكَانَ جَوَابِي — أَدَامَ اللَّهُ سَلَامَتَهُ — أَنَّنِي مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ذَكَرْتَهُمْ تَبَرُّيْتُ إِلَيْكَ
وَتَطَاوَحْتُ عَلَيْكَ ، وَإِنْ كَلَامُهُمْ عِنْدِي قَبْلَ أَنْ عَلَلْتَهُ عَلِيلٌ ، وَهُوَ عَلَى مَسَامِعِ الْقَبُولِ مَنِي
ثَقِيلٌ ، فَافْتَحْ لِي إِلَى مَا عِنْدَكَ بَابًا ، وَافْسَحْ لِي مِنْ لَدُنْكَ حَنَابًا ، فَلَمْ يَفْعَلْ .

ثُمَّ خَاطَبْتُهُ عَلَى امْتِنَاعِهِ مِنْ أَكْلِ اللَّحْمِ ، فَاحْتَجَّ بِأَنَّهُ مُتَحَرِّجٌ مِنْ قَصْدِهَا — أَعْنَى
الْبَهَائِمِ — بِالْمُضْرَةِ وَالْإِيْلَامِ . ، مُتَخَفِّفًا عَنْهَا لِهَذِهِ الْجِهَةِ ، فَقَطَعْتُ لِسَانَ حُجَّتِهِ بَعْدَ تَنَاهِيهَا
وَقَلْتُ : إِذَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى سَلَطَ بَعْضُهَا لِتَأْكُلَ بَعْضًا ، وَهُوَ أَعْرَفُ بِوُجُوهِ الْحِكْمَةِ وَأَرَأَفُ
بِالْخَلِيقَةِ ، فَلَا يَكُنْ أَنْ أَرَأَفُ بِهَا مِنْ رَبِّهَا ، وَلَا أَعْدَلُ فِيهَا مِنْ خَالِقِهَا . ثُمَّ عَدَلْتُ إِلَى قِصُورِ
يَدِ الْاسْتِطَاعَةِ دُونَ ذَلِكَ ، إِذْ كَانَ الْقَدْرُ الَّذِي هُوَ لَهُ فِي السَّنَةِ مُنْصَرَفًا إِلَى مَنْ يَتَوَلَّى خِدْمَتَهُ
أَكْثَرَهُ ، وَخَالِصًا لَهُ أَقْلَهُ ، فَقَطَعْتُ الْحُجَّةَ فِي هَذَا الْبَابِ أَيْضًا وَعَيْنْتُ لَهُ عَلَى جِهَةِ كَرِيمَةٍ مِنْ
الَّذِينَ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًا وَلَا أَدَى مَا يَقُومُ بِقَدْرِ كِفَايَتِهِ مِنْ أَطْيَبِ مَا يَأْكُلُونَ ، وَأَرْزَقِي مَا فِي

البيوت يذخرون . فتجافت نفسه — وقاها الله السوء — عن هذا الباب أيضا ، وكتب في الجواب الثاني بأنه لا يؤثر ذلك ولا يرغب فيه ، ولا يخرق عادته المستمرة في الترك ، وابتدأ يقول : إن طلبت الرشد ممن لا يرشد عنده ، وإن البيت الذي قاله مما تعلقتُ به وجعلته محجة إلى استقراء طريقته ومذهبه إنما أراد الإعلام باجتهاده في التدين ، وما حيلته في الآية المنزلة : « من يهد الله فهو المهتد ، ومن يُضلل فلن تجد له ولياً مرشداً » . فجمع بين المتضادين في كلمة واحدة . إنه إن كانت الآية حقاً كان الاجتهاد باطلا . وقال : إن الله سبحانه أسراراً لا يقف عليها إلا الأولياء ، فنحن على ذلك السرّ نور ، وعلى باب من هو عنده نظوف . فإن قلنا إنه — حرسه الله — من أصحابه بدعوى صحته في دينه وعقله ، ومرض الناس على موجب قوله . قال : لا يرشد عندي . فنظمه في هذا المعنى يناقض نثره ، ونثره يخالف نظمه ، فكيف الحيلة ؟ . ثم قال إن البيت المقول :

غدوت مريض العقل والدين فألقني لتعلم أنباء الأمور الصعاب
يؤدى معناه البيت الثاني :

فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالماً ولا تبغ قوتاً من غريض الدبالح

فكأن مرض الدين والعقل من جهة أكل اللحم وشرب الألبان وتناول العسل ، فمن ترك هذه المطاعم كان صحيحاً دينه وعقله . وهو يعلم أن مصحة الأديان والعقول لا تقوم بذلك . ولا يجوز أن يكون هذا البيت الثاني ناسخاً لحكم الأول ، فيكون محصول دعواه في فقر الناس إلى أن يصح دينهم وعقلهم هو أن يقول لهم : لاتأكلوا اللحم واللبن .

وأما قوله : إن الحيوان البحري كاره أن يخرج إلى البر ، وأنه ليس يقبح في العقول ترك آكله وإن كان حلالاً ، لأن المتدينين لم يزالوا يتركون ما لهم طلق ، فما من حيوان بحري ولا بري هو أجل من هذا الإنسان الحى العاقل ، وهو كاره للموت فيموت ، وكاره لأن يأكله شيء ، والدود يأكله في قبره . فإن كان ذلك صادراً عن موضع حكمة كان ما ذكره من الحيوان البري والبحري جارياً في مضمار هذا مثلاً بمثل ، وإن كان معلولاً به عن وجه الحكمة كان محالاً أن يكون صانعي سفنها ، وأكوبن — وأنا صنيعه — حكيماً .

وأما قوله ان النبي — صلى الله عليه وسلم — صلى إلى أن تقرحت قدماه ، فقيل له فيه فقال : « أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً » ، فما هذا مما نحن عليه في شيء . والإنسان له أن يصلى ماشاء من الصلوات في الأوقات التي تجوز فيها الصلاة ، على ألا يزيد في

الفرائض ولا ينقص منها . وهذا الكلامُ شرعيٌّ . وكان القضيةُ للتكلم على العقليات .
وأما قوله : إنه عليه الصلاة والسلام حُرِّمَ صيد الحرم ، وإن لغيره أن يخرم صيد الخلل
تقرباً إلى الله سبحانه — فليس لأحد أن يخلل أو يخرم غيره .

وأما قوله : إن علياً عليه السلام لما قدم إليه الخبيص سأل : هل أكل النبي صلى الله
عليه وسلم منه ؟ فلما قالوا : لا ، رفعه ولم يأكله — فهذه الحجة عليه لا له . فإن الناس
مجمعون على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يفارق أكل اللحم ، وهو يهجره دهره . وذلك
بالضد سواء . ولو أنه — حرسه الله — لم يستظهر على الشريعة ولم يتجاوز قضية
العقل ، لصنته عن هذا الجواب الذي عسى أن يشغل سرّه ويعزّ على ذلك .

وأما ماشكاه من ضعفه وقصور حركته وأنه لم يبق فيه بقيةٌ لأن يُسأل ولا أن يجيب ،
فما هو — حرسه الله — على علاقته من الضعف والقوة إلا من محاسن الزمان ، ومن سارت
بتذكر فضله الركبان ، إلا أنه على عدوان الدهر عليه عدا على نفسه ، بحرمانها ملاذ دنياها ،
فإن وثقت نفسه بملاذ تعاض عنها ، مما هو خير وأبقى منها ، فما خسرت صفقته ، وقام
مصدق قوله في البيت المقدم ذكره ، وإن كان يوسم بميسم الشح بمنع المنتجعين ، وردّ
السائلين ، وإن كان شقُّ على نفسه من غير بصيرة كما يدعيه الآن ، خووضاً مع الخائضين
وتحيراً مع أمثالنا من المتحيرين فقد أضعاعها وجنى عليها ، وادعى في البيت المقدم ذكره
مالبرهان له . والغرض في السؤال والجواب الفائدة ، وإذا عُدمت فقد خفف الله عنه أن
يتكلف جواباً .

وأما الأسجاع ومسألتى التخلّي عنها ، فما كانت إلا شحاً بالمعاني أن تفضل بتبعها
ولأننى إذا تتبعته فضله ، بصنعاته في الأدب والشعر ، وجدت في أرضه مراغماً كثيراً
وسعةً . ومن أين لي أن أظهر على مكنون جواهر علوم دينه ، كظهوره على مصنفات أدبه
وشعره ! .

وقبلُ وبعدُ فأنا اعتلر عن سرِّ له — أدام الله حراسته — أذعته ، وزمانٍ منه بالقراءة
والإجابة شغلته ، لأننى من حيث ما نفعته ضررته .

والله تعالى يعلمُ أنى ما قصدت به غير الاستفادة من علمه ، والاعتراف من بحره .
- والسلام - .

وقد حرصنا على إيراد هذا الحوار الفكري بين عالين جليلين وأديبين عظيمين هما من أعلام العصر أوفرها قدراً وأجلها شموخاً ، لتبين من خلال الحوار أشياء كثيرة تتعلمها ، وأنها هذا الأدب في الحوار بين رأيين مختلفين ، لا يمسُّ أحدهما مالاخر من مكانة رفيعة في موقعه وعلمه ويكون الموضوع هو القطب الذي يدور حوله الحوار .

ونلاحظ أشياء كثيرة في الحوار ينبغي أن نفطن إليها ، منها ما أورده مؤيد الدين من وجود مذاهب بين علماء العصر وعلماء مصر خاصة ، وأن هذه المذاهب في الدين تتجاذبها تيارات التصديق بالعقل وتحكيمه في كل أمر من أمور الدين أو الطرف الآخر الذي يأخذ بما قال السلف والتصديق به حتى لو كان خارجاً عن العقل أو العرف كما قال حتى لو قالوا إن الفيل يطير لصدقه ...

وهذا التطرف في الاتجاهين من مظاهر الحياة الفكرية في العصر . وإن حاول الفاطميون ودعاتهم كما رأينا أن يمزجوا بين الدين ومقتضيات العقل والعلم بحيث لا يبدو التناقض بينهما .

وأما في الأمور المشبهة التي جاءت في الدين مثل قضية الخير والشر وما يتصل بهما من علم الخالق وإرادة المخلوق في فعل أيهما فقد أوكل الفاطميون أمرها إلى من أوتوا العلم من الأئمة الذين ألهموا أسراراً لا يطلع عليها عامة الناس وإن كانوا من العلم في الدرجة العالية .

وظهر لنا من الحوار هذا الميل من مذهب دعاة الفاطمية وأئمتها إلى الأخذ بأسباب الحياة وملاذها ومتعها التي أحلها الله دون إسراف ، وعدم الامتناع عما هيأ الله للإنسان في هذه الحياة من أسباب النعمة .

ولعل قطب الرحي الذي دار حوله الحوار بين مؤيد الدين والمعري هو هذا المعنى بعينه ، لأن الآيات التي شغلتهما من قول أبي العلاء إنما تدور حول معنى الانصراف عن أكل مالذ من الطيبات مما أحل الله من لحم الحيوان والطيور والأسماك ، ولا أكل العسل ، ولا شرب الألبان وما إلى ذلك .

وعلى ذلك فهذا الحوار حيوى إلى حد كبير يلقي أضواء كثيرة على العصر وفكره وأدبه . والملاحظة أو الإشارة الأخيرة الجديرة بالاهتمام هنا حول صورة الحوار أو شكله الذي حرص المعري في أوله على أن يأتي على طريقته في السجع ولزوم مالايزم ، وطلب إليه المؤيد أن يتخلى عن هذا الثوب اللفظي حتى لا تضل المعاني وراء بريق اللفظ .

وقد حقق المعرى في رسالته الأخيرة رغبة مؤيد الدين فتخلى عن السجع ولزوم مالايزم وضروب الصنعة المشابهة فجاء قوله رصيناً عامراً بالفكر ، قاصداً إلى معانيه دون برهق اللفظ أو زخرفة .

وكذا كان قول المؤيد الذى لم يحفل بصنعة لفظية فجاءت عباراته سديدة المعنى مقومة اللفظ من كل عيب أو ضعف أو خروج عن القصد .

لقد كان داعى الدعاة المؤيد عالماً فذاً ، وأديباً مفكراً ، شاعراً فحلاً ، ترك تراثاً هائلاً في كل هذه المجالات .

ففى مجال العلم خلف عدداً من المؤلفات القيمة نذكر منها :

(١) المجالس المؤيدية فى ثمانمائة مجلس من مجالس الحكمة التى كان يلقيها فى دار العلم . جمع هذه المجالس وبوبها حسب موضوعاتها الفكرية الداعى المطلق حاتم بن إبراهيم الحامدى ، وسماها « جامع الحقائق » .

(٢) كتاب شرح المعاد .

(٣) كتاب شرح الإيضاح والتبصير .

(٤) كتاب الابتداء والانتفاء .

(٥) رسالة فى تحريم اللحم — ولعلها من تأثير هذا الحوار المتبادل مع المعرى .

(٦) تأويل الأرواح .

وله ترجمة أو سيرة ذاتية تحدث فيها عن حياته ، السياسية والاجتماعية ، وبعض صور الحياة فى عصره فى الدول التى عاش فيها وتنقل بينها فى فارس والعراق والشام ومصر من سنة ٤٢٩ إلى سنة ٤٥٠ هـ . وتعتبر سجلاً حياً لوقائع عصره ، غمّنها بعض الوثائق المتبادلة بينه وأمراء العرب وملوكها الذين اتصل بهم ، وكذلك الرسائل والحوارات التى كانت بينه وبعض الوزراء المصريين إبان ثورة البساسيرى .

وله ديوان شعر جيد ، هو مجموعة من القصائد التى مدح بها أئمة الفاطميين ، وبعض رجال العصر ، وعرض فيها لحياته ، ووصف أحواله ، مشيراً إلى ما بذل فى سبيل الدعوة ، فضلاً عما به من موضوعات متصلة بالعقيدة الفاطمية ، وهو زاخرٌ بكثير من الرموز والمصطلحات المستخدمة عنهم .

المجالس المؤيدية :

ونعرض لبعض ما يدور في المجالس وهي من أخطر مؤلفاته لاتصالها بالعقيدة الفاطمية وآرائهم المتصلة بقضايا الدين والحياة .

والمجالس المؤيدية كما قلنا تضم ثمانمائة مجلس ، قسمت إلى ثمانى مجلدات ، كل مجلد مائة مجلس .

ونعرض لبعض ما جاء في « المائة الأولى » (١) :

« وخصص المؤيد هذه المجالس لطبقة من الدعاة والأجنحة والمأذونين ، وهي بما تضمنته فوق علوم الشريعة والظاهر . والمدخل التمهيدى إلى علم الباطن والحقائق وكانت تلقى كمحاضرات تعقبها بعد ذلك مناقشات واستفسارات .

وموضوعات المجالس المائة الأولى متصلة بمفهوم التوحيد عند الفاطميين ، والإبداع والوجود والموجودات ، وترتيب العوالم السفلية والعلوية ، والنطقاء ، والوحى ، وعالم الأمر ، والمعاد والبعث ، والقيامة والجنة والنار . وإثبات الوصاية ، وماهية الإمامة ، والتأييد ، والإفادة والمفيد ، والأدوار والأكوار ، والمثل والمثول والقيام بالقوة والقيام بالفعل ، وكيفية أخذ العهد والميثاق .

بالاضافة إلى الردود القصيرة على القائلين بالرجعة والتناسخ والتقصص ، وعلى الحشوية والمعطلة والمعتزلة والصوفية ، والغلاة من الشيعة ، والفلاسفة والملحددين ، وغير ذلك من المواضيع الهامة (٢)

يقول في المجلس الأول من المائة الأولى :

« الحمد لله الذى نظم بين الإنسان والبهائم ، إذ خلقهما من طين ، وجعل نسلهما من ماء مهين ثم اقتضت العناية الإلهية أن رعى فى أخلاط الصورة الإنسانية من إكسبر العقل بلغة أهل صنعة الكيمياء ماعرج به فى أعلى المعارج من الفضل والعلية ، فصار ممن قال

(١) المجالس المؤيدية - المائة الأولى - تحقيق وتقديم الدكتور مصطفى غالب

طبع دار الأندلس بيروت سنة ١٩٧٤ م

(٢) مقدمة المجالس (المائة الأولى) ص ٨

الله سبحانه عنه ومن أصدق من الله قولاً : (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً) . فاستنزل الطير بتدبيره من الهواء واستخلص الخوت من لجج الدماء ، واستعبد أجناس الحيوان طيراً وبهائم وسباعاً ، فمنها ما انتفع بلحومها انتفاعاً ، ومنها ما استمتع بجلودها وأصوافها وأوبارها استمتاعاً ، وجعل الفلك المحيط على عظم فضائه محصوراً فى سرادق فكره ، والجسم فى عالم الكون والفساد مأسوراً فى سرادق فكره ونجار أسره . فهذا منقوعه الذى نفعه الله تعالى به فى الدار الأولى ، ثم جعله سلماً يرتقى به إلى دائم البقاء فى الدار الأخرى ، فلولا نور استبصاره بالعقل لما كانت رسالة من مرسل تقبل ، ولا أمر من مرسل يؤخذ ويحمل ، ولا نفس بمعرفة توحيد الله سبحانه ترسم وتستنير ، ولا لسان بمعارف الآخرة بين اللهوات يدور .

وصلى الله على محمد خير رسول استنار بنور سراجيه ، وسار على أوضح منهاجه ، وعلى وحيه الذى عرج به من أفق المجد إلى أعلى معراجيه ، وعلى آله الداعين إلى عذب المشرب وفراته ، الناهين عن ملحه وأجاجه .

معشر المؤمنين : جعلكم الله عمن استنارت بنور العقل قلوبهم ، وتجاقت عن مضاجع الجهل جنوبهم .

إن قوماً من الآخذين الدين بالعادات ، والجارين فيه على آثار الوالدين والوالدات زعموا أن شرائع الأنبياء صلى الله عليهم هى أسباب النجاة ، والطريق إلى دائم الحياة ، على غير العقل موضوعها ، وفى سوى موقعه وقوعها ، فلو أنهم أمعنوا النظر ، وجردوا من ثوب الهوى والعصبيية الفكر ، لعلموا أن أحدهم لو قيل له فى شىء من خاصة أعماله وما يصدر عنه من أقواله وأفعاله : إن فعلك هذا على غير أساس العقل موضوعه ، ولا من مطالعه طلوعه لاستشاط من ذلك غضباً ، ولقام له مكذباً ، وفى مثل هذه المواجهة مستذباً ، فكيف يرضون للأنبياء عليهم السلام الذين هم سادات دينهم والوسائط بينهم وبين ربهم ما لو قابلوهم بمثله مقابل لكرهه ؟ ، أم كيف لا يعتبرون أن الخطاب فى كتاب الله سبحانه كله لأولى الألباب ؟ بقول الله تعالى « فاتقوا الله يأولى الألباب » . وقوله : « إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب » وما يجرى مجراه مما كثر وتكرر ، وليس يخلو من كون هذه الأوضاع الشرعية لإبرهان لها من العقل عند الرسول صلى الله عليه وسلم الآتى بها نفسه أو كونه عنده ، ولم يشعر به ، فإن كان لإبرهان لها عنده ، فهو فحش ، ولو أن سائلاً سأله عن

العلة التي اقتضت أن يجعل الصلاة خمساً ولا يجعلها ستاً ، فكان يقول : لا أدري ؟ لكفاه طعنا أن يأتي بالشيء ولا يدري العلة فيه إذا سئل عنها . وإن كان لها عند نفسه برهان عقلي . والبرهان مما يُجَمَلُ الأقوال والأفعال . ثم لا يظهره ، فلم يقم إذا بحق البلاغ وهذا منتفٍ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه بُلِّغَ وقال في النادى : اللهم اشهد أنى بُلِّغْتَ .

وسوى هذا فمعلوم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكلف تكاليف الشريعة إلا إذا عقل ، فكيف يكلف ما كان موضوعه على غير عقل ، فهو بغير ذى عقل أولى منه بهدى عقل . وما السبب في توليته العقل أولاً وعزله آخراً ، ولم لا تكون التولية آخراً لكونها أولاً .

. ويقول : « فلو أن أحد الفلاسفة قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله عن الملائكة والعرش والكرسى ، والجنة والنار ، وأوضاع الشريعة من صلاتها وزكاتها وصومها وحجتها وزكاتها وصومها وحجتها وجهادها حيث يدل عليها البرهان العقلي آكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : لا قبل لى فى برهان ذلك ؟ حاشا لله تعالى » .

وقول آخر مأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أول ما خلق الله تعالى العقل فقال له : أقبل ، فأقبل ، ثم قال : أدبر فأدبر ، ثم قال له : وعزنى وجلالى ما خلقت خلقاً أجل منك ، بك أثيب ، وبك أعاقب . »

وإن كانت الشرائع على غير العقل موضوعها ، فلا ثواب عليها ولا عقاب على مقتضى الخير بك أثيب وبك أعاقب .

معشر المؤمنين : دعوا أهل الفرقة والخلاف فإنهم أشياع غي . يقول الله سبحانه وتعالى لنييه : (إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شيء) . وتمسكوا فى دينكم بالأدلة ، واعرفوا المواقيت والأهلة وأصلحوا أحوالكم ، وطهروا سرّ بالكم وأحمدوا الله تعالى الذى فتح لكم إلى الحقائق أبصاراً ، والناس عنها عمون ، وكشف لكم عنها حجاباً ، فأنتم فى رياضها تنعمون . وأجروا فى مضممار التائبين العابدين ، واستشعروا شعار الراكعين الساجدين . وكونوا دعاة إلى أئمتكم بحسن الفعال صامتين ، وقوموا آناء الليل والنهار لله قانتين .. .

واضح من هذا المجلس الأول المنهج العقلى الذى دعا الناس إليه وعدم التسليم بكل

مأثور يقال أو خير يروى دون عرضه على ضوء العقل وادراك العلة وراءه ، فلا يجوز تعطيل هذا العقل نعمة الله الكبرى للإنسان حتى في تقصى أمور الشريعة وحكمها ، وذلك كله مع القيام بكل ما أمر الله وعدم التقصير في حد من حدوده التي نزل بها الوحي على نبيه صلى الله عليه وسلم .

وواضح كذلك مخالفته لمذاهب أهل السنة التي نعتها بأهل الفرق والخلاف وإذا كان المذهب الفاطمي قد نهج هذا النهج العقلي في بحث أمور الدين وشرائعه ، وشجع على دراسة العلوم العقلية من الفلسفة والمنطق والرياضيات والفلك ... والعلوم الطبيعية من الطب والكيمياء وما إليها فإنه لم يهمل كذلك بحث الديانات والملل ، وما فيها وبينها من التقارب أو التباعد . وحدث من الحوار والجدل بين علماء المسلمين والنصارى في جو من حرية الرأي مثل ما حدث في بعض العصور السابقة في العراق والأندلس .

وينقل لنا التاريخ وتحفظ لنا المكتبات بصورة من هذا الحوار في مجالس إيليا مطران نصيبين ، وما دار فيها من أسئلة ألقاها عليه الوزير المغربي أبو القاسم حسين بن علي .

يقول الدكتور إحسان عباس^(١) : « وقد دخل الوزير المغربي إلى نصيبين لأول مرة يوم الجمعة ٢٦ جمادى الأولى سنة ٤١٧ هـ فزاره مطران نصيبين إيليا ... ثم جرت محاورات بينهما في سبعة مجالس ... سأله فيه الوزير عن عقيدة النصارى في الأقاليم الثلاثة ، وكيف يمكن وصف ذلك بالتوحيد ، وكيف يمكن للنصارى أن يدفعا قول الله فيهم : (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) . وعن علة الناس في محبة أديانهم ، وهل يتحقق المرء صحة دينه أو مذهبه من جهة العقل ، أو من جهة المعجزة ١٩ .. ويدور المجلسان السادس والسابع حول أسئلة عن المقارنة بين نحو السريان ونحو العرب وعلم اللغة عند الفريقين واستعمال المجاز عندهما ... »

وبما أن مطران نصيبين هو الذي كان يتولى الإجابة فإنه أعطى نفسه دوراً كبيراً في الشرح والتوضيح مما يجعل الوزير يسلم له معجباً ... وفي بعض الأحيان نجده أعلم من الوزير بشؤون الإسلام ، ويكاد في معرفته بالقرآن أن يبلغ درجة لم يبلغها الوزير نفسه . وعلى الرغم من هذه الهزة التي أدى إليها الفكر الفاطمي في الفكر الإسلامي عامة ،

(١) الوزير المغربي ص ٧٥

والتحول الفكرى الخطير فى بعض جوانب العقيدة ، وماتركه من آثار باقية فى تطبيقات الدين ومأثوراته لازالت مأخوذا بها فى بعض شعائر الصلاة وغيرها من العبادات إلا أن مذاهب السنة ظلت تدافع عن مواقعها باستماتة وصلابة فى البلاد التى سادها الفاطميون فى شمال أفريقيا ومصر والشام والحجاز وبعض أطراف العراق .

وكأن وراء هذا الصمود السننى بشجعه ويمده بالعون المادى والمعنوى الخلافة العباسية فى بغداد ، ثم سلاطين السلاجقة الأتراك الذين بدأ نجمهم فى الظهور بعد زوال سلطان البويهيين على أيديهم فى عصر المستنصر الفاطمى ، وبدء الصراع المرير بين القوتين الفاطميين والسلاجقة طوال القرنين الخامس والسادس .

وكان الصدام بين الفاطميين وأهل السنة يخرج عن مجرد الجدل الدينى إلى المقاومة المادية ، فإن المقرئى يروى فى أحداث سنة ٤١٦ هـ أن الظاهر أخرج فقهاء المالكية وغيرهم من القسوطا . وأمر الدعاة بتحفيظ الناس كتاب « دعائم الإسلام » لداعى الدعاة ، ومختصر الوزيرى ، وجعل لمن حفظ ذلك مالا^(١)

كذلك كان للمالكية وفقهائهم فى أفريقيا والمغرب دور كبير فى مقاومة الدعوة الفاطمية والفكر الفاطمى ، ونجد بيانا لهذه المقاومة فى بعض المصادر مثل « رياض النفوس » و « معالم الايمان » للدباغ ، و « المدارك » للقاضى عياض ، و « الدياج المذهب » لابن فرحون .

وقد عاصر الدولة الفاطمية بالقيروان أحد مشاهير فقهاء المالكية ، وهو « سحنون » الذى يخرج عليه عدد كبير من العلماء والفقهاء بلغوا سبعمائة على حد قول بعض الروايات .

وذكر ابن اللباد مكانة سحنون فى الفقه المالكى فقال : « ولئن قلت لك إن سحنون ألقه من أصحاب مالك بن أنس — معلميه — كلهم إني لصادق »^(٢) ومنهم نفرى القيروانى أبو محمد عبد الله بن أبى زهد ولقب « بمالك الصغير » . وكان يرحل إليه العلماء للرواية عنه والتفقه به (تولى سنة ٣٨٦ هـ) .

(١) الخطط ٣٥٥/١

(٢) راجع رياض النفوس للمالكى ٢٥٤/١

ومن فقهاء المالكية بالقيروان كذلك القابسي على بن محمد (توفي سنة ٤٠٣ هـ) وكان واسع الدراية عالماً بالحديث ورجاله ، فقيها مالكيأ أصوليا ، متكلماً مؤلفاً مجيداً ، له عدة كتب في الفقه .

واستطاع المالكية والشافعية أن يتعايشوا مع الفاطميين ، وربما كان بعض دعاة الفاطمية ملما بالفقه المالكي ومتأثرا به كالقاضي النعمان الذي قيل إنه بدأ مالكيأ قبل اعتناقه المذهب الفاطمي .

كذلك لشيوع هذين المذهبين في مصر والمغرب وكثرة أتباعهما على ما أشرنا من قبل .

العلوم العقلية والطبيعية :

وكان جو الفكر في القرن الرابع الهجري وما بعده من القرون مهياً للعلوم العقلية والفلسفية لما بثه كبار الفلاسفة المسلمين في المشرق والمغرب من افكار فلسفية ، وما نقلوه عن كبار فلاسفة اليونان ، وقد شهد هذا العصر الفارابي وابن سينا وابن رشد .

عاش الأول في ظل الدولة الحمدانية بحلب غير بعيد من عصر الفاطميين ، ولا أرضهم التي امتلكوها ، كما عاش الثاني ابن سينا في عصر هذه الدولة الفاطمية وتوفي سنة ٤٢٨ هـ بعد حياة حافلة في ظل السامانيين والبويهيين في بلاد فارس وترك تراثاً ضخماً أهم ما فيه جمعه بين الفلسفة والطب والعلوم الطبيعية .

قال عنه ابن الأثير :^(١) ففى سنة ٤٢٨ هـ مات أبو على ابن سينا الحكيم الفيلسوف وهو صاحب التصانيف السائرة على مذهب الفلاسفة . وكان موته بأصبهان ، وكان يخدم علاء الدولة أبا جعفر بن كاكويه . ثم يقول ابن الأثير « ولا شك أن أبا جعفر كان فاسد الاعتقاد فلهدا أقدم ابن سينا على تصانيفه في الإلحاد والرد على الشرائع في بلده » .

ونلاحظ أن ابن الأثير وهو المؤرخ السنى الذى عاش في ظل دولة سنية متشددة لمذهب أهل السنة قد اتهم الأمير والفيلسوف بفساد العقيدة والالحاد لأن أهل السنة يكرهون الفلسفة والفلاسفة ، ويتعقبونهم ، ويحجرون عليهم ، بل ويقتلونهم أحيانا .

والأمر مختلف بالنسبة للفاطميين والبويهيين فقد شجعوا الفلاسفة ، ومع ذلك فإن ابن

(١) الكامل ص ٨ وفيات سنة ٤٢٨ هـ

سينا لم يكن فاسد العقيدة خارجاً على الإسلام كما صوره ابن الأثير ملحداً .

وقد اعترف ابن سينا بمنهجه في الحياة ، فأكد على التزامه بمحدود اللين ، وكنت كلما أتخبر في مسألة أو لم أكن أظفر بالحذ الأوسط في قياس ترددت إلى الجامع وصليت وابتلت إلى مبدع الكل حتى فتح لي المنغلق ، ويسر لي المتعسر وكنت أرجع بالليل إلى داري ، وأضع السراج بين يدي ، وأشتغل بالقراءة والكتابة .

وربما كان في حياته بعض التساهل أو التحرر الذي غلب على كثير من الناس ممن أقبلوا على الحياة ولم يرفضوها ، ورأوا أن الله زين للإنسان الدنيا ليتمتع بها مادام لا يهمل أداء فروض دينه .

وقد كان الفاطميون كذلك لا يرون بأساً من الاستمتاع بملاذ الحياة معام الإنسان مؤمناً بالله موحداً مؤدياً لفروض دينه وواجباته ، مقبلاً على ما أحل له ممتنعاً عما حرم عليه .
والفلسفة والعلوم العقلية والطبيعية كلها متصل بعضها ببعض ، وقد بنى الفاطميون دار الحكمة واهتموا بتدريس الفلسفة والعلوم العقلية والطب والرياضيات وعلوم الطبيعة والكيمياء والفلك .

وكان للطب في مصر الإسلامية والفاطمية خاصة مكانة مرموقة ، وكان الخلفاء يهتمون بالطب والأطباء ، كذلك جمع بعض العلماء بين العلوم المختلفة والطب .

وأشار أمية بن أبي الصلت في رسالته المصرية إلى اهتمام المصريين بعلمى الطب والفلك ، كما شغلوا بالتنجيم ، واستقراء أحوال النجوم ، وما توحى لهم بما يعتقدونه علماً أو رجماً بالغيب .

يقول أمية : إن الأطباء المصريين في عصره في آخرهات القرن الخامس لم يتقنوا صناعة الطب لأنهم لم يبحثوا في علل المرض بقدر بحثهم عن الدواء لهذا المرض . قال : فلما لم يأخذوا أنفسهم بالإتقان ، بل استمالوه ، واستعملوا الأمد إليه ، ورأوا أن غرضهم من صناعة الطب الذي هو عندهم ، وحسب رأيهم — التكبُّب بما يتم لهم بأقرب مما شرطه الأوائل متناولاً ، وأسهل مرأماً ، لم يحفظوا غير أسماء أدوية قليلة العدد ، بصرفونها في مداواة كل مريض دون أعمال فكرهم في حقيقة نوعه وسببه ، ومقتضيه وموجبه ^(١)

(١) الرسالة المصرية ص ٢٣

وكلمات ابن أمية تصدر عن صدر مسجود ، ونفس غير صافية نحو المصريين لما لاقاه من المحنة على يد الوزير الأفضل فقضى زمناً في السجن خرج بعده ، ولى نفسه ما فيها نحو المصريين ، ولا ننسى كذلك إن هذه الرسالة موجهة إلى عدو للدولة الفاطمية في مصر هو أبو طاهر يحيى بن تميم بن المعز صاحب القيروان ، والذي كان موقف المستنصر من أبيه مانعاً .

ومع ذلك فإن مصر الفاطمية قد أخرجت جماعة من مشاهير الأطباء كابن رضوان كما نبغ في الفلك جماعة ، واشتهر في العلوم الرياضية والطبيعية ابن الهيثم (الحسن بن الهيثم المتوفى سنة ٤٣٠ هـ)^(١) .

جاء مصر من البصرة في أيام الحاكم وأقام بها حتى آخر عمره ، وفيها أبدع معظم مؤلفاته ، ونظرياته ، وقد برع في الرياضيات والطبيعات . وكانت له مشاركة في الطب .

وكان مصدر حركة فلسفية وعقلية كبيرة في القاهرة في عصره ، وكان يقول : « إني لم أزل منذ عهد الصبا مروّعاً باعتقادات هذا الناس المختلفة وتمسك كل فرقة منهم بما تعتقد من الرأي ، فكنت متشككاً في جميعه ، موقناً بأن الحق واحد ، وأن الاختلاف فيه إنما هو من جهة السلوك إليه ، فلما كملت لإدراك الأمور العقلية انقطعت إلى طلب معدن الحق ، ووجهت رغبتى وحرصى إلى إدراك ما به تتكشف تمهيات الظنون ، وتنشع غيايات المتشكك المفتون » .

وقد ألف ابن الهيثم نحو مائتي كتاب في الرياضيات والطبيعة والفلسفة ظلت عماد الناس في الشرق والغرب — وبخاصة كتاب « المناظر » في علم الضوء .

وما زال يؤلف ويشرح ويُلخص في حركة دائبة حتى تولى سنة ٤٣٠ هـ

ولم يكن اهتمامنا بإيراد جهود الفاطميين في العلوم العقلية والطبيعية إلا للتأكيد على صبغة هذا العصر الفكرية ، ومناهجهم العلمية التي أثرت في كل المجالات .

علم التاريخ :

ظهر في عصر الفاطميين جماعة من المؤرخين المشهورين ، وإن لم يرتفع صيتهم ارتفاع

(١) أشهر ابن الهيثم في حضارة الغرب الأروبي كأحد كبار علماء المسلمين في علم الطبيعات وكتب عنه الدكتور مصطفى مشرفه بحثاً جليلاً حول اكتشافاته في علم الضوء .

صيت غيرهم من المؤرخين للأسباب التي عرضنا لها في اختفاء ذكر كثير من اعلام هذا العصر وعلمائه . ومن كبار مؤرخي العصر القضاعي ، والمسبحي ، وابن ميسر ، وابن الرقيق ولما كان علم التاريخ قريب الأسباب ، متصل الوشائج بعلوم الأدب ، فلا بأس أن نقف وقفة مع هؤلاء نتعرف عليهم ، وعلى كتبهم ، وأساليبهم في كتابة التاريخ ، وقد تعددت مشاربهم ، واختلفت منازعهم ونياتهم ، وتنوعت ثقافتهم واهتماماتهم .

والمسبحي

هو الأمير عز الملك بن أبي القاسم عبيد الله أحمد المعروف بالمسبحي الحراني الأصل المصري المولد والحياة . ولد سنة ٣٦٦ هـ ، واتصل في صباه بخدمة الحاكم بأمر الله بين جنوده ، ومازال يرقى في الجندية حتى صار أميراً على اقليم البهنسا والقيس بصعيد مصر ، ثم ولي ديوان الترتيب .

وكان يجلس إلى الحاكم وإلى ابنه الظاهر ، وسجل هذا كله في تاريخه .

وميزة تاريخ المسبحي أنه يدون أحداثاً ومشاهدات يومية عاينها وعاصرها المؤرخ وشارك في بعضها .

وقد وصف المسبحي تاريخه بقوله : « التاريخ الجليل قدره ، الذي يستغنى بمضمونه عن غيره من الكتب الواردة في معانيه ، وهو أخبار مصر ومن حلها من الولاة والأمراء والأئمة والخلفاء — وما بها من العجائب والأبنية ، واختلاف أصناف الأطعمة ، وذكر نيلها وأحوال من حل بها ، وأشعار الشعراء ، وأخبار المغنين ، ومجالس القضاة والحكام والمعتلين والأدباء والمتغزلين وغيرهم » .

ولم يكن المسبحي مؤرخاً ، يلتزم أسلوب كثير من المؤرخين في ذكر الاحداث سرداً بل كان أدبياً ذواقه — له أسلوبه الطلي ، الذي يكسب وصفه للأحداث جمالاً كما أنه لا يخجل وصفه أو تحريره للوقائع التي يدونها من انطباع خاص ، أو موقف ذاتي .

يقول في أحداث سنة ٤١٤ هـ^(١) « وفي يوم الأحد لإثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر جلس أمير المؤمنين للناس في المجلس الذي يجلس فيه أبوه بقصر الذهب ودخل

(١) أخبار مصر في سنتين للمسبحي تحقيق وليم ج. ميلورد وطبع هيئة الكتاب ص ٥٨

الناس إليه من باب العيد ، ودخلت فيمن دخل على رضى ، وجلسنا بخضرتة عليه السلام — مع من جرى رضى بالجلوس . ودخل إليه حسين بن حسن بن حمدان المقلب بناصر الدولة المستخدم — كان — بطرابلس ، لأنه وصل في هذا اليوم مصروفا عن عمله ، فلقى بالبند والطبول . وكان عدة البند أربعين بنداً ملونة ، وخمسة بنود مذهبة . ودخل بدخوله الشريف ابن موسى المقيم — كان — بدمشق ، فلما وصلا إلى حضرة أمير المؤمنين عليه السلام — قبالا التراب ، ثم قبلاً يده ، ووقفاً بين يديه ، فأمرهما بالجلوس فجلسا ، وكان الأمر لهما القائد معضاد عنه — عليه السلام . وكان جلوسهما بين الصفين . ثم انقضى السلام وانصرف الناس .

ولما كان وسط نهار هذا اليوم نزلت طائفة من جوارى القصر ، ومعها طائفة من الخدم ، إلى دار الجوه ودار الصرف^(١) ، ودار الأتماط ، فابتاعوا من جميعها رجلاً ، وعادوا إلى القاهرة المحروسة .

ومن المؤرخين المشهورين ابن زولاق الحسن بن ابراهيم الليثى

وله عدة كتب مشهورة منها سيرة محمد بن طنجج الاخشيد ، وأخبار سيبويه المصرى وسيرة كافر ، وسيرة جوه الصقلى ، وسيرة المعز لدين الله ، وسيرة العزيز بالله وكتاب « التاريخ الكبير » على السنين ، وكتاب « خطط مصر » .

وقد أكثر هذه الكتب — كما حدث لأكثر التراث الفاطمى — ولكن كثيراً من المؤلفين والمؤرخين نقلوا عنه ، وبخاصة في التاريخ للعصر ، ومن هؤلاء ابن عبد الظاهر وابن خلكان ، وابن فضل الله العمري ، والنويرى ، وابن حجر ، والمقرزى والسيوطى .

ومن المؤرخين الكبار القضاء أبو عبد الله محمد بن سلامة (توفى سنة ٤٥٤ هـ) من مؤرخى عهد المستنصر . وقد تفقه على مذهب الشافعى ، ومع ذلك فقد واه الفاطميين القضاء . وخدم الوزير الجرجائى ، إذ جعله كاتب علامته ، وعمل في ديون الإنشاء ، وأوفده سنة ٤٤٧ هـ الخليفة المستنصر إلى بيزنطة حيث التقى بتيودوره امبراطورة الروم في القسطنطينية ليتحدث معها في أمر الصلح وعقد مهادنة بين الجانبين . ولكن هذه السفارة لم تصل فيما يبدو إلى إقرار السلام بين الروم والفاطمين .

(١) دار الجوه ، ودار الصرف ، ودار الأتماط أسواق مشهورة بالفسطاط كانت تقع شرق جامع عمرو وحبوه .

ومن كتبه في التاريخ « تاريخ الخلفاء » . وخطط مصر واسمه « المختار في ذكر الخطط والآثار » . وقد أفاد منه المقرئى فائدة كبيرة ، وكان عوناً له على تأليف كتابه الخطط أو « المواعظ والاعتبار » . كما أخذ عنه كثير من معاصريه ومن جاءوا بعده .

ومن مشاهير المؤرخين الرقيق القيروانى : إبراهيم بن القاسم^(١) .

وعرف الرقيق بالكاتب والنديم ، فقد تولى الكتابة في ديوان الانشاء أو ديوان الرسائل بالقيروان مدة نيف وعشرين سنة . ويمكن القول على وجه التقريب أنه ولد بالقيروان في منتصف القرن الرابع الهجرى . وياشر الكتابة في الديوان بحضرة الدولة الصنهاجية بعد خروج المعز إلى القاهرة ، وظل كذلك أيام المنصور بن يوسف بن زهرى ، وابنه باديس ، وابنه المعز .

وتوجه مرتين أو ثلاثة إلى القاهرة سفيراً عن الصنهاجية ، بقصد تأكيد الولاء للخليفة الفاطمى بمصر قبل حدوث الجفوة أيام المستنصر .

فقد سافر سنة ٣٨٦ هـ من قبل المنصور إلى العزيز بالله ، ثم في سنة ٣٨٨ هـ لتبتهة الحاكم بأمر الله بالخلافة ، وحمل في هذه السفارة هدايا ثمينة من الأمير باديس بن المنصور ، مع سجل التبتهة ، وألقى بين يدي الحاكم قصيدة جيدة .

وبعد الرقيق أدبياً ، وشاعراً له كثير من الشعر الجيد وربما توفى على الأرجح سنة ٤٢٥ هـ^(٢) وأما كتابه في التاريخ « تاريخ أفريقية والمغرب » فهو في عشرة مجلدات — على ما تذكر — كتب التراجم والمصادر التى تحدثت عنه . وابتدأ فيه بأخبار الفتح العربى إلى نهاية سنة ٤١٧ هـ ومنه قسم مهم شهد المؤلف حوادثه بنفسه ، وكان ممن عايشها وشارك فيها بما كتب من الرسائل المتبادلة بين الأمراء .

ولم يبق من هذا التاريخ سوى قطعة صغيرة^(٣)

ويقول المنجى الكعبى : « لا نغلو إذا قلنا إن التاريخ الذى كتبه الرقيق القيروانى كان

(١) راجع في تاريخ حياته مقدمة كتاب المختار من قطب السرور بتحقيق عبد الحفيظ منصور وطبع مؤسسات عبد الكريم

ابن عبد الله سنة ١٩٢٦ م بتونس ولى مقدمة تاريخ أفريقيا بتحقيق المنجى الكعبى نشر تونس ص ٥ ج

(٢) راجع المختار ص ١٤

(٣) قام بنشرها المنجى الكعبى وسبقت الإشارة إليه

يعد أوفى وأشمل ما كتب عن بلاد أفريقية والمغرب ، وما تعاقب فيها من الأحداث منذ مطلع تاريخها الإسلامي إلى القرن الخامس .

وقد نقل عنه واعتمد عليه جماعة من المؤرخين من بعده أمثال ابن عذارى في « البيان المغرب » والنويرى في « نهاية الأرب » ، وابن خلدون في تاريخه الكبير ... وغيرهم وكذلك اعتمد عليه عز الدين بن الأثير كثيرا في تاريخه فيما يتصل بأخبار المغرب وأفريقية حتى القرن الخامس .

ويقول المنجى الكعبى : « ولا نستطيع تكوين فكرة كاملة عن أسلوب الرقيق في تاريخه ، ولا عن المنهج الذى اتبعه في سرد الأخبار وتدوين الحوادث ، واستخدامه للمصادر القديمة ، ولا يمكن لنا كذلك أن نقف على خصائص شخصيته وعقليته كمؤرخ ، وذلك لأن هذه القطعة اليسيرة من تاريخه لا تسمح لنا بفكرة محدودة ، ولا قول فصل في هذه الأمور . وإنما حسبنا أن نتلمس من خلال هذه القطعة (التى قام بنشرها) بعض مايلقى ضوءاً على طريقتة في التاريخ وأسلوبه الكتابى » .

ونورد قطعة من هذا التاريخ لنعرض لطريقتة . قال وقد ذكر بعض حروب عقبة بن نافع بافريقية :

« .. ثم عزم عقبة على الغزو فى سبيل الله ، وترك بالقيروان جنداً من المسلمين ، واستخلف عليها زهير بن قيس ، ودعا أولاده فقال له : إني بعثت نفسى من أجل الله عز وجل ، « ونذرت » أن أجاهد من كفر حتى ألحق بالله ، ولست أدري أترونى بعد يومى هذا أو أراكم ، لأن أملى الموت فى سبيل الله . أو ردى إليكم كما أحب ، ثم قال : « اللهم تقبل منى نفسى فى رضاك » . ومضى فى عسكر عظيم حتى أشرف على مدينة باغاية ، فكانت النصرارى تهرب من طريقه يمينا وشمالاً ، واحتصر صاحب قلعة مجانة فلجأ النصرارى إلى مدينة باغاية ، واجتمعوا بها ، فنزل عليها ، وخرجوا إليه ، فقاتلهم قتالاً شديداً فقتلهم قتلا ذريعا ، وأخذ لهم خيلاً كثيرة ، لم ير المسلمون فى مغازبهم أصلب منها ، وكانت من نتاج جبل أوراس المطل عليها . ودخل بقية الروم حصنهم ، وكره عقبة أن يقيم عليها ، فمضى إلى المسن ، وكانت فى ذلك الوقت من أعظم مدائن الروم ، فلجأ إليها من كان حولها منهم ، وخرجوا إليهم فى عدة وقوة ، فقاتلهم قتالاً شديداً حتى ظن الناس أنه الفناء ، فانهمزوا ، فقاتلهم إلى باب حصنهم فأصاب غنائم كثيرة ، وكره المقام عليها ،

فرحل إلى بلاد الزاب ، فسأل عن أعظم مدينة لهم قدراً فقالوا مدينة يقال لها « أذنة »
ومنها الملك ... وكان حولها ثلاثمائة قرية وكلها عامرة فلما بلغهم أمره لجأوا إلى حصنهم ،
وهرب أغلبهم إلى الجبال والوعر . ونزل واديا بينه وبينها ثلاثة أميال ، فلقوه عند الوادي وقت
المساء ، فكره قتالهم في الليل ، فوقف القوم ليلهم كله ساهرين ، فسماه الناس إلى اليوم
« وادي سهر » . فلما أصبح وصلى أمر بالقتال .

وكانت بينهم حربٌ مارأوا قط ممن حاربوه مثلها حتى يئس المسلمون من أنفسهم ،
فأعطاه الله عز وجل الظفر ، فانهزم القوم . وقتل فيها أكبر فرسان البربر ، فذهب عزهم
من الزاب وذُلُّوا آخر الدهر .

علماء اللغة والأدب :

عرفت مصر في هذا العصر جماعة من علماء اللغة والنحو المرموقين والذين كانت لهم
جهود مذكورة في هذين العلمين ، وخلفوا في ذلك كتباً انتفع بها الناس وتداولوها كما أفادوا
كثيراً ممن أخذ عنهم فنبغ وكان له صيت ، وعلو كعب في اللغة والأدب أو مايتصل بهما .

ومن هؤلاء المرموقين المهلبى : على بن أحمد الذى عاش قدرا من حياته في عصر
الاشيد ، وعاصر مجيء المتنبي إلى مصر أيام كافور ، وامتد به العمر إلى عصر
الفاطميين ، فالتقى بالمعز لدين الله والعزير بالله وصار من جلسائهما .

وكان المهلبى إماما في النحو واللغة ورواية الأخبار وتفسير الأشعار وله كتاب في الرد على
المقصور والممدود لأبن ولاد المصرى وتوفى المهلبى سنة ٣٨٥ هـ في عهد العزيز .

ومنهم : أبو الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ النحوى إمام عصره في هذا العلم . وعُهد
إليه تصحيح رسائل الكتاب في ديوان الإنشاء . وله عدة كتب ، منها شرح على الجمل
للزجاجى ، وشرح كتاب الأصول لابن السراج .

وله موسوعة في النحو عرفت بين النحويين بعده باسم « تعليق الفرقة » في خمس عشرة
مجلداً . وكان يقرئ منها تلاميذه في حلقاته بجامع عمرو بالفسطاط ، وتوارثوها من بعده .

وفي آخر حياته استعفى من العمل بديوان الإنشاء وتزهد وانقطع للعلم والتدريس في
جامع عمرو وتوفى سنة ٤٦٩ هـ

ومن وفد إلى مصر وأقام العالم اللغوي القيرواني أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمي (ت سنة ٤١٤ هـ) وكان في خدمة الخليفة العزيز بالله ووالده من قبله المعز لدين الله ، ويظن أنه وفد معه إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ^(١)

ولد أبو عبد الله محمد بن جعفر بالقيروان في حدود سنة ٣٢٢ هـ ، وتلقى علومه بها ، وكانت آنذاك قسبة دولة الفاطميين بالمغرب وافريقية قبل انتقالهم إلى عاصمتهم الجديدة القاهرة .

وتنقل بين علماء القيروان في مساجدها الجامعة ، كما تردد على دور الكتب وخزائنها التي حرص على اقتنائها بنو الأغلب ثم الفاطميون من بعدهم .

وكانت خزانة بيت الحكمة التي أسسها الأغلبية تمور بنفائس الأسفار وكان الأغلبية قد بذلوا الأموال الطائلة في سبيل اقتناء الكتب من أقاصى البلاد وبأغلى الأثمان^(٢) .

ورحل أبو عبد الله إلى المشرق للتزود بالعلم ، كغيره من علماء المغاربة فقصده بغداد ، والتقى هناك بشيخه الآمدي (ت ٣٧٠ هـ) الذي أخذ عنه علوم اللغة والأدب ، والشعر خاصة .

وكان أبو عبد الله استاذا لكثير من علماء وأدباء عصره في القيروان ، مثل ابن رشيق القيرواني صاحب العمدة الذي أكثر من النقل عنه ، وابن شرف القيرواني وابن الريب الحسين بن محمد التميمي^(٣) .

والتحق القبراز بخدمة المعز لدين الله الفاطمي منذ كان بالقيروان ، وصحبه إلى مصر وقد طلب إليه أن يؤلف له كتاباً في النحو على ما يقترحه عليه ، وظل بمصر على الأرجح حتى تولى العزيز بالله ، فقام بخدمته كذلك . كما عقد المجالس العلمية في الأزهر وغيره .

وربما عاد في عهد الحاكم إلى بلده القيروان ليستأنف جهوده العلمية ، ويأخذ عليه كثير من المشهورين من علماء القيروان وآدبائها آنذاك .

(١) راجع ترجمته الوافية للسجى الكمي في كتابه عنه القبراز القيرواني - حياته وآثاره - طبع الدار التونسية سنة ١٩٦٨

(٢) المصدر نفسه ص ١٨

(٣) المصدر نفسه ص ٢٧ وراجع ترجمته في الامموزج لابن رشيق والذخيرة قسم ١

وظل بها حتى توفي سنة ٤١٢ هـ (١)

وترك من المؤلفات في علوم اللغة والأدب ما عدته ثلاثة عشر كتاباً أو تزيد من أشهرها كتابه في النحو الذى كلفه به المعز لدين الله وهو كتاب في الحروف ، وإعراب الدرهدية وشرحها ، وكتاب المعترض ، والمفترض ، وما يجوز للشاعر في الضرورة ، والجامع في اللغة ، والمثلث ، والعشرات ، والضاد والظاء ، والكلمات الشاكلة الصدر ، وفي الأدب : التعريف والتصريح ، شرح رسالة في البلاغة ، معانى الشعر ، وأدب السلطان . (٢)

وابن القطاع الصقلى على بن جعفر السعدى ، وفد إلى مصر من بلده صقلية في حدود سنة ٥٠٠ هـ عندما أحس بقرب تملك الفرنج لها . واتخذ مصر وطناً له فلقبه المصريون بالحفاوة والتكريم ، وقربه الوزير الأفضل بن بدر الجمالى فصار من خاصته وجعله مؤدباً لولده في علوم العربية وفنون الأدب .

روى عن أبى بكر الصقلى كتاب الجوهري « الصحاح في اللغة » ، واشتهر بروايته بين العلماء وله حواشى على الصحاح اعتمد عليها ابن برى النحوى المصرى فيما تكلم عليه من حواشى الصحاح وله عدة تصانيف في اللغة والأدب منها في اللغة : كتاب الأسماء ، جمع فيه أبنية الأسماء كلها . وكتاب الأفعال هذب فيه أفعال ابن القوطية ، وأفعال ابن طريف وغيرها في ثلاث مجلدات .

وله كتاب « الدرّة الخطيرة » في شعراء الجزيرة أى جزيرة صقلية ، اشتمل على مائة وسبعين شاعراً وعشرين ألف بيت شعر . ونقل عنه العماد الأصبهاني في الخريدة .

وله كتاب في التاريخ عن « تاريخ صقلية »

وتوفى ابن القطاع بالقاهرة سنة ٥١٥ هـ ودفن قرب مقام الإمام الشافعى .

وعرف في مصر من علماء النحو أبو بكر الأدفوى (ت سنة ٣٨٨ هـ) وهو من تلاميذ أبى جعفر النحاس ، ومن أشهر نحاة مصر في زمنه ، وبرع كذلك في علوم القرآن وله كتاب في هذا يقع في مائة وعشرين مجلداً .

(١) ذكره د. محمد كامل حسين أنه تولى بالقاهرة في أدب مصر الفاطمية ص ١١٦

(٢) راجع المصدر السابق ص ٤٤ وما بعدها .

الفنون العمارة والزخارف المعمارية

عرف الفاطميون باهتمامهم بالعمارة ، وبناء القصور والمساجد والمدارس ، وحشدوا لها نابهى الصناع والمهندسين والفنانين ، فجاءت آية في إحكام البناء وجماله وحسن تناسبه وبيدع زخارفه .

تشهد بذلك آثارهم الباقية منها في مدن القيروان والمهدية والمنصورية في تونس ومساجد الأزهر والحاكم ومسجد الأقمر وغيرها كمسجد الصالح بن رزيك بالقاهرة وبدر الجمال بالعطارين بالاسكندرية .

ومن قصورهم بالقيروان وافريقية قصر المنصور الكبير بالمنصورية بناه المنصور والد المعز سنة ٣٣٧ هـ . ووصفه الشاعر علي بن الأيادي المتوفى سنة ٣٦٥ هـ بقوله :

ولما استطلت المجد واستولت العلا	على المجد وامتد الرواق المروث
بنى قبةً للملك في وسط جنة	لها منظر يزهي به الطرف موزن
بمشوقة الساحات أما عراضها	فحضر ، وأما طيرها فهي نطق
تحف بقصر ذي قصور كأنما	تري البحر في أرجائه يتدفق
له بركة للماء ملء فضائه	تخب بقطيرها العيون وتعتق
لها جدول ينصب فيها كأنه	حسام جلاه الفن بالأرض ملصق
لها مجلس قد قام في وسط مايتها	كما قام في فيض الفرات الخورق
كان صفاء الماء فيها حسنه	زجاج صفت أرجاؤه فهو أزرق
إذا بث فيها الليل أشخاص نجمة	رأيت وجوه الزنج بالنار تحرق
وإن صافحت الشمس لاحت كأنها	فرند على تاج المعز وروث

وامتازت قصورهم بمصر بزخارفها وثرأ ما استخدم فيها من الألوان وماء الذهب والأحجار الكريمة أحيانا . وقد عرفت قاعة الذهب أو قصره الذي كان به عرش الخليفة بئر زخارفه ، وكانت حوائطه وسقفه كلها مموهة بالذهب . وكذا ستوره المزركشة بجميل الزخارف وألوان الصور للإنسان والحيوان والنبات .

وفي جامع المهديّة الذي يرتكز مصلاه على أعمدة بينما تتكون بواتكه من عقود مديية الرعوس قائمة على دعائم مبنية ، تلفت النظر منشأة أمامية فخمة على المدخل لم يكن مثالها معروفا قبل ذلك الحين .

وترتبط دور العبادة من المساجد وغيرها في القاهرة بأنماط من الطرز المعمارية المشرقية والمغربية جميعاً ، مزج بينها المعماري الفاطمي في جمال وإبداع ، وتحس بعناصر من جامع ابن طولون الى جانب عناصر أخرى مقتبسة عن جامع عقبة القيروان .

وتبدو في الزخارف التي تعلو مدخل الجامع الأزهر آثار فارسية وكذلك أروقة العقود المديية في المصلى ومنها رواق القبلة . وأما ما يخف بالرواق من أعمدة مزدوجة فلعله متأثر بجامع القيروان .

وكذلك الحال في جامع الحاكم ، بنى على غرار جامع ابن طولون ، وتوجد بماذن الجامع الأقرم زخارف شاعت أنماطها بعد ذلك في العمارات الفاطمية ، مثل جامع الجيوشي والصالح بن رزيك .

يقول الدكتور أحمد موسى :^(١) إن المادة الحجرية التي استعملت بمقادير كثيرة لتزيين واجهات جوامع القاهرة قد عنى بزخرفتها في حالات كثيرة . والظاهر أن التماذج المغربية كانت الأصل الذي اتبع في بادئ الأمر ، ... وهو يشبه أكبر الشبه مثيله المعاصر له في مدينة الزهراء بالأندلس .

وتمتزج في الأشرطة الزخرفية ببعض مساجد القاهرة كمسجد طلائع بن رزيك عناصر زخرفية من الأرابيسك تمتزج فيها الآثار العباسية الشرقية بالآثار المغربية وتوجد في بعضها شرائط ذات قاعدة من زخرفة الأرابيسك عليها خطوط كوفية مزخرفة مريشة ومورقة . لا يمكن إنكار أصلها القرطبي^(٢) .

وقد برع الفاطميون في صنع المحاريب والمنابر الخشبية المزخرفة ، والأبواب الخشبية للجوامع .

(١) الفن الإسلامي ص ٤٩ لأرنست كونل وترجمة الدكتور أحمد موسى — طبع دار صادر بيروت سنة ١٩٦٦

(٢) المصدر نفسه ص ٥٠

وقد برع الفنان الفاطمي في الزخرفة المنحوتة سواء على الخشب أو على الجدران والتي تصور عناصر بشرية وحيوانية ونباتية .

وافتن الفاطميون في تشكيل وزخرفة أدواتهم التي يستخدمونها في حياتهم اليومية في منازلهم وفي أعمالهم ، كما اهتموا بتشكيل وزخرفة الحلّي واشتهرت الآلات والأدوات المصنوعة من العاج ، وقد حفظت لنا بعض المتاحف الاسلامية مجموعة من الأبواق العاجية وصناديق الحلّي تحمل ميزات النحت الفاطمي التي تمثل في رسوم الحيوان داخل دوائر ، ومناظر صيد .

كما امتاز الفنان الفاطمي في صناعة وزخرفة أدوات المائدة كالدوايق والأكواب ، والكؤوس ، والصحاف ، وكلها مصنوعة من البللور النصخري ومجلى برسوم من الحيوان والطير ، وبعض الكتابات .

وقد أشرنا إلى أن الخلفاء كانوا يهدون في بعض المناسبات الصواني عليها صور لمغنين ومغنيات .

ونقلوا التصوير ذا البريق المعدني من الألوان الخزفية الى الزجاج وامتازوا في صناعة بعض الأدوات من البرونز كالشمعدانات ، والمجامر ، والدفوف التي زخرفت بزخارف محفورة على سطحها تشمل كذلك عناصر حيوانية ونباتية .

ومنها صورة على شكل عنقاء محفوظة بأحد المتاحف^(١)

وبرعوا في صناعة الخزف ، واشتهر في الفن الاسلامي « طراز الفسطاط » لما عثر عليه في بعض أماكنها وحفرياتها من نماذج لهذا الفن .

النسيج والملبوسات :

وقد أشرنا الى امتياز مصر منذ قديم الزمان بمنسوجاتها التي اشتهرت بها في العالم القديم والعصور الوسطى والتي عرف منها القباطي والديقمي ، وهي منسوجات غاية في الدقة والزخرفة والمنطرزة بخيوط من الذهب والفضة ، ومنقوش عليها نقوش وصور لعناصر بشرية

(١) الفن الإسلامي ٥٤ - ٥٥

وحيوانية ونباتية .

واشتهرت بها بعض البلاد المصرية التى نسبت إليها ، كما أشرنا من قبل مثل تنيس ودمياط .

وبالغ الفاطميون فى العناية بالملبوسات ، ولهذا فقد أولوا مصانع النسيج جل اهتمامهم ، وهدت المنسوجات الفاطمية من التيل بالغة الجمال . وكان للحياة المترفة التى عاشها الخلفاء الفاطميون ورجال الدولة أثرها فى الاهتمام بالملابس المزخرفة من الثياب والعمائم .

وكان لاهتمامهم بكسوة الكعبة أثر واضح فى المبالغة بزخرفتها بالزخارف والآيات القرآنية ، المذهبة ، والمرصعة على ما أشرنا .

قال المقرئى ذاكراً ما كان يقدم من هدايا فى عيد كسر الخليج . « وقدم بين يدى الخليفة الصوانى الذهبية التى وقع التناهى فيها من أشكال الصور الآدمية والروحشية ، من الفيلة ، والزرافات ونحوها المعمولة من الذهب والفضة .

وذكر المقرئى أن هذه الصوانى بالتمثيل والصور كانت لاتقدم إلى رجال الدين والقضاة توقيراً للشريعة ، بل تقدم الى الخليفة والأمراء^(١) .

وتدل هذه الآثار والأخبار جميعاً على ما بلغه الفنان الفاطمى من درجة فى اتقان فن النحت والتصوير وذكر المقرئى أنهم كانوا يصنعون التماثيل من العنبر وغيره على شكل الفيلة والأنياب من الفضة والعينان من الجواهر كبيرتان وفى كل منهما مسمار ذهب .

يقول :

« ويجلس الخليفة على سرير من خشب نفيس بمتكآت فضة وذهب وعليه عدة رجال ركبان وعليهم اللبوس تشبه الزرديات وعلى رؤوسهم الخوذ وبأيديهم السيوف المجردة والدُّرُق ، وجميع ذلك فضة ، ثم صور السباع منجورة من عود ، وعيناها من يواقيت حمراء .

كذلك اهتموا بالتصوير على السراذقات ، والخيام التى تنصب للخليفة وكانت تزين بصور مناظر الصيد وعليها من الحيوان والانسان والنبات ما يخلب عين الناظر .

وسبق أن عرفنا خيمة لسيف الدولة من هذا النوع جاءت فى وصف أحد الشعراء .

(١) حطط المقرئى ٤٧٩/١

وكذلك كان الحال عند الفاطميين .

ويحتفظ المتحف الاسلامى بالقاهرة بمجموعة فريدة من ألواح الخشب عليها صور بارزة مختلفة يمثل بعضها مجالس للغناء والطرب ، وبعضها مناظر للمنادمة ومعاقرة الشراب . وفي مشاهد أخرى منها ترى أصحاب آلات الإيقاع ، وبين أيديهم العود والبريط ، والرباب ، والدف ، والمزمار ، والمزهر ، إلى غير ذلك من الآلات الموسيقية .

ويرجع تاريخ تلك الألواح إلى القرنين الرابع والخامس من الهجرة . يعنى إلى زمن ازدهار الحضارة الفاطمية في مصر .

ويقول الدكتور زكى محمد حسن عن تلك الألواح^(١) :

« إن تلك الألواح الخشبية كانت مستعملة في تغطية جدار بقصر الخليفة العزيز بن المعز لدين الله ، وهى مناظر منقوشة فيها رسوم مطربين ومطربات ، وعازفات على آلات موسيقية ، وراقصين وراقصات ، ورسم الأمير أو الخليفة جالسا على أريكة وفي يده اليمنى كأس ، وفي اليسرى زهرة ، وعلى رأسه عمامة ، وإلى يساره الساق يصب الخمر في كأس ، وإلى يمينه تابع يقدم إليه صينية ذات غطاء ، المفروض أن تحته شيئا من الطعام أو الحلوى » .

قال حسن حسنى عبد الوهاب (ورقات ٢ ص ٢٠٣) :

« وقد وصلت نماذج من فن التصوير عند الفاطميين ، منها لوح رخامى عثر عليه في بعض انقاض مدينة المهديّة عليه صورة نصف بارزة تمثل شخصين جالسين ، الأول جهة اليمين لأمرى متربع وعليه حلة حرير على زنديها توشيح طراز جميل ، وعلى رأسه تاج مرصع بالأحجار الثمينة ، ويتفرع التاج من أعلاه إلى ثلاثة أفرع مثلثة الشكل على غمط التيجان الكروية عند الفرس وفي وسط الأمير نطاق محلى أيضا بالجوهر ، ويده اليمنى كأس أوجام من البللور ، وبجانب الأمير بالجهة اليسرى صورة مغنية متربعة أيضا ويدها مزمار طويل تنفخ فيه » .

والملاحظ في فن التصوير الفاطمى عدم تخرج الفنان من رسم الأشخاص والحيوان فهل

(١) التصوير عند العرب للدكتور زكى محمد حسن - طبع مصر سنة ١٩٤٢ ص ٢٥٦

كان هذا ترخصاً من الفنان الفاطمي من الناحية الدينية ، أم أن الفاطميين كانوا لا يرون في ذلك حرجاً ، وربما كان الحرج الذي أشار إليه المقرئ في النص الذي أوردناه خاصاً برجال الدين وتوقيع الشريعة راجعاً لأمرين ، الأمر الأول : عزوف بعض شيوخ من مذهب أهل السنة عن مثل هذه الصور واستخدامها في أدوات منازلهم ولباسهم اعتقاداً منهم في تحريم الاسلام أو كراهته للصور معتمدين في ذلك على بعض النصوص والآثار التي قد لاتكون ثابتة أو ربما لم يحسنوا تأويلها .

علماً بأن خلفاء المسلمين منذ عصر الأمويين لم يتحرجوا من تصوير الحيوان والانسان وقد وجدت في بعض قصور الأمويين بالشام صور آدمية فيما كشف عنه من آثارها فضلاً عما تواتر من أخبار قصور العباسيين ببغداد وما كانت تعمر به من تماثيل للحيوان والطيور ، وكذلك نوافير الماء والبرك التي عليها صور الحيوان ، ناهيك عن الأمويين في الاندلس ومن تبعهم من ملوك المسلمين وأمرائهم في قرطبة واشبيلية وغرناطة .

وقد يقال إن الشيعة ترخصوا في هذا التصوير ، ولم يروا فيه حرجاً ، ولا كراهة وربما كان ذلك من أسباب اقبال فناني ايران أو فارس من المسلمين ، وكذلك بعض فناني الهند في العصور الاسلامية المختلفة على التصوير للحيوان والبشر لشيوع مذهب الشيعة بين الفرس منذ قديم الزمان .

يقول حيدر بامات في حديث عن الفن الاسلامي^(١)

« نشأ الفن الاسلامي عن امتزاج طرز الشرق القديم الخاص بالبحر المتوسط . ولم يكد الفن الاسلامي يقوم حتى انتقلت صورته إلى مختلف شعوب دولة الاسلام المترامية الأطراف ، وتنتحلها هذه الشعوب وبكيفية كل واحد منها وفق عبقريته الخاصة ، وما يعانى من المؤثرات الأجنبية .

ويجادل النقاد في أهمية مالفن الجزري أو البيزنطي ، أو القبطي ، أو الفارسي الساساني ، أو الهندي أو المغولي ، أو الصيني من حصة في الفن الإسلامي ، ولكن مع بقاء الأمر القائل بوجود طراز إسلامي يسهل تمييزه بين جميع الطرز . فهذه الوحدة في الطراز تنشأ ،

(١) مجال الإسلام ترجمة عادل رعبتر — الفصل الثاني عشر ص ٤٠٧ وبعدها .

قبل كل شيء عن الوحدة الروحية في المجتمع الاسلامى ، وعن الشعور الخاص الذى أوجبه تعاليم القرآن .

وبما ساعد هذه الوحدة ، وسهل أمرها ما بين شعوب الشرق من تجانس نفسى وما ساد بينها من الصلات الثقافية والتجارية الكثيرة التى دامت حتى فى أدوار الانقسام .

وقد أعان العامل الدينى على منح الفن الإسلامى صبغة روحانية مجردة إلى الغاية ، وما بين جميع شعوب الشرق من أذواق مشتركة حملها على الإمعان فى الزخرفة وحب الأشكال الهيف والكلف بالمواد الثمينة .

وبما وقع غالباً أن عوتبَ القرآن (كذا) على فرضه بتحريم محاكاة الوجوه الحية الى صبغة كثيرة التجريد مما أضفى صبغة ومسحة على الفن الإسلامى . فعرف بتقييده ثم إضعافه حسَّ التصوير المائل لدى الأمم التى دخلت الإسلام . وهكذا يكون الفن الإسلامى قد حصر منذ البداية ضمن رسوم ضيقة ، فما كان فن التصوير وفن النحت ليزدهرا بهذا ازدهاراً طبيعياً . ومن ثم أتيح للمتفنين أن يتمثلوا أزهى ما يكون من المركبات الزخرفية ماخلوا من قدرة على إحياء أشكال حكم عليها أن تبقى بلا حياة .

لايؤيد القرآن هذه القضية الكثيرة الانتشار حتى بين المسلمين . أحل لقد حُجِّد فى إثر الوثنية بشدة . ولكن لا يوجد فى مكان منه — القرآن — حظٌّ صريح لتصوير الموحودات الحية . ويستند نفى صور الإنسان والحيوان الى أحاديث قليلة إلى الغاية ، يمكن أن تنكر صحتها لعدم مطابقتها لنص القرآن وروحه .

الموسيقى والغناء

لقد اهتم العرب والمسلمون بالموسيقى والغناء منذ عصور الإسلام الأولى واشتهر بينهم جماعة من الموسيقيين والمغنين على اختلاف العصور وضرب بهم المثل فى الصنعة ، وتداولت كتب الأدب والتاريخ أخبارهم ، وشاع هذا فى المشرق والمغرب والأندلس على السواء . وكما أن الفن الإسلامى العمارى والتشكيلى قد ظهرت فيه سمات خاصة بالعرب والمسلمين ، واكتسب مع الزمان ملامح جديدة بما أضافه إليه تراث الأمم التى دخلت الإسلام من فرس وهنود ومصريين اقباطٍ ومغاربة وغيرهم وقد أثرت تلك الملامح تيار الموسيقى وأضافت إلى الغناء إضافات عديدة لكنها لم تعدل به عن شخصيته وطابعه الموروث .

وكان الموقف من الموسيقى والغناء كالموقف من بقية الفنون التشكيلية من حيث التشدد أو التسامح والترخص في أنواع منها ، أو جميعها ، وأقام المتشددون والمتسامحون والترخصون حججهم على آثار منقولة لم تثبت بالقطع ، أو لم يفهموا مراميها أو أساءوا تأويلها وحرفوه عن جهته . لكنه لم يثبت في نص قرآني تحريم للغناء ولا الموسيقى ولا السماع .

وربما كان موقف التشدد من بعض المذاهب الاسلامية بخصوص موضوع السماع او الموسيقى والغناء مجرد رد فعل لما شاع في بعض المجتمعات وتحت ظروف بعينها من تطرف في الأداء ومصاحبة الموسيقى والغناء بصور من الخلاعة والمجون أدى ببعض علماء المسلمين إلى سد هذا الباب من باب سد الذرائع مادام هذا سيكون مدخلاً للهو غير المستباح والمتعة المحرمة .^(١)

وقد أشرنا إلى أن الشيعة عامة وقفوا من الفنون جميعها والمتعة الحلال والزينة غير المحرمة بنص قرآني أو حديث صحيح ثابت يرتضونه موقف الإباحة . والأصل في هذه الأمور الإباحة ما لم يرد نص واضح وصريح في التحريم وليس العكس .

وهكذا كان الحال في الدولة الفاطمية ، لم يحرموا المتعة والزينة ، حتى بالغ الناس فيها ، كما بالغ بعض الخلفاء ، والناس على دين ملوكهم ، وأحدث الفاطميون مناسبات كثيرة جعلوها مواسم للفرحة والبهجة والموسيقى وسماع الغناء .

ومر بنا في الحديث عن الحياة الاجتماعية صور من تلك الاحتفالات . وعرفنا كيف كان الخلفاء يهتمون بالموسيقى وسماع الغناء في قصورهم . ويحرصون على اقتناء الجوارى المغنيات ، ويدفعون فيهن أثماناً غالية ، كما كانوا يجزلون العطاء للمغنين والموسيقيين . واشتهر الأمير تميم بن المعز بحبه للسماع ، حتى إنه كان يؤلف الشعر ليتغنى به بعض جواريه . ويحرص على اقتناء المغنيات من كل مكان ، وقد دفع مبلغاً كبيراً من المال لشراء قينة مغنية من بغداد ، ثم جاءت إلى مصر ولم يدم بقاؤها في قصر الأمير حتى عاودها الحنين إلى بلدها فأعادها ، وانتابه بعدها الحزن لفراقها .

وعرف « برجوان » الذي كان من كبار أعوان العزيز بالله ثم صار وصياً على ابنه الحاكم

(١) راجع ما ذكره ابن عبد ربه في موضوع تحريم النساء وتخليله بالعقد النهدي ١٧٨/٣ ونقله فارسي من ٣٧ وما بعدها ترجمة حسين نصر

من بعده بحبه للموسيقى وشغفه بالغناء حتى إن ذلك شغله عن مهام الدولة كما يقول المؤرخون .

وكان القرن الرابع الذي ظهر فيه الفاطميون بأفريقية ومصر عصر ازدهار للموسيقى والغناء فقد كان البيهقيون في المشرق والمغرب ممن يعشقون هذه النغمة ، واشتهر بهذا العشق جماعة من سلاطين البيهقيين — الشيعة — كعضد الدولة ، وبهاء الدولة .

كما اهتم الحمدانيون في حلب بالموسيقى والغناء ، ونشأ في بلاطهم الفارابي الذي وضع كتابا في الموسيقى ، وكذلك فعل ابن سينا من بعده في دولة البيهقيين ، كما جمع أبو الفرج الأصبهاني كتاباً في الأغاني والموسيقى يعد مرجعاً هاماً على مدى التاريخ لهذين الفنين .

وكذلك كان الحال في مصر في عهد الفاطميين ، وتعرف أن الوزير المغربي الحسين بن علي والذي وزر أبوه للحاكم قد جمع كثيراً من الأغاني في كتاب (١) .

ويقول العلامة التونسي حسن حسني عبد الوهاب (٢) :

« إن الموسيقى وفنون التلحين كانا من أجل اهتمامات الفاطميين في مرحلة ملكهم بالمغرب وظلوا عليه حين ذهبوا إلى مصر » قال : « وقد اعتنى بشأنه الملوك الفواطم مدة اقامتهم بأفريقية عناية خاصة ، وساعد على ذلك — فيما نظن — انتسابهم الى النحلة الشيعية التي لم تكن تر بأساً في السماع للإيقاع ، كما لم تقل بتحريم التصوير بل إنها كانت تجوز تمثيل الأحياء من آدميين وحيوان في صورة بارزة منحوتة من الرخام والنحاس ، أو مرسومة بالأدهان على الجدران والمنسوجات والبسط تمثيلاً واقعياً أو خيالياً متقناً » .

ويقول : إن الصلات بين تونس ومصر الفاطمية كانت قوية لأن الفاطميين كانوا خلفاء أفريقيا ويدين لهم أمراء صنهاجة بالولاء (٣) .

وأشار النديم ابن الرقيق إلى اهتمام الناس في القيروان بالموسيقى والغناء فيما رواه عن الحاجب عبد الوهاب أحد رجال أمراء صنهاجة المرموقين بالقيروان فقال : « كان

(١) راجع تاريخ الموسيقى العربية د. هـ.ج. فارس ترجمة حسين نصار من سلسلة ألف كتاب رقم (٧) — طبع مكتبة مصر بالقاهرة سنة ١٩٥٦ م

(٢) وراقت عن الحضارة العربية بأفريقية ٢/٢٠٣

(٣) المصدر نفسه ٢/٢٠٨

حاجب الدولة في مدة المنصور بن زهري والى القيروان من قبل المعز لدين الله وابنه العزيز . قال : « وهو من ادركته وعاشرته ، وذكرته هاهنا لأنه يلحق بالأمرء المتقدمين غير خارج عنهم ... وكان قد قطع عمره وأفنى دهره في اللهو واللعب والفكاهة والطرب ، وهو أعلم الناس بضرب العود واختلاف طرائقه ، وصنعة اللحون . كثيرا ما يقول الأبيات الحسنة في المعاني اللطيفة ويصوغ عليها الألحان المطربة البديعة المعجبة اختراعاً منه وخذقاً . وكانت له في ذلك قريحة وطبع .

فكان إذا لم يزره أحد من إخوانه حضر مائدته وشرا به عشرة من أهل بيته .. وبعض غلماناه . وكل هؤلاء يغنون ويحيدون ، فلا يزالون يغنون بين يديه حتى يطرب ، فيدعو بالعود ويغنى لنفسه ولهم . وكان بشارة الزايمر يميزُ عليه — وهو من حذاق زمرة المشرق ، وكان بعيد الهممة سمحاً . »

ويقول انه كان يرحب بكل من كانت له في صنعة الغناء حنكة ، أو كان له صوت مطرب أو حكاية نادرة . ودخل عليه أحد الطارقين ممن يحسن الغناء ، فرحب به ، ودار الغناء في المجلس كالعادة حتى انتهى الى هذا الطارق الغريب ، فسكتوا واندفع الرجل يغنى بصوت ندى وطبع حسن :

ألا ياديسار ما الهجسُرُ لسكّانِك من ثنائِي
ولو شئت لما استسقيت ث غيشاً غير أجفانِي
وما الدهر بأمسون على تشئت خلالي

فطرب عبد الوهاب وصاح ، وتبين الخذق في إشارته ، والطيب في طبعه ، فقال : ياغلام خذ بيده إلى الحمام وعجل عليّ به ، فأدخل الحمام ونظف ، ثم دعا عبد الوهاب بخلعة من ثيابه فألقيت عليه ، ودفعه فأجلسه عن يساره ، وأقبل عليه وبسطه فغنى له :

قومي اسرجى التبر باللجيين واحملى الرطل باليديين
واغتصمى غفلة الليالي فرما أيقظنني لحيني
لقد لعمري أقسرُ منا هلال سؤال كل عين
ذات الخلاخيل أبصرته كصيف خلخالها اللجين

فطرب ، وشرب ، واستزاده ، فغناه ، فمر يوم من أحسن الأيام وأطيبها ، ووصله ، وأحسن

اليه ، ولم يزل عنده مقرباً مكرماً»^(١)

ومن أشهر آلات الموسيقى في ذلك العصر والتي ورد ذكرها في الأخبار العود والمزمار ،
والطنبور ، والصنوج ، والدّف^(٢) .

(١) المختار من قطب السرور للرفيق .
(٢) راجع تاريخ الموسيقى العربية ص ١٨٢/١٨٤

الباب الرابع النشر الكتابة والكتّاب

فنون النثر
الخطابة
الكتابة
الرسائل والسجلات
المؤلفات الأدبية — السير الذاتية — الرحلات
الدراسات والنقد
أشهر الكتّاب الفاطميين

الأدب الفاطمي بشتي صورته النثرية والشعرية صورة لتلك الحيات السياسية والاجتماعية والفكرية والفنية ، تتجلى فيه عناصرها جميعا ، والتي أضنا في ذكر بعضها وأوجزنا في ذكر بعضها الآخر حسب مأمدتنا به مصادر العصر التي لمسنا فيها شحاً ملحوظا لأسباب أشرنا إليها في حينه .

والظاهرة التي ينبغي أن لا تغرب عن بالنا في هذا الأدب بصفة عامة تتمثل في عدة عناصر ، كلها كانت آثاراً للبيئة ، وما ساد فيها من أحداث وأحوال سواء في دنيا السياسة والملك والحرب والصلح والصراع على السلطة بين الدول أو بين الأفراد ، والجماعات ، والقبائل والأصقاع على اختلاف انتماءاتها العرقية والإقليمية ، أو في دنيا الحياة ، والسلوك والتقاليد ، ورفاهة العيش ونعمته ويسره ، وسعاداته وبلهنيته ، أو عبوسه ، ونكباته ، ووحشته ، وبؤسه ، أو في الفكر والثقافة والفن ، وما سادها جميعاً من تيارات نابغة مما استحدثت في هذه الدولة من قيم دينية وعقلية ، وجرأة في مناقشة بعض الثوابت الدينية في حرية ، على ضوء العقل والمقاييس العلمية ، وما صاحب هذا كله في دنيا الفن من تحرر في القيم الفنية أيضا واعتماد المضمون دون الشكل وحده ، مع عدم إهمال هذا الشكل الذي يكسب الأعمال الفنية قبولاً لدى الحسّ ، يلذ له ، ويرتاح .

كان الأدب إذاً صورة لهذا كله ، وقد تنوعت أساليبه ، وأشكاله وإن ظل في صورته العامة على ماجرت به أقلام الأدباء والكتاب ، أو تحدثت به وانطلقت ألسنة الخطباء والمحدثين ، أو جادت به وتغنت قرائح الشعراء والمنشدين .

وتتناول في أول عرضنا لفنون الأدب في العصر « النثر » بكل أشكاله الخطابية ، والرسائل والسجلات ، والكتب الأدبية ، والسير والسير الذاتية والدراسات الأدبية والنقدية .

وتنوعت بيئات الأدب في بلاد الدولة من المغرب إلى المشرق ، وكانت أهم بيئاته وأكثرها عطاءً ونشاطاً مصر والقاهرة ، والقيروان وأفريقية والشام وبخاصة في عواصمها دمشق وحلب ، والجزيرة الموصل ، وميفارقين ، والحجاز ، واليمن .

وكانت حاضرة الدولة الأولى « القيروان » وما يتصل بها من المدن التي أنشأها الفاطميون كالمهدية والمنصورية مركز النشاط الأدبي والفكري في الدولة ، ثم انتقل هذا

المركز بعد انتقال سلطة الخلافة إلى القاهرة . وظلت مع ذلك القيروان مركز إشعاع وعطاء مستمر وتبادل بينها ومركز الخلافة الجديد في مصر والقاهرة .

الخطابة

كانت الخطابة الدينية هي السائدة في العصر ، ومعظمها في مناسبات يوم الجمعة ، والعيدين ، وقد يخطب الخلفاء الأئمة الفاطميون في مناسبات أخرى كما فعل المعز لدين الله الفاطمي عند وفاة أبيه المنصور . وكان قد كتب خبر وفاته . قال صاحب عيون الأخبار^(١) :

« وكتب أمير المؤمنين المعز لدين الله عليه السلام وفاة والده المنصور صلوات الله عليهما من آخر شهر شوال يوم وفاته إلى عاشر ذى الحجة يوم النحر ، وقد خرج لصلاة العيد ، وعليه شعار السكينة ، وهيبة الإمامة ، فصلى صلاة العيد ثم ارتقى المنبر وخطب خطبته التي أظهر فيها وفاة أمير المؤمنين المنصور بالله . عليه السلام فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، والله أكبر ، الأعز الأقدر الخالق ، المدير ، ذو الكبرياء والجبروت ، والعزة والملكوت ، الأحد ، الصمد ، الفرد المنفرد ، الأعلى القاهر ، الباطن الظاهر ، الأول الآخر مبدع السماوات والأرض بالقدرة ، ومالكها بالعزة ، ومدبرها بالحكمة ، وخالقها بما فيها من عجائب الفطرة ، وبدائع التركيب والصنعة ، الذي كل شيء من موات وحى ناطق بالدعاء له ، والدلالة عليه والشهادة له بالتوحيد والتعظيم والتمجيد . فتكوينه الأشياء كلها من عدم شاهد بأن لا شيء قبله ، وانتهاؤها إلى الغايات دليل على ألا غاية له . واحاطته بخدودها منبىء بأن لا حد له . فالضعف والعجز ، والفقر والنقص الذي لم يخل منه مخلوق أفصح ناطق وأصدق شاهد للمخالق وحده جل ثناؤه بالإلهية والفردانية ، والقدرة والربوبية ، واتمام والكمال ، والأزل ، والدوام . تبارك الله رب العالمين أحسن كل شيء خلقه ، وتكفل لكل حي رزقه ، ثم هدى بالعقل الذي قامت به حجته ، ووجبت طاعته ، والكتب والرسل الذي تمت بهم حكمته . فصلّى الله عليهم أجمعين ، وعلى محمد سيد المرسلين الذي رفع

(١) عيون الأخبار ص ٢٤ .

ذكره ، وأعلى قدره ، فكّرمه بالوسيلة ، واختصه بكل فضيلة ، وابتعثه هادياً للعباد ، ونوراً في البلاد علّم به من الجهل وهدى به من الضلّ ، وكثر به القلّ ، وأعز به من الذلّ ، فألف به بعد الشتات ، ونور به دياجير الظلمات . صلوات الله عليه وعلى آله المهدين . الأخيار الطيبين .

يأيتها الناس . إن الله لم يخلقكم عبثاً ، ولم يهملكم سدى ، ولم يجعل عليكم في الدين حرجاً ، ولم يضرب الذكر عنكم صفحاً ، للعبادة خلقكم ، وبطاعته وطاعة رسوله أمركم ، وجعل للطاعة أعلاماً منصوبة ، وفروضا مكتوبة . ومن أفضل أعلامها ، وأكرم أيامها يوم الحج الأكبر إلى البيت العتيق مَبَوًى إبراهيم خليل الله عليه السلام ، وقبلة محمد رسول الله ﷺ . فتقربوا إلى الله بما أمركم به ، ورزقكم إياه من بهيمة الأنعام ، مقتدين لنبيه محمد نبي الرحمة والهدى ، مستشعرين لله التقوى . فإن الله عز وجل يقول : ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوي منكم ﴾ فبالتقوي تقبل الأعمال ، ويدرك الأمل .

وكبروا الله على ماهداكم ، واشكروه على ما أولاكم ، ألا وإن خير الهدي الإبل وخير الإبل إنائها ، وكذلك من البقر ، ثم الفحول من الضأن . وسلامة الضحايا سلامة العين والأذن ، وأن تكون من حلال الأموال .

نسأل الله لنا ولكم قبول العمل بامتثانه ، وبلوغ الأمل من رضوانه ورحمته وإحسانه .

ثم جلس جلسة خفيفة وقام للخطبة الثانية فقال :

الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، والله أكبر الله أكبر شأننا وأعظم سلطاناً وأوضح آيات وبرهاناً عن أن تنكر العقول توحيده ، أو تروم تحديده خالق السماوات والأرض ، ومالكها ومُدبّرُها الفردُ الصمد ، الواحدُ الأحد الذي لا شريك له ولا ولد الخالق القدير ، الرحمن الغفور ، النافذ قضاؤه ، الكائن مايشاؤه ، المتقن كل شيء صنعا ، الواسع كل شيء رزقا ، والمحيط بكل شيء علما .

أحمده وأستعينه ، واستغفره ، واستهديه . وأفوض إليه ، وأتوكّل في كل الأمور عليه .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده ، لا شريك له ، وأن محمداً خيرته من عباده ونجيه من بريته ، وصفوته من المتطهرين ، ورسوله إلى كافة العالمين ، وبعيته بالإمامة إلى الثقلين ليبلغ حجة الرب ، ويوضح محجة الحق . فأدى رسالة الله ، ورحم ورأف بعباد الله ، وصبر على الكبار من مكر الكفار . إلى أن أدال الله للحق على الباطل ، والهدى على الأحفائل ، محمد ﷺ وآله أفضل الصلاة وأزكاها وأتمها وأكملها وأتمها ، وأخلدها وأبقاها .. وعلى الأئمة من عترته المهديين الكرام الأبرار الذين اختارهم الله للخلافة ، وارتضاهم للإمامة . وأكد بوصية الرسل حججهم ، وأوجب في التنزيل طاعتهم ، بعد تفضيله إياهم على العالمين بأبوة محمد سيد المرسلين . وعلى أفضل الوحيين ، وعلى أمه سيدة النساء ، وخامسة أصحاب الكساء صلى الله عليهم أجمعين ، وعلى أمير المؤمنين المهدي بالله ، والقائم بأمر الله ، سيّدئ الوورى ، وإمامى الهدى اللذين أعلن الله بهما دعوة الحق ، وأنطق بهما الإيمان والمؤمنين ، وأقام بهما مغالم الدين ، وأزهق بحقهما باطل المدعين ، وأكاذيب المتخرسين ، وقطع بسيوفهما دابر الظالمين .

صلوات الله ورحمته ، وبركاته ورضوانه ونحياته عليهما . اللهم أخصص الإمام الفاضل والوصى العادل ، والبرّ الفاضل والغيث الوابل ، ذا الآيات الباهرات ، والمعجزات النافذات الباذل نفسه الكريمة في حين الأزل والكربات ، الصابر في البساء والضراء حتى طهر الأرض من جبابرة الأعداء ، عبّدك ووليك ونحيك وصفيك ، أبا طاهر المنصور بك ، والمتوكل عليك والمقروض إليك ، العامل بما يرضيك ، ويقرب إليك ، ويؤلف لديق ، الذى فجعتنا بفقده ، وأوحدتنا من بعده ، وأفردتنا منه ، وأوحشتنا ، فقلبت دُعائه ، وأجبت ندائه ، وجمعت بينه وبين أحبته في مستقر جنتك وسعة رحمتك .

وإت القلق وشدة الحرق عليك ياأبتاه ، ياسيداه ، ياسماعيلاه ، ياأبا الطاهراه ياخبر علوم الأئمة الطاهرين ، الهداية المهديين ، يابقية أبناء الرسول ، وأولاد الوصى الطاهرة البتول . ياإمام الأئمة ، ومفتاح باب الرحمة . ياسراج الهدى ، وشمس الوورى ، ياخصوصا من الله بتعجيل الكرامة ،

عظم والله علينا المصاب بك ، وحلّ البلاء ، وعدم الغزاء لفقدك ، وقصرت لألسن عن إدراك إحصاء فضائلك ، وتعداد مناقبك .

فو الذي اختصك بكرامته ، وحماك بمجزيل عطاياه ، وشرَّفَكَ بأبوه رسولهُ ، لولا ما أوعزت إليَّ به ، وأكَّدَ عليَّ من القيام بحقِّ الله ، والدَّبَّ عن أمة جدِّكَ رسول الله ﷺ ، واستنقاذهم من غمرة الجهالة ، وبحار الضلالة ، ومهاوى الفتن ، ومعاطب المحن . وما تقرر عندي ، ورسخ في صدري من الجزاء بمقدار الوفاء لله ولرسوله ، ولأئمة الهدى لصرَّبْتُ على وجهي سائحاً في البلاد ، قالياً للمهاد ، راضياً ببلغه من الزاد إلى أن يلحقني سريعاً بك فأفوز بقربك ورحمة ربك . لكنني فكرتُ ، ونظرْتُ وتدبَّرتُ ، فلم أر لي وجهاً استوجبُ به درجتك واللاحاق بشرفك سوى الصبر والاحتساب ، فتجلَّدْتُ ، وصبرني ربِّي فصبرت ، وغلب عليَّ النبيُّ فأمسكْتُ ، فأقولُ إنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العليُّ العظيم الرحمن الرحيم ، له الحمد على ما أبلى والشكر على ما أولى .

معاشرَ أوليائنا ، والقائلين بطاعتنا ، والتمسكين بولايتنا هذه والله المحن الشداد والمنضجة للأكباد ، هذه الزلازل العظام التي لا تثبت لها الأقدام . هذه المشاهد التي لم يَأْكُمُ ائمتكم لها تثبيتاً ، ولم تنزل راغبة إلى الله في تثبيت أقدامكم ، وعصمة قلوبكم عند حلولها بكم ووقوع المحنة فيها عليكم . فثبتوا تسلّموا ، ولا تضلُّوا لتندموا ، فلن يخلى الله أرضه وعصره في كل زمانٍ من قائم الله بالحق ، شاهدٍ على الخلق ، يقرُّ به المؤمنون ، ويجهده الكافرون الضالون الأخرسون ، إن الله بحمده خالق الخلق من غير حاجة كانت منه إليهم ، لكن لعبادته وإظهار فضله وجوده عليهم . وجعل الحياة فيهم قوة عاملة ، والموت كأساً دائرة . وما بعد الموت جزاء للعمل ، وبين لهم بين هذين نهج السبيل برسلة المنتجبين ، وبأئمة الهدى المختارين . وجعل ثوابهم وحظهم على مقدار بلاغهم وقيامهم ، واضطلاعهم بأمره وإرشاد خلقه . وجعل بينهم درجاتٍ في الفضل فقال جل ثناؤه ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالمٌ لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ، ذلك هو الفضل الكبير ﴾ . تبارك الله ربُّ العالمين الذي لم يرض بالدنيا ثواباً للمؤمنين ، ولا عقاباً للكافرين .

يأيتها الناس ! ما من حيٍّ إلا وهو رهينٌ بالموت ، ولا موتٌ إلا وبعده نُشور ، ولا نُشورٌ إلا بحساب ، فتوابٌ أو عقاب ، فطوبى لمن يتقى الله متمسكاً بحجزة أوليائه ، معتصماً بعصمتهم ، قائماً بلوازم الطاعة المفترضة عليهم بحججه وأصفيائه ، متفيعاً بظلال ألوية عترة رسوله محمد سيد المرسلين ، يوم لا ينجي إلا الدين ، ولا ينفع إلا

صحة اليقين . ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ، ويحذركم الله نفسه ، والله رعوف بالعباد ﴾ .

يأتيها الناس إنما الأعمال بخواتمها ، والجزاء من الله بحسب الوفاء لله ولرسوله ، ولأئمة الهدى من ذرية الرسول . وقد شاهدتم سيد الأئمة ، وراعى الأمة ، وسراج الدجنة في مواطن ومشاهد قضى فيها فرض ربه عليه ، وأدى وديعة جده محمد لديه . وبين لكم من سنته ما أن اقتديتم به لن تضلوا ، ولن تبت أيديكم من رحمة الله . ولن تعشو أبصاركم عن قصد السبيل الأقوم ، واتمسك بالدليل الأعظم ، وما من ولي سالف إلا وبعده وصي خالف ، قائم لله بحقه ، منجز ثوابه ، عامل بما يرضيه حسب طاقته ، ومنتهى استطاعته . ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ولا يرتضى للقيام بدينه وهداية خلقه ، ورعاية أمة نبيه إلا الأفاضل الأجداد . ذوى اصمم العالية ، والأخلاق الرضية ، والنفوس الأبية من خالص الذرية .

وقد جرت سنة الله في خلقه ، ونفذ في حكمه ما لا يستطيع له ححد . ولا للقول به رد . من مواصلة الرسل لتبين السبيل في الزمان بعد الزمان ، وإعلان دينه حسب الإمكان . وأرجب للعباد الثواب بطاعتهم ، وإجابة دعوتهم ، وقبول هدايتهم ، والعقاب باسخطهم وجحدهم وإنكارهم وليس المؤمن بأولهم جاحداً لآخرهم ، ولا ينفع جاحداً أولهم تصديق آخرهم للثواب والرحمة . من العذاب الأليم ، والحزى العظيم ، وقد قرن الله طاعته أئمة الهدى بطاعة الرسل ، طاعة الرسل بطاعته قال الله تعالى : ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾ كذلك جرت عادته في الأنبياء والأوصياء ﴿ لن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ و ﴿ ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴾ . وهل لمقر نبوة موسى ورسالة عيسى عليهما السلام حاجة بتفضيل محمد سيد النبيين وخاتم المرسلين إذا أنكر نبوته ؟ . وهل له انتفاع بأعماله أو ثواب لعبادته ؟ .

النور أيها الناس فينا مصون ، وعطاء ربكم لنا غير ممنون ، فأين تذهبون ، وفي أى أرض تتيهون هيهات ، هيهات لما ترعدون . فأطيعونا تهتدوا ، وتمسكوا بحبلنا ترشدوا ، واعملوا بما تفوزون في أخراكم تسعدوا ، ولا تجعلوا أكثر همكم دنباكم ، فإن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أبا الأئمة المهديين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين قال : « إن الله أحل حلالاً وأحرم حراماً وأغنى عنه » .

فدعوا ماقلّ لما كثر ، وما ضاق لما اتسع ، فقد أمركم بالعمل ، وتكفل لكم بالرزق ، فلا يكون طلب المضمون لكم أولى من طلب المفروض عليكم .

اللهم أوزعني شكر نعمتك ، ووقفني لما يرضيك ويقرب إليك ، ويوجب المزيد من فضلك والذخر عندك بإتمام نعمتك عليّ في الدنيا والآخرة .

إله الخلق ! ربّ العالمين ، اللهم أيدني بنصرك ، وافتح لي على أعدائك فتحا مينا تحيي به الدين ، وتعز به ملة محمد سيد المرسلين . وارزقنا زيارة قبره ، والارتقاء على منبره ، وحلول داره عليه السلام . وقضاء الحج إلى بيتك الحرام ، والوقوف بتلك المشاهد العظام بريائتنا ، وقد جددت لنا العز ولأوليائنا ، وقد أيدتنا وإياهم بالنصر ، وأكرمتنا بالظفر وأظهرتنا على القوم الظالمين ، وأخضعت لنا رقاب العاصين ، وقد تقدم منك الميعاد للآباء والأجداد ، ولا خلف لوعدك ، ولا رادّ لأمرك ، والرضا والتسلي بما قضيت ، عجّلت أو أجلت .

اللهم اجعل ما قنعت به من إحسانك ، وما تجدد لي من فضلك ونعمتك عليّ وعلى العباد رحمة منك . اللهم واقرن بكل عزّ تجده لي ذلاً تسكنه قلبي لعظمتك وجلالك وهيبتك فلا عزّ إلا في الخضوع والعبودية لك ، ولا غنى إلا في الفقر إليك ، ولا أمن إلا في خوفك ولا سعادة في الدنيا والآخرة إلا برضاك ياربّ العالمين .

اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، الأحياء منهم والأموات واخصص أولياء دولتنا ، وأنصار دعوتنا المجاهدين الصابرين الشاكرين من رحمتك بما استوجبه من طاعتك ، وقضاء فرضك ، وموالة أوليائك ، ومعاداة أعدائك ، وصلى الله على محمد سيد المرسلين في الأولين والآخرين .

اذكروا الله العظيم يذكركم ، واستغفروا الله لي ولكم ، وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله . » .

وهذه الخطبة في صورتها العامة مثال لخطب الجمعة والأعياد ، بما انقسمت إليه من جزئين أو خطبتين ، الأولى والثانية ، وتعتبر الأولى افتتاحية وعظية يناقش فيها الخطيب قضايا دينية عامة ، ويسوق بعض الآيات والأحاديث في موضوع الايمان والتوحيد والتمسك بأسباب الدين عامة .

وأما الخطبة الثانية فهي الرئيسية الأطول نسبياً ، فيها يعرض الخطيب موضوعاً يسهب فيه ويؤيده بأسانيد القرآن والحديث وأقوال الأئمة المذكورين . وقد كان موضوع خطبة المعز هنا وفاة والده المنصور ، وقد بدأ برثائه والترحم عليه ، وطلب الرضا من الله ، وإلحاقه به في مكانه من ربه . ثم عرض لموضوع خلافته ، وتناول موضوع الوصية والولاية عامة ، ومكانة أولياء الله وأوصيائه ، وضرورة الطاعة للإمام المختار والوصي فقد فرض الله الطاعة على عباده لنفسه ورسوله ثم للإمام . وبدأ يعرض مبادئ دعوة الفاطميين وكيف أنهم أحق الناس بولاية أمر المؤمنين والدفاع عن دين الله ضد أعداء الله وأعداء دينه ، وأنه من يتمسك بالطاعة لهم فله الجزاء الأوفى ، وأن من يخذلهم ويعرض عنهم فله الخزي الدائم .

وتعرض الخطبة كالعادة هذه القضايا الدينية العامة التي لا يختلف حولها المسلمون ، ويورد آيات من القرآن الكريم ، والحديث ويبدأ الخطبة وينتجها بأدعية مأثورة محفوظة تتردد دائماً في خطب الجمعة ولا يزال أئمة المساجد يلقونها على أسماع المصلين كل يوم جمعة .

والملاحظ أن الخطبة من حيث البناء الفني مسجوعة ، لكنها لا تلتزم السجع بل يأتي السجع خلالها لتأكيد بعض المعاني والتركيز عليها لدى السامع حتى يردف تردد الصوت ، تكرار المعنى بصور مختلفة من اللفظ .

والفقرات متراوحة بين الطول والقصر ، فهي تقصر حين يريد التأثير في السامع بنبض سريع الايقاع متتابع السجعات ، وتطول الفقرات حين يريد الشرح والبطء والتراخي في عرض الموضوع أو المعنى الذي يتناوله .

وجدير بالذكر أنه يركز على أهمية العقل ، وأنه نعمة الله الكبرى . يقول في خطبته الأولى : « وتكفل لكل حي رزقه ، ثم هدى بالعقل الذي قامت حجته ووجبت طاعته ، والكتب والرسول الذين تمت بهم حكيمته . » .

ولما كانت الخطبة بمناسبة عيد الأضحى فقد أشار كمادة كل خطيب في خطبة هذا العيد أن يبين للناس سنتهم في النحر والاقتداء بسنة نبيهم في الأضحى والهدى . ونراه يعلن أن أفضل الهدى الإبل . ثم البقر .

والملاحظ كذلك أن هذه السنة اقتداء بفداء إبراهيم لإسماعيل بكبش على أرجح القول وعلى ما درج عليه معظم الناس ، فلم يجعل الكباش إلا في المرتبة الثالثة من الهدى . وقد طبق الخلفاء هذا في حياتهم ، فكانوا يفدون بالإبل ، يذبحونها بعد صلاة العيد ، ثم يذبحون البقر والضأن بعد ذلك إذا شاءوا ثانی أيام العيد أو في اليوم نفسه بعد ذبح الإبل .

ربما لأن الله قد كرم الإبل في القرآن بذكرها في أكثر من موضع ، ولما كان لها في نفوس الرب من مكانة عظيمة ، وكانوا يقدمونها قرى لمن يكرمون ، ويريدون الزيادة في إكرامه .

ولما كانت الضحية قرباناً لله ، وزلقى ، فقد كانت أفضل ما يتقربون به إلى الخالق سبحانه .

وللخلفاء الآخرين خطب كذلك في المناسبات ، نكتفى بإيراد هذه الخطبة نموذجاً لخطبهم ، ونعرض بعد ذلك نموذجاً لسجلاتهم أو منشوراتهم للناس عامة أو لأشخاص بأعينهم .

الكتابة

(١) السجلات

وتعد السجلات الفاطمية نوعاً من الرسائل الديوانية التي يعالج فيها الخلفاء بعض الأمور الإدارية الخاصة بالدولة عامة أو رجالها كتقليد ولاية أو حسبة أو نقابة أشرف وما إلى ذلك أصدره وكان يتولى صياغة هذه السجلات كبير الكتاب في ديوان الإنشاء غالباً . فمن أمثلة تلك السجلات العامة ما أصدره الحاكّم بمنااسبة معه من سبّ السلف من الصحابة وبخاصة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما بعد ماشاع ذلك من بعض العوام في العاصمة .

« بسم الله الرحمن الرحيم »

من عبد الله ووليه أبى على الحاكّم بأمر الله أمير المؤمنين إلى كل حاضر وباد .
أما بعد .

فإن أمير المؤمنين يتلو عليكم آية من كتاب الله المين . « لا إكراه في الدين » .

مضى أمس بما فيه ، وجاء اليوم بما يقتضيه الصلاح ، والإصلاح بين الناس أصلح والفساد والإفساد بينهم مستقبح إلا من شهد الشهادتين أحق أن لاتنكف له عروة ولا توهن له قوة بحى على خير العمل يؤذن المؤذنون أولاً يؤذنون ، ويخمس الخمسون ويربع المربعون في الصلاة على الجنائز . ولا يعترض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ولا يشتم السلف ، ولا يتبغى المخالف على من قبله خلف . تلك أمة قد نخلت لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت ، ولكم ما كسبتم ، ولا تُسألون عما كانوا يعملون .

معشر المؤمنين

نحن الأئمة وأنتم الأمة .. عليكم أنفسكم ، لا يجيركم من عسل إذا أهتديتم . إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون .

والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على رسوله سيدنا محمد وآله الأكرمين . « .

ومنه السجل الذى أصدره الظاهر بن الحاكم وقرأه على الناس أحد رجاله (١) :

« إن أمير المؤمنين بفضله العادل ، وأمره الفاضل ، وحسن نظره الشامل يحفظ نظام حدوده بعداً وقربا ، ويراعي أحوال رعيته شرقاً وغرباً ، ويعتمد مصالحهم بضروب من السياسة تقضي بالصلاح في تديريهم ، وتفضى إلى الإصلاح في إمالة كبيرهم وصغيرهم ، فتكشف بملودها الغم ، وتعتبر بموقعها الأمم ، وتتوكل بتوخي الحق فيها الأواصر والرّحم، كذلك عرفاتُ الإمامة واقعةٌ مواقع السداد ، جامعة لمصالح العباد ، قاضية بمراشد الأمور في الإصدار والإيراد . وما توفيق أمير المؤمنين فيما يبسط ويقبض ، ويرم وينقض إلا بالله . عليه يتوكل ، وإليه ينسب .

وإنه انتهى إلى الحضرة حال جماعة من أوغاد الأرياف ، وأوباش الأطراف ، يأتون العظام ، ويرتكبون الجرائم ، ويحتقون المآثم ، وينتسبون إلى خيرة القبائل ، وبررة الأمائل الذين ميزهم الله في دولتنا بالسوابق الصالحات ، وحماهم بعصمة طاعتنا عن البوائق المحرمات ، للاحتواء بهم والالتجاء إليهم متى وقع من الولاة جدّ في طلبهم . وأن هؤلاء الرعاة بجنبايتهم الفارطة ، وأحكامهم القاسطة لايزالون يدخلون على أنفسهم ضرا بما يصدر من القبائح عنهم ، ويرزون بأفعالهم الذميمة فساداً ومنكراً يؤدي إلى قتل من يقتل منهم ، فيجد بمستفزع أحداثهم السفهاء في الباطل وصلاً ، والجهلاء في التوصل إلى إثارة الفتنة مجالاً ، ويزداد الغواة زيغاً وبعداً عن أمر الله تبارك وتعالى ، ويترامى بهم الداء إلى حِطّة توقع التنافر والتشاجر ، وتحدث التضاضن والتناكر .

فأنكر أمير المؤمنين على ذلك إنكار مثله من الأمور التي تكسب سوء الافتراق ، وتولّد الاختلاف بعد الائتلاف ، وتقذح في نظام أولياء أمير المؤمنين المنتجبين ، وطوائف عساكره المنتخبين . » .

وأمر الخليفة الظاهر بكتابة هذا السجل المنشور وقرأته في قصور الخلافة على كافة الحاضرين بها من أنصار الدولة وجنودها ، وسائر المائلين فيها من خدم المملكة وعبيدها ، ينهى جميعهم عن قبول منتسب إليهم ، أو متطارح عليهم ، لا اسم له في الجرائد المجلدة ، ولا رزق له في العطايا المقررة ، وأسقاط من هذه سبيله ، ووضع اسمه

(١) راجع تاريخ النسخى طبع إنورد ص ٢٢ .

والسجل أو السجل المنشور وثيقة رسمية يصدرها الخليفة .

وحذف ذكره ، وإزالة رسمه والإضراب عن الخطاب بنسب أحد منهم في حد أو حق أو دم . إذ كان أمير المؤمنين — لمحله في الإمامة ومكانته من الخلافة — يأخذ في الحق من القوى للضعيف ، ومن الشريف للمشروف . ولا تأخذه لومة لائم في إقامة حد الله — عز وجل — على واجبه المحتوم (١) .

ومن سجل آخر للظاهر في تقليد نقيب نقباء الطالبين محمد بن علي الحسنى الرّسى (٢) .

« بسم الله الرحمن الرحيم ،

أما بعد ، فالحمد لله شافع إحسانه بالمزيد ، ومتابع إنعامه على الشاكر المستريد ، ومجير المعتصم بحبله من كيد الكائد ، ومعيد المستعيزين به من شر الحاسد ، الذى لا واضع لمن رفع ، ولا ضار لمن نفع ، ولا تفاوت فيما خلق وصنع ، لا إله إلا هو ربُّ العرش العظيم يحمده أمير المؤمنين على ما أسبغه عليه من جلائل نعمه ، وأراه لديه من جسام قسمة ، ويسأله أن يصل على جده محمد الذى ختم به عدة الأنبياء ، وأيده بجنود من الأرض والسماء ، وأمه بالبرهان المشتمل على النور والضياء ، وعضده بأبينا أمير المؤمنين علي خير الأوصياء ، وأوضح بهديه الهدى والرشد ، ونهج بمنهاجه الطريق الجدد ، وأمره بالتعوذ من شر الحاسد إذا حسد . صلى الله عليه وعلى عزته المنتخبين وسلالته المنتجبين آباء أمير المؤمنين ، ما نطق ناطق وذر شارق .

وإن النعم إذا حدثت حدث لأربابها منافسون ، وسعى عليهم بغيا وظلماً سعاة مناصيون ، فلا يزالون موارد البغي والعدوان ، ويتآزرون في قول الزور والبهتان ، ويحملهم التقصير والعمى وسفه العقول والعمى على قدح في المتميزين بخصائصها من أولياء الدولة وخدمها بأشانيح لا يضرهم الله بها ، وأباطيل تعود بالمضرة على ناصبها ومربياها ، إقداما بجهلهم على كذب الإرجاف وجرياً على غلوائهم في ذم الاعتراف . وحسداً لذوى التقدم والاختصاص ، وكيدا يظنُّ معمله أنه يفضى بمن شرفته الحضرة بملايس نعمها إلى السلب والانتقاص . فلا نقع الله غلة الحاسد ، ولا سدّد عزيمة المكر الكائد ، ولا أمتع جماعة أهل الحسد والمكر تيل محبوبهم ، وجعل جمرات التأسف

(١) تاريخ المسيحي — أخبار مصر في سير طبع هيئة الكتاب ص ٢٤

(٢) المصدر نفسه ص ٢٦

بجميل رأى أمير المؤمنين في صنائعه متضمنة على قلوبهم .

ولو عقل هؤلاء الجهال لانتبها عما يقولون ، لأنهم يرجفون فيكذبون ، ويحكون فلا يصدقون ، ويتقربون بالميل والمجال ، فيبعثون ويُسْتَرذَلون ، ويسلكون مسالك المكر والخداع . ﴿ وما يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

ولانه انتهى إلى حضرة أمير المؤمنين ما أوقعه الخراصون من الإزجافِ بصرفك عن نقابة الطالبين ، وقبض يدك بعد البسط والتمكين . وتعلقهم في مواصلة التشنيع عليك بكذب الأقاويل وشبه الأباطيل ، تخلفاً بدنيء الأخلاق ، واستمراراً على قول الزور والاختلاق وما عراك لأجل ذاك من ضعف الجئة بعد قوتها ، وكلال العزيمة بعد مضائها وبسطها ، ولا بدع فقد يُرجف الأشرار بالأخيار ، ويولع ذوو النقص بذوي الفضل والأقدار .

وما السبب الداعي إلى تغيير أمرك ، وإزالة نظرك ؟ . وأخبارك طيبة العرف ، وآثارك جميلة الوصف . ومرايبك في الخدمة صائبة المقاصد ، ومساعدك في السياسة زاكية المصادر والموارد . وأنت من أهل بيته أكسبتهم الطاعة مزية الفخر والنفاسة ، وحكمت لهم الدولة بالإقرار على مآلئهم من النقابة والرياسة .

وقد رأى أمير المؤمنين — وبالله توفيقه — تجديد إحسانه إليك ، وتوكيد إنعامه عليك وتكذيب المرجفين بسلبك ما في يديك بما أمر به من كتب هذا السجل إليك ، وقراءته على رعوس الأشهاد ، والملا من الخاص والعام ، بإخمد خدمتك ، وإظهار مكرمتك ، واستداد طريقتك ، وإيقاع الدلالة على لطيف منزلتك ، وتوخي بسط يدك ، وإمضاء جدك ، وتمكينك من التصرف في مصالح ما نيظ بك ، لتسبح عنك مادة إرجاف المرجفين ، وأباطيل المبطلين ، وتخرص المتخرصين . فاعلم بذلك ، واجر على رسمك فيما هو مردود إليك من نقابة الطالبين ، شملهم الله بالحضرة وسائر أعمال الدولة شرقاً وغرباً ، وبراً ونحراً ، مشتد الأزر ، منشرح الصدر عزيز الأمر ، ساكناً إلى حسن نظرا أمير المؤمنين الذي أوجب إطالة ساعدك ، وإرغام حسودك ، عاملاً بحكم وصاياه وأمثلته التي اشتمل عليها سجل تقليدك . والله يحسن معونتك على القيام بفروض طاعته ، ويمدك بتوفيقه وتسديده ، بمنه وقدرته . والسلام عليك ورحمة الله . » .

فهذا تقليد بسجل منشور قصد فيه الخليفة الظاهر إلى إقرار نقابة الطالبين لمحمد بن على الحسنى الرسى ، وهو من الأشراف الرسىين في مصر ومن كانت فهم النقابة منذ

جاء الفاطميون إلى مصر . ويبدو من السجل أن الأراجيف قد شاعت حول عزله . فأراد الظاهر أن يسكت هذه الأقاويل بإعادة التأكيد على توليته نقابة الطالبين الأشراف على ما كان عليه .

والسجل لا يكتفى بالتقليد الرسمي المعهود ، بل أطلال كما رأينا القول في الحديث عن تلك الإشاعات ، وأراد الخليفة من كاتبة أن ينفىها ، وأن يظهر في السجل رضى الخليفة وثقته في النقيب بمختلف العبارات ، ويسوق لذلك الحجج والمبررات ، فالرحل لم يؤخذ عليه مأخذ يجعل الخليفة لا يرضى عنه ، بل يسير فيما يتولاه من أمور النقابة على الوجه السديد الذي لا تؤخذ عليه لائمة . فما الداعي لصرفه عنها ؟!

اللهم إلا الحسد لكل صاحب نعم ، على ما أولاه الله إياها ، وما أكسبه من القرى لدى الظاهر .

والرسالة أو السجل كما نرى لا يسرف في صنعة اللفظ اللهم إلا هذا السجع غير المتكلف ، والمعتاد في مثل هذه الكتابات على طريقة العصر . مع الاستشهاد ببعض آيات القرآن .

وشكل السجل لا يختلف كثيراً عن شكل الرسالة .

(٢) الرسائل

وتختلف الرسائل عن السجلات المنشورة في طبيعتها ، فهي من مرسل إلى مرسل إليه ، وقد تقتضى الإجابة ، أو لعلها تكون إجابة عن رسالة أخرى ، وغالباً ما نرى مثل هذه الرسائل المتبادلة بين الأدباء والعلماء ، وتختلف في موضوعاتها ومناسباتها .

ومنها الرسائل الإخوانية التي تدعو صاحباً أو صديقاً لزيارته ، أو يكتب إليه متشوقاً وسائلاً عن أخباره . كما جاء في رسالة ذكرها المسيحي للكاتب الحسن بن أحمد المعروف بابن الخياط^(١) كتب بها إلى صديق له من تيس .

« بسم الله الرحمن الرحيم

ـ كتبتُ إليك عن سلامة ، وأمر أشيُم برقه ، وأتوكتف وذقه ، وحال سار

(١) راجع المصدر السابق تاريخ النسخ ص ١١٦

شيداما ، ومرجّو متنها . والحمد لله ، وإياه أسأل حسن التوفيق والتسديد ووصلت إليها غداة يوم الأربعاء ، مترفها متودعاً ، ولله الشكر والطول ، وبه القوة والحول . وجرت خطوبٌ في إحداري آلت إلى سلامتي ومساري ، أحببتُ وقوفك عليها ، وسكونك إليها .

كنت أقمْتُ يومى وليلى في دار الصناعة ، ثم استقررت في السفينة غداة السبت ، وحدَرْنَا في المسير ، حتى إذا جاوزنا عبسوس ، وشارفنا شطنوف ، ومالت الشمس للغروب هاج البحر واندفع موجه . وتدافع تياره ، وبدا كالملازم ، وهو لنا جد مكافح . ثم نما وارتفع فطما ، واضطرب واربدٌ ، وتدفق ، واختبط وتغطمط ، وركب بعضه البعض وعلا إلى الجوّ ، وانحطَّ إلى الأرض ، فصار خداناً ، وبطنانا ، وأطواداً ، وأوهادا . وعصفت الريحُ واشتدَّتْ ، وتناوحت واصطفقت ، وزجّلت ، وهاجت فتمردت . وتقاربت وتباعدت ، وجاءت ككثبان الرمال ، وشواهد الجبال . فعظُم تيارُه وتجرّجَر آذيه ، وتلاطمت أمواجه ، وثارت قيعانه ، وشردت حيتانه ، ونذت نينانه . وتقلت ، وصاعدٌ وصوبٌ ، وزخر ، وزفر ، وزأر ، كأنه ليث ضارى ، أو مغيظ يمارى . واضطرب فأزبد ، واحتدم فتوقد . فأورى ناراً ، واقتدح شراراً ومثلت تماسيحه فاغرة أفواهما ، ميرزة برائنها ، حاسرة عن أنيابها ، شائلة بأذنانها ، مترقبة للاقتراس ، متأهبة للاختلاس ، كأنها أجذاع ملقاة ، أو سفن مرسة . ووقفت صفوفاً ، كأنها آكام مائلة ، أو هضاب متقابلة ، وزحفت زحف الأبطال ، وجالت في مراضها الألوان ، وخفقت القلوب ، وعظمت الكروب ، وزاد الهلع ، واستولى الجزع ، وطارت الأفدة من الفزع ، وغلب اليأس على الطمع . وخاننا الاضطراب ، وأشفينا على البوار . ولم يبق لنا حيلة غير التضرع إلى الملك الجبار ، فعججنا بالدعاء عجباً ، وضججنا بالابتهال إليه ضججا ، فكشف البلاء بامتنانه ، وأجرى على المعهود من طولهِ وإحسانه . ومنح السلامة وأتاحها ، وسيرها وسببها ، ووقفها وسهلها ، وجاد بها وخولها ؛ فسكنت الريحُ ، وسجَا البحر ، وتقشعت السحب ، وانجلى الغمام ، وانحسر الظلام ، وأشرق الضياء ، وتلاأ الضحى ، وابتمت الأرض عن نوارها واستضحكت عن أزهارها . وأبرزت جواهرها ، ونشرت برودها ووشيا ، ورقلت في حلها وحللها ، فناصر وفاقع ، وناصر وزاهر .

وأمرختنا أبصارنا في رياضٍ مونقات ، ومناظر رائقات ، وأنهار متدفقات ،

وجداوِل مطردات ، كأنهنَّ ظهور حيات ، تظُّلها أشجارٌ متهدلاتٌ ، مخضلةٌ بنداها ، راضيةٌ بثرها ، وتحفٌ بها أطيارٌ ، منهداتٌ ومؤتلفات ، من خائِم وعائم ، وجائم وقائم ، وطائر وواقع ، وسارح وراتع ، كأنما ألبستُ الوشي والقباطي والعصبُ ؛ فمن مدرِّج وموشِّح ، ومقنَّع . كأنها قيانٌ مصبغاتٌ ، أو عرائسُ مجلَّوات ، مطوقةٌ ومقرَّطة ، ومطلَّسةٌ وموشَّاة . وملوَّنةٌ ومكحَّلة ، ومحجرةٌ ومعجَّرة ، ومذهبةٌ ومخضبة ، ومُدقِّفةٌ ومشتقِّفة ، أنواعاً مختلفةً ومصنَّفة . كأنما عبَّئتُ تعبئة العساكر ، ونضدتُ تنضيدَ الجواهر ، كلُّ شكلٍ إلْفٍ لشكله ، وكلُّ مثلٍ مؤاخٍ لمثله . يخال اختيال القيان ، ويتباهى تباهيَ الحور الحسان . كأنها ربَّاتٌ تُحدور ، أو آفاتٌ قُصور .

وأبدلنا الله من الخوف أمنا ، ومن البؤس نعima ، ومن القلق سكونا ، ومن الغرقِ طُمأنينةً ومن الانزعاج دعةً ، ومن النَّصبِ راحةً ، فله الحمدُ والمنّ ، والطَّوْلُ والفضْلُ ، معطى النعم ومُسديها ومُجزئها ، وموليا ، وملبسها ومَسبِغها ، وداهبها ومهديها .
وعرَّفْتُكَ — أدام الله عزَّكَ — ذلك لتعلمه وتقف عليه ، وتستيقنه ، وتسكنَ إليه إن شاء الله . (١) .

والرسالة كما ترى بديعة الأسلوب جميلة التصوير ، خرجت عن مجرد كونها اعتذاراً لصديق عن موافاة صديقه إلى طريقٍ من الوصف وضروب من التحجير ، أجرى فيها القلم بعذب اللفظ ، ممتزجاً بالخيال الجامع في لطف ، يجمع بين الأضداد ، بين الخوف والرجاء ، واليأس والأمل ، والحزن والسرور .

وهو في وصفه لمشاهد النيل وقد ثارت أمواجه ، وأزبدت ، وتراقصت بهم في اليم السفن وأظلم الجو واربَّدت السماء ، ووصف تماسيحه العاكفة على شواطئه المترقبة في كسل فريسة يسوقها القدر إليها ... بين هذه المشاهد من الفزع ، ومشاهد السعادة بهلوه الجو وانقشاع الغيم ، وتجلي الشمس وتبرج الزهر ، واختيال الطير بين الرياض مبدعٌ في هذا كله ، موفق في تصويره واختيار ما يناسبه من لفظٍ دالي وإيقاعٍ موافق .

ويعتمد السجع في فقرات متفاوتة بين الطول والقصر ، تتناسب مع المعنى ، ونبضه ، ومايلزمه من الجرس الخافت أو الضجيج ، أو الهمس الناعم الرشيق . ويزواج

(١) أخبار مصر من تاريخ المسجى ص ١١٨ .

يكثر بين المعنى وأخيه وقريبه ، أو يقابل بين المتضادات فيلجأ لفن الطباق والمقابلات .
وقد يستخدم الجناس إذا لزم الحال . أو اقتضاه المقام .

وهو في هذا كله لا يحرم عبارته التشبيه والاستعارة ليكسب الصورة مسحة من الخيال
الموفق ، وينفق من زاد من اللفظ ، ومحفوظ من الشعر القديم والمحدث ما ترددت أصداً
معانيه وألفاظه في حنايا الرسالة .

وبعد ، فهذا المثال من الرسائل الإخوانية لأحد كتاب عصر الظاهر تدلنا دلالة لا
تحتاج إلى كثير شرح على ما بلغه الفن الثرى من براعة لا تقل في مصر عنها في بغداد
وغيرها من بلاد المشرق ، بل لعل بعض المشاركة في رأينا كالحوارزمي والهمداني ، قد
يتكلفون فيثقلون لا كما فعل ابن الخياط ، إذ رفق باللفظ في عبارته فانسابت المعاني لينة
هينة .

ولا كهذه الرسالة ما عرضناه من قبل للرسائل الديوانية من سجلات ومنشورات ،
فلغتها هناك لغة مباشرة ، لا يعنى فيها الكاتب بالخيال ، فلا تشبيه ولا استعارة ، وإنما
قولٌ فصلٌ ، وعبرة تقصد المعنى وتؤكد بآى من القرآن أو مثل أو ما إلى ذلك .

ولكن اللونين جميعاً الرسمى والفنى يتفقان في الشكل واستخدام العبارة الرصينة
واللفظ الدال في وضوح لا لبس فيه ولا غموض ، ولا لغز ولا تعمية ، كذلك لا لعب
بالتراكيب ، والتوفيق والتلفيق في أنواع الجناس والطباق .

ونعرض في مجال الرسائل الإخوانية ثلاث رسائل تدور بين ثلاثة رجال من الكتاب
يعرضون فيها لموضوع متقارب ، يبدأ أولهم فيعرض حديثاً عن واحد من الرجال يعرفه
الثلاثة معرضاً به ، ذاكراً في شيء من الهزل صور الطعام والشراب ، ويردُّ الاثنان
الآخران معرضين كذلك واصفين . وهو لون من الكتابة الإخوانية ساد في هذا العصر
والعصور التالية يدور حول الاستدعاء للطعام والمشاركة في لذته ولذة الشراب . ولم
يقتصر هذا اللون على الرسائل والنثر ، بل عداه إلى الشعر كما سيأتى القول فيه من بعد .

وأما الرسائل الأولى فأوردها المسيحي في كتابه (١) قائلاً : « ووقعت لى نسخة
رسالة كتبها ابن الكرخى إلى أبى نصر المغنى العواد البغدادي ، يعرض فيها بحسن بن
القُمى .

(١) أخبار مصر للمسيحي ص ١٣٤ وتحقيق الدكتور حسين نصار - القسم الأدبى ص ٧٥ .

« عندى يامولائى — أطال الله بقاءك — مطجّن ومَصُوص (١) ، واسفيدباج (٢) بقسوس ومفركاتّ كتفريك المغنيات بالحرركات ، والليليات الخنثات ، والهلّيون (٣) كالزمرّد خضرّة والغصون نُضرة ، وباذنجان مقلو كالأكّر ، وشيراز (٤) فى شكل القمر ، وطردين (٥) كالكمأة فى المثال وسنبوسج (٦) يصلح تعاويذ للأطفال ، وزيرباج تخلّى بها الحاريب ، وتترغ أعضاء العارق منها بالكلايب . ومضيرة (٧) تُسبّدج بها الحيطان ، ويستغنى بها عن بقية الألوان . وجذّى كالأمير الملقب بالظهير ، فى تخلّقه وخلّقه ، وعقله ونطقه ، ونسبه وحسبه . سهل الجانب غير ممتنع عن المجاذب، ممكّن من ضرب الحالب ، مطيع لا يعرف الخلاف ، مظلوم لا يؤثر الإنتصاف ، قد تلّ للجبين ، وضرج بدم الوتين ، وأولجت فيه السفايد ، وعلّق بها تعليق العنايد ، وأصلى نار الحميم ، وعذب العذاب الأليم ، ودفع إلى أمر عظيم . وشغله مانزل به من البلوى عن مواصلة الاستغاثة والشكوى ، فهو المسكين من الحمالين والصابرين فى البأساء والضراء ، والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والمؤثرين على أنفسهم ، لا لها — والجود بالنفس أقصى غاية الجود .

فاذا قدّم الخوان بدّا فى حُليل من أرجوان . فحين تسلبه ثيابه ، وتمزق عنه إهابه يفتّر عن يقق ، ويسفر عن قلق . كما قال عبد بنى الحسحاس :

إن كنتُ عبداً ، لنفسي حرّة كرمأ
أو أسود الخلق إني أبيض الخلق

يتهراً من الإيماء كالمسوع ، مُلقى على جانبه كالمصروع . يقول : هيتّ لك . جود لا أمّ لك . : تلك المكارم لا قعبان من لبين .

-
- (١) المصوص طعام من لحم يطبخ ويتبع فى الخلل ، ويكون من لحم الطير خاصة .
(٢) والاسفيدباج طعام من اللحم والبصل والزبد والجبن أو من الخبز واللين .
(٣) الهليون نبات .
(٤) الشيراز اللين الرائب المستخرج ماؤه ويسمى اللبنة أحياناً فى بعض البلاد .
(٥) كذا وصححها د . حسين إلى طيرزن وهو السكر .
(٦) السنبوسج يعرف الآن بالسنبوسك وهو عجينة باللحم يقطع قطعاً صغيرة .
(٧) المضيرة مرقة تطبخ باللبن الحامض .

انقضى باب الجدى

يتلوهُ بابُ الشاة

لكننى أحرث ذبحها إشفاقاً على ماشيتى أن استنفذ جميعها في يوم واحد ، فجعلت ذلك باباً مفرداً ليوم مفرد أبني أمرى فيه على الصبح ، وأنشط للتعبئة في المسوح ، وأعلقها بعرقوبها ، وأتجرّد لتعذيبها ، وأتولى بنفسى سلخها ، وأكشّف عظمها ومخّتها ، وأمتحن بذلك باب التشریح . وفي التلميح مايعنى عن التصريح .

دع — ياسيدى — هذا الباب الذى لا فائدة لك فيه ، فإنما ذكره شجون ، وخذ فيما يعود عليك نفعه ، لأننى أعرفك تُحبُّ العاجلة ، وتذر الآجلة .

يتبع الجدى طباهجتان^(١) كالعود الرطب لونا ، وكالرياض حسناً ، وكالمسك نشرأ ، وكالعافية طعماً . قال : صدقنا أبو الرقعمق رحمه الله :

ما هبَّت الريحُ لنا فى غلَس الأَسْحارِ
إلا تنفَّسن لنا عن جُؤنِ العَطَّارِ^(٢)

وهما منى الجائع ، وجوارش^(٣) المتخم ، ودواء الخمور . وفي مثلهما قال الشاعر :

شرك النفوس وقينة ما مثلها للمطمئن ، وغقلة المستوفز

خير ولا شر . كل هذا ماعندنا ، نحن اليوم على باقلاً ، فبحرمة شيرخنا أبى الخير الهراس والبغدادى الرواس ، والأزرق الشواء ، وجميع إخواننا أصحاب الزفر والغذاء إلا قدمت الحضور لتؤم بنا الصلاة على هذا المظلوم الفقيد ، وتغتئم ثواب الغريب الشهيد . وتشاهد أيضا من سرعة حركات مفاصلك ، وبعثرة مافى الصحون مايحكى بعثرة القبور في يوم النشور ، وترى من خوضها فى عُدرانِ المرق ، وسلامتها من الغرق والشرق وتعفيتها على اللقنقى فى غط منقاره فى المياه ، وحرصه على مواد المعيشة والحياة ، وإطلاق عنانها فى ميادين لحوم الخيوان ، وثنى زمامها عن مواطن القرع والبادنجان ،

(١) الطاهجة اللحم نشرح .

(٢) حون جمع معرده حونة . هى سمع معشى خلد ينفذ به العطار الطيب .

(٣) الجوارش دواء مساعد على الهضم .

أمراً عجيباً ، طريفاً ، غريباً .

وَقَفَّكَ اللهُ لِلْحَضُورِ ، وَلَا حَرَمَكَ خَيْرَ مَا فِي هَذِهِ الْقُدُورِ ، فَإِنَّ الْمَسْرَةَ مَعَكَ
حَيْثُ حَلَلْتَ ، فَإِنَّ غَبْتَ غَابَتْ ، وَإِنْ حَضَرْتَ حَضَرَتْ . وَاللَّهُ يَجْمَعُكَ وَإِيَّاهَا عَلَيْنَا ،
وَيَأْتِي بِكَمَا سَرِيعاً إِلَيْنَا إِنْ شَاءَ . وَهُوَ حَسْبِي ، وَنَعْمَ الْوَكِيلُ . » .

فَأَجَابَهُ أَبُو الْحَسَنِ أَحْمَدُ بْنُ الْعَبَّاسِ الْكَاتِبُ ، الْمَعْرُوفُ بِابْنِ الْخِيَّاطِ بِرِسَالَةٍ عَنْ حَسَنِ
بْنِ الْقَمِيِّ ، الْمَقْدَمِ ذَكَرَهُ . وَهِيَ :

« لَيْسَ الدَّعْوَى فِي الدَّعْوَةِ ، يَا سَيْدِي — أَدَامَ اللهُ عَزَّكَ — مِنْ شَأْنِي ، وَلَا أَرَى
الْمُخْرِقَةَ عَلَى إِخْوَانِي أَسْأَلُهُمُ الْحَضُورَ عَلَى مَا حَضَرْتَنِي ، وَلَا أَدْخِرُ عَنْهُمْ مَا أَمَكْنِي . وَأَمْشِي مَعَ
دَهْرِي وَزَمْنِي . فَإِنَّ أَوْسَعَ أَكْثَرُ ، وَإِنْ قَتَّرَ اخْتَصَرْتُ . فَالِاخْتِصَارُ فِي حَيْثُ الْإِقْتَارِ مِنْ
خَلْقِ الْأَحْرَارِ . وَتَرَكَ التَّصْنُوعَ وَالْإِدْعَاءَ مِنْ شُرُوطِ الْمُوَدَّةِ وَالصَّفَاءِ . وَعَلَى خَيْرِ مَذْهَبِي
هَذَا جَمَاعَةٌ يَرُونَ الْإِدْعَاءَ فَضْلاً ، وَالْمُخْرِقَةَ جَمَالاً وَنَبَالاً . وَإِنْ سَأَلْتِ أَحَدَهُمْ مَا أَصْلَحَ لَكَ
الْيَوْمَ ؟ حَدَّثَكَ بِمَا رَأَاهُ بَارِحَتَهُ فِي النَّوْمِ ، وَأَوْهَمَكَ أَنَّهُ اخْتَصَرَ عَلَى مَقْلُوبَةٍ ، وَقَدْ قَلَبَ
الْجِزْءُ أُمَّ رَأْسِهِ . وَمَشْوشَةٌ وَقَدْ شَوَّشَ الطَّلُوبَى صَحِيحَ رَأْيِهِ وَقِيَاسِهِ ، وَقَلْبِيَّةٌ وَهُوَ مِنْ
الشَّعْبِ يَتَقَلَّبُ ، وَمَغْمُومَةٌ ، وَلَيْسَ غَيْرَ حَلِيلَتِهِ التَّكَلُّبِي . فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَطَايَبَ وَيَتَكَاتَبَ ،
وَأَحَبَّ أَنْ يُتَكَالَبَ وَيَتَلَاعَبَ قَالَ : كَانَتْ لَنَا مُضْيِرَةٌ يَصْلُحُ أَنْ تُسَبِّدَجَ بِهَا الْخِيَّاطَانُ ، وَهُوَ
يَتَقَوُّثُ الْكَيْسَرِ مِنْ أَحْجَارِ الْفَيْرَانِ ، وَيَسْتَلْبُ الرُّغْفَانَ مِنْ وَلْدَانِ الْجِيرَانِ . وَزِيرِبَاجٍ
كَخَلُوقِ الْمُحَارِبِ تَنْتَزِعُ أَعْضَاءَ الضَّائِقِ مِنْهَا بِالْكَالِيبِ ، وَلَا يَعْرِفُهَا مِنَ الْجَلْبَانِ (١) لَوْ
أَحْضَرْنَا لَهُ مَكَاناً ، وَلَا يَدْرِي أَيُّهُمَا هِيَ بِالْمِذَاقِ لَوْ أَطْعَمَهَا وَجُودَابَةً (٢) رِقَاقٍ . وَيُوْهَمُكَ
أَنْ لَهُ رَاتِباً ، وَقَدْ أَصْبَحَ سَاغِباً خَائِباً ، وَأَنْ لَهُ وَكَيْلَا ، وَلَا يَعْرِفُ لَسَدَ جُوعَتِهِ سَبِيلَا .

فَإِنَّ نَفَقَ عَلَيْكَ قَوْلَهُ ، وَأَعْجَبَكَ فَضُولَهُ ، فَسَأَلْتَهُ النَّزُولَ غَلْبَكَ الْجَوَابِ ، وَقَلْبَهُ
فِي نَصَبٍ وَعَذَابٍ ، ثُمَّ انْتَهَزَ الْفُرْصَةَ ، وَانْكَشَفَتْ هُزُولَةُ الْقِصَّةِ : فَإِذَا حَضَرَتْ الْمَائِدَةُ ،
فَاسْتَفَدَ مِنْهُ كُلُّ فَائِدَةٍ . تَرَاهُ يَزَاحِمُ بِكَاهِلِهِ وَمَنْكَبِهِ وَيَضْغَطُ إِلَى مَنْ يَجَانِبُهُ ، وَيَقْتَلَعُ مَا بَيْنَ
يَدَيْهِ الْإِخْوَانَ وَيَغْيِرُ عَلَى الْأَلْوَانِ كِبَطْلَانَ الْفَرَسَانَ ، وَيَجِيلُ يَدَهُ عَلَى الْخَوَانَ جَوْلَانَ
الشَّجْعَانَ يَوْمَ الطَّعْمَانِ وَيَهْوِي بِكَفِّهِ وَلَا شَاهِينَ ، وَيَتَنَزَعُ الْقِنْدَرَ بِأَنَامِلِهِ وَلَا أَبَازِينَ ،

(١) الْجَلْبَانُ : نَبْتٌ .

(٢) الْجُودَابَةُ طَعْمٌ يَتَّخَذُ مِنْ سَكَّرٍ وَأُرْزٍ وَالْحَمِّ .

ويجسرُ عن ذراعه ، ويجوزُ بياعه ، ويكبُّ بصدرة ، ويفيَّبُ عنه رشيدُ أمره ، وتسمع له همهمة وتمتمة ، وطبطبةٌ وحممةٌ ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ .

كفأك الله وإيانا من هذا وصف طريقته ، وعفانا وإياك من مخالطته ومعاشرته ، فالشُّرَةُ شَيْنٌ يُعَدَى ، والبطنَةُ منقصةٌ تُرْدَى ، والكذبُ دَاءٌ عِيَاءٌ ، والمحمةُ عادةٌ وبلاءٌ ، والصحيحُ ماتحصَّلُ ، والباطلُ يلغى ويبطلُ .

عندى — ياسيدى — قريصٌ أشبهُ بِنَصِيصَةِ الفُصوصِ ، يرتعدُ ارتعادَ المضرورِ ، والمُحَنَّقِ الغيورِ ، ويكفيك بمذاقه المنازعةَ والمرءَ . وتحسبُ حيتانه سُبْحاً في الإناء ، شقيقَ الرحيقِ ، كأنه ذوبُ العقيقِ ، ينسيك طعمُهُ لذيدَ الزيرباجِ ، وتصنَعُ المضيرةَ له والكباجِ ويغذيك من لحومِ الحيتانِ ما يُغنيك عن فائقِ الحيوانِ ، ويشغلك حسنُ مرآه عن التعرضِ لما سواه . مجمعُ طبيباتِ ، ومحشرُ إدامِ ولذاتِ . ومن ذا ياسيدى يوريك ما وصفه سيشهيكُ ، مقلوَةٌ كالعسجدِ السبيكِ ، يمنحك إهابةً بالإيماءِ ، ويجيبك بلا ممانعةٍ ولا إباءِ ، لو ظفرت منه بلُطَافَةَ المِقَالِي لأغنتك عن عتيقِ الغوالِي . لو لم يكن غيره لكفأك ، ولو قنعت به لأغناك نعم الطعامِ ، وأفضلُ الإدامِ .

ومن بلطيكِ الطريِّ السمينِ ، ما تحكيه صفائحُ اللجينِ ، قد ألبسته النارُ ثوبَ نُضَارِ ، إن سلبته فطلَعُ نضيدِ ، أو لمسته فزبدٌ عتيدِ ، متساوى المساحةِ يفضلُ عن الراحةِ ، فهو كما قال الصاحبُ : « إن نعتَه فقد أعبته ، وإن وصَفْتَه فما أنصفتَه . » . ومن الشبُوطِ ما أشبهَ البَلُّورَ المخروطِ ، عملٌ منه صليقٌ ، أنت بسلبِ محاسنهِ خليقٌ ، يُنسيكُ بنضرتِه روضَ الجنانِ ، وأراضِي الریحانِ ، ويغنيك بحسنِ منظره عن كشفِ مخبره ، وبطيبِ نشره عن هتكِ سيره .

وإن أبعثُ لك ياسيدى الفرخَ ، حذراً من وضعِ الكرخِ ، فإنهما متساويان في النعتِ والاسمِ ، والمولدِ والجسمِ ، وله — لعنه الله — شأنٌ من الشأنِ ، لم يصد مثله قبلي إنسانٌ ولا شوهدٌ شبيهه في الحيتانِ . مهولٌ مرآهٌ ، ولا يَعْرِفُ أباهُ ، كان يبعثُ منه على الحيتانِ الختوفِ ، ويقتلعُ بها منه المراسِي والجروفِ . عريضٌ طویلٌ ، عظيمٌ مهولٌ ، إن وجدَ صَخْرَةً رَضُّها واقتلعها ، أو بقرةً التقمها وبلعها . سلاحُهُ أضراسه ، وجنته قفاه ورأسه . فلما كثر فيه ضجيجُ أسماكِ البحرِ ، ودعاءُ التوائِيَّةِ والسُفْرِ ، واستجاب اللهُ سبحانه دعوتهم وكشفَ بفضلِهِ محتهمِ ، قضى هلاكه على يدي ، وأمرني بقبضِ روحه

وتعذيبه بالنار ، كما يُفعلُ بالمؤذنين والأشرار ، والمخالفين والكفار ، لقصدِه مراكبَ
البحار ، وتعرضه لأذية المستورين والأحرار . وأحلَّ لى أكل لحمه بعد التناهى فى
عذابه ، جزاءً لفتكته حيناً بأضراسه وأنياه :

فَظَلَّ طُهَاءَ اللَّحْمِ مِنْ بَيْنِ مَبِضَجٍ صَفِيفٍ شِوَاءٍ أَوْ قَدِيرٍ مُعْجَلٍ

وها هو بعدما وصفت لك من عتوه وطغيانه ، وجبروته وسلطانه ، صريع: يد
القضاء ، وأسير الحين والبلاء ، قد مكنت السفايد من أحشائه وفكة ، وجوزى
باعتهائه وفتكه . وشق جوفه وحشى ، وأحكم وثاقه وشوى ، توجدك مضغته نعومة
الزبد ، ورطوبة الفائق ، ولين الرضج ووطاء النقايق زهومة ، وحياتك ياعزيز إني
أشتوى لك بكفيك أو زندك عَوْضَ أيدك فى زفر عَوْضَ حيب ، وقدر على حالك اليوم
مبيح أحق ناراً . وقدر الله تبقى زهومتَه فى سبائكٍ ولحيتك ، أو تدخل حفرتك ، لا
تطمع الأغيار بقتل نفسك بالجوع .

هذا مزاحُ البطالين ، ومداعبة المتفرغين ، ليس لك ها هنا إلا الباقلَى القيسى
والجنبن الحيسى ، والخردل الشامى ، والزيت الفلسطىنى ، وخالِك الثقف ، وبقلك
القطف . وأنا صديقك ذاك الذى تعرف ، وجريرتك التى لاعدمتها . وتلميذك دعبل
يعنيك بالطنبور :

مابلينا من ذا الأعيرج ياأسو مُ بِأمر يُدعى الفداة وليدة
يدعى الشعر والترسل حيناً ويرى أنه — بجهل — يجيىدة
يشتهى أن يرى بعين ذوى الفضل بل ، ويأبى قفاه ذاك وجيىدة

فإن استقصيته زادك :

لا تشمئن سرك بالفرخ لقد قرأنا آية النسخ
فى باقل القيسى مستمتع يضرب بالفرخ قفا الكرخسى

هذا — ياسيدى — الحاصل العتيد ، ورأيك الموفق السيد .

فلئن آيت لتحمدن نصيحتى ولن - آيت لتدمنن وثبرما

والحمد لله وحده ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله . وسلامه . » .

(٣) أجاب أيضا أبو تراب النوبختي أبا الحسن علي بن الحسن الكرخي الكاتب عن رسالته التي أجابه عنها أبو الحسن أحمد بن العباس بن الخياط بهذا الجواب . وهو : (١)

«وقفنا على رقعة الشيخ—وفقه الله للصواب، وحماه من كل عاب.. من ذات الهذر الطويل ، والمعنى المستحيل ، المشبه للشيء بضده ، الدال على فساد تحيله في نقده . ونحن عند صديق أليف ، مليح ظريف ، مفتن في المكارم والآداب ، وننخرق بنا إلى المسرة من كل باب . وبين يدينا مائدة بالحديقة ، مرتبة كالروضة الأنيقة ، وعليها مُصوّص من فراخ سمان ومطجنات من فراريج خصيان ، وباذنجان جنّئ المغرس ، رخص الملمس . قد قُلّي بشحم الدجاج ، فجاء غاية في الإنضاج . وهيلون مُمتلئ القضببان يشبه في خضرته نضارة الأغصان ، ومفتّات يُفْتُ قلبك — أيها الشيخ — عدّمها ، وبهمّ تُبهِمُك بأدمها ونقائق وطبرزن ، اقترحه بعض الحاضرين ، ونرجسية أحكمها طاهيها ، وزينها باللوز المرتب فيها ، قد زينها زينة العروس ، تصلح أن يشرب عليها بالكؤوس . ومضيرة في طيفور (٢) كبير ، تقوم من دسمها في غدِير ، قد أُجيد عقدها ، ولم تتجاوز بها حدّها فهي في بياض الكافور ، وصفاء سرائر السادة الحضور . وزيرياج يروق للعين كأنها الوجنة عند البين ، قد عقدت عقد الخييص (٣) ، واشبهته في اللون والبصيص طيبة المساع والمذاق ، كأنها وجه المولدة في الإشراق . وطباهجة مزوّجة يذوب لحمها ويتهرى في شبه العود المطرى ، قد فتقت بالقرفة والأبازير ، وعامت في دُهنها الغزير ، وأغنت بطيب الرائحة عن العبير ، بعد خزوف رضيع كما اقتطع من القطيع ، يترجرج من شحمه ، قريب العهد برضاع أمه . نضيج شواؤه . فائق خصبته وامتلاؤه . قد دفن الشحم في كلالته دفنا ، وندف منه على جنبيه قُطنا . فتواكلنا مواكلة الألاف ، وانتقلنا إلى مجلس السُلاف . مجلس يروق الناظر ، ويعجب الحاضر ، قد فرش فرشاً نظيفاً ، وحوى منصفاً وأليفا . وقُدّمت الفواكه في

(١) أخبار مصر بتحقيق د . حسين نصار ص ٨٢ .

(٢) الطيفور إناء ضخم .

(٣) الخييص طعام يعمل من التمر والسنن .

الصدور ، وتشاجر العود مع الطنبور ، ودارت الكأس على الجلاس والخمرة تشرق في الكؤوس ، وتغرب في الأفواه والنفوس . فلم تر إلا طرباً من فرحه ، صريعاً من جور قدحه . ونحن في ميدان الإطراب ، نجول على خيل الآداب والزمان قد غمض عنا طرفه ، وأوسعنا فنوته وظرفه .

حتى طرق الباب ، وأستاذنا علينا البواب ، ودخل علينا بهدية تزيد على الأمنية : جرة نبيذ كالحوت العظيم ، تصلح لصبح المستعين أو حكم أم حكيم . كأنها قلة الزيت لا يوجد نظيرها في البيت ، تشبهك أيها البليغ في دهره ، المتطايب على إخوانه في نظمه ونثره . في الصورة والحلقة ، وتفضلها بالانخلاع والجلقة ، كعنقك القصير ، وبطنك في الكبر والتكوير ، تسع من العقار والقهوة ما يسعه بطنك من الطعام عند الشهوة . فذكرتنا لقبك الخطير ، الذي كشفت به لقب الأمير الظهير . وهو جرة الزيت الذي أتت من اشتهاره في الدست .

فعبجنا من مُلقب كيف يهتف بالإخوان ، ويأتي بهذا الفضل والحسن والبيان . ونشرنا فضل رسالتك من طي الإغفال ، وتأملنا فصولها القصار والطوال ، فوجدناها فاسدة التشبيه ليس لها في القباحة من شبيه :

فأما قولك : « ومفركات كتفريك المغنيات الحركات » . فهذا من المعنى الطريف ، الدال على قوة التخفيف^(١) . تفريك المغنيات : تمايلهم على آلفهم ، وحلاوة حركاتهم في أعطافهم ، وصول خفي بسبق ، وانحلال مفاصلهم على الصاحب والعشيق . فأين هذا من يبيض قد شوش في المقل ، وقدم على المائدة في إنا . ولكن التجنيس عدل بك عن التحصيل ، ومال إلى المعنى المستحيل .

وأما قولك : في سنبوسك : « يصلح تعاويذ للأطفال » ، فالسنبوسك شيء يأكله الأطفال ، لا يتحلون بلباسه للجمال ، ولكن لو قلت : وسنبوسك يصلح مراسيل^(٢) للأطفال » لكان أقرب للنسبة ، لأن في المراسيل ما يصلح على شكل فضة مصاغة ، وليس ما أشبه الشيء صلح أن يقوم مقامه في الاستعمال والاتخاذ ، ولكن أوقعك الادعاء في الزلل ، وعدل بك عن الصواب المستعمل .

(١) التخفيف الذهاب لى الأرض . -

(٢) ما يعقد حول رقبة الطفل ويرسل من حل الفضة وغيرها .

وأما قولك : « وزيرباج تخلق بها المحاريب ، وتنتزع أعضاء الحيوان منها بالكلايب » . المحاريب لا تُخلَقُ بالزفر ، لأنها مساجدُ الملائكة والبشر . فلو قلت : تخلق بزعرانها المحاريب » لجاز ، أو « تجانس صنعتها خلوق المحاريب » ، أو تزيد سفرتها على خلوق المحاريب » . لكان أقرب للاستواء وأصوب .

والكلايبُ فإنما يُجتذبُ بها الشيءُ الممتع ، والعصبُ الشديدُ الذي لا ينقطع . فأما الفائقُ فإنه يتفتت من شحمه ، ويتهتك من رخصته ، ونعمته . اللهم إلا أن تكون عنيت أنابق الذبول اليابسة الأعصاب . الصعبة الانجذاب ، المشبهة صدورها بحصل الليف ، فمثل هذا تجتذب أعصابها بالكلايب والخطاطيف . وما حواك على ادعاء معرفة التشبيه ، وإيراده على جنس المغالطة والتمويه .

وأما قولك : ومضيرة تُسبج بها الحيطان ، ويُستغنى بها عن بقية الألوان » . فما سمعت قط إنسانا سبج بطعامه الحيطان ، وخلق المحاريب غيرك يارجل ا . لو قلت : ومضيرة تقصر عن طيبها الألوان ، كأنما تسبج ببياضها الحيطان ، وتخلق المحاريب بالطعام — والله — بارد في اللفظ والمعنى .

وأما قولك : وجدى كمولاي الأمير الملقب بالظهير ، في مخلقه وخلقه ، وعقله ونطقه ، ونسبه وحسبه . فهذا محالٌ بعيدٌ عن الحقيقة ، قد سلكت منه أفتح منبج وطريقة لأن الإنسان لا يشبه بالبهيمة إلا إذا قاس قياستك ، واتمس من هذه المعاني التماسك وأيضاً فإن الجدى خلقه لطيف ، وخلق هذا الرجل الذي عينته عظيم كثيف . والجدى خلقه الصياح والبعثرة . وخلق هذا الرجل حلاوة اللسان ، وحسن الخلق . وعقل الجدى مسلوب التمييز والروية . وهذا الرجل يميز بعقله ، ويصيب في رويته . والجدى أحرص لا ينطق ، وهذا الرجل ينطق ويتكلم . والجدى لا حسب له ولا نسب ، لأن أباه تيس لا يعرف . وهذا الرجل أبوه من ملوك البحار ، ذوى الأقدار ، الذين ملكوا الأموال وخدمهم الأقيال . ومات — رحمه الله — وهو معترف به ، متحقق لوقت العلق به ، ورث ماله . واستنفذ بمكارمه ماله . وليس هذا حق وداده ، ولا يحسن بك أن تستعمله مع أنداده ا .

وأما قولك في الجدى : « فإذا قدم على الخوان بدا في حلة أرجوان » . يارجل ا لو لم يقدم على الخوان ، لم يند في حلة أرجوان ا . أما يحمر جلده من نار

الشئى ؟ . هذا والله فسادٌ فى التَّصَوُّرِ والقياس ، وتمويه فى العلم على أغمار الناس . لو قلت : « ووفد على الخوان فى حلة من الأرجوان » . أما كان أسلم لأغراضك ، من تحديق بالرد واعتراضك .

وأما قولك : انقضى بابُ الجدى ويتلوه بابُ الشاه لكنك أخرت ذنبها إشفاقاً على ماشيتك أن تستنفذ جميعها فى يوم واحد . فجعلت ذلك باباً مفرداً ليوم مفرد ، يُبنى أمرُك فيه على الصبوح وتنشط المتعبئة فى المسوح ، وتعلقها بعرقوبها ، وتتجرّد لتعذيبها ، وتتولى بنفسك سلخها إلى أن تكشف عظمها ومُحّها ، وتمتحن بها كتاب التشريح ، وفى التلوخ ما يغبى عن التصريح .

فالجواب عن ذلك :

إما أن تكون عنيّت شاة على الحقيقة ، فهذا الصبوح لا يصلح إلا لمثلك ولا يصدر مثله إلا عن فضلك ، لاسيما إذا ذبعت شبيهُتُك ، بشهادة العيون ونظيرتاك فى امتداد العروق ، واتخذت منها طعاماً يُميرُ الجماعة ، ويبين لهم من كرمك الاستطاعة . وإذا اجتذبت بالكلايب أعضاء دجاجتك ، وقطعت بالقوادم مفاصل شاتك ، كانت صبيحة أغمّام لا صبوح مُدام !!

أو تكون عنيّت بهذا القول مباحّةً جارية سوداء ، واتبعت فى السقاطة بذكره الأهواء لأن قولك « والتعبئة فى المسوح » يدل على ذلك . لا سيما وقد قصدت به تنقّص بعض أصدقائك واشتهرت بغيرك وقلة وفائك ، فقد أخطأت خطأ عظيماً ، وسلكت معنى فاسداً سقيماً . لأن المباحة ليس فيها قتل ولا سلخ ولا تعليق بعرقوب ، فإن كنت عنيّت بالسلخ تجريد الثياب عنها ، فجائز لك على جنس الجواز من الاستعارة ، عن تعليقها بعرقوبها ، ما يشبه رفعك بساقها لأن المباح — وإن ارتفعت ساقه يلتصق ظهره بالأرض ، والمعلق بعرقوبه لا يبلغ إلى الأرض شئ من جسمه .

وأيضاً كيف يمتحن بمباحتها التشريح ؟ بأرسططاليس الجماع ، وبأبقراط الاستمتاع ؟ وابتداؤك فى هذا الفصل بمضى باب الجدى ويتلوه باب الشاة غلط . لأن الأبواب لا تكون إلا فى التاليفات والفصول فى الرسائل والمكاتبات . ولو قلت : مضى باب الجدى ويتلوه فصل الشاة لكان أجود .

والتعبئة فى المسوح غلط ، لأن التعبئة إنما تكون للفراكه والمتاع والآلات ،

وكلام يريد الإنسان أن يردده . ولو قلت : التعبير بالراء في المسوح لكان أدل على إرادتك .

وأما قولك : « وتتبع الجدى طباهجتان كالعود الرطب لوناً ، وكالرياض حسناً ، بقطع الطباهجة بالعود الطرى نسبة . والطباهجة أيضا لا تشبه بالرياض ، لأن هذا فساد في المعاني والأغراض لأن الرياض تحوى الأخضر والأصفر والأبيض والأحمر : أنواع الألوان من الزهر . والطباهجة حمراء إلى السواد ، فما تشبهها الرياض إلا إذا أحرقت ، وانتقلت عن صورة الاستحسان .

فإذا أردت طباهجة فقد فُقسَ عليها بيض ، شبهت صفرتها وبياضه بالروض ، وكنت تقول : « وتتبع الجدى طباهجتان ، بيض مفقوس ، تتوق إليهما كل النفوس ، قد رويتا مرقا ودُهنا ، وأشبهتا الرياض ملاحظة وحسنا . »

وكأنا بالشيخ — عضده الله بالتوفيق — وقد أصلحت له هذه القدر ، واجتمع له في مجلسه إخوان السرور ، ونظر في مقعده عن جانيبه ، وفتح دواته بين يديه ، وتخيل أنه — في قصفه مع إخوانه ، وما اقترحه من ألوانه ، وأظهره من فضله بهذه الرسالة وبيانه ، وانطق به فصاحة لسانه ، وأجرى سوابق بنانه — عبد الله بن المعتز في زمانه ، فجاش خاطره بهذه الرسالة الدالة منه على الضلالة ، الجامعة لأقسام الجهالة .

ولما رأينا وده للأمير الظهير على غاية الإفساد والتغيير ، وإنما وصفه من طعامه في نفسه بالمحل العظيم الكبير ، وأنه لا يكفى شدة نهمه ، ولا يقوم بمقدار الكفاية من مطعمه أنفذنا إليه شيخنا أبا نصر يُشرفه ، ويغصصه بريقه ، ويطلع على قلة طعامه وضيقه ، وما تحرق به من هذه الألوان الحسان وموة على الإخوان ، لأن عاداته التطفيل على الدعوات ، وطروق الولائم المهولات ، حتى يُطرد طرد الذباب ، ويُلزم ملازمة المذبوب بالأبواب .

وربما عجزت الاستطاعة ، وتعذرت من النفس الطاعة ، لاسيما فيما خالف الإرادة ، ونعص عن الأمر العادة .

ولما علمنا أنه لم يُصلح مما ذكره شيئا ، ولا قدم مطبوخا ولا مشويا ، وإنما قصد الطعن على هذا الرجل وحده ، أنفنا له من تحذ تنقصه وقصده . ونقضنا عليك — أيها الظالم — كلامك ، واعتمدنا الانتصار له إرغامك .

فتنصّل من هذا التعريض ، وإلا وقعت من المناقضة في الطويل والعريض . والخليج بعض مدد البحر ، والروضة جزءً من أثر القطر . وأنت أبصر بنفسك والسلام . « (١) .

وتخرج عن هذه الرسائل التي ساقها المسيحي لجماعة من أدباء المصريين في عصره عصر الظاهر لاعزاز دين الله وتدور حول الإخوانيات ، وإن جمعت الوصف لمظاهر الطبيعة والحياة ، وبعض أصناف الطعام والشراب المعروفة على موائد المتيسرين واصحاب الجاه في ذلك الوقت ، كما ضمت بعض صور المزح بين الاخوان الذي قد يتطور إلى التعريض والهجاء . وكل ذلك في اسلوب رائق فائق ، طليّ جليّ . يوقفنا على ماكان عليه طبقة الكتاب والأدباء آنذاك من ثقافة ومعرفة بضروب الكلام وأسرار البلاغة ، واقتدار على التعبير عما يدور في خلدهم من الأمور حتى ما بدا منها قليل الشأن غير جدير بالاعتبار .

تخرج من هذا اللون من الرسائل في مصر إلى مكان آخر قريب ، وإن كان مشاركاً في الحياة الأدبية في مصر بسهم ونصيب ، أعنى إلى القيروان العاصمة الثانية والسابقة للفاطميين وقد كان بها في هذه المرحلة من تاريخهم كتابٌ تبادلوا الرسائل فيما بينهم كما تبادل كتاب مصر ، أو تبادلوها مع غيرهم من كتاب العالم العربي والاسلامى ، وبخاصة في المغرب والأندلس .

وتمثل لهذا النوع الأخير بالرسالة التي بعث بها الكاتب القيروانى « ابن الرّيب » (ت سنة ٤٣٠ هـ) (٢) .

كتب رسالة إلى أبى المغيرة عبد الوهاب بن حزم يذكر فيها تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضلائهم وسيرة ملوكهم (٣) يقول فيها :

« كتبت ياسيدى وأجل عُدديّ — كتب الله تعالى لك السعادة ، وأدام لك العزّ والسيادة — سائلاً مستزهداً ، وباحثاً مستنجرأ ، وذلك أنى فكرتُ فى بلادكم إذ كانت

(١). أخبار مصر للمسيحي تحقيق د . حسين نصار ص ٨٧ .

(٢) هو الحسن بن محمد بن أحمد التميمي المعروف بابن الرّيب . راجع ترجمته فى كتاب مجمل تاريخ الأدب التونسى

لحسين حسنى عبد الوهاب طبع مكتبة المنار بتونس ص ١٢٤ .

(٣) راجع الذخيرة ، ونفع الطيب والخريدة للعماد شعراء العرب والأندلس وكذلك المرحع السابق ص ١٢٥ .

قرارة كل فضل ، ومنهل كل خير ونبل ، ومصدر كل طرفة ، ومورد كل تحفة . وغاية آمال الراغبين ، ونهاية أمانى الطالبين ، إن بارت تجارة فإليها تجلب ، وإن كسدت بضاعة ففيها تنفق ، مع كثرة علمائها ، ووفرة أدبائها ، وجلالة ملوكها ، ومحبتهم في العلم وأهله ، يعظمون من عظمه علمه ، ويرفعون من رفعه أدبه . وكذلك سيرتهم في رجال الحرب يقدمون من قدمته شجاعته ، وعظمت في الحروب نكايته ، فشجع الجبان ، وأقدم الهيمان . ونبه الخامل ، وعلم الجاهل ونطق العمي . وشعر البكي ، واستتر البغاث ، وتعتن الحفاث . فتتنافس الناس في العلوم ، وكثر الخدائق بجميع الفنون . ثم هم مع ذلك في غاية التقصير ، ونهاية التفريط من أجل أن علماء الأمصار دونوا فضائل أمصارهم ، وخلدوا في الكتب مآثر بلدانهم ، وأخبار الملوك والأمراء ، والكتاب والوزراء ، والقضاة والعلماء ، فأبقوا لهم ذكراً في الغابرين ، يُجدد على مسرّ الليالي والأيام ، ولسان صديق في الآخرين يتأكد مع تصرف الأعوام .

وعلمائكم مع استظهارهم على العلوم ، كل امرئ منهم قائم في ظله لا يبرح ، وراتب على كعبه لا يتزحزح ، يخاف إن صنّف أن يعتف ، وإن ألّف أن يخالف ، ولا يوالف ، لم يتعجب أحد منهم نفساً في جمع فضائل أهل بلده . ولم يستعمل خاطره في مفاخر ملوكه ، ولا بلّ قلماً بمناقب كتابه ووزرائه ، ولا سؤد قرطاساً بمحاسن فضائه وعلمائه . على أنه لو أطلق ما عقل الإغفال من لسانه وبسط ما قبض الإهمال من بيانه لوجد للقول مساعاً ، ولم تضيق عليه المسالك ، ولم تخرج به المذاهب ولا اشتبهت عليه المصادر والموارد . ولكن هم أحدهم أن يطلب شأراً من تقدمه من العلماء ليحوز قصبات السبق بقدر ابن مقبل ، وبكظم تغفل ، ويصير شجراً في حلق أبي العميكل . فإذا أدرك بغيته واخترمته منيته دُفن معه أدبه وعلمه ، فمات ذكره وانقطع خبره .

ومن قدمنا ذكره من علماء الأمصار احتالوا لبقاء ذكرهم احتيال الأكياس ، فألفوا دواوين بقي لهم بها ذكرٌ مجدّد طول الأبد ، فإن قلت إنه كان مثل ذلك من علمائنا ، وألفوا كتباً ، لكنها لم تصل إلينا ، فهذه دعوى لم يصحبها تحقيق ، لأنه ليس بيننا وبينكم غير روحة راكب أو رحلة قارب ، لو نفت في بلدكم مصدور ، لأسمع من بلدنا من في القبور ، فضلاً عن في الدول والقصور . »

ومات أبو المغيرة ابن حزم ، ولم يجب عن الرسالة السالفة . ثم بعد مدة طويلة وقف الوزير أبو محمد علي بن حزم حفيد أبي المغيرة المخاطب بالرسالة المذكورة ، فأجاب

برسالة مطولة أثبت فيها مالالأندلس وعلماؤها الأفاضل من فضل وتقدم في شتى العلوم والآداب وأثبتها ابن بسام في الذخيرة ، ونقلها عنه غير واحد ممن اهتموا بأدب الأندلس كعماد الدين الاصفهاني في الخريدة قسم شعراء الأندلس والمغرب ، والمقرئ في نفع الطيب . وليس المجال هنا لعرض هذه الرسالة .

وملاحظتنا على رسالة ابن الريب تتلخص في أنها تعتمد أساليب العصر من استخدام للسجع دون تكلف واضح ، والتزام بالوضوح دون ثقل الصنعة ، مع تفاوت الفقرات ، والمراوحة بينها واستخدام المزوجة في العبارة . واللجوء أحيانا إلى المجاز لتأكيد المعنى وإثباته في الذهن .

ومن كتاب صقلية الفقيه أبو موسى عيسى بن عبد المنعم . قال في رسالة في وصف الخط (١) :

« ورد كتاب فلان أطال الله بقاء فلان لفلك السعادة والكرم ، وعماداً تعلق به الهمم ليشيد من عرصات الفضل دارسها ، ويبين من أعلام المجد طامسها ، وينير من آفاق العلم حنادسها ويسيطر من أوجه الليالي عوابسها . فنظرت منه إلى خط موصوف ، معتدل الحروف ، أملس المتون مفتوح العيون ، لطيف الإشارات ، رقيق الحركات ، كين المعاطف والأرداف ، متناسب الأوائل والأطراف ، يروق العيون حسنه وشكله ، ويعجز المحاول بيد التناول صنعه وفعله ، متضمناً معاني كأنها رقب الزمان ، وضمة الأمان ، لو كانت مسارب كانت الحياة ، أو مشارب زادت النجاة . فأوجب تأملها تألبي ، واستنار بفكرى فيها تعجبي . قلت : سبحان ربي القيوم أفسح هذا ، أم أنتم لا تبصرون . أكل هذا الإحسان في طاقة الإنسان ؟ . وماأرى ذلك في الممكن والإمكان . ولئن كان ذلك فنحن الأنعام يشملنا اسم الحيوان . ثم رجعت إلى نفسى وثاب إلي حسى ، فقلت عند سكون جاشى ، وثبوت طيشى ، وإفراخ روعى ، وذهاب دهشى ، إن من دب في الفصاحة ودرج في وكرها ، ورضع بلبانها ، وجرع من درها . وصاحب السادات مقتبلا ، والأبجاء مكتبلاً ، لخليق أن يعمل من الفضل وسائطه ، وجمع قطريه ، بل يستولى على عذاريه ، ويملك شطريه . » .

(١) خريدة القصر للعماد — شعراء المغرب القسم الرابع تحقيق عمر الدسوقي وعلى عبد العظيم طبع دار هبة مصر
بالفجالة سنة ١٩٦٤ .

ومن القيروان وصقلية بالمغرب إلى الشام وهي جناح الدولة الشرق حيث نلتقى
بجماعة من الكتاب المشاهير ، والبلغاء المرموقين ، كانت لهم الرسائل البليغة في مواضع
كثيرة ، في الاخوانيات والوصف ، والعلوم والفنون ، وتُمثل منها برسائل للوزير
المغربي ، وأبي العلاء المعري ، وابن القارح .

قال أبو القاسم الحسين بن علي الوزير المغربي من رسالة له في الرد على كتاب
وصلة^(١) :

« وقفت على كتابك ، ولم أزل أثنه كأني قد ظفرتُ باليد التي بعثته ، وأضمه
كأني أضمتُ الجواخ التي نفتته ، وكأني كلما أدنيته من الكبد المعذبة ببعيدك ، وأمرته على
العين المطروفة بفقدك ، سحبتُ على النار ذيل السحاب . وسقيت عطش الحب كأس
الرؤض ، وأعرت أخوا سبعين ظل الشباب ، فأرختُ يوم قدومه لأجعله موسماً
للسرور ، وعيداً باقياً على الدهور أرتقبُ السعدَ عنده كل عام ، وأنتظر الفرَجَ منه من
كل عام ، وأنتظر الفرَجَ منه من كل غرام ، واتفق ورؤده في أشرف فصول الدهر
حسباً ، وأكرم مفاخر الأيام نسبا حين ابتداء الربيع يزخرُ بروده ، والرؤضُ ينظُم
عقوده . وكنت أعرف هذا الفصل باعتدال مناجه ، وصحة مزاجه ، وأنه لو كان
الزمنُ شخصاً لكان له مقبلاً ولو أن الأيام غوانٍ لكان لها حلياً وحللاً ، لأن الشمس
تخلُصُ فيه من ظلمات حوت السماء خلاصَ يونس من ظلمات حوت الماء ، فإذا
وردت الحمل وافت أحب أوطانها إليها ، وأعز مسكنها عليها .

وفي فصل منها : فياحسن تلك الصحيفة ، ومدادها يُنتهبُ بالأفواه ، ويزيد
بالتقيل لعمساً في الشفاه . وياعجباً كيف حفظ مع بُعد العهد نشر عرفك ، وكيف علّق
مع تراخي الأيام طيبَ كُفك ؟ . وكيف جاء كأنك كتبت من أم ، وأنقذته وبيننا
خطوة قدم . وكيف لم يُغيّرهُ ماقطع من مهاول قفار ، وليل ونهار ، وعدو كاشح
ورقي لاح . فأنعم به من ريحانة ألفاظ دامت لدوتتها ، وباكورة وصال سلمت
غُضوضتها ومسحة يد بقي أثرها أرجا ، وروضة كيليم دام على الصيف بهجتها .

وفي فصل منها : فأما سؤالك عنى فما يشبه سيرتك الحسنى ، ولا يليق بطريقتك
المثلنى كيف تسألنى والإجابة معك ؟ ، وكيف تستخبرنى ، ومحل الخير والاستخبار

(١) الذخيرة ص ٤٩٦ بتحقيق د . إحسان عباس وكتاب الوزير المغربي له ص ١٨٢ طبع الأردن سنة ١٩٨٨ .

عندك ؟ . ومتى سمعت بجواب جسد رهينة ؟ . وأين رأيت طِمَاح عن لوحظها مقيدة
كليلة ؟ . ألم أفارقك وقلبي عندك أعشارٌ . وأضلعي منه قفار ؟ . » .

وله من فصل يصف الموصل حين ورودها .

« ... وردت الموصل التي خالف اسمها معناها ، وكانت مقطعا بيننا لولا خدع
الأمانى وفصلاً لولا المرجو من عفو الليالى . فوجدت هواءها يعطل سوق بقراط
اعتدالاً وطيبة ، وماءها يُسلى عن مُجَاج النحل استمراء وعذوبة ، وصقعتها قد تبعد
رقة ولطفا ، وجوهاً قد تزندق تنعماً وظرفاً . تكاد تثقله عُقود الغانيات ، ويفجله تتابع
اللحظات ، كلُّ شمأله نسيم ، وكلُّ جنوبه حياً عميم ، ورأيت أرضها أطيب الأرض
خيما ، وأزينا أديما ، تُنسجُ بالسندس الأخضر ، وتفترُّ عن الأحقوان الأحمر ، ورأيت
بنيانها هو الذى حمده الله فى تنزيله ، وأحبه لنا أن نكون مثله جهاداً فى سبيله ،
مرصوصاً بوقاح الجلد ، ملاءماً بينه بالشيد الممرّد . قد حُصنَ ظاهره على باطنه عن
تداخل الإبر ، ومساكن الذر ، يزلُّ عنه ظفر الطائر ، وتتدحرج عليه أصدقا الناظر .
وتغنى به العروس عن الماوى المنير ، وتستبين به الجفون منابت الشكير من أحداها
والغمير ، متلاقية أقطارها على رجال كأنهم أعلاء عاد ، وثاقه أجسام ، وصلابة
أحلام ، وبُعد مرام . لطفوا عن بدوئية الشام وغلطته ، وجمدوا عن ذوب العراق
وخلابته ، وقد عقدت ألسنتهم بالصدق ، فما ينتثر الباطل من عذباتها . وصحّت
غرائسهم فى المودة ، فما يُجتنى النور من ثمراتها إن سلماً فسلماً ، وإن حرباً فحرباً ، لا
يعرفون تدليس الأخلاق ، ولا تمويه النفاق . وشعراؤهم ملء اليدين ، وكتابهم أثر بعد
عين . أديهم حسنٌ على قلة الملوكتى فيه ، وعلمهم متقنٌ لمن تأمل أدق مسرف فى فتن
معانيه . قد محصن تهذيبُ المهن شرارهم ، وأوهن خيارهم . بلدُهم أطلالٌ وأحوالهم
آل . قويُّهم يُثنُّ ضعفاً ، وصفيفهم يماطل حتفاً . بقيت عليهم أسمالُ النعم ، وذهب
الدهر بأجسادها ، وانجلت عنهم ظللُ المهن وهم يتأوهون من غير آلامها إلا أن فيهم بقية
نقية ، وفيهم موضع تدارك إن رزقوا سيرة مرضية ، فلولا مأرجوه من مداواة
أسقامهم ، وإعادة صالح أيامهم ، لقضانى الانتفاء بمعايشتهم قبل معاناتهم ، وبملاحظتهم
قبل مقاساتهم ، لكننى أعلم أن من يحيى العظام وهى رميم ، ويبعث الروض وهو هشيم ،
وينشئ (الأرض) بعد ماكانت قفاراً ، ويجعل من الشجر الأخضر ناراً قادرٌ على أن
يجعل ثواب بيتى فيهم معونتى على مأنويه لهم ، وجزاء تأملى بهم بلوغ الغرض فى تدارك

ومن رسائله تلك الرسالة التي بعث بها إلى أبي العلاء المعري وأخيه .

« بسم الله الرحمن الرحيم وبه توفيقى

هذه أطال الله لسيدى الشيخين في سبوغ النعمة البقاء ، وأدام لهما في ذورة المجد
الارتقاء . وجعلنى لهما من كل سوء الفداء والوقاء . نفثه مصدر ، وضجرة مأسور
بعثهما صباية الهوى ، تذكيا نار الغرام ، في صباية لقاء تُقلها أيدى السلام :

بقية شلو كسر الين عظمه ومزق جلدأ كان يسر مابقى
أقام فلا تلك الخوافى تطيعه نهوضاً ، نهوضاً ولا تلك القوادم ترتقى

ولا بد للمصدر أن ينفث ، ولا غرو للمأسور أن يتلهث . وجلتها أنى كتبت ،
ومالى جارحة إلا وهى جريئة جهما ، ولا جانحة إلا وهى جانحة إلى قريهما ، ولا قلب
إلا وهو كيفما تردّد وتقلب في مرضاتهما ، ولا نفس إلا وهو كيفما تصعد وتصبوب
ففى موالاتهما ، فالله يخرس على موقدى جزل الغضا بين جنبي ، وموقدى جيش الصباية
كل يوم إلى ، اللذين إن واجهت بهما المروءة أسفر مربدّها ، وسر مكمدّها . وإن
قابلت بهما الفتوة طلع سعدها ، وأورى زندها :

أردد فيهما فكبرى فترجع حسراً فكبرى
كذلك الشمس تنسى العبد من معشاة عن النظر
فإذا هاجت بلا بلى ذكراهما ، وإن كث لا أنساها ، واشتقت أن أراها ، ولم أجد عوضاً عن
سواها

أروم بالذكر شفاء الذى يقلقنى من لوعة الذكر
ولست بالخاصل إلا على إطفاء جر بلقى جر
وعلة الكون إذا طوبت بالجر فى الإفاد لم تجر

مثلت نفسى لديهما ، وقررت مكانها بين أيديهما :

وخلوت أجتلب الرقاد لعنى ألقى خيالاً منهما فأراها
فإذا عدمت النوم لذت بفكرتى لانجاب لى من لى لجرهما
وإذا سلت بمن تيم صباية قلت اللدان هما اللدان هما

الموفيان بعهدى بالغيب ، والساتران لما فئ من عيب ، والمحسنان إلتى إذا أسأت والمصيبان
فى أمرى إذا أخطأت .

دلىئى إن جاز بى مهتد وعونائى إن نخذل الناصير
ولولا تردد فكريهما لما كان لى فى اللجى سائير

من أجتلى غرر محاسنهما من جبهات الدهر ، وأقرأ فضائلهما فى صحائف
العصر ، وأطالع طلعتيها فى مرآة التخيل ، وأشاهد سميتيها بعين التفكير والتأمل . ولا
غرور وإن بعد العهد إذا قرب الود ، ولا ضير إن تناءت الأشباح ، فقد تدانت
الأرواح .

ولكن إذا حاسبت نفسى تأملت فلم تر إلا فكرة قل ماتجبدى
فلا العين ثرغى غير ماكان من نوى ولا القلب يلقى غير ماكان من وجد
وإلى لجائى البعد والبعد قاتلى وشاحد حدّ البين والبين لى مُردى
لوا أسفاً من ذا ألوم على النوى ومن قلى كان الفراقى ومن عندى
وكم قد أقلت الدهر من خطأ نسى فهلاً أقال الدهر من خطأ فردى
ففس من كرب وفرج من أسى وجمع من شت ، وقرب من بعد

وهيات ! . هو الدهر الذى يسر نادراً ، ويسوء مبادراً ، ويحسن مبتدئاً ويسوء
آخراً :

ويجود ثم يجيد أجد صلاته مستدركا خطأ الجميل فمدركا
فإلى الزمان أدم مألقيه من غير الزمان واستيم إلى البكا
وإذا شكوت إلى سواه صنيعة لم يشكبنى فالليه منه المشتكى

فلعله أن يغلط باجتماع ، لا يكدره الصداق ، أو تلاق لا ينغصه اقرار ، وهو
المرجو من طول الله تعالى ، ولولا ماأرجوه من عوده إلى ماعود من جمع الفريقين ، ولم
ذات البين ، لمت كمدا ، ولم أجد على ماأقاسيه جلدا ، فأما حالى وماأنا عليه ، فجملتها
أنى أصبح وأمسى فى غل التدبير ، وأروح وأغدو فى سجن المقادير ، هدفا لسهام الليالى
والأيام ، وغرضاً لأسنة الأحوال والأعوام ، أجد مالا أريد ، وأريد مالا أجد :

وليتنى من زمانسى خرجت رأساً برأسى

فلم يئبى بحير ولم يصبى يأس
وهما يريان ذلك فى اضطراب حطى ، ورجوع ألفاظى شيئاً فشيئاً إلى حطى ،
فإذا هما صرفاً التأمل إلى ، واقبلاً بكلية فهمهما على وجدانى :

وقد استحال همى فى فتخالسى من طول ما أجند الجوى مسرورا
وقد انطوت منى الضلوع على أسى لو كان محسوساً لكان سهيرا
وأخلق بمن كانت هذه صفته ، أن تتساوى عنده الصحة والسقم . وأخرى بمن
كان هذا نعته أن يتأثل لديه الراحة والألم .

بأى فؤاد أقاسى الموم وفى أى جفن أحس السهادا
وما ترك الدمع لى مقلسة ولا خلف البين عندى فؤادا
وأنا مع كمال هذه الأحوال أخاشن الحجر ، وأحاسن القمر ، وأفاضل الهجان
باهجن ، وأفضل العنائة على السمن .

أنعاطى نرح الركى وقد قص
ولعهدى بفكرق وهى تنجا
غير ألى وإن تعاورنى همم
ورمانى مستيقنا أن قلباً
لا أبالى بالليل طال أم اليو
والمنادى هو المراوح من هم
وإذا العين لم تعاین سوى الش
وابنى افسر لا ابنه أنا إذ كل
ر عن أن ينال ماء رشاء
ب بها عن صباحها الظلماء
وشاء الزمان مالا أشاء
بين جنى صخرة صماء
م ، كلا الزيتين عندى سواء
حى فهذا الصباح ذاك المساء
وإ فئان ظلمة وضياء
ابن همم بليئة عمياء

وبعد فهذا أدام الله عز سيدى الشيخين — قول أستغفر الله منه ، وأسأله التجاوز
عنه ، واسلم للمحتوم فى أمره ، وأرضى بقدره فى خيره وشره ، وأسأله الجمع بينى
وبينهما على حال تسر الولى وتسوء العدو بخوله وطوله . إنه ولى الإجابة ، والقادر عليها
إن شاء الله تعالى . « .

والرسالة كما نرى تست عن صدر محرور ، وقلب مونتور ، وتكشف عما لا تقاه كاتبها
من أزمات ، ومعاناة فى حياته الغريبة بين مصر وأقطار الشام والعراق ، وقد لاقى فيها

مالاتقى من الأحداث الكبار .

وهو يبعث بالرسالة إلى عالم أديب فيلسوف كانت له أيادٍ في العلم والفكر .
والرسالة غريبة في طراز الرسائل التي كتب ، لأنه مزج فيها بين البث والشعر وكلاهما
من صنعه ، وفاضل بين الترسل والنظم ، فأجرى منها فرسي رهان ودل على تمكنه من
التعبير وامتلاكه ناحية اللغة ، مع علم عزيز ، وعلوباع في الأدب ، وكثرة محفوظ
لترائه .

ولاشك أنه يراعى مكانة المرسل إليه في الأدب واللغة ، فهو يحافظ على كل كلمة
ينثرها ، وكل لفظة ينظمها ، لا يدع مجالاً لأن يختل ترسله ، أو يهن نظمه .

والرسالة بعد هذا كله تدل على علو كعب صاحبها في فنّي الكلام مما سنفصل فيه
القول عند وقتنا معه .

الرسائل الموضوعية

وندع هذا اللون من الرسائل إلى ضرب آخر لم يقصد به التراسل ، بل الافضاء بما
يدور في خلد الكاتب من فكر حول موضوع بعينه ، فهو من الرسائل التي تدور في
موضوعات العلم . وربما أطلق عليها اسم الرسالة لكونها في حجمها لا تبلغ شأو
الكتاب . وهي أشبه بالمقال .

ومنها كما عرفنا رسائل كثير من البلغاء والأدباء في عصر سابق على هذا العصر ولعل
أشهرها فيمن عرفنا رسائل الجاحظ ، وهي ليست أقل أهمية من كتبه بل لعلها تفوق
بعضها لتركيزه القول في الموضوع الذي يطرقه بما يجعل أثرها في القارئ أقوى ،

وهذا ما كانت عليه الحال كذلك في رسائل البلغاء في عصر الفاطميين من المصريين
والمشاركة أو المغاربة ، ولم عرفنا من الرسائل لهذا العصر بقيت بقاء الدهر واشتهرت في
الخافقين كرسالة الغفران لأبي العلاء المعري ، والرسالة المصرية لأمية بن أبي الصلت ،
وبعض رسائل ابن الصيرفي على بن منجب .

ولما كانت بعض هذه الرسائل لجماعة من كبار كتاب العصر وأدائه ، وكانت
كذلك من أشهر أعمالهم الأدبية ، وقد تناولها أو تناول بعضها كرسالة الغفران جماعة
من الدارسين والباحثين في العالم العربي والاسلامي ، وفي العرب المسيحي

فليس لنا بعد قولهم فيها من مزيد ، اللهم إلا أن نعرض لموضوعها ، ومناسبتها لنضعها في مكانها من هذا العصر الحافل تراث الأدب والفكر .

رسالة الغفران :

ومعروف أن أبا العلاء المعري ألف رسالة الغفران ردًا على رسالة ابن القارح التي عرض فيها لجملة من قضايا اللغة والأدب والفكر والدين في عصره ، وليست غرابة الرسالة ولا كان تفرداها واهتمام الناس بها من بين جميع رسائل أبي العلاء ، بل دون جميع رسائل العصر لأنها تناولت بعض القضايا الأدبية أو الدينية والفكرية الهامة ، فقد تناثرت معظم هذه القضايا في كتب مفكرى العصر وأدبائه ، بل إن منهم من عاجلها بصورة أكثر شمولاً من أبي العلاء في رسائل ومؤلفات عدة . بل إن أهمية رسالة الغفران تتعلق بذلك النمط الخيالي الذى بناها عليه المعري مما جعلها نموذجاً متفرداً ، بل شكلاً جديداً . في الرسائل العربية والاسلامية لم يسبق إليه حتى إن بعض أدباء عصره حاولوا تقليده والسير على مناهجه فيها مثل ابن شهيد الأندلسي في رسالته « التوابع والزوابع » . وقد قام كثير من الجدل حول إمكانية هذا التقليد . لتقارب زمنهما .

ولم يكن أثرها مقصوراً على الأدب العربى وحده ، بل تعداه إلى آداب الغرب في العصور الوسطى ، وكم تحدث العلماء والباحثون عن العلاقة بين « جحيم » دانتي ، وغفران أبي العلاء .

ورسالة الغفران — كما نعلم — جواب على رسالة لابن القارح على بن منصور الحلبي وكان قد كتب بها من حلب إلى أبي العلاء ، وقد اتصلت الأسباب بين الثلاثة الأعلام أبي العلاء وابن القارح وابن المغيرة ، كما اتصلت أسباب الثلاثة بالفاطميين ودولتهم ورجالهم ، وكان لهم شأن في مجريات الأحداث وكان لهم شأن في بعض مدار من الحوار والتراسل على ما عرفنا من قبل من رسائل بين المعري وداعى الدعاة ، وما قيل من دعوة الحاكم بأمر الله أو المستنصر لأبي العلاء إلى مصر ، والرسائل والعلاقة التي قامت بين الوزير المغربي وأبي العلاء ، وقد أوردنا رسالة المغربي ، وهذا ثالث وابن القارح كانت علاقته بالفاطميين بيّنة لأنه ذهب إلى مصر مُستدْعَى من الشام للانضمام إلى علي بن الحسين والد أبي القاسم الوزير المغربي .

وحدث بين ابن القارح وأبي القاسم ما حدث ، وكانت له آثاره في رسالته إلى أبي العلاء والتي يقول فيها : (١) .

« كنت أختلف إلى أبي الحسن المغربي — (ببغداد) ... ثم سافرت إلى مصر ولقيت أبا الحسن المغربي فألزمني حتى لزمته لزوم الظل ، وكنت منه مكان المثل في كثرة الإنصاف والحنو والتّحاف . فقال لي سرّاً : أنا أخافُ ثمة أبي القاسم أن تنزرو به إلى أن يوردنا ورداً لا صدر عنه . وإن كانت الأنفاس مما تحفظ وتكتب ، فاكتبها واحفظها وطالعتي بها .

فقال لي يوماً : ما نرضي بالخمول الذي نحن فيه ، قلت : وأي خمول هنا ؟ . تأخذون من مولانا — تحلّد الله ملكه (٢) — في كل سنة ستة آلاف دينار ، وأبوك من شيوخ الدولة ، وهو معظم مكرّم . فقال : أريد أن تُصارَ إلى أبوابنا الكتائب والمواكب والمقائب (٣) . ولا أرضى بأن يجرى علينا كالولدان والنسوان .

فأعدت ذلك على أبيه ، فقال : ما أخوفني أن يخضب أبو القاسم هذه من هذه ، وقبض على لحيته وهامته . .

وعلم أبو القاسم بذلك ، فصارت بيني وبينه وقفة » .

ويروي ابن القارح كيف أنه غادر مصر وغاب عنها إلى الحج زمناً ، وكان أن فتك في هذه الأثناء الحاكم بأمر الله بأبي الحسين وإخوته ، وقتل الحسين بن جوهر . وفر أبو القاسم الحسين إلى الرملة بالشام .

وكانت مناسبة ذكر الوزير المغربي في رسالة ابن القارح أن أبا العلاء ذكره بأنه الذي هجا ذلك الوزير . ويبدو أن العداة بين الوزير وابن القارح انتشر وذاع حتى بلغ أسماع أبي العلاء وعلق بذهنه ، وكانت مناسبة أن ذكره بذلك بين بعض أصحابه ، فنقلوه إلى ابن القارح في حلب . فكانت هذه الرسالة التي بعثت أبا العلاء على أن

(١) التورير المغربي

(٢) انصلي بعنه

(٣) نصير بعنه

يكتب رسالة الغفران ، وهي من أجمل ما حملت لنا أيام تلك الفترة من النصوص الأدبية .

ألا ترى معنى إذا كيف تشابكت ظروف السياسة والأدب والفكر ، والتعارف والتعادي بين أعلام السياسة والفكر والأدب وتكاثفت لتبرز لنا كلها في هذا النص وغيره ؟

كانت رسالة ابن القارح عتاباً ، وذكر الأحواله ، وادلالاً بنفسه وعلمه وشيوخه وربما أراد من هذا كله أن يعرض بأنه لا يعرف بهجاء الوزير المغربي كما ذكر أبو العلاء وإنما يعرف بماله من مكانة في العلم والأدب واللغة ، وأنه حصل على مشاهير علماء العصر من أمثال ابن خالويه ، وأبي علي الفارسي ، وأبي سعيد السيرافي ، وعلي بن عيسى الرماني وأبي عبيد الله المرزباني ، وأبي حفص الكتاني . يقول : (١) .

« كنتُ أدرس على أبي عبد الله بن خالوية رحمه الله ، وأختلف إلى أبي الحسن المغربي ولما مات ابن خالوية سافرت إلى بغداد ، ونزلت على أبي علي الفارسي . وكنت أختلف إلى علماء بغداد : إلى أبي سعيد السيرافي ، وعلي بن عيسى الرماني ، وأبي عبيد الله المرزباني وأبي حفص الكتاني ، صاحب أبي بكر بن مجاهد . وكتبت حديث رسول الله ﷺ ، وبلغت نفسي أغراضها جهدي والجهدُ عأدر . ثم سافرت منها إلى مصر . » .

وذكر ابن القارح في هذه الرسالة بعض انحرافات العقيدة ، ومن ثار من إثنائين وخرج من الخارجين على جادة الدين من مدعي النبوة ، والمنتسبين والمتألهين ، والملاحدين المارقين . وذكر منهم عدداً منذ فجر الإسلام كابن المعدل ، وبشار بن برد ، والبازيار ، والأفشين وابن الراوندي ، والحلاج وغيرهم .

وذكر بعض ادعاءات هؤلاء ومفترياتهم ، وما عترضوا به على الإسلام وكتاب الله ، ونبوة نبيه محمد ﷺ وغيره من الأنبياء .

وجعل ابن القارح الرسالة معرضاً لمعرفة في الملل والنحل والتاريخ والأدب واللغة محاولاً أن يتبرأ من مثل هذه الدعاوى الباطلة ، وأن يصل إقلبه وعقله بالعقيدة الصحيحة دون أن ينافق أحداً ، أو يهيم في سبيل المال لمسألة إنسان .

(١) من رسالة ابن القارح ، مقدمه . رسالة العنبران بتحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن الضمّة السابقة ذوات

العدد ١ ، ص ٤٠ (٤) — مدار التعارف سنة ١٩٧٧ . ص ٥٦ — ٥٧ .

ولعل التعريض في هذا واضح بما كان يدور في مجال الدعوة والفكر بين المعسكرين الاسلاميين في بغداد الخلافة العباسية السنية والقاهرة حيث الدولة الفاطمية الشيعية وما بينهما من البلاد الاسلامية وقد ننازعتها الملل والأهواء والحل . بين قمرطية وإمامية وإسماعيلية نزارية .

وربما أراد ابن القارح وقد بلغ من السنّ مبلغاً أن يعبر عن هذه الرغبة في أن ينجو بنفسه من معترك تلك العقائد والملل ، وأن يمسك بخبل كتاب الله ، والصحيح الثابت من سنة رسوله الكريم . ليفوز برضوان الله ، وقد آذنت أيامه بانقضاء .

وعرف المعري هذا كله في الرسالة ، فلم يبادر بالردّ على ماورد فيها مباشرة ، بل بدأ عرضاً فنياً جميلاً في رحلة خيالية في اليوم الآخر ، ليصحب صاحبه ابن القارح في رحاب الجنة التي أعدها للمتقين ، وأن يطوف به اليوم الآخر يوم البعث ليلقي جماعة من الشعراء والأدباء ، فيقف معهم وقفة للمحاوراة والمذاكرة . وإنشاء الشعر .

ويبدأ أبو العلاء رسالته بالاعتذار لابن القارح عما بدا منه من ذكره بهجاء ابن المعري وابداء ما يضمن له من المحبة والتقدير .

« ... يُضمّر من محبة مولاى الشيخ الجليل — ثبّت الله أركان العلم بحياته — مالا تضمنره للولد أم . » .

ثم يقول بعد فذلكة لغوية عرفت عند أبى العلاء في كثير من رسائله : (١) .

« ... وقد وصلت الرسالة التي يخرها بالحكم مسجور ، ومن قرأها مأجور ، إذ كانت تأمرُ بتقبُّل الشرع ، وتعيب من ترك أصلاً إلى فرع . وقد غرقت في أمواج بدعيها الزاخرة ، وعجبتُ من اتساق عقودها الفاخرة . ومثلها شفع ونفع ، وقرب عند الله ورفع . وألفتها مفتحةً بتمجيد صور عن بليغ مجيد . وفي قدرة ربنا — جلّت عظمتها أن يجعل كلَّ حرفٍ منها شبح نور ، لا يمتزج بمقال الزور . يستغفر لمن أنشأها إلى يوم الدين ، ويذكره ذكر محبّ خدين . ولعله سبحانه ، قد نصب لسطورها المنجية من اللهب معاريج من الفضة أو الذهب ، تخرج بها الملائكة من الأرض الراكدة إلى السماء ، وتكشف مسجوف الظلماء بدليل الآية : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل

(١) رسالة العفراء ص ٢٣٩ — ٤٠

الصالح يرفعه ﴿ . وهذه الكلمة الطيبة كأنها المعنية بقوله : ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ﴾ .

وفي تلك السطور كلم كثير ، كله عند الباري — تقدس ، أثير . فقد غرس ملولاي الشيخ الجليل — إن شاء الله — بذلك الثناء ، شجر في الجنة لذيد اجتناء . كل شجرة منه تأخذ ما بين المشرق والمغرب بظل غاط (١) ، ليست في الأعين كذات أنواط . (٢) » .

مشاهد الجنة — وجولة ابن القارح بها .

ويعرض مشاهد متخيلة من جنة الخلد بما فيها من أنهار لبن وعسل ، وما فيها من أواني الذهب وفراش الاستبرق وما شابهه من فاخر الشيء الذي لا يشبهه متاع الدنيا .

ويعرج به إلى مشهد آخر فيقول : « ثم إنه أدام الله تمكينه يخطر له حديث شيء كان يسمى الزهة في الدار الفانية ، فركب نجيباً من نجب الجنة خلق من ياقوت ودر ، في سجسج بعد عن الحرّ والقر ، ومعه إناء فيهب ، فيسير في الجنة على غير منهج ، ومعه شيء من طعام الخلود ، ذخر لو ولد سيعد أو مولود ، فإذا رأى نجية يملع (٣) بين كتابان العنبر ، وصنيمران وصيل بصعب (٤) ، رفع صوته متمثلاً بقول البكري :

ليث شعري متى تحبُّ بنا النا قة نحو العديب فالصيون
محمّياً ذكرة ، وحجز رُقاسي وجاقاً ، وقطعة من نون

يعنى بالحياقي جُرزة البقل . فيهتف هاتف : أتشعر أيها العبد المغفور له لمن هذا الشعر ؟ . فيقول الشيخ : نعم حدثنا أهل ثقتنا عن أهل ثقتهم ، يتوارثون ذلك كابرأ عن كابر ، حتى يصلوه بأبي عمرو بن العلاء ، فيرويه له عن أشياخ العرب ، حرشة الضباب في البلاد الكلدات (٥) ، وجناة الكمأة في مغانى البداة ، الذين لم يأكلوا شيراز (٦) الألبان ،

(١) حاط واسع مسبو .

(٢) ودات أنواط شجرة ذات تعدد في الخاهنية .

(٣) يملع : سرح ويحف ، والذبح الدافة أو الفرس السريع

(٤) صعر شامع شحم شندر

(٥) الكلدات العنبر .

(٦) شيراز .

ولم يجعلوا الثمر في الثَّبان^(١) ، أن هذا الشعر لميمون بن قيس بن جندل أخى بنى ربيعة بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعيب بن علي بن بكر بن وائل . « . فيقول الهاتف : أنا ذلك الرَّجل ، من الله عليّ بعدما صرث في جهنم على شمير ، ويثست من المغفرة والتكفير . فيلتفت إليه الشيخ هتاشاً ، مُرتاحاً ، فإذا هو بشاب غرائق^(٢) ، غير في النعيم المفايق^(٣) ، وقد صار عشاؤه حوراً معروفاً ، وانخاء ظهره قواماً موصوفاً . فيقول : أخيرني كيف كان خلاصك من النار ، وسلامتك من قبيح الشنا . ؟ فيقول : سحبتني الزبانية إلى سقر ، فرأيت رجلاً في عرصات القيامة يتلألاً وجهة يتلألاً القمر والناس يهتفون به من كل أوب : يا محمد . يا محمد ، الشفاعة ! الشفاعة !! . نمت بكذا ، ونمت بكذا . فصرخت في أيدي الزبانية : يا محمد أغثنى فإن لي بك حرمة ! . فقال : يا عليّ بادره فانظر ما حرمة ؟ . فجاءني علي بن أبي طالب — صلوات الله عليه — وأنا أعتل كي ألقى في الدرك الأسفل من النار ، فزجرهم عنى وقال : ما حرمتك ؟ . فقلت : أنا القائل :

ألا أيهذا السائل أين أمث	فإن لها في أهلي يثرب موعدا
فأليت ، لا أرثى لها من كلالية	ولا من خفي ، حتى تلاقى شمدا
متى ما تناجى عند باب ابن هاشم	ثراحي ، وثلقى من فواضله ندى
أجدك لم تسمع وصاة محمد	نبي الإله حين أوصى وأشهدا
إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى	وأبصرت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثله	وألك لم ترصد لما كان أرضدا
فإياك والميتات لا تقرننها	ولا تأخذن سهماً حديداً لتقصدا
ولا تقرن جارة إن سرها	عليك حرام فانكحن أو تابدا
نبي يرى ما لا يرون ، وذكروه	أغار لعمرى في البلاد وأنجدا

وهو — أكمل الله زينة المحافل بحضوره — يعرف الأقوال في هذا البيت ، وإنما أذكرها لأنه قد يجوز أن يقرأ هذا الهديان ناشيء لم يبلغه .

الناس . أديال القمصان

(٢) الغرائق : الأبيض الحميل الصورة

(٣) المفايق الساعم

حكى الفراء وحده أغازَ بمعنى غارَ . إذا أتى الغور - وإذا صحَّ هذا اليث للأعشى، فلم يُرذ بالإغارة إلا ضد الإنجاد . وروى عن الأصمعي روايتان : إحداهما أن أغاز في معنى عدا عدواً شديداً . وأنشد في كتاب « الأجناس » .

فعدَّ طلابها وتسلَّ عنها بناحية إذا جرت - فسر

.....

ويقول الأعشى : قلتُ لعلِّي ، وقد كنتُ أومن بالله ، وبالْحساب ، وأصدُقُ بالبعث وأنا في الجاهلية الجهلاء ، فمن ذلك قولي :

فما أتَيْسَى على هَيْكَلِ بَتَاءَ وَصَلْبٍ لِيهِ وَصَارَا
يَرَاوُحُ مِنْ صَلَوَاتِ الْمَلِيكِ طَوْرًا سَجُودًا وَطَوْرًا جُؤَارَا
بِأَعْظَمِ مِنْكَ ثَقَى فِي الْحِسَابِ إِذَا التَّسْمَاتُ نَفَضْنَ الْغَبَارَا

نذهب علىَّ إلى النبي ﷺ ، فقال : يارسول الله هذا أعشى قيس قد روى مدحُك فيك ، وشهد أنك نبيُّ مُرسل ، فقال : هلاً جاءني في الدار السابقة ؟ . فقال علي : قد جاء ولكن صدته قريشٌ وحُبُّه للخمر . فشفع لي ، فأذخلتُ الجنة علي أن أشربَ فيها خمرا ، فقررتُ عيناي بذلك ، وإن لي منادِخَ في العسل وماءِ الحيوان ، وكذلك من لم يثب من الخمر في الدارِ الساخرة ، لم يُسَقها في الآخرة .

* * * *

وينظر الشيخ في رياض الجنة فيرى قصرين منيفين ، فيقول في نفسه : لأبلغن هذين القصرين فأسال لمن هما ؟ . فإذا قُرب إليهما رأى علي أحدهما مكتوباً : هذا القصرُ لزهير ابن أبي سلمى المزنئى وعلى الآخر : هذا القصرُ لعبيد بن الأبرص الأسدي ، فيعجب من ذلك ويقول : هذان ماتا في الجاهلية ولكن رحمة ربنا وسعت كل شيء ، وسوف أتمس لقاء هذين الرجلين فأسالهما بم غفرَ لهما . فيبتدىء بزهير فيجده شاباً كالزهرة الجنية ، قد وهب له قصرٌ من وثية^(١) . كأنه ما ليس جلاب هرم ولا تأفف من البرم . وكأنه لم يقل في الميمية :

سَمِعْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَبْشُرُ ثَمَانِينَ حَوْلًا ، لَا أَبَالِسُكَ ، يَسْأَمُ

(١) الية التوثية نور النشرة

ولم يُقَلِّ في الأخرى :

ألم تُرِنِي عُصْرَتُ بَسْعِينَ حُجَّةً وَعَشْرًا تَبَاعاً عَشْتَهَا وَثَمَانِيَا

تقول : جَيْرٌ ، جَيْرٌ ! ، أأنت أبو كعبٍ وُبَجَيْرٌ ؟ . فيقول : نعم . فيقول — أدام الله ه — : بِمِ غُفِرَ لَكَ ، وقد كنت في زمان الفترة ، والناسُ هُمْلٌ ، لا يَحْسُنُ مِنْهُمْ الْعَمَلُ ؟ . فيقول : كانت نفسي من الباطل تُفُورًا ، فصادفتُ ملكاً غفُورًا ، وكنْتُ مؤمناً بالله العظيم ، ورأيت فيما يرى النَّائمُ حَبلاً نزل من السماء ، فمن تعلق به من سكان الأرض سلم ، فعلمتُ أنه أمرٌ من أمر الله ، فأوصيتُ بنيي وقلتُ لهم عند الموت : إِنْ قَامَ قَائِمٌ : « يدعوكم إلى عبادة الله فأطيعوه . ولو أدركتُ محمداً لكنْتُ أول المؤمنين . وقلتُ في الميمة ، والجاهلية على السكينة ، والسفه ضاربتُ بالجران :

فلا تكتُمَنَّ اللهُ ما في نفوسِكُمْ ليخفى ، ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتابٍ فيُدْخِرُهُ ليوم الحساب أو يُعْجَلُ ، فيُنْقِصُ

فيقول : أأست القائل :

وقد أغدو على ثبئة كرام نشاوي ، واجديسن لما نشاء
يجزؤون البرود وقد تمثشت حُميا الكأس فيهم والغناء

أفأطلقت لك الخمرُ كغيرك من أصحاب الخلود ؟ . أم حرمت عليك مثل ما حرمت على أعشى قيس ؟ . فيقول زهير : إِنْ أَخَا بَكَرَ أَدْرِكُ مُحَمَّدًا ، فوجبت عليه الحجة ، لأنه بعث بتحريم الخمر ، وحظرت ما قبَحَ من أمر . وهلكتُ أنا والخمر كغيرها من الأشياء ، يشربها أتباع الأنبياء ، فلا حُجَّةَ عَلَيَّ .

فيدعوه الشيخ إلى المنادمة ، فيجده من ظراف الندماء . فيسأله عن أخبار القدماء . ومع المنصف^(١) باطية من الزمرد فيها من الرحيق المختوم شيءٌ يُمزج بزنجبيل ، والماء أخذ من سلسيل . فيقول — زاد الله في أنفاسه — أين هذه الباطية من التي ذكرها السروي في قوله :

ولنا باطية مملوءة جونة يتبغها بزذنيها
فإذا ما طردت أو بكأت فأت عن خاتم أخرى طينها

* * * *

(١) المنصف : احادم .

ويعر ابن القارح في الجنان بقصرى النابتين نابغة ذيبان والنابغة الجعدى فيجلس إليهما ويدور الحديث في شعرهما ، ويتحدث التلاحى بينهما من مثل قول النابغة الذيباني للنابغة الجعدى :

« أتقول هذا وإن بيتاً مما بنيتُ ليعدلُ بمائة من بنائك ؟ . وإن أسهبت في منطقتك ، فإن المسهب كحاطب الليل ، وإنى لفي الجرثومة من « ربيعة الفرس » . وإنك لمن بنى جعدة ، وهل جعدة إلا رائدةٌ ظليم تُعور . أتعيرني مدح الملوك ؟ . ولو قدرت يا جاهل على ذلك لهجرت إليه أهلك وولدتك ، ولكنك خلقت جباناً هذاناً (١) . لا تدلجُ في الظلماء الداجية ، ولا تهجرُ في الوديقة الصاخدة (٢) ، وذكرت لي طلاقُ الهزانية ، ولعلها بانت عتي مسرة الكمد ، والطلاقُ ليس بمنكر للسوق ولا للملوك . فيقول « الجعدى » : اسكت يا ضلُّ بن ضلِّ ، فأقسم أن دخولك الجنة من المنكرات ! ولكن الأفضية جاءت كما شاء الله ، لحقك أن تكون في الدرك الأسفل من النار ، ولقد صلى بها من هو خير منك . ولو جاز الغلط على رب العزة لقلت : إنك غلط بك ألسنت القائل ؟ .

فدخلتُ إذ نام الرقـ	يب ، فبك دون ثيابها
حتى إذا ما استرسلت	في النوم بعد لعابها
قسمتها قسمين كل	مؤود يرمى بها
ثنيث جيد غريرة	ولست بطن جقابها
كالحقة الصفراء صا	ك عيرها بملاها
وإذا لها تامسورة	مرفوعة لشرابها

واستقلت بيني جعدة ، وليوم من أيامهم يرجح بمساعى قومك . وزعمتنى جباناً وكذبت لآنا أشجع منك ، ومن أليك . وأصير على إدلاج المظلمة ذات الأريز (٣) . وأشدُّ إيغالاً في الهاجرة أم الصخدان (٤) .

(١) الهدان : الأحمق الخاق

(٢) الوديقة : شدة الحر . . ساحنة المحرة . وصحدا نيوم اشتد حره

(٣) الأريز البرد . التصع

(٤) والصخدان حر . . وصحدا النهار بصحدا اشتد حره

ويثبت نابغة بنى جمعة على « أبى البصير » فيضربه بكوز من ذهب ، فيقول :
 أصلح الله به وعلى يديه — لا عريدة في الجنان ، إنما يعرف ذلك في الدار الفانية بين
 السفلة والهجاج . وإنك يا أبا ليلى لمتنزع — وقد روى في الحديث أن رجلاً صاح
 بالبصرة . يآل قيس . فجاء النابغة الجعدي بعصبة له ، فأخذه شربطى أبى موسى
 الأشعري فجلده ، لأن النبي ﷺ قال : من تعز بعزاء الجاهلية فليس منا . ولولا أن في
 الكتاب الكريم : ﴿ لا يُصدَّعون عنها ولا ينزفون ﴾ لظنناك أصابك نزف في عقلك .
 فأما أبو بصير ، فما شرب إلا اللبن والعسل . وإنه لوقور في المجلس ، لا يخف عند حل
 الحبو . . » .

وهكذا يظل الحوار والتلاحي بين الشاعرين يجريه المعرى في اقتدار ، وملاحية ، يشير
 حيناً إلى فكرة ، أو يرمز لها ، ويكسب العبارة أحياناً روح السخرية ، وأحياناً روح
 الفكاهة ، لكنها تخفى وراءها ماتخفى من المعنى الذى لا يريد التصريح به ، وإنما يفهمه
 الأملعى الذى يظن بك الظن .

ومن هنا جاءت رسالة الغفران بهذا الإمتاع ، إذ ليست تعبيراً صارماً أو مباشراً عن
 رأى المؤلف ، ولا جذلاً فارغاً من حلاوة الحديث ، يغلفه حفاء العلم ، وزهامة العقل .
 بل قول جميل ينتقل بك في رياض الجنان ورياض الأدب ورياض الفكر من روضة إلى
 روضة تستروح النفس فيها ما تستروحه من نسيمات ، يلتقط الفكر ما يلتقط من
 ثمرات .

ويخرج أبو العلاء بصاحبه ابن القارح من تلك الجولة أو النزهة في جنات النعم | ليطلل
 إطلالة على أهل الجحيم .

جولته في الجحيم :

يقول : (١) « ويبدو له أن يطَّلِعَ إلى أهل النار فيظنر إلى ما هم فيه ، ليعظّم شكره على
 النعم ، بدليل قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَاتِلْ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ أَأُنْكَ مِنَ الْمُصَدِّقِينَ ،
 إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَأَنْتَا مُدِينُونَ . قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلَعُونَ ، فَأَمْلَحَ فَرَأَاهُ فِي سِوَاءِ
 الْجَحِيمِ ، قَالَ تَاللَّهِ إِنَّ كَيْدَ لُتْرَيْنِ ، وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي ، لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَبِينَ ﴾ .

(١) رسالته المعري ص ٢٩٨ .

فيركبُ بعض دواب الجنة ويسيرُ ، فإذا هو بمدائن ليست كمدائن الجنة ، ولا عليها الثورُ الشعشعانيُّ ، وهي ذات أدحالٍ (١) وعماليلٍ (٢) . فيقول لبعض الملائكة : ما هذه يا عبد الله ؟ . فيقول : هذه جنةُ العفاريت الذين آمنوا بمحمد ﷺ ، وذكروا في الأحقاف ، وفي سورة الجن . وهم عددٌ كثيرٌ . فيقول لأعدلنَّ إلى هؤلاء ، فلن أدخلوهم من أعجوبة ، فيعوج عليهم فإذا هو بشيخ جالس على باب مغارةٍ ، فيسلمُ عليه ، فيحسنُ الردَّ فيقول : ماجاء بك يا إنسي ؟ . إنك بخيرٍ لعسي ، مالك من القوم سيِّئ . فيقول : سمعت أنكم جنُّ مؤمنون ، فجئتُ أتمس عندكم أخبارَ الجنانِ ، وما لعلهُ لديكم من أشعار المردة . فيقول ذلك الشيخ : لقد أصبت العالمَ ببجدةِ الأمر ، ومن هو منه كالتَّمَر من الهالة ، لا كالحاقين من الإهالة (٣) . فسل عما بدالك .

فيقول : ما سمكتُ أيها الشيخ ؟ . فيقول : أنا الخيتورُ أحد بني الشيصبان ، ولسنا من ولد إبليس ، ولكننا من الجن الذين كانوا يسكنون الأرض قبل ولد آدم صلى الله عليه .

فيقول : أخبرني عن أشعار الجن . فقد جمع منها المعروف بالمرزباني قطعاً صالحة . فيقول ذلك الشيخ : إنما ذلك هذيان لا معتمد عليه . وهل يعرف البشر من النظم إلا كما تعرف البقرُ من علم الهيئة ومساحة الأرض ؟ وإنما لهم خمسة عشر جنساً من الموزون قل ما يعدوها القائلون ، وإن لنا لآلاف الأوزان ما سميع بها الإنس وإنما كانت تحظرُ بهم أطيافاً منا عارمون ، فتنبهُ إليهم مقدار الضوازة (٤) من أراك نعمان (٥) . ولقد نظمتُ الرجز والقصيد قبل أن يخلق الله آدمَ بكورٍ أو كورين . وقد بلغني أنكم معشرَ الإنس تلهجون بقصيدة امرئ القيس :

قَفَانِيكَ مِنْ دِكْرِي حَيِّبٌ وَمَنْزَلٌ

(١) الأدحال : جمع دحل وهو الثقب في الأرض الصيق الأعلى الواسع الأسفل . وتكثر مثل هذه الأدحال في جزيرة العرب ، وجاءت في أخبارهم . وهي من مخاوف البادية .

(٢) عماليل . جمع عملول وهو نبات ذو الشجر

(٣) حافر الصنع بونه زبال . من سحم وريت

(٤) الضوازة بالضم شدة من السواك

(٥) نعمان وادٍ بالحجاز

وتحفظونها الحزورة في المكاتب ، وإن شئت أملتكَ ألف كلمة على هذا الوزن على مثل منزل ، وحوامل وألفاً على ذلك القَبْرَى . يجيء على منزل وحوْمَل ، ألفاً على منزلاً وحوماً ، وألفاً على منزله وحومله ، وألفاً على منزله وحومله .

وكل ذلك لشاعر مبتأ هلك وهو كافر . وهو الآن يشتغل في أطباق الجحيم . فيقول — وصل الله أوقاتهِ بالسعادة : أيها الشيخ ، لقد بقي عليك حفظك . فيقول : لسنا مثلكم يابني آدم ، يغلب علينا النسيان والرطوبة ، لأنكم خلقتُم من حمأ مسنون ، وخلقنا من مارح من نار ،

فتحملة الرغبة في الأدب أن يقول لذلك الشيخ : أفتمل علي شيئاً من تلك الأشعار ؟ . فيقول الشيخ : فإذا شئت أملتكَ ما لاتسِقُه الركاب ، ولا تسعُه صحفُ دنياك .

فيهمُ الشيخُ — لازالت همته عالية — بأن يكتب منه . ثم يقول : لقد شقيت في الدار العاجلة بجمع الأدب ، ولم أحظ منه بطائل ، وإنما كنتُ أتقرب به إلى الرؤساء ، فأحتلبُ منهم دربكياً وأجهدُ أخلاف معشور^(١) . ولستُ بموفقٍ إن نزلتُ لذاتِ الجنة ، وأقبلتُ أنتسُخُ آداب الجنِّ ومعنى من الأدب ما هو كافٍ ، لاسيما وقد شاع النسيان في أهل أدب الجنة ، فصرت من أكثرهم روايةً ، وأوسعهم حفظاً والحمد لله . « (١) » .

ويظل في حوارٍ مع شيخ الجنِّ ، يورد أبو العلاء خلاله شعراً من صنعه ، ويلتزم فيه مايلتزمُ في القافية على صورة ديوان لزوم ما لا يلزم ، أو اللزوميات .

وينتقل من ناحية إلى أخرى في هذا المكان بين الجنة والنار ، يلقي فيه بعض الشعراء الحظيئة والخنساء . وفي لقائه مع الخنساء يقول^(٢) :

« .. فإذا هو بامرأةٍ في أقصى الجنة قريبة من المطلع إلى النار فيقول : من أنت ؟ . فتقول : أنا الخنساءُ السُّكْمِيَّة ، أحببت أن أنظر إلى صخر ، فأطلعتُ فرأيتُهُ كالجبل

(١) الكيءُ الناقة الحيفة لها ، ونقصور العنبره ناس .

(٢) العراء ص ٢٨٩ ومنهذنا .

(٣) المصدر ص ٣٠٨

الشامخ ، والنار تضطربُ في رأسه . فقال لى : لقد صحَّ مزعمك فئى ، يعنى قولى :
وإن صخرأ لتأتئم الهدأة به كأنه علمٌ فى رأسه نأر

فیطلع فىرى إبلىس — لعنه الله — وهو يضطربُ فى الأغلال والسلاسل ، ومقامعُ (١)
الحدلىد تأخذه من أىدى الزبانىة . فىقول : الحمد لله الذى أمكن منك ياعدو أولىائه ،
لقد أهلكت من بنى آدم طوائف لا يعلمُ عددها إلا الله . فىقول : من الرُّجل ؟ .
فىقول : أنا فلان بن فلان من أهل « حلب » كانت صناعتى الأدب ، أتقرب به إلى
الملوك . فىقول : بمس الصناعة ، إنها تهبُّ غفَّةً (٢) من العىش لا يتسُّع بها العىال ، وإنها
لمزلَّةٌ بالقدم ، وكم أهلكت مثلك ، فهنىعاً لك إذ نجوت ، فأولى لك ثم أولى ، وإن لى
إبلك لحاجةٌ ، فإن قضىتها شكرتك يدُ المنون

فىقول : إنى لا أقدرُ لك على نفع ، فإن الآىة سبقت فى أهل النار ، أعنى قوله
تعالى : ﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم
الله ، قالوا إن الله حرّمها على الكافرىن ﴾ .

فىقول : إنى لا أسألك فى شىء من ذلك ، ولكنى أسألك عن خبر تخبرنىه : إن
الخمر حرّمت علىكم فى الدنيا وأحلّت لكم فى الآخرة ، فهل يفعل أهل الجنة بالولدان
المخلدلىن فعل أهل القرىآت ؟ (٣) .

فىقول : علىك البهلة (٤) . أما شغلك ماأنت فىه ؟ . أما سمعت قوله تعالى : ﴿ ولهم
فىها أزواج من مطهرة وهم فىها خالدون ﴾ .

فىقول : وإن فى الجنة لأشربةٌ كثرىةٌ غىر الخمر ، فما فعل بشأر بن برد ؟ . فإن له
عندى يدأ لىست لغىره من ولد آدم . كان فىضلىنى دون الشعراء . وهو القائل :

إبلىسُ أفصلُ من أىكم آدم فتىئىوا یا معشر الأشرار
النأر عنصرةٌ ، وآدم طينةٌ والطين لا يسمو سمو النار

(١) المقامع : جمع مقمعة على ورد مرسمة ، وهى حشبة أو حدبئة يضرب بها الانسان لىندل أو يُقمع .

(٢) الغفَّة : اللغنة من العىش

(٣) بمسى قرى قوم نوط

(٤) البهلة النعنة . وبهلة لله نعمة

لقد قال الحق ، ولم يزل قائله من الموقنين .

فلا يسكت من كلامه ، إلا ورحل في أصناف العذاب ، يعمض عبيه حتى لا ينظر
إلى ما نزل به من التقم ، فيفتحها الزبابة بكلايب من نار ، وإذا هو سنا بين برد ، قد
أعطى عينين بعد الكمة ، لينظر إلى ما نزل له من النكال .

فيقول له — أعلى الله درجته — يا أبا معاذ ، لقد أحسنت في مقابلك ، وأسأت في
معتقدك ولقد كنت في الدار العاجلة أذكرُ بعض قولك فأنزحُم عليك ، ضنا أن التوبة
ستلحقك ، مثل قولك :

إرجع إلى سكني تعيش به ذهب الزمان وأنت منفرد
نرجو غداً وغد كحاملة في الحى لا يدرون ما تلبس!

وقولك :

واهاً لأسماء ابنة الأشد قامت تراءى إذ رأته وخسبى
كالشمس بين الزبرج المنقد ضنت بخد ، وجلت عن خد
ثم انثت كالنفس المرتد وصاحب كالدمل النمى
أرقب منه مثل حمى السورد حملته في رقبة من جلدى
الحمر يلحى ، والعصى للبد وليس للملحف مثل الرد

الآن وقع منك اليأس ، وقلت في هذه القصيدة « السبد » في بعض قوافيها ، فإن
كنت أردت جمع سبد ، وهو الطائر ، فإن فعلاً لا يجتمع على ذلك ، وإن كنت سكنت
الباء فقد أسأت ، لأن تسكين الفتحة غير معروف . ولا حجة لك في قول الأخطل :

وما كل مفبون إذا سلف صفقة تراجع ما قد فاته برداد

ولا في قول الآخر :

وقالوا : ترابى ، فقلت : صدقتم أبى من تراب خلقه الله آدماء

لأن هذه شواذ . فأما قول جميل :

وصاح بين من بيثة والتوى جميع بذات الرضم صرد محجل

فإن من أنشده بضم الصاد خطيء ، لأنه يذهب إلى أنه أراد التصرد . فسكن الراء
وإنما صرد ، أى خالص . من قولهم : أحمت نجبا صرداً .

ويلتقى في النار بعد ذلك بجماعة آخرين من الشعراء كأمريء القيس وطرفة وعمرو بن كلثوم يقف مع كل واحد منهم وقفة كالتى وقفها مع بشار ، وهو في النار يجمع الجاهلين مع بعض الاسلاميين كبشار والأخطل . وبعد أن يجول جولته في النار يعود أدراجه إلى الجنة .

ويختم حديثه في العود بحديث حَيَاتِ الْجَنَّةِ ، وما دار بينه وبينها من حوار وحديث ذى شجون يجولان فيه في كل وادٍ من أودية الشعر واللغة على عادة أبى العلاء دائما إذ يأتي بالشعر فيقف عند غريبه من لغةٍ فيفصل ويحُرُّ من معلومة إلى أخرى معتمداً على فيض ثرائر من علمه الجَمِّ ... وينتهي المطاف برؤية والعجاج من أهل الرجز .

ثم يقول : « ... ويذكر — أذكره الله بالصالحات — ما كان يلحقُ أخا التدام من فتور في الجسد من المدام ، فيختار أن يعرضَ له ذلك من غير أن يُنزَفَ له لبٌّ ولا يتغيَّرَ عليه خبٌّ ، فإذا هو يخالُ في العظام الناعمة ديبب نمل ، أسرى في المقمرة على رَمَل ، فيترجم بقول : « إياس بن الأرت » .

أعاذِلْ لو شربتِ الخَمْرَ حَتَّى يَظُلَّ لِكَلِّ أَهْلَةَ دَيْبِ
إذا لعذرتسى وعلمت أنسى لما أتلفت من مالى مصيبُ

ويتكىء على مفرش من السندس ، ويأمر الحور العينَ أن يحملن ذلك المفرشَ ، فيضعنه على سرير من سُرر أهل الجنة ، وإنما هو زبرجدٌ أو عسجد ، ويكُونُ البارىء فيه حلقةً من الذهب تُطِيفُ به من كَلِّ الأَشْرَاءِ^(١) حتى يأخذ كلُّ واحدٍ من الغلمان ، وكلُّ واحدةٍ من الجوارى المشبهة بالجمان واحدةً من تلك الخلق ، فيحملُ على تلك الخالِ إلى محلِّه المشيِّد بدار الخلود ، فكلما مرَّ بشجرة نضخته أغصانها بماء الورد قد خلط بماء الكافور ، وبمسكٍ ماجنى من دماءِ الفُور . بل هو بتقدير الله الكريم . وتناديه الثمراتُ من كلِّ أوب وهو مستلقٍ على الظهر ، هل لك ياأبا الحسن ، هل لك ؟ . فإذا أراد عنقوداً من العنب أو غيره . انقضب من الشجرة بمشيئة الله ، وجملته القدرة إلى فيه ، وأهل الجنة يلقونه بأصناف التحية ، ﴿ وآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

لا يزال كذلك أبداً سرمداً ، ناعماً في الوقت المتناول منعماً ، لا تخير الغير فيه مزعماً . «^(٢) وينقضى بذلك القسم الأول من الرسالة ، وهو القسم الخيالي ، وهو

(١) الأَشْرَاءُ جمع شربى مفتحة وهو السحبه يقار دحلوا أشراء الحرم ، أى بواحيه

(٢) رسالة العفراء ص ٣٧٩

الجديد فيها بما ابتدعه أبو العلاء من هذا الجوّ المخلّق في العالم الآخر ، وتصوّره على ما أوحى إليه القرآن وأثارته في ذهنه أحاديث الجنة وما قيل فيها من آثار السلف . وبلا حظ تركيزه على أشياء قال فيها المعترضون كثيراً ، وردّ المنافحون عن كتاب الله كالخمر بالجنة ، وشربها ، وأوصافها وسعم المؤمنين بمجالسها ، كتعمهم بغيرها من ملاذ الدنيا من متاع فاخر ورياش من سندس واستبرق وأرباق الذهب والفضة . وما يتخلقون به من أنواع الأطياب والخلوق من كافور ورنجيل ورياحين . وما يقوم على خدمتهم ومتعتهم من الجوارى الحسان والغلمان .. كل هذا يعرضه أبو العلاء في صور متقابلة بين الرأى والرأى الآخر ، ولا يعذّم التعريض والتلميح كما قلنا ، مما أطلق السنة بعض معارضيه من الشيوخ ورجال الدين بالقادح فيه .

وتجدد الإشارة هنا إلى ماجاء بالرسالة من ذكر لعلى بن أبى طالب ، وصحبته للنبي عندما استغاث به من أرادوا شعاعته ، فبعث إليهم بعلى بن أبى طالب . وكيف أنه ذكره مع النبي ﷺ مسلماً مصلياً . والعصر كما قال قد غلبه التثنيح ، بل أن أبا العلاء نفسه وقع في دائرة الفاطمية ، و ظل نعمودهم ، أحاط به رحابهم من مفكرين وأدباء من أمثال الوزير المعرى وابن القارح ، وغيرهم من رجال الحمدانيين وبقاياهم في حلب وحوها .

وتندّد من أبى العلاء هنا وهناك بعض العبارات والمواقف ، تكشف عن تنوّره أحيانا بما يخالف العقل أو يدلّ على خلاف في العقيدة . وقد ترددت أصداؤه أفكاره التي بثها في شعر اللزوميات ، وبعض رسائله هنا وهناك .

وبعد فإن هذا القسم الأول ينتهى ليبدأ القسم الثانى ، وهو الذى جعله ردّاً منفصلاً على رسالة ابن القارح ، يتناول فيه كل حزبية مما ذكره . ويبدأ هذا القسم الثانى بقوله . « وقد أطلت في هذا الفصل — يعنى القسم الأول — ونعود الآن إلى الإجابة عن الرسالة : (١) .

ويخرج من حديثنا عن رسالة العمران لأبى العلاء إلى رسالة أخرى أدبية من صنع ابن الصيرى على منجى كبير كتاب السنن والامر وصاحب وزيرهما الأفضل بن عبد الحملى وابنه . وقد احترما له رسالة « التثنى على التسلى » .

(١) راجع رسالته مع - من ٣٨١ -

وهذه الرسالة جاد بها قلم ابن الصيرفي بعد مقتل الوزير الأفضل بن بدر الجمالي غيلة بتدبير الأمر^(١). وقد كان الأفضل مخدومه ، وله صنف كتاب الأفضليات والرسالة في رثاء الوزير . ينهج فيها نهج كتاب العصر في شكلها العام من اختيار السجع أداة ، وصورة ييث من خلاله أقواله ، وإيراد ما يعن له ، ويرد على خاطره من أقوال الكتاب والشعراء من معاصريه أو سابقهم ، فيعقب عليها ، مستدركاً ومحللاً .

وقد يستغرب القارئ اسم الرسالة ، كما استغربه أحد معاصريه ، فيرد عليه صاحبها مبينا ، وموضحاً سبب تلك التسمية .

يقول ابن الصيرفي^(٢) : « كنت أنفذت نسخة هذه الرسالة إلى بعض الرؤساء الكبراء ، ممن كان يؤثر الوقوف على ماعمله ، فبلغني أن كاتبه قال لما رأى ترجمة هذه الرسالة قبل الوقوف عليها : هلاً قال : الغلوة في السلوة ١٩ .. وأنكر التدلي ، فكسبت إليه : بلغ عبد الحضره ما انتقد عليه في ترجمة ماخدم به ، وماستبعد من التدلي العائد بدنو الثاني وتقربه ، وقد كان يجب أن يثق على من عمل عجلأ ، وترجم مرتجلاً ، ولم تكن له مهلة لتنقيح ألفاظه وتهذيبها ، وإبرازها في معارض تستحسنها النقدة ، وتهذى بها . وأن بعض من انتقد عليه قال : هلا كانت الترجمة : الغلوة في السلوة ؟

وعبدها يقول : أما الغلوة فهي المرماة ، والمغللة السهم ، فالغلوة غايته . وهذا ضد مراده ، وذلك أن التدلي إنما هو التوصل ، تدليث على الشيء إذا توصلت إليه . ومنه أدلى فلان بجحته إذا توصل بما أتى به إلى بغيته . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ثم دنا فتدلى ﴾ ، وهذه الآية من باب قوله سبحانه : ﴿ ما إن مفاتيحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ﴾ . وهو من المقلوب : أى تنوء بها العصبة أولو القوة ، و : ثم تدلى فدنا .

لا تَقْلُواهَا ، وَاذْلُواهَا ذَلًّا إِنَّ مَعَ الْيَوْمِ أَعْمَاءَ غَلَدُوا

وتقلواها : تبعداها ، واذلواها : قرباها . والدلّو من هذا ، لأنها تقرب الماء بعد بعده فقول عبدها : التدلي على التسلي إنما معناه : التوصل إلى السلوة بأسبابها من التأسى وطلب الثواب ، وغير ذلك .

وقول من قال : الغلوة في السلوة ، إنما هو الوصول إلى غايتها ، والفرق بين من قصد

(١) قتل الأفضل سنة ٥١٤ هـ .

(٢) الأفضليات تحقيق د . ونيد قصاب ود . عبد العزيز المناع ص ٣٢٣ . طبع دمشق سنة ١٩٨٧ م .

التوصل ، وبين من بلغ الغاية لا يخفى عن أحد ، فقد بان تضاد الترجمتين ، وتناقض الغرضين وما ضر من انتقد لو صبر إلى أن يقف على الرسالة ، ثم يقول ما يختار ، ولا يجعل بأن يضع منى ما صدر عني ، فالله المستعان ، وصبر جميل .

وبدا ابن الصيرفي الرسالة بقوله :

« من دلائل تفرّد الله بتدبير برّيته ، وشواهد جرّي الأمور على إرادته ومشيته ، وحجج وحدانيته التي من جحدّها أبان جهلاً وعتناً ، وبراهين ما أخير به في قوله : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا ﴾ أنه سبحانه يُحمد على ما يسلبه كما يُحمد على ما يهبه ، ويُشكر على ما يُزعج ويُضرُّ كما يشكر على ما يهبج ويسرُّ ، فجىء القلوب بما يحدث فيها انصداعاً ، ودَهَم العقول بما يكاد يطيرها شعاعاً ، لم يلفتها ، الجزع عن حمده — جلّ وعزّ وعلا — ولم يمنعها الولة من الرضا بقضائه ، وإن تحمّلت منه باهظاً مُثقلاً .

فالحمد لله الذي لا يُحمد على مكروهٍ سواه ، ولا يفرج شيئاً من مصنوعاته عن الشهادة له بأنه إله . وصلى الله على سيدنا محمد ، نبيّه الذي حباه الشرف الباهر ، وآتاه الفضائل الجمة والمفاتيح ، وأحسن العزاء لأمته في قوله : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله ، واليوم الآخر ﴾ .

وعلى أخيه وابن عمّه أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب الذي تولّى من رسول الله ﷺ ما أبان به عن حسن صبره ، واعتزل أمور الدنيا جاناً ، إلى أن واره عليه السلام في قبره . مع ما تداخل النفوس يومئذ من الحسرات ، وفجعت به من الطوارق المستنكرات ، حتى غدا ذور الجلد في قبضة الملعق مؤثقين أسارى ، وظلّوا كما قال الله — عزّ من قائل — : ﴿ وترى الناس سُكّارى وما هم بسكّارى ﴾ . وعلى آلهما الأئمة الأبرار ، الذين اهتضموا حيث حلّوا من الأرض وكانوا ، وظلّموا ، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، وما ضعفوا ، وما استكانوا ، إلى أن استثمروا من الصبر استعادة حقّهم ، وصيّقوا على أعدائهم مسالك طرّيقهم ، وسلّم عليهم أجمعين تسليماً ، وزادهم تشريقاً وتكرّماً وتعطيماً .

وإن من حكمة الله — تعالى — وقدرته ، وخفى علمه في تدبير خليقته أن جعل أهل الدنيا فيها متفاضلين ، وعند فراقها مُتساوين متماثلين ، إذا نزل بهم حدث الموت لم

يتميز فيه قوئٌ من ضعيف ، وإذا تجرَّعوا كأسه لم يختصَّ بمرِّ مذاقها مشروفاً دون شريف . وذلك يقينٌ لا مجال للشك فيه ، وحقٌّ لا يطورُ الباطل بناحية من نواحيه . وقد أخلدت النفوسُ إلى صحته وركنت ، وأطمأنت القلوب إلى حقيقته وسكنت ، لأنه أمرٌ حتمٌ قد عُليمٌ بالفطرة ، وغامضٌ من غوامض الحكمة ، وسرٌّ من أسرار القدرة ، وفي الصبر على ألمه الموجه وترك الجزع الذي هو غير نافع ولا منجع إيضاحٌ للتذليل والخشوع ، وإظهارٌ للتضرُّع والخضوع ، وإبانةٌ عن الإخبات لله — جلٌ وعز — فيما شاءه ، ودلالةٌ على رضى الخلقِ بحكم خالقه فيما سره وسأه ، وذلك موصلٌ إلى السلوة بأقوى الأسباب ، وداعٌ إلى نيلها من إحراز الأجر الجزيل ، والثواب . ومن أبى في الرزءِ إلا الأسى كان بكاهٍ منتهى جهده ومأحسنٌ قول الحسن البصرى : الحمد لله الذى كلَّفنا ما لو كلَّفنا غيره لصرنا فيه إلى معصيته ، وآجرنا على ما لا بدُّ لنا منه .

يقول : كلَّفنا الصبر ، وأكلَّفنا الجزع ، لم يُمكننا أن نُقيم عليه ، وآجرنا على الصبر ، ولا بدُّ من الرجوع إليه . ثم إنَّ التأسى يُسهِّل المصاعب ، ويُهونُ المصائب ، فله ابن دُرَيْدٍ في قوله :

وفي خطوبِ النَّاسِ للنَّاسِ أَسَى

وإن كانت الخنساء قد غلبت على هذا الباب في المشهور من قولها :

ولولا كثرةُ الباكينِ حولي على إخوانهم لقتلتُ نفسي
وما يكون مثل أخسى ولكن أعزى النفس عنه بالتأسى

وقد جعلت العذرَ في تركها قتلَ نفسها كثرةَ الباكينِ حولها . وأين هذا من قول الآخر :

ولقد شممت بقتل نفسي بعدة أسفاً عليه فخطتُ ألا تلتقى

فذكر أن علة ما همَّ به من قتل نفسه الأسفُ على من فقده ، على أن ذلك في قوة الخنساء . وإنَّ علة الامتناع ماجاء في الحديث من أن قاتل نفسه في النار وقد وثق بحصول من فقده في الجنة ، وطبيعها إذا لحقته غير قاتل نفسه . وهذا العذرُ أشرف من عذر الخنساء ، لأنه للمخافة من عدم اللقاء في المال ، وعذر النساء إنما هو للتأسى . فاما قول ابن الرومي مناقضاً لهذا الباب ، وذاكراً أن التأسى غير مخفف للمصاب :

وما راحة المرزوء في رزء غيره
 وضرب من الظلم الخفى مكانه
 لأنك بأسوك الذى هو كلمه
 أيجمل عنه بعض ما يتحمسل
 تُعزبك بالمرزوء حين تأمل
 بلا سب لو أن رأيك يعدل

وقوله :

ومعز عن الشاب مؤس
 قلت لما اتحنى يعد أساه
 ليس تأسو كلوم غيرى كلومى
 بمشيب اللدات والأصحاب
 من مصاب شبابه فمصاب
 ما به ما به ، وما يى ما يى

وقول الآخر :

رأيت الناسى مما يبيح
 وما نال ذو أسوة سلوة
 تدكر في مثله أو رآه
 على المسرى ساكن أوصابه
 ولكن أتى الحزن من بابه
 فأذكره ما به ما به

فذاك من تمويه الفصيح وخذعه ، وتصرف البليغ وتنوعه ، وإلا فالأول هو الصحيح الذى جاء فى الكتاب والسنة . قال الله تعالى : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه ﴾ وقال : ﴿ لقد كان لكم فىهم أسوة حسنة ﴾ .

ولولا أن الاجتماع يخفف كل ما ينوء ، والاشترك يهون صعب ما يسوء ، لما قال الله تعالى : ﴿ ولن ينفعكم اليوم أن ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون ﴾ . لأنه نفى عنهم الانتفاع بالاشترك فى العذاب تغليظاً عليهم ، لما قدموه من الظلم .

وقال رسول الله ﷺ : تأسوا فى مصائبكم لى .

وذلك فى كلام البلغاء ، ونظم الشعراء أكثر من أن يحاط به .

معلوم أن مالكننا الملك السيد الأحل الأفضل ، ونعوته ، والدعاء له ، وهو سيد ملوك الزمان ، ومن فاز بجزيل ثواب الله فى حالتى المسرة والحزن ، أما المسرة فلأنه يشمل بها جميع عبيده ورعيته ، ويستخلص دعاء كل منهم بكرم فعله وجميل نيته ، وأما فى الحزن ، فإنه يستعمل حسن الصبر فى الأمور التى لا حينة له فى دفعها ، ويبدل بذلك على استحقاقه ما خصه الله به من إعلاء المنزلة عنده ، ورفعها ، لا يرى فى العظائم إلا صابراً مسترجعاً ، ولا ينفك وجهه إلا مستقراً ، وإن كان متوجعاً متفجعاً ، إذا نازله

هم لقيه من الرضى والتسليم بالجيش اللجج المنجر ، وإذا سما إليه خطبَ عرف شرف ما
يناله في الصبر عليه من جزيل الأجر ، على أن محله أعلى وأعظم من أن يكون من الأقدار
إلا مخدوما ، ومكانه من الله — جل وعز — يكاد يجعله من الأمور الحتمية موقى
معصوما .

ولما طرّق — خلّد الله ملكه — بالحادث الجلل ، ودُهِم بالزُرءِ الذى لولاه لُرمي
عرش المملكة بالثُل من وفاة أخيه من جهة نسبه ، وولده لكفاله إياه وتربيته :

ومن كان يستعفى الإله إذا اشتكى من الأجر فى الشكوى ، وإن عظم الأجر

الأجل المظفر ، سيف الإمام ، جلال الإسلام ، شرف الأنام ، ناصر الدين ، خليل أمير
المؤمنين ، الذى حلّت وفاته من كلّ عَيْنٍ عقْدَ وكائنها ، وأجرى فقده سواد النواظر فى
نجيح بكائها ، وبغت القضاء فيه بأجور حُكميه ، وأنكرِ فعله . وشوهد من يومه الأنكىد
الشنيع ما لم تتمخض المنون بمثله .

ما إن سمعنا بطويذ قلبه طَفَقَتْ أناملُ تهاداهُ وراحات
تافستُ أعينُ الباكين حين بَكَوا كأنما أعينُ الباكين ضُرَّاتُ

ولقد عَقَّتْ منيته سبيل التماسك والجلد ، وأتت غيظته بمالم يجزى فى الخاطر ، ولا
جال فى الخلد ، لأنه — قدس الله روحه — صار إلى رحمة الله ورضوانه ، وانتقل إلى
جواره وسكنى جنانه ، وهو فى ريعان عمره وأوله ، وشرح شبابه ومستقبله ، مع
حسن تركيبه وبنيته ، والحكماء فى خدمته وتديير صحته :

بنفسى فوئى أسلمته عيىذه ومرمحل لم يتظر أن يودعنا
لقد راضة الموت الكرية مذاقه ولولم يرض لم يرض بالأرض مضجعا
ولا اتخذ الغراء دار إقامية وقد كان مثواه من النجم أرقعا

فلست ترى إلا مختنقا بعبرته ، متنفسا عن نار حسرتيه ، عادما لسكونيه وصبره ، باكيا
على انقطاع أمله ، وانقصام ظهره .

والناس ماتمهم عليه واحسد فى كل دار رئة وزفير

فما يغتبط بديناه من تأمل هذا الحين ، ولا يأمن فيظ النفس إلا من طمع بالصبر ، وأين
أين ؟ .

وكل أسي لا تذهب التمس بعده فما هو إلا من قبيل التصنع
ولئن مضى إلى حوار الله الكريم ، وانتقل إلى ما أعد له من النعيم المقيم فللكافة من
مالكها — ثبت الله دولته — من دوام ظلة فل عن كل مؤل ، وبقاؤه محسن الخلف عن
كل من مضى وسلف .

لم يستحق الدهر كونكما معاً فيه فعرض قاطناً بمودع
والله يجعل كل الأعصار زيادة في مؤدبه وعمره ، ويوجب فيه ما يرفعه الحريص في سره
وجهره ، يكرم به وطوله ، وقدرته وفضله .

ولما كانت خدمة مجلسه العالی — ثبت الله سلطانه فرضاً على عبيد مملكته ، وحقاً
لاعدل في التخليف عن نأديته ، وقد صنع شعراء المقام الأشرف — ضاعف الله سعوده ،
ونصر أجزابه وجنوده — في هذا الباب ما أربوا فيه على من سبقهم ، وآيسوا غيرهم من
أن يلحقهم ؛ بادر المملوك بهذه الخدمة ، وأنشأ ما يأتى ذكره في هذه الحادثة الملمبة على
ما هو عليه من الحال التي ضللت معها العقول ، وحجزت الأحزان فيها بين القائل

والذى صنعه السلوك :

إن كان الدهر قد فجيء بفادح المنية ، رمى سهامه انصمية ، وبالغ في
الغجعة الفظيعة ، وسعى بين الأرواح والأجسام بالفراق والقضية ، وطرق من المصاب
بالأجل المظفر — كرم الله مثواه — بما منع الطرف وسنه ، وفتح من الصبر مستحسنه ،
فما حكم مدهاة إلا في مفاصله ، ولا مكن ضباة إلا من مقاتله ، ولا سطا إلا على قدره
المنير فأخفاه ولا عدا إلا على رونقة الموثق ، فطمسه وعفاه :

إن خان فيه الدهر عندي إنما في نقصه وعلى محاسنه سسقى
في كل يوم عشرة من صرفه لا تستقال بأن يقال لها : لها
فيالله ما أعجب فعله ، وأبين جهله ، وأقبح إسانته إلى نفسه ، وأشنع سواذ يومه بعد
بياض أمسه :

يوم أظلم بعمية لا يشسني فيها الهسلى ، وبعمية لا تنجلي
وأعجب من ذلك انطلاق الأيدي بعده — شرف الله ضريحه — بتحقيق حبر فقاده ،

والإقدام على التعزية عنه ، وقد عدت العقول من بعده فوالهفأه على مضية وذهابه ،
ووا أسفاه على ما فعله الدهر ، ودهى به ، ووا حسرتاه مأمراً العيش لما مر ،
ووا حرتاه ، لقد أساء القدر فيه بعد ماسر . « (١)

وتمضي رسالة الرثاء على هذا المنوال ، وتطول ، مكرراً المعاني نفسها أو أكثرها ،
مستشهداً بالشعر من قول غيره أو من صنعه ، وبالنثر من أقوال البلغاء من عصره وقبل
عصره . فيذكر لمطبع بن اياس أبياتا ، وللشريف الرضي ، ومهيار الديلمي ، وأبي الفرج
البيضاء ، وابن مَعلى الأندلسي ، والوزير أبي القاسم المغربي . قال : (٢)

« ومن كلام الوزير أبي القاسم بن المغربي :

« ولقد سمعتُ نبأ من هذا الحادث الرائع ، وذروا من هذا الخبر المكروه
الطلائع ، فكنث كاظلي أفزعه القناص ، وكالهارب لاحت له الأشخاص ، فدافعتُ
بتصديقه ، وتصاممت عن تحقيقه ... إلخ . » .

والوزير المغربي سابق عليه وتوفي قبل مقتل الوزير المرثى بزمان ، إنما استشهد بكلام
له في مثل المناسبة ، وكذلك فعل في اقتباسه لقول حسن بن عبد الصمد المعروف بابن
أبي الشخباء .

والعجيب في أمر الرسالة أن ابن الصيرفي يخرج عن سياق معانيه إلى تحليل وانتقاد
أقوال من استشهد بهم من الشعراء والكتاب ، فيقول ان معنى من معاني أبي القاسم
المغربي مأخوذ من قول أبي الطيب المتنبي (٣) . وتتابع به المعاني ويستطرد من معنى إلى
معنى حتى يشغل تعقب المعاني خيراً من الرسالة غير قليل . ويبدو أن هذا النمط من
الكتابة لم يكن مستكرها ولا متروكا ، بل ربما لقي من المتأدبين والأدباء ترحيباً وتقبلاً ،
لأن الأمر فيه لم يتوقف عند ابن الصيرفي وحده ، بل رأينا شبيهاً له عند من عرضنا لهم
من الكتاب في نماذج رسائلهم التي أوردناها من قبل ، وأقربها إلينا رسالة المعري
« الغفران » . وكم رأيناه فيه مستطرداً ، إلى شرح معنى ، أو تعقب لفظه — ويطول به
الأمر قاطعاً بذلك سياق الكلام ، ثم ما يلبث أن يعود إلى ما خرج عليه ، ويستأنف

(١) الأفضليات ٢٩٧ .

(٢) الأفضليات ص ٣٠٩ .

(٣) راجع ص ٣١٠ من المصدر نفسه .

ما انقطع عنه .

ويبدو أن الصيرفي كان مغرمًا إلى جانب السجع بالجناس ، لأنه حرص عليه فيما أورده من قول منشور ذاكراً أنه مما صنعه في هذا المجال .

إلا أن الرسالة في جملتها سهلة اللفظ سلسلة السياق ، لا يتوعر صاحبها ولا يتحذلق ولا يُدَلُّ باقتداره اللغوي ، وإن أبدى معرفته تراث الشعر القديم والمعاصر له ، ووقوفه على كتابات البلغاء من الكتاب والعلماء .

الرسالة المصرية لابن أبي الصلت :

هذه الرسالة تختلف موضوعاً ، وشكلاً عن رسالة ابن الصيرفي ومن سبقه وإن كانت لواحد ممن عاشوا في كنف الأفضل بن بدر الجمالي بمصر في الوقت نفسه الذي كان فيه ابن الصيرفي من رجاله ، فقد تعاصرا لاشك ، وتقابلا وذكره في الأفضليات .

وموضوع الرسالة يدور حول مصر والمصريين ، وما شاهده في أثناء وجوده بها وقضاء سنوات تحت سمتها ، وإن كان انقطاعه عن مدينتها ليس انقطاعاً كَرَبِيّاً ، وربما كان للمحنة التي امتحن فيها عندما حسمه الأفضل في سحل المعونة زمنياً أثرها في شعور المرارة والسخط اللذين يظهران في الرسالة .

وأصل أمية من دانية ، في الأندلس قدم مصر سنة ٤٨٩ هـ في عصر المستنصر بالله أي تميم معد بن الظاهر ، في آخر أيام دولته ، ووريره آنذاك الأفضل بعد وفاة أبيه بدر الدين الجمالي وكان أمية يأمل من وراء رحلته هذه بسطة في العيش .. ويبدو أنه ظل دهرًا خاملاً يتحين الفرص إلى أن أتيج له أن يتصل بأحد المقربين إلى الوزير الأفضل وفي أيام الخليفة الأمر ، وذلك الرجل هو تاج المعالي « شهاب » ونحو حديث وحشة بين الأفضل وتاج المعالي أخذ يجربها فيما يبدو أمية مما دفع بالأفضل إلى القاء أمية في سجن المعونة ثلاث سنين (١) .

وكتب هذه الرسالة مستجيباً لرغبة وني نعمته بالقبرواك والمهدية بافريقية أي الظاهر

(١) راجع مقدمة الرسالة تحقيق عبد السلام هارون ص ٧

ويقال إن حسمه كان سنة ٥١٠ في حمله الأمر بالاسكندرية

يحيى ابن تميم بن المعز (ت ٥٠٩ هـ) .

يقول فيها : « كُنْتُ إِبَّانَ عَصْرِ الشَّبَابِ مُوْنِقِي ، وَغَسْنُ الصَّبَامُورِقِ

إِذ لَمَسِي مَسْوَدَةً وَلَمَاءِ وَجْهِي زَوْلِي

من ساحه الدهر بغفلة من غفلاته ، وتجاوى له عن غفوة من غفواته ، فعاش آمن السرب ، سائغ الشرب ، لا يتفرغ من أدب يرود رياضة ، ويرد حياضه إلا إلى طرب يعمر ميدانه ، ويسحب ذيو له وأردانه . ثم تلون قلب لي ظهر مجنه ، وسقاني دودي دته ، فتدارك مأغفله ، واسترد ما بذله ، واضطرت إلى مفارقة الوطن ، والخروج عن العطن . فتماسكت إشفاقاً من مفارقة أول أرض مس جلدى ثرائها ، وشدت على التائم بها . وجاءت أمور لا تطاق كيار ، فلما لم يمكن القرار ، ولم يبق إلا الفرار ، قلت : ليس لي إلا أن أرمي بنفسي كل مرمي ، وأطرحها كل مطرح .

لأبلغ غدراً أو أنال رغيئة ومبلغ نفس غدرها مثل منبج

وسكنت إلى البيت المشهور

تلقي بكل بلاد إن حلت بها أهلاً بأهل ، وأوطانا بأوطان

وإن كان يقول العامة : ليس بين بلد وبلد نسب ، فخير البلاد ما حملك . فجعلت أستقرى البلاد لأتيمم أوفقها للمقام ، وأعوئها على مقارعة الأيام ، فكانت مصر مما وقع عليه اختياري ، وصأقت حسن ظني قبل اختياري ، وسرت قاصداً إليها ، أعتسف الجاهل والتنائف ، وأخوض المهالك والمتالف ، فطوراً أمتطى كل حالكة الإهاب (١) ، مسودة الجلباب ، ثابتة كصبغة الشباب ، قد فسح ميدانها ، ووضع براحة الريح عنائها ، فجرت جرى الطرف الجموح ، وفاتت مدى الطرف الطموح ؛ وطوراً كل نقيب الأياطل كالياطل (٢) ، سبط المشافر ، جمد الأشعار ، احتذى العقيق ، أو الصنو الشقيق ، إن علا قلت ظليم خاضب ، وإن هوى قلت شهاب ثاقب . يصل الذميل بالوخاد (٣) ، ويلتهم التهام والنجاد . فكم جزع وإد جزعته ، وجلباب ليل أدرعته وكم بر خرقته تنارقه وفجابه ، وجر شفتت غزاربه وأمواجه ، وليس لي غير مصر

(١) يعني النسيمة .

(٢) الياطل جمع هيطل وهو اندب

(٣) الوخاد والنوح هر نوع من نسر اللابل .

مقصداً ، ولا وراءها مذهب ، ولا تُوبها للعنى متطلتُ

وكم في الأرض من بلدٍ ولكنك عليك لشقوتي وقع اختيارى

فلما تغمّدت ركابى من النيل ، واستنرت بظلّ المقطم ، أقيت عصا التسيار ،
واستقرت بى النوى ، وخفت ظهورهم من الرّحال ، وأرحتهن من الجبل والترحال ،
وقلت : ضالتي المنشودة ، وبعيتى المقصودة . ها هنا ألبت وأقيم ، فلا أبرح ، ولا
أريم ، « بلدة طيبة ورب غفور » ، وحيث التفت فروضه وغدير ، وحيث تق وسدير ،
وظل ظليل ، ونسيم عليل .

وكم تمنيّت أن ألقى بها أحداً يسئل من الممّ أو يعدى من الثوب
فما وجدت سوى قوم إذا صدقوا كاذب مواعيدهم كالآل في الكذب
وكان لي سبب قد كنت أحسبى أحظى به ، فإذا داني من السبب
لما مقلّم أظفارى بسوى قلبسى ولا كتابى أعدائى سوى كئيبى

ولم تطلّ مدّة اللبّ حتى تبينت بما شاهدته أنى فيها منجوس البضاعة ، موكوس
الصناعة . مخصوص بالإهانة والإضاعة . وأن عيشها الرغد ، متصور على الوغد ،
وعقابها المر موقوف على الحرّ ، فلو تقدمت فهدمت ذلك لحف منها مركبى ، وسرفت
إلى سواها وجه مطلبى ، ولتكان لى فى الأرض مرمى شاسع ، ومنتاب واسع ، بل
تبتطت حتى تورطت ، حتى عوملت بما يعامل به ذوو الجرائر والدنوب . وجرعت من
الذلة بأوفى ذنوب ، هذا مع ما حيرته من المذبح التى اشتهرت شهرة الصباح ، وهبت
هبوب الرياح ، ولهج بها الحنادى والملاح .

ذسارها من لايسر مشمراً وغلّى بها من لا يفتى مسرّدا

إلا أن الله جلّت آلاؤه ، وقدسّت أسماؤه ، تدارك برحمته فأزال تلك الخنة بالمنحة ،
ونسخ تلك النعمة بالنعمة ، وختم بالوصول إلى حضرة الملك الأجل أبى طاهر بن زبى
بن تميم بن المعز بن باديس ، الذى لم تنزل حضرته مماناة العناة ، ومراد الثفاة ، ومنتجع
الفضائل ، ومنتجع الأفاضل ، ومشرع الجرد ومسند الوفود . فلما استمرت بخناحه ،
واستظهرت باستباحه ، أعذب لى بسماحة الدرّ جتاه ، واعتذر لى مما جناه ، فكف
دوى كفه ، وصرف عنى صرفه .

كريم رفضت الناس لما بلغته كأنهم ما خف من زاد قسام

فيكنتُ فيما مضيتُ عليه ، وآلت حالي إليه من إشراقها بعد الأفول ، وإيراقها بعد
الذبول ، كنصل أهل أمره من جهل قدره ، ولما وقع إلى الخبير به صان صفحته
وحده ، وحلى حمائله وغمده ، ثم ادخره فيما يدخرُ وأعدّه ، فإن انتضاه يوماً ارتضاه ،
وإن جرّده أحمده ، وإن هزّه ، ستره في الضريبة حزه ولكن أرى الله أن يكون الفضل إلا
لمن نشأ في مغارسه ، ونجم في منابته ، ورأى في حجره ، وغدّى بدرّه .

فلم أستغ إلا نداءه فلم يكن ليعدل عندي ذا الجناب جناب
لما كل إنعام يخف احتمالاً وإن هطلت منه على رباب
ولكن أجل الصنع ما جل ربه ولم يأت باب دونه وحجاب
وما شئت إلا أن أدل عواذلي على أن رأيت في هواك صواب
وإعلم قوماً خالفوني فشرقوا وغرّبت ألى قد ظفرك وخابوا

والأولى أن أضرب عما سلف ، وأترك ما فرط ، وآخذ فيما أجريتُ إليه وقصدته ،
ونحوته واعتمدته مما آثرتُ به الحضرة السامية — أدام الله سُمّوها — من وصف ما
عانيتها من أرض مصر ، وعائنته ، والاقْتصار على الذي رأيتُه دون ما روّيته ، فليس من
يقول علمت هذا عن طريق العلم والسماع ، كمن يقول تحققتُ بالمشاهدة والاطلاع
فإنّ ذا اللبّ الأمين لا ينخدعُ بمحالي ، ولا يرضى بانتحال .

★ ★ ★ ★

وأنا ابتدئ بذكر هذه البلاد وموقعها في المعمورة ، ومجرى النيل منها ، وغنائها فيها ،
وأشفع ذلك بنبيذ من ذكر أحوال أهلها في أخلاقهم وسيرهم ، وعاداتهم ، وما يتصل
بذلك وينجرُّ معه ، ويحيى بسببه ، ويدخل في تضاعيفه . وها أنذا آخذ في ذلك ، وبالله
أستعين ، وعليه أتوكل .

★ ★ ★ ★

أرض مصر بأسرها واقعة من المعمورة في قسمي الإقليم الثاني والإقليم الثالث ،
ومعظمها في الثالث .

وحكى المقنون بأخبارها وتوارخها أن حدها في الطول من مدينة برقة التي في جنوب
البحر الرومي إلى أيلة من ساحل الخليج الخارج من بحر الحبشة والزنج والهند والصين .

ومسافة ذلك قريب من أربعين يوماً .

قالوا : وحدها في العرض من مدينة أسوان ، ومسامتها من الصعيد الأعلى المتاخم لأرض النوبة إلى رشيد وما حاذها من مساقط النيل في البحر الرومي ومسافة ذلك قريب من ثلاثين يوماً . ويكتنفها من مبدئها في العرض إلى متهاها جبلان ، أحدهما في الضفة الشرقية من النيل ، وهو المقطم ، والآخر في الضفة الغربية منه . والنيل منسرب فيما بينهما . وهما أجردان غير شامخين ، يتقاربان جداً في وضعيهما من لدن مدينة أسوان إلى أن ينتهي إلى الفسطاط ، فثم تتسع المسافة بينهما وتفرج قليلاً ، ويأخذ المقطم منهما مشرقاً ، والآخر مغرباً على وراب في أخذيها وتفرج في مسلكيهما ، فتتسع أرض مصر من الفسطاط إلى ساحل البحر الرومي الذي عليه الفرما وتينيس ودمياط ورشيد والاسكندرية . وهناك تنقطع في عرضها الذي هو مسافة ما بين أوغليا في الجنوب أوغليا في الغرب والشمال ..

... وليس تشتمل أرض مصر بعد الفسطاط الذي هو مقر الملك وكرسى الدولة على مدائن لها قدر في كثرتها ولا فخامتها ، لكن أجل مدائنها وأفخرها ، أما في الجهة الشمالية من الفسطاط فالإسكندرية وتينيس ودمياط ، وأما في الجهة الجنوبية إلى أقصى الصعيد فقوص وقفت . فهذه صفة أرض مصر على الجملة .

★ ★ ★ ★

وأما النيل فينبوعه من وراء خط الاستواء ، من جبل هناك يعرف بجبل القمر ، فإنه يتدلى بالتزويد في شهر أيب . الذي هو بالرومية يولية . والمصريون يقولون : « إذا دخل أيب ، كان للماء ديب » . وعند ابتدائه في التزويد تتغير جميع كيميائياته وتفسد . والسبب الموجب لذلك مروره بنقائع مياه آحنة يخاطها فجلدتها ، وبسخرجها معه ويستصحبها ، إلى غير ذلك مما يحتمل . فتتغير مثل الجمال التي وصفه بها الأمير تميم بن المعز لدين الله :

أما ترى الرعد بكى فاشتتى	والبرق قد أومض فاستضعا
فاشرب على غيم كصبغ الذجسى	أضحك وجه الأرض لنا بكسى
وقد حكى العود أنين الهسوى	لكنه جيود فيما حكسى
وانظر لماء النيل في مسده	كأنما صندل أو مسكا

أو كما قال غيره من أهل العصر ، من قصيدة يصف فيها أرض مصر :

ولله مجرى النيل فيها إذا الصَّبَا أرتنا به في مرّها عسكراً مُجْجِراً
فشطَّ عِزُّ السمهريّة ذُبُلًا وموجَّ عِزُّ البيضِ هتديّةً تبرّجاً
إذا مدَّ حاكى الورْدَ غَضاً وإن صفا حكى ماءه لونا ولم يقدّه لشجراً

* * * * *

وقال تميم بن المعز ، وأحسن التشبيه :

يومٌ لنا بالنيل مختصّرُ وبكلُّ يومٍ مسرّةٌ قصِرُ
والسفنُ تصعدُ كالخيولِ بنا فيه وجيشُ الماءِ يدهدُرُ
فكأنها أمواجهُ عُكْرُنُ وكأنها داراهُ سُورُرُ

.....

وقال أبو الحسن محمد بن الوزير في تدرج زيادة الماء إصبعا إصبعا ، ومنفعة ذلك التدرج :

أرى أبداً كثيراً من قليل ويدراً في الحقيقة من هلال
فلا تعجب فكلُّ قليلٍ مالٍ بمصرٍ مسبَّبٍ خليجٍ مالٍ
زيادةُ إصبعٍ في كلِّ يومٍ زيادةُ أذرعٍ في حُسْنِ حالٍ

فإذا كان في الخامس عشر ذراعاً ، وزاد من السادس عشر إصبعا واحدة كُسِرَ الخليج .

ولكسره يومٌ معدودٌ ، ومقامٌ مشهودٌ ، ومجتمعٌ غاصٌّ ، يحضره العام والخاص . وإذا كُسِرَ فُتِحَتِ الترع — وهي فَوَاهِاتُ الخلدجان — ففاض الماء وساخ ، وعمَّ الغيطان والبطاح ، وانضمَّ الناسُ إلى أعلى مساكنهم من الضياع والمنازل ، وهي على آكام ورُبِي لا يتتقى إليها الماء ، ولا يتسلطُ السيلُ عليها ، فتعودُ عند ذلك ، أرض مصر بأسرها بحراً غامراً لما بين جبلها المكتنفين لها . وتثبتُ على هذه الحال ريثما يبلغُ الحدُّ المحدود ، في مشيئة الله المعبود . وأكثر ذلك يحوم حول ثمانية عشر ذراعاً ، ثم يأخذ عائداً في منصبه إلى مجرى النيل ومسرّبه ، فينضُبُ أولاً عما كان من الأرض مشرفاً عالياً ، ويصير فيما كان منها مُتَطَامِناً ، فيترك كلَّ قرارة كالدَّرهَم ، وينادِرُ كلَّ تلعة كالبُرد المسهم .

وفي هذا الوقت من السنة تكثُرُ أرض مصر أحسنَ شيءٍ منظراً ، ولاسيما منتزهاتها المشهورة ، ودياراتها المطروقة ، كالجزيرة ، وبركة الحبش ، وما جرى مجراها من

المواطني التي يطرقها أهل الخلاعة ، ويتتابها ذوو الأدب والطرب .

واتفق أن خرجنا في مثل هذا الزمان إلى بركة الحبش ، فافترشنا من زهرها أحسن
بساط واستظللنا من دوحها بأوفى رواق ، وطلعت علينا من رُجاجات الأقداح شمس
في خلع البدور ، ونجومٌ بالصفاء تنور ، إلى أن جرى ذهبُ الأصيل على لجين الماء ،
وتشبث نازُ الشفق بفحمة الظلماء . فقال في ذلك بعضنا :

لله يومى ببركة الحبش والألق بين الضياع والعبس
والليل تحت الرياح مضطرب كصارم في يمين مرتعـش
قد نسجتها يد الغمام لنا فنحن من نسجها على قرش
ولحن في روضة مفوفاة ذبج بالثور عطفها ووشى
فعاطى الراح ، إن تاركها من سورة الهمة غير متعبش
وسقنى بالكبار مترعة فهن أروى لشدة الغطش
فأثقل الناس كلهم زجل دعاه داعى الصبا فلم يطش

وقال أيضا :

غلى فؤادك باللذات والطرب وباكر الراح بالثياب والتخب
أما ترى البركة العشاء لابسة وشيا من الثور حاكته يد السحب
وأصبحت من جديد النبت في خلل قد أبرز القطر منها كل محتجب
من سوسن شرق بالطل محجره وأقحوان شهى الظلم والشنب
وانظر إلى الورد يحكى خد محتشم من نرجس ظل يدي لحظ مرتقب
والياسمين وقد أربى على درر والراح من ذرر تطفو على ذهب
كم مرة قد شفينا فيه غلننا بجاحم من لم الإبريق ملتهب
شمس من الراح حيانا بها قمر موف على غصن يمتز في كسب
أرعى ذوائبه وانز منطفئا كصعدة الرمح في مسوذة العذب
فأطرب وذونكها فاشرب فقد قضيت على التصابي دواعى اللهو والطرب

ومما يتعلق بوصف النيل من أبيات له كتبها إلى الأوفى ليلة المهرجان :

أبدغت للناس منظراً عجيباً لا زلت تحيي السرور والظربا
ألقت بين الضئنين مقتصدراً فمن رأى الماء خالط اللهبيا

كألما النيل والشموغُ به أفقُ سماءٍ تألقتُ شهياً
قد كان من فضةٍ فصار سماً ونحسبُ النارَ فوقه ذهباً

* * * *

وأما سكان مصرَ فأخلاقاً من الناس مختلفة الأصناف ، من قبط وروم وعرب وبربر
وأكرادٍ وديلم وحبشانيين وأرمن ، وغير ذلك من الأصناف والأجناس على حسب
اختلافاتهم . وقالوا إن السبب في اختلافهم ، والموجب لاختلاطهم اختلاط المالكين
لها ، والمتغلبين عليها من العمالقة واليونانيين والروم والعرب وغيرهم ، فلهذا اختلطت
أنسابهم ، فاقصروا في التعريف بأنفسهم على الانتساب إلى مواضعهم ، والانتفاء إلى
مساقطهم ومواقعهم .

وحكى جماعة من المؤرخين أنهم كانوا في الزمن السالف عبّاد أصنام ، ومُدبّري
هياكل ، إلى أن ظهر دين النصرانية وغلب على أرض مصر فتنصّروا ، وبَقُوا على ذلك
إلى أن فتحها المسلمون في أيام عمر بن الخطاب رضی الله عنه ، فأسلم بعضهم ، وبقي
بعضٌ على دين النصرانية . ومذهبهم مذهب اليعاقبة .

وأما أخلاقهم فالغالبُ عليهم اتباعُ الشهوات ، والانهماك في اللذات ، والاشتغال
بالترهات ، والتصديق بالمخالات ، وضعف المرائر والعزمات ، إلى غير ذلك مما حكاه أبو
الحسين على بن رضوان في ذلك واقصه . وأورده من الأمور الطبيعية وموجبه . وكفى
به حكماً منصفاً ، وشاهداً عدلاً ؟ .

وحكى الوصيفي في كتابه الذي ألفه في أخبار مصر أن أهلها في الزمن السابق كانوا
يعتقدون أن هذا العالم الذي هو عالم الكون والفساد أقام برهةً من الدهر خالياً من نوع
الإنسان عامراً بأنواعٍ أُخر غير الإنسان ، وأن تلك الأنواع مختلفة على خَلْقٍ فَاذَةٌ (١) ،
وهيئات شاذة . ثم حدث نوع الإنسان ، فنازع تلك الأنواع ، فغلبها واستولى عليها ،
وأفنى أكثرها قتلاً ، وشرد ما بقي منها إلى القفار . وأن تلك المشرّدة هي الفيلان
والسعالى وغير ذلك . مما حكاه من اعتقاداتهم المستحيلة ، وتصوراتهم الفاسدة ،
وتوهماتهم النافرة . إلا أنه يظهر من أمرهم أنه كان فيهم طائفة من ذوى المعارف
والعلوم ، خصوصاً : من الهندسة والنجوم . ويدل على ذلك ما خلفوه من الأشغال

(١). فاذة : متبردة

البديعة المعجزة كالأهرام والبراني ، فإنها من الآثار التي حيرت الأدهان الثاقبة ، واستعجزت الأفكار الراجحة . وتركت لها شغلاً بالنعجب منها ، والتفكير فيها . وفي مثلها يقول أبو العلاء أحمد بن سليمان المعري في قصيدته التي يرنى بها :

تضلُّ العقولُ الهَيَزِيَّاتُ زُشدها ولا يسلّمُ الرأى السليمُ من الأفن
وقد كان أربابُ الفصاحةِ كلُّما رأوا حسناً عدوه من صنعةِ الجنِّ

وأىُّ شيءٍ أعجبٌ وأهربُ — بعد مقذوراتِ الله ومصنوعاته — من القدرة على بناء جسمٍ جسيمٍ من أعظم الحجارة ، مربع القاعدة ، مخروط الشكل ، ارتفاع عموده ثلاثمائة ذراعٍ ونحو سبعة عشر ذراعاً ، يحيط به أربعة سطوحٍ مثلثاتٍ متساويات الأضلاع ، ضوُلُ كلِّ ضلعٍ منها أربعمئة ذراعٍ وستون ذراعاً . وهو مع هذا الينظم ، من اتقان الصنعة وإحكامها في غاية من حسن التقدير بحيث لم يتأثر إلى هلمَّ جرّاً بعصف الرياح وهطل السحاب . وزعزعة الزلازل . وهذه صفة كلِّ واحد الهرمين المشاهدين للفسطاط من الجانب الغربي على ما شاهدناه منهما .

وقال بعضهم وقد ذكر عجائب مصر : وما على وجه الأرض بيّة إلا وأنا أرتى لها من الليل والنهار ، إلا الهرمين ، فإنى أرتى لليل والنهار منهما .

وهذان الهرمان لهما إشرافٌ على أرض مصر ، وإطلالٌ على بطائِحها ، وإصعادٌ على ذراها . وهما اللذان أراد أبو الطيب المتنبى بقوله :

أين الذى الهرمانِ من بُنيانِهِ ما قومه ، ما يومه ، ما المصرغ
كنا نظنُّ ديارَهُ مملوءةً ذهباً ، فمات ، وكلُّ دارٍ بلفغ
تختلفُ الآثارُ عن أربابِهِها جيناً ، ويدركها الخرابُ لتبغ

واتفق أن خرجنا يوماً إليهما ، فلما أطفنا بهما ، واستدرنا حولهما كثر تمجُّبنا منهما ، فتعاطينا القول فيهما ، فقال بعضنا :

بعيشك هل أبصرت أروع منظراً على طول ما أبصرت من هرمى منسىر
أنافنا عناناً للسماء وأشرفاً على الجوزِ إشرافِ السمالِكِ أو النُسر
وقد واليا نشزاً من الأرضِ عالياً كأنهما نهدانِ قاما على صسدر

وزعم قومٌ أن الأهرام قبورُ ملوكٍ عظامٍ نثروا أن يميزوا بها على سائر التوبك بعد

بضروبِ الحكمة من العلوم الرياضية والطبيعية والإلهية ، ومتحققون بعلم المرايا المحرقة ، وبالطلّسمات والنيرنجيات ، وغير ذلك .

والملك بمصر من قديم الزمان بمدينة منف ، وهى فى غربى النيل على مسافة اثنى عشر ميلاً من القسطنطينية . ولما بنى الاسكندر مدينة الإسكندرية منذ نحو ألف سنة وأربعمائة سنة ، وأربعين سنة ، رغب الناس فى عمارتها ، وكانت دار العلم ، ومقر الحكمة ، إلى أن تغلب عليها المسلمون فى خلافة عمر بن الخطاب ، رضوان الله عليه ، واختط عمرو ابن العاص مدينته المعروفة بالقسطنطينية ، فانسرب أهل مصر ، وغيرهم من العرب والمعجم إلى سكنها ، فصارت قاعدة ديار مصر ومركزها إلى وقتنا هذا .

* * * *

ويذكر من كانوا مشهورين بالحكمة فى الزمن القديم أيام اردهار مدينة الإسكندرية بالحكمة والعلم . ويتبى إلى قوله :

« فهؤلاء هم المشهورون من أهل الحكمة بمصر فى ذلك الزمان ، وأما زماننا هذا فقد دثر منها كل علم ، وأمحق رسمه ، وجُهل اسمه ، ولم يبق إلا رعاع وشتاء ، وجهلة دهاء ، وعامة عمياء ، وجلهم أهل رُعانة ، ولهم خبيرة بالكيد والمكر ، وفيهم بالفطرة قوة عليه ، وتلطّف فيه ، وهداية إليه ، لما فى أخلاقهم من الملتق والسياسة التى أربوا فيها على كل من تقدم وتأخر ، وخصوا بالإفراط فيها دون جميع الأمم ، حتى صار أمرهم فى ذلك مشهوراً ، والمثل بهم مضروباً .

وفى خبثهم ومكرهم يقول أبو نواس :

محضتكم يا أهل مصر نصيحتى	ألا فخذوا من ناصح بنصيب
رماكم أمير المؤمنين بحُسيبة	أكسول لحيات البلاد شسروب
ولا تبوا وثب السفاة فتركبوا	على حد حامى الظهر غير رَسروب
فإن يك باقى إفك فرعون فيكم	فإن عصا موسى بكف خصصيب

وذكر أمية بعض من لاقاهم من علماء مصر وخاصة من سمل بانصب ، فعابهم وتنقص منهم ومن علمهم ، وعرض للمنجمين كذلك فسأواهم نادافباء قائلأ .

« وأما المجموعون الآن بمصر فهم وأطنة هم تجا فد الشرائك من الخلد ، بل كإ

حذيت النعل بالنعل ، لا يتعلق أمثلهم من علم النجوم بأكثر من زاوية يرسمها ، ومراكز
يقومها فأما الإمعان والتبحر في معرفة الأسباب والعلل ، والمبادئ الأول ، فليس منهم
من يرقى إلى هذه الدرجة ويسمو إلى هذه المرتبة ، ويخلق في هذا الجو ، ويستضيء بهذا
الضوء إلا أبو الحسن علي بن النضر المعروف بالأديب . « (١) .

ويعرض أمية بعد ذلك لبعض شعراء مصر ممن لقيهم في أثناء إقامته بها ويعجبه ابن
مكنسة ، فيختار له مجموعة من شعره في مناسبات وأغراض مختلفة .

والغريب في موضوع اختياراته من شعراء المصريين أنه اهتم بمن كانوا مثله من
المنعسوب عليهم من الأفضل بن بدر الدين الجمالي وكما يقول الشاعر :

إن المصائب يجمعن المصائبنا

والرسالة في مجملها تجمع موضوعات كثيرة كلها تدور حول مصر ، وانطباعه عنها
ليس الانطباع السار، ولا السعيد، ولكنه انطباع المرارة والألم كما قلنا. لذلك فإن الرسالة
في معظمها تحمل طابع الحملة على البلد وأهله ، وإن لم يستطع أن ينكر بعض صور
الجمال فيه كالنيل ومناظر النزه في الروضات والحقول والغيطان ، وبخاصة ما أحاط منها
بالفسطاط حيث كانت إقامته .

فقد أعجب ببركة الحبش ونظم فيها شعراً ، كما نظم في النيل وما كان يجري عليه من
السفن ، وما يقيمه المصريون من احتفالات كيوم المهرجان الذي يوقدون فيه الشموع
ويركبون المراكب تمخر بهم في مجراه أو في الخليج وتتلاها أنوار الشموع على صفحة الماء؛
فيكون لها في نفسه الأثر الجميل الذي يبعثه على وصفه شعرا .

أما موقفه من أهل مصر وكونهم أخلاطاً ، وما وصفهم به من الأوصاف غير الكريمة
كميلهم للشهوات ، والمكر واللؤم وما إلى ذلك ، فإن الذين نعتهم بتلك النعوت هم
الذين خالطهم من أهل مصر ، وهم ليسوا أهلها على الحقيقة بل هم أخلاط مختلطة من
البربر والسودان والأرمن والعجم ومن إليهم ممن استوطنوا العاصمة وجذبهم بأنوارها أو
الطمع في نيل الحظوة من السلطان ورجاله .

.. وأمثال هؤلاء لا نعدم فيهم تلك الأخلاق ، وفي مقدمتها النفاق الذي أشار إليه .

(١) الرسالة المصرية ص ٣٠٠

ومن ممن يتقرب إلى السلطان يخلو من النفاق . ومن من طالبي الجدوى والرفد ليس في خلقه النفاق ؟ ، وإن تفاوت عندهم فضل عن البعض وراى عند غيرهم . وهو وإن عاب المعاصرين إلا أنه أكبر القدماء بناء الأهرام والبرابي .

ومن خلا من رجال العصر من حب الشهوات والتداعى إلى اللذات وهو نفسه قد مارسها وعابن من مارسها ، وشهد في غير مصر لاشك وفي القيروان من تهالك عليها . والرسالة في شكلها وصورتها الفنية لا تخرج عن الاتجاه العام الذى رأيناه عند غيره ممن عرضنا لهم من أصحاب الرسائل . وبخاصة أولئك الكتاب الذين مارسوا صنعة الشعر إلى جانب الكتابة فمزجوا في كتابتهم بين المنظوم والمنثور . ويعلب استخدام التراث الأدبى فى صيغ التعبير ، بل إن استخدام تلك الصيغ قد يبدو غير موفق أحيانا كأن يعزو ظهور النبات والزهر فى رياض مصر إلى القطر ، وعطاء السحاب ، وهو فى الحقيقة من عطاء النيل . ولكنها الصيغة المتوارثة غلبت فيها قريحته على عقله .

السِّيرُ

والفن الثالث من فنون النثر في هذا العصر كتابة السير سواء أكانت سير الملوك والأمراء ، أم سير العلماء . كذلك عرفنا فيه من كتب السيرة الذاتية لحياته أو بعض جوانب منها .

ومن أشهر مؤرخي السيرة أحمد بن عبد الله الفرغانى ، وله سيرة كافور الإخشيدي وسيرة العزيز بالله الفاطمى . (توفى سنة ٣٩٨ هـ) .

وابن زولاق الحسن بن إبراهيم الليثى المصرى (٣٠٦ — ٣٨٧ هـ) ألف مافات من سيرة أحمد بن طولون ، وابنه أبى الجيش محارويه ، تكملة على ما ألفه ابن الداية . وألف سيرة سيويه أو « أخبار سيويه المصرى » ، وسيرة الإخشيد محمد بن طغج ، وسيرة المادرائين^(١) . وسيرة كافور الإخشيدى ، وسيرة جوهر الصقلى ، وسيرة المعز لدين الله الفاطمى ، وسيرة العزيز بالله .

وأخذ كثير من كتاب السير والمؤرخين المصريين وغيرهم من اهتموا بأخبار مصر وحكامها من كتب ابن زولاق واعتمدوا عليه وعلى رأسهم ابن خلكان ، والنويرى ، وابن حجر العسقلانى والسيوطى ، وابن دقماق ، وأبو المحاسن ابن تغرى بردى والقلقشندي .

والقضاغى : أبو عبد الله محمد بن سلامة (— توفى سنة ٤٥٧ هـ) .

له فى أخبار الامام الشافعى ومناقبه والقاضى النعمان له سيرة المعز لدين الله .

سيرة الأستاذ جوذر الصقلى .

ومن أهم ما وصلنا من كتب السيرة فى هذه المرحلة « سيرة الأستاذ حوذر » الرجل

(١) طبعته سنة ١٩٠٠

الخطير في دولة الفاطميين ، وبخاصة في عهد الخلفاء الثلاثة : القائم والمنصور والمعز ومصنف هذه السيرة رجل غير معروف ، عمل في خدمة حوذر اسمه منصور الحوذري واصبح منذ سنة ٣٥٠ موضع سره ، وظل ملازماً له حتى توفي جوذر ببرقة سنة ٣٦٢ هـ وهو في طريقه إلى مصر صحبة إمامه المعز لدين الله .

ويبدو أن مؤلف هذه السيرة ، قد وضعها بعد وفاة جوذر بزمس غير قليل في عصر الخليفة العزيز بالله (تولى من ٣٦٥ — ٣٦٨ هـ) .

وتتناول هذه السيرة حياة جوذر منذ جاء من بلده صقلية غلاماً ، ودخل في خدمة المهدي الذي أهدها إلى ولده وولى عهده القائم بأمر الله ، وقد أعجب القائم به فقربه ، واشتدت الصلة بين السيد وتابعه جوذر حتى إن القائم كان يثق فيه ثقة كاملة ، فيكل إليه بعض الأمور التي لا يأتمن عليها إلا خاصة خاصته . حتى إنه لما خرج للغزو ببلاد المغرب سنة ٣٠٠ هـ وكان لا يزال ولياً للعهد استخلف جوذر على ما له وأهل بيته . وأصبح جوذر موضع سر مولاه القائم ، ولما تولى الخلافة ، أوكل إليه بيت المال ، وكان المتكلم باسمه للناس .

وكان جوذر معروفاً بحبه للخير والعطف على الرعية ، فارتفعت منزلته عندهم وقوى نفوذه في الدولة ، وصار مهاباً من الجميع .

وعند وفاة القائم ، أخفى المنصور ولذة خبر وفاته ، ولم يعلم به سوى جوذر ، وخرج لحرب الخوارج ، فتم له النصر عليهم ، وعاد ليعلن وفاة أبيه القائم .

وكافأ المنصور جوذر على خدماته لوالده وله وللدولة ، فاعتقه ، ونقبه بمولى أمير المؤمنين ، وأمر بأن لا يقدم اسم على اسمه في الرسائل سوى الخليفة وولى عهده . كما أمر أن يرقم اسمه بالذهب على ملابس الخليفة وولى عهده .

وفي خلافة المعز ظلت مكانة جوذر ، وزاد المعز به تعلقاً ، فاصبح سر مولاه والمتحدث باسمه . ولم يبلغ أحد في تاريخ خلفاء المسلمين وحكامهم على ما نعلم مبلغ جوذر من المعز لدين الله الفاطمي حتى إنه لما عزم المعز على ترك عاصمة ملكة بالقيروان عازماً على الذهاب . إلى مصر ظن الناس في أفريقية أنه سيستخلف عليهم جوذر .

سيرة المؤيد داعي الدعوة (١) .

وهي سيرة ذاتية للداعية المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي وتحدث في هذا الكتاب عن تاريخ حياته من سنة ٤٢٩ هـ إلى سنة ٤٥٠ هـ ، وأودع فيه بعض رسائله ومناظراته العلمية والفلسفية .

ومما جاء في السيرة من ملاقاته للخليفة المستنصر . قال :

« ... فدخلتُ إلى مجلس الخلافة في آخر يوم من شعبان سنة تسع وثلاثين وأربعمائة وكنت في مسافة ما بين السقيفة الشريفة والمكان الذي ألح فيه أنوار الطلعة الشريفة النبوية كما قال المتنبى عن رسول الروم عند دخوله إلى ابن حمدان — وإن كان بين الجهتين فرق ما بين التراب إلى السحاب :

وأقبل يمشى في البساط فما ذرى إلى البحر يمشى أم إلى البدر يرتقى

فلم تقع عيني عايه إلا وقد أخذتني الروعةُ وغلبتني العبرة ، وتمثل في نفسي أنني بين رسول الله وأمير المؤمنين صلى الله عليهما مائل ، وبوجهي إلى وجههما مقابل . واجتهدتُ عن وقوعي إلى الأرض ساجداً لوليِّ السجود ومستحقه أن يسعفه لساني بشفاة حسنة ينطقه . فوجدته بجمجمة المهابة معقولا ، وعن مزية الخطابة معزولا . ولما رفعت رأسي من السجود ، وجمعت على أنوالى للقعود رأيت بنانا يشير إلى بالقيام لبعض الحاضرين في ذلك المقام ، فقطب أمير المؤمنين — خلّد الله ملكه ، وجهه عليه زاحراً ، على أسي مارفعت به رأساً ولا جعلتُ له قدرا . ومكثتُ بخضرته ساعة لا ينبعث لساني بنطق ، ولا يبتدى لقول ، وكلما استطرد الحاضرون مني كلاماً ازددت إعجاباً ، ولعقة العبي اقتحاما وهو — خلّد الله ملكه — يقول : « دعوه حتى يبدأ ويستأنس » . ثم قمتُ وأخذت يده الكريمة فترشفتها وتركتها على عيني وصدري ، وودعت وحرجت . » (٢) .

الاعتبار (٣) : وهو في السيرة الذاتية لأسامة بن منقذ

ألفه وهو ابن تسعين سنة ، وله كتاب طريف : يقول عنه ابن منقذ (٤) :

(١) صغ الكتاب مدار الكافي لسنة ١٩٤٩ تحقيق د . محمد كامل حسي

(٢) ص ٥٥ د

(٣) صغ مربي نور في . . . سنة ١٥٠٥ — ١٨٨٦ وإثباته في مرستون الولايات المتحدة تحقيق د . بيليب

حتى

١٥١ — — — — — ٢٢٦

« قد أوردتُ في كتابي المترجم نكتاب « الاعتبار » عجائب ما باشرته وحضرة ،
وشهدته من الحروب والمنصافات والوقائع منذ كست ابن خمسة عشر سنة إلى أن تجاوزت
التسعين ، وما نالني فيها من الجراح والمكاره وأنا القائل :

أخوض الرُدى كم خضته متعرضاً له ، وهو عني معرض متجنب
وكم أخذت مني السيوف مأخذ السـ حمام . ولكن القضاء مغيب
إلى أن تجاوزت الثمانين وانقضت بلهنية القيسر الذي فيه يُرغيب
لمكروه ما تخشى النفوس من الرُدى ألد وأحل من حياي وأطيب

وذكرتُ ما شاهدته من إقدام الرجال ، وعجائب تصرف الآجال ، فعنيت بما أوردته
هناك . »

الاعتبار^(١) لأسامة بن منقذ

كتب أسامة بن منقذ هذه السيرة الفذة لحياته في أخريات عمره بدمشق ، وكان قد تجاوز التسعين . ويقول فيليب حتى ناشر الكتاب^(٢) .

« بعد أن توغل أسامة ذروة التسعين ، وهو في دمشق ... أخذ يطلُّ من ذلك العلو الشاهق على سابق اختباره ، ويدونها ، أو يلقتها ، بانشاءٍ ساذجٍ عادى ، لا تصنع فيه ولا تعمل ، على صورة مذكرات ، تصوّر لقطات من تلك الحياة الفذة الفريدة الغريبة المليئة بالمغامرات والمفاجآت ، والتناقضات ، بين مسرات الحياة ، واقبالها ومآسى العيش وادباره ، فهو بين تلك السطور ممتلئ نشاطاً وفتوةً ، يقبل على الدنيا ، وكأنها لاتسعه ، وأحياناً يتوجس ، وتطبق أقصر الجوّ عليه ، وكأن السماء تكاد تطبق ، والليل يكاد يحنّاه ، وظلماته يهّوم على النهار فلا تبين أمامه الطريق ، وهو حيناً سعيد مشرق مرّح متفائل ، وأحياناً قلق حائف يترصد ، ويتوقع العدو الكامن له في كل ثنية وطريق .

حياة حافلة لاشك ، ونموذج من كتابة السيرة لا يتكرر في أدبنا العربي ، ومن هنا كان اهتمام الباحثين بالاعتبار ، باعتباره ظاهرة فريدة تستحق الوقوف أمامها والتنويه بها وبصاحبها .

يقول ناشر الكتاب^(٣)

« رمى المؤلف من وراء كتابه إلى تعليم أمثلة أدبية ، لذلك سمّاه « كتاب الاعتبار » وأورد موادّ يرجي منها أن يعتبر القارئ بما حلّ بغيره ، وأن يستفيد لنفسه . أما العظة التي أراد أن ينقشها على ذهن القارئ بحيث لا تُمحي فهى : أن ركوب الأخطار في الحروب وغيرها لا ينقص الأجل المكتوب . يقول : فإن رأى رأيتُ معتبراً يوضّح للشجاع العاقل ، والجبان الجاهل أنّ العمر مُوقَّتٌ مقدرٌ ، لا يتقدّم أجله ولا يتأخّر . » .

(١) طبع بتحقيق فيليب حتى بمجلة جامعة برنستون بالولايات المتحدة سنة ١٩٣٠ .

(٢) الاعتبار ص م من المقدمة .

(٣) فيليب حتى ص ٥

ومن صور معاركه مع الصليبين تنقل هذه الفقرة على لسانه حين نزل عليهم بقلعة شيزر بلدوين صاحب أنطاكية . قال أسامة ^(١) .

« نزل علينا صاحب أنطاكية لعنه الله بفارسه ورجله وخيامه في بعض السنين ، فركبنا ولقيناهم نظن أنهم يقاتلوننا ، فجعوا نزولاً منزلاً كانوا ينزلونه ، وهجعوا في خيامهم فرجعنا إلى آخر النهار . ثم ركبنا ، ونحن نظن أنهم يقاتلوننا ، فما ركبوا من خيامهم .

وكان لابن عمي ليث الدولة غلة قد نجزت وهي بالقرب من الإفرنج ، فجمع دواباً يريد يمضي إلى الغلة يحملها ، فسرنا معه في عشرين فارساً معدّين . ووقفنا بينه وبين الإفرنج إلى أن حمل الغلة ومضى ، فعدلتُ أنا ورجل من مولدنا يقال له حسام الدولة مسافر فأرانا شخصاً وهم على شط النهر ، فلما وصلنا الشخصوص التي رأيناها والشمر على مغيبها فإذا شيخ عليه معرفة امرأةٍ ومعه آخر ، فقال له حسام الدولة — وكان رحمه الله رجلاً جيداً كثير المزاح — : يا شيخ أي شيء تعمل هاهنا ؟ .

قال : انتظر الظلام واسترزق الله تعالى من خيل هؤلاء الكفار .

قال : يا شيخ باسنانك تقطع من خيلهم ؟ .

قال : لا . بهذه السكين .

وجذب سكيناً من وسطه مشدودةً بخيط مثل شعلة النار ، وهو بغير سراويل فتركانه وانصرفنا .

وأصبحت بُكرةً ركبْتُ انتظر ما يكون من الإفرنج ، وإذا الشيخ جالسٌ في طريقى على حجر والدم على ساقه وقدمه وقد جمد .

قلت : يهتك السلامة . أى شيء عملت ؟

قال : أخذت منهم حصاناً وترساً ورمحاً ولحقتى راجلاً ، وأنا خارج من عسكرهم طعنتى نَفَذَ القنطارُ في فخذي ، وسبقت بالحصان والترس والرمح .

وهو مستقل بالبطنة التي فيه كأنها في سواه .

وهذا الرجل يقال له الزمركل من شياطين اللصوص .

(١) الاعتبار ص ٤٣ .

الكتب الأدبية

تنوعت المؤلفات والكتب الأدبية في عصر الفاطميين ، وتعددت موضوعاتها ومناهجها فمنها كتب مجموعات تجمع عديداً من الموضوعات ، والأخبار الأدبية ، والطرف والنصوص الشعرية ، والنثرية ، وتراجم الشعراء والأدباء ، وتقد لأشعارهم وصنعتهم الكتابية ، أو تقرّظ لها ، وبيان محاسنها إلى غير ذلك .

وقد يدور بعض هذه الكتب حول موضوع بعينه ، أو حول مدينة ، أو عصر أو قرن من الزمان أو قرون ، كما قد يتناول مرحلة في عصر دولة من الدول أو خليفة من الخلفاء أو أمير ، أو وال ، وما قيل فيه من المدح ، أو عاش في ظله من الأدباء والكتاب .

كما نجد بعض مآلفه كتاب الإنشاء عن الكتابة والإنشاء ، وما يتصل بأصول الكتابة الديوانية وما ينبغي أن يتوفر في كاتب الديوان أو كاتب الإنشاء من معرفة بكثير من العلوم والآداب والفنون . مما يعرض له المؤلف .

الأفضليات^(١): لعل بن منجب الصيرفي

والكتاب مجموعة من الرسائل التي أنشأها للملك الأفضل أحمد بن بدر الجمالي الوزير الفاطمي الخطير من سنة ٤٨٧ هـ إلى ٥١٥ هـ .

وهذه الرسائل تبدأ برسائل في رجاء العفو ، والصفح عن الذنب ، ويبدو أنها قدمت للوزير الأفضل بعد أن غضب على ابن الصيرفي لأمر لم تتضح لنا ولعل من أسبابها بعض الوشائيات التي بلغت أسماع الوزير ممن يحسدون ابن منجب على مكانته . وكانت هذه الوشائيات أمراً كثير الوقوع بين أفراد حاشية أولئك الرؤساء والخلفاء ، وكم جرّت على الناس من ويلات ، بل ووقع في أحاييلها كثير من وجهاء الدولة وكبار علمائها .

(١) تحقيق الدكتور وليد فصاب والدكتور عبد العزيز المانع من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٤٠٣ هـ .

وهكذا وقعت الجفوة بين الوزير وكاتبه ، فطرده من ديوان الاشياء ولكن الكاتب ، اعتر ، وألح في الاعتذار ، وطلب الصفح حتى استطاع أن يكسب عطف الأمير مرة أخرى ، ويستميله إليه ، فيعيده إلى مكانه من ديوان الإنشاء ونجد هذا الاعتذار والاستعطاف في فصلين جاء في أول الكتاب هما :

فصل مما جاء في العفو ، وفصل في الشفاعة والاستعطاف . يعرض فيهما طلب العفو ، ويبدل ما في ماء وجهه للصفح ، وتليها رسالة رد المظالم ، وهي متعلقة بالرسالة الأولى بفصلها ، ولم يكتب ابن الصير في بديل ماء الوجه في عبارات انشائية منمقة ، والاستشهاد بما جاء في ذلك من آيات الكتاب ، وأحاديث النبي ، بل جال جولات شتى في مجالي الأدب شعراً ونثراً يقبس منهما لعرض آرائه ، وبسط معانيه .

ومما جاء في حديثه عن العفو كما بسطه في أول الكتاب :

« قال الشيخ أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان الكاتب :

« هذه الرسائل التي صنفتها منذ الأيام الأفضلية ، فأولها رسالة العفو ... التي ترجمتها استنزال (العفو) مما خدم به المجلس العالي المالكي الأفضلي مملوكه ..

الحمد لله راحم خلقه وإن عظمت ذنوبهم ، وكاشف ضرهم ، فيما يطرقهم وينوبهم والمتفضل عليهم بنعمه وهم غافلون ، والقائل في محكم كتابه ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ﴾ وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الذي شرفه بالقرآن الكريم ، ووصفه بالخلق العظيم ، وفضله على كافة الأنبياء الذين بعثهم وأرسلهم ، وأمره في أصحابه بقوله — عز من قائل : ﴿ فأعف عنهم واستغفر لهم ﴾ .

وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي أجاب إلى الإيمان مسارعاً مبادراً ، وصفح عن عدوه ، وكان عليه قادراً ، وأعربت شيمه عن الشرف الصريح . ومنه كرمه أن يجهز على جريح .

وعلى آلها الطاهرين الذين طهر بهم من الأدناس ، صلاةً دائمة الاتصال مستمرة في الهدوء والآصال ، وسلم ، وكرم ، ومجد ، وعظم . أجمعت التربية على اختلاف ألسنتها وألوانها ، وتغاير عصورها وأزمانها ، وتباين عقولها ، آرائها ، ونفاوت أغراضها وأهوائها

أن أفضل ما اكتسبه المرء في وجوده ، وأشرف ما منحه من كرم الله وجوده ، ما يوفق له من إصلاح أخلاق النفس وتهذيبها ، وتبليغها غاية تجود الخواطر فيها ، وتهذى بها . وإن من أدرك ذلك فقد نال الرتبة العلية ، وحاز السعادة الحقيقية ، لأنه حصل على فضيلة الذات ، ووصل بها إلى أعظم اللذات . وهذه قضية لا تنتفض ، ومقدمة لا يخالف أحد فيها ولا يعترض ، فأما النتيجة عنها فهي فعل الحسن ، والمثابرة عليه ، والتنزه عن القبيح ، وإن دعت المكافأة إليه . وأفضل الحسن ما بقي ذكر المرء بعده ، وجعله بالوصف قريبا ، وإن أطالت الأيام عهده ، إذ كان بقاء ذكر الإنسان عمراً يستجده ، وكنزا يذخره لوارثه ، ويُعده . ومن أمثالهم : « البشرُ أحدُ الجودين ، والذكرُ أحدُ الخلودين ، والبيانُ أحدُ السحرين والثناءُ أحدُ العمرين » . وما أحسن قول أبي الطيب :

كفَلَّ الشاءُ له بردَ حَيَاتِهِ لَمَّا انطَوَى فَكَاكُهُ مِنْشُورُ

وقد سبقه إلى هذا المعنى غيره . قال التيمي :

رَدَّتْ صَنَائِعُهُ عَلَيْهِ حَيَاتِهِ فَكَاكُهُ فِي طَيْبِهِ مِنْشُورُ

وقال آخر :

طَوْتَهُ التَّايَا وَالشَّاءُ كَفَيْلُهُ بَرْدَ حَيَاةٍ لَيْسَ يُخْلِقُهَا الدَّهْرُ

وبعد أبي الطيب قال مهبّار :

أَفْسَى الشَّرَاءِ عَلَى الشَّاءِ لَعَلِمِهِ أَنْ الْفَنَاءَ عَلَى الشَّاءِ حُسْلُودُ

وإذا تَوَلَّمَتِ المناقبُ التي تخلدُ حُسْنَ الذِّكْرِ ، وتمثلتُ صوراً تُسْتَشْفَى فِي مِرَاةِ الْفِكْرِ ، وَجَدَّ أَحْسَنُهَا مَنْظَرًا ، وَأَشْقَىهَا جَوْهَرًا مَا كَانَتْ النِّعْمَةُ فِيهِ تَعَدَّى ، وَالْأَمَالُ تَعْرِضُ نَحْوَهُ وَتَتَصَدَّى ، فَلِذَلِكَ عَظُمَ رَبُّ الْمَنَائِحِ وَالصَّلَاتِ ، وَفُضِّلَ الْمُنْقَلُ بِالصَّدَقَةِ عَلَى الْمُنْتَفِلِ بِالصَّلَاةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَصْلَى لَا تَتَجَاوَزُهُ مَثْوَبَةٌ مَا صَنَعَ ، وَالْمُنْصَدِّقُ فَقَدْ نَفَعَ غَيْرَهُ وَهُوَ لَا بِحَالَةٍ قَدْ انْتَفَعَ . وَهَذَا أَمْرٌ قَائِمٌ الدَّلِيلُ ، وَاضِحٌ بُرْهَانِ التَّفْضِيلِ . ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ النِّعْمَةَ الْمَشْرُوكَةَ بَيْنَ مَنْعَمٍ عَلَيْهِ بِهَا ، وَمَنْعَمٍ يُثَابُ بِسَبَبِهَا ، تَنْقَسِمُ فِي قِسْمَيْنِ أَيْضًا : أَحَدُهُمَا الْبِرُّ الْمَعْهُودُ وَالصَّدَقَةُ الْمَعْرُوفَةُ ، وَالْآخَرُ الْعَفْوُ عَنِ الْجَرَائِمِ الَّتِي تَأْتِي إِحْتِمَالَهَا الطَّبَاعُ الْعَزُوفَةُ ، وَتَفْضِيلُ مَنْ يَشْرِي عَلَى مَنْ يَتَصَدَّقُ فَرَضًا وَاجِبًا ، وَتَرْجِيحُهُ عَلَيْهِ أَمْرٌ مَعْتَمَدٌ وَحَقٌّ لِأَزْبِ ، لِأَنَّ الْمُنْصَدِّقَ لَا يَتَجَاوَزُ حَالًا مُخْتَلَةً يَسُدُّ خِصَاصَتَهَا وَفَاتِقَهَا . وَالْعَافِي عَنِ الذَّنُوبِ فَقَدْ يَخْتَصِمُ . مَا يَرْجِبُ الْعَدْلُ سَفْكَهَا وَإِرَاقَتَهَا . دَلَّوْهُ يُولَى جَمِيًّا . . . بِحَسْنِ

صنيعا ، والثاني يُحيى نفساً . ﴿١﴾ ومن أحيائها فكأنما أُحيى الناس جميعاً ﴿٢﴾ . فبينهما هذا التفاوت الذي لا يخفى قدره ، والتباين الذي لا يستتر على ذى تصور أمره ، فقد استقر بهذه السياقة أن العفو أكرمُ الخصال ، وأعلى منازل الكمال ، وأحمدُ الأفعال عاقبة في العاجلة والمآل .

ومن لطائف الله بأهل هذا العصر ، ومواهبه التي تتعدى مدى الإحصاء والحصر ، أن جعل هذه الفضيلة التي قام بها البرهان على أنها الأولى في العدد ، وارتفع الخلاف في كونها الأولى بتعظيم كلِّ أحد ، أغلب الخلال على خلائق مولانا الملك السيد الأجل الأفضل أمير الجيوش ، سيف الإسلام ، ناصر الإمام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادي دعاة المؤمنين ، عضد الله ملكه بالتخليد ، وشدَّ ببقائه أزر الإيمان والتوحيد ، الذي ملأ جماله العيون ، وصدَّق إحسانه الظنون ، ووضحت الدلائل على أن مثله لم يكن قطُّ ولن يكون :

هياث قامت معجزات الغلا فيه ومائت آية الانفسراد
جل عن الناس فما عاتبه شيء سيوى تشبيهه بالعباد

ثم إنه بسط الله اقتداره ، وأعزَّ أوليائه وأنصاره ، لم يعرض من الصفح بما أُلِف ولم يقنع من العفو بما عُرف مما يجودُّ منه على الجاني ببقاء روحه ، ويحول به بين المجرم ، وبين سكنى ضريحه ، حتى أبان من التذاده بالفقران ، وإحسانه إلى من قابل نعمته بالكفران ، ما جعل المذنبين يتقربون إليه بالجرائر ، والمسيئين يتوسلون عنده بالكبائر ، فحمدوا خطأهم ، وما عهدنا الخطأ مع غير كرمه يُحمد . وجحدوا براءتهم وما عرفنا البراءة ، لولا فيض فضله تنكر وتجدد . وصارت إساءتهم من موائبهم إليه وشوافعهم . وجنابيتهم من حرمتهم لديه وذرائعهم ، فما أصدق ما قال أحد شعراء مجلسه العالی ، شيد الله مبانیه ، وبلغ كلا من ممالیکه آماله وأمانیه .

وسعت مراجعك الجنة بأسرهم وألست كلاً منهم عثراسه
وجزيت مرتكب الكبيرة منهم الـ محسنى لأصبح شاكراً زلايه (١)

ويعنى في هذه الزلفى ، والاستشهاد بالشعر أو عمل شعر في كل معنى متصل بما

(١) الأفضليات ص ٧ .

يعرض له من هذه المعاني في دائرة العفو ، والصفح ، وسماحة النفس .. ومالي ذلك حتى ينتهي إلى قوله : (١)

« وللمملوك مقرر هذه الرسالة خدمةً كان رفعها إلى المجلس العالی المالکی — حلد الله سلطانه وشيد أركانه — وهي . ﴿ وأيوب إذ نادى ربّه أنّي مسئى الضرّ وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له ، فكشفنا ما به من ضرّ ﴾ لو كان للمراجم عن الشيم الشريفة الأفضلية معدلي ، أو للعواطف عنها مرجع أو موئل ، لما منع ذلك ذوى العقول من قصد الجناب الكريم المالکی الأفضلي ، وقوفاً بآمالهم في رحيب ساحاته ، وتخييساً برجائهم في مصون عرصاته ؛ إذ كان كل مملوك فإلى مالكه معاذه ومفرغه ، ولسلطان عصره ملاذهُ وإليه مرجعه ، فكيف وأنواع الرأفة إلى مولانا — حلد الله ملكه — منسوبة وأقسام العواطف من سمائه مستنزلةً مطلوبة ؛ والجرائم عنده وإن عظمت مسموح بها موهوبة . على أن سطوته بالإجماع مخوفة ، وهيبته مرهوبة . لا جرم أن الله تعالى خصه من الرحمة بما هو معدودٌ من صفاته ، وأفرده من الخصائص بيدائع الفضل ومعجزاته . والله أحكم بتدبير خلقه ، وأعلم حيث يجعل رسالاته .

والمملوك يقبل الأرض بالمقام الكريم ، ويبى ما هو عليه من ضرّ قد قصر عنه جلده ، وضاق فيه بروحه جسده ، وأصار راحته من كان يحسده . وقد نهكته العطلة والبطالة ، وأضال الزمان دفاعه عن الخط ومطالته ، وله حرمة من نشأ في ظل دولته القاهرة ، وفاضت عليه سحائب مكارمه الغابرة ، ورؤى في دواوين مملكته السعيدة . »

وكذلك يجرى قلبه في الرسالة التي سماها « رد المظالم » . يشير فيها إلى قصد الشعراء وغيرهم للأفضل من أحل المديح وبيل الجائزة فيقول (٢)

« وقد ازدحمت بنمائه ضروب الأمم ، وتواصلت إليه ملوك العرب والعجم ، وهاجروا نحو باب ميعن ، وأموا ظله لاجئين إليه منقطعين . ولقد ورد منهم اثنان مشاهداً لأفقير . متشابهاً مستخيراً . وعماً ملكاً غانة وفرغانة ، فأزال من قلب كل منهما أحقادها على اندهر وأصفاه . وعتبروا يأولى الأبصار كيف أحسن حتى إلى الدهر

(١) المصدر نفسه ص ٢٤

(٢) الأفضيل ص ٣٧

فأصلح القلوب له ، وجعل ذلك من شكر الله على ما قَسَّسه إياه وسرَّبه ...

.... وإذا تأملنا ما سفر فيه البيان وتبرَّج ، وأسفر به صبَّحُ الإبداع وتبَّلَج ، وأخرجت منه الضمائر جواهر كانت مستترة . ونظمت به الخواطر عقوداً مازالت منتثرة وجدنا ضرورياً من الأقوال منسعة ، وأصنافاً من المدح منشعبة متنوعة ، تدعو الناظر المحرَّر ، والمتأمل المقصَّور ، والعامِل بفريضة العدل نعرضاً لحزائه ، والمناضل عن الحقِّ رغبة في انتسابه إليه واعتزائه إلى القول إنَّ كلَّ لسان انطلق في أيامه بخدمة ملوكية فما قصد غير مدحه ، وكلَّ بيان انبعث في أوصاف حقيقية ، فما أراد سوى تفصيل ذلك وشرحه . فله در أبي نواس إذ يقول :

وإن جرت الألفاظ يوماً بمدحِ لغريك إنساناً فأنت الذي نعسى
وما أحسن قول ابن الرومي :

إن أسرق الشعراء شعرهم فجزاء ما سرقوا من الجسد
سرقوك مجذك وهو مدُّ عسر من قبل أن تلقى إلى المهسد
وكسوة قوما لا يليق بهم من ماجد وسط ومن وعسد
فرددت حقك غير مُعتسدر منهم إلى حُرِّ ولا عُبسد

فعمدنا إلى هذا الباب ذاكرين منه أتمودجاً لنضائره ، واقتصرنا عليه ، إذ لا طمع لنا في ذكر سائره ، واعتمدنا على ما لم يتذله الاشتهار ، وقصدنا ما لم يكن للألسن به استهتار واجتهادنا في إيراد ما لم تُخلِّق الأسماع جدته ، وخدمنا بما لم تسلب الرواية رواءه وبهجته وقد يأتي في تضاعيفه ما ليس من شرطه حسب ما يوجب تفرغ التصنيف ، ويقضى به تشعبُ التأليف ، وسمينا ذلك : « ردُّ المظالم » لأنه حقٌّ لمولانا .

وقد خليت على غير أكفائه عروسه ، وأديرث على غير شربه كؤوسه ، فافتضت أسماعهم أبكاره ، وشربت أفهامهم عُقاره . وهذا ظلم من ناظمه وقائله ، وتعدُّ من سامعه وقابله .

ويقول : « قال عبد الله بن محمد بن سان بن سعيد الخماجي الخلبى :

لا يدعى الفصحاء فيك غريسةً والبيض تشرُّ والأسننة تنيطم
إن أحسنوا عنك الثناء فإنها نطقت بمدحك قبل أن يتكلموا

عجباً لوجهك كيف بارق بشيره تهمة سحابه ولا يتغيثم
ومن العجائب أن يبيض سيفه تبكى دماً وكأنها تبثم
فأما الأول فمن مליح التورية . وقد أتى بهما في قوله :

وصفوا يياض يد الكليم بمعجز فيه ، وكم لك من يد يياض
واستطرفوا إحياء عيس ميتاً فرداً ، وجودك باعث الفقراء
وقال :

من القوم صال الدهر إلا عليهم وصالوا يياض الهند حتى على الدهر
أشدُّ احتقاراً بالردي من حسامه وأدى إلى سر الأعدى على الدر
له خلق في الخيل غيث وفي الصبا نسيم ، وفي جنح الدجى غرة البلر
وقد استعمل تركيب هذا البيت في موضع آخر فقال :

ماهره طرب العقار وإنما أعطته نشوة كأسها الأخلاق
هي في الهوى وعد الوصال وفي ال كرى طيف الخيال وفي الوداع عناق
وهو مأخوذ من قول ابن نباته :

إنما في السحاب وبئ وفي السر يح نسيم ونشوة في الشراب
فأما قوله :

أشدُّ احتقاراً بالردي من حسامه

فهذا الصدر يصلح أن يُعجزَ بقول أبي الطيب :

وأقدم بين الجحفين من التبل

على أن صدر بيت أبي الطيب مناسب للعجز المذكور ، لأنه قال :

أقلُّ بلاءً بالرزايا من القنا

فيصير هذا العجز مع صدرين .

قال محمد بن عباد بن عمرو :

سميدغ نهب الآلاف مبتدئها ويستقل عطاياها ويعتذر

له يد كل جبار يقبلها لولا نداها لقلنا إنها الحجر

ولو أمكنه أن يقبل الحجر الأسود لكشف المراد منه ، وأظهره إلى
وقد اتفق ذلك لعمود بن القاضي الموفق أحد مماليك مولانا ، و كاتب إنشاء دولته
قوله يصف كتابا ورده ، ويذكر أن الفاتك والناسك لفياه بالتبجيل ، وقابله بالتقيل
كأنما قد حل في اللمى ، أو ذاب فيه الحجر الأسود .

على أن ابن مكنسة ذكر الحجر غير موصوف ، فلم يُشكل المراد فيه ، وسبب ذلك
ماقرنه به ، وضمه إليه . فقال من قصيدة أولها :

لمثل ذا اليوم كان السعد ينتظر

منها :

كأنك البيك قد طاف الحجيج به ولى ركائبك حل الركن والحجر
فأما قصيدة محمد المقدم ذكره فإن لعبد الله بن سنان قصيدة على وزنها وفي معناها ، على
تقارب العصرين ، وتباعد المستقرين ، منها ما هو من شرط هذا الكتاب . قال منها :
ملك له سرّة في العدل معجزة لولا الشريعة قلنا إنها سُـسـوـرُ

.....

وهكذا يظل يورد أبياتاً لبعض شعراء عصره في معاني المدخ مقارناً بينها ناقداً ، مبيناً
ما بين معانيها من النسب ، أو بين تلك المعاني ، وسابق مقال الشعراء القدامى ، مما
يدل على سعة محصوله في الشعر ، ودقة فهمه ، وحسن تذوقه .

وبعرض لشعر ابن عمار الوزير والشاعر الأندلسي قرين ابن زيدون فيورد منه جملة ،
يعارضها بأبيات أخرى لبعض شعراء عصره ، ومن سبقهم على ما ذكرنا . وقد كان
كععض معاصريه من المقرئين مهتماً بشعراء الأندلس وشعر الأندلسيين ، وله فيه كتاب
على ما جاءت به الأخبار ونقل عنه بعض المؤلفين .

ونعدّ الرسالة على تلك الصورة من الموازنات الشعرية ، والمعارضة بين المعاني ،
وتعقب الألفاظ ، وما جاء من صور التعبير الفني من تورية وغيرها جهداً من المؤلف
في النقد الأدبي ونقد الشعر خاصة .

ويشير إلى ما يأتي في الشعر من طرائف بعض الناظرين المتكلمين كالحري في

مقاماته ^(١) كالقلوب والتجنيس المبالغ فيه .

ويختتم كلامه بقوله :

« وهذا المقدار دالٌّ على استنباط أمثاله من هذا الأسلوب ، ومسهّل استخراج أنظاره من هذا الغرض المطلوب ، وهادٍ إلى ما يجب قصده في المدح واعتقاد ، وباعث على ما يلزم إضماره في الوصف واعتقاده ... » ^(٢) .

فالرسالة إذا وإن كانت في شعر المديح ، ومما قصد به الأفضل ، إلا أنه استطرد إلى معاني المديح ، ومنها إلى معاني موضوعات الشعر الأخرى وأساليب الشعراء في تأدية تلك المعاني .

« لمح الملح » ^(٣)

ويبدو أنه لم يبلغ غايته في الرسالة السابقة ، فأراد أن يسقأنف القول في رسالة أخرى لاحقة اسمها لمح الملح .

فموضوع هذه الرسالة يجمع ملح الشعر والأخبار حول من نظموا من المديح في الأفضل من شعراء العصر وبعض أخبار أخرى لشعراء من أهل مصر والقيروان والشام .

ويقسمها فصولاً كلُّ فصل يتناول لمحاً عن مجموعة من الشعراء ، فالفصل الأول بعنوان « من المحاسن العصرية في المملكة المصرية » ذكر فيها بعض أقوال الشعراء في الأفضل منهم محمود بن الموفق الكاتب ، ومجير بن محمد بن عبد العزيز ^(٤) ، الصقلي ثم المصري وابن حيوس ، وفي فصل آخر سماه : « في الإشارة إلى مدائح مولانا وفضائله وما ازدات به الأرض من قصوره ومنازله . » ذكر فيها شعراً للشاعرين السابقين أيضاً ، ويبدو أنهما كانا من الشعراء الملازمين لبلاط الأفضل .

يقول عن مجير بن محمد : « ومجير أحد شعراء مجلس مولانا — خلد الله سلطانه في

(١) الأفضليات ص ٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ٩٧ .

(٣) الأفضليات ص ١٠١ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٢٦ .

وصف فؤارة في المباتى الشريفة على . مأوجه نخيله ، واقتضاه توهمه وتمثله لأنه ماأدرّتها
بنظره ، ولا أجال فيها حاسة بصره :

وفؤارة يستمدُّ السُّحا بٌ من فضل أخلافها المَحْتَلَبِ
رأت جرة القِيطِ مُحَمَّرَةً لها شَرَرٌ كرجومِ الشُّهْبِ
فظلت بها الأرضُ تروى السُّما ءَ خوفاً على الجَوِّ أن يلتهبِ

وهذا من قول الآخر في وصفها :

أمطرت الأرضُ بها السماء

ومن المستحسن في ذلك ماأتى به على بن الجهم في قوله :

وفؤارة ثأرها في السماء فليست تُقَصِّرُ عن ثأرها
تردُّ على المزن ماأسبَلَتْ على الأرض من صَوْبِ ملذازها

والذى صنعه الشعراء في هذا الباب مما هو مستقرٌّ في الخزائين المغمورة مغن عن
التوسّع فيه ؛ لاسيما وهذه الخدمة لحة ، والذى أورد فيها على وجه الإشارة . « .

ويورد نادرة من كتاب الوزراء لابن عبدوس ، وكلمة لعمر بن مسعدة الكاتب ،
أراد أن يعارضه ، ويمائنه فيها ، فجاء بمقال له منشور ، أعقبه شعر لبعض شعراء عباسيين
ثم جاء بفصل عن ابن شرف القيروانى قال :^(١)

« من المحدثين المجيدين محمد بن شرف . وذكر في بعض تصانيفه أنه كتب يشرح
حال حاج أصابه في الطريق حرٌّ شديد ، فنزل بئراً ليشرب ، فسقطت فيه صاعقة ،
فسلم منها ، ثم ركب وسار فنزل بردٌ أصابت رأسه منه واحدة فقتلته ، وكتابه في ذلك
مشهور .. وقد كتب المملوك يعنى نفسه — ابن الصيرفي — في هذا المعنى . » ثم يورد
مقالاً آخر . يعقبه بالتعريف بابن شرف قائلاً : « وابن شرف من أعيان الشعراء ،
وأماثل البلغاء ، وله أبياتٌ يجيد فيها ، ويجسُنُ في معانيها . فمن بديع شعره قوله :

خلقُ كماءِ المزنِ طيبٌ مذاقُهُ والرَّوضَةُ الغناء طيبٌ نَسِيمِ
كالسيفِ لكن فيه حلسمٌ واسعٌ عَمَّنْ جنى والسيفُ غيرُ خَلِيمِ
كالليثِ إلا أنه مُتَبَرِّقٌ سَعٌ بوسامةٍ ، والليثُ غيرُ زَيْمِ
كالغيثِ إلا أن وابلٌ جَسُودِهِ أبداً ، وجودُ الغيثِ غيرُ مُقِيمِ

(١) نفسر منه ص ١٢٦

كالدهر إلا أنه ذو رحمةٍ والدهر قاسي القلب غير رحيم»
وبعض مقطوعات شعرية أخرى . كقوله في عود قينة :

سقى الله أرضاً أبتت عودك الذي زكث منه أغصاناً ، وطابث مغارسُ
تغنى عليها الطيرُ وهي رطيبةٌ وغنى عليها الناسُ ، والعود يابسُ
وقوله في مثله :

ياعودُ من آيةِ الأشجارِ أنتَ لئلا جفا ثراها ولا أغصانها المساءُ
غنى القيان عليها وهي يابسةٌ بعد الحمام زماناً وهي خضراءُ»^(١)

ويذكر ابياتا لابن رشيق في الخمر ، يقارن بينها وبين أبيات أخرى لعبد المحسن
الصوري من شعراء اليتيمة .

ويحول في الرسالة جولات نقدية تتناول جوانب المعاني المشتركة بين الشعراء
والمأخوذة مما يجرى في كتب السرقات والمآخذ . كما يعرض للجوانب البيانية من تشبيه
واستعارة مقارناً معلقاً ، مستحسنناً ومقبحاً . فما استحسنته منها قول الشاعر في وصف
الخمر :

ومقتول سكر عاش لنا دعوتسه لبادز مسروراً يرى غيهُ زُشداً
وقام تنبيه بقايا خمسه وقد قطفت عيناهُ من حده زداً»^(٢)
لأنه جمع بين الاستعارة والتشبيه مع حسن اللفظ .

ويتحدث عن القوافي المتمكنة فيقول :^(٣)

في الأبيات التي تقتضى قافية لا يكادُ الخاطرُ يتخطاها ، فيأتي قائلها بأخرى لا يتعرض لها
الفكر ولا يتعدها . من ذلك قول عليّة بنت المهدي :

ومغترِبٍ بالمرج ييكي لشجوهٍ وقد بان عنه المسعدون على الحسبِ
إذا ما أتاه الركب من نحو أرضه تستسّم يستشفي برائحة القرب

قال السائق المعري : فأنزلت الركب عن هذه القافية ، وقد كان لها موضع ، ولكن

(١) الأفضليات ١٢٨ - ١٣٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٣٤ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٣٥ .

القرب أحقُّ به . وقول ابن بياته .

رمتُ بها أهلَ الجبالِ فما درواً أخيلَ رمتها بالعدا أم سلالم
والمملوك — ابن الصيرى — يقول : إن الذى يترُّ إليه الخاطر تقيةً هذا البيت
بالقشاعم ، فلما ارتفع إلى السلام راد المعنى بهجة .

ويعقد باباً شبيهاً بما عقده ابن طباطبا فى كتابه عن القوافى المتمكنة (١) . يجعل عنوانه
« فى القوافى التى يتحدى بها ، فتعذر على منمسيها وصلابها » يقول :

« من ذلك قول ابن نيقيا البغدادي أحد شعراء الوقت :

لله أئى مواقف رقت لنا فيها الرسائل والقلوب غلاظ
عهدى بظلك والشباب نزيله أيام ربك للحسان عكاظ

فأغرب فيما اهتدى إليه من هذه القافية ، وحدد بها رسم سوق الجاهلية العافية ،
وأبان بذلك عن فكر ذقيق ، ومناص بعيد عميق .
وهكذا يجرى هذا المجرى فى بقية الباب .

ويعرض للمعانى التى تختمل ضادين أو معنيين متعارضين أحدهما ممدوح والآخر
مذموم من مثل قول المتنبي متخلصاً ، فجعل الممدوح رسولاً إلى اخيوبه أو قواداً على
قول المعترضين على المتنبي فى قوله :

علَّ الأمير يرى ذلى فيشفع لى إلى التى تركتسى لى الهوى مثلاً

قال : قالوا إن الشفاعة سؤال ورغبة ، فإن أوجب إلى مساعدة أى الطيب
والإرجع إلى القهر . ويحاول الدفاع عن المتنبي .

ويدكر من الشعر « مايدل على النظر فى العلوم الشرعية » وهو الذى يستعين
بمصطلح علوم الشريعة ومعانيها . كقول الشاعر :

وأمت ضباة تبسُّ الحديث وتسنُّد عن بانة الأجسرع
وتقبم أئى أهواكسُم وليس اليبين على الملعسى

ويذكر ابياتاً جاءت بها الأنساب والتفاخر بها كقول ابن الرومي :

وكم أب قد علا بابن ذرّاً شرفٍ كما علا برسول الله عدنانُ

وبدكر الأبيات « الإخباريات » التي تحوى شيئاً من الأخبار والتاريخ ،
 و« النحويات » التي تحوى مصطلح النحو أو كتبه أو كتب اللغة كقول الشاعر :^(١)

لا تألف الأحكام حيفاً عنده فكأنها الأفعال والتويهنُ

وكذلك الحال في الطبييات التي تحوى علوم الطب ومصطلحه^(٢) ، والهندسيات^(٣) ،
 والفلسفيات .

ويحدثنا في فصل من فصول هذه الرسالة حديثاً مطولاً عن التجنيس وأنواعه ،
 واقتنان الشعراء في ضروب صنعته . وقد كان التجنيس في عصره يستولى على اهتمام
 الكتاب والشعراء جميعاً .

قال في ذيل الرسالة وعند عرض هذه الرسالة — على الأفضل — رضى عنه وأعادته
 إلى ديوان الانشاء^(٤) .

والرسالة الخامسة من هذا المجموع باسم « منائح القرائح »^(٥) ، وفيها يعرض لثمناج
 من القدرة على صوغ الكلام كالتغير في قوافي الشعر والتلاعب بها على حروف
 المعجم^(٦) ، وبما تجود به القرائح ويبارى فيه الكاتب قرائح غيره ، كالتبارى في وصف
 خيمة أمر الملك الأفضل بنصيبها وجعل الكاتب لهذا عنوان فصله « خيمة الفرج » ومن
 أقوالهم فيها قول الشاعر ابن زيد الانصارى :

أخيمّة ما نصبت اليوم أم فلِكَ ويقظة ما نراه منك أم حُلُسمُ
 ما كان يخطرُ في الأفكار قبلك أن تسمو علواً على أفق السّما الحليمُ

(١) الأفضليات ص ١٧٧ .

(٢) المصدر نفسه ١٧٨ .

(٣) المصدر نفسه ١٧٩ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٨٣ .

(٥) المصدر نفسه ص ١٨٧ .

(٦) الأفضليات ص ٢٢٦ .

لأن النوح والبكاء ليسا عضوين :

ولاين رشيق في جواب كتاب :

أسمعت عيني ما اشتهت بلسان هاتيك اليراعة

وقول الشريف الرضى :

عزلى أرى الديار بعينى فلعلى أرى الديار بسخيمى .^(١)

والرسالة الخامسة « مناجاة شهر رمضان » ، والسادسة « عقائل الفضائل » وهى مجموعة من النوعات بين الأخبار ، والرسائل ، والمقالات ، والطرائف ، والوقفات النقدية شبيهة بما مضى فى رسائله . والرسالة الأخيرة رسالة : « التدلى على التسلى » والتي ذكرناها فى غير هذا المقام .

والكتاب بهذه الصورة مجموعة من الرسائل تحوى مجموعة من الأخبار والأشعار على طريقة كثير من كتب المجموعات والأمالى ، والمحاضرات ، يخرج فيها المؤلف من فن إلى فن وان تميزت هذه عن غيرها بتوجهها إلى الأفضل ، وقد أراد ببعضها استعطافه ، واطرافه بعرض طرائف الأدب ونوادير الأدباء .

ومع ذلك فقد حوت فوائد جمّة من شعر شعراء العصر وكلمات كتابه ، وحوت كثيرا من آراء ابن الصيرفى النقدية ، ونصوصاً كثيرة من كتابته وشعره . وهى من هذه الناحية . تلقى ضوءاً على عصر الأفضل ومن جمعهم مجلسه من الأدباء .

(١). الأفضليات ص ٢٢٦ - ٢٢٩

زهرة الآداب

لأبي اسحاق إبراهيم الحصرى القيروانى (ت ٤١٣ هـ)

وهو كتاب جامع لطرائف الأدب كذلك لمؤلف قيروانى عاش فى ظل الفاطميين وتحت إمرة ولاتهم من آل باديس الأمراء الصنهاجيين . وهذا الكتاب الذى سماه زهر الآداب كتاب جامع لأشياء كثيرة مختلطة دون ترتيب بعينه ، مثله فى هذا مثل كتاب الموشى للوشاء ، أو كتب الثعالبي وغيرهما من تلك الكتب التى عرفت فى القرنين الرابع والخامس .

ويكاد الكتاب لا يضم جديداً عن أهل عصره ، فغالبية ما ينقله عن أدباء وشعراء سابقين فى القرن الرابع ، وما قبله من المشاركة فى معظمهم ، ويكثر النقل عن شعراء القرنين الثانى والثالث من أمثال بشار بن برد ، وأبى العتاهية وأبى نواس ، وأبى تمام والبحترى وابن الرومى والعتابى ، كما ينقل عن الجاحظ وابن قتيبة ، ويكثر من نقل مقامات الهمداني ورسائل الخوارزمى ، والميكالى .

وقليلاً ما أتى باشعار من المغاربة والأندلسيين والمصريين المعاصرين . وأهم من نقل عنهم من هؤلاء ابن هانى ، وابن عمار ، والأمير تميم بن المعز ، وابن وكيع التنيسى . وأما الكتاب المغاربة فلا يكادون يدكرون فى هذا المصنف . ويأتى ببعض الأقوال المشهورة مسبوقة بقوله : « ولبعض أهل العصر فى كذا » ولعله يقصد نفسه .

يقول : ^(١) « ومن ألفاظ أهل العصر فى إقامة رسم الهداية فى المهرجان والنيروز » — فى مثل هذا اليوم الحديد، والأواب السعيد. سنة على مثل أن يسحّف ويلطف، وعلى مثل سيدنا — ولا مثل له — أن يقبل ويشرف . لليوم رسم إن أنحلّ به الأولياء عدّ هعوة ، وإن منع منه الرؤساء حُسيب جفوة ، ومولاي يحوغنى الذالة على ما اقترن بالرُفعة ، ويكسنى بذلك الشرف والرُفعة . الهدايا تكون من الرؤساء مكاتبه بالفصل ، ومن النظراء مقارنة بالمثل ، ومن الأولياء ملاطفة بالقل . وقد سلكت فى هذا اليوم مع

١١ هـ ذى القعدة سنة ٤١٣ هـ حفيد بنى منك ص ٤

مولاي سبيل أهل طبقته من الأرباب ، وقد حملت إلى مولاي هدية المتحفّل ، والنفسَ له ، والمأل منه . » .

ولهم في التهنئة بالنوروز والمهرجان وفصل الربيع : هذا اليوم غرة في أيام الدهر ، وتاج على مفرق العصر — أسعد الله مولانا بنوروزه الوارد عليه ، وأعاده ماشاء وكيف شاء إليه . أسعد الله سيدنا بالنوروز الطالع عليه ببركاته وأيمن طائرته في جميع أيامه ومتصرفاته . » .

لبساب الآداب (١)

لأسامة بن منقذ (سنة ٤٨٨ — ٥٨٤ هـ)

والكتاب كذلك من كتب الأدب الجامعة في هذا العصر ، ولكنه جاء في آخره ، فقد عاش صاحبه معظم سنوات القرن السادس ، وعاصر الخلفاء منذ عهد الأمر إلى آخر خلفاء الفاطميين ، ولقى صلاح الدين الأيوبي في أول دولته ، وكان قد بلغ من العمر مبلغاً .

والمؤلف شاعرٌ ، أديبٌ ، فارسٌ مغامرٌ ، من شخصيات القرن السادس البارزين في الحرب والسياسة والأدب .

جاء إلى مصر في أيام الفاطميين والتقى بالوزير الأديب الشاعر السياسي الصالح ابن رزيق ، وكانت له معه أمورٌ وأمور .

وأما الكتاب الذي نعرض له ، فيبدو أنه في آخر مآلف في حياته وقد بلغ من عمره التسعين أو نيفاً ، أو لعله قبل ذلك . لكنه أملاه فيما يبدو ولم يحرره لتضعف الشيخوخة غالباً . (٢) .

قسم الكتابة سبعة أبواب هي : باب الوصايا ، باب السياسة ، باب الكرم ، باب الشجاعة ، باب الآداب ، باب البلاغة ، باب ألفاظ من الحكمة في معاني شتى .

ويتبدىء الباب بآيات من القرآن ، يتلوها أحاديث نبوية ، ثم أقوال حكمية يتمثل بها ، ونوادير وأشعار ونحو ذلك مما أشرنا إلى مثله في كتب الأمانى والمحاضرات .

وفي هذا الكتاب أمورٌ كثيرةٌ مذكورة في كتب الأدب المعروفة ، وفيه أمورٌ أخرى وقعت للمؤلف أسامة بن منقذ ، أو حدثت في زمانه . ومنها كثير من الأحداث بين العرب المسلمين والصليبيين الأفرنج في الشام .

وفي الكتاب نتف متفرقة عن بعض وقائع حياة المؤلف ، كحديثه عن والده صاحب

(١) اعتمدنا على نسخة التي قام بتحقيقها الشيخ أحمد محمد شاكر وطبع مضمنة إخماسه بمصر سنة ١٩٣٥ .

(٢) يذكر الشيخ أحمد شاكر أنه أنه وهو ابن إحدى وتسعين سنة . ص ٢٥ من المقدمة .

قلعة شيزر ، ومواقع بينه وبين الفاطميين الإسماعيلية من صراع سنة ٥٢٧ هـ^(١) . ومن أن والده كان يستخدم شيخاً لتعليم ولده ومنهم أسامة ضرروب العلم والأدب . ونورد مثلاً من باب الآداب ، نعقبه ببعض رواياته مما شاهده وشارك فيه من أحداث عصره .

قال^(٢) : باب الآداب : يشتمل هذا الباب على خمسة عشر فصلاً هي : فصل في الأدب ، وفصل في كتمان السر ، وفصل في أداء الأمانة ، وفصل في التواضع وترك الكبر ، وفصل في حسن الجوار ، وفصل في حفظ اللسان ، وفصل في القناعة ، وفصل في الصبر ، وفصل في الحياء ، وفصل في ترك الرياء ، وفصل في الإصلاح بين الناس ، وفصل في التعفف عن السؤال ، وفصل في التحذير من الظلم وفصل في الإحسان وفعل الخير ، وفصل في مداراة الناس والصبر على الأذى .

فصل في الأدب

قال الله عز وجل في سورة البقرة : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

فمن لا شريعة له لا إيمان له ، ولا توحيد . والشريعة موجبة للأدب ، فمن لا أدب له لا شريعة له ولا إيمان ولا توحيد .

وقال ابن عطاء رحمه الله : الأدب الوقوف مع المستحسنات ، فليل : وما معناه ؟ قال : أن تعامل الله تعالى بالأدب سرّاً وإعلاناً ، فإذا كنت كذلك كنت أديباً ، وإن كنت أعجمياً . وعن الحريري رحمه الله قال : منذ عشرين سنة ما مددت رجلي وقت جلوسى للخلوة ، فإن حسن الأدب مع الله تعالى أولى .

وروى عن ابن سيرين رحمه الله أنه سئل : أي الآداب أقرب إلى الله ؟ . فقال : معرفة ربوبيته ، وعمل بضاعته ، والحمد لله على السراء ، والصبر على الضراء .

وقال رجل من قيس لرجلي من قريش : اطلب الأدب ، فإنه زيادة في العقل ، ودليل

(١) لباب الآداب ص ١٩٠ .

(٢) لباب الآداب ص ٢٢٧ .

على المروءة ، وصلة في المجلس ، ثم قال :

تعلّم فليس المرء يُخلّق عالمياً وليس أخو علم كمن هو جاهل
فإن كبير القوم لا علم عنده صغير إذا صُنّت عليه الخافل
ولا ترض من عيشر بدون ولا يكن نصيبك إرث قدمته الأوانل

وكان يقال : من حسن الأدب أن لا تنازع من فوقك . ولا تقول ما لا تعلم ، ولا تتعاطى ما لا تنال ، ولا يخالف لسانك ما في قلبك ، ولا قولك فعلك ، ولا تدع الأمر إذا أقبل ، وتطلبه إذا أدبر

.....

وقال عبد الله بن المبارك : قد أكثر الناس في الأدب ، ونحن نقول : هو معرفة النفس . وقال الجنيد رحمه الله : إن صحت أخبة سقطت شروط الأدب .
وأنشدوا :

ففى انقباضٍ وحشمةٍ فإذا لقيت أهل الوفاء والكسرم
أرسلت نفسى على سجيها وقلت ما قلت غير محتمم

كتمان السر : (١)

قال الله عز وجل في سورة يوسف : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأُمِّهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، وَرَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ . قَالَ : يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ أَخَوَاتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ، إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ . ﴾

وروى عن النبي ﷺ أنه قال : « استمعينوا عن الخبايا والخبائر ، فكل ذي نعمة محسود . »

(١) نواب الآداب ص ٢٤٠

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه أنه قال : « سرُّك أسيرك فإذا تكلمت به صرت أسيره . »

وقال بعض الأدباء : من كتم سرّه كان الخيار إليه ، ومن أفشى سرّه كان الخيار عليه .

* * * *

وقال الشاعر :

كن من صديقك حاذراً فلربما خان الصديقُ فصارَ غيرَ صديق
واحذرْ صديقك - لا عدوك - إنما حركاتُ سرِّك عند كلِّ صديق

وقال آخر :

إذا أنت لم تحفظ لنفسك سرّها فسرُّك عند الناسِ أفشى واضعُ

وقال آخر :

لا تفسر سرِّك ما استطعت إلى امرئٍ يُفشي إليك سرايراً يُستودعُ
فكما تراه بيسرٍ غيرك صاعياً فكذا بسرِّك لا محالة صابغُ

* * * *

لفصل في أداء الأمانة : (١) .

قال الله تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ، وَأَوْفُوا بِعَهْدِي

(١) المصدر نفسه ص ٢٤٤

أوف بعهدكم ، وإيأى فارهبون ﴿١﴾ .

.....

ومن سورة آل عمران : ﴿١﴾ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دُمّت عليه قائما . ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا في الأميين سبيل . ويقولونَ على الله الكذب وهم يعلمون . بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين . إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ، ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكهم ولهم عذابٌ أليم . ﴿٢﴾ .

ومن حديث رسول الله عن أبى هريرة قال عليه السلام : « أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك . » .

وقال الحكيم : أربع يُسوذن العبد : الأدب ، والصدق ، وأداء الأمانة والمروءة .

وقال الآخر : من عرف بالوفاء حافظ عليه أهل المودة ، وتاقت أنفوس الكرام إلى نصرته .

قال الشاعر :

وإذا امسرة أدى إليك أمانةً بعدك عندك اله أخفاها
فاحفظ أمانته ولا تعلم بها فكون أول واحد أنشاها

فصل في فضل التواضع : (١)

قال الله عز وجل : ﴿١﴾ فيها رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك . فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ، فإذا عزمت فتوكل

(١) آداب الآداب ص ٢٥١ .

على الله . إن الله يحب المتوكلين . ﴿١﴾ .

وعن الحسن رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يغنى أحدٌ على أحد ، ولا يفخرُ أحدٌ على أحد ، وكونوا عباد الله إخواناً . »

وقالت الحكماء : التواضعُ أحدُ مصاديد الشرف ، والشرف مع التواضع ، والكبرُ يَضَعُ ، وهو جَمِيٌّ من المَبْغُضَةِ ، وحرزٌ من المقت .

وقال الشاعر :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعاً فكم تحتها قومٌ همُ منك أرفعُ
فإن كنت لى حرزٍ وعزٍّ ومنعَةٍ فكم طاح من قومٍ همُ منك أضعُ

وهكذا يمضى أسامة في الحديث عن بقية الأبواب

ومما رواه عن أحداث عصره ، وما جرى بين أمراء الصليبيين ومقدمهم ، وبعض أمراء العرب والمسلمين في أحداث الحملة الصليبية الأولى بعد احتلالهم لأنطاكية والرها وغيرهما من بلاد المسلمين سنة ٤٩١ هـ قال :

« إن الأفرنج — خذضم الله — لما خرجوا في سنة تسعين وأربعمائة ، وفتحوا أنطاكية ، وقهروا أهل الشام ، تداخلهم الطمع ، وحدثهم نفوسهم بملك بغداد وبلاد الشرق ، فحشدوا وجمعوا ، وساروا يريدون البلاد ، وصاحب الموصل في ذلك الوقت « حكرمش » فجمع أمراء التركمان الأرتقية ، ومن قدر عليه ، ولقيهم على الخابور فكسرهم ، وأسر من يقدمهم ، الملك بغدوين والبرنس جوسلين وسيرهم إلى قلعة جَعْبَر إلى عند الأمير شهاب الدين مالك بن سالم، وأودعهم عنده وكان من بقى من الإفرنج إلى بلادهم ، ومقدمهم ميمون صاحب أنطاكية ، فركب في البحر وسار إلى بلاده يستنجد بالإفرنج ويحشد ويرجع ، فمات قبل ذلك . ومات حكرمش صاحب الموصل ، وأقطع السلطان الموصل « جاوى سقاوى » ، فعزم على الغزاة وتوجه إلى الشام ، فوصل قلعة جعبر ، وطلب أسارى الإفرنج الذين عند صاحبها ، فقال : هم بخكمك . قال : اقطع عليهم مالا يشترون به أنفسهم . فتحدث معهم شهاب الدين وقرر عليهم مائة ألف دينار ، وعرف اخواولى بذلك . فقال : انفذ لى جوسلين ، فلما حضر عنده قال : أقطعتهم على أنفسكم مائة ألف دينار ؟ . قال : نعم . قال : تشتنى

اهب لك عشرة آلاف دينار ؟ . قال : ما ينكر على مثلك أن يوهب عشرة آلاف دينار ، قال : أتشتي أن أوهب لك عشرين ألفاً دينار ؟ .
قال : ما يصلح للملك مثلك أن يتلاهي بمثلي . قال : والله ماتلاهيت بك ، ولو أردت أن آخذ منك المال ما أبصرت ولا تحدثت معك . وأنا أطلقكم وأخلى لكم المال كله على أن لي حاجة تقضوها لي . قال : وما هي . قال : صاحب أنطاكية وصاحب حلب أعدائي . أريدكم تعينوني على قتالهم . وكان صاحب أنطاكية دنكري . وصاحب حلب : الملك رضوان . فقال جوسلين : تمضي ونجتمع — فارسنا وراجلنا ، ونصلك تقاتل معك كل من قاتلك . فأطلقهم ، فمضوا ، وحشدوا وجمعوا ، ووصلوا إلى خدمته وسار هو وهم إلى لقاء عسكر حلب وعسكر أنطاكية حتى التقوا . فحدثني من حضر حربهم قال : كان وقع السيوف بينهم — يعني الإفرنج ، كوقع الفؤوس في الحطب . فكسرههم صاحب أنطاكية . فأما المسلمون فطار من سلم منهم ، وأما الإفرنج فأسر من فرسانهم جماعة كبيرة ، فجاءوا إلى عند دنكري صاحب أنطاكية ثاني يوم أسرههم ، وقالوا له : أي شيء تريد تعمل بنا ؟ . قال : أحملكم إلى أنطاكية . أحبسكم . قالوا : والله ما فينا من يتبعك ولا يتجىء معك . نحن غرأة ، ما معنا ثياب ولا نفقة ولا فرش ننام فيها ، ولا معنا غلمان يخدمونا . قال : وأي شيء تعملون ؟ . قالوا : نخلينا نمضي إلى بيوتنا نعمل شغلنا ونجىء إلى الحبس . قال : امضوا . فمضوا وأحضروا غلمانهم ونفقاتهم وفرشهم ووصلوا عنده إلى أنطاكية ، فحبسهم إلى حين تسهل خلاصهم .» (١) .

وذكر ما حدث بينهم بعض الاسماعيلية الذين حاصروا قلعة شيزر مقر آباءه وأجداد للاستيلاء عليها . قال (٢) :

« كان بيننا وبين الاسماعيلية قتال في قلعة شيزر في سنة سبع وعشرين وخمسمائة لعملة عملوها علينا ، ملكوا بها حصن شيزر وجماعتنا في ظاهر البلد ركاب ، والشيخ العالم أبو عبد الله محمد بن يوسف بن المنيرة رحمه الله في دار والدي ، يعلم إخوتي رحمه الله ، فلما وقع الصياح في الحصن تراكضنا وصعدنا في الجبال ، والشيخ أبو عبد الله قد مضى إلى داره إلى الجامع ، وكانت داره في الجامع فوصل عمي فخر الدين أبو

(١) نواب الأديب ص ١٣٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٩٠ .

كامل شافع بن علي رحمه الله إلى تحت الجامع ، والشيخ أبو عبد الله مشرف عليه فقال له صاحب يعمى : يا شيخ أبا عبد الله دلى لنا حبلاً . قال : ما عندي حبل . قال : فدُلْ عمامتك . فأبطأ عليه ، فتجاوزه وطلع من مكان آخر . فقيل للشيخ عبد الله : كنت عريان وعلى رأسك عمامة ؟! . قال : لا ، ما كان عليّ عمامة ، ثم أفكر فقال : بلى والله ، قد قال لي وهب بن التبوخي وهو مع الأمير فخر الدين أبي كامل شافع : دَلْ لنا حبلاً . قلت : ما عندي حبل . فقال : دَلْ لنا عمامتك ولو لم يكن قد رأى على عمامة ما قال ذلك ! . فكان رحمه الله عريان وعليه عمامة : ولا يدري بالحال التي هو عليها لربه وضعف قلبه . » .

وحكى عن رجل من عسقلان يقال له ابن الجَلنار « كان مشغولاً بالصيد بالبواشق ، وكان مشهوراً بالقوة ، فركب وخرج من عسقلان وعلى يده باشق يتصيد به في شجر الجُمَيْرِ ، فخرج عليه فارسان من العرب ، وقالا : انزل ، فنزل عن فرسه وقال لهما : لكما في هذا الطير حاجة ؟ . قالوا : لا فشدَّ الباشق على غصن شجرة ، ثم اختلفا على مهاميز حلى في رجليه ، فقال لهما : أنتما اثنان يأخذ كل واحد منكما فردة مهماز ومدَّ رجليه لهما ، فجلسا يقلعان المهاميز من رجليه ، فمسك رقبة ذا ورقبة ذا ، وضرب رأسيهما ببعضهما ببعض ، ولا يقدران على الخلاص من يده حتى قتلها ، وأخذ خيلهما وسلاحهما وباتسقه ودخل المدينة .

وقد كان عندنا بشيرز رجلٌ يقال له محمد بن البُشَيْش كان يخدم جدى سديد الملك أبو الحسن على بن نصر بن منقذ الكِنَانِي رحمه الله وكياً على صنيعه يبلى كخرطاب يقال لها « أرجة » أدركته أنا وهو شيخٌ كبير ، وكان أميراً شجاعاً . قال : جئت يوماً في الحرّ إلى رَكِيَّة أرجة لأشرب ، فرأيت رجلاً عليه معرقة امرأة ، وعلى كتفه كارة ثياب ، فتداخلى الطمع فيه ، فقلت : حُطَّ الكارة . فأظهر لي خوفاً وقال : هايد مولاي ، وحطها عن كتفه ، فتقدمت إليها لآخذها ، فمدَّ يده فقبض على ركبتي ورفعني من الأرض ، ثم ضرب لي الأرض ، وبرك عليّ ، وأخرج من وسطه سكيناً كشعلة النار ليقتلني ، فقلت : الصنِيعَة ! ، فنهض عني وخلاني . وقال : لا تحتقر الرجال . ثم فتح الكارة فأخرج منها قميصاً دفعه إليّ ، فقلتُ له : بالله من أين أقبلت ؟ . قال : من المعرة . فتحت البارحة دكان الصبغ ، فأخذتُ كل ما كان فيها . ثم

أخذ كارتته ومشي . (١) .

وقال (٢) : « كان عندنا بشيرٌ مخنثٌ يحضُرُ الأعراسَ والجنائز اسمه « سبيكة » إذا وقع القتال لبس درعاً ، وأخذ سيفه وترسه وقال : بطلّ التخنيث !! وخرج يضربُ بالسيف . » .

وقال (٣) : « وشاهدت رجلاً من أجنادنا من الأكرادُ ينعت بزهرِ الدولة بختيار القبرصى سمي بذلك لصغر خلقته . وكان رحمه الله من خيار المسلمين في الشجاعة والدين . وقد ظهر عندنا أسدٌ فحمل عليه ، فاستقبله الأسد ، فحاص (٤) به الحصان فرماه ، فجاءة الأسد ، فرفع رجله لقمها الأسد ، وبادرناه فقتلنا الأسد . فقلنا له : يازهر الدولة ، مامعنى رفع رجلك للأسد ؟ قال : رأيتها أقسى مافى فيها الأبران والساق موزا والخف ، فقلت : إن أمسك أضلاعى كسرهما ؛ وإن أمسك رأسى فجشبه ، يشتغل برجلي إلى أن يفرج الله ا .
فعجبنا من حضور فكره في ذلك الوقت . » .

هذه جملةٌ مما شاهده وسمعه من أحداث عصره رواها بلسانه ، وجاءت في طيات الكتاب . وبين أبوابه التى نقلها عن جملة من الكتب الأدبية والدواوين الشعرية وقسمها إلى تلك الأبواب السبعة .

وبعض هذه الأخبار ترد كذلك في كتابه الاعتبار .

والملاحظ في لباب الآداب كثرة ما يورده عن الحكماء من غير العرب ، وبخاصة حكماء اليونان كأرسططاليس وغيره ، وبعض شعرائهم القدامى كذلك أمثال أوميروس أو هوميروس ويغتم بها دائماً أبوابه بعد أن يبدأها بالقرآن والحديث .

(١) . نياب الآداب ص ١٩٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٩٨ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٩٩ .

(٤) حاص : حصح .

الديارات للشابشتى : (١)

ومن هذه الكتب الجامعة في الأدب إلى الكتب التي تدور حول موضوع بعينه ، وأول ما عرفنا ووصلنا من هذا العصر « الديارات » للشابشتى . وكان معاصراً للخليفة العزيز بالله ونديماً له . وألف كتابه هذا في الديارات وما جاء فيها من الشعر ، ومن أممها من الشعراء وعرف بديارات مصر والعراق وبعض البلاد الأخرى التي كثرت فيها ديارات النصارى ويعيهم .

ومعروف أن الديارات كانت منتجاً لبعض أصحاب الملاهي والخلعاء في الدولة الإسلامية يذهبون إليه للتنزه وشرب الخمر وقضاء وقت في القصف واللهو . وعرفت أديرة الخيرة بالعراق بكثرتها ، وكان خلعاء البصرة والكوفة يؤمنونها في أعياد النصارى كأعياد الشعانين وغيرها لتقدم إليهم الخمر ، ويعبثون مع من بها من الرهبان والشماسين .

وكانت جماعة المجان من شعراء البصرة والكوفة في أخريات القرن الثاني ، وأول القرن الثالث أمثال أبي العتاهية ، وابن منادر ، وأبي نواس ، ووالبة بن الحبيب يؤمنون تلك الأديرة . وأبيات أبي نواس المشهورة في ديرحنة تثبت ذلك ، يقول فيها :

يادير حنة من ذات الأكبـراج من يصح عنك فإلى لست بالصاحي
رأيت فيك ظباء لا قـسرون لها يلعبن منا بألبـساب وأرواح

وكان بمصر ديارات على ما ذكرنا في منارة الفسطاط ، ومن أشهرها دير القصير ، وكان مقصداً للشعراء والخلعاء ، ويذهب إليه أحيانا بعض خلفاء الفاطميين للتنزه ، وجاء ذكره في كثير من أشعار العصر . وقد أغرم به من شعراء مصر آنذاك تميم بن المعز ، والشريف العقيلي وغيرهما .

والكتاب في جملة يجمع كثيراً من الشعر في وصف الأديرة ، وما يتصل بها من مجالس الشراب ، وما يحيط بها من منازة وحدائق ومناظر طبيعية جميلة .

وهو كتاب أدبي ممتع ، وموضوعه فريد ، يجمع كثيراً من النصوص والأخبار التي

(١) طبع الكتاب بمصر .

يمز وجودها في غيره من المصادر .

قطب السرور في أوصاف الأنبذة والظهور للريق القيرواني^(١) .

وصاحب الكتاب إبراهيم بن القاسم الرقيق القيرواني المعروف بالنديم من أدباء العصر الفاطمي المشهورين بالقيروان ، وقد سفر إلى مصر مرتين أو ثلاثاً في عصر العزيز والحاكم . وكان كاتباً شاعراً مؤرخاً على ما انفصله بعد .

وهذا الكتاب كما هو واضح من عنوانه يدور حول موضوع الخمر وما يتصل بها . قال صاحبه في مقدمته : « وأودعته من أمثال الحكماء ، ومنتور البلغاء ، ومنظوم الشعراء ، وأخبار الأدباء والظرفاء مالا يستغنى عنه شريف ، ولا يجوز أن يخلو منه ظريف . وليس في الأمور التي وقع فيها الخطر والاطلاق شيء اختلف فيه الناس اختلافهم في الأشربة ، وما يخل منها وما يحرم على قدم الأيام ، ومع قرب العهد بالرسول عليه السلام ، وخيار الصحابة ، وكثرة العلماء الذين يؤخذ عنهم ، ويُقتدى بهم .. وإن شيئاً وقع فيه الاختلاف في ذلك العصر بين أولئك الأئمة لجرئ أن يشكل على من بعدهم ، وتختلف فيه آراؤهم ، ويكثر تنازعهم .

ثم يقول : « وجمعت لك فيها رأى العرب وشعرائها وشيئاً من علم الفلاسفة وحكمائها » وموضوع الخمر والأشربة عامة قد شغل جماعة المسلمين ، والفقهاء كثيراً ، وكتب الأديب الفقيه ابن قتيبة كتابه المعروف « الأشربة » في هذا الموضوع ومناقشة قضية الشراب من الناحية الفقهية من حيث الحلال والحرام .

ولم يشغل المجتمع الاسلامي أمر من الحلال والحرام كما شغله أمر الخمر وأنواعها . ورغم أن جماعة الفقهاء يحرمون الخمر بأنواعها إلا أن ذلك لم يعصم كثيراً من المسلمين عنها ، وأسرف بعض العلماء في تعاطيها ، وكثرت الأخبار حولها ، من أصحاب الأدب والشعراء ، وكثر القول في أشكالها وأنواعها ومجالسها وأدواتها وما يصحبها من لذات الطعام والغناء والموسيقى .

ولعل موضوع الخمر من أكثر موضوعات الشعر لدى كثير من شعراء العباسيين ،

(١) صبح اختياره من احتضاره على نور الدين اسمعيل شحيق عند الخفيظ منصور .
وضع مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله نيس سنة ١٩٧٦ هـ . والكتاب بتمه وضع قبل ذلك بدمشق

وغيرهم من الدول والامارات الاسلامية في المشرق والمغرب .

فليس غريباً إذن أن يعرض له فقيه جليل كابن قتيبة ، وأدباء وعلماء أمثال ابن الرقيق في هذا العصر ، ولعل هذا الكتاب نفسه متمم لكتاب الأديرة للشابشتي الذي كان معاصراً كذلك للرقيق النديم .

يقول المؤلف في « ذكر اسماء الخمر ونعوتها واشتقاقاتها : »

الرَّاحُ : اشتق لها اسم من الرُّوح فسموها راحاً ، وأصل الرَّاح والرُّوح والرَّيح والريح واحد ، إلا أنهم خالفوا بينها لتدل كل واحدة ، على معناها لتقارب أسمائها ، فالرُّوح روح الأجسام ، والرُّوح طيب النسيم ، لأنه ريح يخرج عن الروح ، والريح هي الريح الهابئة ، والرَّاح على فَعْل ، وأصله رَوْح ، فقلبت واوها ألفاً لما انفتحت وانفتح ماقبلها .

وقال أبو عمرو : سميت راحاً لأن صاحبها يرتاح إذا شربها ، وقد أخذته أريحية إذا خف إلى السماع وهش له . وقيل لأن الشارب يستطيب ريحها . وقيل : للاستراحة من الهموم والأحزان .

راحٌ ثريحٌ من الأحزان والفكر

وقد جمع ابن الرومي صفات منها . قال :

والله لا أدرى لأيةِ عليّةٍ يدعون هذي الرَّاح باسم الرُّاح
الريحها أم زوجهها تحت الحشا أم لاريح لدهمها المُتَّجّاج

ثم اشتقوا الريحان من ذلك لرائحته ، وربما سموها الخمر رَوْحاً .

قال الشاعر :

نفسى الفداء لظبي باث يُسعدنى ليلاً على قبض أرواح الأباريسي

وقال إبراهيم النطام :

مازلتُ آخذُ رُوحَ الزرق في نطفي واستيخُ دماً من غير مجروج
حتى آتنيثُ ولي روحان في جسدي والزُّي مطرُحُ جسمٍ بلا روح

وقالوا : الرَّاحُ أفضل أسمائها لمخالطتها الروح وامتزاجها بها ، وهو الذي أراد أبو نواس

بقوله :

اثن على الخمر بالآلهيها وسميها أحسن أسمائها

والخمر : وسميت الخمر لخالطتها العقل . وكل ما خالط شيئاً فقد خامرته .
وجاء في الحديث : « الخمر كل ما خمّر العقل . » وقيل سُميت خمراً لأنها حُسرَتْ
في إنائها أى غُطيت . وكل غُطيت فقد خمرته . ومنه سُمى الخمار لأنه يغطى الرأس .
ومنه سُمى ذو الخمار فرس الزبير بن العوام لأنه طويل الناصية . والخمار مشتق منه لأنه
يغطى العقل . وهو — أى الخمر — اسم جامع لها ، وأدثر ماسواهُ صفات لها . وقيل
لنغضيتها الدماغ . ومن ذلك قول النبي ﷺ : « خَمَّرُوا آبَتِي » . أى غَطَّوْهَا .

وسموها دماً لأنها تُؤلِّد الدم وتزيد فيه . وقال مسلم بن الوليد :

خَلَطْنَا دَمًا مِنْ كَرَمِيَّةٍ بِدِمَائِنَا فَأَظْهَرَ فِي الْأَلْوَانِ مَنَا الدَّمِ السُّدْمُ
وقال شبرمة بن الطفيل :

ويوم كظَلَّ الرُّمَجُ قَصْرَ طَوْلُهُ دَمُ الزَّرْقِ عَنَا واصطفاقُ الزواهر
والنفس تتصل بالدم ، فقالوا : نفسَت المرأة إذا حاضت ، وهى نفساء إذا ولدت
لسيلان الدم منها . وروى عن عبيد راوية الأعشى قال : قلت للأعشى أخبرني عن
قولك :

ومدامية مما تعشق بابل كدم الدبّيح سلتها جريالها

قال : شربتها حمراء وقلبتا بيضاء ، يريد أن حمرتها صارت فيه دماً .

الشَّمُولُ : وسميت الشَّمُولُ ، لأنها تجمع الشمْل ، وقالوا لأنها تشمل على العقول .
وقالوا : لأنها تشملهم رِيحها أى تعمهم . وقيل : لأن لها عصفة كعصفة الشمال .
وسميت القهوة : لأن المدمن عليها تمعه الطعام ، فيقال أقهى الرجل إذا لم يشته
الطعام . وتُقهى الفؤاد أى تستره .

وسميت : عَقْرًا ، لأنها تعقر مأل شارِبها ، وقيل لأنها تعقر العقل . وقالوا عاقرت
الدين أى لزمته . وقالوا : عاقر فلان الشراب أى لزمه .

وسميت : القرقف : من القرقفة وهى الارتعاش . وهذا يصيب من أذنها .

وقال الشاعر :

أزعشتني الخمرُ من إدمانها ولقد أزعشتُ من غير كبره
وقال أبو عمرو : القرقف مأخوذٌ من القرقفة ، وهي جلسةُ المَقْرور . يريدُ أن
صاحبها يعتريه لشِدَّتْها اضطراباً . قال الشاعر :

قرقِفٌ تترك العليلَ مريضاً وتعيِّرُ الصحيحَ قسراً العليل
لأن صاحبها إذا شربها أخذتهُ قرقفةٌ ، وقففةٌ مثله ، وهى الرُعْدَةُ والبرْدُ .

والسُّلَافُ : ماسألٌ منها قبل أن تعصر من غير عصر باليد ، ولا دوس بالرجل .
وسلافٌ كلُّ شيءٍ أوْلُهُ . ومنه قِيلَ : سلفُ القومِ أى المتقدمُ منهم ، وسالفةُ العينِ
مقدِّمتها .

والخُرطومُ : أول ما ينزلُ منها . وقيل سُمِّيَتْ الخُرطومُ لأنَّ صاحبها إذا شمها قطَّبَ
وصرف وجهه ، كأنما أخذتْ بخُرطومِه . وقال غيره : الخُرطومُ أول ما يسيلُ منها عند
العَصِيرِ . وأتشدَّ محمد بن حبيب في القول الأول :

ولقد شربت الخمرَ حتى يجلتْها ألقى تكشُّرٌ عن طريقي البئسَ
والمُدَامُ : لأنها أديمتْ في دَنِّها حتى سكتتْ حرَكُتها ، وعَتَقَتْ . وقيل لأن أصحابها
يديمونها .

قال البحرى :

وليسَتْ مُدَاماً إذا أنتَ لم تواميلُ مع الشيبِ إدمانها
وقال آخر :

دامتْ وَسُمِّيَتْ المَدَامُ تَكْرُماً فهى المدايمةُ في دوامِ القاسمِ
الرَّحِيقُ : الصافي من كل شيء . وقال أبو عبيدة : الرَّحِيقُ صفو الخمرِ التى ليس فيها
عشٌّ .

السلسيل : والسلسالُ والسلسلُ السهلُ النزولُ في الحَلِيقِ مشتقٌّ من السَّلسِ .
وجاءَ في الكتابِ العزيزِ ﴿ كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا سَلسِلاً ﴾ . وقال الشاعر :

إن تدعها ترجُ أحمير ي من رحيقِ السلسيل

وقال البحرى :

سَقَانِي الْقَهْوَةَ السُّلَسِلَ شَيْءُ الشَّادِنِ الْأَمْخَلِ

الكلفاء : لكلف شرابها ، ويقال كلفاء من صفة الذن . ويقال : كلفاء في لوزها ،
وهى الحمرة تشتد حتى تضرب إلى السواد .

والكميت : وصفت بذلك لشدة حمرتها .

والصهباء : الحمراء إلى البياض ، وهى التى اتخذت من العنب الأبيض ، وهى التى
تُشبه الأصهب الشعر . وكذلك الكميت . وقال أبو عبيدة : كل ما كان منها يضرب
إلى البياض فهى صهباء .

والطلأ : الذى طبع حتى ذهب ثلثاه ، شية بطلاء الإبل .

والسيئة : الخمر بعينها ، يقال : سبأتها أى اتبعتها .

وسميت الجريال : لحمرتها . والجريال صبغ أحمر ، وهو مايسيل من راوق الصباغ
من العصف . قال الشاعر :

وجريال كأن اللون منها إذا أبصرته خد مُعَصَفَر

ولذلك قالوا : شراب ماتع ، وهذا من حروف الإبتاع . يقال أحمر ماتع .

وسميت : ماذية : لسهولة مدخلها في الخلق . ومنه غسل ماذي ، وهو الأبيض الحسن
اللون البراق . وذرغ ماذية أى سهلة ، لينة ، حسنة البريق . قال الشاعر :

ماذية في الكأس ذات صقال حليفة دن أبرزث يُزال

وقال الأصمعي : الماذي الخالص من كل شيء .

وسميت المزة : ولم يريدوا الحموضة ، وقد قيل : مزة بفتح الميم من قولهم : هذا
أمر من هذا . أى أفضل وأرفع ، وله منزلة . وإنما يريدون لذعها اللسان . قال الشاعر :

فاسقيا مزة صافية لهى أشفى لى فؤادى وأسز

والعرب يسمونها الدرّياقة . والدرّياق : نافع من السم ، فجعلوها درّياق الهموم
والفكر . كأنها عندهم شفاء : قال ابن مقبل :

سقتى بصهاء دِرْيَاقِيَّةِ متى ماتلِسُنْ عِظَامِي نَلِسُنْ
وقال ابن الرومي :

لَطْفَتْ فَكَادَتْ أَنْ تَكُونَ لَطَافَةً فِي الْجَزْرِ مِثْلَ شَعَائِهَا وَنَسِيمِهَا
رِيحَانَةً ، لِنَدِيمِهَا ، دِرْيَاقِيَّةً لَسْلِيمِهَا : تَشْفِي سَقَامَ سَقِيمِهَا^(١)

ونكتفى بما ذكر من أسماء الخمر بهذه الأسماء المشهورة منها ، ويعرض بعد انتهاء ذكره لاسمائها لبعض عاداتهم في شربها فيقول : « فصل ... قال الأصمعي : صَفَّقَ الخمرَ إذا حَوَّها من إناء إلى إناء . وقال غيره : صَفَّقَهَا مزجها . قال حسانُ بن ثابت : يسقون من برد الريحِصِ عليهمُ برذى يعفَسُقُ بالريحِيقِ السَّلْسَلِ

وشعشعها إذا أرق مزجها حتى يكون لها شعاعٌ . كشعاع الشمس حتى ينخضب الكف من تشعشعها . قال الشاعر :

يَطْرُوفُ عَلَيْنَا بِهَا أَحْوَرُّ يَدَاهُ مِنَ الْكَأْسِ مَخْضُوبَتَانِ

ورجل شعشاعٌ : خفيف . والشعشاعُ : المتفرق .

ويُقَالُ مزج شرابه وقطبه . وأصل القطب الجمع بين الماء والشراب . ومنه قيل : جاء الناس قاطبة ، أى جميعاً ، وقطب الرجل أى جمع ما بين عينيه (أو حاجبيه)

قال الشاعر :

إِذَا قُطِبَتْ بِالْمَاءِ خِلْتِ بِكَأْسِهَا أَكْرَعُ نَمْلٍ أَوْ عُيُونِ جِرَادِ

وإذا شربها بغير ماءٍ فقد صرفها ، وهى مصروفةٌ .

ويقال أمهى شرابه إذا أرقه ، وحمياً الكأس سورئها .

وقال الفرء شذتها ، والقمحان وهو مثل الذريرة يعلو الكأس . قال الشاعر :

عَلَا الرَّأْسَ مِنْهَا إِذَا أُبْرِرَتْ جُمَانٌ مِنَ الْقَمْحَانِ الْعِيسَى

وكأس أنف : إذا لم يشرب منها أحد . وكذلك روضة أنف إذا لم يرعها أحد وأنف مستأنف .

١ - المختار من مصب السرور ص ٢٨ - ٣٤ .

أما أوانيسا فيقال : كاسٌ أنفٌ إذا لم تُشرب قبل ذلك . ولا تُسمى تانسا حين
يكون فيها شراب ، وإلا فهي قدح ، وزجاجة . والرُّفْدُ القدحُ الكبيرُ ، والعمُرُ القدحُ
الصغيرُ . والقَعْبُ أكبرُ منه قليلاً ، والكوبُ الكبيرُ المقعَّرُ . والعَسُّ الكبيرُ الضَّخْمُ والتبن
أكبرُ منه . والصَّحْنُ القصيرُ الجدارِ العريضُ ، وهو الحمام . والناطِلُ المكيالُ الصغيرُ الذي
يرى فيه الحُمَارُ شرابةً ، وجمعه نياطلٌ . قال أبو ذؤيب :

فلو أن ما عندي بمجدة عندها من الخمر لم تُبلس لها سي نياطل
وقال عمرو بن كلثوم :

ألا هُبَيْ بِصَحْبِكَ فاصبحنا ولا تُبْقِي حَمُوزَ الألدريتنا

وأما ما قيل من أوقات الشراب : فمن ذلك الصبوح . وهو الشربُ عند الصبح بعد
طلوع الفجر . والليل : شربُ نصفِ النهار . والغبوق : شربُ العشيِّ وشربُ المغرب
إلى العشاء يقال له التَّجِيَّةُ .

والجاشريَّةُ : شربُ آخرِ الليل وقبل الصُّبْحِ . وقال رجلٌ من الأزد :

إذا ما شربنتُ الجاشريَّةَ لم أخفُ أميراً ، وإن كان الأميرُ من الأزد

وقال رجلٌ من قريش :

أشربُ الراخَ بالعشيِّ وألُّو نشواتِ الغشيِّ بالجاشريَّةِ

ما أبالي إذا اشتفيتُ من البيـــــــضِ ، وشربِ المدام ما قيل قُبَّة

وإنما أكثرُ الشعراءِ في الصُّبُوحِ دون غيره من أوقاتِ النهارِ وحثُّ عليه ليسبقوا
العواذِلَ قبل أن يغدوا عليهم ، لأنَّ من شأنِ العاذِلِ أن يغدو على من يريدُ عدلته على
ما فعل أُمس ، ويعظه عن معاودةِ مثله . وقال القضاةُ :

أفرُّ إذا أصبحتُ من كلِّ غساذلٍ وأُنسي وقد هانتُ على العواذِلِ

يقول : أفرُّ من العذولِ قبل الشُّربِ ، فإذا شربتُ هانتُ على العواذِلِ .

ويقال : أعرق شرابهُ إذا قلَّ ماءه .

وأنشد الأصمعي :

وندمان يزيذ الكأس طياً سقيئ وقد تفوزت الشجوم
 رفعت برأسه وكشف عنه بمعرفة ملامه من يلوم
 وقيل : العرق : الكريمة القضب ، الطيبة التربة ، كالرجل الطيب الأعراق
 والحسب . والقتل : الإفراط في المزج . قال حسان بن ثابت رضى الله عنه :
 إن التى ناولتسى فردذنها فبئت ، فبئت ، لهاها لم تقبل
 وقالوا : أماتها إذا طبخها طبخاً كثيراً . وقال حماد بن أسحاق :
 علايسى بشربة من طلاء نعمت التيم فى شبا الزمهرير
 من كمينت أجادها طابخوها لم تمت كل مؤبها فى القادور
 والنيم القرو ، والشبا الحدة

* * * *

ويقال : غمره إذا سقاه بالغمير الصغير قليلاً . والتفوق الشرب قليلاً قليلاً . ويقال :
 تمزّر ، وتمزّره إذا شربه جرعة بعد جرعة . وأنشد محمد بن حبيب ا
 يكون فى الدوق وفى التمزّر فى فمه مثل عصير السكر
 وقيل لمشارب الرجل نديمة من الندامة ، لأن معاير الكأس إذا سكر تكلم بما يندم
 عليه . فقيل لمن شارب رجلاً نادته ، لأنه فعل مثل فعله ، والمفاعلة لا تكون إلا من
 اثنين ، كما تقول ضاربه وشامه . ثم اشتق من ذلك نديم . كما يقال : جالسه فهو
 جليس . وقعيد . قال الشاعر :

ألم تعلمنا أن النديين ما صفنا وذاذ هما أو أنصفا أخوان
 وأن رضاع الكأس أوجب حزمة وحقا علينا من رضاع لسان

وعقد بابا فى « ذكر الأشربة ومانعها ، وفضل الخمر عليها » قال :

قال الله عز وجل فى كتابه : ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً
 ورزقاً حسناً ﴾ وقال تبارك وتعالى وذكر أنهار الجنة فقال : ﴿ مثل الجنة التى وعد
 المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة
 للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ﴾ . فذكر الماء واللبن ، ولم يذكرهما بالسلامة من

التغيير . ولم يذكر العسل إلا بأنه مُصْفَى وذكر الخمر فجعلها لذة للشاربين ، فكان هذا من التفضيل .

ويُروى أن قيصر ملك الروم بعث إلى قس بن ساعدة فسأله : أى الأشرية أفضل ؟ . فقال ما صفاً في العين ، ولذاً على الذوق ، وطاب في الأنفس ، شراب الخمر .

* * * *

قال اسحاق بن إبراهيم الموصلي : عيش الدنيا بعد الصحة والشباب في ثلاثة : في الطلاء والغناء والنساء قال بعض الحكماء : الخمر تمازج أخلاق النفوس على اختلاف أخلاق الناس لأنها تبسط دم القلب العزيزي في البدن ، فيكون من ذلك الفرح والنشاط . قال بشر بن برد :

أعاذل إن العسر سؤف يفيق
وإن يساراً في غد خليق
ومأنا إلا كالزمان إذا صحا
صحوث ، وإن ماق الزمان أموق
فديني أرخ قمي براج فائسي
أرى الدهر فيه كزبة ومضيقي

* * * *

وذكر بعض الفلاسفة الشراب فقال : لم أر غذاءً أعم نفعاً من الاقتصاد فيه وقت الحاجة إليه ، ولا أدعى لمكارم الأخلاق ومحاسن الأحوال منه . وذلك أنه يؤلف شغل الأبعدين ، ويزرع المحبة بين المختلفين ، ويجلو الهموم عن القلوب ، ويستدر الجود من البخيل ، والعطف من القاسي ، ويشجع قلب الجبان ، ويزيد الشجاع شجاعة ، ويحدث في الطبع إطراباً لا يثيرها سواه من الملاهي . وعمارة صحة البطن الذي عنه قوامه ونظامه ، وبه كآله وتمامه . « (١) .

١ - المختار من قطب السرور ص ٥٢ .

كتاب « المنازل والديار » (١)

لأسامة بن منقذ (٤٨٨ — ٥٨٤ هـ)

وهذا الكتاب في موضوعة جديد في هذا العصر ، وإن لم يكن جديداً في موضوعه عامة فقد سبقه إليه بعض المؤلفين من اللغويين ، لكن تناول أسامة يختلف فهو يعرض له من جوانب متعددة . والذي أثاره إلى تأليفه حادثٌ قضٌ مضجعه ، ونكأ جرحاً في نفسه ظلت تعاوده آلامه ، وهو فقد ذويه في زلزال دمر قلعة شيزر سكن أهله فبكاهم طويلاً ، وكان هذا الكتاب بمثابة رثاءِ الأهل وبكاء الديار ، كما اعتاد الشعراء الوقوف على الأطلال للبكاء وتذكر الماضين من الأحباب والأحلاء .

يقول في مقدمته : (٢)

« الحمدُ لله وإن تنقلت بنا الدنيا تنقل الظلال ، وتقلب بنا الدهر من حال إلى حال ، وعفت رسوم آثارنا ، واستولت يد الاعتداء على ديارنا ، وتصدغ شملنا أیدی سباً وتشعبت بنا سبل المذاهب ، وأختت الحوادث على معشيري وآلى . وأفنى الموت أسودی وأشبالی .

كل ذلك بقدر جرى به القلم في القدم ، وقضاء سبقت به المشيئة قبل الخروج إلى الوجود من العدم ألقى ماسراً من ذلك وماساءً بالتسليم والرضى ، وأفوض إليه — جلّ وعلا — فيما قدر وقضى . وأقر بأن ابتلاءه بعذله ومعافاة بفضله ، وأرجو من رحمته أن يكون ذلك كفارةً لذنوب سلفت ، وموعظةً دعّت عن المعاصي وصرفت ، وأن مانالنا من الدنيا وآفاتنا بذنوب اقترفناها ، فرحماً بتعجيل مكافاتها . وصلى الله على رسوله الأمين محمد خاتم النبيين ، الذي وصفه في كتابه الكريم فقال : ﴿ وإنك لعلی خلقی عظیم ﴾ .

وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وأصحابه البررة المتقين ، وأزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين صلاةً دائمة إلى يوم الدين .

١ — الكتاب نشر بالمكتب الاسلامی للطباعة والنشر ببيروت ودمشق سنة ١٣٨٥ / ١٩٦٥ م .

٢ — المقدمة ص ١

وبعد ، جعلك الله بنجوة من النوائب ، وأصفي لك الحياة من كثر الشوائب ،
ولا راعك بخادثة تُنسى ما قبلها ، وتصغر ما بعدها ، وتفتح من النكبات أبواباً لا نستطيع
سدّها . فإني دعاني إلى جمع هذا الكتاب مانال بلادى وأوطاني من الخراب ، فإن الزمان
جرّ عليها ذيله وصرف إلى تعفيتها حوله وحيله ، فأصبحت كأن لم تغن بالأمس ،
موحشة العرصات بعد الأنس قد دثر عُمرائها ، وهلك سكّانها ، فعادت مغانيها
رسوماً ، والمسرات بها خسراتٍ وهموماً .

ولقد وقفت عليها بعد ما أصابها من الزلازل ما أصابها ، وهي أول أرض مسّ جلدى
ثرابها فما عرفت دارى ، ولا دورَ والدى وإخوتى ، ولا دورَ أعمامى وبني عمى ،
وأُسرتى ، فبهت متحيراً ، مستعيذاً بالله من عظيم بلائه ، وانتزاع ماحولة من نعمائه .

ثم انصرفت فلا أنثك خيصى زعش القيام أميس ميس الأصور^(١)

وقد عظمت الرزية حتى غاضت بوادرُ الدموع ، وتتابعت الزفارات حتى أقامت
حنايا الضلوع ، وما اقتصرت حوادث الزمان على خراب الديار دون هلاك السكّان ،
بل كان هلاكهم أجمع كارتداد الطرف أو أسرع . ثم استمرت النكبات تترى من ذلك
الحين وهلمّ جرّاً . فاسترحت إلى جمع هذا الكتاب ، وجعلته بكاءً للديار والأحباب .
وذلك لا يفيد ولا يجدى ، ولكنه مبلغ جهدى . وإلى الله عز وجل أشكو ما لقيت من
زمانى ، وانفرادى من أهلى وإخوانى ، واغترابى عن بلادى وأوطانى :

لو كانت الأحلام فاجتسى بما ألقاه يقظان لأصمانسى السردى

وإليه عز وجل أرغب في أن يمنّ علىّ وعليهم بغفرانه ، ويعوّضنا برحمته في دا
رضوانه ، إنه لا يردّ دعاء من دعاه ، ولا يُخيب رجاء من رجاه .

وقد جعلت هذا الكتاب فصولاً ، وافتتحت كل فصل بما يوافق حالى ، ثم أفضت
فيما يوافق القلب الخال ، لكى لا يأتى الكتاب وهو كله عويل ونياحة ، ليس فيه لسوى
ذى البث راحة .

على أن رزايا الدنيا كالأجل تمهل ولا تُهمل ، وإن تولت اليوم فغدا تقبل ، فما أحد
من ربهن سليم .

١ - الأصور : المنازل والصور النيل .

وتتبع هذا المعنى صعب . وحصره لا يمكن . وقد أوردت فيه مايرد اللوعة ، ويسكن الروعة ، والعدر إلى من وقف عليه مبذول ، وهو عند الكرام مقبول . « .

ثم يعدد فصول الكتاب وهي ستة عشر فصلاً :

في ذكر المنازل ، وذكر الديار ، وذكر المغاني ، وذكر الأطلال ، وذكر الربيع ، وذكر الدمن ، وذكر الرسم ، وذكر الآثار ، وذكر المساكن والمحال والمعاهد والأعلام والمعالم والعرصات ، وفي ذكر الأرض ، وذكر الأوطان ، وذكر المدن ، وذكر البلاد ، وذكر الدار ، وذكر البيت وفي بكاء الأهل والخلان .

ويبدأ بعنوان الفصل ويسوق بعض الأمثلة من شعر القدماء والمحدثين إلى عصره أو قبل عصره . وأول فصوله « في ذكر المنازل » يقول :

« عن ابن مريم قال : مررت بسويقة عبد الوهاب ^(١) وقد خربت ، وعلى حائط منها مكتوب :

هذى منازل أقوام عهدتهم
صاحت بهم نائبات الدهر فانقلبوا

في خفض عيشر وعز ماله خطر
إلى القبور فلا عين ولا خبر

وقال الأسود بن يعفر :

ماذا أرجى بعد آل مُخَرِّقٍ
أهل الخورنق والسدير وبارقٍ
جرت الرياح على محل ديارهم
فاذا النعيم وكل مايلهي به
ولقد غسوا فيها بأنعم عيشية
في ظل ملك ثابت الأوتاد

درست منازلهم وبعد إيادٍ
والقصر ذى الشرفات من مينادٍ
فكأنما كانوا على ميعاد
يوماً يصير إلى بلى ونفاد
في ظل ملك ثابت الأوتاد

ويذكر شعراً لبشر بن أبي خازم ، وابن أبي طاهر ، وعبد الله بن الزبيري ، والبحري وأبي تمام ، وأبي نواس ، وغيرهم .

ويفسر أحياناً ما يحتاج إلى تفسير من اسم مكان ، أو غريب لفظ ، وقد يعرف بالشاعر إذا لم يكن مشهوراً ، وقد يورد في السياق خيراً يتصل بالموضوع كأن يقول في هذا الفصل الأول :

١ - وهي عجلة قديمة عروى بعدد .

« عن زمام الزامرِ قال : لما اشتد بالمعتصم المرضُ الذي مات فيه أفاق في بعض الأيام فقال : هيتوا لي الزلال لأركب فيه في دجلةَ غداً ، فعملوه ، فركبه ، وركبته معه ، فمرَّ في دجلةَ بازاءِ منزله ، فقال يازمام أزمُرُ لي :

يامنزلاً لم تبل أطلالهُ حاشى لأطلالكِ أن تبلى
لم أبك أطلالكِ لكنى بكيث عيشي فيك إذ ولسى
والعيش أولى ما بكاه الفتى لأبئد للمحزون أن يسلى
قد كان لي فيك هوى مرةً غيرهُ الدهرُ وما ملأ
فما زال ينتحب حتى عاد إلى منزله .

مات المعتصم رحمه الله لثاني عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين . وحدثني من أثقُّ به أنه لما وقع بمصر الغلاء العظيم في أيام المستنصر بالله ، واستولت كثامة والجنْدُ على الدولة ، واستنفدوا ما في الخزائن من الأموال ، وتضعضت الدولة أمر المستنصر باحضار ابن الجوهري الواعظ ، فحضر ونصب له كرسي ، فلما صعد على الكرسي تلفت يمينا وشمالاً إلى نواحي القصر ، ثم أنشد :

يامنزلاً لم تبل أطلالهُ حاشا لأطلائك أن تبلى
الأيام .

فارتفع البكاء والضجيجُ في القصر ، ومازاد على ذلك ، يُستعادُ منه ويكرره حتى انقضى المجلس .^(١)

ويقول : « أنشدني الخطيبُ العالمُ قدوةَ الشريعة أبو زكريا يحيى بن سلامة الحصكفي رحمه الله عند اجتماعي به بميفارقين في سنة سبع وعشرين وخمسمائة لبعض أهل المعرة ، وقد اجتاز بقرية من أعمال المعرة يقال لها سيث وفيها علوجٌ من الإفرنج يهدمون من جدرانها الحجارة ويكسرونها بالمعاول ليخف عليهم حملها ، فوقف كالتأسف وقال :

مررتُ بربع من سيث فهاجني بها زجل الأحجار تحت المعاول
تصدى لها عبل الدراع كأنها جنى الدهرُ فيما بينهم حرب وإبل

١ - انارن والديبار ص ٢٢ .

فقلت له شئت يمينك خيلها لستخبر أو واقف أو مسائل
منازل قوم حدثنا حديثهم ولم أر أخل من حديث المنازل (١)

ويقول : (٢)

« وقال الشريف المرتضى أبو القاسم علي بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى
ابن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب
رضوان الله عليهم :

أعلى العهد منزل بالجناب كان فيه متى أردت طلابي
المغالي ، تلك المغالي فهل فيهِ من مآقد عهدت من إطرابي
ليست الدائر بعد أن ثوحش انذا رُ ثرى غير جندي وتُراب
وإذا لم يُعبد حنيتي على السذا ز حيباً فليس يُعنى انتحابي

وقال الشريف نظام الملك أبو الحسن علي الفاطمي أحد شعراء الدولة بمصر إذ أنا
بها ، ويعرف بالأخفش :

أحببتنا لم تذك عيناى مُذ تُعدت عنى منازلكم غمضاً ولا وسنا
ولا وجدت لقلبي من يُسرُّ به ولم تر العين شيئاً بعدكم حسنا

ويذكر جملة من الشعر في الموضوع يعقبه بقوله : « وقال آخر :

تطوى المنازل عن حيبك دائبا وتظلُّ تبكيه بدمع ساجم
ألا أقمث ولو على حجر الغضا قلبت أو حد الحمام الصارم
كذبتك نفسك لست من أهل الهوى تشكو الفراق وأنت عين الظالم

قلت : لى على من تقدم ذكره من الشعراء أفضل المزية ، إذ كنتُ :ونهم صاحب
الرزية ، فكان شعري أولى أن يقدم على أشعارهم ، وإن قصرت بى البلاغة عن اقتفاء
آثارهم ، لكن للمتقدم السبق ، وهو بالتقدمة أولى وأحق . وإن كنتُ وهم كما قال ذرُّ
لأبيه : ياأبة مالك اذا تكلمت أبكيت الناس ، وإذا تكلم غيرك لم يُكهِم ؟ . قال :
يابنى ليس النائحة المستأجرة كالثكل .

١ - المنازل والديار ص ٢٥ - ٢٦ .

٢ - المصدر نفسه ص ٤٣

وأنا ذاكرٌ شيئاً من شعر أحي رحمة الله وشعري مما يدخل في هذا الفصل .

قال أخى عز الدولة أبو الحسن على بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر بن منقذ رضى الله عنه :

يامنزلاً لعبَ اليلَى برسومه شعفاً يبهجته فليس يرِيـمُ
لا تبعدنَ وجاذَ ربك وابسلَ يُروى ثراك أئيه وَيُسِيـمُ (١)
فاسقى الرُبوغَ من الدموع سجالها إن الرِسومَ لها عليك رُسومُ (٢)

* * * *

وقلتُ : كان رحمه الله تأخر عنا ، وخرجتُ أنا وأخواتى إلى دمشق ثم إلى مصر ، فكان يتأسف لبعدنا عند خلو منازلنا منا .

وهذا شيءٌ من شعري في هذا المعنى بعد ما أصابنا من الزلازل ما أصابنا . قلت

إلى الله أشكو روعتى لمنازل خلت وجوى قلبى لأهل المنازل
سوى إذا ما لازلتنى ملئمةً حُصُونى إذا خِفْتُ الردى ومعايلى
مضوا سلفاً قبلى فلم أحظ بعدهم من العيش والعمر الطويل بطائل « (٣) »
ويذكر آياتاً أخرى له (٤) .

ويمضى في ذكر فصول أخرى في بكاء المنازل حتى يقول : (٥)

« وقال القاضى أبو الفتح محمد بن اسماعيل بن قادوس منشىء ديوان الرسائل بمصر من ابتداء قصيدة :

هذى منازلٌ من هويث ليمم وارنغ وسخٌ بربعها ديمم الدّم
عجنا لمن صبُّ بصبِّ دموعه دربتُ ومن متعمل متعلّم «

ويعقد فصل "الديار" (٦) يقول فيه :

-
- ١ - ليس يرِم : ليس يرح والوايل المطر الشديد . والأئى : السيل .
 - ٢ - الرسوم مالمق بالأرض من آثار الديار . ورسوم : أوامر .
 - ٣ - ص ٥٤ .
 - ٤ - انصدر نفسه من ص ٥٤ - ٥٨ .
 - ٥ - انصدر ص ٩٦ .
 - ٦ - ص ١٠٥ .

« قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ .

قال، الخليل : كل موضع حلّه قومٌ فهو دارٌ ، وإن لم تكن فيه أبنية ، وسميت داراً لدورها على سكانها ، كما سُمّي الحائط حائطاً لاحتاطه على مايجويه .

قال القاضي الماوردي رحمه الله : إن قيل هل يسفك أحدٌ دمعه ويخرج نفسه من دياره ؟ ، ففيه قولان أحدهما : معناه لا يقتل بعضكم بعضاً ، ولا يخرج من دياره . والثاني أنه القصاصُ الذي يقتص منهم بمن قتلوه ، فصاروا قاتلين لأنفسهم بالقصاص . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل : أحدها لا يخرج بعضكم بعضاً . والثاني : لاتسيحوا جوار من جاوركم فتلجؤوهم إلى الخروج عن دياركم والثالث لاتفعلون ما تخرجون به من الجنة التي هي داركم . « .

« وقال القاضي المهذب أبو محمد الحسن بن علي بن الزبير أحد شعراء مصر : (١)

لکم خیال فی الجفونِ مثلٌ أبدأ وذكّر بالفؤاد موکّل
وإلى دياركم نحن صابئةٌ ونقض أوعية العيون ونرسيل
تلك المنازل ماعزٌ سحابةٌ عمي بها إلا وعين تهويل
ما ضرّها إذ ينزلون ربوعها أن لا يرى فيها لعلوة منزل

وقال السبسي (٢) :

وإني كلما زاد التياحي إليك وأضرّم القلبُ الخفوقُ
أمرٌ على دياركم وإلى لمن أمسى بها صبٌ مشوقُ
وأومي بالتحية من بعيدٍ كما يومي بإصبعه الغريقُ «

وقال الشريف المرتضى أبو القاسم علي بن الحسين :

أى دمع جرى ونحن بنجرا ن لنا والديارُ ثم رسومُ

١ — المنازل والديار ص ١٣٠ .

٢ — والسبسي : محمد بن خليفة بن حسين . أبو عبد الله الهجري السبسي الأيمري (ت ٥١٥ هـ) شاعر قائد ... أقام بالحلّة عند صدقة بن يزيد ، فكان شاعره ، وشاعر ابنه ديس بن صدقة .

ك قَيْلِ الْفِرَاقِ قَلْتَ نَجْمُومَ
ج ، وَلَكِنْ لَيْسَتْ لَهْنُ جَسْمُومَ
نَ قَقَارَا سَيْقَتْ إِلَيْنَا الْهُمُومَ

وقال أيضا :

قَد مَرَرْنَا عَلَى الدِّيَارِ تَبَدَّلْ
فَ إِلَّا رَسْمَتَهَا وَالطَّلُولَا «

وقال : « كتب إلى الملك الصالح ، ناضرُ الأبيّة ، كاشفُ الثُّمّة ، أميرُ الجيوش ، سيفُ الإسلام ، غياثُ الأيام ، كافلُ قضاةِ المسلمين ، وهاديُّ دُعاةِ المؤمنين ، أبو الغارات طلائع بن رزيك فتى أمير المؤمنين عزيز مصر رحمه الله قصيدةً من نظمه يعزيني عن أهل الذين هلكوا في الزلازل زرحهم الله منها :

لَهْفَ لَفْسِي عَلَى دِيَارٍ مِنَ السَّكَا
وَلَكَمْ خَلَّهَا فَأَنْسَتْهُ أَوْطَا
فَأَحْسِبُ مَا أَصَابَ قَوْمَكَ بِجَمْدٍ
هَكَذَا الدَّهْرُ حَكَمَهُ الْجُورُ وَالْعَمْدُ
إِنْ تَخَصُّصْتُكُمْ نَوَالِبُ مَا زَا
فَكَذَاكَ الْقِنَاةُ يَكْسُرُ يَوْمَ التَّرْدِ
بِنَ أَقْوَاثِ ، فَلَيْسَ فِيهَا عَسْرِيْبُ
نَ صِيْبَاهُ ، وَالْأَهْلُ يَوْمًا غَرِيْبُ
الدِّينِ وَأَصْبُرُ فَالْحَادِثَاتُ ضُرُوبُ
لَدُلُ فِيهَا الْمَكْرُوهُ وَالْمَجْتَسِبُ
لَسْتُ لَكُمْ دُونَ مَنْ سَوَاكُمْ تَسُوبُ
وَعَ مِنْهَا صَدْرٌ وَتَبْقَى كَعُوبُ «

وقال أبو محمد القاسم بنُ علي الحريري العالم^(١)

عَرَجَ لَكَ الْخَيْرُ صَدُورَ الرِّكَابِ
وَقَفَ بِهَا وَقْفَةً مَسْتَعْبِرُ
فَسُنَّةُ الْعِشَاقِ أَنْ يُعْوَلُوا
يَاجِبًا تِلْكَ الرَّبِّيِّ مِنْ رُبِّي
عَلَى رُبَا كَنْ مَغَانِي الرِّبَابِ
يَسُخُّ فِيهَا الدَّمْعُ سَسَخُ الرِّبَابِ
فِي مَنْزِلِ الْحَبِّ إِذَا الْحَبُّ غَابَ
ظَبَاؤُهَا أَنْفَكَ مِنْ لَيْثِ غَابِ

وقال الشيخ أبو العلاء بن سليمان المعري :

مَغَانِي اللَّوِيِّ مِنْ شَخْصِكَ الْيَوْمَ أَطْلَالُ
فَطَرُقُكَ مَقْتَالُ وَزَنْدِكَ مَقْتَسَالُ

متى سألت بغداداً عنى وأهلها
إذا جنَّ ليلٌ جنُّ ليلي وزائداً
فإني عن أهل العواصم سأل
خُفسوقُ فؤادى كلما تحقَّق الأَل
وماءُ بلادى كان أنجع مثيراً
ولو أن ماء الكرخ صهباءُ جزيالاً»

وقال القاضي المهذب أبو محمد حسن بن علي بن الزبير رحمه الله (١):

ربح الفؤادُ خلالَ تلك الأربع
وأقام فيه فالجوانح بلقغ
فكأبها أولى به من أضلعي
منه وما اليد القفارُ يلقع
وأرى الصبائمرى السحابِ وإنما
تمرى صبايحه سحاب الأذمع

وقال أبو العلاء بن سليمان المصري :

أمرٌ بربع كنت فيه كالمسا
وإجلالٌ مغناك اجتهداً مقصراً
أمرٌ من الإجلالِ بالعِجر والرُكن
إذا التصلُّ أودى فالغفاء على الجفن

وذكر في باب ذكر الرسم شعراً لبعض معاصريه كذلك ، ومنهم ابن الخياط
الدمشقي قال : وقال ابن الخياط أبو عبد الله (٢):

هو الرِّسمُ لو أغنى الوقوف على الرِّسيم
عشيّة جن القلبُ فيها جنونةُ
هو الحزمُ لولا بعد عهدك بالحزم
ونازعني شوق منازعة الخصم
فلما أرى إلا البكاء على الأسي
بكيث فما أبقيت للرسم من رسم
لقد وجدث وجدى الديار بأهلها
ولو لم تجد وجدى لما سقمث سقي

وفي « ذكر الآثار » (٣) قال :

قال تبارك وتعالى : ﴿ إنا نحن نحيى الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ قيل يحييهم
بالإيمان بعد الكفر ، وقيل بالبعث . ونكتب ما قدموا ماعملوا من خير أو شر .
وآثارهم : ما أثروا من سنة حسنة وسيرة يُعمل بها بعدهم . وقيل آثارهم : خطاهم إلى
المساجد .

وروى سفيان عن أبي سفيان عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري رحمه الله قال :

١ - المنازل ص ٢٦٣ .

٢ - المصدر نفسه ص ٣١٤ .

٣ - المنازل ١ ص ٣٣٢ .

كانت بنو سلمة في ناحية من المدينة فأرادوا أن ينتقلوا إلى قريب من المسجد فنزلت :
﴿ إنا نحن نحیی الموق ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ . فقال لهم النبي ﷺ : إن آثاركم
تكتب ، فلم ينتقلوا .

* * * *

وكتب أرسططاليس إلى الاسكندر كتاباً يوصيه فيه بمصالح ملكه ، ثم قال له فيه :
إعلم أن الأيام تأتي على كل شيء ، فتحلّق الأفعال وتمحو الآثار ، وتميّت الذكر إلا
مارسح في القلوب بحبة تتوارثها الأعقاب ، فاجهد أن تغفر بالذكر الذي لا يموت ،
بأن تُودع الناس حبة يبقى بها ذكر مناقبك .

وقال أبو العلاء بن سليمان :

اتبع طريقا للهدي لاجباً ومحل آثارا بملحوب
أف لدينای فانی بهایا لم أحل من همم وتعديب
قلت لها امض غير مصحوبة فقلت اذهب غير مصحوب

وفي فصل « ذكر الأوطان » جاء بأبيات للقاضي المهذب بن الزبير . قال (١) :

« كتب إلي القاضي المهذب أبو محمد حسن بن علي بن الزبير قصيدة أنقلها من
أسوان وأنا بمصر .
منها :

أحبابنا مالي إذا ما ذكرتكم وما أنا ناس غال صبري غول
وإن شام برق الشام برق وشمرت على البغد عنه للظلام ذيول
تدارك قلبي أن يطير صابئة بنان كأنبوب ليراع محول
ولحيت لي أن السيوف لجوه سبلن ، وأني بينهن قيلول
لئن أقفرت منا الديار ومنكم وأمست مغانيس وهي طلوسول
فإن لنا في آل منقذ أسوة بيون لديها الخطب وهو جليول
نب بهم أوطانهم فترحلوا وللمجد في ذاك الرحيل رحيلول

١ - اختار ٢ / ١٨ .

وقال في ذكر المساكن (١) وما يتصل بدخولها واستئذان أهلها : (٢)

وقال تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ... ﴾ الآية (٣) .

روى عن عدى بن ثابت قال : جاءت امرأة من الأنصار ، فقالت : يا رسول الله إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد ، لا والد ولا ولد ، فيأتي الأب فيدخل عليّ وإنه لا يزال يدخل رجل من أهلي وأنا على تلك الحال ، فكيف أصنع ؟ .
فأنزل الله تعالى هذه الآية .

قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : يا رسول الله أفرأيت الخانات والمساكن في طرق الشام ليس فيها ساكن . فأنزل الله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ ﴾ الآية (٤)

وفي قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ ثلاثة أوجه : قيل حتى نستأذنوا ، وقيل حتى تؤنسوا أهل البيت بالتحننح ، فيعلموا بالدخول عليهم . وقيل : حتى تستأنسوا أى تعلموا هل فيها أحد تستأذنوا فتسلموا عليه ؟ . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُمْ رُشِدًا ﴾ أى علمتم .

والإذن يكون بالقول والإشارة . عن أبى هريرة رحمه الله قال : قال رسول الله ﷺ : رسول الرجل إذنه ، فإن استأذن ثلاثاً ، فلم يؤذن له ولئى ولم يُراجع .

روى عن أبى سعيد الخدرى عن الأشعري أنه استأذن على عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ثلاثاً فلم يؤذن له ، فرجع ، فأرسل إليه عمر فقال : ما ردك ؟ فقال : قال رسول الله ﷺ : من استأذن ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع : فقال عمر رضوان الله عليه : لتجيئتنى بينة وإلا جعلتك نكالا . فأق أبى سعيد رحمه الله ، فشهد له .

قال الحسن رحمه الله الأولى إذن ، والثانية مؤامرة ، والثالثة عزيمة إن شاءوا أذنبوا وإن شاءوا ردوا .

١ - المنازل ٢/١٥٥ .

٢ - المصنر ٢/٢٠٤ .

٣ - سورة البور ٢٧ .

٤ - سورة البور ٢٥ .

ولا يستأذن وهو مستقبل الباب إن كان الباب مفتوحاً . وإذا أذن لأول القوم فقد أذن لآخرهم ، ولا يقعد على الباب بعد الرد ، فإن للناس حاجات .

ثم قال تعالى : ﴿ وتسلموا على أهلها ﴾ والسلام ندب ، والاستئذان تحتم .

وفي السلام قولان : أحدهما مسنون بعد الإذن على ماتضمنته الآية من تقديم الإذن عليه ولأن السلام من تحيات اللقاء ، واللقاء يكون بعد الإذن . والثاني أنه مسنون قبل الإذن وأنه إن تأخر في التلاوة فهو مقدم في الحكم . وتقدير الكلام : حتى تسلموا وتستأذنوا ، لما روى ربيع بن حراشي رحمه الله أن رجلاً استأذن على رسول الله ﷺ : أَدْخُلُ ؟ فقال النبي ﷺ لرجل عنده : قم فعلمه كيف يستأذن ، إنه لم يُحسِن . فسمعه الرجل فسلم واستأذن . وقد قيل : إن وقعت العين على العين قبل الاستئذان فالأولى تقديم السلام على الاستئذان ، وإن لم تقع العين على العين قبل الإذن فالأولى تقديم الاستئذان على السلام .

فأما الاستئذان على منازل الأهل ، فإن كانوا غير ذوى محرم لزم الاستئذان عليهم كالأجانب وإن كانوا ذوى محارم وكان المنزل مشتركاً هو فيه وهم ساكنون لزمه قبل دخوله إنذارهم إما بوطءٍ أو بنحنة مفهومة ، إلا الزوجة ، فلا يلزم ذلك في حقها لارتفاع العورة بينهما . وإن لم يكن المنزل مشتركاً ، ففي الاستئذان عليهم وجهان ، أحدهما النحنة أو الحركة والثاني بالقول كالأجانب .

وقد روى عطاء بن يسار رحمه الله أن رجلاً قال للنبي ﷺ : أستأذن على أمي ؟ قال : نعم . قال : فإني أخدمها . قال : استأذن عليها . فعاوده ثلاثاً . فقال ﷺ : أتخب أن تراها غريانة ؟ . قال : لا . قال : فاستأذن عليها .

* * * *

ولا يجوز أن يتطلع إلى المنزل ليرى من فيه فيستأذنه إذا كان الباب مغلقاً ، يقول النبي ﷺ : إنما جعل الاستئذان لأجل البصر . إلا أن يكون الباب مفتوحاً ، فيجوز أن يُنظر إذا كان خارجاً منه ، لأن صاحبه بالفتح قد أباح النظر . « .

وبعد فهذا الكتاب الجامع في موضوع المنازل والديار ، وإن بدأ بالحدِيث عن الديار المهجورة والأطلال الخربة تأسياً بما حدث لأهله ، وتذكراً لمعاهده وأيام شبابه وعيشه

بين أهله وأحبابه إلا أنه تطرق لجوانب كثيرة من الحديث عن المنازل وأورد نصوصاً من القرآن الكريم والحديث الشريف وأقوال الأدباء والشعراء والحكماء . وقد حظى الشعر منه بالقدر الوافر حتى ليكاد أن يكون الكتاب مختاراً لأقوال الشعراء في المنازل والديار ، وما يتصل بها .

ويدل ما جمعه من الشعر القديم والحديث والمعاصر له أو السابق عليه بقليل أن زاده في هذا زادٌ عظيم وافرٌ ، ولا شك أنه مدّ ملكته الشعرية والكتابية بمدد جمّ تجلّى في عبارته ، ومعانيه الشعرية .

والكتاب مادة غنية للشعر ، ومورد يرتاده الباحثون في الأدب والراغبون في ارتياد رياضه ، وهو مورد لكثير من آداب عصره ، وشعرائه ، ونصوص قد لا تيسر بسهولة في غيره . وبه معارف عن العصر تلقى أضواء على رجاله وأحداثه . وعلى حياته وعلاقاته .

وقد عرف بعض رجال عصره الفاطمي الذي ولد فيه ونشأ وشارك في أحداثه يافعاً وكهلاً ، وقرأ لمفكرية وأدبائه ، ونقل عنهم . قرأ للمعري وابن سنان ، والوزير المغربي والرشيد بن الزبير والمهذب بن الزبير ، ونقل عن التهامي وغيرهم كثيرين من شعراء مصر والشام كابن حيوس وابن الخياط وشعراء افريقيا ، والأندلس وعلمائها ..

فهو كاشف عن ثقافة الرجل واهتماماته الأدبية ، مبيّن لمدى اتصال الثقافة العربية الإسلامية وتواصلها ، لا تمتنع بعد الأقاليم ، ولا موانع الحياة من حروب وانقسامات من هذا التواصل ، والتكامل حتى وكأنها جميعاً نهر واحد تصب فيه روافده شرقاً وغرباً .

مؤلفات الكتابة والإنشاء مواد البيان لعل بن خلف

وهذا النوع من المؤلفات وإن لم يكن أديباً صرفاً ، إلا أنه يمت إلى الأدب بنسب ، وبخاصة إلى الكتابة الإنشائية وديوان الرسائل ، ذلك أنها مؤلفات وضعت لجماعات الكتاب في الدولة الإسلامية ، وقد ظهرت هذه المؤلفات منذ القرن الثالث الهجري كما عرفناها في كتب ابن قتيبة ، وبعده عند قدامة ، وأبي هلال العسكري في القرن الرابع كما سبق إليها من أسدى النصيح للكتاب في صورة رسائل مختصرة كعبد الحميد الكاتب ، وبشر ابن المعتمر .

ومن أشهر كتاب هذا اللون في مصر في هذا العصر على بن خلف صاحب مواد البيان . وهو كاتب من كتاب الدولة الفاطمية ووزير في عصر المستنصر ، وفد إليها من بغداد ، وكان مع والده من كتاب البويهيين .

ويبدو أن على بن خلف وكان يلقب بفخر الملك أبي غالب كان يتولى الوزارة والكتابة لبياء الدولة بن بويه ، فلما مات وتولى ابنه سلطان الدولة عزل فخر الملك وغضب عليه ، واعتزم قتله فهرب هو وابنه أبو شجاع إلى مصر حيث كانت الخلافة للظاهر بن الحاكم ، أو للحاكم قبل وفاته ، وبقي الأب وابنه ولقيا من الترحيب بمصر كغيرهما ممن يفد إليها حتى بلغا مكانة في الدولة ، وتولى الابن في خلافة المستنصر سنة ٤٥٧ الوزارة وظل بها حتى غضب عليه المستنصر أو بعض رجاله في وقت الفوضى والشدة وحدث الانقلاب الذي دعا المستنصر إلى استدعاء بدر الجمالي من الشام لوضع حد لتلك الفوضى في القاهرة . وكان أبو شجاع محمد بن على بن خلف قد هرب سنة ٤٦٦ إلى الشام بطريق البحر فلقية أمير الجيوش بدر الجمالي وهو في طريقه إلى مصر فقبض عليه وقتله .

ويُلف الغموضُ حياة الرجلين الأب والابن كما تضطرب المصادر في تحديد اسميهما بل وتخلط أحياناً بين اسميهما ولقبيهما ووظيفة كل منهما في مصر بعد مغادرتهما بغداد سنة ٤٠٦ . ولعل احتمالاً آخر يرد على الذهن يقول بان الذي تولى الوزارة أبو شجاع حفيد لعل بن خلف والغموض يشمل مؤلف الكتاب كذلك فهو على بن خلف وزير البويهيين

أم ابنه وقد نص صاحب مواد البيان على وجوده بمصر سنة ٤٣٧ هـ وهو يؤلف كتابه هذا ، فهل كان على بن خلف من العمر والقدرة بحيث يمكنه من تأليف الكتاب ونفترض أن عمره آنذاك لا يقل عن ثمانين عاماً . لأنه خرج من بغداد سنة ٤٠٦ وكان وزيراً خطيراً لبياء الدولة الذي تولى سنة ٤٠٣ ، ولا يعقل أن تقل سنه آنذاك عن أربعين عاماً أو ما حولها .

وليس بعيداً مع ذلك أن يُؤلف الكتاب وهو ابن الثمانين أو ما بعد السبعين . وكان قد بلغ في دولة الفاطميين مكانة مرموقة جعلت القلقشندى يعتبره من كبار رجال دولتهم^(١) .

والكتاب يتقسم إلى مقدمة وعشرة أبواب

ويبدأ الحديث في المقدمة عن سبق القدماء إلى المعاني ، فاحتازوها : « ولولا سبق الأولين إلى ما اخترعوه ، ووجودهم بتقدم الزمان إلى افتراع ما اخترعوه حتى لا يُلغى مهملاً ، ولا ملقى مرسلأً لأمكن أن يقع المحدثون على ما وقعوا عليه ، ويصلوا إلى ما وصلوا إليه ، إذ المعاني قائمة في نفوس المميزين . وليس المتقدم أحق بالولاء عليها من المتأخر ، ولذلك تواردت فيها الخواطر ، وتعاورت عليها توافي الخواطر .

ولما كان كثيرٌ من مستنبطي الصناعات يعجزون لاستفراغهم قوى قوائمهم في إقامة صور ما استنبطوه ، وإخراجه من القوة إلى الفعل ، من الباسه برود التميم ، وتحليته بعقود التنظيم . خصنا الله بالفضيلة في استدراك ما أغفلوه ، وتجلية ما أغمضوه وأقدرنا بما حملوه عنا من معونة الابتداء وألقوه على قرائحنا من فضل الاتباع على تفصيل ما أجملوه ، وتلخيص ما أسهبوه ، فلهم حق التشكيل والترتيب ، ولنا حق التكميل والترتيب . »

ثم يقول :

« .. لما كانت الصناعة الكتابية ، والفضيلة البراعية من أنبل الصنائع خطراً ، وأحسنها على أهلها أثراً ، لاشتراك الخاصة والعامة في استعمالها ، وأخذ كل منهم بما تقتضيه حاجته ومنزلته منها أكثر الناس من وضع الكتب فيها ، وصار المعنى بالتصنيف فيها إنما يقتدى على مثل السالف ، مُغيّراً على معانيه ، مفسراً لألفاظه ومبانيه ، إلا أننا لما طالعنا الكتب الموضوعية فيها وجدنا أكثرها معدولاً به عن الطريق القاصد إليها ، لأن من الواضعين من اختصر وقصر ، ومنهم من أسهب وشتر . ومنهم من شغل كتابه بأجزاء من العلوم القائمة

(١) صحح الأعشى ج ٦ ص ٤٣٢

بأنفسها الموجودة في مظانها ، لما للصناعة من الشركة فيها ، واصل بما هو من نفسها ، وهو أحق بها .

ومهم من اقتصر على إبداع كتابه رسوماً لا تستعمل إلا في دولة بذاتها وبلاد بعينها ، فلا ينتفع بكتابه في غيرها . ومنهم من نصّ على طريقة قد صار عرفها دائراً ، وأثرها عافياً ، لوقوع الاصطلاح على هجرها والغائها ، والاستبدال منها ما هو أليق بالزمان والمكان وأهلها . ومنهم من استوفى الفن الذي جدّ فيه وتدرّب به ، وقصّر في غيره من الفنون الأخرى وهي أجزاء الصناعة وأقسامها ،

فأرأينا لذلك وبالله التوفيق أن نُصنّف كتابنا جامعاً لأصولها وفروعها ، ورسومها المستعملة ، وأوضاعها ، وأقسام البلاغة وأنواعها ، ليكون علماً يهتدى بناؤه ، ودليلاً يُسعى على آثاره . وحاكماً يُتحاكم إليه ، ومحكماً يعرض من اعتزى إلى هذه الصناعة عليه .

وأشرنا إلى ما لا بد للكاتب الكامل من معرفته من العلوم الأخرى التي هي وإن كانت من أجزائها ، فإنها تؤخذ من معادنها ، وتوجد في أماكنها ، لأن المتفردين لها قد فرغوا منها ، واستوفوا القول عليها ، فإن مرّ في الكلام شيء من نصوصها ، فإنما أتينا به تنبيهاً على القدر الكافي منها ، وإشارةً إلى موقع الحاجة في الصناعة إليه .

ونعتنا هذا الكتاب بـ « مواد البيان » لوقوع هذا النعت منه موقع الحقيقة .

والله نسأل عوناً يفرّغه ، وتوفيقاً يُسبِّغه ، وهو مانٌّ بهما بفضله . وهو عشرة أبواب .

الباب الأول : في حدّ صناعة الكتابة وفضلها ومنفعتيها ، وقسمتها ، ورسم الكتاب وعلّة وضعه .

الباب الثاني : في البلاغة وأقسامها الأصلية

الباب الثالث : في أقسام البلاغة الفرعية .

الباب الرابع : في صناعة البديع وأبوابها .

الباب الخامس : فيما يخرجُ الكلام عن أحكام البلاغة .

الباب السادس : في أن الطبع هو قوام الصناعة ونظامها .

واحتذاء مذاهب السابقين بكاملها وتمايمها .

الباب السابع : في أوضاع الخط وقوانينه ، وترتيب الصدور والأدعية ، والعنوانات والتاريخ والختم .

- الباب الثامن : في رسوم المكاتبات .
 الباب التاسع : في آداب الصناعة .
 الباب العاشر : في آداب السياسة .

ونحن قائلون في كل باب من هذه الأبواب ما يبلِّغ إلى قاصية الاقناع والإحسان . والله
 الموفق للسداد والصواب بمتنه ويؤمِّنه .
 ويحدُّ صناعة الكتابة أو يعرفها بقوله :

« أما حدُّ صناعة الكتابة ، فإنها صناعة ترسم صوراً دالة على الألفاظ دلالة الألفاظ
 على الأوهام . وهذا الحدُّ وإن كان ظاهر لفظه يدلُّ على أن جملة الصناعة إنما هو رسم
 الصور الخطيَّة ، فإنه إذا تُدبِّر وجد مشتملاً على حواشيا ، محيطاً بكل ما يقع فيها لأن
 الخط نوب اللفظ وقسيمه ، بل هو في الحقيقة ، لأنه لا سبيل إلى رسم صورهِ الموضوعه
 للدلالة على الألفاظ إلا بعد توسط اللفظ بينها وبين الأوهام القائمة في النفس ، حتى إن من
 يكتب وهو صامت لا يد وأن يكون مشكلاً للفظ في نفسه قبل أن تنقله يده خطأ إلى
 نظريه ، وكذلك الناظر في الكتاب من غير جهر لا بدُّ له من حكاية اللفظ بضميره ليكون
 ذلك سبيلاً إلى تمييز معناه وتحصيله ، ولو اقتنع بالنظر دون تشكيل اللفظ لتعذر عليه إدراك
 غرضه ، وكان كالحائر في طريق ، ولذلك قال المنطقيُّ : إن التُّطق نطقان ، نطق داخِل ،
 وهو صور المعاني القائمة في النفس ، ونطق خارج وهو الألفاظ المعبرة عن تلك الصور .

فأطلق على صور المعاني اسم التُّطق ، ولا نطق فيها يقرع السَّمْع .

وإذا انتظم الخط ما ينتظمه اللفظ ، وانتظم اللفظ ما تنتظمه الأوهام ، فقد اشتمل
 الرسم على كل ما تحيط به دائرة الصناعة ، ولم يخرج عنه شيء مما هو لها .

القول على الفضيلة :

أما الكلام على فضيلة هذه الصناعة الظاهرة الشرف والجلالة ، الحائزة للسيادة والنبالة ،
 وذلك لاختصاصها بالقوة الإنسانية ، وعودها بتأثير الفضيلة التمييزية من قسمها العلمي
 والعمل ، لأننا إنما نتميز فاضل الصنائع من مفضلها بتأمل أقوالها مما كان مختصاً بهذه القوة
 كصناعة الطب والنجوم ، فهو الفاضل . وما كان مختصاً بالحس كالبناء والتجارة وما
 شابههما فهو المفضول .

وصناعة الكتابة مخرصة بالقوة المميزة من قسميها العلمى والعملى .

أما العلمى فهو البيان عما يخرجُه الكاتب من الصور القائمة في ضميره بالقوة إلى الفعل بالألفاظ البليغة والحساب الذى يبرزه من وهمه إلى الخط . والبيان والحساب مخرصان بالقوة المميزة التى بها فضل الإنسان على سائر أنواع الحيوان ، لأنه إنما اشغز عنها وانفصل منها بالنطق . وكما أن بالتمييز وقع الفصل بين الإنسان وأنواع جنسه ، فكذلك يجب أن تفصل به في التفصيلة والنقيصة بين أشخاص نوعه ، فمن علت طبقتة في البلاغة والإبانة حكم له بالفضيلة ومن انخفضت درجته فيها حكم عليه بالنقيصة ، لأن أثر القوة المميزة في البليغ اللسين ، أظهر منها في المقتخم اللكن . والطريق إلى اعتبار ذلك أن نتأمل ألفاظ الإنسان التى يخرج بها المعانى القائسة في نفسه بالقوة إلى الفعل ، فإن كانت ألفاظا تطابقها ونقربها من الأفهام وتُسَرُّ عنها سُجُوفُ الإيهام ، وتجلوها في حليل الإبانة ووشى البلاغة دلة ذلك على تمكّن القوة المميزة وجودة تحصيلها ، وصحة تمييزها . وإن كانت ألفاظاً مُعَقَّدة دالة عليها دلالة لا تحصل حقيقتها من أول وهلة ، ولا توضحها إلا في زمانٍ طويلٍ ومهله دَلٌّ ذلك على ضعف القوة المميزة ، ورداءة تحصيلها ، وفساد تمييزها واختلاط الصور التى فيها ، وعجزها عن تفصيلها . واحكم عليها من العادة بما يوضحها .

فهذه الصناعة أخصّ الصناعات بالقوة الناطقة ، لأنها المفردة باستعمال الأشياء الخاصة بها التى هى تأليف الكلام المنثور وتقييده بالخط الحافظ له على تعاقب الدهور ، وعقد الحساب ، وحصر المعدودات به .

وقد كان حكماء اليونان يسمون علم البلاغة العلم المحيط ، وذلك لحاجة جميع الناس إليه . وإنما فضّل الإنسان على سائر الحيوان بالنطق ، فأحق الناس بالرئاسة أبلغهم في منطقيه وأوصلهم للعبارة بذات نفسه ، وأوضعهم لقوله في مرضعه ، وأحسنهم اختياراً لأوجزه وأغربه .

وكما أنّ الحكمة أشرف الأشياء ، فكذلك ينبغي أن تكون العبارة عنها بأحكم المنطقي ، وأوجز اللفظ ، وأبعده من التلأل . وإن سماحة المنطق والملكمة والحي تذهب بوز الحكمة ، وتفسد المعانى ، وتورث الشبهة ، فنعسر عند الحاجة ، وتلتبس على المستمع .

وأما العملى فهو الخط ، وهو لا حق نالمنطق في إيضاح المعانى وإبانة الأغراض ، والدلالة على المقاصد . وهو معبر صامت ، ومخاطب مُسِيرٌ ، وهو مع ذلك يفعل فعل الماطق

المفصح ، والمُعرب الموضَّح ، لأنه يدل على المعنى برسمه ، كما يدل عليه المتكلم بلفظه .
وكما أن أوهام الإنسان تدلُّه على الصور القائمة في نفسه ، وألفاظه تدلُّ من يخاطبه على
أوهامه ، فكذلك الخط يدل من بعد عن سماع لفظه دلالة الألفاظ .

واللفظ يفضلُ الخطُّ بأنه دليلٌ طبيعيٌّ ، وآلته طبيعية ، وهى اللسان . والخط دليلٌ
صناعيٌّ ، وآلته صناعية وهى القلم . ولَمَّا كان اللفظ في السَّيْلانِ لا يلبثُ إلا ريث ما
يقرعُ الأسماع ثم ينحلُّ عن المكان ، وكان حفظ المسموعاتِ كالشئِ العرضيِّ إنما يحتاج إليه
في حراسةِ صور المحفوظات من مداومةِ الدَّرْسِ . ومطالعةِ المحفوظ وتعهده بالذِّكر والقراءة .
فكأنَّ التَّنسيانَ كالأمر الطبيعيِّ ، لما نخده من رجوع الإنسان إليه عند إهماله ما حفظه . ألهم
الله تعالى الإنسان اقتضاء الخط ، وأقدره على استكمال معنى النطق الذى خصه بفضله
واستتمام قوته ، وأوجده بما هداه إليه من ذلك السبيل إلى انبهم والإفهام على تغاير الأحوال
عن قربٍ وبعد ، وغيبيةٍ وحضور ، ولولا ذلك لما تمت منفعة المنطق ، لأنه لو عدم الخطُّ لم
يتوصل بالنطق إلا إلى إفهام المخاطب القريب من الصوت المنفصل عن الإنسان القائل إلى
أذن السامع دون غيره ممن بُعد عن سماع اللفظ ، ولتعدُّر على الأذنين الاطلاعُ على أنباء
السائلين ، وآثار عقولهم في الفضائل والآداب ، ولم يصل إليهم منها إلا نذرٌ يسيرٌ مما
تحمَّله الصدور ، ويُؤدِّيه الحفظ . ولم يكن وصوله أيضاً على نصوصه لما يدخل عليه من
التغير والتبديل باضمحلل الشئ فالشئ منه عن الأوهام التى تخضره ، والقوى الحافظة له .
فلما أنعم الله تعالى على الإنسان بالحاجة إلى تقييد ألفاظه بالرسوم التخطيطية شمل نفع
هذه النعمة ، وعمَّ جميع ممزى الأزمنة ، وذلك أن العبارة التى يتوصل بها إلى الفهم والإفهام
حروف يركبها اللفظ في حال المقارنة ، ويركبها الرسمُ في حال المباعدة . وبهذا يرتبط جميعُ
ما يدخل تحتها من المعانى للإنسان ومعاصريه ، واللاحقين به .

وإذا انقرض أهل عصرٍ ثابتت هذه الصورُ في إيصال الفضائل التى استنبطوها ، والمعانى
التي استخرجوها ، والمعانى التى سهَّلوا سبيلها إذا قيَّدت بها ، وأهدعت فيها مناب التَّشافُه
والملائقة ، وأغنت مغناهما . وهذه فضيلةٌ عامةٌ شاملةٌ تامَّةٌ كاملةٌ لا مزيد لفضيلةٍ عليها .
ولهذا قال بعض المنطقيين في تحديد الإنسان : إنه الشئُ الناطق المائز الكاتب . وإن الكتابة
متى لم تدخل في حده لم يُقَضَّ له بالنطق التام لعجزه عن إفهام من بُعد عن سماع صوته .
ولولا أن من لا يحسن الكتابة يخدم محسنها لنقص عن معنى الإنسانية نقصاً بيناً .

فإن اعترض معترض بأن هذه الصناعة ، وإن كانت في المنزلة اللطيفة ، والرتبة الشريفة ، وكانت نعمة الله بها جائلة الخطر ، عظيمة القدر ، فإنها موهبة مشتركة لكل من عبّر عن ضميره بلسانه ، وخط يده ، وعقد أصابعه ، فقد تنكّب عن سنن الصواب في أغراضه ، وذلك أنه وإن كان لكل من وصف حاله نصيب من تأليف الكلام ورسم الخط ، وعقد الحساب فإن شرف الصناعة وفضيلتها إنما تحصل للكتاب الذين يحوزون هذه الأوصاف على التمام ، وإنما تقع في الحقيقة على الكاتب الجامع لآلات الصناعة وأدواتها المستقل بعمل التفصيل والترسيل دون غيره ممن يشارك الكتاب في استعمال بعض أجزاء الصناعة .

وليس هؤلاء فقط يجب أن يُسموا كتّاباً بل وغيرهم ممن هو أقرب منهم إلى الكتابة من الشعراء والخطباء والورّاقين ، وممن يجاريهم ، لأن لكل طبقة من هذه الطبقات صناعة قد تفرّدت بها ووقع اسمها عليه .

فصل في فضائلها المستتبطة من كتاب الله عز وجل

فأما فضائلها المستتبطة من كتاب الله عز وجل ، فإن الله تعالى شرفها بإضافتها إلى نفسه وإن كان في حكم إضافتها إليه سبحانه على غير الحكم في إضافتها إلى خلقه ، فقال جلّ وعزّ ﴿ وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظةً وتفصيلاً لكل شيء ﴾ . وقال ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ﴾ . وقال : ﴿ ورهبانيةً ابتدعوها ما كتبناها عليهم ﴾ .

ونسب تعليمها إلى نفسه فقال تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ . وجاء في التفسير أن هذه السورة مفتتح الوحي ، وأول آية أنزلها الله تعالى من كتابه على رسوله ﷺ .

وفي ابتداء الله تعالى فيما عدّده من نعمه على الإنسان يذكر القلم وتعليمه إياه به ما لم يعلم من قبل أظهر دليل على عظم رتبة الخط .

وقال في عيسى عليه السلام : ﴿ ونعلّمه الكتاب والحكمة ﴾ . وأقسم تعالى بالقلم

فقال : ﴿ ن . والقلم ، وما يسطرون ﴾ ، وبالكتاب فقال : ﴿ والطور ، وكتاب مسطور في رق منشور ﴾ . والأقسام لا تقع منه سبحانه إلا بشريف ما أبدع كالشمس والقمر ، والنجوم ، وما أشبهها بما لها من نظام الخلق واتساق التدبير .

والحاقه القلم والخط بها في إقسامه بهما . واجرائه إياه مجراها في ذلك منبىء عن شرف رتبة الخط وأنه أصل عظيم من أصول منافع الخلق . وسمى — عز اسمه ما يكتب كتاباً فقال : ﴿ وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين ﴾ وقال ﴿ أم تحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ، بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾ .

وعظم تعال شأن الصحف والكتب ، فقال سبحانه : ﴿ كلا أنها تذكرة ، فمن شاء ذكره في صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة ، بأيدي سفرة ، كرام برره ﴾ .

وقال تعال : ﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى ﴾ ، وقال : ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق . إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ . وقال : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ﴾ . ونظائر هذا كثير .

وسمى سبحانه ما أوحاه إلى رسله الكرام كتباً ، فقال في موسى وهارون : ﴿ وآتيناهما الكتاب المستبين ﴾ . وقال : ﴿ ونقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ﴾ . وقال : ﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس ﴾ . وقال فيما أنزله على نبينا محمد ﷺ : ﴿ ألم ذلك الكتاب .. ﴾ و ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك ﴾ . والوحي لم ينزل كتاباً . ولكنه لما نزل أشار سبحانه إلى تمامه وغايته ، لأن الأشياء إنما تؤخذ بتامها وغاياتها .

* * * *

فصل : من فضائلها المأخوذة من أهلها

ومنازل أربابها

فأما مراتب أهلها ومنازل أربابها ، فقد عُرف أن الذين وضعوها ، ورحموا رسومها هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وفيما نغنه نقنة الآثار أن أول من كتب بانقلم واقتضيب الخط آدم عليه السلام . وأنه وضع حسب ما علمه الله تعالى لأهل كل منة قلماً . وقيل

إن أول من خط بالقلم إدريس عليه السلام ، وأنه إنما سمى إدريس لدراسته الكتب المنزلة فكان يسمى الكاتب . وقيل إن إسماعيل عليه السلام اخترع القلم العربى وكتب به ، ولم يسبق إليه .

فأما من تخلى بها في الأيام الخالية ، والأعصر الماضية من ذوى الأخطار العاليه وى الدين والدنيا فكثير لا نحصيهم ، إلا أن أصحاب التاريخ ذكروا أن منهم يوسف بن يعقوب عليه السلام ، وكان عزيز مصر استوزره ، وهو أول من اتخذ القراطيس (الورق) وهارون بن عمران ، ويوشع بن نون ، وكانا يكتبان لموسى عليه السلام . وسليمان بن داود وكان يكتب لأبيه .

وقد ذكر الله تعالى صناعته في كتابه : ﴿ إنه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم أن لا تعلوا على وأتوني مسلمين ﴾ .

★ ★ ★ ★

فأما من وقع عليه اسم الكتابة في الملة الإسلامية ، وبلغ إلى المنزلة العالية من الخلافة والرتبة السنية من الإمارة فكثير أيضاً ، ومنهم أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو ذو القرباة والصهر ، وله الشرف والسابقة . ومنهم عمر بن الخطاب ، ومعاوية بن أبى سفيان وكانا يكتبان للنبي ﷺ ، ومنهم عثمان بن عفان ، وكان يكتب لأبى بكر ، وانتقل الأمر إليه ، ومروان بن الحكم ، وكان يكتب لعثمان بن عفان ، وانتقل الأمر إليه .

وفى كون واضعى هذه الصناعة من الأنبياء ، والمعتمدين إليها من العظماء والخلفاء والسادات والرؤساء مايدل على علو خطرها وارتفاع قدرها . وأما من قرع الذروة العالية من السيادة والسنام الباذخ من الرئاسة من أصل هذه الصناعة على تغاير الدول وتنقلها بين العرب والعجم واشتهار آثارهم وانتشار أخبارهم يغنى عن النص على أسمائهم ، وذكر ما تبيأ لهم من المنازل التى نالوها بالاستيجاب والاستحقاق ، لا بالحظ والاتفاق ، والسعادات التى قضت لهم ملوكاً فاضلين فدلّوهم فى دولهم على ما تقتضيه الكتابات ، لا على ما تقتضيه الأحاطى .

قيل : تسقط الحظوظ فى زمن المليك الفاضل ، فلا يتسنم الرتبة العالية إلا موصوف بالفضيلة ، فسموا بالعلوم التى خلقت خواطيرهم إلى أعنانها ، وجالت أفهامهم فى ميدانها ، وأثاروا غوامضها وفائقها . وغيروا مذاهبها وطرائقها ، وما اقتضوه من بليغ

المكاتبات ، وارتجلوه من بدنيح السجلات في العقود والتقاليد والعهود المشتملة على تمثيل الرسوم والأعمال ، والأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، والحمد والذم — إلى الرتب الجليلة الشريفة ، والمنازل النبيلة اللطيفة ، وحلولهم في أعلا طبقات الإكرام ، وأبعد غايات الإنعام ، وفوزهم بموفور المنح الجسام التي أقدرتهم على تطويق الأعناق بالمنن ، وادخار الفعل الحسن .

ولعلم الملوك الحزمية بخطير هذه الصناعة وأهلها ، وعائديها في أمور السلطان ، صرفوا العناية إلى الكتبة ، وخصّوهم بالحظوة ، وعرفوا لهم فضل ما جمعوه من الرأي والصناعة . وكانت ملوك الفرس ، وهم أسوس ملوك الأمم ، وأعرفهم بالرتب تقول : الكتاب نظام الأمور ، وجمال الملك ، وبهاء السلطان ، والألسنة الناطقة عنه . وتخزان أمواله ، والأمناء على رعيته وبلاده . وهم أغنى الناس عن الملوك والرعية ، وأولاهم بالحياء والكرامة ، وأحفظهم بحجة السلامة . وأعظم الناس حقاً على جميع الطبقات من ولي أسرار الملوك وأمورهم الخاصة . وقالوا : للكتاب على الصاحب ثلاث خصال : رفع الحجاب عنه ، وإتمام الوشاة عليه ، وإفشاء السر إليه .

وكانوا يجمعون أحداث الكتاب ، وناشئتهم ، المتعرضين لأعمال الملك ويتقدمون لرؤساء الكتاب بامتحانهم ، والفحص عن عقولهم ، فمن رضى عنه أقر بالباب يستعان به . ثم يأمر الملك بضمتهم إلى العمال ، وتنقلهم في الخدم . من حال إلى حال حتى ينتهي كل واحد منهم إلى ما يستحقه من المنزلة .

ويقول : إعلم أن جميع الصنائع وسائل إلى إدراك المطالب ، ونيل الرغائب ، وأن عوائدها تتفاضل في الكثرة والقلة بحسب تفاضلها في الرفعة والضعة ؛ إذ كان منها ما لا يفى بالبلغة من قوام العيش نحو الصنائع المهينة السوقية الداخلة في المرافق العامة . ومنها ما يوصل إلى الثروة ويتجاوز حد الكفاية ، ويحظى بأمال الوافر والنعم الخطيرة ، وهي الصنائع الخاصة .

وإذا تُؤمّل ما هذه صفته منها عُلِمَ أنه ليس منها ما يلحق بصناعة الكتابة ، ولا يساويها في هذا النوع ، ولا يكسب ما تكسبه من الفوائد والعوائد ، مع حصول الرفاهية ومجانبة التبذل ، والتنزه عن دنايا المكاسب ، ولا يُوصِل إلى ما تُوصِل إليه من الحظوة ورفاهية

العيش ، ومشاركة الملوك المستعبدين للكافة في المساكن الفسيحة والملابس الرقيقة ،
والمراكب الجميلة ، والدواب الفارحة ، والخدم والحشم . وغير ذلك من الآلات والأدوات
الملوكية .

ومن العجب أن صاحب هذه الصناعة ينتهى إلى الحال التى ذكرنا ، وتحصيل الفوائد
التى عدّدتنا على أكثر الأحوال فى أقرب المدد ، وأقل الأزمنة . فإن كان ما يصل إليه من
ذلك أمراً يتحمّله رئيسه له لعلمه بخطر صناعته ، وعنايته فى خدمته ، واستحقاقه لنيل
ما نوّله بكفاءته . فناهيك بذلك من فضل هذه الصناعة وشرفها .

وإن كان ما نخلص إليه من الاكتساب والمرافق أمراً يوصله إليه استقلاله بصناعته ويُقدِّره
عليه تبيّره فى معرفته حتى ينتهى إلى الحال التى وصفناها من غير خيانة للسلطان ولا
أشطاط للرعية ، ولا تطريق لبيعة فى دين ولا دُنيا ، فإن اعترض بمن يتعثر به الجُد
وينخلف عنه الحظ من أهلها .

ولسنا نقول إن ما وصفنا به هؤلاء القوم مطرّد فى حقّهم ، ولا لازم فى كافّتهم ، وكيف
ذلك والأقدار تعترض دون الأوطار ، وتجرى بحرمان الكافى المشمّر ، وتوويل العاجز المقصرّ .
ولكن الذى جرت العادة به أن يؤخذ بالاعتبار ما يكثر وقوعه على المبرّز فى هذه الصناعة إن
قعدت به الأيام فى مرة ، فلا بد أن تنهض به فى أخرى ، لأن دولة الفاضل من الواجبات ،
ودولة الجاهل من الممكنات ، ولا نسبة بين الواجب والممكن .

ومما يتصل بالقول على هذا الفضل أنه ما من أحد يتوسّل إلى السلاطين والملوك
بالأدب ، ويمتّ إليهم من العلم بسبب ، إلا وهو بأقله ، لا يُنوّل ما يُتوّله إلا على وجه
الإرفاق ، خلا الكاتب فإنه ينوّل الرغائب العظيمة من طريق الاستحقاق لموضع الافتقار
إليه ، والحاجة الحادّة عليه .

وهذا كافٍ للدلالة على منفعة هذه الصناعة ، وجلالة عائدها .

* * * *

ويقول : والصناعات كلها إن كانت مفتقرة فى كمالها إلى وجود المادة ، والآلة ، والغرض
والغاية ، فليست هذه الأربعة فيها بمتكافئة فى الشرف والفضيلة ، لأن من الصنائع ما يشرف
بمادته . وآلته ، وغرضه ، وغايته كصناعة الطب فإن مادّتها أجسام البشر الذين هم أفضل

الجنس الحيوانى ، وآلتها الأغذية والأدوية الحافظة للصحة الحاسمة للمرض ، وغرضها الصحة للبدن ، وغايتها حفظه على حال الصحة .

ومن الصنائع ما يشرف ببعضها دون بعض ، وصناعة الكتابة تشرف من كل وجه .
أما مادتها فقد قلنا إن لها مادتين : وهما اللفظ والخط ، وهاتان المادتان من الشرف والفضيلة كما تقدم لتقاسمهما البيان ، وتشاطرهما الدلالة على المعانى ، وخدمة النطق الذى هو خاصية الإنسان .

وأما آلتها التى هى القلم ، فقد أنبأ الله تعالى عن جلالتها ، وشرفها بإقسامه بها وإضافته لتعلم ما تخطه إلى نفسه . ومالقائل أن يقول إن القلم يراعى لا تستحق هذا التفخيم ، لأن اللسان مُضَعَّة من اللحم ، وقد جعله الله تعالى أداة لتقديسه وتمجيده . وتوحيده ، وإبراز مافى الأفهام بالقوة إلى الفعل ، وتكميل ففلسفة المنطق . والأشياء إنما تقدر بغاياتها لا بجواهرها .

وأما غرضها الذى هو تقييد ماتبرزه الخواطر من أوهامها حتى يتساوى فى عملها من حضر وغاب ، وبعد وقرب ، فغرض شريف جليل الفائدة ، نبيل العائدة .

وأما غايتها المجتابة منها فهى تعدد أشرف موقعا وألطف موضعاً لانتظامها متعاطم المعادن والمرافق التى لا تستقيم أمور الملك والسوقة إلا بها ، فغرض يبرز الصناعة من أنفس الأغراض ، وغايتها من أجل الغايات .

القسول فى القسمة

هذه الصناعة تنقسم أقساماً كثيرة ، وترجع إلى أصلين : أولهما أولاً هُما بالتقديم والتفضيل وهو الإنشاء والترسيل ، والثانى الحساب والتفصيل .

وإنما يميز الأصل الأول على الثانى لما تفيد الزيادة من قوة التميز وجودة الروية وثبوت الفطنة ، واشتماله على التبيان الدال على المعانى .

* * * *

وكاتب الترسيب يحتاج إلى التصرف فى المعانى المتداولة ، والعبارة عنها بألفاظ غير

الألفاظ التي عبر بها من سبق إلى استعمالها ، ويحفظ صورها ويؤديها على حقائقها . وفي هذا من المشقة مالا تحفأ به على من مارس الصناعة ، ولا سيما إذا طلب الزيادة والإبراز على من تقدمه في استعمال تلك المعاني ، أو حدًا حدًا رسوم بعض المبرزين الذين يتنحلون الكلام ، ويوقعونه في مواقعه في غاية من الرشاقة والحلاوة ، ومناسبة المعنى ، ويحتاج أيضاً إلى اختراع معاني أكاراً في الأمور الحادثة التي لم يقع لغيره مثلها ولا سبقه سابق إلى المكتوبة فيها ، لأن الحوادث السلطانية لا تنهاى ولا تقف عند حد ولا اختصاص متولى هذا العمل بالسلطان ، وقرب منزلته منه ، واعظام قدره له ، واعتماده في المهمات ونيل الأمل وبلوغ الأوطار عليه . ولأنه متى صان نفسه ولزم الطريقة المشاكلة لمنزلته كان أجدر بالسلامة من سائر أرباب الأقلام الذين يتصرفون في الأموال والأموال .

* * * *

واعلم أن صناعة تأليف الكلام تنقسم على ثلاثة أنواع هي :
الكتابة ، والخطابة ، والشعر

ومن ها هنا وقع التناسب بينها ، ولكل منها رتبة من الشرف والفضل . إلا أن صناعة الكتابة ترؤس صناعة الخطابة ، وصناعة الخطابة ترؤس صناعة الشعر . وإن عددنا جميع الأشياء التي تتميز بها الكتابة على هاتين الصناعتين لطال الكتاب ، وأفضينا إلى الإسهاب ، غير أننا نأتى من ذلك بما تقع عليه إبانته من تقدمها عليه بالقول الموجز .

فتقول إن صناعتى الخطابة والشعر ، وإن كانتا متوفرئى الحظ من الفضل والشرف ، غير بالعتى مدى صناعة الكتابة ، ولا محاديتين لها في دوام الحاجة إليها ، وقدر الانتفاع بها ، وكثرة غنائها في أسباب الملك والسلطان . وذلك أن الخطيب إنما يحتاج إليه في الأحيان المتباعدة مرة يُقوم على رعوس الأشهاد في المجالس الحافلة [متحدثاً] بما يقضى به حق المشهد ، ولا يتجاوز ما يودعه خطبته فئاً واحداً من فنون الكلام ، ومن الدعاء والثناء والوعظ والحض على لزوم الصناعة ، والتحذير من المعصية .

والشاعرُ إنما يُحتاجُ إليه أيضاً نترزين مثل هذه المجامع بما يورده من كلام موزون مقصور على المندج والإضراء ، ونحوهما . وبجانه أضحى من مجال الخطيب لحاجته إلى إقامة الوزن .

وأين يقع هذان النوعان من الرسائل التي ينشئها الخاتب في أنواع المعاني الصادرة عن الملوك والسلاطين؟ في سياسة الملك، وبنائية الخاصة والعامة، كدكتبة البيعة التي بها تتعقد إمامة الأئمة، وتستقر خلافة الخلفاء. وهم عماد الدين والدنيا، وسياسة العباد والبلاد، وبوقوع الإجماع عليهم يُنتهى الأحكام في النقض والإبرام، وكتب العهود المشتملة على الشروط القاضية بخفض الدماء وسكون الدهماء؛ وصلاح ذات البين، واتصال العجارة، واستمرار المرافق والمعاون التي يستعان بها على مصالح النبوة والملة، من الأسلحة والعُد، وآلات الحرب، وغيرها مما يهدف الشعور.

وكتب التقاليد للوزراء والقضاة والعمال، وجباة الأموال الذين هم أركان الدول وقواعدها، وبهم تنتظم عقودها، ثم إنا نجد الخاطب والكاتب في كل وقت من ساعات النهار وآناء الليل وأفيا في الحركة والاستنفار، في السلم والحرب، وهي رتبة ضرورية وليست داخلية في باب الرتبة التي يقع الغناء عنها كالخطيب والشاعر اللذين إنما يعدان لزيارتنا وقتا بعينه. وإن اعتبر فضل ما بين هذه الصناعة والصناعتين الآخرين من طريق المرافق والجدوى ظهر أنه لا نسبة بين ما يحصل عليه الكاتب من الخفض، وبين ما يحصل عليه الخطيب والشاعر، لأن الذي يتولاه الكاتب من طريق الاستحقاق، والذي يتولاه الخطيب والشاعر من طريق البر والصلة، والرغبة إلى خير سمعه. هذا على استمرار ما يجنى به الكاتب وانقطاع ما يجنى به الخطيب والشاعر. وإن اعتبر أيضا فضل ما بين صناعة الكتابة وصناعتى الشعر والخطابة برتب أهلها علم أن الكتاب هم أهل التقدم أو ذور الخطوة والرتبة، والمنزلة العالية، وأن مفايق الشعراء تُحَادِثُهُمْ، ومنعروضون لصلاتهم. وبين من يعطى ومن يأخذ ومن يصل ومن يوصل بون بعد وفرق واضح، وإن اعتبر غناء الترسيل والشعر في الأمر، وتكلم مبهما كلام مؤلف، علم أن الشعر لا يُغنى فيما يُغنى فيه الترسيل لأنه لا يُغنى في حوادث من الحوادث السلفانية إلى مسبق من أصناف الرعية التي يتضمنها الغرض الذي يقضيه تلك الحادثة قصيدة تشتمل على ما يناسب ذلك المعنى، ولا يحسن في رسوم السنطان — ولو شاء — أن يودع ما يودعه قصيدة من قصائد الشعر. ولو شاء أن يودع في رسالة من جمع وسائر أنواع الشعر ما قبح ذلك، فالترسيل يشارك الشعر وجوهه من مدح وهجاء، وسنوى واحتذاء، وشكر وثناء، وهناء، ورتاء، فنه الحظ الأوفى.

وفيما أوردناه كفاية في الدلالة على استحقاق صناعة الكتابة على الصناعتين الآخرين

اللتين يقاسمناها استعمال الكلام المؤلف .

وأما فضل صناعة الخطابة على صناعة الشعر فإن الخطابة من الصنائع الخطيرة في باب الدين والسلطان إذ الخطبة شطر الصلاة المشتملة على المواعظ [الهامة] والذكرى النافعة ، المنبهة للساهى الغافل ، الموقظة للآهى الذاهل ، الفاتحة للقلوب وكشف ماغشيتها من رَيْنِ الاغترار ، والإخلاذ إلى هذه الدار ، والاستعداد لمنزل القرار ، وغير هذا مما كانت الخلفاء تتخوّل به لِسْتِنِ رسول الله ﷺ ؛ فإن خطبه كانت تنوب مناب.... (١)

وإذا اعتبر فضل ما بين الخطابة والشعر بفضل ما بين الخطباء والشعراء علم أن التقدم للخطباء على الشعراء . قال لأن رسول الله ﷺ أول من يُعزى إلى الخطابة ، وخطبه أفضل الخطب . وقد حاز رتبة الخطابة على أكمل حدودها ، وأتم رسوماها ؛ فأما الشعر فإن الله تعالى نزهه عن نظمه بل عن إنشاده ، فقال : ﴿ وما علّمناه الشعر ، وما ينبتى له ﴾ ، وقال : ﴿ وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ﴾ ، ثم إن أمير المؤمنين عليّ ابن أبي طالب وهو بعد الرسول الخطيب المصتق ، وخطبه أجزل الخطب وأجمعها للفوائد والمواعظ ، ثم الخلفاء الذين خلّفوا في الإسلام ، فإنهم كانوا يوصفون بالخطابة ، ولا يوصفون بالشعر لترفعهم عن الأتسام بسمته .

ومما تفضل به الخطبُ الشعر أيضاً أن الخطبَ كلامٌ منبئٌ على الصدق ، والإرشاد إلى الخير ، وأما الخطب الجاهلية التي كان خطباء العرب يقومون بها في الأندية والمحافل فمقصورة على الأمر بالإصلاح والصلاح ، والتحضيض على التّبَار أو التعاطف ، ورفض التباغض والتقااض . وصلة الرحم ، ورعاية الذم ، ونحو هذا .

أما الخطبُ الإسلامية فلا حاجة بنا إلى ذكر ما شتمل عليه من وجوه الخيرات ، وما تتضمنه من تمجيد الله تعالى وتوحيده والثناء عليه ، والصلاة على رسوله ﷺ والترغيب في الآخرة ، والتزهيد في الدنيا ، وقدح الهشم في طلب الثواب ، والورع عن اجتناب ما يوجب العتاب .

والشعر إنما س على معاني أتمتها مستحيل ، وأقوال جُلها كذب ، لاسيما الشعر الجاهلي الذي هو أمحل الأشعار ، فإنه يشتمل على قول البهتان ، وشهادة الزور ، وسب الأعراض وقذف الخصمات ، والقدح في الأنساب الصريخة ، وقبيح الهجاء ، وما يجارى

(١) مضمون في الأندلس - ج ١ - ص ١٠٠ تحت التسمية « شعر »

هذا مما يجب التنزه عن الخوض فيه ، والتصون عن إطلاق اللسان به .

وهذا كاف فيما رمنا إيمانه من فضل الخطب على الأشعار .

وأما ما يشرف به الشعر عن غيره من الكلام فبوزن الأجزاء وتساوي الحروف ، وطول بقائه على أفواه الرواة . فإنه لأشياء أبقى على الدهر من الشعر ، لتمكن القوة الحافظة بارتباط أجزائه ، وتعلق بعضها ببعض من تقييده ، لأنهم يجمعون على أن أبقى سيرهم وأخبارهم ما اشتملت عليه الأشعار . وهذه فضيلة جليلة الخطر ، لأن بقاء الشيء وطول مدته من أشرف فضائله .

ومنها اشتهاره ، واستفاضته ، لأنه لا أشهر من المعنى الجيد وهو جوار مجرى مثل . وقد قيل : لأشياء أسبق إلى الأسماع من بيت نادر ، ومثل سائر .

ومنها تزيينه لمجالس الملوك الحافلة بالتناء عليهم ، وتعديد محاسنهم . ومنها ما يعطل عليه الشاعر الحميد من الجداء الجسم الذي يستحقه بحسن موقع ألفاظه ومعانيه من النفوس ، وما يحدثه فيها من الأريسية .

ومنها عمارته لمجالس الأنس التي لا تتمر إلا بإنسداد الأشعار ، ورواية لأخبار ، ومنها قبوله لما يركب عليه من الألحان المتشربة ، المؤثرة في الأنفس اللطيفة ، والطلباء الرقيقة .

ومنها أن الألفاظ العربية ، وشواهد القرآن ، وغيره من الكلام العالی ككلام النبي ﷺ إنما يستبطن منه .

ومنها معرفة أمثال العرب ، وحكمها ، وعلم تواريخ أيامها ووقائعها .

فقد وضع بذلك غاية رتبها من الفضل ، وأن اجبلى السابغ صناعة الرسائل ، والمصلى اللاحق صناعة الخطب . والتالى اتابع صناعة الشعر .

وذهب قوم لما عددنا من محاسن فضائل الشعر إلى تفضيله على الرسائل ، وتابعهم على ذلك من أصغى هواه إلى أهويتهم ، وضعف نقده عن إعطاء الأشياء حقيها من التأميل واستعمال النظر الشافي في المبانية والتميز ، واستعملوا المغالطة في تقديم المذم . فنقول — وبالله التوفيق :

إن الشعر وإن كان في المنزلة التي أشرنا إليها ، فإنه هابط عن درجة الرسائل هبوطاً

بيناً لا يخفى عن ذوى المعارف المميزين . ويدل على ذلك خير امرئ القيس مع أليه
حُجْر حين هم بقتله لما سمعته بعد أن نهاه عن قول الشعر ترثم في مجلس شرا به بقوله :

اسقيا حجراً على علاته من كميبت لولها لون العلق

وما رواه الرواة من حديث النابغة الجعدي ، وأنه كان سيداً في قومه لا يقطعون أمراً
دونه وأن قول الشعر حطاً من قدره ورتبه .

ولاتضاع الشعر في نفوس سادات العرب وملوكهم نزه الله رسوله عنه ، ومنعه
منه . وليس إعدامه الشعر كإعدامه الخط ، لأن الذى جاء به ليس بشعر يقع الارتباب
فيه إذا كان يقول الشعر ، لأنه لا يجوز أن يبعث الله تعالى رسولاً يريد أن ينقاد الناس إليه
بما يُنقص من قدره في أنفسهم . ولو كان الشعر أعلى رتبة من النثر لم يُجز أن يتحدثى
الله تعالى العباد إلا به ، لئلا يكون قد تحداهم بما يوجد أبلغ منه ، ولكنه سبحانه لعلمه
بفضل الكلام المنشور أنزل كتابه العزيز منشوراً ذا مقاطع وفواصل ، ولم ينزله قصائد
ذوات قوافٍ وأوزان ، وعراه من حلية النظام الذى يصقل صفحة الكلام ليظهر المعجز
من غير طريق القوم الذين أنزله بلسانهم .

ولو كان النظم أيضاً أفضل من النثر لوجب أن يجيء مانقله الشعراء من معانى الكلام
المنثور إلى النظم في صورة من البلاغة . وهذا مستحيل ، لأننا إذا أعرنا ما نُقل من معانى
النثر إلى النظم وجدناه قد انحط عن درجته في النثر . ومن ذلك قول الله تعالى :

﴿ يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو ﴾ ، فإن جريراً نقله إلى قوله :

حلت عليك حماسة قيس تحيلها شعناً عوايس تحمل الأبطالاً
مازلت تحسب كل شيء بعدهم خيلاً تكرُّ عليكم ورجالاً

والفرق بين الكلامين ظاهر لمن كان ذوقه مستقيماً ، وطبعه سليماً .

ومنه قوله تعالى : ﴿ كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴾ نقله الشاعر إلى قوله :

زوامل للأشعار لأعلم عندهم بجيدها إلا كعلم الأباعر
لعمرك ما يلدرى الجير إذا غدا بأوساقه أو راح ما فى الفرائر

-وبيان هذين الكلامين بين واضح أيضاً . فإن قيل إنه يجب أن نوقع المقايسة بين
النظم والنثر من كلام المخلوقين دون كلام الخالق عز سلطانه لتفرده بالمعجز ، وحلوله في

الدرجة العالية من البلاغة التي لا يصل إليها البشر ، سلّمنا ذلك ، وأوقعنا المقايمة بين كلام البشر ، وأتينا في التمثيل بأبلغ النوعين ، أعنى المنظوم والمنثور .

فمن ذلك قول النبي ﷺ للأَنْصارِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ : « إنكم لتكثرُونَ عند الفزع ، وتقلُّون عند الطمع . » ، وقال عترةُ بن شدّاد :

يُخْبِرُكَ مِنْ شَهْدِ الْوَقِيعةِ أَنِّي أَغْشَى الْوَعْيِ وَأَعْفُ عِنْدَ الْمَغْنَمِ

يشتمل هذا البيتُ على معنى كلام رسول الله ﷺ ، ويوازنه في عذوبة اللفظ فقد ساواه كلام النبي ﷺ بنفسه لا بسبب آخر هو معرضٌ له . وهذا موجبُ الفضيلة للنثر ، لأنها حَصَلَتْ له بنفسه لا لسبب من خارجه . والنظم إنما يتمُّ حسنه بالمعرض الذي هو لابسُه من الوزن والقافية . وذلك أن الشعر حالٌ من الأوزان والقوافي وقيام كلِّ بيتٍ بنفسه ، وانفصاله عن غيره بما النثر عاظِلٌ منه . وهذه الأسباب تزيد في رونقه وجوهه ، وتقضى بتقبُّل الأنفس له ، ولذلك يعجبُ به كثيرٌ ممن لا يفهم معنى الشعر ويحفظه ، وإن كان ملحوناً مستحيل المعنى . والنثر فإنما يعليه بلاغته ، فإذا ساوى وهو عاظِلٌ بنفسه ما هو حالٌ ، فقد زاد عليه لا مجادلة ، لأنه لو كانت له حلية لفضل بها على سواه بنفسه لا غير . ومثال ذلك أننا لو استعرضنا شخصين أحدهما حالٌ كاسي ، والآخرُ عاظِلٌ عارٍ ، فتوازننا في الوضاعة والصباحة لحكمننا للعاطل العاري بالإرباء والإبراز على الكاسي الحالِي ، لأن الحالِي الكاسي لو نزع سُلاةً وكُساءً ، وقايسَ العاطل العاري لما ساواه .

وأما وجازةُ البيت فلأنه معبر عن حالٍ يَحْضُرُ قائله ولا يعنوه ، وفي كلام النبي ﷺ زيادةٌ في المعنى أوجبَت زيادةً في اللفظ ، وهى العمومُ في الحال المعبرة عنها ، وخطابُ الجماعة بقوله : تكثرُونَ وتقلُّون ، وقوله : عند الفزع يجمع الجنس الذي من أنواعه الوعى وغيرها . وكذلك الطمع ، فقد يكون مغنماً ، وغير مغنم ، ففي الكلام فوائد ليست في البيت ومطابقة لفظه ، وهى ذكر القلة والكثرة .

ومع هذا فإن صاحب النثر مطالب بطبق معانيه على أنفاضه ، وغير مسامح بضرورة ولا مجاز فيها باستعمال كلمة مرفوضة ، وليس كذلك الشعر ، لأنه يتبع الوزن ، وينقاد إلى ماتقتضيه القافية . وصاحبه متساهلٌ فيما يخالف القياسَ ، مُسامِحٌ بما لا يُسمعُ به نترسًا ولا خطيب . فإن قيل : إذا كان النثر في أعلى طبقة من البلاغة خنوه من سبب

يحسنه ، واكتفائه ببلاغته وتأليفه المخصوص ، فما يمنع أن يكون الشعرُ أفضل من أجل أنه لو قدر أن كلاماً منشوراً بلغ الغاية من البلاغة بنفسه وتأليفه ، ونقل على صورته إلى الموزون لصار أفضل من حالته الأولى ، لجمعه بين بلاغته ، وهو نثر ، وما اكتسبه من تحسين الوزن ، لاسيما ، ولا منزلة من البلاغة في غير الشعر إلا ونقلها إلى الشعر ممكن .

قلنا : هذا صحيح لا يصح ؛ لأن الكلام البليغ نمتط من التأليف ، وضرب من الترتيب ونقل الشاعر قول علي بن أبي طالب رضى الله عنه : « قيمة كل امرئ ما يحسن » ، فقال :

فبالأسمى دغسى أغالى بقيمتى فقيمة كل الناس ما يحسنونه

والنقل فإنه وإن كان قد أورد المعنى في نصف بيت على سبيل التضمين والاهتمام ، لم يأت بما ينسب إليه إلا لفظاً بدله وزاده لإقامة الوزن ، والذي طبعه سليم ، وحسنه مستقيم لا يقتصر إلى تعريفه فرق ما بين الكلامين ، إلا أن هذا الشاعر زاد فاءً في قوله : « قيمة » وهى مستكرهه ثقيلة في هذا الموضع ، وأبدل بلفظة امرئ لفظاً « الناس » ، وامرؤ أعذب وألطف ، ونقله قوله : « ما يحسن » إلى قوله : « ما يحسنونه » . والجمع بين هذين التونين وليس بينهما إلا حرف ساكن ، والساكن لا يعتد به مستوخم .

وفي هذا دلالة على بطلان نقل المنشور إذا علت طبقتة في البلاغة إلى المنظوم ، وهو على الصورة التى كان عليها في المنشور . وهذا في الوجيز اليسر ، فكيف بالمسهب الكبير الذى يحتاج فيه إلى التبديل والتغيير . ولولا خوف التطويل لأتينا بأمثلة من النثر والنظم . والذى أوردناه كفاية في مناقضة من ذهب إلى تفضيل النظم على النثر .

وأما المراتب التى تنقسم إليها صناعة الكتابة فخمسة عشرة مرتبة وهى : الوزارة ، والتوقيع ، والرسائل ، والخراج ، والضياغ ، وبيت المال ، والخزائن ، والنقبات ، والجيش ، والزمام ، والبريد ، والمظالم ، وكتابة القضاء ، والقص ، وكتابة القواد والأمراء ، وكتابة المعادن .

وقلنا فيما سلف إن اسم الكاتب إنما يقع في الحقيقة على الكاتب المستقل بجميع آلتها المحيطة بكلية أدائها ، لا من تعلق منها بالسبب المنصرم ، واستند إلى الركن المتهدم .

وينبغي لمن تمسك بجبلها وأحب أن يكون من صرحاء أهلها ان يتحلى بخلية فصلها ،
وصبر على المشقة في اجتياز مداها ، ولم يقتصر على اسمها دون معناها لتحصل له حقيقة
ما تنسب إليه ، ولا يكون دعياً ملصقاً ، ويفوز بمعنى ما يُسمى به ، ولا يكون صفرأ
منه مُملقاً . فإن عجز عن استتمامها ، وقصر عن استيفاء أقسامها ، فلا يقف في الفن
الذي يعتزى إليه من فنونها دون غايتها ، ولا يرضى بالخروج من خاصته إلى عامتها .

وقد مثلت الحكماء الملك وأعوانه بالنفس والأعضاء ، فقالوا : مثال الملك مثال
النفس التي تسوس جميع الجسد ، ومثال الخدم مثل الأعضاء التي تخدم النفس .

وقسموا الخدم بحسب انقسام الأعضاء . فقالوا : إن منهم من يخدم الملك خدمة
القلب للنفس التي هي التفكير ، وإجالة الرأي ، وهذا عمل وزير السلطان الذي يستعين
بآرائه في مصالح المُلك ومنهم من يخدم الملك خدمة اللسان للنفس التي هي عبارة عن
الضمائر ، وإخراج الصور الذهنية إلى الخاطبين . وهذا عمل كاتب الملك ، الذي يأمر
عنه ، وينهى ، ويخاطب . ومنهم من يخدم الملك خدمة اليد للنفس التي هي تناول
الحاجات ، وتقرب ما يحتاج إلى تقرّبه ، وتدفع الأذى عن الجسم ، والمغالبة ، والمباطشة
إذا احتيج إليهما ، وهذا عمل أجناد الملك وأنصاره ، وخدامه الذين يقومون بمرافق
الملك . ومنهم من يخدم الملك خدمة الرجل للنفس التي هي السعى والحركة إلى المواضع
التي تستدعي حاجاته ومهامه . وهذا كرسل الملك . ومنهم من يخدم الملك خدمة البصر
للنفس التي تلحظ له الأشياء وتحفظها ، وتشاهدها كأمناء الملك وعماله . ومنهم من
يخدم الملك خدمة السمع للنفس التي هي آتية بالأصوات والأخبار على حقائقها ، وهذا
عمل أصحاب البريد الذين يفحصون ما غاب عن الملك ويظالمونه به .

وهذا دالٌّ على أن أهل هذه الصناعة هم المتحملون لمعظم شئون الملك ، والقائمون
بجمهور أموره ، ولا ينبغي لأحد منهم أن يتعرض لنوع من أنواع خدمته إلا بعد مهارته
في هذا النوع ، وارتياضه به ، وثقته بنفاذه فيه . « (١) .

ويعرض لرتبة الوزارة فيقول :

« هي الرئاسة ، وصاحبها يجب أنه يكون قيماً بجميع أنواع الكتابة ، وأقسامها ،
علماً بشروطها وأحكامها ، لأن كل ناظر في فن من فنونها إليه يرفع ما ينتظر فيه ، فلا

(١) ص ٢٢ أ من اعنطوط .

يجوز أن يكون جاهلاً بشيء منه . وأن يكون نافذاً في علوم الدين ، لأن الدين أساسُ الملك ، والذي يُبنى عليه أمره . وأن يكون فاضلاً العقل ، أصيل الرأي جيد الرؤية ، ثاقب البديهة ، جميل الصفح ، مترفعاً عن المباهاة برئاسته ، والمطاوله بمنزله ، عفيف [القلب] ، شريف النفس وقورا ، نصوحاً ، صموتاً عن الخوض فيما لا يعنيه ، كثير الأناة ، منتهزاً للفرصة متصرفاً لبلاغتي المنطق واليد ، وفاضل الطبع ، مجبولاً على العدل ، عالي الهمة ، صادق اللهجة متأنياً في وعيده ، يُلاينُ أهل الطاعة والانقياد ، ويغلظُ على ذوى المعصية والعناد ، لا يُسرِعُ إلى العقاب متهوراً ، ولا يطمعُ في إغفاله مُضجعاً ، آخذاً بالقوى عادلاً عن الهوى ، لا يشقى به الحق ولو كان عدواً ، ولا يسعد به المبطل وإن كان ولياً . سهل الحجاب ، مفتوح الباب ، لطيفاً باللَّهيف المظلوم ، عسوفاً على الغشوم الظلوم ، ومحياً للخير ، مستكماً لشروط المروءة وأقسامها في سعة المنزل والطعام ، وجودة الفرش والثياب ، وعطر الرائحة ، وفراة الدواب ، وكثرة الأصحاب ، من غير مبالغة تطغى وتزد هي ، ولا تقصير يُعْضُ ويُغمض ، منتجنباً الغضب ، قليل اللهو والطرب ، مدارساً للتجارب ، مُلابساً للنواب ، عارفاً بتصرف الأحوال ، عارفاً بوجوه الأقوال ، ومصالح الأعمال ، مستوفياً لحقوق السلطان من غير حيف على معامليه ، ورعيته ، معتمداً الإنصاف لهم ، والانتصاف منهم مقدماً أهل الفضيلة والدين والغناء ، مستكفياً للكفاة ، عارفاً لذوى البيوتات والرتب أقدارهم ومنازلهم ، مُنزلاً لهم بحيث يستحقون منها ، بصيراً بمكايد الحروب ومهاجمة الخطوب ، وتديير الدولة ، وسياسة الرعية ، عارفاً بما يعتمد كل طبقة منها من عسْفٍ ولطف ، وخشونةٍ ولين ، وما يصلحُ عليه من السير المتضادة ، لا يشغلُهُ كبيرُ أمر عن صغيره ، مقدماً للحزم ، عاملاً بالعزم ، ناظراً في العواقب ، مخلص النية ، صحيح الطوية حارساً .

وسنذكر في الباب العاشر ما يحتاج إليه كافة الكتاب من الاعتقاد والتخلف والعمل إن شاء الله تعالى .

التوقيع : صاحب التوقيع هو يدُ الوزير ونائبه ، ومتولى العرض على الخليفة إذا غاب ، أو إذا لم يكن للسلطان وزير منصوب ؛ فالواقع يدخُلُ مدخله ، وينبغي أن يكون مستقلاً بكل ما يستقل به الوزراء ، ماضياً في جميع علوم اللواوين على اختلافها ، - عارفاً بأوضاعها وبوجوه الأموال وتتميرها ، وصالح الرجال وسياستها .

* * * *

فأما صاحب التوقيع فلا يحتمل تقصيره في شيء بالجملة لأنه يد السلطان ولسانه ، إذا علم منه أصحاب الدواوين غبارة ، وتخلفاً وجهلاً بما يُخرجونه أو غسلاً في المؤامرات ووروا عما يؤديهم إلى الارتفاق .

وينبغي أن يكون مع تحصيل هذه الأدوات كلها حسن الخط ، سريع البديهة ، ديناً أميناً ، نزه النفس ، لا يخرج عما يؤتمر به ، ولا يتعداه لغرض من الأغراض كلها .

الرسائل : صاحب هذه الرتبة هو لسان الملك الناطق بحجته ، المترجم عن عقله ومقالته . وهو حلية المملكة وزينتها ، يرفع ذكرها ، ويعلى قدرها ، ويعظم خطرها ويذل على فضل ملكها ورئيسها . وهو المتصرف عن السلطان في الوعد والوعيد ، والترهيب والترغيب ، والاعتماد والإذمام ، واقتضاء المعاني التي تُقر الولي على ولايته وطاعته وتبعده العدو العاصي عن عداوته ومعصيته .

وينبغي أن يكون قيماً بكل مايشتمل عليه كتابنا هذا من الآداب الأخرى التي تؤخذ من مواضعها .

ومتولى الرسائل [ينوب مناب الوزير] إذا لم يكن للسلطان صاحب توقيع ينوب منابه ، ويكفي فيما يتولاه .

ويجب أن يكون موجزاً في موضع الإيجاز ، مطنبا في موضع الإطناب ، حتى إذا وقع جمع المعاني وأجملها ، وإذا كتب بسطها وفصلها .

وهو يدرس طبقات الكتاب ، ويتقدمهم بالفضائل التي ذكرنا في الباب الأول من هذا الكتاب . وبما خص به من وقار العلم ، وفصل الحكم ، ورجاحة الفهم ، وصواب المنطق ، والتميز عما في الطبقات الأخر من الطيش ، وخفة الأحلام ، وزلل اللسان .

وقالت الحكماء : « الكتاب كالجوارح ، كل جارحة منها ترفد الأخرى في عملها . وكاتب الرسائل بمنزلة الروح المشاركة للبدن المدبرة لجميع جوارحه وحواسه . » . وهذا تمثيل صحيح ، لأن هذا الكاتب هو الذي يمثل لكل عامل في تقليده مايعمل عليه ، ويتصفح مايرد منه ، ويصرفه بالأمر والنهي على مايرى إلى استقامة ماعلق به . وهو يحتاج إلى أن يكون بين يديه كتاب يعينونه في الإنشاء ، وآدابهم كآدابه .

وأما آداب الصناعة والسياسة (التي يفتقر إليها كاتب الرسائل) ، فقد استوفينا القول عليها في البابين التاسع والعاشر من هذا الكتاب . والله الموفق للصواب . بحقه وكرمه .

★ ★ ★ ★

الباب الثاني في البلاغة وأقسامها

البلاغة : هي عبارة عن الصور القائمة في النفس بمعان جامعة لتلك الصور ، تُحدِّدُ بها وألفاظ مطابقة لتلك المعاني مساوية لها .

ولصعوبة المدام في تركيب الكلام من ألفاظ ومعانٍ مشتملة على الصنعة التي وصفناها قلَّ البلغاءُ ، وصارت البلاغة صناعةً تخصُّ قوماً دون قوم . ولو كانت البلاغة ، إنما هي العبارة عن هذه الصور بحصر كلِّ مُعبِّرٍ تساوى الناسُ في حيازة فضيلتها ، ولم يكن لأحدهم مزية على الآخر فيها ، ولكن أكثرهم يعدلُّ عن طريقها من وجهين . أحدهما أن يأتي بألفاظ عامية مبتدلة ، سخيفة النسيج ، لا تدل على المعاني في أول وهلة ، والأخرى أن تكون الألفاظ مكررة بأعيانها ، أو مترادفة ينوب بعضها عن بعض في الدلالة عن المعنى المراد . ويؤخذ الطريق إلى الإبانة عنه بجزء منها . على أن استعمال الألفاظ المترادفة أيسر قبلاً من استعمال الألفاظ المكررة لما تفيده المترادفة من توكيد المعنى . وفي التنزيل العزيز : ﴿ ومن الجبال جددٌ بيضٌ ، وحمراً مختلف ألوانها ، وغرايبٌ سود ﴾ والغريب هو الأسود . وقال ذو الرمة :

لياء في شفيتها حوةٌ لعمسٍ وفي اللقاة وفي أنيابها شنبُ

ولعمسٍ وحوةٌ مترادفة ، لكن اختلف اللفظان . ويجوز أن يكون لما ذكر الحوة خشي أن يتوهم السامع مُراداً قبيحاً ، فبيّن أنه لعمسٍ . واللعمسُ حسنٌ في الشفأة . وأمثال هذا كثير . وإنما يجبُ تجنُّبُ الألفاظ المترادفة في المواضع التي تقتضي الإيجاز والاختصار ، ولا يحسنُ فيها الإطالة والإكثار كمخاطبة الأعيان من الرؤساء الذين لا يجوز أن تشغل

أسماعهم بما يقطعهم عن أمورهم المهمة ، ولا أن ينفق زمانهم فيما همهم مصروفةً إلى مطالعةٍ غيره .

وهذه الطبقة من الناس لا يجوز الإقدام عليهم بمخاطبة ولا مكاتبة إلا بعد المعرفة بترتب الألفاظ والمعاني ، ليخصها منها بما تقتضيه منزلتها . ومخاطبة أهل الذكاء والفتنة الذين يستدلون بصدور الأمور على أعجازها ، ويتطرق فكرهم من أوائلها إلى أواخرها ، ويكون الإيجاز عندهم أوقع من الإطناب ، والاختصار أنجع من الإسهاب .

فأما مواقف الخطباء بين العامة وفي الأندية الحافلة ، والعهود السلطانية والمكاتبات في [الأمور] والمخاطبات المبنية على إيصال المعاني إلى من لا يتصورها بأدنى إشارة ، وما جرى هذا المجرى ، فإن الإطالة فيها وترديد الألفاظ المترادفة داخل في عقد البلاغة ، وغير خارج عنه .

فأما البلاغة عند العرب فهي الإشارة إلى المعنى بلمحة تدل عليه ، لأنهم يستحبون أن تكون الألفاظ أقل من المعاني في المقدار والكثرة . قال بعضهم يصف كلاماً : كأن ألفاظه قوالب لمعانيه . يريد أنها مطابقة لها غير زائدة عليها ، ولا ناقصة عنها . وهذا هو الطريق القاصد إلى البلاغة ، وعليه يجب أن يعتمد ، إلا في الأماكن التي يحسن بها الإطناب .

وحكى عن جعفر بن يحيى البرمكي ، وكان من بلغاء عصره أنه قال : إذا كان الإيجاز كافياً كان الإطناب عيباً ، وإذا كان التطويل واجباً كان التقصير عجزاً .

وعلى هذا الترتيب تنقسم البلاغة إلى ثلاثة أقسام :

إشارة دالة ، ومساواة لفظ بمعنى ، واسهاب تقتضيه الحال .

وبين البلاغة والإبانة فرق ذكره أفلاطون وهو أن الإبانة وصف الشيء بأخص الألفاظ وأجزها ، وترتيبها في القول على مراتبها فيه ، واعتماد المتكلم أن يكون كلامه كالعقاب لمعناه .

والبلاغة وصف الشيء بالغاية مما يليق به ، وتوثق حسن مافي اللغة من اللفظ وأقربه إلى إلهام المستمعين .

ولفضيلة البلاغة إنما يعوزها ويفوز بها من بعد خاطره في تأليف الكلام مخاطباً ،

ومكاتباً . لأن في المخاطبة والمكاتبة موضعاً تكون الحاجة فيه إلى البلاغة بوزن الحاجة إليها في الآخر ؛ فأما من استقل بإحدى الحالين وعجز عن الأخرى فهابطٌ عن الدرجة العالية التي توجب حيازة الفضيلة .

وقد حُدِّدت البلاغة بحدود ، ورسمت برسوم رأينا أن نورد بعضها على سبيل التحلية والترصيع :

فمنها قولهم : البلاغةُ إيصال المعنى إلى النفس في أحسن صورة من اللفظ . والبلاغةُ حسنُ اللفظ مع صحة المعنى . والبلاغةُ حسنُ العبارة مع صحة الدلالة . والبلاغةُ أن يبلغ السامع أقصى نهاية المعنى بالإبانة له والإفصاح عنه . والبلاغةُ الإيجاز مع الإفهام ، والتصرف من غير إضجار . والبلاغةُ القوةُ على البيان مع حسن النظام . والبلاغةُ إدراك المطالب ، وإقناع السامع .

وقال اليونانى : البلاغةُ تصحيح الأقسام ، واختيار الكلام .
وقال الرومى : البلاغةُ حسن الاقتضاب عند البداهة ، والغزارة يوم الإطالة .
وقال الهندى : البلاغةُ وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة ، وحسن الإشارة .
وقال الفارسى : البلاغةُ أن تعرف الفصل من الوصل .
وقال العربى : البلاغةُ أن يكون اللفظ محيطاً بمعناك ، مجلياً عن معقوك .
وقال معاوية لصُحارِ العبدى : ماهذه البلاغةُ التي فيكم ؟ . قال : شيء نجيش به صدورنا ثم تقذفه على ألسنتنا .
وقال الأصمعى : البليغ من طبَّق المفصل وأغناك عن المفسر .
وقال الجرجانى : البلاغةُ الإيجاز والاطناب .
وقال ارسططاليس : الزيادة في المنطق بعض منها .
وقال خالد بن صفوان : أحسنُ الكلام ماقلت ألفاظه وكثرت معانيه .
وقيل : أحسنُ الكلام ماشوقٌ أوَّل استماعٍ آخره .
وكلمَ رجلٌ سُقراط بكلامٍ طويل ، فقال : أنساني أول كلامه بُعد العهد به ، وفارق وهى .

وقيل : قليلٌ يُشتهي خبيرٌ من كثيرٍ يُحتوى .

وروى عن النبي ﷺ : « رحم الله عبداً أوجز في كلامه واقتصر على حاجته .

وقيل : لا يستحقُّ كلامٌ اسم البلاغة حتى يسبقَ لفظه معناه ، ومعناه لفظه ، فلا يكونَ لفظه أسبقَ إلى سمعك من معناه إلى قلبك .

ولما كانت البلاغةُ كما قلنا فيما سلف إنما هي : العبارةُ المركبةُ من الألفاظِ والمعانيِ وجبَ أن تتكلمَ على الألفاظِ البسيطةِ الجاريةِ مجرى الموضوعِ لها بمفردها . وما يلزم من تصحيحها على شرائطِ اللغة . وما ينبغي من تخييرٍ ما يقع منها في الصناعة ، وعلى المعانيِ الدالة ، والحالة منها محلّها ، بمجردها . ومنزلتها من الألفاظ ، وما يتعين من تهذيبها وتحريرها . وعلى الألفاظِ المركبةِ منها التي هي ذات البلاغة . وتعرّف الطريق الأqvسد إلى تركيب المعنى التركيب الذى ينظم في سبيلك البلاغة . ونحن قائلون في ذلك بحسب الاختصار إن شاء الله .

قول في الألفاظ البسيطة :

الكلام في الألفاظ البسيطة ينقسم إلى قسمين :
أحدهما — أحكامها واستعمالها على أحكام اللغة .
والثاني — تخيير ما يقع منها في صناعة الكتابة .

فأما أحكامها واستعمالها على أقسام اللغة ، فإنه ينقسم إلى قسمين :
أحدهما يحلُّ من الصناعة محلُّ المادة ، والآخر يحلُّ منها محلُّ الأداة . فأما الذى يحلُّ منها محلُّ المادة فهو بسائط اللغة من الأسماء والأفعال والحروف . والكاتب يحتاج إلى التوسع فيها ، والمعرفة بسنهلها ووعرها ، ومن تناولها من العلماء بها ، والكتب الموضوعة فيها الصحيحة النقل حتى يسلم من الدليل والتصحيح وتقليد العامة فيما وضعته على غير موضعه ، والمهارة في معرفة مشترك الألفاظ ومتواطئها ومشتقها ، ومتباينها .

فأما المشتركة فهي التي تدلُّ على أسماء متباينة الذوات كلفظة « العين » التي تدلُّ على العين المبصرة ، وعين الماء ، وعين الذهب وغير ذلك .

وأما المتواطئة فهي التي تدلُّ على أشياء متفقة الذوات كلفظة الحيوان الدالة على الإنسان والفرس ، وكلِّ حيٍّ .

وأما المشتقة فهي التي اشتقت من معانيها كفصيح من الفحاحة ، وعالم من العلم .
وحكيم من الحكمة .. ونحوه١ .

وأما المتباينة فهي التي يدلُّ كلُّ منها على خلاف مايدلُّ عليه الآخر .
وأما المترادفة : فهي التي يدلُّ لك واحدٌ منها على مثل مايدلُّ الآخر نحو|قطر، وغَيْث ،
ومطر«^(١) .

وبعد حديثه|عن الألفاظ يتحدث عن آلات الكاتب ، وأدائه من معرفة علم النحو
وغيره من العلوم كعلم البيان والبلاغة ، ويعرض لأقسام البلاغة فيعقد الباب الثالث في
أقسامها الفرعية ، يتحدث فيه عن المجاز ، والاستعارة والتشبيه ، وأبواب البديع
كالسجع ، والجناس ، والتألف ، والتميم ، والبيان .

ويبدو أنه يحتذى أو يتأثر كثيرا بما كتبه الرماني في « النكت » عن أبواب البلاغة
العشرة ، بالإضافة إلى حديث الخاتمي في حلية المحاضرة والحالي والعاقل .

هذا وقد عقد الرماني باباً في حسن البيان ، وجاء ابن خلف بمجمل كلام الرماني
وأضاف إليه تعريفات ، في تحديد المصطلح^(٢) .

والإشارة ، إلى غير ذلك من الأبواب التي تناقلها علماء البديع منذ القرن الرابع
وحتى عصره .

ولاشك أنه متأثر بالجو العام للدراسات البلاغية في القرن الرابع ، فهو يسلك في
حديثه عن البلاغة مسلك كثير منهم ، ولا يدخل في تقسيمات وتفريعات من جاءوا بعد
ذلك في أخريات القرن الخامس وفي القرن السادس من المشاركة خاصة .

ويعقد باباً في النظم ، يتحدث فيه حديثاً مخالفاً لحديث عبد القاهر . يقول :

« قولٌ في النظم »^(٣)

« نظم الكلام هو تأليفه على وضع الاتساق وتساوى الأقسام واعتدال الفصول
والأجزاء ، لأن الكلام قد يُؤلَّف مخلطاً غير متناسب ولا مقسَّم ، فلا يستحق أنسم
النظم ، وإنما يستحق هذا الاسم إذا كان مرصوفاً مرتباً ، ذاهباً في مذهب الانتظام
وموازنة الأقسام والنظم على خمسة أضرب : نقل ، وفصل ، ووزن ، وقلب ومثل .

(١) المخطوط ص ٣٢ ب .

(٢) المخطوط ص ٧٢ أ - ب .

(٣) المخطوط ص ٧٥ .

فالنقل في الكلام بالتقديم والتأخير . وهو ينسب من ستة وجوه :
الأول أن تكون الحاجة إلى ذكره أشد ، والعلم به أهم كقولك : قطع اللص الأمير .
والثاني أن يكون التأخير أليق بما اتصل به من الكلام ، كقوله تعالى : ﴿ وتغشى
وجوههم النار ﴾ فهذا أليق بما أخذه وهو قوله : ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ . وهو
أيضا أشكل بما قبله لأن قبله مقرنين في الأصناف .
والثالث أن يكون الأول أعرف من الثاني وذلك في الإخبار والصفات .

وأما الإخبار فكقولك : زيد قائم معي . إذ بدأ بذكر زيد ليطلع النفس بذكر
ما يعرف إلى الأخبار عنه بما لا يعرف ... إلخ » .

وبذكر أشياء أخرى تعطى اقناعاً بأن الرجل ينطلق من تصور شيء لتصور عبد
القاهر في نظرية النظم وإن كانا يشتركان في بعض الظواهر الأسلوبية .

وأورد ابن خلف في آخر أبواب الكتاب نماذج من المراسلات المختلفة ، والكتب
والعهود الصادرة عن الخلفاء الفاطميين ، مكتوبة بقلمه ، وصادرة بأسلوبه وقد بدأها
بالافتتاحية من البسملة والحمد ، والصلاة والسلام على رسول الله وعترته واختصاصي
أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والإفاضة في الثناء عليه ، وأظهار مآثره في الدين ثم الدعاء
للخليفة الفاطمي والنص على أن جده علي بن أبي طالب إلى غير ذلك مما اختصت به
المكاتبات الفاطمية لتثبيت دعواهم ، واقامة نسبهم إلى علي بن أبي طالب وزوجه فاطمة
الزهراء ابنة النبي ﷺ والنص كذلك على الوصية والولاية وانتقالها في الأصحاب حتى
خلفاء الفاطميين :

والكتاب عظيم الفائدة جليل القدر بما حوى من نماذج لكتابة العصر ، ورسوم
الكتاب وطرائقهم في الكتابة ، مع بعض نماذج ووثائق تلقى أضواء كثيرة على النظم
الإدارية في الدولة الفاطمية . فضلاً عما جاء به من أبواب متعلقة بالبيان والبلاغة .

وقد أفاد من الكتاب جماعة ممن تناولوا الموضوع من بعده ، ونقلوا عنه ولم يشيروا أو
نقلوا كثيراً وأشاروا كثيراً ، وأهملوا الإشارة أيضاً كثيراً مثل القلقشندي في صبح
الأعشى الذي حفظ لنا كثيراً من فصول « مواد البيان » وأبوابه ، ينقل عنه فيقول قال
علي بن خلف ، أو قال علي بن خلف في مواد البيان ، أو قال في مواد البيان ... إلخ ،
وينقل أحياناً دون إشارة ، ومقارنة الكلام بما جاء في مخطوط كتاب مواد البيان نجاهه

كلام ابن خلف نفسه يكاد لا يتغير إلا في بعض اللفظ ، وقد يأتي بمضمون أقواله دون لفظه .

وهكذا تستطيع أن تقول إن مواد البيان كان دعامة هامة لصبح الأعشى وكان منهجه سيلاً هادياً سار عليه القلقشندى في كتابه الكبير .

قانون ديوان الرسائل (١)

لعلي بن منجب الصيرفي

وهذا الكتاب لعل بن منجب يعد رسالة صغيرة تلخص مابسطه ابن خلف في كتابه السابق عرضه .

يقول في مقدمته بعد الديباجة :

« ولما رأيت أن أولى الفطر الصحيحة ، والعقول اترحيحة قد سبقوا إلى النظر في سائر العلوم ، ووضعوا فيها المصنفات ، ونظموا ذكرها في الكتب المتونفات ، ثم انتقلوا عن ذلك إلى قوانين الأشياء فقررروا في كل منها ما كان أصلاً يعتمد عليه . وبهواً عما كان فساداً لنظامها أو أدى إليه . وخالفوا بين أحكام تلك التصنيفات ، لاختلاف الأزمنة وتباين البلاد والأوقات . فوجدتهم قد صنّفوا في كتابة الخراج كتبا كثيرة ، وعنوا بكتابة الجيش عناية كبيرة فألف كل من العراقيين والمصريين في ذلك ما وصلت إليه طاقته ، واقتضاه ما أوجبه وقته ، والبلد الذي يختنه .

فأما صناعة الشعر وذكر بديعه ، وسائر أنواعه ونقاسمه شد أنثر على منهم فيه المقال ، وتوسع في تصنيفه وأطال .

ورأيتهم أهملوا الكلام في الكتابة الجليلة قدرا ، انسيبه ذكرا ، الرفيعة شأنها ، العلية مكانا ، التي هي كتابة حضرة الملك المشتملة على الإنشاء إلى ملوك الدول ، والمنكاتب عنه إلى من قل من الأمم وجل . وكيف يجب أن يكون متوليا وما يحصه من الأخلاق والأدوات وما يجب أن يكون فيه من الفضائل ، وأن يحصيه من القبايح والترذائل ، وكيف ينبغي أن تكون أمور أتباعه ومعينيه ، وأتى الحالات ينبغي أن يكون عليها ديوان الرسائل الذي يتولاه وينظر فيه . فلم يذكروا من ذلك دقيقا ولا حميلا (٢) ، ولا شرحوا منه كثيرا ولا قليلا . ومن ألم منهم بصناعة انكثاة فإنما انكثاه على قوانين بعد

(١) شرح الكتاب عناية وتفريق على مبحث مختصر سنة ١٢٠٥ هـ .

(٢) يدور في هذه المسائل : هل يصح أن يكون ابن خلدون أصليا ؟ أم لا ؟ أم لا ؟ أم لا ؟ وكيف ويرمى به ؟؟

أمورها ، ولم يلم بشيء مما تركوا . وأكثرهم حشاكته الموضوعة لذلك باللغة والنحو والتصريف فخرجت عن الغرض المقصود ، لأن لكل نوع من هذه الأنواع كتباً مفردة تستغرق ما يوتى به في هذه المؤلفات ، وتشتمل على أضعافه فالتماسها من هناك أولى ، وطلبها من معدنها أجدر وأحرى .

ولما وجدت المتقدمين قد تركوا ذلك وأهملوه ، وأضاعوه على مر السنين وأغفلوه ، علمت أن الله تعالى قد ذكر فضيلة تصنيفه وإظهاره ، ومغبة بروزه إلى الوجود واشتباره لهذه الأيام الزاهرة ، العادلة المضيئة السيدية الأجلية الأفضلية ، التي رفعت الجور عن الأمم ، وملكنت فضيلتي السيف والقلم . واستولت على غايات المفاخر ، واستبدت بغرر المناقب والمآثر . ووجب أن تنتج فيها الأفكار العقيمة ، وتظهر لها أسرار الفضل المكتومة ، فاستخرت الله تعالى وتوكلت عليه ، وعولت على تصنيف هذا الكتاب وإيداعه ما تصل القدرة إليه من أنواع الترتيبات وفنون الفضائل وسميته بـ « قانون الرسائل » وجعلته أبواباً وفصولاً ، وبينت الأمر فيه على ما يقتضيه حكم البلاد المصرية ، والأمر المتعارف فيها الآن وغيره من الأوقات . والله المستعان ، وهو حسبي ونعم الوكيل . « (١)

فصل في الغرض المقصود بهذا الكتاب

الغرض بهذا الكتاب أن يكون قانوننا يعرف به من يجب أن يولى رئاسة ديوان الرسائل وتقدمته ، ومن يجب أن يكون تلوه في المنزلة من المستخدمين فيه من الكتاب واحداً واحداً من الخدام الذين لا غنى عنهم ، والصفات التي ينبغي أن يكون عليها كل واحد منهم ، والطرق التي إذا سلكت في هذا الديوان أدت إلى ضبط أموره وأمن معها اختلال شيء منها ، وفساد يدخل عليها ، وسهل وجوده ما يلقي من علم أمور تقادم عهدا وبعدت أزمته . ويجب أن يكون هذا الكتاب مخلداً في ديوان الرسائل يقتدى به كل من يخدم فيه ، ويستضيء بهدايته ، ويتخذ أمثاله ، وأن يؤخذ المستخدمون في الديوان بفهمه ويحفظه .

* * * *

(١) قانون الرسائل ص .

فصل « في الأحوال التي يجب أن يكون عليها رئيس هذا الديوان
وما ينبغي أن يكون حاصلًا عنده من العلوم والمعارف والأخلاق
وما يرجى من الانتفاع بالمصالح ونفسي من ضرر عنده »^(١)

أول ما يجب أن يكون رئيس ديوان الرسائل ومتولى الكتابة عن حاضرة الملك ذا دين
وورع وأمانة ، فإنه بمنزلة كبيرة ، ورتبة عظيمة يتحكم بها في أرواح الناس وأموالهم لأنه
لو زاد أدنى كلمة أو حذف أيسر حرف ، أو كتبت شيئاً قد علمه ، أو تأول لفظاً بغير
معناه أو حرفه عن جهته أدى إلى ضررٍ من لا يستوجب الضرر ، ونفع من لا يستوجب
النفع ، بل ربما ضررٌ من يجب نفعه ، ونفع من يجب الإضرار به ، وموه على الملك حتى
يشكر المذموم ويذم المشكور ، فمتى لم يكن له دينٌ يحجزه عن ارتكاب المآثم ، وورع
يزعه عن احتقاب الخاتم . وأمانة لا تمتد يده بها إلى رشوة تُحسن له الدخول في
المسالك المذمومة ، ونزاهة نفس تصدقه عن الشهوات المؤرذة له إلى النوارذ المنكروهة .
وقعت الدولة منه في ورطة شنعاء ، وداهية دهياء . وكان الضرر بمكانة أكثر من
الانتفاع ، ولم يكن إلا وبالأعلى الملك ، لأنه يحسن له غير الحسن ، ويقبح له غير
القبیح ، ويزكي من لا خير فيه ، ويذم من لا ثمدٌ مساعيه . ويضع الأشياء في غير
مواضعها ، فيهد بقلمه مالا تبنيه السيوف والرماح في السنين المتطاوية .

ويجب أن يكون دينه الإسلام لأنه من الملك بمنزلة الوزير ، والوزير مشتق من
المؤازرة والمؤازرة هي المساعدة والمعونة والمظاهرة ، ولا يجب أن يتخذ هذا الأمر من
يخرج عن دين الإسلام لقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى
أَوْلِيَاءَ ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُمْ مِنْكُمْ ، فَإِنَّهُ مِنْكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ » . فأول ما يتجنب الملك من نهى الله جل جلاله ، وتقدست أسماؤه عن اتعاده
وليا ، بل الواجب على الإطلاق ، وخاصة بحكم الوقت الحاضر أن لا يُقبل على أسراره
من يخالف شريعة الإسلام لقرب دار العدو ، خذله الله وأباده .

وإن من الغفرة التي جُبل كلُّ أحدٍ عليها حين تنزل شحوص من الناس إلى من يرى
رأيه ويدين بدينه . وهذا أمرٌ يجده كلُّ أحدٍ في نفسه .

(١) المصدر نفسه ص ٩٤ .

ومع ذلك فإن كاتب الرسائل أحوج الناس إلى الاستشهاد بكلام الله تعالى في أثناء محاوراته وفصول مكاتباته ، والتمثل بنواهيه وأوامره ، والذكر لقوارعه وزواجره . وهو حلية الرسائل وزينة الانشاءات ، والذي يشدُّ قوى الكلام ، ويثبت صحته في الأفهام ، فمتى خلث منه كانت عاطلةً من الخاسن ، عاريةً من الفضائل ، لأنه الحجة التي لا تدحض ، والحقيقة التي لا ترفض . فإذا كان الكاتب من الذمة لم يكن لديه من ذلك شيء ، وأنت كتبه مغسولةً من أفضل الكلام ، وخاليةً مما يتبرك به أصل الإيمان والاسلام ، ومقصرة عن رتبة الكمال ، ومنسوبة إلى العجز والإخذال . فإن تعاطى الكاتب الذمى حفظ شيء منه وكتبه ، فقد أويحت حرمة كتاب الله تعالى وانتهكت ، وأمكن منه من يتخذ هزواً ولعباً . والله سبحانه يقول : ﴿ في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون ﴾ . فقد وضع أنه لا يجوز أن يرقى إلى هذه الرتبة إلا مسلمٌ . ومع ذلك فيجب أن يكون متمذهباً بالمذهب الذي عليه الملك ليكون أبقى جيباً وأفصح غيباً . فإن المسلمين ، وإن جمعتهم كلمة الإسلام فقد اختص كل واحد منهم بمذهب يباين به بعضهم بعضاً حتى حدث بذلك بينهم من التباعد والتنافر . قريبٌ مما بين المسلمين والمشركون . فكما وجب أن يكون المؤهل لهذه الرتبة مسلماً كذلك يجب أن يكون على مذهب الملك الذي اختص به من بين مذاهب المسلمين ليكون مجتهداً في خدمته ، مبالغاً في نصيحته ، يمحضه الرأي عن صفو نية ، لا يخالطه كدر ، وخلص محبة لا يشوبه مذق . ويكون الملك قد أحسن لنفسه الاختيار ، وأجاد لئولته النظر ، وأراح نفسه من كلفة التحفظ منه والحذر له .

ويجب أن يكون من يختار لهذه الرتبة ممكناً من عقله ، فإن العقل أسُّ الفضائل وأصل المناقب ، ومن لا عقل له فلا انتفاع به . وكيف لا يكون كذلك وهو المستشار في كبار الأمور ، والمشارك في النظر في سداد الثغور . وإنما كلام المرء ورأيه على قدر عقله . فإذا كان تام العقل كامل الرأي وضع الأشياء في مكاتباته ومخاطباته مواضعها ، وأتى بالكلام من وجهته ، وخاطب كلُّ أحدٍ عن السلطان بما تقتضيه الحال التي يكون عليها ، فيشتدُّ ما كانت الشدة نافعة ، ويلين حين يكون إلى اللين محتاجاً ويوبخ من لا يقتضى فعله أكثر من التوبيخ ، ويدم من تعدى إلى ما يستوجب الذم ويأق بأصناف المكاتبات التي يقتضيتها اختلاف الحالات واقعة مواقعها ، صائبة مراميها .

ويجب أن يكون من البلاغة والفصاحة إلى أعلى رتبة وأسنى منزلة ، وبحيث لا يوجد

أحد في عصره يفوقه في هذا الفن ، فإنه لسان السلطان الذى ينطق به ، ويده التى بها يكتب . وربُّ كاتب يبلغ أصاب الغرض في كتابته فأغنى صاحبه عن الكتاب ، وأعمل القلم فكفاه إعمال البيضي القواضب . فإذا كان جيّد الفطرة صائب الرأى ، حسن الألفاظ تتأتى له المعانى الجزلة ، فيجملوها في الألفاظ السهلة ، ويختصر بحيث يكون الاختصار كافياً ، ويطيل حين لا يجد من الإطالة بُداً ، ويَهْدُدُ فيملاً القلوب روعة ، ويشكر فيلقى على النفوس جَذلاً ومسرّة . ثم إن كتب إلى ملك كبير وذى رتبة خطير عظم مملكة صاحبه ، وفخّمها في معاريض كلامه من غير أن يوحى أن ذلك قصده ، واستصفى نية المكاتب ، واستجاب مودته في أثناء الخطاب ، وإن لم يظهر أن ذلك مطلبه ، بل يريد أن الحظ والنصيب الأوفى إذا تم ذلك معه .

وينبغى أن يكون مضطلعاً بفنون الكتابة ، عالماً بأصولها ، وفصولها ، مستقلاً بأعبائها يفوق في النهضة جميع المستخدمين معه والمعنيين له ، لأنه الأصل الذى هم فروعه والمقدم الذى تعرض عليه كتبهم وتأليفاتهم .

وهذا المقدم يجب أن يكون حافظاً لكتاب الله تعالى أو قيماً بقراءته إذا قرأه فإنه شديد الحاجة إليه كما تقدم بيانه ، ويكون حافظاً لأخبار الرسول ، والأئمة من ذريته صلى الله عليهم أجمعين ، قيماً بها أو بأكثرها ، راوياً لأخبار الملوك ، وأيام العرب ، ووقائعهم ، وأخبار العجم وسائر الأمم ، وما جرى في أيام الملوك الماضين ، وما حدث من وزرائهم وكتابهم ، وقوادهم وأخبارهم ، فإنه أحوج الناس إلى ذلك ، وربما دفعته مضايق الكتاب إلى الاستشهاد بشيء منه ، فمتى لم يكن لديه ملكة له ومحفوظاً عنده وقف وقوف المحم ، ولجلنج لجلجة المجمع .

ويجب أن يكون لديه شيء من معرفة الحلال والحرام ، ليكون واجداً له متى دُفِعَ إلى أن يسأل عنه .

ويجب أن يكون حافظاً للأشعار ، راوياً للكثير منها ، يستشهد بما غناه يحسن الاستشهاد به في بعض المواضع ، فإن للمنظوم من الهجة في النفس ، والواقع في القلب ما ليس للمثور ، وربما حلّ منه ما يحتاج إليه ، فأقْبَى به مشوراً في أثناء رسائله وطى إنشاءاته ، فكم من معنى بديع ، رائع قد حظى به المنظوم دون المنثور .

وإن كمل لأن يكون محسناً لتنظيم الشعر مجيداً فيه كان أجمل لصفاته ، وأكمل

دواته . ويجب أن يكون قد قرأ من العربية والتصريف واللغة أكثرها ، فإنه أحوج
لناس إلى هذه العلوم . »

ونكتفى بهذا الجزء من كتاب ابن الصيرفي ، وهو كما قلنا تلخيص شديد لما جاء في
كتب السابقين عن الكتابة والكتاب ، وأحسب أنه اطلع على كتاب ابن خلف ولكنه
كتم ذلك ، لأنه سار على نهجه وإن جاء مخلصاً ، ويعيب عليه الاطالة والافاضة فيما
يتصل بأدوات الكاتب ، وما ينبغي أن يحصله من المعارف والعلوم حتى يكون جديراً
بالكتابة للملوك والسلاطين .

ومهما يكن أمر هذه الكتب التي ألفت في الكتابة والكتاب ، وصنعة الكتابة فإن
الحديث عنها يؤدي إلى التعرف على أشياء كثيرة ، كما ألقينا في كلامنا عن « مواد
البيان » .

والمهم أن هذه الكتب ورسوم ديوان الانشاء ، وقوانينه أثرت بعد ذلك فيما ألف من
مؤلفات تتناول الموضوع نفسه في العصور التالية ، وعلى سبيل المثال في القرن السادس ؛
والسابع ، والثامن أمثال كتب ضياء الدين بن الأثير ، وشهاب الدين محمود ، وعماد
الدين بن الأثير .

والجدير بالذكر تلك المنافسة الشديدة بين الكتاب والشعراء ، والمناظرات العديدة
التي استهدفت بيان صنعة كل من الفئتين ، وميزة كل من الفئتين ، ولعل أكثر تلك
المناظرات ، وأعمقها ، وأكثرها بسطاً : وإيراداً للعديد من الجوانب للاحتجاج للكتابة
على غيرها من سائر صناعات الكلام وفنونه كالخطابة والشعر مأوردناه من قول علي بن
خلف .

ولعل دفاع ابن رشيقي في كتاب العمدة عن الشعر كان كذلك ضرباً من الرد على
أمثال ابن خلف ممن يفضلون الكتابة والكتاب على الشعر والشعراء .

سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي

قد يكون هذا الكتاب خارجاً عن موضوع الكتابين السابقين ، وهو الحديث عن الكتابة والكتاب ، لكنه لاشك قريب الصلة ، لأنه يعرض لصميم صناعة البيان وفصاحة التعبير التي يحرص كتاب الإنشاء عليها ، ويفردون لها الفصول في كتب صنعة الكتابة .

وربما كان الأجدد بالحديث عن هذا الكتاب تناوله من ناحية البلاغة ، أو عند الحديث عن البلاغة والنقد ، إذ الفصاحة شقٌّ من البلاغة ، أو تتبدل وإياها وتتنازعان مضموناً واحداً ، ومعنى مقاربا .

وعلى أية حال فإن ابن سنان حين أنف كتابه أطلق اسم الفصاحة على كل جوانب علم البلاغة أو معظمها .

يقول مقدماً للكتاب : « أما بعد فإنني لما رأيت الناس مختلفين في ماهية الفصاحة وحقيقتها » أودعت كتابي هذا طرفاً من شأنها . وجملةً من بيانها ، وقربت ذلك على الناظر وأوضحته للمتأمل . ولم أقل بالاختصار إلى الإخلال ، ولا مع الإسهاب إلى الإحلال . ومن الله أستمد المعونة والتوفيق .

إعلم أن الغرض من هذا الكتاب معرفة حقيقة الفصاحة ، والعلم بسرّها ، فمن الواجب أن نبين ثمره ذلك وفائدته ، لتقع الرغبة فيه . فنقول :

أما العلوم الأدبية فالأمر في تأثير هذا العلم فيها واضح ، لأن الزيادة منها والمكثنة نظم الكلام على اختلاف تأليفه . ونقده ومعرفة ما يختار منه مما يكره . وكلا الأمرين متعلقان بالفصاحة ، بل هو مقصورٌ على المعرفة بها ، فلا غنى للمتأمل الأدب عما نوضحه ونشرحه في هذا الباب .

ويجعل المدخل إلى معرفة أسرار الفصاحة ضرورة شرعية هي التعرف على حقيقة اعجاز كتاب الله « القرآن » . ويرى ضرورة أن يعرف الباحث في شأن الفصاحة شيئاً عن الأصوات ، وكنها ، وجوهرها ، وضيعتها ، باعتبارها ناتجة عن حركة عضوية في

جسم الانسان كما تصدر الأصوات عن تحرك واصطدام في غيره من الأجسام . والصوت هو جوهر الكلمة التي تعبر ، أو يعبر بها الانسان عن مراده . فيعقد فصلاً في الأصوات وفلسفتها^(١) ، والفرق بينها وبين الألوان ، أو التضاد في طبيعة كل منهما حيث أن الصوت عرض غير ثابت بينما اللون عرض ثابت .. ويتنبه إلى أن سرعة انتقال الضوء الذي به يدرك اللون أسرع من انتقال الصوت « ثم يسمع الصوت بعد مهلة ، فيسبق النظر السمع » . والصوت لا يدرك على استمرار عكس اللون الذي يتوفر فيه الاستمرار وعليه ، فاحتاج الصوت إلى التقييد بالرسم وهو الكتابة .

ويعرض بعد هذه الفلسفة العامة في حديث الصوت والضوء ، والعلاقة بين الكلمة المنطوقة ، والرسم في الكتابة . إلى حديث عن الحروف والكلمات في اللغة ، وأقوال العلماء في ذلك ، فيحدثنا عن معنى « الحرف » العام الذي تتكون منه الكلمات ، والحرف بالمعنى الاصطلاحي في علم النحو ، أي حرف الأداة . فيقول :

« أما تسمية أهل العربية أدوات المعاني نحو من ، وقد حروفاً فإنهم زعموا أنهم سموها بذلك لأنها تأتي في أول الكلام وآخره ، فصارت كالحروف أي الحدود له . وقد قال بعضهم إنما سميت حروفاً لانحرافها عن الأسماء والأفعال . وهي عندنا نحن كلاماً ، لأنها منتظمة من حرفين فصاعداً . » .

ويقول : « والحروف تختلف باختلاف مقاطع الصوت ، حتى شبه بعضهم الحلق والضم بالثاني ، لأن الصوت يخرج منه مستطيلاً ساذجاً ، فإذا وضعت الأنامل على خروقه ووقعت المزوجة بينها سُمع لكل حرف منها صوت لا يشبه صاحبه ، فكذلك إذا وقع الصوت في الحلق والضم بالاعتماد على جهات مختلفة ، سمعت الأصوات المختلفة التي هي حروف . وهذا لا يوجد في صوت الحجر وغيره ، لأنه لا مقاطع فيه للصوت . وليس يحتاج إلى حصر الحروف التي يتعلق بها . وإنما الغرض ذكر ما في اللغة العربية التي كلامنا عليها ، لأن في غيرها من اللغات حروفاً ليست فيها ، كلغة الأرمين وما جرى مجراها .

فحروف العربية تسعة وعشرون حرفاً وهي :

المهمزة ، والألف والماء والعين والحاء ، والغين والحاء ، والقاف ، والكاف

(١) سر الفصاحة ص ١٥ طبع دار الكتب العلمية بيروت .

والضاد والجيم والشين واللام والراء ، والنون والطاء والذال والفاء والصاد والزاي
والسين والظاء والذال والطاء ، والفاء والباء والميم والواو .

وهذا ترتيبها في المخارج .

وكان أبو العباس بن المبرد لا يعتد بالهمزة ، ويجعل الحروف ثمانية وعشرين حرفاً . وقوله
هذا عند النحويين مرفوضاً . ^(١) »

* * * *

« ويلحق بهذه الحروف التي ذكرناها حروف بعضها يحسن استعماله في الفصيح من
الكلام وبعضها لا يحسن . فالتى تحسن ستة حروف وهي : النون الخفيفة التي تخرج من
الخيشوم والهمزة الخفيفة ، وألف الإمالة ، وألف لتفخيم ، وهي التي بها يُنحى نحو
الواو وذلك كقولهم في الزكاة — الزكاوة — والصاد التي كالزاي ، نحو قولهم في
مصدر — مَزدر والشين التي كالجيم نحو قولهم في أشدق : أُجَدَّق .

والحروف التي لا تستحسن ثمانية وهي : التي بين الجيم والكاف نحو قولهم في
جلهم — كلهم — والجيم التي كالكاف نحو قولهم للرجل : رُكِل ، والجيم التي كالشين
نحو قولهم في خرجت : خَرَشْتُ ، والطاء التي كالتاء كقولهم في طلب : تَلَبُّ والضاد
الضعيفة كقولهم أشرد في أضرِد ، والصاد التي كالسين كقولهم سَدَق في صدق ، والطاء
التي كالتاء كقولهم تلم في ظَلَمَ ، والفاء التي كالباء كقولهم برند في فِرُنْد .

ومخارج هذه الحروف ستة عشر مخرجاً : ثلاثة في الحلق . فأولها من أقصاه مخرج
الهمزة ، والألف والهاء ، وهذا على ترتيب سيبويه .

وزعم أبو الحسن الأَخْفَش أن الهاء مع الألف لا قبلها ولا بعدها . ثم يليه من وسط
الحلق مخرج العين والحاء . ثم من فوق ذلك مع أول الفم مخرج الغين والحاء . ثم من
أقصى اللسان مخرج القاف . ومن أسفل ذلك وأدنى إلى مقدم الفم مخرج الكاف ومن
وتسط اللسان بينه وبين الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين والباء .

ومن أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد . ومن حافة اللسان من
أدناها إلى متبى طرفه بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى مخرج اللام . ومن طرف اللسان

(١) سر الفصاحة ص ٢٦ — ٢٧ .

بينه وبين مافوق الثنايا مخرج النون . » (١) .

وهكذا يفصل الحديث في مخارج الحروف وأصواتها ، ويخرج منه إلى القول في الكلام عامة ، وهو المركب من تلك الحروف فيعقد فصلاً يتحدث فيه عن المصطلح ، ومعناه ، واستخدام اللفظ فيقول : (٢) .

« والكلام عندنا ما انتظم من هذه الحروف التي ذكرناها أو غيرها على ما بيناه من أننا لا نذكر إلا حروف اللغة العربية دون غيرها من اللغات وحدها ، ما انتظم من حرفين فصاعداً من الحروف المعقولة إذا وقع جملة تصح عنه أو من قبيله الإفادة .

وإنما شرطنا الانتظام لأنه لو أتى بحرفٍ ومضى زمانٌ وأتى بحرفٍ آخر لم يصح وصف فعله بأنه كلام ، وذكرنا الحروف المعقولة لأن أصوات بعض الجمادات ربما تقطعت على وجهٍ يلتبس بالحروف ، ولكنها لا تتميز وتتفصل كتفصيل الحروف التي ذكرناها ، واشترطنا وقوع ذلك ممن يصح منه أو من قبيله الإفادة لئلا يلزم عليه أن يكون ما يُسمع من بعض الطيور كالبيغاء وغيرها كلاماً . وقلنا القبيل دون الشخص ، لأن ما يسمع من المجنون يوصف بأنه كلامٌ ، وإن لم يصح منه الفائدة وهو بحاله ، لكنها تصح من قبيله . وليس كذلك الطائر . »

ويفصل القول في حد الكلام وحقيقته على ما ذكر العلماء ، كما عرض للمتكلم بمثل ما عرض له في الكلام فيقول : (٣)

« وإذا كُنَّا قد بيننا حد الكلام وحقيقته ، فينبغي أن نذكر حقيقة المتكلم فنقول : إن المتكلم من وقع الكلام الذي بينا حقيقته بحسب أحواله من قصده وإرادته واعتقاده ، وغير ذلك من الأمور الراجعة إليه حقيقة أو تقديرًا .

والذي يدل على ذلك أن أهل اللغة متى علموا أو اعتقدوا وقوع الكلام بحسب أحوال أحدنا وصفوه بأنه متكلم ، ومتى لم يعلموا ذلك أو يعتقدوه لم يصفوه . فمجرى هذا الوصف في معناه مجرى وصفهم لأحدنا بأنه ضاربٌ ومحركٌ ومسكنٌ ، وما أشبه ذلك من الأفعال ... »

(١) سر الفصاحة ص ٢٩ — ٣١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٧ .

(٣) سر الفصاحة ص ٤٤ .

ويعمى فى الحديث عن هذا المتكلم حتى ىتهى إلى القول فى الحكاية والحكى^(١) ويعقد بعد هذا فصلاً فى اللغة . فىقول :

« اللغة عبارة عما يتواضع القوم عليه من الكلام ، أو يكون توقيفاً ... والصحيح أن أصل اللغات مواضع ، وليس بتوقيف ، وإنما أوجب ذلك لأن توقيفه تعالى يفتر إلى الاضطرار إلى قصره . والتكليف يمنع من ذلك . وإنما اقتصر إلى الاضطرار إلى قصده لأنه إن أحدث كلاماً لم يعلم أنه قد أراد بعض المسميات دون بعض ، ولو اقترن بهذا الكلام إشارة إلى مسمى دون غيره ، لأننا لا نعلم توجه الكلام إلى ما توجهت الإشارة إليه ، وإنما يعلم ذلك بعضنا من بعض بالاضطرار إلى قصده وتخصص الإشارة بجهة المشار إليه لا يعلم بها هل الاسم للجسم أو للونه ، أو لغير ذلك من أحواله .

وأما إذا تقدمت المواصفة بيننا ، وخاطبنا القديم تعالى بها ، علمنا مراده ، لمطابقة تلك اللغة .

وأخذ ابن سنان بالرأى القائل بأن اللغة توقيف نتيجة اقتناعه العقلى باستحالة كونها توقيفاً للحجج التى أشار إليها . وهذا القول إذا ما اضفناه إلى أخذه فى القول بالمعرفة فى اعجاز القرآن يتضح الموقف العقلى لابن سنان ، ونحن نعلم أن بعض المعتزلة ممن أخذوا بمنهج العقل كالنظام إبراهيم بن سيار أول من نادى بهذا الرأى فى القرن الثانى للهجرة وأوائل القرن الثالث .

ويعرض بعد ذلك لبعض ميزات اللغة العربية على غيرها من اللغات ، ويقارنها ببعض ما ترمى إلى سمعه أو علمه من اللغات بحكم المكان والملاصقة ، وربما التعامل كذلك ، وأعنى اللغة الأرمنية وهى قرية من بلدة بعلب ، واللغة الرومية وهى كذلك أيضا . ونعلم ماكان لتأثيرها على مناطق الشام منذ قديم الزمان ، وقد ظلت تحت سيطرة بيزنطة دهماً قبل الاسلام كما لم تنقطع علاقات الروم الوثيقة بالشام زمن الحرب والسلم طوال القرون الاسلامية فى عصور الأمويين والعباسيين والحروب الصليبية فى القرنين الخامس والسادس .

(١) سر المعصاة ص ٤٦ - ٤٨ .

ويرى أن اللغة العربية تفضل كثيراً من اللغات بميزتين :
الأولى : سعة المسميات للمسمى الواحد .
والثانية : القدرة على الإيجاز .

يقول : ^(١) « فأما ما نحن بصدده عن ذكر اللغة العربية فلا خفاء بميزاتها على سائر اللغات ، وفضلها . أما السعة فالأمر فيها واضح . ومن تتبع جميع اللغات لم يجد فيها — على ما سمعته — لغةً تضاهي اللغة العربية في كثرة الأسماء للمسمى الواحد .

على أن اللغة الرومية بالضد ، فإن الاسم الواحد يوجد فيها للمسميات المختلفة كثيراً . وقد كان بعض اللغويين حصر أسماء السيف والأسد في لغة العرب ، فكانت أوراقاً عدة .

وهي مع السعة والكثرة أخصر اللغات في إيصال المعاني . وفي النقل إليها يبين ذلك فليس كلامٌ ينقل إلى لغة العرب إلا ويحيى الثاني أخصر من الأول مع سلامة المعاني وبقائها على حالها . وهذه بلا شك فضيلة مشهورة ، وميزة كبيرة . »

قال : « وقد حكى أن بعض ملوك الروم — وأظنه نقفور ^(٢) — سأل عن شعر المتنبي فأنشد له :

كأن العيسَ كانت فوق جفنى مُتأخاتٍ ، فلما ثرُنَ سَـالاً

وفُسرَ له معناه بالرومية ، فلم يعجبه ، وقال كلاماً معناه : ما أكذب هذا الرجل أ . كيف يمكن أن يُنَـاخَ جملٌ على عين إنسان أ . » ^(٣) .

كذلك أشار إلى فضيلتين أُخرَيتَين إحداهما تتصل بحسن الأصوات في كلمات اللغة ، وعدم تكلفها الوعر المتعب ، وإنها تلفظ دائماً وتهمل كل ما خشن وقبح . وهذه قاعدة عامة في كل اللغات .

والعلة الأخرى ليست مضافة إلى اللغة بل إلى أصحابها والمتكلمين بها وهذه الأخرى ليست في بناء اللغة ولا هي خاصة من خواصها بل علة مضافة .

(١) سر الفصاحة ص ٤٩ .

(٢) هذا الملك كان معاصراً لسيف الدولة وامتنى وكانت له وقائع كثيرة بالشام احتل فيها عدة مدن من بينها حلب وبعض مدن الشمال والساحل في منتصف القرن الرابع .

(٣) سر الفصاحة ص ٥٠ .

يقول : (١) « وما يدلُّ على فضل هذه اللغة العربية أيضا وتقدمها على جميع اللغات أن أربابها وأصحابها هم العربُ الذين لا أمة من الأمم تنازعهم فضائلهم ، ولا تباريهم في مناقبهم ومحاسنهم . »

ثم يفصل بعد هذا فصلاً في مناقب العرب التي اكتسبت بسببها لغتهم فضلاً على غيرها من اللغات .

الكلام في الفصاحة

ويشير إلى الفصاحة وأصل استخدام اللفظ فيرى أنها الدلالة الواضحة على المعنى ، « وسمي الكلام فصيحاً ، كما أنهم سموه بياناً لإعراجه عما عبر عنه ، وإظهاره له إظهاراً جلياً .

روى عن النبي ﷺ أنه قال : « أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش . »

والفرق بين الفصاحة والبلاغة أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ والبلاغة لا تكون إلا وصفاً للألفاظ مع المعاني . لا يقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة ، وإن قيل فيها فصيحة ، وكل كلام بليغ فصيح ، وليس كل كلام فصيح بليغاً ، كالذي يقع فيه الإسهاب في غير موضعه . »

ويستطرد استطرادات في الحديث عن البلاغة وأقوال العلماء فيها ، وفضل الانسان على الجماد والحيوان بالكلام ، لكنه يراه الكلام المفيد الدال على العقل وليس مجرد الكلام .

ويعود إلى حديث الفصاحة فيقول : « ونبتدىء الآن بالكلام فيما أجرينا القول إليه ونقول : إن الفصاحة — على ما قدمنا — نعتٌ للألفاظ إذا وجدت على شروط عدة . ومتى تكاملت تلك الشروط فلا مزيد على فصاحة تلك الألفاظ ، وبحسب الموجود منها تأخذ القسط من الوصف ، وبوجود أعضادها تستحق الاطراح والذم . وتلك الشروط تنقسم قسمين :

(١) انظر معه ص ٥٢ .

فالأول منها يوجد في اللفظة الواحدة على انفرادها من غير أن ينضم إليها شيء من الألفاظ ، وتؤلف معه . والقسم الثاني يوجد في الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض .

وفي حديثه عن هذين القسمين يلمح إلى الانسجام والتعادل والتناسق ، في نظام بعينه . بين درجات الصوت ومخارجه ، ويقرن بين الصوت والسمع أدياته ، واللون أو الشكل والعين أدياته ، فكل ما تستريح له الأذن على النظم المخصوص من الحروف واصواتها مستعذبٌ مستحب ، وكل ما لا تستريح له من ذلك النظم مستقبحٌ منبوذ .

ويعلل جمال التأليف المتباعد المخارج أحياناً بقوله :

« وعلة هذا واضحة ، وهي أن الحروف التي هي أصواتٌ تجرى من السمع مجرى الألوان من البصر ولا شك في أن الألوان المتباينة إذا جُمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة ، ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة . لقرب ما بينه وبين الأصفر وبعد ما بينه وبين الأسود . وإذا كان هذا موجوداً على هذه الصفة ، لا يعسّن النزاع فيه ، كانت العلة في حسن اللفظة المؤلفة من الحروف المتباعدة هي العلة في حسن النقوش إذا مزجت من الألوان المتباعدة . وقد قال الشاعر :

فالوجهُ مثلُ الصبحِ مبيضٌ والفرغُ مثلُ الليلِ مُسودٌ
ضدانٌ لما استجمعا حسناً والضدُّ يظهرُ حُسْنَهُ الضدُّ

* * * *

والثاني — أن نجد لتأليف النفضة في السمع حسناً ومزيةً على غيرها وإن تساوبا في التأليف من الحروف المتباعدة . كما أنك تجد لبعض النغم والألوان حسناً يتصور في النفس ويدرك بالبصر والسمع دون غيره مما هو من جنسه .» .

ولا مرأى في أن ابن سنان توصل إلى هذا التذوق لجمال الصوت في اللفظ ومقارنته بجمال اللون في الصنعة الممثلة في الثوب والآلة ، والصورة ، أو في الفن المرئي عادة ما لم يمارس الاستماع للموسيقى والغناء ، والاستمتاع بمفاتن الجمال كل مشاهد جميل الصنعة من عناصر الفن في الحياة ، وقد أشرنا إلى اهتمام الناس بالفن سماعاً في الموسيقى والغناء ؛ ومشاهدة وممارسة مما أبدعه الفنان العربي المسلم من أدوات فنية جميلة وصفت لنا أو ادركتنا بعض نماذجها فدللتنا على جمال في النوق ، وبراعة في الفن .

ولو كان الفن غير مباح أو شطوياً في المسموح والمرتضى لندت يدائع اندرت في تيل مقروء ومنظوم أو منشور ، ولجفت مياه احياء نفسها ، واصبحت بلقماً كأن لم تغن بالأمس . ولكن الشواهد تؤكد تجدد الحياة ، وتطور الفن الاسلامي وإصرار المجتمع الإسلامي في كل مرحلة من مراحل حياته على أن يمارس فنون السمع والبصر .

واستعان ابن سنان بكلام سابقيه ومعاصريه من البلغاء في تأكيد أقواله ، كاستعانته بشعر المتنبي ونثر أبي القاسم والحسين المغربي (الوزير المغربي) في بعض رسائله :
« وَرَعَوْا هَشِيمًا تَأْنَفَتْ رَوْضَةٌ »

فإن تأنفت كلمة لاختفاء بحسبها لوقوعها الموقع الذي ذكرته . وكذلك قول أبي الطيب المتنبي :

إذا سارت الأحداج فوق نباته تفاح مسك الغانيات وزلسده
فإن كلمة تفاح في غاية من الحسن .

ويعدد بعد هذا شروط الفصاحة في اللفظة المفردة فيجعلها ثمانية ، تتصل بالبناء الصوتي والتركييب للحروف من حيث الطول والقتسر . والبناء الدلالي أو الاشتقاق كالتصغير .

وكذلك الحال في الألفاظ المركبة أو الكلام المؤلف (١) وعنده الكلام المؤلف صناعة كغيره من الصناعات ، وفناً كغيره من الفنون ، وتكامل كل صناعة بخمسة أشياء : الموضوع ، والصانع ، والصورة ، والآلة ، والغرض .

« فأما الموضوع فهو الكلام المؤلف من الأصوات على ما قدمته » ..
وأما الصانع المؤلف فهو الذي ينظم الكلام بعضه مع بعض ، كالشاعر والكاتب وغيرهما
وأما الصورة فهي كالفصل للكاتب والبيت للشاعر وما جرى مجراها .
وأما الآلة فأقرب ما قيل فيها أنها الطبع ، والعلوم التي اكتسبها بعد ذلك .
وأما الغرض فبحسب الكلام المؤلف . فإن كان مدحاً كان الغرض به قولاً يبيىء عن عظم حال المدوح ، وإن كان هجواً فبالضد .

(١) ص ٩٢ .

ويقول (١)

« ... ومع هذا البيان كله ، فالفصاحة عبارة عن حسن التأليف في الموضوع المختار فإذا كنت قد ذكرت الموضوع والوجه في اختياره ، وعلى أى صفة يكون المرضي منه والمكروه بما فيه منقح أو كفاية ، ثم شرعته الآن في الكلام على التأليف بحسب ذلك ، وبنيت منه الوجوه التي بها يحسن أو يقبح كان الكلام في معرفة الفصاحة وحقيقتها واضحاً جلياً ... وكانت منزلة هذا الكتاب لمن لا يعرف البلاغة وطلاوة الكلام منزلة العروض لمن لا ذوق له يميز به بين صحيح النظم وفاسد ، والنحو لمن لا يعرف طبعاً وعادة . وإنما يتكلف وتصنع . وليس يمكن إيضاح الفصاحة لمن يجهلها إلا بهذا السبب وعلى هذا النحو ، لأن من له بها معرفة وسابق علم إنما حصل له ذلك بالمخالطة والمناشدة وتأمل الأشعار الكثيرة ، والكلام المؤلف على طول الوقت وتراخي الأزمنة .

وليس يمكنه أن يحصر لمن أراد تعليمه كل بيت سمعه ، وفصل تأمله ، ولفظة كرهها أو معنى حكم بفساده أو بصحته ، لأن هذا يصحج إلى الزمان الطويل والأيام الكثيرة ، بل ولا يمكن حصوله التت . »

ويعدد شروط حسن التأليف وفصاحة النظم في الكلام ، ومنها مايتفق مع شروط فصاحة اللفظة المنردة ، ومنها ماختلف .

فما يتفق عدم تكرار الحروف المتقاربة الخارج ، أو المتباعدة الخارج جداً ، ويدخل هذا في باب التلاؤم الذي أشار إليه الرماني في « النكت » بين وجوه البلاغة العشرة . كذلك استخدام الكلمة فيما يكره ذكره ، وهو ماسمى بالالتباس في الدلالة يقبح التأليف إذا أضيف إلى غيرها .

ومن هذه الشروط مالا علاقة له بالتأليف كالتصغير .

هناك أقسام خاصة بالتأليف ، مثل وضع الألفاظ في مواضعها التي يقتضها تسلسل المعنى دون تقديم أو تأخير بخلاف سياق المعنى وهو ماسمى في بعض كتب البلاغة بالمعاطلة من مثل قول الفرزدق :

(١) سر العصاحة ص ٩٦ .

وما مثله في الناس إلا مملوكا أبو أمة حتى أبوه يُقاربه
وأن يجرى على عادة التراكيب في اللغة دون إدخال بمواضع التوابع أو الضمائر ، فلا
يفصل بين الصفة والموصوف ، أو بين المضاف والمضاف إليه ، والمقلوب من
الكلام ^(١) .

وأدخل بعض عناصر علم البيان كالاستعارة في التأليف الفصيح ، وجعل من وضع
الألفاظ مواضعها حسن الاستعارة .

ومن وضع الألفاظ مواضعها أن لاتقع الكلمة حشواً . « وأصل الحشو أن يكون
القصد به إصلاح الوزن أو تناسب القوافي وحرف الروي إن كان الكلام منظوماً ،
وقصد السجع وتأليف الفصول إن كان مثوراً ، من غير معنى تفيده أكثر من
ذلك . » ^(٢) .

ومن وضع الألفاظ مواضعها تجنب ما استماه المعازلة ، وهي غير التركيب الخلل ، بل
هي أن يركب اللفظ بعضه بعضاً ، وجعل منه الدلالة بلفظ غير مناسب للمدلول أو
تتابع الأفعال على صيغة واحدة مثل قول أبي تمام .

خان الصفاء ألح خان الزمان أحأ عنه فلم يتخسون جسمه الكمد
وكقوله :

يايوم شرذ يوم هوى هوه بصابتى وأذل عز تجلدى
فقوله : يايوم شرذ يوم هوى هوه

شديد التعاضل حتى كأنه سلسلة

ومنه أيضاً قول أبي تمام :

يوم أفاض جوى أفاض تعزياً خاض الهوى بحرى حجاجه المُزبد

ومن تأمل هذا النظم ، وما جاء فيه من تتابع الأفعال يجذ أن هذا التتابع أفسد العايل ،
أو داخل بين العوامل في الجملة ، فهو شبيه بالقول السابق الخاص باضطراب التركيب .

(١) العصر نفسه ص ١١٤ - ١١٥ .

(٢) سر المصاحبة ص ١٤٦ .

و ضد هذا التعاظل وتداخل العوامل مما يُبَيِّهُمُ الكلام ، ويغشَى على المعنى فيه البناء السهل المتتابع الذى يدل فيه صدر اللفظ أو العبارة على عجزها وهو البناء الفصيح من مثل قول زهير بن أبى سلمى :

سَعِمْتُ تكاليف الحياة ومن يعيشُ ثمانين حولاً لا أبالسك يسأم

لأنه لما قال فى أول البيت — سَعِمْتُ — وقال ومن يعيش ثمانين حولاً — اقتضى الكلام أن يكون فى آخره يسأم .

ورغم أن ابن سنان جعل هذا اللون من فصاحة بناء العبارة أو من شروط فصاحتها فى تصور اجمالى للفصاحة فى الجملة أو العبارة إلا أن علماء البديع من بعد الفرامهم بالتجزئة والتصنيف والتكاثر بالأبواب والأنواع جعلوا من هذا الضرب ، أو الشرط باباً من أنواع البديع وأسموه أسماء شتى كما فعلوا فى غيره مما جاء به ابن سنان فى شروط التأليف الفصيح ومواضع ما يستحسن من الحشو ، فقد فرعوا منه التتيم والإيقال ، وما إلى ذلك .

ويجعل من الفصاحة موافقة السجع ، واقامة البناء الصرفى ومراعاة التناسب بين الالفاظ ، ووقوع القوافى مواقعها ، ويفصل حتى فى شروط القوافى ومتى تحسن ومتى تصبح .

ومن فصاحة التأليف حمل اللفظ على اللفظ فى الترتيب ، ليكون ما يرجع إلى المقدم مقدماً وما يرجع إلى المؤخر مؤخراً . ومثال ذلك قول الشريف الرضى :

قلبي وطرفى منك ، هذا فى حمى قبيظ ، وهذا فى رياض ربيع

وجعل من التناسب فى التأليف المؤدى إلى فصاحته التجانس ، وهو ما كان بعض اللفظ مشتقاً من بعض أو كان معناهما واحداً أو بمنزلة المشتق إن كان معناهما مختلفاً أو تتوافر صيغتا اللفظين مع اختلاف المعنى .

وكذلك المطابق ، المطابقة ، والإيجاز وانساواة والتذييل .

ويذكر بعد ذلك ضرورياً من الافتنان فى التعبير .

ويعقد باباً فى المعانى المنفردة ، فيجعل من فصاحة القول وضوح المعنى وعدم استحالته ، أو امتناعه ، أو تناقضه مع غيره مما يجاوره .

ومنه صحة التشبيه ، وصحة الأوصاف والأغراض ، وصحة النسق والنظم « وهو أن يستمر في المعنى الواحد ، وإذا أراد أن يستأنف معنى آخر أحسن التخلّص إليه حتى يكون متعلقاً بالأول ، وغير منقطع عنه . ومن هذا خروج الشعراء من النسب إلى المدح ، فإن المحدثين أجادوا التخلّص .. »

ومنها حسن الابتداء ، بأن يكون الابتداء دالاً على المعنى المقصود في الكلام . ومنها — الفصاحة — صحة التفسير ، ومنها كمال المعنى دون غلو أو تفریط .

يعقد في آخر الكتاب فصلاً في « ذكر الأقوال الفاسدة في نقد الكلام » وهو باب هام يتعقب فيه بعض الآراء التي وقف عليها في كتب النقاد السابقين من أصحاب الطبقات ، وأصحاب كتب نقد الشعر والشعراء ، أو أصحاب البديع ، والبلاغة ، من أمثال الحاتمي في حلية المحاضرة والحالي والعاقل وإن لم يذكره في كل كتابه كما ذكره غيره وكرر ذكره كقدامة بن جعفر ، والآمدي ، وأبي علي الرماني ، والقاضي الجرجاني .

ويناقش قضية القدماء والمحدثين وتفضيل بعضهم للقدماء، مفنداً تلك الآراء مبيناً أن الشعر لا تتعلق جودته ولا جماله بشخص أو زمان أو مكان ، كما أن القول بأن المعاني قد سبق إليها القدماء قول غير صحيح^(١) ، وكذلك الألفاظ والتول بصحة لفظ القدماء وفصاحته دون ألفاظ المحدثين أيضاً قول فيه نظر ... إلى غير ذلك مما يراه الأقوال الصادرة عن الهوى .

ويتبع ذلك الفصل بالقول في التفضيل بين المنظوم والمنثور ، وما يقال في تفضيل أحدهما على الآخر .

وهي القضية التي أثرتها عند الحديث عن ابن خلف وكتاب « مواد البيان » وقد أوردنا هنا إفاضته في الاحتجاج لفضل النثر والكتابة على الشعر . وهاهو ابن سنان معاصره يخوض في الموضوع نفسه كما خاض معهما أيضاً ابن رشيقي .

ويذهب ابن سنان إلى تفضيل النثر على الشعر مع أنه شاعر مجيد ، وهو مع ذلك لا ينكر فضل الشعر فيورد أقوال من فضّلوه أولاً لكنه يتبعها بقوله^(٢) :

(١) راجع ص ٢٨٢ .

(٢) سر الفصاحة ص ٨٨ .

« وأما الذى نقوله من تفضيل النثر على النظم فهو أن النثر يعلم فيه أمور لا تعلم في النظم . كالمعرفة بالمخاطبات ، وبينه الكتب والعهود ، والتقليدات ، وأمور تقع بين الرؤساء والملوك يعرف بها الكاتب أمورهم ، ويطلع على خفي أسرارهم . وأن الحاجة إلى صناعة الكتابة ماسة ، والانتفاع بها فى الأغراض ظاهرة . والشعر فضل يستغنى عنه ، ولا تقوّد ضرورة إليه ، وأن منزلة الشاعر إذا زادت وتسامت لم ينل منها قدرأً عالياً ، ولا ذكراً جميلاً . والكاتب ينال بالكتابة الوزارة فمادونها من رتب الرياسة ، وصناعة تبلغ بها إلى الدرجة الرفيعة أشرف من صناعة لاتوصل صاحبها إلى ذلك . وإن أكثر النظم إذا وجد لأيعبر عن جد ، ولا يترجم عن حق ، وإنما الخلق فيه الإفراط فى الكذب ، والغلو فى المبالغة . وأكثر النثر شرح أمور متيقنة ، وأحوال مشاهدة . وماكثُر فيه الجذ والتحقيق أفضل مما كثر فيه الضال والتغريب .

وقد يتسع الكلام فيما يخرج عن هذا المعنى ، وهذه الجملة كافية فى مثل هذا الموضوع .»

وينتقل إلى الحديث عما ينبغى أن يزود به مؤلف الكلام نفسه من أدوات مما أشرنا إليه من قبل عند ابن خلف وابن الصيرفى من علم اللغة ورواية الشعر ومعرفة العروض بالنسبة للشاعر ، والمعرفة بأخبار العرب وأحاديثها وأنسابها وأمثالها ومنازلها وسيرها وصفة الحروب التى كانت لها .

ويحتاج الكاتب إلى معرفة المخاطبات وفنون المكاتبات والتوقيعات ، ورسوم التقليدات من الاطلاع على كتاب الله تعالى وشريعته وحديث رسول الله ﷺ وستته . فإنه مدفوع إلى تقليد الولاة وعهود القضاة ، والتوقيعات فى المظالم ، والمكاتبة فى ضروب الحوادث .

« وبالجملة إن مؤلف الكلام لو عرف حقيقة كل علم . واطلع على كل صناعة لأثر ذلك فى تأليفه ومعانيه وألفاظه ، لأنه يدفع إلى أشياء يصفها ، فإذا خبر كل شئ وتحققه ، كان وصفه له أسهل ، ونعته أمكن . إلا أن المقصود فى هذا الموضوع بيان مالا يسعه جهله دون ما إذا علمه أثر عنده علمه . فإن ذلك لا يقف على غاية .

والوصية لهما ترك التكلف ، والاسترسال مع الطبع ، وفرط التحرز وسوء الظن بالنفس ومشاورة أهل المعرفة ، وبغض الإكثار والإطالة ، وتجنب الإسهاب فى فن واحد

من فنون الصناعة ، فإن كلام الإنسان ترجمان عقله ، ومعيار فهمه ، وعنوان حسّه ، والدليل على كل أمر لولاه لطفى منه ، وبخسب ذلك يحتاج إلى فضل التثقيف واجتماع اللب عند النظم والتأليف . « (١)

وبعد فابن سنان في هذا الكتاب يكشف عن عالم أديب شاعر ، لا يتكلف في أسلوبه السجع ككثير من أدباء عصره ، ومنهم أستاذه أبو العلاء المعرى نفسه الذى رأيناه في رسائله إلى داعى الدعاة يتكلف السجع ولزوم مايلزم مما اضطر داعى الدعاة إلى أن يطلب إليه مخاطبته والكتابة إليه نازعا من كلامه تكلف هذين الخليتين .

وهو جرىء الرأى ، يأخذ بأسباب العقل مع الحفاظ على أصول الاسلام الحنيف وسنة النبى الصحيحة ، مع اعتداد باللغة والعروبة ، والأدب العربى شعره ونثره واعتبارهما مع كل ما يتصل بالثقافة العربية أساساً من اسس الثقافة الضرورية للأديب . وهو على علم بالفلسفة والعلوم العقلية لا ينكر فائدتها في تنمية العقل ، وإذكاء ناره ، وقدح زناده .

وله مواقف تتسم باعتزازه بشخصيته لا يتبع ما قيل من رأى ، ولا يخضعه للرأى جلال صاحبه ولا سبق زمانه ، بل يعرض للحقيقة ، فيسطرها أمام فكره ويناقش جوانبها حتى يصل إلى اقتناع فيتبع ما توصل إليه ويدعو له .

وتراه من هذا المنطلق يعارض كبار العلماء والأدباء أحيانا ويوافقهم أحيانا ، بل إنه كثيرا ما وقف من أشيخه أبى العلاء نفسه موقف المعارضة والنقض لآرائه وشعره أو كتابته ولم يعترف برسائل أبى العلاء ، وقال إنه ليس كاتباً ولا يجيد صنعة الكتابة . مع كثرة ما لأبى العلاء من الرسائل التى قد تقول ما قال من الشعر .

(١) سر الفصاحة ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .

الباب الخامس
مشاهير الكتاب والأدباء

١ - الوزير المغربي^(١)

أبو القاسم الحسين بن علي (٣٧٠ - ٤١٨ هـ)

وهو الحسين بن علي بن محمد المغربي ، لقب بالمغربي واشتهر بذلك في كتب الأدب التي نقلت شعره وأخباره ، وكذلك في كتب التاريخ . ولم يكن الرجل مغربيا ، بل كان مشرقيا ينتمي بنسبه إلى الملك الفارسي بهرام جور ، ولعل نسبته إلى المغرب بسبب عمل أحد أجداده في ديوان المغرب ببغداد . قال : « وكان جد أبي وهو أبو الحسن علي بن محمد يخلف على ديوان المغرب ، فنسب به إلى المغربي » .

وانتقلت أسرة المغربي إلى بغداد من البصرة بعد ثورة البريديين ، وأقام جده الأعلى بأحد أحياء بغداد ، وبها رزق بالحسين الجد الأدنى للمترجم له .

وانتقل هذا الجد الحسين من بغداد إلى حلب ، والتحق ببلاط سيف الدولة كاتباً له .

وفي بلاط سيف الدولة التقى الجدُّ الكاتبُ بكثير من الأدباء والشعراء وكانت بينه وبين بعضهم صداقات ، كابن نباته الشاعر الذي مدحه . وترقى في بلاط حلب حتى بلغ منزلة الوزارة وظلَّ الجدُّ في خدمة سيف الدولة حتى سنة ٣٥٤ هـ . (وكان هذا الجد قد ترك أبناءه ببغداد ، ولم يلحقهم به في حلب ، وظلوا هناك في عاصمة الخلافة) .

حتى نشأ ابنه : عليُّ والد الوزير أبي القاسم ، وعمه . ويبدو أنهما بلغا من المنزلة في الكتابة والأدب مبلغاً جعل الإخشيد في مصر يدعوهما .

(١) جمع الدكتور احسان عاس ، أخباره ونحوه وشعره وترجم له ترجمة وافية في كتاب أصدره باسمه « الوزير المغربي » طبع دار الشروق - ١٩٨٠ - عمان الأردن .

ويقول الدكتور إحسان (١): « أما لماذا يفعل الإخشيد ذلك ، فأمرٌ يشبه اللغز . نعم كان أبوها قد تعرف إلى الإخشيد أثناء وجوده في الشام أول انتقاله إليها من بغدا . ولكن ماهي المكانة التي بلغها الأخوان في بغداد حتى تحمل الإخشيد على إرسال فاتك بالجنون — مملوح المتنبى — من بعد ليجيء بهما إلى مصر عن طريق الرحبة ؟ » .

ويبدو أن إقامتهما بمصر لم تظل فقد رأينا الابن علياً والد أبي القاسم يخلف أباه في خدمة سيف الدولة (ت ٣٥٦ هـ) بحلب ، وتزوج هنا من ولدت له ابنة ابا القاسم وكانت أم هذه الزوجة شيعية عراقية الموطن ، وكانت من أهل اليسار بالنعمانية — بلدة بين واسط وبغداد .

وظل علي بن الحسين والد أبي القاسم بحلب بعد وفاة سيف الدولة في خدمة ابنة سعد الدولة أبي المعالي . وكانت الدولة الفاطمية قد بدأت تستقر في مصر ، وكان بينها وبين بنى حمدان علاقات متقلبة ، بين حرب وسلام ، ومنافسة على حكم الشام والسيطرة على بعض أجزائه .

وبلغ والد أبي القاسم في دولة سعد الدولة منزلة رفيعة ، وصار ممدحاً من شعراء البلاط . ومنهم الشاعر عبد المحسن الصوري (٣٣٩ — ٤١٩ هـ) الذي قال فيه:

أكرى بشأراً أم بديسين علقـت محاسنها بعينى

ويقول

كانت كذلك قبل أن يأتى على بن الحسين
فاليوم حال الشعر ثا لثة لحال الشمسين
أغنى وأغنى مدحـه الـ عالين عن كـذب ومـين

وظل الأب مع أبنائه في حلب ينعمون في دولة سعد الدولة حتى تقلبت الاحوال بالأمير وتغير قلبه على الوزير ، وحدثت بين الرجلين جفوة انتقل بعدها على بن الحسين الأب عن حلب ، ولما به حب أهله .

(١) المصدر نفسه ص ١١ .

وذهب بعيداً عن سعد الدولة هرباً بنفسه ، واستقر بالكوفة لاجئاً إلى مشهد الامام علي رضي الله عنه . وكتب من هناك الخليفة العزيز بالله في مصر في الحضور إلى القاهرة فرحب بمقدمه .

وحلّ بالقاهرة ، فبعث باستقدام أهله وأبنائه من حلب . وكان دخوله مصر في النصف من جمادى الأولى سنة ٣٨١ ، وحل في قصر العزيز كاتباً واستقر وأسرته بالقاهرة أو بالفسطاط (مصر) حيث كان بعض رجال الدولة يملون .

وحدث بالشام أمورٌ استدعت العزيز أن يبعث بعلي بن المغربي الكاتب إلى الشام لينصر غلاماً لسعد الدولة يكجور على سيده ، فلم يفلح ، وقتل يكجور وفرّ على بن المغربي إلى الرقة .

وتوفي سعد الدولة ، وكان علي بن المغربي بالرقة فكاتب العزيز بالله يسهل له أمر حلب فبعث العزيز بقائده منجوكتين على أن يلحق به ابن المغربي . وزحف جيش الفاطميين وعلى رأسه منجوكتين ومعه ابن المغربي « علي » ، فتحرك ابن سعد الدولة للاستنجاد بالروم وملكهم باسيل ، والتقى جيش الروم وجيش الفاطميين ، وانتصر منجوكتين الفاطمي وكسر باسيل وجنوده . وسهل الطريق بعدها إلى حلب ، إلا أن الصلح تم بين الحلبيين والفاطميين فلم يدخل الجيش الفاطمي حلب .

وغضب العزيز لهذا الصلح وبعث يُونب قائده والكاتب علياً ابن المغربي .

وتوفي العزيز وتولى الحاكم بأمر الله ، وكان الوزير علي قد عاد إلى مصر ، وحلّ في مكانه بقصر الخلافة . وكان من المقربين من الحاكم « الذين يصحبون الخليفة حين يبرز للناس أو يجلس في المشايخ في قصره . وكان يجلس خمسة عن يمينه وخمسة عن يساره وابن المغربي وأخوه بين الخمسة الذين على يساره .

وظلت الأحوال على ذلك حتى أمر الحاكم بقتل الوزير ابن المغربي علي وأخيه ، وابناء علي ولم يكن أبو القاسم بين من أدركه سيف الحاكم .

وهكذا نجد حياة أبي القاسم متقلبة ، غير مستقرة ، ولد في عزّ سعد الدولة ودولته ، ثم لم يلبث العسبي أن وجد نفسه أسيراً في حلب مع أمه وإخوته ، ووجد أباه مغضوباً

عليه من أمير حلب فارا من غضبه إلى العراق ، وملتجئاً إلى الكوفة ثم إلى القاهرة .
ويخرج أبو القاسم مع أسرته للحاق بأبيه في مصر وهو آنذاك لم يتعد مرحلة الصبا إلى
الشباب . جاء الصبي إذا إلى مصر وأقام بها وتلقى علومه في القاهرة والفسطاط
العمرتين آنذاك بالعلم والعلماء .

ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره كان « يستظهر القرآن وعدة من الكتب المحررة في
اللغة والنحو ، ونحو خمسة عشر ألف بيت من مختار الشعر القديم » كذلك كان قادراً في
تلك السن المبكرة على نظم اشعر ، والتصريف في النثر ، وينتج في الخط ما يقصّر عنه
زملاؤه ونظراؤه ، وكذلك في الحساب والجبر والمقابلة ما يزيد عما يحتاج إليه الكاتب .
ويبدو أن والده كان يعدّه ليخلفه في الكتابة والوزارة ، ويرقى رتبة جده وأبيه
ومكاتبهما في هذه الصناعة . وقد كان للكتابة منزلتها الرفيعة لأنها كانت تمهد لمنزلة
الوزارة على ما بيناه فيما عرضنا له من أحاديث الكتاب من قبل .

ووجد الشاب الحسين في مجالات العلم ومجالسه بالقاهرة والفسطاط نُغيته ، فقد
كانت دار العلم أو دار الحكمة التي بناها الخاتم مؤثلاً للعلماء من كل جنس ومذهب ،
عامرة بالكتب والمناظرات ، كذلك كانت مكتبة القصر العاضى ، متاحة
لناشدى القراءة والتزود بالمعرفة من مصنفاتها العديدة ، وكانت العناية بها وتمرنادياها على
ما بينا من الخلفاء والقائمين عليها . وقرأ الحسين ، وتزود من السحف براد عميم ، كما
جلس إلى العلماء في دار الحكمة أو صحب مجنس والده ، ومن كان يجتمع إليه .

وملاً السمع والبصر بكل هذا ، وتعرف على علماء العصر بمصر ، ممن علت كعبه
وقل نظيره ، وهم كثر في كل علم وفن من أمثال حُودة بن محمد الغروي النغوى ،
والحافظ عبد الغنى بن سعيد المنصرى حافظ مصر في عصره ، والمنقرىء الأنطفاكى أوى
على الحسن بن سليمان أحفظ أهل زمانه لقراءات . ومحمد بن الحسين بنسى النحوى .

وكان هؤلاء الشيوخ النغويين والنحويين أثرهم في ثقافة أبي القاسم ، واهتمامه بعلومه
اللغة والنحو في مطلع حياته .

وكان يجلس إلى غير هؤلاء الشيوخ ، من شيوخ الحديث وانعقه .
وتعرف في مصر كذلك إلى الوزير أبى الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف

بابن حنزابه وحدث عنه وروى كتاب « إصلاح المنطق » لابن السكيت .

وذكر أنه كان يجلس إلى ابن حنزابه ويناووره في شعر المتنبي ، وعرف أن هذا العلامة الوزير حرّض ابن وكيع التنيسي على تأليف كتابه في سرقات المتنبي ، والذي سماه « المنصف » .

وصحبه كذلك في مصر بعيد رحيله من الشام ، وعمل استاذاً له على بن منصور الحلبي المعروف ^(١) بابن القارح صاحب الرسالة المشهورة إلى أبي العلاء ، والذي عمل عليها رسالة الغفران .

ولكن صحبته لابن القارح لم تلبث أن انقلبت إلى عداًء ومناوأة . وقد ألمح إلى ذلك ابن القارح في رسالته إلى أبي العلاء على مامرّ بنا .

وبدأ أبو القاسم عطاهه العلمي باختصار كتاب « إصلاح المنطق » ، ووصف العلاء هذا المختصر بقوله : « تناهى باختصاره ، وأوفى على جميع فوائده ، حتى لم يفته شيء من لفظه ، وغير من أبوابه ما أوجب التدبيرُ تغييره للحاجة إلى الاختصار وجمع كل نوع إلى ما يليق به . » ، وسمى هذا الاختصار بـ « المنخل » .

وكان عملُ ابن المغربي في اختصار اصلاح المنطق مدعاةً لعجاب بعض علماء عصره كأبي العلاء المعري ^(٢) ، ودليلاً على ذكاء أبي القاسم ، ومقدرته ، وتعمقه في علوم اللغة في تلك السن المبكرة . وأكد هذا قول ابن بسلام بعد أن اطلع على الكتاب : « فإنه غاية لا يتعاطاها إلا من بهر عبثه ، واشتهر سبقه » ^(٣) .

وظلَّ أبو القاسم مقيماً تمرّ طولاً أربعة عشر عاماً أو تزيد قليلاً حتى بلغ مبلغ الرجولة ، ولعله شارك أباه وعمه في ديوان الإنشاء للحاكم بأمر الله . ولم ينقطع طوال هذه السنين عن تحصيل العلم ، ومجالسة العلماء ، إذ يقول عن نفسه :

« فإني نشأت وغُديتُ بكتب الحديث وحفظ القرآن ، ومثافنة الفقهاء ، ومجالسة العلماء ، ووالله ما رأيت في تلك البلاد — يعني مصر — مادبة ولا وليمة إلا

(١) يستعمل احسان عباس تذهب ابن القارح للحسين ص ٢٣ .

(٢) أشاد بهذا الكتاب في رسالته « الإعرابية » ، وراجع ابن المغربي لإحسان ص ٢٦ .

(٣) الدخيرة ٤/١٧٦

لمقرئين ، ولا كنتُ متشاعلاً إلا بعلم أو دين .»

وربما ألف كتابه « أدب الخواص »^(١) في تلك المرحلة من حياته ، وكان قد بلغ الخامسة والعشرين وفي حدود سنة ٣٩٥ هـ . كما ألف في هذه المرحلة كذلك معظم كتبه كالإيناس في الأنساب ، وكتاب النساء .

وتمر الأيام تبعاً ، ويعيش ابن المغربي مع والده وعمه واخوته في ظل دولة الحاكم بأمر الله منعمين بالغين من الجاه مبلغاً ، ومن الثراء مبلغاً ، حتى إن الحاكم كان يجرى عليهم كل سنة ستة آلاف دينار ، وهو مبلغ ليس بالهين في ذلك الزمان إذا عرف أن ديناراً واحداً كان يمكن أن يعيش عليه إنسان طوال الشهر .

وكان على بن الحسين والد أبي القاسم من شيوخ الدول ، معظماً مكرماً .

ولكن الأيام جرت على غير هوى آل المغربي ، فتغيرت الرياح ، ودارت في الخفاء المؤامرات ، لعب فيها خصوم آل المغربي ومنافسوه في قصر الخلافة دوراً ليوغروا صدر الحاكم عليهم . ووجدت هذه المؤامرات صدقاً لها فيما كان يجرى على لسان الحسين الشاب الطموح من عبارات تؤخذ على أنها رغبة في السلطان ، وعدم رضئ بما هو عليه من مكانة في خدمة الخليفة .

فقد روى ابن القارح أن الحسين قال له ذات يوم : ما نرضى بالحمول الذي نحن فيه فقال ابن القارح : وأى حمول هنا ؟ تأخذون من مولانا — خلد الله ملكه في كل سنة ستة آلاف دينار ، وأبوك من شيوخ الدولة ، وهو معظم مكرم . فقال الحسين : أريد أن نُصازر إلى أبوابنا الكنائس والمواكب والمنقائب ، ولا أرضى بأن يُجرى علينا كالولدان والنسوان .

ولعل هذا الموقف يعطى صورة لشخصية أبي القاسم ، الدكاء والاندفاع ، وعدم الرضا بالأقل ، بل طموح دائماً إلى الأعلى والأكثر . وهو في هذا القلق الطامح يذكرنا بشخصية أبي الطيب المتنبي على ما تبديت لنا في شعره . وربما ساعد أباً القاسم على هذا الطموح ما شاهده في عصره من انتفاضات بعض الولايات ، وصعود بعض الأمراء إلى الإمارة بعد مغامرات ، وانهكيات . لعله حدث نفسه يوماً بأن يقلب على الحاكم ،

(١) أدب الخواص لنور العربي تحقيق الشيخ حمد الحامس ، ضلع الرياض سنة ١٩٨٠ ص ٨٦ .

ويدبر له من الأعوان ما يُمكنه من هذا الغرض . وقد اشار إحصان عباس إلى شواهد تشير إلى تلك الرغبة ، والتي لم تظل حبيسه صدره ، بل لعله سعى ومهد ، واتصل بمن يرى فيه معيناً .. فتناقلت الرواة أخبار ما يفعله الحسين إلى والده الشيخ علي بن الحسين فأوجس من ذلك خيفة .

أبلغ ابن القارح ما أحسنه من تصرفات الحسين إلى والده فقال له : « ما أخوفنى أن يخضب أبو القاسم هذه من هذه — وقبض على لحيته وهامته . » . وقال أبوه مرة أخرى : « أنا أخاف همة أبى القاسم أن تنزوا به إلى أن يوردنا ورذاً لا صبر عنه . » .

وبلغت أسماع الحاكم ما يدور في الخفاء ، ولعله صبر حتى تأكد مما يدبره القاسم ويسعى إليه ، وانتظر الفرصة للبطش في تكتم كعادته ، يبطش والعدو في غرة ، غير آخذ حذره ، بل لعله يبطش وقد أوهم من يبطش به بالأمان والاطمئنان .

وهكذا لم يصبر الحاكم طويلاً على ما يدور في الخفاء ، ويدبره أبو القاسم ويغري به بعض رعوس الدولة ، ليوغر صدورهم على الحاكم ، فأنزل بال المغربي النازلة ، وأوقع بهم الواقعة ، فأمر سيفه بأن يقتلهم : الوالد علي بن الحسين وأخاه محمداً ، وابناءهما . فنفذ القتل وقطعت الرعوس .

وكانت وقعةً برمكيةً أخرى . بسيف الحاكم ، ولكن هذا السيف لم ينل رأس أبي القاسم ، إذ استطاع بدهائه أن يفلت منه ، وليس ذلك بالأمر السهل . واختفى أياماً ، ولعله غادر الفسطاط مشرقاً ، متنكراً على هيئة جمالي أو حمالم كما تروى بعض الروايات ليلحق بقافلة تغادر مصر عبر صحراء الشرقية وسيناء إلى فلسطين فالرملة حيث آل الجراح .

وكانت مذنبعة آل المغربي يوم الثالث من ذى القعدة سنة ٤٠٠ هـ ، وظل أبو القاسم محتفياً منذ اليوم حتى يوم الثاني عشر من الشهر الذي خرج فيه إلى الرملة .

وفي الرملة استجار بحسان بن المفرج بن دغفل بن الجراح الطائي — وكانوا من أعداء الفاطميين التقليديين ، فأجاره من الحاكم فأنشده قصيدة يثنى فيها عليه وعلى قبيلته يقول فيها :

باطية الخيرات بين جلالكم أمن الشريد وهمة الطلاب

فهش حسّان له ، وطمانه وسكنّ من روعه .

وفي صحبة حسّان بن المفرج أعدّ أبو القاسم للانتقام من الحاكم معتمداً على قبيلة طيء ومن والاهامن الأعراب ، ونفوذ آل الجراح على فلسطين وجنوب الشام . واتخذ من العداوة القديمة بين الفاطميين وبنى الجراح منطلقاً لتنفيذ مؤامراته للانتقام .

وحدث أن بعث الحاكم أحد قاداته الاتراك يارختكين على رأس قوة إلى الشام لاعادة الأمن إليها ، فانتهر أبو القاسم الفرصة لتحريض حسّان بن المفرج على قائد الفاطميين ، فانقض عليه وهو في الطريق إلى الشام وتم أسره وتعذيبه ثم قتله .

ونهبت حامية الرملة العسكرية من قبل الفاطميين ، كل ذلك بتدبير من الوزير أبي القاسم وتحريضه . ولم يكتف بذلك ، بل أطمع حسّاناً في الاستقلال عن الفاطميين وحرّضه على أن يبحث عن خليفة جديد ليكتسب الشرعية يدين له بالولاء ظاهراً وأغراه بأن يستميل أحد أشراف مكة من العلويين ، وهو أبو الفتوح الحسن بن جعفر صاحب مكة . وقال : إنه لا مطعن ولا مغمز في نسبه . أى إلى الإمام على وكانت هناك مطاعن وشكوك قد أثيرت حول نسب الفاطميين .

وذهب أبو القاسم سفيراً من حسّان بن المفرج إلى أبي الفتوح في مكة ليستميله إلى مايدبره من خطة تولى الخلافة معارضاً للفاطميين . وأحجم أبو الفتوح أول الأمر متعللاً بقلّة المال في الظاهر ، وهيبة للفاطميين وخشية من انتقام الحاكم في الحقيقة ولكن الداهية أبا القاسم استطاع أن يذلل عقباته ، وأن يُفرغ من روعه ، وأن يهون له الأمر بما ييسره ، ويفتله من قول حتى لانت عريكة أبي الفتوح ، وشرع في تنفيذ ما اتفق عليه . أن يكون خليفة ، وإن ارتكب في سبيل ذلك المحرمات التي سهّل له أبو القاسم اقترافها في سبيل غايته — الخلافة — ، وهي غاية عزيزة تهون في سبيلها وترخص كل المحرمات حتى لو كانت استار الكعبة وحليتها التي تؤخذ وتسكّ دنائراً تسمى الكعبة !! . حتى ولو سلب الناس أموالهم واتخذها مدداً لشراء الأعوان والسلاح .

وهكذا تمكن أبو القاسم من تنصيب أبي الفتوح العلوي خليفة ، ولقب بالرشيد بالله على عادة ما يتخذه الخلفاء من ألقاب .

وعاد أبو القاسم بعد اطمئنانه إلى نجاح خطته في مقابلة خلافة الحاكم بخلافة أخرى

تواجهه ، وتتخذ من مكة العاصمة الدينية للمسلمين مقراً له . ولهذا ما له من أثر في الدعوة للخليفة الجديد . عاد أبو القاسم إذا إلى الرملة ، وكله أمل في أن يبلغ غايته التي صورها له حقه ورغبته في الانتقام .

عاد إلى الرملة وقد حقق ما سافر من أجله ، وجاء الخليفة الجديد لزيارة الرملة مقر مؤيديه من آل الجراح ، فاستقبل استقبالاً حافلاً ، ودُشن للمنصب الجديد وخطب الخطباء بين يديه بالتأييد والدعاء .

وكان أبو الحسن التهامي الشاعر قد اتخذ من الرملة دار إقامة ، ومدح آل المفرج بن الجراح ، وتقلد بالرملة الخطابة ، وجمعت بينه وبين أبي القاسم الحسين بن علي صلة وثيقة ، واتصل شعره به ، وظهرت تلك الصلة في أربع من قصائده .

ومعلوم أن الشاعر التهامي ، جاء إلى مصر في مهمة سرية ، هي على ما يذكر المؤرخون لدعوة عرب بني قرة شرق البلاد للخروج والثورة على الحاكم ، لصالح أصحاب الرملة من آل المفرج بن الجراح والاحتمال كبير أن للوزير المغربي بدأ في هذه البعثة السرية للشاعر .

ولم يتح لخطبة أبي القاسم وتدييره النجاح ، فقد علم الحاكم بما يدبر بالرملة والحجاز وكان داهية كذلك ، فأمهل للأمر ، وأمل للمدبرين حتى يتتهد فرصة ، ولم يبادر بالمجابهة بالقوة . وحاول الإغراء بالمال ، ولوح بالعمو إذا رجع الخارجون عن غيهم ، خاصة وأن الخطبة لم يكتمل لها النجاح .

وبدأ الخوف يُدبُّ في صدور الخلفاء المتأمرين ، وفشلت مهمة التهامي في مصر ، فاعتقل وتردد آل المفرج في المضي قُدماً ، ورأى أبو الفتوح الأمر ، وقد أخذ يتفلسف من بين يديه وأن هذه الخلافة المزعومة لم تكن إلا سرايا ، فنكص على عقبيه

واستجاب حسناً بن المفرج لما لُوح به الحاكم من المال والعمو :

« وأرسل أمة إلى مصر ومعها تذكرة بما يريد من حوائج ، وفي جملتها أن تُهدى إليه جارية من إماء القصر ، وأن ينال إقطاعاً وتقريراً . فتكفل له الحاكم بكل ما طلب ، وكتب له أماناً بخطه ، وجهاز له تجارية تحمل كمية طائلة من المال ، ولأبيه كذلك » (١) .

(١) الوزير المغربي لاسان عباس ص ٤٩ .

ورأى أبو الفتوح ما يجرى ، وأيقن أن الأمر يخرج من يده ، وأن ابن المغربي قد خدعه فقال لأبي القاسم : « أغويتني وأخرجتني من بلدي ، ونعمتي وإمارتي ، وجعلتني في أيدي هؤلاء ينفقون سُوقهم بي عند الحاكم ، ويبيعوني بيعاً بالدرهم ، فيجب عليك أن تخلصني كما أوقعتني ، وتسهل سبيلي بالعودة إلى الحجاز ، فإنني راضٍ من الغنيمة بالأياب ، ومتى لم تفعل اضطررت أن أركب فرسي ، وأركب التفرير في طلب النجاة . » .

وهكذا انتهت هذه المسرحية نهاية لا ترضى مؤلفها أبا القاسم ، بل جرت عليه وبالاً وضيق أمامه السبل ، وأوقعت في حبال ماكاد ودبر . وذهب إلى الشيخ المفرج والد حسان ، وكبير القوم في الرملة يستنجده . وقال له ضارِعاً :

« إنى فارقت نعمتي ، وكاشفت الحاكم ، وذلك لركوني إلى ذمامكم ، وسكوني إلى مقامكم ، ولي في عنقك موثيق ، وأنت أحق من وقي لمكانك من قومك ورياستهم ، وإن خير ماورثه الإنسان ولده ما يكون له به الحمد والشكر وحسن الذكر . وأرى حسناً ولدك قد أصلح نفسه مع الحاكم ، واتبعه أكثر أصحابه ، وأنا خائف من غدره بي ، وما أريد إلا العود إلى الوطن . » .

وهكذا عاد بنو الجراح إلى طاعة الفاطميين والخضوع للحاكم ، وعاد أبو الفتوح إلى مقره بمكة وطلب الصفح من الحاكم فعفا عنه ، وعاد الخليفة المخدوع إلى طاعة الحاكم ، « وكما بدأنا أول خلق نعيده » .

وقرَّ أبو القاسم الحسين إلى العراق خوفاً ، وهرباً بنفسه أن يغدر به حسان ويسلمه للحاكم بعد أن عادت الأحوال بينهما إلى مستقرها .

ذهب الحسين إذا إلى بغداد والخليفة العباسي هو القادر بالله ، والبيهيون يسيطرون على الدولة ، ويتقاسم العراق في شماله وجنوبه أمراء من العرب ذوى النفوذ . ففي الموصل كان الحاكم قرواش بن المقلد العقيلي (ت ٤٤٣ هـ) وفي ديار بكر نصر الدولة أحمد بن مروان الذي حكم إحدى وخمسين سنة (ت ٤٥٣ هـ) .

وهكذا وصل ابن المغربي إلى العراق ، وهذا حاله ، وعاش متنقلاً من مكان إلى مكان بقية عمره من عام ٤٠٢ إلى ٤١٨ ، يتصل ببلاط خليفة ليغادره إلى أمير من

هؤلاء الأمراء ، فيرضى فيستقر به الحال حيناً ، ثم لا يلبث أن تقلق رواحله ، فيغادر هذا ليلحق بذلك .

اتصلت أسبابه ببغداد بالوزير فخر الملك أبي غالب محمد بن علي بن خلف وزير بهاء الدول وسلطان الدولة ، إلا أن الخليفة القادر لم يرض عنه ، لأنه توجس منه وهو المصري أو الذي ينتهي إلى الفاطميين بمصر وإن غادرهم ، وكانت الحرب السرية والاعلامية قائمة بين الفاطميين والعباسيين . فاعتقد القادر أنه مبعوث سرى ، ولم يرض عن بقاءه ببغداد ، فاضطر الوزير فخر الملك إلى اخراجه مكرماً من بغداد .

وبعدها زار قرواش واتصل به ، وصحبه زمناً بالموصل ، ثم غادره إلى الأمير نصر الله أمير ديار بكر ، ووزر له زمناً ، وخرج في مهمة إلى بدليس ، ومرض بها مرضاً شديداً ، وهنت فيه قوته ، واستشفى بأحد أديرة النصارى .

وفي هذه المرحلة التقى بالمطران إيليا مطران نصيبين ، وحدثت بينهما محاوراة حول حقيقة العقيدة النصرانية .

وظل الحسين متقلبا في الوزارة بين قرواش ونصر حتى حطت رحاله ببغداد ، وكان يطمع في وزارة بغداد لمشرف الدولة البويهى ، وظل مترقبا حتى خلت له فأمكنه مشرف الدولة منها .

« فلما ترُبّع على دست الوزارة البغدادية ، وكان ذلك حلماً طاملاً هجست به نفسه أصبح مقصداً للشعراء ، فمدحه عددٌ منهم من أشهرهم مهيار الديلمى . ومن مدائحه فيه قصيدة له مطلعها :

عسى مُعرض وجهه يُقبِلُ فيوهبَ للآخر الأول
يقول فيها :

فدراك وتفعل ما لا تفعل ممن يقول ولا يفعل
سألت على المال سيف العطاء فلا حيك في الج زد مُنتجِلُ^(١)

ولمهيار مدائح أخرى فيه نال عليها عطاء جزلاً من الوزير .

(١) الوزير المغربي ص ٧٠ .

وكانت ولايته للوزارة في بعدد سنة ٤١٤ ولمدة عشرة أشهر وخمسة أيام ، وعاد بغداد هرباً من ثورة جند الأتراك ، لأمر شجر بيهم وبين البويهي مشرف الدولة ووريره الحسيني .

عاد اذا أبو القاسم الحسين إلى أمير العرب قرواش بالموصل مرة أخرى ، وحدث أن قامت فتنة بالكوفة بين صهر أبي القاسم وبعض العباسيين تدخل فيها أبو القاسم ، فحدثت بينه وبين الخليفة القادر بنوّة ، وأراد أبو القاسم أن يعتدي على بعض أرحاء للخليفة في سرّ من رأى ، وهو في جوار قرواش ، فلما علم القادر بالله بما جناه أبو القاسم بعث إلى قرواش يطلب إليه إبعاد الحسين فأبعده .

فلجأ إلى نصر الدولة بديار بكر الذي كان قد فارقه متخفياً ، فتلقيه نصر الدولة مرحباً ، على الرغم مما فعله معه من قبل . يقول إحسان :

« فبأى وجه يلقاه الوزير — المغربي — ، وبأى وجه يلقاه الأمير ؟ . إن عودته إلى ديار بكر — إن كان قد عاد لتسلم الوزارة — لتؤكد شيئاً واحداً ، وهو أنه على الرغم مما كان يؤخذ عليه من تحيل وكيد ، وشرّ ، كان يتمتع بكفاية تؤهله لمنصب الوزارة وكان من يعمل معهم يتجاوزون عن سيئاته بشفاعه فضائله . ولكن يبدو أنه في بادئ الأمر طرح نفسه على نصر الدولة لاجئاً أو ضيفاً . وقد تلقاه هذا بالإكرام . وأقطعته ضياعاً جليلاً تكفيه وتكفي من وصل معه من الخاشية والأتباع . ولكن لم يلبث إلا قليلاً حتى تأكدت الحاجة إليه . ففي سنة ٤١٦ هـ تولى وزير نصر الدولة ... فاستوزر أبا القاسم المغربي وردّ الأموال إليه . »^(١)

وأقام الحسين ثلاث سنوات ، تردد خلافاً على نصيبين ، ولقى بها مضراًها إيليا ، وجلس إليه جلسات دار بينهما فيها حوار سأل فيها الوزير مرة أخرى عن عقيدة النصراري في الأقاليم الثلاثة ، وكيف يمكن وصف ذلك بالتحديد . وكيف يمكن للنصارى دفع قول الله فيهم : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ . وعن علة الناس في محبة أديانهم ، وهل يتحقق المرء صحة دينه أو مذهبه من جهة المعجزة ... ويدور الحوار بينهما كذلك عن نحو السريان ونحو العرب ، وعلم اللغة عند

(١) الوتر العربي ص ٧٥ .

الفريقين ، واستعمال المجاز عندهما ، والمفاضلة بين الخط السرياني والخط العربي ، وبين علم الكلام هنا وهناك وعن اعتقاد النصارى في أحكام النجوم وعن اعتقادهم في المسلمين ، وعن اعتقاد النصارى في النفوس .

« .. وبما أن مطران نصيبين هو الذى كان يتولى الإجابة ، فإنه أعطى نفسه دوراً كبيراً في الشرح والتوضيح ، مما يجعل الوزير يسلم معجباً . وفي بعض الأحيان نجده أعلم من الوزير بشئون الإسلام . ويكاد في معرفته بالقرآن أن يبلغ درجة لم يبلغها الوزير نفسه . فأما ما يتعلق بالأقانيم الثلاثة وما يتصل بها ، فمن الواضح أنه يشرح عقيدة النساطرة . وهى قرية الشبه بما عند المسلمين . » .

وفي زيارة أخرى لنصيبين أقام خمسة وعشرين يوماً ، ولقى صاحبه المطران إيليا ، وباحثه في مسائل عدة تناول اعتقاد اليهود ، وتاريخ آدم وغيره من التواريخ وتغيير اليهود لها . وعن الآثار العلوية (١) .

وظل الوزير يتردد بين ميفارقين ونصيبين حتى اعتل ، واشتد به المرض ، ويبدو أن القولنج عاوده وحاول التداوى منه على يد الراهب النسطورى أخى المطران كما حدث منذ سنين ، إلا أن المرض اشتد عليه هذه المرة فلم يقو جسده على احتماله فوافته منيته في الحادى من رمضان عام ٤١٨ هـ عن عمر بلغ ستة وأربعين سنة (٢) .

واختلف بعض المؤرخين في سبب وفاته ، فقول إن أبا نصر سقاه السم خوفاً منه عندما عرف قبيل وفاته أنه في طريقه إلى بغداد .

يقول إحسان : « ومهما يكن سبب وفاته فقد سكن هذا القلق الطويل ، وهدت تلك الحيوية المتفجرة : شقشقة هدرت ثم قرئت . وذهب الوزير الكامل ذو الجلالتين بعد أن شغل الناس ، وأصبحوا في النظر إليه شيئا » .

تلك كانت حياة هذا الرجل الغريب المغامر في هذا العصر الغريب الحافل بالمتناقضات والمعائب .

ونحن وإن عرضنا لحياة الرجل عرضاً قد تبدو فيه الإطالة إلا أننا أردنا من خلال هذا

(١) الوزير المنرى ٧٧

(٢) المصدر نفسه ص ٧٨ .

العرض أن نلقى ضوءاً على شخصيته ، وجرأته ، وذكائه ودهائه ، ومقدرته على الإفلات من المآزق ، والتماس الأعذار والحيل ، ومقدرته على اقناع محاوره والتسلل في دهاء إلى نفس من يريد اقناعه بما يريد ، والمهرب حينما يريد إذا أحس بأن الرياح بدأت تعتل من مسارها ، أو أن الأمور أخذت طريقاً غير ما كان يجب ، أو بدت له من الأفق البعيد أطماع تلمع ، قد تكون ضوء مجد جديد أو برقاً خلباً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

فالرجل ذكي ، والرجل طموح ، وهو لا يعبأ بعد هذا أن يلقى ما يجهد في سبيل تحقيق مأربه من شقاء الجسد الذي تحمله النفس الطموح ، أو شقاء الناس من حوله والرجل بعد هذا كله عالمٌ في اللغة أديب شاعر ، مفكّر ، يستخدم علمه في تسخير من حوله لنفعه ، أو التقرب إلى من يبغي من ذوى الجاه والسلطان ويعقد صداقات مع أدباء عصره ، ومفكره ، وقد تنقلب تلك الصداقات إلى عداوة كما حدث بينه وابن القارح .

لقد كان أدبه صورة لنفسه وحياته ، وإن لم تكن صورة كاملة ، لأنه لم يصلنا كاملاً ، إنما وصلتنا منه أجزاء ونتف استطعنا من خلالها أن نطابق بينها وبين أخباره في مصادرها ، وأن نستفتى من سبقنا إلى التعرف عليه لنلقى ضوءاً على هذه الشخصية الغريبة النادرة في التاريخ العربي والأدبي جميعاً .

حاول إحسان أن يرسم صورة للرجل من خلال سيرته وما بقي من أدبه فقال : (١)

« .. وتصفه المصادر بالجرأة والدهاء معاً ، وكلتا الخصلتين تشيران إلى دوره في الحياة السياسية العملية ، والجرأة تؤدي إلى التهور ، وذلك يعني حساب النتائج . وإذا حكمنا على المغربي بنتائج أعماله قلنا أنه كان متهوراً ، لا جريئاً وحسب إذ منى كل ما خططه بالإخفاق ، فأما الدهاء فهو موصولٌ لدى من يستعملون هذه الصفة بالحيلة القائمة على الذكاء ، وإخفاق النتائج لدى المتهور بنقض خطة من الحيلة البارعة ، وذلك في الأعمال الكبيرة ، أما في الأمور اليومية الصغيرة فلعل الوزير المغربي كان سيد من دبر « المقالب » وضحك على زملائه ، وضحك منهم . ومن حق من تصدوا لترجمته أن يقولوا إنه كان داهية ، لأنه كان دائماً يدبر الخطط ، حتى لم ينس كيف يدبر أن ينتقل

(١) الوزير المغربي ص ٨٨ .

إلى مشهد على متخذنا في ذلك احتياطات أكثر مما يتطلبه الموقف .

ورغم العقل المسيطر في توجيه خططه نجده امرأ « عاطفياً » ، بل يمكن أن يقال فيه أنه يُوقد الشمعة من طرفيها ؛ كان كثير الانقياد لشهوته ، حتى إذا أمعن فيها تذكر ثقل الآثام والذنوب ، وما يترتب عليها من حساب ، ولذلك فإن شعره يتراوح بين هاتين المنطقتين على نحو متكافئ . أعطى ريعان الصبا من المجون ما أحب كما قال : (١) .

اللَّيْلُ مِيدَانِ الْمَسْوَى	وَالكَأْسُ مَجْمُوعِ الْأَرْبِ
يَارَبِّ لَيْلٍ قَدْ قَصُرَ	نَا طَوْلَهُ فِيمَا نُجِبُ
لَا هَزْزَنَاهُ تَسْلَا	فِي طَرْفَاهُ بِالطَّرْبِ
يَلْعَبُ فِي الْحُسْرَانِ وَالطَّا	غَةِ سَاعَاتِ اللَّعِبِ
تَحْكِي ثَرِيَّاهُ لِمَنْ	يُرَوُّ إِلَيْهِ مِنْ كَتَبِ
خَرِيْطَةً مِنْ أَيْضِ الدِّ	يَاجِ مَا فِيهَا عَدْبِ
وَالدُّبْرَانِ خَلْفَهَا	كَلْفَحٍ - بِرَكَارِ ذَقْبِ

ويمضي في وصف السماء بنجومها طويلاً حتى ينتهي إلى قوله :

أَعْطَيْتُ زَيْفَانِ الصُّبَا	مِنَ الْمَجُونِ مَا أَحَبَّ
ثُمَّ رَجَعْتُ سَائِلًا	لِذِي الْمَعَالِي وَالْحُجُبِ
لَنْ يَجِيبَ مِنْ دَعَا	فَضْلًا وَيُعْطِي مِنْ طَلْبِ
إِذَا اسْتَيْلَ لَمْ يَهَبْ	مِنَ الْكَثِيرِ مَا يَسْبُ
سَأَلْتَهُ مَغْفِرَةً ...	لَا اجْتَنَيْتَ فِي الْحَقْبِ
وَكُنْتُ جَهْدِي شَرَّ عِبِ	بِدَ فَلَئِكَ لِي خَيْرَ أَبِ

ولكنه في قرارة نفسه يبغض الإثم . كما قال : (٢)

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا إِثْمٌ هَمَمْتَ بِهِ	إِلَّا وَيُلْغِضُهُ خَوْفِي مِنَ النَّارِ
وَأَنْ نَفْسِي مَا هَامَمْتَ بِمَعْصِيَةٍ	إِلَّا وَقَلْبِي عَلَيْهَا عَائِبٌ زَارِ

وهو مع هذا كله ألوف يذوب شوقاً على إلف يغادره ، أو يموت الإلف الذي يهجره

(١) المصدر نفسه ص ١١٢ .

(٢) الوزير المغربي ص ١٣٥ .

وهما متهاجران فيحس بالندم ويكي في حرقه (١)

تركك بشط النيل لي سكتاً فرداً حبست الدمع عليه أن يطأ الخددا
غزال طواه الموث من بعد هجرة ألعنا فلا كتابها الأسد الزودا
لسقياً لهجور الغناء كأنسي أعد له ذنباً، وأطوى له حقددا
أسميه من فرط الصباية مضجعاً ولوطا وعثت نفسو لسميته لخددا

* * * *

وزودنى يوم الفراق صحيلة وئسى شمار لا جديداً ولا تجردا
أذارى به تخفاق قلبى كأنسى أضم إليه صاحب البرد لا البردا
وقد كنت بالتقييل أمخو رقاعة فصرت بماء الدمع أغسله وجردا

* * * *

بكيت دفيناً ليه كان باكياً على فقاىى ذوى الكمل والفقددا
منحت الثرى تلك الخاسين أم ثرى غضيت عليها ، أم سمحت بها غمدا
أبخت الرضاب العذب بعد تمئج وأبرزت ذاك الحيد والفاجم الجعددا
طوت بعدك الدنيا رداءً جاهها فلا روضها يجلى ، ولا لزيها يندي

وكان الوزير مسلماً ديناً ، متمسكاً بمذهبه الشيعى ، مؤمناً بأن علياً خير الصحابة
لأنه الوصى وزوج بنت النبى . يقول :

عرفت علياً بطيب النجار وفصل الخطاب وحسن الخيلة
تطلع كالشمس راد الضحى بفضل عيمم وأيد جزيلة
فكان المقدم بعد النبى على كل نفسر بكل قبيلة

ويرثى من هواه معهم من آل النبى كالشريف الرضى . يقول من قصيدة مطلعها :

رزة أغزاز به الثمى وأنجددا وذكرتنا يا ابن التمى محمد
يوماً طوى عنا أبالك منجددا ولقد عرفك الدهر قبلك ساليا
إلا عليك لما أطاق تجلدا

(١) المصدر نفسه ص ١٢٤ .

ويذكر الأنصار لأنهم كانوا شيعة على فيفضلهم على المهاجرين .
قال ابن أبي الحديد : (١)

يقول إنه لولا الأنصارُ لم تستقم لدعوته — ﷺ — دعامة ، ولا أرسيت له قاعدة
ويهجو بنى أمية لكرهه الشيعة لهم فيقول ذاكراً للخلافة : (٢)

ثم امتطاهما عبد شمس فاغتذت هنزواً ، وبُدِّلَ ربُّها بِخَسَارِ
وتنقَّلت في عصبه أمويَّة ليسوا بإظهار ، ولا أبرار
ما بين نأفسون إلى مُتَزَلِّدِي ومُداهن ، ومضاعف ، وحجار

وشعر ابن المغربي يجري في موضوعات كثيرة كغيره من الشعراء ، ويكشف ما جمع
منه من مختلف المصادر قوله في عدة اغراض ، أكثرها مما اعتاد الشعراء القول فيه
كالمدح ، والغزل ، والفخر ، والوصف ، والرثاء ، والشكوى .

ومديحة عادى يجري على عادة المدح العربي ، وفي المجموع من شعره قصيدة يمدح بها
الأمير حسَّان بن المفرج حين لجأ إليه بعد هروبه من مصر يقول :

أما وقد حَيِّتُ وسط القباب فَلتَقْسُونَ علي الزمانِ عِبابي
يترَّم الفولاذُ دون مُخَيَّمي وتزغزغُ الخرصانُ دون قِبابي
وإذا بيك على الثبَّةِ خيمَةً شُدَّتْ إلى كِسْرِ القنا أطبابي
وتقومُ دوني ثبَّةً من طيِّءٍ لم تلبسْ أئوابهم بالقبابِ
يتاثرون على الصريخِ كأنهمُ يُدْعُونَ نحو غنائم وهابِ
من كلِّ أهرث يَزْئمي جِملًا قسُ بالجَمْرِ يوم تسايِفِ وضرابِ
يهديمُ حسَّانُ يحمِلُ بسرةً جرداءُ تعلية جِراحِ عقابِ

مقدمة ليست تقليدية في غزلها ونسبها لكنها حديث العزة والاعتزاز والمنعة في قوم
ذوي أئيد ومهابة .

وبناءً جزلاً ، لفظٌ غريب ، يميلُ فيه إلى الإغراب قصداً ، مستعيناً بمعرفته اللغوية
الواسعة ، وبناءً صلدً ، يتمشى مع طبيعة الموضوع ، وبلوئية المقام ، فهو بين جماعة من

(١) شرح نهج البلاغة ١٧/٦ .

(٢) الزند المغربي ص ١٣٧ .

العرب ، يطربهم سماع مثل هذا القول ، الغريب القريب إلى نفوسهم . وهو يدل به ، فهو شعر مصنوع لا مرآة ، لكنه يث فيه لوعته وينفت فيه كربتة ، ويتقرب إلى ذوى منعة ليمهد الجو لإيوائه ، وأن يحل بينهم في حماهم . فيقول :

يا طيئة الخيرات بين جلالكم آمن الشريد ، وهمة الطلاب
سمكت خيامكم بأمنية الرئى مرفوعة للطارق المتساب
وتدل ضيفكم عليكم السور شبت بأجدال فهزن صغاب

* * * *

جاوزتكم لملائم غنى الكرى وجوايحسى لغرائب الإطراب
من بغد ذعز كانه أخفز أضلمى حى لضاق بها علسى إهابى

وهكذا يمضى فى المدح المصنوع ، إلا أن هذا التكلف يقل ، وترق عاطفته ، ويسهل لفظه فى غير المدح من موضوعات تتصل بلداته ، وهواه ، كالغزل ، والوصف وفى هواه لآل على وشيعته .

كأن يقول وقد كتب بها إلى الف له :

يا من لقلب هائم لم يستطيع ذكر اسم من يهواه من إشفاقه
ولعاشق غلبت عليه خجلة فكأنه المعشوق فى إطراقه
ينهى عن البث المريح لسانه فيموث مطوئسا على أشواقه

ويقول متغزلاً فى ديباجة بدوية :

وما ظيئة أذمساء تحنو على طلا ترى الإسر وخشاً ، وهى تانس بالوحش
غدث فارتعت ثم انتت لرضاعه فلم تلى شيئاً من قوائمه الحمش
لطافت بذاك القاع ولهى لصادفت سباع الفلا ينهشته أيما نهش
بأوجع يتى يوم ظلت أنامل تودعيسى بالدرد من شبك النقش
وأجالهم لحدى وقد خيل الهوى كأن مطاياهم على ناظرى تمشى
وأعجب ما فى الأمر أن عشت بعدهم على أنهم ما علقوا فى من بنطش

ويقول متغزلاً غزلاً حضرياً على نهج الظرفاء :

مرض بقلبك ما يمسأ وفيل حب ما يمسأ

يا آخر العُشاق ما أبصرت أَوْها يُقْـادُ
يقضى المتيّم منهم ملكوا النفوس فهل لها
ما خلّك غزلان اللّوى بالعذل ثوقد لوعتسي
لا أشكون جرحسى فلك
من بعدها ما يستعاد كظباء مكّة لا تصاد
يقذجه يُوزى الزناد غُدال أسنة حداد

وفي الوصف والحنين إلى حلب ونهر قويق بها يقول :

أما قويسق فلا عدلته مزنة من جذرها برز الكمّام الصيب
نهر لابناء الصّابة مُغشّق فيه وللصّادى الملوّج مشرب

* * * *

فرد الرّباب يقول شالم برّقه من أين رقع ذا الفريسيّ المُهدب
والبدز في كليل السحاب كأنه ملك بقاصية الرواق محجب
والأرض حاسرة تودّ لو أّها بما يجبره الرّيبع فجلبب

ويقول متشوقاً إلى حلب :

يا صاحبيّ إذا أعيكما منقّمى فلقيانى نسيم الريح من حلب
من الديار التي كان الصّبا وطرى فيها وكان الهوى العذرى من أربي

وقال في ظرف البغداديين :

يوم الكسوف جلا على بصيرى فقرأ أصار الجن والإلقا
قامت وأرحث من ذوايها وتجلّثت عن شعراً والإلسا
فسأتها لم قد لبست دجى قالت أساعذ أختي الشمس

وقال في بابل من حلب :

حنّ قلبي إلى معالمها بلا حين المولء المشهور
مطلب اللّهُو والهوى وكناس الحـ ررد العين والظباء الميسف
حيث شطاً قويسق مسرح طرف والأسامي مؤالسي وآليسف
ليس من ينسل حنياً إلى الأو طان إن فتت الثوى بطريف

ذاك من شبيمة الكرام ومن عهد الوفاء المحبب الموصوف
وقال في قلب الأيام به بعد هجرته من مصر :

قطعت الأرض في شهرى ربيع لقال لي الحبيب وقد رآنى
سوقاً للمضمرزة الحساق ولكنى ركبت على اشتياقى
ركبت على البراق ؟ فقلت : كلاً

وقال :

طيف ألم ننى عزيزم الشبك أكرم به يجفو وحشؤ وسائدى
وخلأ صواب الحب بعد تشكك وزد وبعطف إذ وسادى موركى
عجبت أنيسة يتسا إذ أبصرث طمان جود للشاء ممسلك
قالت : فهبك بمصر كنت معازلاً وجهاً من الدنيا أنيق المضحك
فالآن قد أصبخت جاز أباعسبد خذت شوائبها خفاف المبرك
قلت اربعى فضمين رزقى واحداً في يوم اقتار ويوم تملكك
فلهاتفى بالأريحية سكرة تهزنى في لسرورة وتنشك

وفى تشيعه لعل وآله يقول فى على بن أبى طالب :

صل عليك الله يامن دننا من قاب قوسين مقام النيسة
أخوك قد خولفت فيه كما خولف فى هارون موسى أخيه
هل برسول الله من أسوة لم يقصد الله بما سن فيه
ويشكو الزمن والشيب ، وما يلقاه فى دهره من غنى وعناد وتقلب أحوال . يقول :

أرى الناس فى الدنيا كراع تنكرث مراعية حتى ليس فيهن مرثع
لمساء بلا مرعى ، ومرغى بهر ما وحيث لرى ماء ومرعى لمثع
ويقول :

ما لى أرى قلبى تنازعنة وطنائى من حلب ومن مصر
لا عيش إلا كوز ناجية لا ظلل غير ذوائب السفر
ويقول :

إذا ما الفتى ضاقت عليه بلاده وأيقن أن الأرض واسعة القطر

ودام على ضيق المعيشة صابراً
ولم يحترم للنفس عِزاً يَصُونُهَا
على الدل والحال الدنية والفقير
فلا فرق بين القيد والرجل الحر

وقال في المشيب :

خاف المشيبُ تعبِي فاجارهُ
لمضى الشبابُ مَظْلُماً مُتَعَسِّفاً
طلُّ الهمومِ وعزُّ ذاك المُجِيرَا
وأقَى المشيبُ مجاملاً مُعَسِّدُورَا

وقال :

عجبتُ هُندُ من نُسرُعِ شيبِي
عوضتني يَدُ الثلاثينِ من مِــــ
قلْتُ هذا عُقبِي إطامِ السُرورِ
لِكِ عِدَارِي رِشَا من الكالِــــورِ
كان لي في انتظارِ شيبِي حسابُ
خالطبني فيه صروفُ الدهورِ

وتعوده فتراتٌ من الزهادة والنسك ، لا يلبث بعدها أن ينفضها عن قلبه ليعود إلى روح الحياة ، ولهوها .. فيعبر عن هذا كله في أبيات ، ومقطعات ، وترى فيما تبقى من شعره آثار نفسه الجموح ، وكبرياءه وتعاليه ، وعدم رضوخه للاحداث ، بل معاندتها ، ومكابرتها ، ومحاولة التغلب عليها ، كما تراه أحيانا وقد عاودته لحظات الندم ، فينظر إلى ما تقضى من حياته في اللهو ومغالبة الأيام وكأنها صورة من صور الاعتزاز بالدنيا ، ويمدّ يديه متضرعاً إلى الخالق في كلمات من التوبة ، فيقول :

كنتُ في سَفرةِ البطالَةِ والغِيبي
ثُبْتُ عن كَلِّ مائِمْ لِعَسَى يمحى
زماناً ، فحانَ مِنِّي قُــــدومُ
بهذا الحديِثِ ذاكَ القديــــمُ
بعد خمسين وأربعين لَقْدَمَا
طَلْتُ ، إلا أن الغريمَ كَرِيمُ

ويقول وقد استشعر نهاية الحياة في القبر :

إلى أبُلْسِكِ من حديــــثِ
فارقكُ موضعِ مرقدي
سى والحديــــثِ له شجونُ
ليلاً ففارقني السكونُ
قل لي فسأولُ ليلــــةً
في القبرِ كيف تُرى تكونُ

وشعر الوزير المغربي كما أشرنا يجمع بين جانبيين ، جزالةً ، وغرابةً ، أو ميل إلى الإغراب في عبارة تعسر أحياناً ، ولفظ يشقُّ على السامع والقارئ معاً .
وجانب آخر يُلطف فيه ويسهّلُ ، ويتصرف أحياناً ، ويمجنُ أحياناً أخرى ورغم أنه

في مجونه يتحدث عن المرأة ومحاسنها الجسدية ، وعن الغلمان أحياناً إلا أنه لا يصرح بعلاقة آئمة ، ولا يذكر الخمر على ماحاءنا من شعره وليس علينا مع هذا أن نطلق الحكم على كل شعره . فلعل من احتار له تحب ذكر كثير من شعر المهو أو الخمريات .

وشعره من حيث التعبير ، والانفاظ ، واستخدام البديع ، لا يميل فيه كثيرا إلى الصنعة ، وإذا ما اعتبرنا شعر العصر ، وتمتل أماننا كبار شعرائه أمثال المتنبي وأبي العلاء المعري ، وابن وكيع التنيسي ، وابن حيوس ، وابن الخياط وجدنا معظم هؤلاء يميلون إلى البديع ، واستخدام صورته المختلفة ، من جناس وطباق ، ومقابلة ، ولزوم ما لا يلزم ، لكن الوزير المغربي يخرج على تقليد العصر وطرز شعره إلى هذا الشعر الذي رأيناه ، وإن كان يجيد في التشبيه والاستعارة وبعض الصور الشعرية ، لكن دون إسراف . كقوله في وصف سوداء :

يارب سوداء تيمتسي يحسن في مثلها الفسرام
كالليل تستنهل المعاصي فيه ويستعذب الحسرام

وكقوله في وصف المرأة :

أينا تلتفت نجد ظل طونسي ونجد كوترا أغرم صقلا
لرئها طيب الشباب لما يصح ب السروز فيها خلسلا
فصرى اللهو إن أردت طليقاً والتقى إن أردته فسلولاً

وفي قوله :

ولقد يميل بناظري عن مسجد غصن من الرمان أكمل ينغ
متسرج نهداء ، يكتنم حننة خفراً ، فطبعهما يخالف طبعه
أهدا ينشئ صيدازة بنهودة ولو انسى صيرت درعسى درغ

وبعد فإن شعره بعد هذا لا يأتي في الصدارة من شعر العصر ، إلا أنه مع ذلك لا ينزل عن قدر مقبول ، فهو جيد في معظمه ، وقد أغرم به بعض معاصريه ، ومن جاءوا بعده من الأدباء ، ومن ألفوا في المجموعات والبلاغة ، لغرابه معانيه ، وصوره أحياناً ، فأكثروا من النقل عنه . كما أن بعضهم لم يخرم بشعره غرام هؤلاء فلم ينه إليه ، ولم يكثر التمثيل به .

كتابات ابن المغربي ومؤلفاته :

وكما سبق أن عرضنا في سيرة الوزير المغربي فقد كانت له كتب ومؤلفات ألفها على مدى مراحل حياته ، ومنها بل لعل أولها كتابه « مختصر اصلاح المنطق » لابن السكيت الذي أسماه « المسحل »

وكان كتاب « إصلاح المنطق » قد اختصر أكثر من مرة ، وكان ابن السكيت نفسه قد اختصره كذلك فاسقط منه أبواباً ، لعله وجدها غير ضرورية لمن يرجعون إلى كتابه ، واختصره آخرون ، وأخل بعضهم بنهج الكتاب ومادته . وكان مختصر أبي القاسم الحسين بن علي حديداً في بابه لأنه رد النظائر إلى بعضها فجعله ثلاثة أقسام : أمثلة الأسماء ، وأمثلة الأفعال والنفي .

« واضطره هذا التفريع إلى ما يتجاوز حدّ الاختصار ، وذلك بإضافة أبواب جديدة إلى الكتاب ». ووضع أسماء لأبوابه الأصلية مثل باب ليس ، وباب المذكر والمؤنث ، وباب العدد .. وجعل الأبواب الطويلة منه مرتبة على حروف المعجم ، فجاءت أبواب الكتاب الأصلي ٢١٨ باباً ، والأبواب المزيدة ١٠٧ باباً .

وبهذا يكون عمل أبي القاسم أقرب إلى التأليف الجديد منه إلى الاختصار . ولم يمكن له هذا العمل إلا قدر كبير من العلم باللغة وأسرارها .

وعرض أبو القاسم كتابه على صديقه العلامة المعري ، وكان لا يزال في عنقوان رجولته ، وعلمه قل أن تتقدم به السن . ومعروف أن أبا العلاء كان حجة في اللغة ، والعلم الواسع بها ، الأمر الذي مكّنه من استغلال تلك المعرفة في نظمه ونثره ، وما كانت اللزوميات تبدو في صورتها الباردة إلا باقتدار ناظمها والمامة الواسع باللغة وألفاظها .

وقد أعجب أبو العلاء بالكتاب وصاحبه مما حفزه على كتابة رسالته الإغريضية للاشادة بهذا الكتاب وبما بلغه من شعر صاحبه ، فخص القسم الأول من الرسالة بشعر أبي القاسم ، وخص القسم الثاني بكتاب إصلاح المنطق .

يقول أبو العلاء (١) : « وقفت على مختصر إصلاح المنطق الذي كادَ بسماتِ الأبواب

(١) رسائل أبي العلاء من ١٤ ضع كمورد

يفنى عن سائر الكتاب .. ودلّ على حوامع النعمة بالإتياء كما دلّ المضمّن على ما عاب من الأسماء .. وقد تأملت شواهد إصلاح المنطق فوجدتها عشرة أنواع في عدة أخوة الصديق^(١) لما تظاهروا على غير حقيق ، وتزيد على عشرة بواحد ، كأخ يوسف لم يكن بالشاهد .

ويقول عن كتاب ابن السكيت : كان انكتاب تيراً في تراب معدني ... فاستخرجه سيدنا واستوشأه ، وصقله فكره ووشأه ... قد ناب في كلام العرب الصميم مناب مرآة المنجم في علم التنجيم ، شخصها ضئيل ملموم ، وفيها القمران والنجوم . « .

وهذا فإن هذا الكتاب كان بداية طيبة لشاب طموح في العلم والأدب كما كان طموحاً في السياسة والتدبير .

وقد لقي الكتاب بعد ذلك من العلماء تقديراً ، ولم يقتصر الإعجاب على أهل عصره ولا على معارفه وأصدقائه ، بل تعداهم إلى ما بعد ذلك من العصور ، ومن تلا ممن لهم بالأدب علاقة ، وباللغة ودفائها اهتمام ودراية .

فقد أثنى عليه ابن بسام في الذخيرة بقوله : « فإنه غاية لا يتعاطاها إلا من بهر غيبه واشتهر سبقه ، وطريقة لا يتوخاها إلا من رسخت في العلم قدمه ، وترامت به إلى معالي الأمور همه . » .

وصنّف في الأدب والأخبار كتاب « أدب الخواص » . يقول أنه وضعه وسّنه خمس وعشرون سنة ، أي في حدود سنة ٣٩٥ هـ في أثناء إقامته بمصر .

ويدل هذا الكتاب على تمكنه من رواية الشعر القديم ، ومعرفة الأخبار والأنساب وعلو الكعب في اللغة . وكان باعته على تأليفه الدلالة على معجز القرآن . « إذ كان يتبحر ألفاظ هؤلاء القوم (العرب) والمعرفة بمعدن ألفاظهم ، وبمنازع أغراضهم يعلم معجز القرآن علماً جسيماً ذاتياً . وأنا أرى أن علم العالم أن القرآن معجز من طريق القياس والاستدلال ، ومن طريق الحس والإدراك أشرف وأعلى من علم العالم بأعجازه عن طريق القياس بالتقليد لغيره ، والاعتبار بالفصحاء الذين تقدموه ، وكانوا حجة عليه . » .

(١) هم يوسف عليه السلام .

والكتاب في صورته العامة جمع للمختار من أشعار العرب ، وأنساب الشعراء ، وقبائلهم وأخبارهم ، وما يتصل بهذا مما يناسب المقام . وقد اهتم بصفة خاصة بأربعة من شعراء الجاهلية الكبار أصحاب المطولات أو المعلقات ، وهم امرؤ القيس والنابغة وزهير والأعشى ، واستطرد من هؤلاء إلى ما يتصل بكل منهم ، فتحدث عن المداقسة عند ذكر امرئ القيس ، وعن النوابع مع النابغة الذبياني ، وعن كل من اسمه زهير مع زهير بن أبي سلمى ، وعن الأعشى مع الأعشى ميمون بن قيس . مع الاهتمام بقبيلة كل شاعر وأشهر ما جاء من أشعارها ، ذلك كله إلى حديث هنا وهناك عن غريب اللغة ، يعود عليه بالشرح ، ويعقب أحياناً على بعض معاني الشعراء متتبعا لها عند غيره ، ويشير إلى ما بين المعاني من تقارب أو تفاوت .

ومن أمثلة ما جاء في الكتاب عن امرئ القيس الشاعر :

قال : « أول ما سمع حجر من شعر ابنه امرئ القيس قوله :

اسقيا حجرا على علاته من كُمَيْتٍ لُوئُهَا لَوْنُ الْقَلْقُ

وإني لا ستقبح أن يقول قائل لأبيه : « على علاته » ، وأظن ذلك هو الذي غاظ حجراً ، فلما سمعه أمر الساق بلطم وجهه ، وإخراجه . ونهاه عن قول الشعر . ثم سمعه يوماً وهو يشرب من فضلة أبيه وهو يقول :

وهزُّ تصيدٍ قلوبَ الرجالِ وأقلستَ منها ابنَ عمرو حجر

يعنى هر بنت سلامة بن عبد الله بن عليم من بني كلب ، وابنها الحارث ، وهي الملقبة بالحرساء . وقيل إن هراً جارية كانت لأبيه . والأول أصح ، فوثب إليه أبوه فضربه ، وأمر مولى له أن يقتله فلم يقتله ، وأظهر قتله ، ثم ندم على ذلك .

وقيل إنه لما قتل حجر تنازع امرؤ القيس ابنه وثعلبة بن مالك أحد بني عمرو بن معاوية ابن الحارث بن معاوية بن كندة في الملك بعده ، فأجمعا للحرب ، فأكمن امرؤ القيس أصحابه وبرز إلى ثعلبة وحده ، وطعن فيهم فحملوا عليه ، فوئى هارباً وهم في طلبه ، فخرج عليهم أصحاب امرئ القيس فكسروهم ، وأسير ثعلبة وقتله صبراً . وقال :

لا وأبيك ابنة الغامسرى لا يدعى القوم أئسى أئسرى

وبعض الناس يظن أن وفادة امرئ القيس إلى الروم كانت للاستعانة على بني أسد .
وليس كذلك . وإنما سببها أن المنذر بن ماء السماء اللخمي لما عاد إلى الملك أيام أنو
شروان أنفذ في طلب بني آكل المرار جيشاً من بكرم وتغلب ، فأسر منهم ستة عشر
رجلاً ، وقيل اثني عشر فضرب أعناقهم بالحيرة في دور بني مرينا ، وهي تسمى لذلك
تلّ الأملاك . ولذلك قال عمرو بن كلثوم :

فآبوا بالتهابِ وبالسُجَايا وأبنا بالملوك مُصْتَفِدِينَا

ونجا امرؤ القيس بالهرب ، ولجأ إلى هانيء بن مسعود بن عامر بن عمرو بن أبي
ربيعة بن ذهل بن شيان فاستجاره ، فلم يخره ، فأق سعد الضباب الإيادي ، وكان
سيد قومه في وقته فأجازه زمناً ، فمدحه وهجا هانيء . وقيل إن أم سعد كانت تحت
حجر فطلّقها وهي حامل فتزوجها الضباب ، فولدت عنده سعداً ، فنسب إليه ، ثم
تنقل في الأحياء في طيء .

وله كتاب في الأخبار أسماء : « المأثور في ملح الخدور »^(١) . جاء فيه :

« كان أبو العلاء سعيد بن حمدان ملازماً ببغداد وخصوصاً بحضرة المقتدر . قالوا :
فكانت أكثر موافقه على بابه ، وكان أمر الرجالة قد عظم ، وكانوا في بعض الأوقات
ساروا إلى قصر المقتدر مشغبين عليه فهزموا محمد بن ياقوت والحجرية والساجية ، وكان
أبو العلاء في دار المقتدر على غير أهية ، فأمره بالخروج إليهم ، ودفع إليه جوشن المعتضد
بالله ، ودرع وصيف الخادم ، فظاهر بينهما وخرج مع من حضر من غلمانها ، فضرب
فيهم بالسيف ، وغشوه من كل باب ، وأثخنوه بالجراح ، فثبت لهم حتى هزمهم فقال
هوبر الكناني من ولد هوبر صاحب تغلب في حرب قيس وتغلب قسيده بمدحه بها ،
منها :

يرزون الوجوه تحت ظلال المر ب والموت منهم ينسـتـظـل
كرماء إذا الظبا واجهتهم منعتهم أحسابهم أن يذكروا

وكان أبو العلاء شاعراً يعد من شعراء بن حمدان ، وكان أوقع بيني عقيل بموضع
يقال له شرج من أرض العالية ، وراء نجد ، فظفر بهم بعد قتال شديد ، وقال :

(١) المأثور المذوق ص ٢٣١ .

بشها تسأل عن موقفى
وعن عقيل إذ صبحناهم
وقد أتانا منهم فليق
شدذت فيهم شد ذى صولة
إذا قلقت هام أسود الوغسى
بأرض شرچ والقنا شرع
وقد تلاقى الحنسر والأذرع
حام جماء مائة مذفع
قد جربته الحرب لا يخدع
وقطت الأنسوق والأذرع

ووجدت في هذه الأبيات زيادة قرأتها بخط الوزير أبى غالب عبد الواحد بن مسعود ابن الحصين . وهى بعد البيت الثالث :

حتى إذا ما كثرث نابتها
تجنبى نفوساً بين سمر القنا
وبعد بقية الأبيات ختمها بقوله :

لا تزجرينى عن «سلاّب العلاء» ما إن ينال العز من يضرع
أنا سعيد وأبى أحمد . بالسيف ضرى وبه ألقع
أراد بقوله : وأبى أحمد (حمدان) لأن اشتقاقهما واحد .

وغزا أبو العلاء سنة تسع عشرة وثلاثمائة ، فأوغل في بلاد الروم ، وقتل ، وسبي وغنم ، وكان معه خمسة آلاف فارس من العرب ، كل ألف بلون من الرايات والعذب على أرماحهم . وهذا منظر عجب إذا تصورته ؛ وأبو العلاء فيما قالوا ضمن عن البريدى ستائة ألف دينار ثم أمرهم بالهرب ، ودارى السلطان عنهم حتى أصلح أمرهم وأقرهم على أعمالهم ، فما دخلوا مدينة السلام إلا مالكيها . وأهلوا إلى أبى العلاء هدية بألف ألف درهم .» .

ومن كتاب الإيناس بعلم الأنساب^(١) . قال فى المقدمة :

« قال الوزير الإمام الأوحى أبو القاسم الحسين بن على بن الحسين بن على ابن محمد ، المعروف بابن المغربى رحمه الله تعالى :

« نكتب إن شاء الله فى هذا الكتاب ما يحضرننا ذكره من الأسماء التى تشاكلت بعض

(١) بتحقيق إبراهيم الأيبارى وطبع ونشر دار الكتب الاسلامية ، ودار الكتاب المصرى بالقاهرة سنة ١٩٨٠ م .

التشاكل ، وبقى بينهما من الفرق ما يرتفع الالتباس بإيضاحنا إيّاه مثل فهمهم وقهم .
ومن الأسماء التي ألفاظها لداث لا تختلف ، وأشكال لا تفرق ، فنعمد بإيرادها
الدلالة على اتفاقها ، وإيمان القارىء من دُعر الشك فيها مع ما نفضته من حسن موقع
اجتماعها ، مثل بكر بن وائل من عدنان ، وبكر بن وائل من قحطان .
ومن الأسماء الأفراد التي وضعت وضماً مشكلاً ، فيخاف على القارىء تصحيفها ،
ما لم يكن في علم النسب مبرراً ، مثل : شمس ، ومثل بنى خلدة ، ومثل شهل بن
شيبان .

ونورد ذلك على حروف المعجم ، ليقرب متناوله ، ويذل مجتنأه . ونحن نرى أن
الأديب المتوسط الرتبة في الأدب إذا صرف إلى هذا التعليق جانباً من عنايته أمن
التصحيف في جميع الأنساب العربية بتوفيق الله .
ولم يخُل مع ذلك من لُمة ثاقبة ، وأبيات شعر حسنة ، نصيّد له ذكرها بالأسماء
المتصلة بها .

وحملنا على إثبات هذا التعليق استحساننا صنيع أبى جعفر محمد بن حبيب في كتابه
المؤتلف والمختلف^(١) ، فإنه لَحَب لنا هذه السبيل التي كان عليه استفتاحها وعلينا
إكمالها وإيضاحها . وحسب المبتدىء أن يستقصى مجهود رأيه في استشارة ذلك الشيء
المعلوم من مدافنه ، وفتى أحكام الفكر عنه ، وإبرازه لعيان طالبيه . ثم على المتعقب تميم
ما صنعه ، والافتقار به فيما ابتدعه .

والله الموفق والمعين ، وله الحمد رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله
الطاهرين . « .

ويظهر من المقدمة أن الكتاب في دقيق الأنساب ، وما يأتلف منها وما يختلف في
الاسم ويكثر فيه التصحيف ، فنختلط المعارف ، ويحدث الاضطراب حول أخبار
القبائل وبعض رجالها بمن تشابه أسماءهم ، أو تشابه أسماء قبائلهم على بعد الانتفاء
واختلاف الزمان والمكان .

(١) طبع في أوروبا بمراسم : المختلف والمؤتلف في أسماء القبائل .

والكتاب — كما يقول — ذو فائدة كبيرة للأديب والكاتب الذي عليه أن يعرف قدرا من أخبار العرب وأنسابهم .

وهو يدل على سعة اطلاعه في علم الانساب ، ذلك العلم الذي علا قدره فيه كعلم اللغة وأفاد منه كثيرا فيما كتب ، كما أفاده في نقله بين إمارات العرب ورجالاتها في الشام والعراق . وظهرت آثار معرفته بالأنساب واللغة في كتبه ورسائله وشعره ، وظهرت أمثلة لتلك المعرفة فيما عرضنا من كتبه .

وجدير بالذكر أن معظم هذه الكتب أو جلها قد ألفها وهو بمصر قبل هروبه إلى الشام والعراق .

رسائله :

وللوزير المغربي عدة رسائل في موضوعات وأغراض شتى ، بين علم وإخوانيات ، ووصف ، وحوار حول جوانب من العقيدة والدين ... إلى غير ذلك .

قال في الرد على كتاب وصله (١) :

« وقفتُ على كتابك ، ولم أزل أثلّمه ، كأني قد ظفرتُ باليد التي بعثته ، وأضمه كأني أضمتُ الجوانح التي نفثته . وكأني كلما أدنيته إلى الكبيد المعذبة ببعيدك وأمرزته على العين المطروفة بفقدك سحبتُ على النار ذيل السحاب ، وسقيت عطش الحب كأس الرضاب ، وأعرثُ أخا سبعين ظلّ الشباب ، فأرثتُ يوم قُومِهِ لأجعلهُ موسماً للسرور ، وعيدا باقيا على الدهور ، أرتقبُ السعدَ عنده كل عام ، وانتظر الفرج منه من كل غرام . واتفقَ وروده في أشرف فصول الدهر حسبا ، وأكرم مفاخر الأيام نسباً ، حين ابتداء الربيع يزخرِف بُروده والروضُ ينظمُ عقوده . وكنتُ أعرفُ هذا الفضلَ باعتدال مناهجه ، وصيحة مزاجه ، وأنه لو كان الزمنُ شخصا لكان له مقبلاً ، ولو أن الأيام غوانٍ لكان لها حلياً وحلّالاً ، لأن الشمس تخلصُ فيه من ظلمات صوت السماء ، خلاصَ يونس من ظلمات حوت الماء ، فإذا وردت الحمل وافتُ أحبُّ أوطانها إليها ، وأعزّ مساكنها عليها .

(١) الذخيرة لابن بسام ص ٤٩٦ طبع إحسان عباس .

« فإيا حُسْنُ تلك الصحيفة ، وفدادها يتهبُّ بالأفواه ، ويزيد بالتقيل لعماساً في الشفاه . وياعجباً كيف حفظ مع بعد العهد نشرَ عَرْفِكَ ، وكيف علقَ مع تراخي الأيام طيبَ كَفِّكَ . وكيف جاءَ كأنك كتبتَه من أم ، وأنفذته وبيننا سُخطوةً قدم . وكيف لم يُغَيِّرُهُ ما قطع من مهاوِلِ قِفار ، وليلٍ ونهار ، وعدوِّ كاشح ، ورقيبٍ لامخ . فأنعم . به من رِيحَانَةِ أَلْفَاظِ دَامَتْ لُنُوْتُهَا ، وبأكورِةٍ وصالي سلمت غَضُوْضُهَا ، ومسحةٌ يدِ يَتَى أثرها أَرْجَا ، وروضةٌ كلمٍ دام على الصيفِ بهجَتُها فأما شِوَالُكُ عَنِي فما يشبهُ سِرَّتَكَ الحُسْنَى ، ولا يَلِيقُ بطريقَتِكَ لِنَتَلَى . كيف تسألني والإحابةُ معك ؟ . وكيف تستخبرني ومحلُّ الخبر والاستخبار عندك ؟ ، ومتى سمعتَ نجوابَ جَسَدِ رهينة ؟ . وأين رأيتَ طماحَ عَيْنٍ لوأحظها مقيدةٌ كليله ؟ . أَلَمْ أَفَارَقْكَ ، وقلبي عندك أعشارٌ ، وأضلعي منه قفار . ؟

ومن فصل له يصف الموصيل حين ورودها :

« وردتُ الموصيلُ التي خالفَ اسمُها معناها ، وكانت مقطوعاً بيننا لولا خُدْعُ الأمانى ، وفصلاً لولا المرجوُّ من عَفْوِ الليالى ، فوحدتُ هِدَاءَهَا يعطلُّ سوقَ بُقراطِ اعتدالاً وطيبة ، وماءها يُسَلِّي عني مُجَاجِ النَّحْلِ استمراءً وُعْدُوْبَةً ، وصقَعُهَا قد تبغذُ رِقَةً ولَطْفًا ، وجوُّها قد تزدقُ تَنَعُّماً وظرفاً ، تكادُ تَنَقُّلُهُ عقودُ الغاياتِ ويغجلُهُ تتابعُ اللحظاتِ ، كُلُّ شِمَائِلِهِ نَسِيمٌ ، وكلُّ جنوبه حياً عميمٌ ، ورأيتُ أرضها أطيبَ الأرضِ خِيَمًا ، وأزيتها أديبًا ، تُنَسِّجُ بالسُنْدُسِ الأخضرِ ، وتفتُرُ عن الأَقْحَوَانِ الأحمرِ ، ورأيتُ بُنْيَانَهَا هو الذى حمدَهُ اللهُ في تنزيله ، وأحبهَ لنا أن يكونَ مثلهُ جهاداً في سبيله ، مرصوضاً بوقاجِ الجَلَمَدِ ، مُلَاءِماً بينه بالشَّيْدِ المَرَعْدِ . قد حصنَ ظاهِرُهُ على باطنه عن تداخُلِ الإيترِ ، ومساكنِ الذرِّ ، يزلُّ عنه ظفرُ الطائرِ وتندحرجُ عليه أحداقُ الناظرِ ، وتغتنى به العروسُ عن الماوىِ المنيرِ ^(١) ، وتبينُّ به العيونُ منابتَ الشكرِ من أهدابها والغمرِ ، متلاقيةً أقطارُها على رجالِ كأنهم أنسلاءُ عاد ، وثاقَةُ أجسامِ وصلابةِ أحلامِ ، وبعُدِ مرامِ ، لطفوا عن بدويَّةِ الشامِ وغلظته ، وحمدوا عن ذوبِ العرابِ ، وصلابتهِ قد عُقدتُ ألسنتَهُمُ بالصَدَقِ ، فما ينتثرُ الباطلُ من عذباتِها . وصحتُ غرائسُهُمُ في المودَّةِ ، فما يُجتنى الغدرُ من ثمراتها ، إن سلماً فسلماً ، وإن حرباً فحرباً . لا يعرفونُ تدليسَ

(١) الماوى : حمر البلور أو امرأة .

الأخلاق ، ولا تمويه النفاق وشعراؤهم ملء اليدين ، وكتبهم أثر بعد عين . أدبهم
حسن على قلة الملوكة فيه . وعلمهم متقن لمن تأمل أدق مسرب في فتن معانيه . قد
محصن تهذيب المحن شيرازهم ، وأوهن خيارهم . بلدهم أطلال ، وأحوالهم آل . قويهم
يقن ضعفاً ، وضعيفهم يماطل حتفاً ، بقيت عليهم أسمال النعم ، وذهب الدهر
بأجسامها . وانجلت عنهم ظلل المحن ، وهم يتأوهون من غير آلامها ؛ إلا أن فيهم بقية
نثية ، وفيهم موضع تدارك إن رزقوا سيرة مرضية . فلولا ما أرجوه من مداواة
أسقامهم ، وإعادة صالح أيامهم ، لقضاني الانتماء بمعاشتهم قبل معاناتهم ، وبملاحظتهم
قبل مقاساتهم ، لكنني أعلم أن من يحيى العظام وهي رميم ، ويبعث الروض وهو هشيم ،
وينشئ اللو بعد أن كانت قفارا ، ويجعل من الشجر الأخضر نارا قادر على أن يجعل
ثواب نيتي فيهم معونتي على ماأنويه لهم ، وجزاء تأملي بهم بلوغ الغرض في تدارك
رفيقهم .

فصل من رسالة بعث بها إلى ذى السعادتين الوزير الحسن بن منصور وزير بهاء الدولة البرهسي

« للرياسة كُلف لا يستقل بها إلا المهذب الكامل ، ولا يخطو تحت أثقالها إلا الأوحذ
الفاضل ، ولا يبلغ ذوائب أعاليها إلا من شرب الأجاج من ماء وادبها ولا يلد بملكها إلا من
أعلى المهز من كريم مساعيه ، ولا يفض ختامها إلا من جعل مازلة الخطوب سلكا لعقود
إيامه ولياليه . ولذلك قيل ما نشدته استبصاراً ، وأنا إلى إيراده أئين إصرارا :

لا تحسب الحمد تمراً أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

* * * *

وإن سياسة الأقوام فاعلم لها ضغفداء مطلمعها طويل

* * * *

ويظلموا فترى الألوان مسفرة لا خوف ذل ولكن فضل أحلام

ويحتاج الرئيس إلى أعوان يظهر بهم كمية مكارمه ، ويمضى فيهم ويهم ماضى عزائمه ،
فلولا الطالب لعاش الكريم مطوياً على حسرات أوطاره ، ولولا الخاطيء لما وجد الخليم اللذة
جليه ووقاره . وكلما كان التابع أبعد مذهباً في معناه كان المتبوع أشد حذلاً بظهور مناقبه
وغلاه .

وله في باز طار كان يتصيد به أحد الأشراف :

« بلغنى خبر الغادر المادق ، و الباشق الآبق ، فشاركته في الاستيحاش من فراقه لما كان
يبدع من مصايده ، ويقرب من مطارده ، ورأيت قد شاب فضائله بهذا الغدر الذى يسلى
عن تذكاره ، والإباق الذى ينسى محاسن آثاره ، والنكب الذى ختم به عواقب عهده ،
وبعض إلينا ، بل إلى سيدنا استخدام أمثاله من بعده ، لأن أحق الناس بكرهية الغدر من
كان الوفاء رضيع لبانه ، والحفاظ منبت أصوله ، ومنشأ أعصابه ، وكأنى بفقده ، وهو
عند الدراج^(١) ، من أنعم الأعراس ، ومن الوحشة منه وهو بين سرايب الطير من الذ

(١) نوع من الصيد ، وهو دجاج البر

الإيناس ، لأنها أريحتُ بعدَهُ من حتفها العاجل ، وسُمِّها القاتل ، واجدها انتقصر .
 ووجلها الحاضر ، وعقله قوادمها وخوافها ، وهشّة نواظرها ومآقها ، والكوكب
 المنقضُّ على مسارحها ، والسهم القاصد الى مذايحها ، والآفة التي كانت بها حُرِّمتُ
 حُسْنِ الرياضِ المونقة ، وثكلتُ بردَ الغدرانِ المغدقة ، وتَنَعَّصْتُ مشاهدةَ هذا الجوّ
 الرقيقِ الشمائل ، اللازوردى الغلائل ، حتى صارت لا تكثر بوكرٍ تبنيه ولا بفرخ
 تغذيه ، علماً بأن لها منه مفرّق العدّد ، وفاجع الوالد بالولد . ولو علمتُ هذه الأطيّار
 الشّامتة بنفاده السالكة سبيل الأسر ، بافتقاده ، بما يعدّه سيدنا لها من ذى ظفرٍ مظفر ،
 ومنسرٍ للطيرٍ ميسر ، وخليفٍ صالح ، وجارحٍ جارح ، أسد لها منه اصطلاماً ، وأسد
 الى مقاتلها سهاماً ، لعلمت أن كثرتها استجماع له ، وأن وفورها توفير عليه .

وفي فصل منها :

« وما ألومُ هذا المارق على ملله وانحياثيه ، لأنه كان قد تعودَ أن يصيد بمقدار قوته
 ومعاشه فصار سيّدنا يستخدمه بهمةٍ تطلبُ الغاية البعيدة ، وتستهل المشقة الشديدة ، التي
 هزلها جدٌ ، وجورٌ ها قصد ، ولعبها ارتياضٌ ، يتصير من لم ينقد إليها سريعاً ، ذا ضراوة على
 اقتناص من لم ينته الى أوامرها مطيعاً ، فلم يُطق على ذلك جلدأ ، ولم يجد بهذا الأمر
 الفادح يداً ، فما أشدُّ بسذى لعذره ، ومعرفتى بسبب عنره ، وآمل أن يتذكر ماكان له
 لغنائه من نعيم ، خياله بين عينيه وطيب عيش تذكّره أجدى له من حماقيه ، فتدعوه
 عواطف التريية والإيثار ، وتزول عنه عوارض السهو والاعتزاز ، فيعود الى رسمه ،
 ويعود من جرّمه ، ويرجع وقد أدبته النكبة ، وهذبته العربة .

وكتب الى رئيس نصرانيّ اعتنق الإسلام^(١)

وكان في ذلك الأوان بمدينة تكريت .

« .. ويعلمُ الله ماورد على وعلى كافة من حضر من المسلمين من السرور بما أبان الله
 من آيةٍ قطعت عنذَ الجاحدين ، وحجةٍ استهلكت شُبه العاندين الجاهلين ، لا أن هذا
 الدين — بحمد الله — مفتقرٌ من بعض حواشيه الى بينةٍ تزيد فيه ، ولا أن الاستدلال

(١) وهو المطران الكبير رئيس ايعاقبة أبو مسلم مشرف بن عبيد الله . وكان اسلامه سنة ٤٠٧ هـ وأرسل هذه
 الرسالة إليه من ميّارفاقيس .

الصادق كَانَ تَرَكَ شُبُهَةً إِلَّا فَضَحَهَا وَلَا مَعْجَزَةً إِلَّا أَوْضَحَهَا ، وَزَائِعًا إِلَّا قَوْمَهُ ، وَجَاهِلًا إِلَّا عُلْمَهُ ، وَرَكْنَا لِلْبَاطِلِ إِلَّا خَفَضَهُ وَعَقْدًا لِلشَّرِكِ إِلَّا نَقَضَهُ . إِلَّا أَنَّ الْمُخَالِفِينَ قَدْ شَغَلَتْ الدُّنْيَا أَكْثَرَهُمْ عَنِ التَّأَمُّلِ ، وَحَجَبَتْ الْعَادَاتُ خَوَاطِرَهُمْ عَنِ التَّأَوُّلِ ، فَبَعْدَ بِالْحُجُجِ السَّالِفَةِ ذِكْرَهُمْ ، وَاشْتَدَّ إِلَى الْبِرَاهِينِ الْمُسْتَحْدِثَةِ فَقَرَهُمْ ، فَكَانَ أَبْلَغَ بَرَهَانٍ إِقْبَالَ مِثْلِهِ إِلَى الْخُجَّةِ عَنِ غَيْرِ رَغْبَةٍ اسْتَفْزَتْهُ ، وَلَا رَهْبَةٍ هَزَّتْهُ ، وَلَا مَحَاسِدَةٍ أَغْرَتْهُ ، وَلَا مُنَاطِرَةٍ عَزَّتْهُ ، بَلْ أُطْلِقَ عَنَانَ عَقْلِهِ ، وَمَدَّ بِهِ رَاشِدًا حَتَّى وَقَفَهُ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَاسْتَتْلَاهُ قَاصِدًا حَتَّى أَوْرَدَهُ إِلَى الْمَنْهَجِ السَّلِيمِ ، فَوَرَدَتْ النِّعْمَةُ بِتَخْيِيرِهِ صَافِيَةً غَيْرَ مَكْدُورَةٍ ، وَالْمُنْحَةُ فِي اسْتِمَانِهِ وَافِيَةً غَيْرَ مَقْصُورَةٍ ، فَهَيْئًا اللَّهُ الْإِسْلَامَ مَا لَا يَزَالُ يَتَوَلَّاهُ بِهِ مِنْ إِيْضَاحِ مَنَارِهِ ، وَتَبْلِجِ أَنْوَارِهِ ، وَإِدَامَةِ صَبْحِهِ ، ضَاحِكًا ، تَتَصَدَّقُ عَنْهُ دِيَاجِيرُ الشَّبَهَاتِ ، وَتَنْجَلِي مِنْهُ مَلَاسِرُ الضَّلَالَاتِ . وَهَنَّا اللَّهُ الشَّيْخَ مَارَاةً لَهُ أَهْلًا مِنْ هَذَا السَّنَاءِ ، الَّذِي تَقِفُ دُونَهُ هَمُّ الْمَعَالِي ، وَتَضْيِئُ بِهِ ظَلَمُ اللَّيَالِي . وَغَرَسَ عِنْدَهُ التَّوْفِيقَ الَّذِي يَسْتَرْهَنُ لَوَاءَ النِّعْمَةِ ، وَيَضْمَنُ بَقَاءَ الْعِصْمَةِ .

وقال من رقعة في فتح^(١)

« ولما تقاربت الفتان إذا بعلونا في عُدَّةٍ قَدْ اشْتَمَلَتْ مِنْهُمْ عَلَى كُلِّ سَهْمٍ فِي كِنَانَتِهِمْ ، قَدْ اسْتَكْثَرُوا مِنْ عُلُوجٍ لَا يَخْشُونَ حَوْمَةَ اللَّقَاءِ ، وَلَا يَشْتَبُونَ عَلَى مَقَارِعَةِ الْأَكْفَاءِ . فَلَمَّا اجْتَمَعَ أَعْدَاءُ اللَّهِ ، وَقَلْبُهُمْ بِالذَّعْرِ مَتَفَرِّقَةٌ ، وَأَقْدَمُوا وَأَقْدَامُهُمْ الْقَهْقِرَاءُ رَاجِعَةٌ ، وَكَانَتْ لَنَا عِيُونَ تَجُنُّهُ عَلَى مَدَارِجِ أَنْفَاسِهِمْ ، وَطَلَائِعُ تَقْبِضُ عَلَى مَسَارِحِ الْخَاطِمِ . »

ويقول :

« وَبَادَرْتَهُمْ فَرَسَانٌ مِنْ بَنِي عَامِرٍ عَلَى الْجَرْدِ الصَّلَادِمِ ، قَدْ بَزَّوْا الْجُبْنَ تَعَجُّلاً لِلطَّرَادِ ، وَخَفَّفُوا مِنَ الرِّمَاحِ تَقْصِيرًا لِلْبَعَادِ ، فَوَكَّرُوهُمْ بِالرِّمَاحِ وَكَّرَأْ تَرَكَ الدُّرُوعَ مِنْهُمْ غَلَاثِلٌ ، وَأَمَانِي الْحَيَاةِ فِيهِمْ قَلَاثِلٌ فَلَمْ يَتَرَكَ الْقَتْلَ فِيهِمْ إِلَّا أَنْفَسًا عَافَتْهَا كِرَامُ السَّيْفِ ، أَوْ آخِرِينَ عَزِينَ تَكْفَكُفُ عَنْهُمْ الرَّحْمُ الْعَطُوفُ يَتَمَسَّكُونَ بِأَنْفُسِهِمْ حِوْزًا ، وَيَعْتَدُونَ ذُلَّ الضَّرَارِ عِزًّا . وَافْتَرَقُوا إِلَى أَوْطَانِهِمْ يَرِيقُونَ اللَّيْلَ كَمَا يُرْتَقَبُ الصَّبَاحُ ، وَيُدْجُونَ بِكُلِّ مَاشِيٍّ مِنَ الْخَيْلِ بِجَنَاحٍ . وَكَانَ أَمِيرُهُمْ فِي بُلْهَنِيَّةِ الْاسْتِهَامَةِ بِهِمْ ، وَقَلَّةِ الْفَكْرِ فِيهِمْ ، قَدْ بَاتَ يُعْمَلُ كَاسُهُ ، وَيُلْهَى

(١) الذخيرة ٤ / ٥٠٦ .

جلّاسه . وغدا سكران على فرس جموح يبادرُ النهاب وهي أنفسهم ، ويخولُ الغنائم وهي مهجهم ، فرقصت به الفرسُ ، فصادف ذلك الأجل المكتوب له . فجزى الله هذا الحى من آل عامر أمناً الجزاء عاجلاً ، وأدومته آجلاً ، وثنى بينى عننا الأقرين وعشيرتنا المستخلصين ، خفاجةً ، وكذلك الجيران ، وأهل البلد والأعيان ، وألفاف كانت سماؤهم نكرةً ، فعرفتُها المواقف الحميدة ، وطوائف عاطلة حلتها الخطى البعيدة وخاملة نبه عليها شكر السيوف لأيدٍ منهم وصلت قصارها ، وأوصلت في زحام الورد حوارها .

رسالته إلى أبي العلاء المعري وأخيه^(١) :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه — أطال الله لسيدى الشيخين في سبوغ النعمة البقاء ، وأدامَ لهما في ذروة المجد الارتقاء ، وجعلنى لهما من كل سوءِ الفداء والوقاء — نفثةً مصدورٍ ، وضجرةً مأسودٍ بعثتها صباةُ الهوى ، تذكيها نارُ الغرام ، في صبايةٍ لقاءٍ تقلها أيدي السلام :

بقيةً شيلو كسرَ البينُ عظمتُه ومزقَ جلدأ كانَ يسترُ ما يقى
أقامَ فلا تلك الخواي تطيعُه نهوضاً ، ولا تلك القوادمُ ترتقى

ولابدُ للمصدورِ أن ينفث ، ولا غرو للمأسورِ أن يتلهث ، وجملتُها أنى كتبْتُ وما لى جارحةٌ إلا وهي جريحةٌ حيهما ، ولا جانحةٌ إلا وهي جانحةٌ الى قريهما ، ولا قلب الا وهو كيفما تردّد وتقلب فقى مرضا لهما ، ولا نفس إلا وهو كيفما تصعدّ وتصوب فقى موالاتهما ، فالله يحرسُ على موقدى جزل الغضا بين جنبي ، وموقدى جيش الصباة كل يوم إلى ، اللذين ان واجهتُ بهما المروءة أسفرَ مربدّها ، وسرّ مكملّها ، وإن قابلت بهما الفتوة طلع سعدها وأوبرى زندها :

أرددُ فيهما فكـرى فترجعُ حُـراً فكـرى
كذلك الشمسُ ثنى العـينَ معشاةً عن الشظرى

فاذا هاجت بلابلى ذكراهما ، وإن كنتُ لا أنساها ، واشتقتُ أن أراها ، ولم أجدُ عوضاً
عمن سواها :

(١) عمرو رسائل أبي العلاء .

أرومٌ بالذکر شفَاءُ البذی یقلِّقنی من روعة الذکر
ولسک بالحمائل إلا علی إطفاءِ جمر بلظى جمر
وعلةُ الکون إذا طوبت بالجرى فی الإفساد لم تجر

تلتُ نفسی لديهما ، وقَررتُ مَكَاتهما بين أيديهما :

وخلوتُ أجلبُ الرُقَادَ لعننى ألقى خيالاً منهما فأراهما
فإذا عدمتُ النومَ لذتُ بفكرتى فانجذب لى من ليلتى فجرهما
وإذا سُئلتُ بمن تميمُ صابئةً قلتُ اللذان هما اللذان هما هما

وفيان بعهدى بالغيب ، والساتران لما فى من العيب ، والمحسنان إلى إن أسأت ، والمعصيان
، أمرى إذا أخطأت .

دليلاً ان جاز بى مهتدي وغوناي ان خذل الناصر
ولولا تردُّدُ فكرتِهما لما كان لى فى الدجى سامر

من اجتلى غرر محاسنهما من جبهات الدهر ، وأقرأ فضائلهما من صحائف العصر
طالع طلعتيهما فى مرآة التخيل ، وأشاهد سمتيهما بعين التفكير والتأمل ، ولاغرو وإن تعد
مهد ، إذا قرب الود ، ولاضير إن تناءت الأشباح فقد تدانت الأزواح :

ولكن إذا حاسبتُ نفسى تأملتُ فلم تر إلا فكرة قل ما تجدى
فلا العينُ ترعى غير ما كان من نوى ولا القلبُ يلقي غير ما كان من وجد
وانى لجانى البعيد والبعد قاتل وشاحدُ حدّ البين والبين لى مُزدي
فوا أسفاً من ذا النوم على النوى وزين قبلى كان الفراق ومن عندي
وكم قد أقلتُ الدهر من خطا تُنى فهلاً أقال الدهر من خطا فرد
ففس من كسر ، وفرج من أسى وجمع من شت وقرّب من بقى

ميات ، هو الدهر الذى يسر نادراً ، ويسوء مبادراً ، ويحسن مبتدئاً ، ويسر آخرأ :

ويجود ثم يُجيدُ أخذ صلايه مستدركاً خطأ الجميل فمدركاً

فإلى الزمان أذم ما ألقاه من غير الزمان واستيم إلى البكا
وإذا شكوت إلى سواه صنيعة لم يُشكِي ، فإنه منه المُشكِي

فلعله أن يغلط باجتماع ، لا يكدره انقطاع ، أو تلاقٍ لا ينخصه افتراق ، وهو المرجو من
طول الله تعالى . ولولا ما أرجوه من عوده إلى ما عود من جمع الفريقين ، ولم ذات البين
لمت كمدنا ، ولم أجد على ما أقاسيه جلدا . فأما حالي وما أنا عليه فجملتها أني أصبح
وأسي في غل التدبير ، وأروح وأغدو في سجن المقادير ، هدفاً لسهام الليالي والأيام ،
غرضاً لأستة الأحوال والأعوام ، أجد ما لا أريد ، وأريد ما لا أجد :

وليتنى من زمني مخرجت رأساً برأس
فلم يتلني بهير ولم يصيني يأس
وكنت أصبح حُرّاً بين الرجاء ويأس

وهما يريان ذلك في اضطراب حطى ، ورجوع ألفاظي شيئاً فشيئاً إلى حطى ، فإذا هما
صرفاً التأمل إلى ، وأقبلا بكليّة فهمهما على ، وجداني :

وقد استحال همى بي فتخائني من طول ما أجد الجوى مسرورا
وقد انطوت متى الضلوع على أسي لو كان محسوساً لكان مسهوا

وأخلق بمن كانت هذه صفته ، أن تتساوى عنده الصحة والسقم . وأحر بمن كان هذا نعته
أن يتأمل لديه الراحة والألم .

بأى فؤاد أقاسي الهموم وفي أى جفن أحس السهاداً
وما ترك الدمع لى مقلة ولا خلف البين عندي فؤادا

وأنا مع كمال هذه الأحوال ، أخاشين الحجر ، وأحاسين القمر ، وأفاضل الهجان
بالهجن ، وأفضل الغنائة على السمن .

أعطى نزع الركي وقد قصت ر عن أن ينال ماء رشاء
ولعهدى بفكرتي وهى تنجا ب بها ، عن صباحها الظلماء
غير أنسى وإن تعاورنى الهم وشاء الزمان ما لا أشاء
ورماني مستيقناً أن قلباً بين جنبى صخرة صماء

لا أسألي بالليل طال أم اليو م ، كلا الرّبتين عندي سواء
 والمغادى هو المراح من همّ — سي فهذا الصّباح ذلك المساء
 وإذا العين لم تعانِ سيوى السّو ء فسيان ظلمةً وضياء
 وانبىّ الهمّ لا ابنه أنا إذ كل ابن همّ بليّة عمياء

وبعد — فهذا أدام الله عزّ سيديّ الشيخين — قول استعفر الله مه ، وأسأله النجواز عنه ،
 وأسلم للمحتوم في أمره ، وأرضى بقدره حيره وشبهه ، وأسأله الجمع بينى وبينهما على حال
 تسرّ الوليّ وتسوء العادو بخوله وطلوله ، إنه وليّ الإجابة والقادر عليها إن شاء الله تعالى . « .

ونال ابن المغربي التقدير من معاصريه ومن تبعه من الأدباء والعلماء في العصور التالية .
 ومن أعجب به ابن بسام ، فقد ترجم له في الذخيرة وأثنى عليه وعلى أدبه قائلا : (١)

« كان أبو القاسم نجماً مطالعه النّول ، ونحراً عُبابه القول والعمل ، وروضة تقوت القلوب
 نفحاتها ، وتفيد الأبصار صفاتها وموصوفاتها ، أما العلماء فعيال عليه ، وأما العظماء
 فلعبّ بين يديه ، وأما الأقلام فبعض شيعه وأنصاره ، وأما الأقاليم فبين إيراده وإصداره ،
 وأما مكانه من العلم الحديث والقديم ، وسبقه إلى غايته المنثور والمنظوم ، وإقدامه على
 المهالك ، وتلاعبه بالأملالك والممالك فأشهر من الصباح ، وأسير من الرياح . »

ويقول :

« ومن أوابد أخباره ، وخالد آثاره كتابه المترجم به « المنخل » في اختصار « إصلاح
 المنطق » لابن السكيت . فإنه غاية لايتعاطها إلا من بهز عتقه ، واشتهر سبقه ، وطريقة
 لايتواخاها الا من رسخت في العلم قدمه ، وترامت به إلى مغالي الأمور همه . ومما
 يعجب من أمره ويرفع الصوت بجلالة قدره أنه استظهر القرآن وعدة من الكتب المجردة
 في اللغة ونحو خمسة عشر ألف بيت من نختار الشعر القديم ، ونظم الشعر وتصرف في
 النثر ، وبلغ من الخط إلى مايقصر عنه نظرائه ، ومن علم الحساب وجميع الأدوات إلى
 مايستقل بدونه الكاتب وذلك كله قبل استكماله أربع عشرة سنة ، واختصر ذلك
 الكتاب فتهاهى في اختصاره ، وأوفى على جميع فوائده حتى لم يفته شيء من ألفاظه ،
 وغير من أبوابه ماوجب التدبير تغييره للحاجة إلى الاختصار ، وجمع كلّ نوع إلى
 مايليق به . »

(١) الذخيرة — تحقيق إحسان عاص — ج ٨ ص ٤٧٥ — طبع دار الثقافة ببيوت

وقد وقفنا على نماذج من نثره وشعره ، وعرفنا مكانة الرجل في الشعر وهو في رأينا في النثر أمكنُ وأقدر ، وهو صائغ ماهرٌ ، وإن لم يعتمد البديع صبغاً يزيّن به لفظه وإن كان يميل أحيانا الى السجع ، والمزاوجة ، ويحرص على مراعاة النظير ، والتوازن بين العبارات في الإيقاع ، مع ميل أحيانا الى الإغراب في اللفظ . وهو أكثر ميلاً الى الاستعارة والاكتار من المجاز ، وذلك يكسب عبارته قدراً من الحسن ، ووشياً من الجمال .

وقد يضمن قوله الشعر من محفوظه أو منظومه ، وفي رسالته الى أبي العلاء صورة لتلك المزاوجة بين منظومه ومنتوره ، يعادل بينهما .

وابن المغربي بعد هذا كله علمٌ بارز من أعلام العصر ، ترك أثره في الحياة ، وأحداث التاريخ في تلك الفترة الغربية من الدولة الاسلامية ، وترك أثراً كبيراً وواضحاً في الفكر والادب .

ابن خسروان
أبو محمد أحمد بن علي - ولي الدولة^(١)
(توفي ٤٣٢ هـ)

وهو من كتاب الإنشاء المعروفين في دولة الظاهر ابن الحاكم بأمر الله ، وكان أبوه قد تولى ديوان الإنشاء للحاكم ، وترى ابنه أحمد في ظل والده ، حتى شب عن الطوق ، ورأى أباه في تلك المنزلة الرفيعة من القصر ، ولا نستبعد أنه شاركه في مجالسه بديوان الإنشاء بل ربما ولي بعض الوظائف فيه حتى إن من ترجموا لحياته ذكروا إنه تولى الإنشاء بعد وفاة والده ، ولو لم يكن مدرباً على ذلك معروفاً للخليفة ما جعله مكان أبيه . وذكرت بعض الأخبار أنه تولى الكتابة في عصر الحاكم .

وترى أخباره أنه كان حسن الوجه ، جميل المروءة ، واسع النعمة ، جيد العارضة وكان أعظم قدراً من أبيه ، وأكثر علماً^(٢)

وحفظ ابن خسروان كثيراً من الشعر ، ودرب نفسه على الكتابة على طريقة كتاب العصر ولعل والده كان قدوته الأول في ذلك ، ثم استقل بعد ذلك بنفسه ، وإن كانت لم تصلنا رسائل لوالده .

والمؤكد من أخباره كما تواترت في مصادر ترجمته أنه تولى ديوان الإنشاء للظاهر بن الحاكم بعد سنة ٤١٢ هـ ، وكان سنة ٤١٤ هـ من رجال الدولة الكبار المذكورين مع قاضي القضاة وداعي الدعاة . وكان فيما يبدو وثيق الصلة بالأمير معضاد شمس الدولة الخادم الأسود الذي استولى على الظاهر ، وكان المتصرف في دولته . وظل حتى عصر المستنصر بعد سنة ٤١٦ هـ .

(١) راجع ترجمته في معجم الأُدباء لياقوت ٤ / ١٣-٥ ، وابن العسيري في الإشارة إلى من مال الوزارة ٣٤ - ٣٥ ، وتاريخ عصر المسبحي عن عامي ٤١٤ / ٤١٥ طبع النويد ، وحواليه: فقرات لابن سعيد ص ١٠ ، والنجوم الزاهرة في حل حصر القاهرة لابن سعيد و دهل تاريخ دمشق ص ٨٠ ، وفيات ابن حنكلا ٣٨٢/٣ ، والنجوم الزاهرة لابن نهرى ردى ٢٤٤/٨ وأعيان لشبنة ٧٦/٥٤ والوفاء للصدى ٢٣٤/٧ ، ومجموعة الوثائق العاضية للدكتور الشيبان ١٦/١ - ١٣٨ ، وفي أدب محتر الفاطمية للدكتور محمد كامل حسين ٣٣١ - ٣٣٤ .
(٢) ذكرت بعض المصادر أن أمه كان أكثر منه علماً .

وكان ابن خيران جريماً ، ذكياً ، معتداً بنفسه ، وتروى عنه حادثان إحداهما يرويها
ياقوت . يقول :

« كان ابن خيران قد خرج الى الجزيرة متنزهاً ، ومعه من أصحابه المتقدمين في الأدب
والشعر والكتابة قد احتفوا به يميناً وشمالاً ، فأدى بهم السير الى مخاضة مخوفة ، فلما رأى
إحجام الجماعة من الفرسان عنها وظهور جزعهم منها قنع بغلته فوجها حتى قطعها ،
وانثنى قائلاً مرتجلاً :

ومخاضة يلقى الردى من خاضها كنتُ الفدأة إلى العدا خواضها
وبدلت نفسى لى مهاول خوضها حتى تنال من العدا أغراضها »

وربما كان المسيحي من جملة أصحابه ، فقد أورد كثيراً من شعره في كتابه . وروى له
ابن ظافر في « البدائع والبدائنة » حكاية تدلُّ على ستهتاره ، وتبذله ، قال ابن ظافر^(١) :

« ذكر الفرّج بن ابراهيم الكاتب في « سريرة الألباب وذخيرة الكتاب قال : دخلتُ
يوماً ديوان الانشاء بمصر ومتوليه وليُّ الدولة ابن خيران ، فلم أجده في الديوان الا أنى
وجدتُ الكُتّاب على رسمهم ، والناس على جارى عاداتهم ، وإذا سراويله ملقاة على طراحة ،
فجلستُ أنتظره ، فلم أشعر الا وقد فتح خزائنه وخرج وقدامه غلامٌ صقليٌّ كأنَّ الشمس
على صفحته والغصن في قامته ، منكسر الأجنان ، مطرقها مورّد الوجنة عرقها ، وحين
وصل الى الطراحة لبس ابن خيران السراويل وارتجل :

أنا ممن لا يرى للنفس إلا بالصلاخ
لا تلوى، حِكْمَةُ الإِنْعَاظِ إِلَّا بِالنِّكَاحِ

فعلم الحاضرون أنه كان يفسق به (بالغلام) ، فاطبقوا عند الخروج على لعنه . »

ويروى ابن خلكان له حادثة ثالثة تدلُّ على مروءة وعطف على فقراء الأدباء والشعراء
يقول إن الشاعر أبا الحسن علي بن أحمد بن نوبخت توفى بمصر في شعبان سنة ست عشرة
وأربعمائة وهو على حالة من الضرورة ، وشدة الفاقة ، وكفله وليُّ الدولة أبو محمد أحمد بن
علي المعروف بابن خيران الكاتب الشاعر .^(٢)

(١) بدائع البدائنة بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ص ٣٦٠

(٢) وفيات الأعيان ١/٣٥٨ ، وترجم له ترجمة مختصرة في عرض ترجمة الظاهر ١/٦٦٣

ولابن خيران شعر ، ونثر ، وان لم يصلنا منهما غير نتف مشورة . مع انه فيما يبدو كان غزير الشعر والنثر ، فقد جاء أنه أرسل شعره ورسائله الى الشريف المرتضى يعرضه عليه في جزئين . وقد ورد بعض شعره ورسائله في تاريخ المسبحي ، وياقوت ، والنجوم الزاهرة لابن سعيد .

وانتقد ابن سعيد كتابته وشعره قائلاً : « ووقفت على رسائله في مجلدين واكثرها من طبقة المغسول المسبوع ، لا تنف منها على غربة ، ولا تظفر بنادرة ويكفى منها عنواناً عن طبقتة قوله في كتاب يحض فيه على الجهاد :

« من عبد الله ووليه ابي الحسن الإمام الظاهر لاعزاز دين الله أمير المؤمنين إلى كافة أولياء الدولة وطوائف رجالها ، وقبائل عربها ، والمطوعة من رعاياها بالحضرة وسائر أعمالها .

سلام عليكم ، فإن أمير المؤمنين يحمد اليكم الله الذي لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلي على محمد جده خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين الأئمة المهديين ، وسلم تسليمًا .

أما بعد فالحمد لله جبار الجبابرة ، وقهار الملوك القاهرة ، ومناح النعم السابغة المتظاهرة وفتاح أبواب الخير على المخصوصين به في الدنيا والآخرة ، كافي عظام الأمور ، وشافي وحارج الصدور ، وقاهر الباطل اذا تسلطت منه الخطوب وناسر الحق اذا ضعف الطالب والمطلوب ، الذي أعز الملة بالسيف ، وحاطها من عواذي الضيم والحيف . وأثنى على من له في الجهاد فضل مخصوص فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بِنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ .

وأحسن ما وجدته من نثره مانقلته من خط صاحب كمال الدين بن أبي جرادة في فصل يخاطب فيه الدزبري صاحب دمشق عن الحضرة :

« وكان قلمك يوجف ولا يجف ، وسيفك من ذوى العناد يكف ولا يكف ووزنك في سد ثلم الفساد يرجع ولا يخف . »

وقال عنه القرطبي^(١) : « إمام أئمة كتاب الديوان الإمامي بالديار المصرية . الذي نسج

(١) النجوم الزاهرة في حلي حصرة القاهرة ص ٢٤٤

كلُّ على منواله ، وسَلَّم له في المرتبة العلية . كتب عن الإمام الحاكِّم والإمام الظاهر ، وعن الإمام المستنصر . ونظمه وبنثه قد دُوِّنا إذ هما أعلى ما يدون . .

وأما شعره فقد أورد له المسيحي جملة منه ، كما أورد ابن سعيد كذلك بعض مقطوعات منه . ويقول الدكتور محمد كامل حسين^(١) : « وعلى الرغم من أن شعره فقد ولم يبق منه إلا عدة مقطوعات قصيرة ، فإننا نستطيع أن نقول ان ابن خيران كان معجباً بنفسه يكثر الإشادة بشعره ، وبنثه . انظر اليه يقول :

ولقد سموت على الأنام بخاطر الله أجري منه بحراً زاحمرا
فإذا نظمتك نظمت روضاً حالياً وإذا نثرث نثرث درأ فأنجراً
ويقول مرة أخرى :

خُلِقْتُ يدي للمكرمات ومنطقي للمعجزات ، ومفرقي للتراج
وسموت للعلياء أطلب غاية يشقى بها الغادي ويخطى الراجي
وهو القائل أيضاً :

قد علمت السيف وحده القنا أن لساني منهما أقطع
والقلم الأشرف لي شاهد بأنسي فارسه المنقح
من هذه المقطوعات نستدل على ان ابن خيران قد قتن بشعره وبنثه الى درجة أن وصف نفسه بأن منطقه يأتي بالمعجزات ،

ومن جملة ما ذكره المسيحي من أشعاره قوله متغزلاً :

أمرٌ بالقمر الفسري مطلقه ليعتريني إذا أبصرته صرغ
وكم هممت بتترك الافتان به فلم يدعني جنون العشي والطمع
أشكو إلى الله قلباً عتتر مطلبه ما إن له عن سوى الغايات مرتدغ

(١) ك أدب مصر الفاطمية ص ٢٢٢

وقوله أيضا :

يا من إذا أبصرني أعرضنا
قد كان ما كان، بجهل الصبا
لى حرمة الإخلاص لا غيره

وقال :

من حرّض النوم على هجرى
ومن حماني برّ أهل الوفا
أسأل من أعدمى الصبر أن
غيرك يامستحسن البحر

وقال :

واحرى من ظالم مهجتي
رام مداويتي على رقبتي
فى يده ، هو بأوصائها
بقبلة منه فأودى بها

وقال :

يا بديعاً تكاد أنواره
وغريراً ما زلت منى
إن قلبى إذا خطرت
أوما آن أن تلى
كيف استجلبت الرقا
والذى أرتجيه منى
تجيب القمـر
به معنى على غرزه
ت على غايية الخطر
ن وأن تقضى الوطر
د ، واستدبغ السهر
ك بعيد من الظفر

وقال :

يا قمر الروشن باطلعة
رفقاً بمن غادرته فى الهوى
أما اتقيت الله فى عابر
قل لى لم عرضت - لئابدأ
أوطراً قضيت فى قصدي
أنوارها تجيب ضوء القمر
مشتهراً كاسمك بين البشر
ولفته للحيف لئابدأ
له ، ولم أعرضت لئابدأ
اعطف عليه ، قد قضيت الوطر

وقال في مثله :

بدرٌ بدا طارقاً ومبكرأ
يدعو إلى حكمه وطاعته
وكم دعائي إلى الهوى فأبث
لا خير في العشيقي للأريب إذا
فكاد يُزرى بالبدري والشمس
فلا ترى عاصيا من الإسر
لي ذلة الحب عزة الفيس
قضى على العاشقين بالوكبير

وقال :

يا قضيباً مهفهفاً :
قد مضى من مشقة البعب
فيازيت للمدن في الذي
إنما يُجزل الثوا
أترى قتل من هفتاً :
يد والصد ما كفيي
ذاب في طاعة الوفا
ب لمن عفا أو عفا

وقال :

أنا منهاض الجناح
وهوى أسهل منه
أنا لولا الجبن ما اتبعك
هكذا تصنع بالعشاق
بين واشر بسنى مولا
في الحشى وخز الزماح
فساداً بصلا
الحفاظ المصلا

وقال :

إذا خطرتم بيالى هزلى أسفاً
وما التفتك بعيشى بعد لرفقتكم
شوق إليكم كهز الرج للفتن
ولا رعبك على رعب ولا سكن

وقال في الفخر :

أيها المتغى مسنامة مثل
هل يضاهى بدر الظلام سراج
فى المعالي ضاقت بك الأبتاب
أو يهاى شمس النهار شهاب

وقال مفتخراً :

قوى رعاة الخلق كلهم
أحسابهم غرر محجلة
وأساءة كلم نواب الدهر
ووجودهم كالأنجم الزهر

لحزمن عن الفحشاء والهجر

لطلق بيدل ندى وكف أذى

وقال أيضاً مفتخراً :

شموسٌ مفاجرها بازغة
وجادوا من النعم السابقة
وأجلت عن التقسم الدائمة
على قالة الحكم بالآفة

فصت لي بنبل العلامة
إذا جردت أرى جميع العفاة
وإن صئت صالت صروف الزمان
فإن قلت برؤك فيما أقول

وقال في الأدب :

فقر جوادٍ الى بديل
يعرف شيئاً من الجميل

أمران مستقطعان عسدي
وبارغ في جماله لا

وقال في الأدب :

بغنى يكف وصحة البدن
فقد الصبا والإلف والوطن

أسنى العطايا العقل مقترناً
وأشد ما فجع الزمان به

وقال :

فما أبالي بمن قد ظل يهجوني

إذا لسان المعالي كان يمدحني

وقال :

فرفضتها وعصيت طاعتها لى
والحلم يخرس السن الجهال
كالسيف مصقول بغير صقال
وأفاد عنى الملك كل جمال
منظومة بمفاجر ومعالسى
تبلى على الأيام من أقوالى
بالفضل والحسنى طلوع حلال

والهنى الدنيا تجر ذبولها
وحلمت عن جهل الجهول تنزها
وأمدنى صنع الإله بخاطر
أهدى الى الآفاق كل بدعية
وصنعت من غرر الكلام لالدا
ونشرت في الدنيا محاسن حجة
وظلعت في سن الصبوة للوزى

وقال :

للمعجزات ومفرد لتناج

خلقت يدى للمكرات ومنطقى

وسموث للعلياء أطلب غايَةً
يشقى بها العادى ويحظى الراجى
وقال :

ولقد بلوث الناس مختسراً
فوجدت سادتهم ذرى الكرم
لو أن روح الجود لى صنم
عكفت عليه بصائر الأمم
وقال :

إلى لاعدل حاسدى كرمأ
منى وأرخمئهُ على كمدية
من شرف الدنيا بمنطقه
ايلام حاسده على حسدية
وقال :

دعنى أذذ بالشّر عتى أهله
فإلى أرى الشّرير تقضى حقوقه
وان كان طبعى لايميل إلى الشر
ويهمل حقّ الماجد الخير الحُر

وعرف بكثرة مدائحهم ومرائيه لخلفاء الفاطميين ، والعلويين ، وراسل الشريف المرتضى
وبعث بديوان شعره ورسائله صحبة أحد العراقيين لابتداء رأيه فيه . وكان شيعياً يتعصب
لشيعيته ، وقال فى مخاطبة العباسيين على ألسنة العلويين :

بنى عمنا والقول شتى فنوته
غصبتم ذوى غصب قضياً وبردة
ونحن ورثنا عن أينا مقامه السـ
وكان ظلام الظلم قد طال ليله
ويطلقنا فضّل البدار عليكم
ومن طرّنا أنا اصطنعنا أباكم
وقد كانت الشورى علينا غضاضة
ولله فيما قد حبانا به الشكر
بنا شرفاً قديماً ، وقلم : لنا الفخر
لذى نصه خير الورى تجدنا الطهر
فلما أتانا حقنا طلع الفجر
ويخرسكم عن ذكر فضل لكم نذر
وأعمامكم برأ ، وعادتنا البر
ولو كتم فيما استطاركم الكبر

ونطق بشيعيته فقال : .

أنا شيعي لآل المصطفى غير أنى لا أرى سب السلف

وشعره كما ترى فى معظم ماذكرناه هنا من طبقة شعر الكتاب الذين عرفوا فى عصر
العباسيين فى القرنين الثالث والرابع ، ومعظمه من الطبقة الوسطى لايرقى الى شعر الفحول ،

ويغلب عليه سهولة اللفظ ، وهو هنا لا يكثر من الصنعة اللفظية ، وبخاصة صنعة البديع ومعانيه حضرية ، لابتداء فيها ، وكذلك لفضه وصوره .

العميدى^(١)

أبو سعد محمد بن أحمد . (توفى سنة ٤٤٣ هـ)

وهو أديب نحوى ، مصنف ، سكن مصر ، زعمل فى ديوان الترتيب فى أخريات عصر الحاكم ثم عزل عنه فى عصر ابنه المظاهر سنة ٤١٣ هـ ، وولى بعده ابن معشر ، ثم تولى ديوان الإنشاء بعد ابن خيران الكاتب سنة ٤٣٢ هـ .

ولا نجد له أخباراً كثيرة رغم ما ذكر له ياقوت من مؤلفات هامة فى الأدب والبلاغة منها :

- ١ - الإبانة عن سرقات المتنبي^(٢) .
- ٢ - تنقيح البلاغة فى عشرة مجلدات .
- ٣ - كتاب الارشاد الى حل المنظوم ، والهداية الى نظم المنثور
- ٤ - وكتاب انتزاعات القرآن .
- ٥ - وكتاب العروض .
- ٦ - وكتاب القوافى .

وأورد له ياقوت بيتين من الشعر على شكل المجانس فى القافية اذ يقول :

إذا مامتاَق صدرى لم أجدل لى مَقْرَ عبادةٍ إلا أنقرافة
لئن لم يرحم المولى اجتهداى وقلة ناصرى لم ألق رافة

(١) معجم الأدباء ٢١٢/١٧

(٢) حققه وقدم له وشرحه ابراهيم الدسوقى البساطى ونشر ضمن مجموعة الذخائر (٣١) بدار المعارف بمصر سنة ١٩٦١

نموذج من كتابة العميدى من مقدمة كتابه « الإبانة »^(١)

« الحمد لله الذى أجرانا على عادة تفضله ، وهدانا فى جميع أحوالنا الى طرق الخير وسبله وخصنا باحسانه المتقادم ، ورزقنا من العقل ما ميزنا به من البهائم .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير بريته ، وعلى الطاهرين من أهل بيته وذريته . إعجاب المرء بنفسه يشرع اليه السنة الطاعتين ، وتطاوله على ابناء جنسه يجمع عليه السنة الشائنين ، فلا نقيصة عندى أقبح سيمة من اغترار الإنسان بجهله ، ولا رذيلة أبلغ وصمة من إنكار فضيلة من يقع الإجماع على فضله ، ولا منقبة أجلب للشرف من الاعتراف بالحق إذا وضحت دلائله ، ومن الانحراف عن الباطل اذا استقبحت مجاهله ، ولادلالة على الحلم أبين من التوقف عن الشبهات حتى ينجلى ظلامها . والتصرف على أحكام النصفة حتى تهديك أعلامها . وما أحسن أثر القاضى إذا عدل فى الحكم وأنصف ، وأقبح ذكره إذا مال عن الحق وجنف . والظلم قبيح ، وهو من الحكام أقبح وأشنع ، وجحود الفضل سخف وهو من الفضلاء أسخف وأفظع .

ومن لم يتميز من العوام بمزية تقلم وتخصص سلق المحسنين بلسان ذم أو تنقص . ومن عديم محاسن التمييز والتحصيل نظر الى المميزين بعين التقصير والتجهيل .

وأكثر آفات كتاب زماننا وشعرائه أنهم لا يهتدون لتقليل الكلام وتشقيقه ، ويتبعون الهوى فيضلهم عن منهج الحق وفريقه . فإذا سمعوا فصلاً من كتاب أو بيتاً من شعر ، ممن لا يكاد يجيل فى الأدب قدحاً ، ولا يعرف هجاء ولا مدحاً ، فهو يحكم على قائله بالسبق والتفخيم والإجلال والتعظيم ، وليس يدرى إن سأله : هل مارواه سليم اللفظ أو مختلة ؟ صحيح المعنى أو معتلة ؟ وهل تربيته مستحسن أو مستهجن ، وتقسيمه مطبوع أو مصنوع ونظامه مستعمل أو مسترذل ، وكلامه مستعذب أو مستصعب ؟ . وهل سبقه الى ذلك المعنى أحد قبله ، أو هو مبتدع ، أو أورد نظيره سواه ، أو هو مخترع استبدعوا كلامه ، واتبعوا أحكامه ، واعتمدوا على الاعتقاد دون الانتقاد ، وقبلوه بالتقليد لا بالاختيار ، وقابلوه بالامثال دون الاعتبار والاختبار .

(١) الإبانة عن سرقات المتننى بتحقيق ابراهيم الدسوقي وطبع دار المعارف من سلسلة الذخائر

ثم إن بيّنت لهم عوارِ ما روّوه وزلّله ، وخطأ م حكوّه وخطّله التزموا نُصْرَةَ خطيّه واقفين مواقف الاعتذار ، ومائلين عن طريقة الانتصاف إلى الانتصار . وليست هذه الخصلة من خصال الأدباء الذين هذبهم الآداب فصاروا قدوةً وأعلاماً ، ودُرِّبَتْهُم العلوم ، فأصبحوا بين الناس قضاةً وحكاماً . إنّما يذهب في مدح الكتاب والشعراء مذهب التقليد من يكون في علومه خفيف البضاعة ، قليل الصناعة ، صفر وطاب الأدب . ضيق مجال الفضل : قصير باع الفهم ، جديب رباغ العقل . فأما من رزق من المعرفة ما يستطيع أن يُميّز به بين غثّ الكلام وسمينه ، ويفرق بين سخيّفه ومتينه . وأوقى من الفضيل ما يُحسن أن يعدلّ به في القضية ، غير عادلٍ عن الإنصاف . وبحكم بالسوية ، غير مائل إلى الإسراف والإجحاف . فالأولى به ألا ينظر إلى أحد إلا بعين الاستحقاق والاستحباب . ولا يجلّ أحداً من رُتب الجلالة إلا بقدر محله من الآداب ، ولا يعظّم الجاهلية لتقدمهم إذا آخرتهم معايب أشعارهم ، ولا يستحقّر المحدثين لتأخرهم إذا قدّمهم محاسن آثارهم ، ويطرح الاحتجاج بالمحال طرْحاً ، ويضرب عن استشعار الباطل صفحاً ، ويجلّ من يشهد بفضائله شهوداً عُلولاً ، ويُنزّل من كلامه عند التأمل منحولاً ، معلولاً .

ولقد جرى يوماً حديث المتنبي في بعض مجالس أحد الرؤساء ، فقال أحد جاملي عرشه : سبحان من ختم بهذا الفاضل الفحول من الشعراء ، وأكرمه ، وجمع له من المحاسن ما بعثه في كل من تقدمه . ولو أنصف لعلّق شعره كالسبع المعلقات من الكعبة ، ولقدّم على جميع شعراء الجاهلية في الرتبة ، ولكن حرفة الأدب لحقته ، وقلة الانصاف محت اسمه من جرائد المتقدمين ومحقته ، وإلا فهاتوا لأى شاعر شتم جاهلي أو اسلامي مثل قوله في صفة الفرس :

رَجَسَلَاةٌ فِي الرِّكْضِ رَجَلٌ وَالْيَدَايَ يَدٌ وَفَعَلَهُ مَا تَرِيدُ الْكُفُّ وَالْقَدَمُ

أليس هذا أبلغ من قول القائل :

دِهْرٌ كَهْضُرُوفِ الْوَلِيدِ أَمْرَةٌ تَقَائِعُ كُفَيْهِ بِخَيْطِ مَوْصِلِ

لقد أبدع المتنبي ما شاء وأغرب ، وأفصح عن الغرض وأعرب . فقلت : للأقيشر ما يقارب هذا المعنى في نعت فرسه ، وهو قوله :

يَجْرِي كَمَا اخْتَارَهُ لِكَاكِهِ بِمَجْمِيعِ مَا أَهْلِيهِ مِنْ عَالَمِ

رجلاه رجل واليدان يذ إذا أحضرته والمتنن منه سألهم

فصاح وقال : يا قوم أهذا شعر إنسان له مسكة من عقل أو بُلغة من فضل ؟ والله إن للمتنبي غلمانا وأتباعا أجُل من هذا البليد المجهول — من أى قبيلة هذا العاجز الذى تكلم بمثل هذا الفضول ؟ فقلت : عافاك الله . حديثنا فى الإبداع لا فى الاتباع ، و الآداب ، لا فى الانساب .

ليس يعنى المتنبي جلالة نسبه مع ضعيف أدبه ، ولا يضُرُه خلاف دهره مع اشتها ذكره ، ولقد تأملت أشعاره كلها فوجدت الأبيات التى يفتخر بها أصحابه ، وتعتبر بها آدابه من أشعار المتقدمين منسوخة ، ومعانيها من معانيهم المخترعة منسوخة . وإنى لأعجبُ والله من جماعة يُغَلون فى ذكر المتنبي وأمره ، ويدعون الإعجاز فى شعره ، ويزعمون أن الأبيات المعروفة هو مبتدعها ومخترعها ، ومحدثها ومضترعها لم يسبق إلى معناها شاعرٌ ولم ينطق بأمثالها بادٍ ولا حاضر . وهؤلاء المتعصبون له المفتخرون باللمع التى يزعمون أنه استنبطها وأثارها . والمعتدون بالفقير التى يدعون أنه افتضى أبقارها . والمتزعمون بأبيات سائرة يذكرون أنه انفرد بالفاظها ومعانيها ، وأغرب فى أمثلتها ومبانيها . والمتمثلون لها فى نواديبهم ومجالسهم ، والمستعملون لها فى خلواتهم وأغانيهم ، كيف بنفوسهم ، ويستحسنون فى عقولهم أن يشهدوا شهادة قاطعة ، وينكسروا حكماً جزماً بأنها له غير مأخوذة ولا مسروقة ، وأن طرائقها هو الذى ابتدأ بتوطئتها غير مسلوكة نغيره ولا مطروقة ؟ فليت شعري هل أحاطوا علماً بنصيف دواوين الشعراء للجاهلية والخصومين حتى يطلقوا القول غير محتشمين بأن المتنبي من بين أولئك الشعراء أبدع معاني لم يفتن لها سواه ، ولم يعثر بها أحدٌ غيره ممن يجرى مجراه .

وقد قال المرزبانى فيما حكى عنه أنه صنف كتاباً على حروف المعجم بأسمى الشعراء جمع دواوين قريب من ألف شاعر حتى اختار من عيونها ما أراد ، واختار من متونها ما ارتاد .

وذكر القاضى أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى أن السحترى على ما بلغه أحرق خمسمائة ديوان للشعراء فى أيامه حسداً لهم نفاقاً تشتت أشعارهم ، ولا تنشر فى الناس محاسنهم وأخبارهم ، فمن أين هؤلاء المتعصبين نمتبى أنه سبق جماعتهم فى مصمارة ، ولم يقتبس من بعضها محاسن أشعاره ؟

وهل الذين يتدينون بنصرته بصائر بحسن المأخذ ولطف المتناول ، وجودة السرقة ، ووجوه النقل ، واخفاء طرق السلب ، وتغميض مواضع القلب ، وتغيير الصيغة والترتيب ، وإبدال البعيد بالقريب ، وإتعايب الخاطر في التثقيف والتهديب حتى يدعوا علم الغيب في تنزيهه عن السرقات التي لا تخفى صورتها على ناقد ، وتبرئته من المعاييب التي شهد عليه بها ألف شاهد ؟

ولست — يعلمُ الله — أجد فضل المتنبى وجودة شعره ، وصفاء طبعه ، وحلاوة كلامه ، وعذوبة ألفاظه ، ورشاقة نظمه ، ولا أنكر اهتدائه لاستكمال شروط الأخذ إذا لحظ المعنى البديع لحظاً ، واستيفاءه حدود الخدق إذا سلخ المعنى فكساه من عنده لفظاً . ولا أشك في حسن معرفته بحفظ^(١) التقسيم الذي يعلق بالقلب موقعه ، وإيراد التجنيس الذي يملك النفس مسمعه ، ولحاقه في إحكام الصنعة ببعض من سبقه ، وغوصه ما يستصفي ماءه ، ورونقه ، وسلامة كثير من أشعاره من الخطل والزلل والدخّل ، والنظام الفاحش الفاسد والكلام الجامد البارد ، والزحاف القبيح المستشنع ، واللحن الظاهر المستبشع ، وأشهد أنه عن درجة أمثاله غير نازل ولا واقع . وأعرف أنه مليح الشعر غير مدافع . غير أني مع هذه الأوصاف الجميلة لا أبرئه من نهب وسرقة . ولا أرى أن أجعله وأبا تمام الذي كان رب المعاني ، ومسلم بن الوليد وأشباههما في طبقة ، ولا ألحقه في عذوبة الألفاظ وسهولتها . ورشاقة المعرض ، ومجانبة التصنع والتكلف بالبحترى ، ولا أقيسه في امتداد النفس ، وعلم اللغة والاعتدال على ضروب الكلام ، وتصور المعاني العجيبة والتشبيهات الغريبة والحكم البارعة ، والآداب الواسعة بابن الرومي ، ولا أتهاك في مدحه تهالك من يتعصب له تقليداً ، ويغلو فلا يجعل بينه وبين هؤلاء الفضلاء أمداً بعيداً . ولا أظن أيضاً في دينه ونسبه ، ولا أذمه لاعتقاده ومذهبه ، وكيف يسوغ لي أن ثلّبه لالحاده ، أو عيبه لسقوط آبائه وأجداده ، وأنا أتحقق أن أكثر من يستشهد بأشعارهم المشركون والكفار والمنافقون والفجار ، ومنهم اللكن والفصحاء ، والهجناء والصُّرحاء .

والأدب يجعل الوضيع في نسبه رفيعاً ، كما أن الجهل يصير الرفيع في منصبه وضيعاً ، والمتنبى كان يفخر بأدبه لا بنسبه ، ويعتد بفضله لا بأهله ، ويتناول على أهل زمانه بفصاحة لسانه ، وبضربه وطعانه ، لا بتوحيده وإيمانه . ولو أنه كان يجحد فضل من تقدمه

(١) لعله حس التقسيم .

من الشعراء ، وينكر حتى أسماءهم في محافل الرؤساء ، ويزعم أنه لا يعرف الطائيين ، وهو على ديوانتهما يغير ، ولم يسمع بابن الرومي وهو من بعض أشعاره نير ، ويسبهم أو نظراءهم إذا قيل في أشعارهم إبداع ، ويعيبهم ففي ما أنشد لهم مصراع ، لكان الناس يُضنون عن معانيه ، ويغطون على مساويه ومثالبه ، ويعتونه كسائر الشعراء الذين لا ينش عظامهم إنسان ، ولا يجرى بدمهم وذامهم لسان .

وقد حدثني من أثق به أنه لما قتل المتنبي في طريق الأهواز وجد في خرج كان معه ديوانا الطائيين بخطه ، وعلى حواشي الأوراق علامة على كل بيت أخذ معناه وسلخه . فهل يجمل به أن ينكر أسماء الشعراء وكناهم ويتجد فضل أولاهم وأخراهم .

عَلِيُّ بنِ خَلْفٍ ، أَبُو سَعْدٍ

من رجال عصر الظاهر والمستصر في القرن الخامس الهجري ، عراقى النشأة ، ومن رجالات البويهيين في بغداد . عرف بين كتاب بهاء الدولة العظام ورجالها المقربين حتى غضب عليه ، لأمر لا تكشفه وثائق التاريخ فارتحل الى مصر ، واستقر به المقام في القاهرة فلقى من خلفائها الفاطميين قبولاً حتى عدّه القلقشندي من كبار رجال دولتهم .

قال الصيرفي في معرض الحديث عن نظم النثر ونثر النظم :^(١)

« ومن أعلى رتب البلاغة نثر المنظوم ، ونظم المنثور ، وقل من يجيد فيهما إلا من أعانته دريته ، وساعده طبعه وفطرته ، وقد كان أبو سعد علي بن خلف صنف لبهاء الدولة ابى نصر بن عضد الدولة كتاباً في حل المنظوم ، ولقيه بالمنثور البهائي ، واعتمد فيه على الحماسة ، للآلئ لها ، والآنس بها ، كما فعل أبو علي الفارسي في كتاب الأيضاح الذي عمل لأبيه عضد الدولة فناخسرو »

ونقل الصيرفي من كلام ابن خلف في كتابه المذكور فقال :^(٢)

« فمن فصول المنثور البهائي المتقدم ذكره :

ومتى استهضتتا لخطب ، أو استجلمتتا في حرب أنجلك منّا رجالاً بأيديهم آجال ، إذا أبدى البأس ناجذيه طاروا جماعات ووحاداتا إليه ، وإن صرّح الشرّ لهم وهو عريان غدوا اليه عدوة الليث وهو غضبان ، يرون بالقتل حياةً ، وفي الشرّ نجاةً ، لا يصلّون عن الحرب الزبون فراراً ، ولا يزدادون عليها إلا اصراراً ولا تبلى بسالتهم وإن صلّوا بها أطواراً ، إذا أجليت عليه العتوّ الباسل اقتسمته الأسنة والسلاسل ، وإن سماهم الجاهل المتطاول . فما العمر منه بياق ولا المدى متطاول . ٤ .

قال ابن الصيرفي : وهذا الفصل جل أوائل الحماسة .

(١) الأنفليات ص ٢٥٣

(٢) المصدر نفسه ص ٢٥٥

ابن أبي الشخباء^(١)

الحسن بن عبد الصمد (ت سنة ٤٨٦ هـ)

أصله من عسقلان . وكان يلقب بالمجيد ذى الفضيلتين . .

جاء الى مصر والتحق بديوان الإنشاء ، وصار من كبار كتابه

ولم يتيسر لنا قدر من أخباره ، مع أن ابن الصيرفي أشاد به ، ونقل عنه في كتاب
الأفضليات كثيرا من شعره . ويبدو أنه عمل كاتباً لناصر الدولة الحمداني ثم لبدر الجمالي
وولده الأفضل وذكره العماد الأصبهاني بين شعراء عسقلان وأوجز في الحديث عنه كعادته
في ترجماته فقال : « مجيد كعبته ، قادرٌ على ابتداع الكلام ونحتِه له الخُطْبُ البديعة ، والملح
الصنيفة » .

وأورد له ابن بسام مجموعة من رسائله ، ولكن ترجمته له سقطت من مخطوطة
الأصل^(٢) .

ويقال إن القاضي الفاضل استمد من رسائله .

أورد له ابن بسام قوله من رسالة :

« الموداتُ إذا كانت متينة العقود ، صادقة المشهود ، موضوعةً على أصل عريق ،
وأساس وثيق ، لم تُجزعها الشبهة المرمضة ، ولم تزلزها الأباطيل المعترضة وإن تناقلتها ألسنٌ
مختلفة ، وعلتها برودٌ من اللفظ مفوِّقة .

ولما رأيت زيارة مولاى قد صارت مُرقعةً ، وجنوب مودته قد عادت مرّوعةً ،
وصرتُ أرى قوله متناقضا ، وماء البشر من وجهه غائضاً من بعد ماعهدته :

لَبِى طلائفةٌ وجهه عن وجهه فسكاد تلقى النجاح قبل لقايبه
وضيأٌ وجهه لو تأمله امرؤ صادى الجوانح لا رسوى من مايبه

(١) راجع في ترجمته : معجم اللدان لياقوت ١٥٢/٩ وابن خلكان في الوفيات ٨٩/٢ ، وذكر أنه تولى قتيلا في حبسه
تخراة السود سنة ٤٨٢ هـ .

(٢) راجع الذخيرة بتحقيق إحسان عباس ج ٨ ص ٦٢٧ .

لم أتجاسر على سؤاله عن العلة خوفاً أن يعيب على الارتباب بوجهه ، وتطرق سوء الظن على عهده ، فسألت من يعلم دفايته ، ويخبر ظاهره وباطنه ، فأخبرني أن بعض الناس — ولم يسمه — نقل اليه عنى ، فشن الغارة على وفائه . وزلزل أواخى وده وإخائه ، فقلت : عتب والله ولاذنب ، وشكايه بلانكايه ، وأنا أحاكم مولاي الى إنصافه لا إسعافه ، وعدله لا فضله ، وما كان أجدره برفض قول الماحل ، وتغليب الحق على الباطل ، ولا يرى نفسه بصورة من تستخف حصاته الريح الخافقة وتشعث من مودته الأقوال الماذقة ، ولو انتقضت عندى المعاهد ، وقامت على — وأعوذ بالله — الشواهد . لكان مولاي خرياً أن يجرى فى كرم اللقاء على العادة ، ويتأدب بتدل ألى عبادة :

أينك على الخلان إلا نسيأً يلين لهم قلبى ويصفو لهم شيرى
 ولى لأستجى الصديق إذا نسا على وأهنا من خلاقه الجزب
 والآن فقد أوضعت وأوجفت ، وتألقت مولاي واستعطفت ، فإن عادت ظلال وده
 مدينة ، وحبال كرمه محصوفة^(١) جدياً . فحسن بتلك الشمايل أن تجمع شمل
 الفضائل ، وإن تمادى على هذه الهجرة ، ولم يسح من نشوات تلك السكره .

فمازال من ذنبي على اجرمته إليه فيجزيني به حيث أصلم
 ولكن إنساناً إذا مل صاحباً وحاول صرماً لم يزل يتجرم
 والله جلت قدرته يجعل حفظ المودة عنده أوجب الحقين ، وأنفع العلقين ويرفعه عن
 السمّة بنقض المرائر ، وحلية الجائر الغاير .

* * * *

وسافر بعض إخوانه فشغل عن وداعه ، فكتب إليه :

« ما أخرنى عن خدمة مولاي بالوداع أنى متأخر فى حلية ولائه ، ولا عاد من ملاسبى
 إخائه وآلايه ، ولو ددت لوصحت ركابه السعيد إلى الصعيد ، وقطعت معه عرض المهمه
 البعيد ، وزودت من مجاورته قلباً مغموراً بوجهه ، ومن مشاهدته طرفاً لا صبر له من بعده ،

(١) الحبل المصروف المحكم القتل

وإنما حجزني أمران ، كلٌ منهما يمهّد العُذْرَ ويُسْطِطُه ، ويمحو الذنْبَ ويحْبِطُه . وهو شِغْلِي
 في إنشاءِ التقليدِ العَلْيِّ وتحريره ، وفعلٌ ما أمرت به الحضرةُ الساميةُ وتقريره ، ثم خوفي أن أرى
 مولاي وقد حلَّ انطلاقه ، وأسمعُ أن قد حان فراقه ، ونعقُ غرابٌ بيني ، فقضضُ أضلعاً ،
 وأفاضُ نفوساً وأدُمعاً ، فضعفتُ عن مشاهدةِ ذلك المقامِ وقصرتُ من تحمُّلِ ذلك الداءِ
 العَمامِ . وظللتُ أنشدُ ، والدموعُ همُّعُ ، والفؤادُ مصدُّعُ :

وأخبرني يوم انطلاقيك أن أرى على جمراتِ البينِ قلبي يُلْدَعُ
 فؤادٌ إذا قيلَ الفراقُ تساقطتُ حُفوقاً أوأخى صبره تتقطعُ
 وإن صلبُ العودِ في كلِّ حادثٍ ولكن أعوادِي نأيك خروجُ [حُخُعُ]

وإذا استنقذُ البينُ هذه النوبةَ . وخففتُ بمشيئةِ الله رياحُ الأوبةِ ، وهبت وجهي
 للشحوبِ ، وجسيمي للنعْبِ واللُّغوبِ ، وهتمتُ ثنايا الأرضِ لإيضاعاً وإرقالاً ، وجعلتُ
 مافةَ اللقاءِ لمسافةِ الوداعِ أميالاً ، وأطلتُ شُكْرَ الزمانِ على ما يجتدُّه لي من مسرهٍ قد خلعتُ
 بُردَهَا ، واستطلتُ عهدَهَا ، وأنشدتُ :

طربك وقد جاءَ البشيرُ بقربكم وذو الشوقِ عند اسمِ الحبيبِ طرُوبُ
 وقمتُ إليه واشفأ من ثرابه نرى لك يحلو رشفةُ ، ويطيبُ

وما يبعُدُ ذلك في قُدرةِ الله الذي يخرج من الشجرِ الأخضرِ جذوةَ نار ، ويبهَبُ القمرَ كالألأ
 بعد نقصِ وسرار . «

وله من أخرى يعاتبُ بعض القواد :

« رأيتُ فلاناً عند نظرتِه لي بالأمس قد قطبَ حاجبه ، وزعزعَ مناكبه ... فقلتُ :
 ماله ؟ . أأنزلَ إليه وحىً ، أم عُصِبَ به أمرٌ ونهى ، أم حصُلُ من الخلافةِ على وغد ، أم
 ألسيءُ له الأجلُ مدةَ العهدِ . أم قلَّ عقله فعنقُ نفسه وظلمها ، وجهلُ مقاديرِ الأشياءِ
 وقيمها ، واعتقدَ أن الدنيا طوعُ حُكْمِه ، والفظرُ صائبُ فهمهِ . أم رأى الملائكةَ المقرِّين
 تشفُّعُ به ، والحوَرِ العيزَ تشكُّرُ لاعجِ حُبِّه . وثمازَ الجنةَ تدلَّتُ إلى يده . ونارَ جهنمِ
 تقتبسُ من زُنْدِهِ ، والكونزُ يمدُّ من معينه ، والسماواتِ مطوياتِ يمينهِ ، والبراقِ قد امتطيتُ

لحضرته ... فأجبت بأن شيطان ظننى مارداً، وتصورى فيه - أعزّه الله - فأسد . ولا حقيقة لشيء مما توهمته ، وسدّدته من الأمر وأقمته ، فقلتُ إذا لم يكن ذلك فما ذلك ؟ . قيل : سفة في الرأي وأفن ، وتغيّر في الطينة وعفن . ظنّ أن الأحرار ملك عهده والعالم مجموع في بُردته ، فحين سمعتُ ذلك أخذتني لمولاي الحميّة ، وهزّت رأسي الأوجيّة ، وقلتُ : معاذ الله . إنّ دونه في الحصاة والكيس بطليموس ، وفي الحكمة أرسططاليس . وإن الحكمة تستجح من ظنه ، والغيث يرشح من شنه . (من ذا الذي يشفع عنده الا بإذنه) . وإنه بحمد الله كما قيل :

خرق إذا أفضى السماط به كثر العشار وطبق الزل
وإذا السرير سما بقعدته غربت بظاهر كفه القبل

فهنالك سكنت الألسن الهادرة ، ووقفت المرادة^(١) الغادرة ، وعاد من حضر يثني على مولاي ويقرّظهُ ، ويحمل من شكره ما يؤوده ويهبطه . فإن كانت هذه الوكالة واقعة منه بالوفاق ، فيجعل ثوابي عليها انحلال العقدة من جبينه ، وزوال التمارض من جفونه وخفض الإصبع من سلامه ، وترك الثروة على غلامه .

وقال في العتاب كذلك :

« أرى روض سيدى قد تقاصر طويله ، وروض جوه قد زاد ذبوله ، وماء بشو قد غاضت بحوره ، ونشاط لقائه قد استمر فتوره . وما عهده أعزّه الله تزدهيه الشبهة وتستخفه ، وتصده عن كرم العهد وتلقه ، وينزل المين من سمعه بالمكان المهيب ، ومن قلبه بالقابل المستجيب ، بل هو يرحب إذا حرج المضيق ، ويرطب وقد عصب الريق وتمرّ به المحفظات وهو راض ، وتوقظ المغايظ وهو متغاضي

إذا أمرته مرة من جفاظه بسوء نهاء تحلقه البارد العذب

فما الذى أعاد فلقه غاسيقا ، وصرخه ماذيقا ، فإن يك عن ملل فؤاده وتشعب ودايه :

فكم أبح غيره يومى المقبل عن أمسى الأدهب
مل فلم يعطف لب الصبا الـ خانى ، ولا حق العلا الواجب

(١) المرادة : من مرد عتا وحر

واستقرت الوزارة لبعض أصحابه ثم توقف الأمر بعد فيها ، فكتب إليه :

« الخيرة — أطال الله بقاء سيدنا — تحيىء من غير الأمر المختار ، وهى مخبوءة تحت أستار الأقدار ، فكم سبب اجتمعت فيه شوارذ الامال ، وليس ظاهرة مسحة من الجمال ، كان المكروه منظوماً فى تاجه ، منظوياً فى أثنايه وأدراجيه . وآخر ظهر للناس بلونٍ شاحب ، ووجه قاطب ، كان ضامناً لايتسام الزمن ، وكافلاً بالأجمل الأحسن . وهذا أدب تعالى عباده ، وقال فى الكتاب المكنون : « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » . فلمح أبو عبادة هذا الأسلوب فقال فى معناه :

والشيء ثمثفه يكون بفوته أحظى من الشيء الذى تعطاه

وإذا تصفحت الأمور بعين البصيرة ، ونظرت بالخواطر المستتيرة ، وتقدت بالألباب الصيرفية^(١) لا الزائفة . علم أن هذه الرتبة زليقة الصراط ، سريعة الانحطاط . يعلو الإنسان صهوتها ، ثم هو بعد راجل ، ويتحلى بها وقتاً ثم هو مسلوب عاطل . ومالم يوسم بها فالخطط تعتقبه ، والمنازل ترتقبه : أجل ، وهذه الدرجة كلما خبرت الأقسام ، وتمادت الأيام غاض معينها ، وزاد حينها ، فمنها الكمد ، ومن سيدنا الصيد ، ومنها الكلف ومنه التيه والصلف ، حتى إذا تمل الأديم ، ورعى الهشيم ، وتشاقت الخطط ، وجاز الحكم وقسط رعى سيدنا ليشعب المتصدع ، ووصل المنقطع ، وإيجاد الممتنع ، فهناك يقوم بالأمر ، ويسهل الحزن والوعر :

مبارك تطرد الأواء رؤيته طرد الظلام فردد البلجى الوارى
وزهر ملك خلث فى عدل سيرته صحيفة الملك من إسم وأوزار
يدب عنه وقد رعبت جوابه برأيه المكتسى أو سيفه العارى^(١)

وكتب الى صديق له :

لما هجر مولاي مجالستا فى الجامع وأوحشها ، وأطال إليه طمأ النفوس وعطشها ، وأحلّى مكانه من طلعتى التى تطلع علينا من السرور ما عزب ، وتؤنسنا بغرائب الأانس

(١) اشارته هذه قد ترحى بأن صاحبه هذا قد يكون على من سحب العصى ، ومعلوم أنه كان من رجال الأفضل المقربين ، وأنه ربما وعده بأن يخله منه محل ابن أبى أسامة صاحب ديوان الاشياء ، والذى كان بمثابة الوزير للملك الأفضل .

الطرب ، وتصرف فكرى فى ما اقتضى ذلك ، فتم أعر على أمرٍ عادر ، ولا ظفرتُ بسبب صر . ذهب وهى الى أنه استحدث ودودا ، واستطرف خِلاً جديدا ، فترك هذا الأنام حتى ينقع أوامه ، ويرُذ عرامه ، وحين ثوت هذه الظنة فى نفسى أنفذتُ فلاناً لاستيضاح الخبر ، فحكى أنه ألقى مولائى فى الطبقة الدهيشية ، فدهش لِمَا رآه فى مجلسٍ حسن ، مقام صبوة وفتن ، وأمورٍ بديعة ، وأهوالٍ وسيعة ، وفاكهة لامقطوعة ولا ممنوعة ، وظبي قد كحل بالسحر لحاظه ، وأطلق العقارب على وجناته ، ونظم الدرر فى ثغره ، وأنبت ثمر الصبا فى صدره . يدير على مولاي كأساً :

إذا أخذت أطرافه من بحورها رأيت اللجين بالمدام يذهب
 كأن مجديه الذى جاء حاملاً بكفيه من ناجودها بات يقطب

فطِفقتُ متعجباً لما وصفه المخبر ، وحمدتُ الله على صدقِ الحس والتقدير ، وعذرتُ مولائى فى التخلف عن الجامع ، واستيفاء النهاية من هذه المشارع ، وأوسعته ملاماً على لتفرد بهذه الحسنة والفاحشة الميئة دون الشيخ أبى الحسن الذى ينحاز فى فعله الحسن ، ويضل فى ذلك السنن . اللهم الا أن يكون خاف أن يجرى هذا الصديق على طاعة شيطانه ، والبذاء على إخوانه ، والتدحرج عن موضعه ومكانه ، ليتأبط فى الليل سراً ، ويسير الى حيث تسكن الغزلان سراً ، وقد قرّت أعضاؤهم نوماً وسكراً ، ومع هذا فأؤثر من مولائى أن يقبل على شأنه ويخفض قليلاً من عنانه ، فإن الجاه صدعه لاجير ، والملقى بيده الى التهلكة لا يعذر . وقد شببنا عن هذه الحال ، فيحسن المتأب ، ويسمح بردّ الجواب .» .

وكتب عن الوزير الناصرى — ولعله ناصر الدولة بن حمدان الذى كانت له مكانة فى دولة الخليفة المستنصر ، وحدثت بسببه أحداث شارك فيها حتى قتل وبعده جاء بدر الجمالى باستدعاء من القصر فأقر النظام بعد الفوضى بين جند الخلافة والأعراب .

كتب ابن أبى الشخباء عنه الى بعض القبائل :

« معلوم أن الله تعالى قد يأذنُ للنعم إذا حُصت بالشكر أن تستدنى البيد القصى ،

وتستأنسَ النافرَ الوحشِيَّ ، وإذا قرنت بالكفرانِ يرحلُ منها القاطنُ ، وتستوحشُ المعاصِرُ
 ووصلَ إلى ما كان منكم من الانحرافِ عن الحضرة السامية ، والتظاهر بالخلافِ عليها ،
 فتحققتُ أن الشيطانَ قد أعملَ فيكم كيدَهُ ، واستنفدَ في إخلالِكُم قُوَّتَهُ وأيدَهُ ، وأوضعَ
 بكم في مراعىِ ويهٍ ، ودبَّ اليكُم من طريق خفية ، فزئيرُ لكم غير الحسِنِ ، وأوطأكم اجانبِ
 الأخصنِ . وومكُم من أحياءِ العربِ بإخفارِ الذمِّ ، وكفرانِ النعمِ . وأقورُ مايجبُ أن
 يُفهمُ : ألم تضلوا إلى هذه البلادِ فتعرفوا بها العيشَ الوحشِيَّ ، وتعلُّوا فيها محلَّ الغريبِ
 الأجنبيِّ ، وتعيشوا عيشَ الغرثانِ الخميصِ ، وتخطفكم العربُ تخطفُ الأجدلَ للقليصِ ،
 فجمعتُ الحضرةُ شتيتكمُ ووصلت مبتوتكم ، فليت شعري مالذي سولته لكم أوهامكم ،
 وحدثتكم به أحلامكم . وأيمُ الله لئن انقلبتُم على الجنابِ الناصريِّ ، وانخرقتُم عن اللوائِ
 الحمدانيِّ لتصبحنَّ أُكَلَّةَ العربِ ، يخطون أعلامكم ، ويزلزلون أقدامكم ، ويضمونكم ورودِ
 الماءِ المباحِ ، ويمنعونكم حلاوةَ النَّعمِ المراحِ . فراجعوا حلومكم العازية ، وتجافوا عن ذنوبكم
 اللازمية . وارجعوا إلى من امتد عليكم ظلُّه والزمن هجير . وصفاً لكم وردُّه والعيشُ كدير ،
 فلو فارقتُم جنباه الفسيح لتفرقتُم في الأرضِ شيعة ، ونبتت بكم مقراً ومضجعاً ، وعثرتم عثرةً
 لايقال لها لها . وقد قلتُ ونصحت ، وبنيتُ وأوضحتُ . وسلكت سلكَ الحديبِ الشفيقِ
 وبقي أن يمنحَ الله حسنَ التوفيقِ .

وقال في الأفضل بن أمير الجيوش^(١) [يهنيه بالإبلالة من مرضه]

« .. خلَّد الله أيام الحضرة الأفضلية ، مافضلت الأسماء حروفاً ، وتقدمت واو العطف
 معطوفاً ، ولزمت الأفعال اشتقاقاً وتصريفاً :

يُلْقَى عليها الحمدُ موقوفاً وفي عرصاتها شُمُ الملوكِ وقوقسا
 وتعيد سطورها سماءَ عبادتها كسفاً ، وبدر سعودهم مكسوفاً

ولج سمع العبيد في هذه الساعة نباً جمع في أقماعه ، وتصام عن استماعه ، تعاشياً عن
 صبحه النبيل ، وتغليياً للشك على اليقين ، وخوفاً على العز الشامخ أن يصحب شموسه ،
 وانجد الذاخ أن تكوّر شموسه ، وانغامد أن تنثر كواكبها ، والمناقب أن تنزل مناكبها ، ولما

(١) وهذا يعني أنه حتى يومه وقد برز نجاح أبيه سنة ٤٨٧ هـ وقتل ٥١٥ هـ وقد ذكر أن ابن أبي اسحق ، في سنة ٤٨٦ هـ
 حدثني زمان بن محمد بن أحمد بن الأفضل

تلاهُ الخبير بما أصمت ناعقه ، وكذَّب بآرقه ، ونطق بأن الجسم الشريف قد النقع شملة
الإبلال ، وعاد مزاجه الى الاعتدال أطال العبدُ في الترب تعفير خده . وبالغ في شكر الله
وحمده ، فيالها نعمةً عدلت بها أحكام الزمانِ الجائرة ، واهتدت ركاب الآمال الحائرة ،
وأصبح المُلكُ المستنصرُ سائل العُرّة ، ضاحك الأُسرة ، والحضرة قد تمكنت في
خطابها ، وما تزعجت بُردَ شبابها ، وامتدت بعد القلوص أفيائها وأضاءت في ظلمات
الخطوب آناؤها .

والله أكرم أن يعذب مهجةً	غُذيت بأخلاق العُلا أعضاءها
فإذا طمئت حُسن الخطوب عرامةً	أرى على فيض الحياءِ حياؤها
لو كان ينكرُ ملكها رتب العُلا	أحد لكان شهودها أعداؤها
ثابت بك الأيام عن جهلابها	وتوقرت من أهلها سفهاؤها
وبعدل حكمك زال عنا ظلمها	وينور مجديك أشرق ظلماتها
نارُ اعتزائمك ما يُسوخ ذكاؤها	وسماء عِرْكَ ماتميبُ ذكاؤها
وعراضُ فضلك لم تضيق أرجاؤها	وعفاة جودك ما يجيب رجائها

فالحمد لله الذي منح الأمة من نعمة أصبحت النوائبُ بها قد درجت أيامها ، وهوت من
الخاويرِ أعلامها ، والبخلُ قد هدم بنيانه المرصوص ، والكبرُ قد ريش جناحه
المقصوص ، ولم يبق سحابٌ الا وهو يغدق ويهمع ، ولا منادى الا وهو يلبى ويسمع :

يا ماجداً نصر الشريعة حيث لا	يبصر تشام ولا ذوابل تُشرع
والنصبُ منصوب اللوائِ وشائع	في أهله بغضُ الذي يتشيع
عمت عوارفه فما من موضع	الا ونائله إليه مُوضِع
سائل به ودم الفوارس سائل	يسقاه ظمآن التراب لينقع
واليوم قد كتبت سنابك خيله	نقعا جيين الأفق منه مقتع
فهناك تلقى العُدْر لا متطابق	والزوع لا تحب الضلوع مروغ
والشمس تهوى أن تقبل كفه	فعداؤُ بالسُمر اللدان وتمنع
فاقنع بما ملكت بيداك من العُلا	إن كنت بالشهبِ التواقبِ تقنع

فأمّا حال العبدِ فعلى الحالة التي يؤمل من الحضرة العلية كشف ضبابها ، وانتكاث

أسبابها ، وكأنه من العبودية يقتضى ألا يُعبه حزنُ مكارمها ، ولا تتجاوزُ عنه جفونُ
مراحمها ، فيصبحُ وقد حفت به الشدائد وضاعت عنه المصادر والموارد .

أتركى يادهرُ في البؤس مفرداً ومالك رقى مفردٌ فيك واجدٌ
إذا هممُ الأقوام ثابتٌ وأظلمت فهَمَّاته يبضُ الوجوه خرائدُ
فياقاضي الدين الذى قام حافظاً حماهُ ، وكلُّ واهنُ العزم قاعدُ
ومن سادَ أهل العصر طراً وألقيث له في عراضِ الفرقدين وسائِدُ
أناديك في نادٍ يحفُّ بى الردى وتنزلُ فيه النازلاتُ الشدائدُ
تخاطبني فيه الخطوبُ فصيحةً ويُسهَرُ عيني ضيقُ العين باردُ
بطارحني صوتاً ، سرورى ناقصٌ إذا هو غناني وهمنى زائدُ

وللحضرة العلية الأفضلية الرأى العالى فى انتياش العبد عن هذه العَمَاء ، وكأنَّ ما تهبُّ
له من العناية زكاةً عمًا ملأها الله من رزق الزمان ، ومكنه لها من قواعد العزِّ والسلطان ،
وتقرباً إليه جلُّ اسمه إذا انشقت السماء فكانت وردةً كالدهان .

وهذه الرسالة التى وجهها الى الأفضل غريبة فى أسلوبها ، فالضراعة فيها واضحة المعالم
والرجل فيها متبالك ، متعلق بمراحم الأفضل ليشكو إليه محنةً ، لا تبدو من كلماته ، ولا
يكشف عنها ضراحةً ، ولكننا نستشعر من قوله فى هذه الرسالة أنها ربما كانت رسالة بعث
إليها فى محنة حبسه فى آخر حياته والذى لاندرى ماجرمه فيه . ويبدو كذلك أن هذه
الضراعة لم تثمر ، فالأخبار تقول إنه قتل فى السجن .

وكتب من رسالة فى شهر رمضان^(١)

« .. شهرُ الصيام ذو فضل مشهور ، ورُتبه عُلّت جميع الأيام والشهور ، فما تنتهك
للشرع فيه حُرُمات ، ولا تسمعُ للأوتارِ نغمات ، ولا تنطقُ باللغو أفواه ، ولا ترشُفُ
رُضابَ الكؤوس شفاه . وإذا اعتبرت أوقاتَ الحضرة المنصورة ، ووجدت أكثرها على هذه
الصفة المذكورة ، الا أن الشهر اختصه الله بشرف القضية ، وفرض صيامه على جميع
البرية ، فلا زال على الحضرة العلية عائداً ، ولها للأعمال الصالحة شاهداً ، تطلع فى لياليه
الحسناتُ شمساً ، وتجمع بين الشفقِ والفلقِ تسيحاً وتقديساً ، خاطرةً فى جلايب عِزِّ

(١) الدخيرة لابن بسام ٨ ص ٦٤٦ .

يعتلق الدهرُ بأسبابه ، وكرم يفرقُ البحرُ في عبابه ، ومجدٍ تعشو النيراتُ إلى أنواره .
وتعتصم الملوك الخائفة بجواره ، وتترب بمكارمها الأيدي التربة ، وتثبتُ بسعدها بروجهم
المنقلبة ، ويجدون ثرابها في أفواههم عسلاً ، وفي أجفانهم كحللاً ، ويسرون وظائف التوب
عنهم ترفعُ ، وأنف الحوادث تُجدعُ :

قد ودَّ هذا الشهرُ أن هلاله أضحى على غرر الشهور يُرفعُ

وقال في وليمة دُعي إليها :

« ... فوجلتُ منزلاً قد استعاد من قلبِ العاشقِ حرّاً ورهبجاً ، ومن أخلاقِ مالكيه
ضيقتاً وحرجاً ، كأنما زفرت فيه النارُ ، ونقطت على جدرانها الفاء . فجلستُ طويلاً إلى أن
حضر الإخوان ، وقدم الخوانُ ، فرأيتُ أرغفةً قد أحكمت في الصُغرِ والإلطاف ، ولم تتعودُ
قطُّ من الأضياف . فقد مرَّت عليها أيام ، وعنيت بقول ابن بسّام :

أنا بخبز له يابس كمثل الدراهم في خلقته
إذا تفسنت عند الخوان تطاير في البيت من خفته

وثلاثة صحاف ، واسعة الأكناف ، بعيدة الأوساط من الأطراف ، قد جعل في قرارة
كلِّ منها مالا يدفع السَّغب ، ولا تجده اليدُ إلا بالتَّعب ، فجلنا جولةً وعينه تطرف علينا
شمالاً ويمينا ، وتتفقد منا حركة وسكوناً . وقمناً ولم نقارب الكفاف ، وقد ظنُّ بنا الإسراف .
فحضرنا مجلس المعاقرة ، فأديرت علينا قهوةً قد خصت باللونِ الكليز ، وكثرت بالماءِ
الحضير .

كالمهل تغلي في البُطونِ لسوائها يوماً تُعدُّ لكافر لم تُخرم

فحسوتنا أولاً وآخراً ، وكرعنا منها حميماً آنيا ، وقلنا لعل ما يحضر عن الملهيات يُصلح
فاسدها وينفق كاسيدها ، ولم يكن بأسرع من أن افتتحت قينة يحرم لها السماع ، وتستلذُّ
الصمَمَ الأسماعُ :

تكذُر صفوِّ الراح في شدوها وتفسر الأنفاز من ضزبها
لم تكن العليجة مطبوعة بل كان مطبوعاً على قلبها

فسمعنا ولأمر الله سأمنا ، فحين جرَّ الظلام علينا الذليل ، وعشى النهار الليل ، زفتُ

إلينا خريدةً رأسها مقطوع ، ووسطها مشعوبٌ مرقوع ، قد حفظت من عادٍ عهده ،
واستعارت من يأجوج قده ، تبصُّ كعيون الجنادب ، وتضيء في الظلماء كنارِ الحبايب ،
فقوِّضنا خيامًا ، وسكرنا هَمًّا لاندأماً ، فالحمد لله الذي صدَّ مولاي عن هذا المقام
ومنعه ، وحمى عمًّا حضرناه مستمعه . (١)

(١) الذخيرة ٦٥٤/٨ .

ومن شعر ابن أبي الشخباء^(١)

لا زلت مخفوض العدا ما عشت مرفوع البنا
تفدى بنا إذا كان يُز ضي الحمد أن تفدى بنا

قال ابن الصيرفي : ومن أجود ما في هذه القصيدة :

ما أحسنَ المالَ إذا صاحبَ ذكراً حسناً

ومنها :

لنا الشاءُ خالصاً منه وما يحوى لنا
شاءَ الذي بنى له أبواؤه ومكنا
عممت بالإحسان منى لك مضراً واليتنا
يتقأدُ. صعبُ اللغظِ لى سهّل القيادِ مُدعنا
كأنَّ في خراطيرى لكل معنى رسنا

ومنه قوله .^(٢)

تمر سفهات الرياح بأرضه
وتشتاق عيناه الكرى وتخالفه
فترمنُ إجلالاً له وثوقرُ
فيأتى إلى الأجنان وهو مُفرزُ

ومنه قوله :

عُفرت في سهل الترابِ حدودهم
وتركت في حجر الترابِ رُءوسهم
حتى ظننا أنها تشيخُ
في الأرض تسجدُ عن سيوفِ تركعُ

وقوله أيضاً :

جعلت رءوس القومِ غريمَ سيوفنا
إذا وعدتها البيضُ عساقى وعدها
ثعصفُرُ من أوداجهم وتطيّبُ
بعثت لها البيضُ الرقاقَ تكذبُ

(١) راجع معجم الأديب، ١٥٢٩ - ١٨٤ و الأعلام ٢١٠/٢

(٢) الأفضليات ٦٣

ومن قوله :

إذا سلبته عزمة منك غمده كسنته نجيعاً ، فهو يكسى ويُسلبُ

وقال :^(١)

فلم أز ماء قبله مسترققاً يخالطه ذاك اللظى الملهبُ
وعلق عليه ابن الصيرفي بقوله : إنه حسناً استعمله في الغزل (أى المعنى) وهو يصلح
صفةً لل سيف .

وقال :^(٢)

يجودُ بالماءِ غيثُ الأفقِ منقطعاً وغيثُ كَفكُ بالأموالِ متَّصلُ
جازى نداك فلم يظفرَ ببيته فذلك البرقُ في حافيةٍ تحجَلُ

ثم أتى بزيادة على ذلك ، فقال من أخرى :

منعت مكارمه رويته فنداه طول الدهرِ مرَّجَلُ
جارت نداءه السحبُ الرَّجعتُ عنه ووابلُ وذيقها وشبَلُ
فالرعدُ في أنثائها ضجِرُ والبرقُ في أرجائها تحجَلُ

وقال :

قد قلتُ إن قالوا : يداه سحابةٌ سحبتُ ذبولَ مجلجلِ هطالِ
لا تضرُّوا مثلاً له في جوده فحقيقةُ الأمثالِ للأمثالِ

وقال :

إذا هو إذا الظنمُ عتاً بعدله غدا ماله في كفه متظلماً
يرى الذنبُ أن تسطو يداه بمدنِبِ ويعتدُ جبرماً أن يعاقبِ مجرمأ

وقوله أيضاً :

تظلمُ ما تحويه فيك فلم يُغثُ وقد جعلتُ في راحتك المظالمُ

(١) الأنصبيات ٦٦

(٢) الأنصبيات ٦٧

ومن عجب أن تظلم المال وحده ولم يبق في أيامك الغر ظالم
وقوله أيضا :

يا عادلاً في كل ما هو فاعل
تبقى أحاديث القتل بسيفه
ما بال كفك في اللهى لا تعيد
فكأنما يحيى به من يقتل
وقال :

كأن النسور نافست فيهم الثرى
فقد حصلت أجسامهم في الحواميل
وقال :

وتطيرت في الجو زرق أجادل
طلبت مطاعها وزرق نصال
وقال :

عنادهم خطية قد تكلفت
برزق نسور حوم وخواصع
وقال أيضا :

فإت تك أسرى عفت البيض عنهم
لحين بعد أن عافت ضباغ والسر
وقال ابن الصيرفي^(١) : « ومن المدح الذي قلت أمثاله ، وعزت أشباهه ، وعُدت له
النظائر ، وعقيمت عنه الخواطر قول حسن بن عبد الصمد :

سبقت مكارمه مواعده فلم
يوسم بالبحار ولا بمطال
وقوله :

ضئت أكفهم غلاً وسخت
مالأ ، فما كرموا ولا بخلوا
وقال ابن أبي الشخباء :

يعرف الأمر في الآفاق خاتمه
ويصبح الدهر طوعاً وهو خادمه
قال ابن الصيرفي^(٢) : فقوله صوعاً مما تطوع به فأغرب ، وأق منه بما أعجب به وأطرب .

(١) الأنضليات ١٦٧

(٢) الأنضليات ٢١٦

وله :

تعطى وسمعتك بالسلام مشنف فکان راحتك الكريمة تسمع

ابن الصَّيرفي^(١)

أبو القاسم علي بن سليمان بن مُنجب

(ولد بمصر سنة ٤٦٣ هـ — وتوفي سنة ٥٤٢ هـ)

علم الرؤساء — كاتب إمامهم الأمر وغيره من خلفاء المصريين .

قال ابن سعيد : وقعت على ترسله في مجلدات عدة ، فوجدت الفاضل اليبساني ينسج على منواله وينزع منزعه ، ولكنه زاد رشاقة ولطافة وغوصاً ، وإن في الخمر معنى ليس في العنب .

وقد تقدم من مختار ترسله في صدر كتاب المغرب ما يدل على علو طبقة . وله تصانيف مشهورة صغار ظراف منها :

١ - منائح القرائح صنفه للأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش وأورد في هذا الكتاب أمداحاً في خلفائهم .

٢ - وله كتاب الاشارة الى من نال الوزارة ، ذكر منها وزراء مصر الى عصره .

٣ - ومنها كتاب « ملح الملح » أورد فيه من نثره قوله : جرت العادة في الغطاس بإعمال الكاس والبطاس . وهذه الآلة اذا فقدت الراح بمنزلة أجسام عدت الأرواح فداو باحيائها قلبا لي قرنخا ، وإذا كانت عازر فكن لها مسيحا »

وذكر السيوطي أن ابن الصيرفي — وكان يعمل في خدمة الأفضل بن بدر الجمالي أمير الجيوش والوزير الخطير للخليفة المستعلي — هو الذي كتب السجل بانتقال المستعلي وولاية الأمر وقرىء على رءوس كافة الأجناد .

وبدا علي بن منجب يعرف في أوساط كتاب الدولة منذ سنة ٤٧٨ هـ ، وقد تولى ديوان الانشاء على عهد الأمر باحكام الله سنة ٤٩٥ هـ وكتب أول سجل بتوليته واشتهر على عمله به حتى سنة ٥٣٦ هـ ، وكان أول سجل كتبه سنة ٤٩٧ هـ بسبب تحويل السنة

(١) ترجمته في ابن ميسر ٨٧ — معجم الأدباء ٧٩/١٥

ومقدمة كتاب الإشارة — ص ٩١/١ الأعتى

ومقدمة قانون ديوك الرسائل الصيرفي التي كتبها على بك هجت الأثرى ونشر ١٩٠٥ م

الخراجية القبطية الى السنة الهلالية العربية^(١)

وقد عاش تسعين عاماً أو مايناهزها .

وجاء في ترجمة ياقوت له : « على بن منجب بن سليمان الصيرفي أبو القاسم ، أحد فضلاء المصريين وبلغائهم ، مسلم له ذلك غير منازع فيه ، وكان أبوه صيرفيا ، واشتهر هو بالكتابة فمهر فيها . مات في أيام الصالح بن رزيك بعد سنة ٥٥٠ هـ ، وقد اشتهر ذكره وعلا شأنه في البلاغة والشعر والخط ، فإنه كتب خطاً مليحاً ، وسلك فيه طريقة غريبة . واشتغل بكتابة الجيش والخراج مدة ، ثم استخدمه الأفضل ابن امير الجيوش وزير المصريين في ديوان المكاتبات ورفع من قدره ، وشهره . ثم اراد أن يعزل الشيخ ابن أسامة عن ديوان الإنشاء ويفرد ابن الصيرفي به ، واستشار في ذلك بعض خواصه ، ومن يأنس به فقال له : ان قدرت أن تفدى ابن أبي أسامة من الموت يوماً واحداً بنصف مملكتك فافعل ذلك ، ولا تتخل الدولة منه ، فإنه جماها فأضرب عن ابن الصيرفي .

ومات الأفضل ، وخدم ابن الصيرفي المحافظ المسمى بالخلافة بمصر .

ولابن الصيرفي من التصانيف : كتاب الاشارة فيمن نال الوزارة ، وكتاب عمدة المحادثة ، وكتاب عقال الفضائل ، وكتاب استنزال الرحمة ، وكتاب منائح القرائح ، وكتاب رد المظالم ، وكتاب لمح الملح ؛ وكتاب في السكر .

وله غير ذلك من التصانيف .

وله اختيارات كثيرة من دواوين الشعراء كديوان ابن السراج ، وأبي العلاء المعري وغيرهما .

ومن شعره قوله :

لما غدوت ملك الأرض أفضل من جلت مفاخره عن كل إطرء
تفايرت أدوات النطق ليسك على ما يصنع الناس من نظم والنشاء

وله :

لا يبلغ الغاية القصورى بهمه إلا أحو الحرب والجرد السلاهيْبُ

(١) روى عبد مخلص ناشر الإشارة خلاف ذلك ص ١٠٧

يطوى حشاه إذا ما الليل عانقه على وشيخ من الخطى مخضوب
وله :

هذى مناقب قد أغناه أيسرها عن الذى شرعث آباؤه الأزل
قد جاوزت مطلع الجوزاء وارتفعت بحيث ينحط عنها الحوت والحمل

ولابن الصيرفي رسائل أنشأها عن ملوك مصر تزيد على أربع مجلدات .

ويقول ابن ميسر في ترجمته : (في حوادث سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٧ م)

« وفي يوم الأحد لعشر بقين من صفر توفى الشيخ الفاضل أبو القاسم على ابن منجب ابن سليمان الكاتب المعروف بابن الصيرفي المنعوت بتاج الرياسة صاحب الرسائل .

أخذ صناعة الرسائل عن ثقة الملك ألى العلاء صاعد بن مفرج صاحب ديوان الجيش . ثم انتقل منه الى ديوان الانشاء ، وبه الشريف سناء الملك أبو محمد الحسين الزيدى . ثم تفرد بالديوان ، فصار فيه بمفرده .

وكان أبوه صيرفيا وجده كاتباً . ومولده بمصر يوم السبت لثمان بقين من شعبان سنة ٤٦٣ هـ . وله تصانيف في الأدب والتاريخ والترسل .

وجرد منه للمصالح مرهفاً تساوى في المضاء حداه ، وأطلع منه كوكب سعد علا واشرف سناؤه . الأجل المأمون . عز الإسلام ، فخر الأنام ، نظام الدين ، خالصة أمير المؤمنين أبا عبد الله محمداً الأمرى ، أعانه الله على مصالح المسلمين ووفقه في خدمة أمير المؤمنين ، وأدام له العلو والبسطة والتمكين .

اللهم اجعل كوكب سعده أبداً عالياً مشرقاً ، وافتح للدولة على يديه مغرباً ومشرقاً وأقرن بالتوفيق آراءه وعزائمه ، وأمضي في نُحُورِ الأعداء أسنته وصوارمه ، وثبت اسمه ونعته على طراز ما يُعمل في أعمال المملكة من الملابس والفرش والأنية .

فلما تبوأ الأمور منازلها ، وأخذت الشؤون مأخذها لم يقدم هذا السيد شيئاً على الالتفات الى بيوت العبادات ، فما أخطى جامعاً ولا مسجداً من فعل حسن وأثر جميل إعلاء لمنازل الملة ، وابتغاء لمساها الله حتى إنه أقام منيراً في المسجد الذى كان السيد الأجل

الأفضل أنشأه مطلقاً على بركة الخبش ، وكان هذا المسجد مغلقاً لا يُفتح ، ومهجوراً لا يُقصد ، فلما أمر بعمل المنبر . وتقدم بالصدقة على من يُحضر كلُّ من يتأخر صار الناس يجتمعون به ويسعون إلى ذكر الله فيه . فنال بذلك في العاجلة كبير الثناء وسينال عليه في الآجلة جزيل الجزاء . ثم استمر على عادته في الصدقات التي اغنى تبرعه بعطاياها عن الوسائل ، ومنع التذاذه بها أن يتبرم بالحاج سائل . واتبع ذلك بالصلوات السنيّة ، والهبات الهنيئة . وانتصب لقضاء الحوائج والنظر في المصالح انتصاباً حازه الأجر وحواه . واجتهد في ذلك اجتهاداً ما رأى أحد مثله ، ولا رماه . فما أحدٌ يشكو تريث حاجته ، ولا توقفٍ طلائية ، ولا إهمال ظلامية . وكشف حقوق الدوابين فوجد بقايا عظيمة قديمة قد بعد عهدها ، وطال وروردها في الأعمال وترددها والذين تلزمهم عاجزون عن أقلها فضلاً عن كلها ، وهم في دركها وتحت خطرها . ولا سبيل إلى استخدامها لأجلها ومنهم من مات وورثته خائفون من المطالبة بها ، واعتسافهم بسببها ، فنظر لهم فيها نظر راحم رءوف ، وجلّد سؤال أمير المؤمنين في المسامحة بها على أنها ألوف ألوف . وكتب السجل بذلك مشتملاً على تفصيلها بأسماء أربابها وتعيين سنيها وثبت فيه .

غاذج من كتابات ابن الصيرفي

أولاً : في التاريخ : قال من كتاب الإشارة في ترجمة الوزير الأفضل بن بدر الجمالي (١) :

« .. وتولى هذا السيد الأجل أحد البيعة الأمرية في يوم الثلاثاء السابع عشر من صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة ، واستمر على عادته في النظر والتدبير . ومازال يجتهد في جهاد الأفرنج نيفاً وعشرين سنة الى أن اغتيل سلخ رمضان من سنة خمس عشرة وخمسمائة (٥١٥ هـ) . فمضى شهيداً الى رحمة الله ورضوانه ، واستقر بجوار ربه في دار عفوه وغفرانه . وخرج من الدنيا والعدوُّ باق بالشام مستولٍ على معظم ثغوره . وعمله منصرف في سهله وجبله . والله عز وجل يجعل عزمات المقام الأعظم المأموني — خلد الله سلطانه ماضية بجواره ، ومعفية على آثاره ، ومطهرة لبلاد الاسلام من رجسه وعاره أخذاً للدين بطوائفه منه ، وثاره ، محكمة فيه مواضي الذوايل والمناصل ، مرسله عليه حبيب نكال مبيد له مستأصل ، فيكون ذلك ماعده الله لهذا المقام الأشرف ، وذخره ، وحسن الجزاء عليه — مما ضاعفه الله تعالى عنده ، ووفره .

وقد كان السيد الأجل الأفضل لتوفيق الله إياه ، ورأفته برعاياه قد ألقى مقاليدته وسياسته الخاصة والعامة الى الأجل المأمون — خلد الله أيامه — فقوم كل معوج مائد ، وأصلح كل مختل فاسد ، وحرص على الخيرات حرصاً شهد له بقوة الدين وصحة اليقين ، ونال به الرضى من الخالق تبارك وتعالى ، ومن المخلوقين .

فلما توفى السيد الأجل الأفضل ، وانتقل الى دار الخلد ومحل القدس غدا الناس هاجمين كأنهم لم يفقدوه ، وجرى أمرهم على ما لم يظنوه ولم يتعقدوه ، ولم يكن عندهم لعدمه الا الحزن على مصابه والجزع على فراقه ، والعجب من عدوى النُّقْدِ (٢) على الأسد ، والغلق الذي فتح معه مستحسن الصبر ، والجلد ؛ لأن أحوالهم ما فسدت ، ولا سوق صلاحهم كسدت ولا ريح المضرة عليهم هبت ، ولا عقارب الأذية بينهم دبَّت ، ولا مضاجع سكونهم أقضت بهم نيبت ، ولا أطراف أعمالهم تشعثت ولا اضطربت ، لأن سيدهم الذي عمهم بكرمه وغمرتهم السعادة بحسن نظره السيد الأجل المأمون — سدَّ الله ظلَّهُ — باق لم يزل .

(١) على كتاب الإشارة ٥٣١

(٢) النقْد ولد الشاة ، نُز بويء من انعم قصر الأرجل .

وحالهم بتدبيره وسياسته لم تتغير ، ولم تُحل . والله عز وجل يثبت وطأته ، ويحيب من كل مسلم فيه دعوته بفضله وطوله ، وقوته وحوله .

وقال في ترجمة المأمون البطاحي وزير الأمر :^(١)

« .. هذا السيد أكمل من نصح خليفة ، وأفضل من نصر شريعة ، وأرحم من حاط رعية ، وأنصف من أمضى قضية . وأسمح من أجزل عطاء إذا تجلت الملوك وشحت . وأحكم الحاكمين على المحجة البيضاء إذا ثبتت عنده القصص وصحت . لا يبتك سترأ ، ولا يخذل حقاً ، ولا يتخذ ظلماً ، ولا يقطع رزقا .

ولا يزال إنعامه مقصياً للهمم مبعدا ، ولا ينفك اصطناعه معيناً على الدهر مُسعداً . اذا عددت مناقبه أبانت عجز الواصف المثني ، واذا وحد في الفضائل أمن استظهار المستدرك المستثنى . فلا تقع الا منه على كثرة طلابه ، ولا ضرر يستكشف ويستدفع إلا به . فأبقاه الله ركناً للدين القيم الخفيف ، وأدام سلطانه ظلاً ممتداً على القوى والضعيف . وأجرى الكافة من ذلك على عادتهم الجميلة من فضله الجزيل ، وصنعه اللطيف .

وهذا السيد الأجل ريبُ الدولة العلوية — خلد الله ملكها — ولأسلافه الكرام فيها أفضل المقامات ، وأجل الكرامات . وقد أوصلتهم الثقة بهم رتبة القرب والدين ، وبلغتهم الطمأنينة اليهم أعلى درجات الرفعة والسمو .

ولما تعلق هو — أدام الله أيامه — بصحبته السيد الأجل الأفضل — كرم الله مشواه — رأى منه ما لا يوجد في ولد ، ولا يطمع به من أحد ، شرف أخلاق ، وكرم طباع ، وحسن طوية ، ونقاء سريرة ، ومبالغة في النصيحة ، ومثابرة على المولاة الصريحة ، ومتاجرة لله تعالى فيما بذل له من ماله وجاهه ، ومخالصة في الطاعة لخالقه وإلهه . استكفاه أمر المملكة ، وعمله أوقها^(٢) ، وعذق به أحكام السياسة وطوقه طوقها فدبر الأمور تدبيراً ، لاعهد للناس بمثله ، وعاملهم معاملة تشهد بعناية الله به في قوله وفعله .

فلما توفى السيد الأجل الأفضل — شرف الله خريجه ظهر ماله تعالى فيه من السر ، وخرج ما كان له في الغيب من الخبء ، ورفع استحقاقه الى أعلى المنزلة التي كانت

(١) الإشارة ص ٥١ .

(٢) الأوبى : انقل .

تنتظره ، ورقاه استحثائه الى المرتبة التي كانت ترتقبه فغدا سفير الخلافة وسلطان الكافة ، وكفيل الأمة وحامل أعباء الدولة ، والمرجو لاجتثاث أعداء المملكة ، والمؤجل لافتتاح البلاد المستغلقة ، وخلع عليه في اليوم الثاني من ذى الحجة من سنة خمس عشرة وخمسمائة من الملابس الخاصة ، وطوق بطوق ذهب مرصع — وقلد سيفاً كذلك ، وتفرد بالنظر ، ودعى له على كل منبر بما خرجت تستحقه من حضرة امير المؤمنين . اللهم انصر من اصطفاه أمير المؤمنين لدولته ، وارفضاه ، وانتخبه لتدبير أحوال مملكته ، واجتباها ، وولج اليه الأمور ، فساسها أحسن سياسة يقظة وجدأ وحزماً ، واستكفاه في المهمات ، فكفى فيها مضاء واستقلالاً ، وعزماً .

نسخة من السجل الذى كتبه ابن الصيرفى لما توفى المستعلى

« من عبد الله ووليه أبى على الأمر بأحكام الله أمير المؤمنين ابن الامام المستعلى بالله الى كافة أولياء الدولة وأمرائها وقوادها وأجنادها ورعاياها ، شريفهم ومشروفهم ، وأمرهم ومأمورهم ، مغربهم ومشرقهم ، أحمرهم وأسودهم ، كبيرهم وصغيرهم ، بارك الله فيهم . سلام الله عليكم .

فإن أمير المؤمنين يحمد إليكم الله الذى لا إله الا هو ، ويسأله أن يصلى على جده محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين الأئمة المهديين . وسلم تسليما .

أما بعد ، فالحمد لله المنفرد بالثبات والدوام ، والباقي على تصرف الليالى والأيام ، القاضى على أعمار خلقه بالتقضى والانصرام ، الجاعل نقض الأمور معقودا بكلام الاتمام ، جاعل الموت حكماً يستوفى فيه جميع الأنام ، ومنهلا لايعتصم من ورده كرامة نبي ، ولا إمام والقائل معزياً لنبيه ، ولكافة أمته : (كلُّ من عليها فإن ، ويبقى وجهُ ربك ذى الجلال والإكرام) الذى استرعى الأئمة لهذه الأمة ، ولم تخل الأرض من أنوارهم ، لطفاً بعباده ونعمة ، وجعلهم مصايح الشبه إذا غدت داجيةً مدلهمةً لتضىء للمؤمنين سبل الهداية ، ولايكون أمرهم عليهم نعمة يحمده أمير المؤمنين حمد شاكر على ما نقله فيه من درج الإنافة ، ونقله إليه من ميراث الخلافة ، صابر على الرزية التى أطار هجومها الأبواب ، والفجعة التى أثار طروقها الأسف والاكتئاب . ويسأله أن يصلى على جده محمد خاتم أنبيائه وسيد رسله وأمنائه ، ومحلى غياهب الكفر ومكشف غمائه الذى قام بما استودعه الله من أمنائه ، وحمله من أعباء رسالته ، ولم يزل هادياً إلى الإيمان ، داعياً الى الرحمن حتى أذعن المعاندون ، وأقر الجاحدون . وجاء استخق ، وظهر أمر الله وهم كارهون ، فحينئذ أنزل

(١) نقل عن حسن انحصارة للسيوى ١٦/٢

الله عليه إتماماً لحكمته التي لا يعترضها المعترضون ، ثم إنكم بعد ذلك لميتون تم إنكم يوم القيامة تبعثون . صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه أئمة أمير المؤمنين على بن أبي طالب الذي أكرمه الله بالمنزلة العلية ، وانتخبه للإمامة رافة بالبرية ، وخصه بغوامض علم التنزيل ، وجعل له مبررة التعظيم ، ومزية التفضيل ، وقطع بسيفه دابر من زل عن القصد ، وضل سواء السبيل . وعلى الأئمة من ذريتهما العترة الهادية من سلالتهما آباؤنا الأبرار المصطفين الأخيار ، ماتصرفت الأقدار وتوالى الليل والنهار .

وإلى الإمام المستعلي بالله أمير المؤمنين قدس الله روحه كان من أكرمه الله بالاصطفاء ، وخصه بشرف الاجتباء ، ومكن له في بلاده ، فامتدت أفياء عدله ، واستخلفه في أرضه كما استخلف أباه من قبله ، وأيده بما استرعاه إياه بهدياته وإرشاده ، وأمده بما استحفظه عليه بمواد توفيقه وإسعاده ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده . فلم يزل لأعلام الدين رافعاً ، ولشبه المضلين دافعاً ، ولراية العدل ناشرًا ، وبالندى غامرًا ، وللعو قاهرا الى أن استوفى المدة المحسوبة وبلغ الغاية الموهوبة ، نلو كانت الفضائل تزيد في الأعمار ، أو تحمي من ضروب الأقدار ، وتؤخر ماسبق تقديمه في علم الواحد القهار لحمى نفسه النفيسة كريم مجدها وشريف سمتها ، وكفأها خطير منصبها وعظيم هيبتها ، ووقتها أفعالها التي تستقى من منبع الرسالة ، وصاتتها خلاها التي ترتقى الى مطلع الجلالة لكن الأعمار محررة مقسومة ، والآجال مقدره معلومه ، والله تعالى يقول ، وبقوله يهدى المهتدون ﴿ ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾

فأمير المؤمنين يختسب عند الله هذه الرزية التي عظم أمرها وفدح ، وجرح خطبها وقدح ، وغدت لها القلوب واجفة ، والآمال كاسفة ، ومضاجع السكون منقضة ، ومدامع العيون مرفضة ، فإننا لله وإنا اليه راجعون . صبراً على بلائه وتسليماً لأمره وقضائه ، واقتداء بمن أثنى عليه في الكتاب (إنا وجدناه صابراً ، نعم العبد إنه أواب) .

وقد كان الإمام المستعلي بالله قدس الله روحه عند نقلته جعل لي عقد الخلافة من بعده ، وأودعني ماحازه من أبيه عن جدّه ، وعهد الى أن أخلفه في العالم ، وأجرى الكافة في العدل والإحسان ، على منهجه انتتعالم ، وأطلعني من العلوم على السرّ المكنون ، وأفضى إلي من الحكمة بالغامض المعصون ، وأوصاني بالعطف على البرية ، والعمل فيهم بسيرتهم المرضية ، على علمي بما حبلىني الله عليه من الفضل ، وخصني به من إيثار العدل ، وإنني

فيما استرعيته مالك منواجه ، عاملٌ بموجب الشرف الذي عصب الله فئى تاجه . وكان مما ألقاه إالى ، وأوجهه على ان أعلى محل السيد الأجل الأفضل من قلبه الكريم ، وما يجب له من التبجيل والتكريم . وان الامام المستنصر بالله كان عند ما عهد اليه ، ونص بالخلافة عليه أوصاه أن هذا السيد الأجل خليفة وخليلاً ، ويجعله للإمامة زعيماً وكفيلاً ، ويعذق به أمر النظر والتقرير ويفوض اليه تدبير ما وراء السرير . وأنه عمل بهذه الوصية ، وحذا على تلك الأمثلة النبوية ، وأسند إليه أحوال العساكر والرعية ، وناظر أمر الكافة بعزمته الماضية ، وهمته العلية ، فكان قلمه بالسداد يرجف ، ولا يخف ، وسيفه من دماء ذوى العناد يكف ولا يكف ، ورأيه فى جسم مواد الفساد يرجح ولا يخف ، فأوصانى أن أجعله لى كما كان له صفياً وظهيراً ، وأن لا أستر عنه فى الأمور صغيراً ولا كبيراً ، وأن أقتدى به فى ردّ الأحوال الى تكلف ، وإسناد الأسباب الى تديره الناهط مايط^(١) الخطب ، ومنتقله الى غير ذلك مما استودعنى إياه ، وألقاه إالى من النص الذى يتضوع نشره ورثاه ، نعمة من الله ، قضت لى بالسعد العميم ، ومنة شهدت بالفضل المتين والحظ الجسم . والله يؤتى ملكه من يشاء ، والله واسع عليم .

فتعزوا معاشر الأولياء والأمرء والقواد والأجناد ، والرعايا والخدام حاضركم وغائبكم ، ودانيكم وقاصيكم عن الإمام المنقول الى جنات الخلود ، واستبشروا بإمامكم هذا الإمام الحاضر الموجود ، وابتهجوا بتكريم نظره ، المطلع لكم كواكب السعود . ولكم من أمير المؤمنين أن لا يغمض جفنا عن مصالحكم ، وأن يتوخى ما عاد بيمانكم ومناجحككم ، وأن يحسن السيرة فيكم ، ويرفع أذى من يعاديكم ، ويتفقد مصلحة حاضركم وباديكم ولأمير المؤمنين عليكم أن تعتقدوا مولاته بخالص الطوية ، وتجمعوا له فى الطاعة بين العمل والنية ، وتدخلوا فى البيعة بصدر منشرحة ، وآمال منفسحة ، وضمان يقينية ، وبصائر فى الولاء قوية . وأن تقوموا بشروط بيعته ، وتنهضوا بفروض نعمته وتبذلوا الطارف والتالد فى حقوق خدمته ، وتتقربوا الى الله سبحانه بالمناصحة لدولته ، وأمير المؤمنين يسأل الله أن تكون خلافته كافلة بالإقبال ، ضامنة ببلوغ الأمانى والآمال . وأن يجعل ديمها دائمة بالخيرات ، وقسمتها نامية على الأوقات . إن شاء الله تعالى . »

(١) مايط جائر ، والناهط : الطاعن .

رسالة العفو

قال: (١)

« الحمد لله راحم خلقه وإن عظمت ذنوبهم ، وكاشف ضرهم فيما يطرقهم وينوبهم ، والمتفضل عليهم بنعمه وهم غافلون ، والقائل في محكم كتابه (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون) . وصلى الله على سيدنا محمد ، نبيه الذي شرفه بالقرآن الكريم ، ووصفه بالخلق العظيم ، وفضله على كافة الأنبياء الذين بعثهم وأرسلهم ، وأمره في أصحابه بقوله — عز من قائل : (فاعف عنهم واستغفر لهم) . وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين على بن أبي طالب ، الذي أجاب الى الإيمان مسارعاً ، مبادراً ، وصفح عن عدوه ، وكان عليه قادراً ، وأعرضت شيمه عن الشرف الصريح ، ومنعه كرمه أن يجhez على جريح ، وعلى آلهما الطاهرين الذين طهر بهم من الأدناس ، صلاة دائمة الاتصال ، مستمرة في الغدو والآصال ، وسنم ومجد وكرم وعظم .

أجمعت البرية على اختلاف السنن والروايات ، وتغاير عصورها وأزمانها ، وتباين عقولها وآرائها ، وتفاوت أغراضها وأهوائها ، أن أفضل ما اكتسبه المرء في وجوده ، وأشرف ما منحته من كرم الله تعالى وجوده ما يوفق له من إصلاح أخلاق النفس وتهذيبها ، وتبليغها غاية تجود الخواطر فيها وتهذيبها . وإن من أدرك ذلك فقد نال الرتبة العلية ، وحاز السعادة الحقيقية ، لأنه حصل على فضيلة الذات ، ووصل بها الى أعظم اللذات . وهذه قضية لا تنتقض ، ومقدمة لا يخالف أحد فيها ولا يعترض . فأما النتيجة عنها فهي فعل الحسن والمثابرة عليه . والتنزه عن القبيح وإن دعت المكافأة إليه . وأفضل الحسن ما بقى ذكر المرء بعده . وجعله بالوصف قريباً ، وإن أطالت الأيام عهده ، إذا كان بقاء ذكر الإنسان عمراً يستجدّه ، وكنزاً يدخره لو ارثه ويُعلمه . ومن أمثالهم : « البشتر أحد الجودين ، والذكر أحد الخلودين ، والبيان أحد السحريين ، والثناء أحد العمرين ، وما أحسن قول أبي الطيب :

كفيل الثناء له برد حياته لما انطوى فكأنه منشور

(١) الأفضليات ص ٤/٣ طبع دمشق ١٩٨٢

وله من رسالة « لمح الملح »^(١)

فصل

من المحدثين المجيدين محمد بن شرف . وذكر في بعض تصانيفه أنه كتب بشرح حال حاج أصابه في الطريق حرٌّ شديد ، فنزل برا ليشرب ، فسقطت فيه صاعقة ، فسلم منها ، ثم ركب وسار ، فنزل برِّدٌ أصابت رأسه منه واحدة فقتلته . وكتابه في ذلك مشهور .

وقد كتب المملوك في هذا المعنى :

« إن من نوادر العبر ، وبنادر العبر ، ما أتفق لفلان عند توجهه من اللطائف ، وتركه اصطحاب الماء توكلًا على اللطائف ، فإنه لقي يوماً متلهب الأوار ، متضرم النار ، قد قعد نعيمه ، وعلم نسيمه ، واستعير من لفتح جهنم حره وسؤومه ، فاستند إلى صبره ، وأوى إلى جلده . ظاناً سرعة ذلك على ما وقع في خلده ، فلما اشتد القيظ ، ونجيف على النفوس الغيظ^(٢) . وتزايد به الأوام ، وتشخص له الموت الزوام جعل يتأسك ويسير ، وقد تيقن أن باقي عمره قليل يسير . فبينما هو على تلك الحال ، يغور تارة وينجد ، وقد أعوزه من يعين وأعجزه من ينجد ، إذا هو ببحر ساقته إليها مهلة الأجل وهدته ، وقادته نحوها فسحة المدية وأدته ، فلعلم الرشاء وتعذره ، وإعجال الأمر له عن تشبهه وتصبره نزلها كارعاً في مائها ، وناعشاً به نفساً لم يبق غيراً ذماتها . وإنه لكذلك إذ وقعت عليه صاعقة حبيها يصعق ، ومسها يهلك ويريق ، فلقيت البئر جدتها دونه ، وحالت للمشيئة بين مضرتها وبينه . ثم صعد منها بعد أن تقع أغلته ، وبلغ أميته . فسما بطرفه ، واستولى على طرفه ، وأعجب بحظه ، وتوهم أن القدر لا يغفل عن حفظه ، وتحقق أن قصود المنايا له مخطئه ، وضروب الرزايا عن الوصول إليه مبطله . فما مضت ساعة حتى نشأت غمامة جرّ اليوم منها ستارته ، وتسخ بها ذلك التوهج ومحا آيته . وحبل جامد السماء يذوب ، وماء المزن يهطل ويصوب .

الأفضائيات ص ١٢٦

الغيظ : الموت

وأخذت الأفضية تحلّل من الدّيم العُقد ، وتُفوّق إلى مقاتل المقتول سيّهم البرد ، فلم يزل يأتيه أرسلأ ، ويتناثر عليه يميناً وشمالاً إلى أن أصابت إحداهنّ منه الهامة ، فأذهبت نفسه ، وعجّلت له القيامة . فسبحان من قُرب له المسافة بين منهل الاعتزاز ومصراع الاعتبار ، ومن نجاه مما اهلكه بمثلة معتاده ، وأهلكه بما يحيى به أرضه ويرحم عياده ، وهو المسؤل إن يُسبّع علينا فضله ، ولا يجعلنا بين عبادِهِ مثله ، إنه جوادٌ نجيبٌ داعيةً ، ولا يُخيبُ راجيةً .

وقال في وفاء النيل

رسالة من إنشاء تاج الرياسة أبي القاسم علي بن منجب بن سليمان الصيرفي .^(١)
« أما بعد . فإن أحق ما وجبت به التهنئة بالبشرى ، وغدت المسارُ منتشرةً تتوالى وتترى ، وكان من اللطائف التي غمرت بالمنة العظمى ، والنعمة الجسيمة الكبرى ما استدعى الشكر لموحد العالم وخالقه . وظلت النعمة به عامة لصامت الحيوان وناطقه . تلك المهوبة بوفاء النيل المبارك الذي يسره الله تعالى وله الحمدُ يوم كذا ، فإن هذه العطية تؤدي الى خصب البلاد ، وعمارتها ، وشمول المصالح وغزارتها ، وتقضى بتضاعف المنافع والخيرات ، وتكاثر الأرزاق والأقوات . ويتساهمُ الفائدة فيها جميع العباد ، وتنتهي البركة بها الى كل دابٍ وناء ، وكل حاضر وبادٍ . فأذع هذه النعمة قبلك ، وانشرها في كل من يتدبر عملك . وحثهم على مواصلة الشكر لهذه الألفاف الشاملة لهم ولك ، فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله . »

وقال :

« إن أول ما تضاعف به الابتهاج والجدل ، وانفتح فيه الرجاء واتسع الأمل ما عمّ نفعه صامت الحيوان وناطقه ، وأحدث لكل أحد اغتباطاً لزمه وآلى أن لا يفارقه ، وذلك ما من الله به من وفاء النيل المبارك الذي يحيى به كل أرض موات ، وتكتسى بعد اقسيمرارها حُلّة النبات ، ويكون سبباً لتوافر الأقوات فإنه وفقى المقدار الذي يحتاج إليه . فلندع هذه المنّة في القاصي والداني لتستعمل الكافة بينهم ضروبُ البشائرِ والتهاني إن شاء الله تعالى . »

(١) المخطوط القرظي ٤٧٩/١

وكتب أيضا :

« من لطف الله الواجب حمدُهُ ، اللازم شكرُهُ ، وفضله الذي لا يَمَلُّ بشرُهُ ولا يُسَامُ ذكرُهُ ، ومنهُ الذي استبشر به الأنام ، وتضاعف فيه الإنام ومثل الله الحياة به في قوله تعالى : (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما تأكل الناس والأنعام) أمرُ النيل المبارك الذي يعمُّ النجودَ والتهائم ، وتنتفعُ به الخلائق ، وترتع فيما يظهرهُ البيهائم . وقد توجه اليك بهذا الكتاب بهذه البشرى فلانَّ فأجرِهِ على رسمه في إظهاره مجملًا ، وإيصاله الى رسمه مكملًا ، وإذاعة هذه النعمة على الكافة ليتساهموا الاغتباط بها ، ويبالغوا في الشكرِ لله سبحانه وتعالى بمقتضاها ، وعلى حسبها ، فاعلم ذلك واعمل به » .

وأشاد ابن سعيد به وبكتابه ، وقد نعته بعلم الرؤساء ، وقال (١) :

« كاتب إمامهم الأمر وغيره من خلفاء المصريين ، وقعت على ترسُّلِهِ في مجلدات عدة ، فوجدتُ الفاضلَ البيسانى ينسجُ على منواله وينزع منزعه ولكنه زاد رشاقةً ولطفًا وغوصًا » .

(١) 'نجوم الراهرة و حل حصبة القاهرة ص ٢٥٢

الأنصاري^(١)

أبو علي حسن بن زيد بن إسماعيل (توفي في حدود ٤٢٦ هـ)

قال عنه العماد : « كان من المقدمين في ديوان المكاتبات بمصر . وصفه القاضي الفاضل وأثنى على فضله ، وأنه في فنه لم يسمح الدهر بمثله » .

وقال ابن سعيد : « أبو علي حسن بن زيد بن إسماعيل المعروف بابن الأنصاري . وبيت بني الأنصاري معروف الى الآن — زمن ابن سعيد في القرن السابع — بالديار المصرية . وأبو علي هذا كنيته . ذكره صاحب الجنان (ابن الزبير) . وقال : هو عريق النسب في صناعة الأدب يمت إليها بأوفى ذمام ، ويضرب فيها بأحوال وأعمام ، جده لأبيه المعتمد الأنصاري^(٢) ، ولأمه المجيد بن أبي الشخباء^(٣) العسقلاني . » .

وكان طموح النظر الى الرتب العلية ، والمنازل السنية ، تُرِيه همته أنه بعبء الرئاسة مستقل ، فهو لكل ما ناله مستقل ، ولو فسح العمر له بامتداحه ، وسمح له الدهر بمراهه ، بلغ بما ظهر من أدبه الى غاية مطالبه ، إلا أن الزمان دفع في صدر أمله ، وقصر خطاً أجله فترامت به الأحوال الى أن قتل في الاعتقال السلطاني لأمر نما عنه إليه وهجاء زور عليه . وكأنما عبّر عن حاله بمقاله :

من لى يعود زمانٍ كنت أكرهه وكيف للميت بالرجعى إلى الأليم

وكان الأنصاري من شعراء الأفضل بن بدر الجمالي ، وقد مدحه واختص بعد مقتله بابنه أحمد ، وبعد مقتله ، سعى بعض رجال الدولة بينه وبين الحسن بن الحافظ الذي استولى على أمور الحكم دون أبيه ، فقتله الحسن بن الحافظ ، وكان متهوراً مستبداً حتى أن أباه ضاق به فدرس له السم فمات .

يقول العماد : « طرفه حادث الزمان الغائظ ، فأحفظ عليه حسناً ولد النبوذ بالحافظ

(١) الخريدة للعماد قسم شعراء مصر ٦٧/٢ والنجوم الزاهرة من المغرب ص ٢٣٧ .

(٢) معتمد الدولة الأنصاري ، ولي قضاء الأردن ، وله شعر فائق وقتله بدر الجمالي .

(٣) سبقت ترجمته .

وتقلد حوته ، وضرب رقبته ، وذلك بسبب ابن قادوس ، عمل بيتين هجا بهما حسن بن الحافظ ودسهما في رقع هذا الأنصارى ، ثم سعى به إلى المذكور فأخذ فوجدا معه وقتل « (١) »

يقول العماد^(٢) : « ومن نثره مما يدلُّ حسنه على رونق فرنده وأثره ما التقطته من ترسل صنفه أبواباً ، وألفه اقتضاباً . »

وله من تهنئة بولاية :

« من هُتِيَ بمنزلة يرتقيها ، أو مرتبة يعتليها ، فالخدم تُهَيَّءُ بالحضرة لما يكسوها من جميل السيرة ، والإنصاف الذى يتعادل فيه الجهرُ والسريرة ، فخلد الله ملك المجلس العالى المالكى ، وثبت أيامه ، ونصر أعلامه — فإنه منظورٌ فيها بناظر البصيرة التى تمدُّه القوة الملكية — وسلك بتقديتها نهج السعادة التى توضحه المادة الالهية ، فأصاب الضريبة ، ووقع العقد فى الترية ، وأرهب الحسامُ القاطع ، وأضرم الشهابُ الساطع . »

ومن تهنئة بالعافية إلى السلطان

« الحمدُ لله الذى أقرَّ القلوبَ بعد وجيبها ، وأضحك الأيامَ بعد قطوبها ، وقوى المتنَ بعد انحزالها ، وشدَّ عُرى الإسلامَ بعد انحلالها ، بما أتاحه من البرِّ الذى أقرَّ عيون الأولياء وأكمد قلوب الأعداء ، وأصبحت الدنيا متعليةً بعقودها ، مائسةً فى برودها باسمه عن المضحك الأنيق ، لاجئة إلى الركن الوثيق . وغدا الدين عزيز الجانب ، رفيع المناكب ، حمى الكواكب ، فملوك الدولة أحقُّ الأولياء أن يستفزَّه الجدلُ ويستطيره ، وتتضاعف مسدته بهذه المنحة الخطيرة ؛ إذ هو ييمينها مشمولٌ ، وعلى موالاتها مجبول . وقد جذبت بياعه من الحضيض الأوهد ، وسمقت به إلى الخلل الأجد ، فهو يتأزرُ بإنعامها ويرتدى ، ويروح إلى إحسانها ويغتدى . »

الحمدُ لله الذى أبقى المجلسَ السامى شهاباً لا يخبو فى الألأزاءِ ناقبه ، وحسام لا تنبو عن الأعداء مضاربة ، وركناً تلوذُ به الأمم ، وسحاباً يهطلُ بأنواء الكرم .

(١) الحريدة ص ٦٨

(٢) الحريدة ص ٧٣

ومن قوله في تهنية بظفر^(١) :

« الحمد لله الذى فضّل دولة أمير المؤمنين على سائر الدول ، كما فضّل ملة محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الملل ، وجعل أيامه واضحة الحُجُول والغُرر ، مخصوصة بالفتوح والظفر ، يخفق النصر على بنوده ، وتسير السعادة أمام جنوده ، ويقابل الأقدار في جحافلها وتصبح الملائكة الأبرار من قبائلها ، فما يتوجه من جيوشه جيشٌ إلا والتأييد يقدمه ، والقدرة تخدمه ، والدهر يُؤازره والنصرة تضافره ، نهىء بهذا الفتح الذى ضحكت به الدنيا عن مباسمها ، وتجلت به شمس النصر عن غمائمها . ونسأل الله أن يجعل الأرض قبضة يده ، والأفلاك الجارية من أعوانه وعدده وكل يوم من أيامه موفياً على أمسه ، مقصراً عن غده ، الفتح الذى نكسبت به رُعوس ذوى الشقاق وقطع به دوابر أهل الخلاف والنفاق ، ورجفت به أكباد الأعداء رهبا وجزعاً ، وتضعضت به أركان الباطل خوفاً وهلماً . وأصبح الإسلام به عزيز الجناب ، فسيح الرحاب ، منصور الأعوان والأحزاب ، والدولة فاخرة على الدول ، باندء أقصى الأمل ، يخفق النصر في أعلامها ويخفها الظفر من ورائها وأمامها »
ومن تهنية بفتح^(٢) :

« أعز الله سلطان الحضرة ، وهناها ما منحها من الشرف الأثير ، والذكر النابه الخطير ، من الظفر بالفلانين على اشتداد أسرهم ، واستفحال أمرهم ، وانبساط يدهم ، وتكاثر عددهم وتناكص المقدمين عنهم ، وجزع الناس منهم . لا جرم أن المجلس العالى لما رأى شأنهم يتفاقم ، وخطبهم يتعاضم نقد رؤساء دولته نقد الصيرف الخبير ، وقلب مقدمى مملكته بطرف العارف البصير ولم يُر كفلان ألم ولا أذفع للخضب ، ولا أسد للخرق ، ولا أرتق للفتق ، ولا أخبر بتدبير الجحافل ، ولا أهجم على شفاء المناصل ، ولا أثبت في صدور الأعداء ، ولا آثر ، في نفوس الأولياء ولا أعرف بمجارى أمور الحرب ، ولا أثبت جأشاً عند اختلاف الطعن والضرب ، ولا أكثر اجتهاداً وتشميراً ، ولا أمضى رأياً وتديراً ، ولا أيسر على الأبطال ، ولا أحق بالتقدم على سائر الرجال ، ولا أثبت في مواقف النزال ، ولا أسرع لإجابة حين تدعى نزالي ، رأوا في عجاجها سحابة موت تهطل بالنكال ،

(١) الخريدة ٧٦/٢

(٢) الخريدة ص ٧٧

وتَطَّرَ نوافذ النصال ، وتومض عن يوارق تشعشعُ بالصقال ، وتقطعُ عُرى الآجال . ونارَ
بأسِ تالفحُ القلوبَ ، وتُضرمُ الخطوبَ ، وتُدنى الأجلَ المكتوبَ ، فأصبحوا بين ناكصٍ على
العقب ، ومجدلٍ في الأرضِ تريب ، ومزملٍ بدماثه ، ومجرعٍ عُصصَ ذمائه ، وهاربٍ والأرضِ
تحصيه ، والآفاتُ تطلبه ، يخافُ من ظلِّ طرفه^(١) ، ويرى المنيةَ نُصبَ طرفه ، وأقشعتُ
الحومةُ والدهرُ إليها باسم ، والنصرُ عليها قادمٌ ، والظفرُ مسطورٌ بجنبها ، والسعادةُ مخيمةٌ
عن يمينها ، والاسلامُ لسعيها شاكرٌ .

وللأنصاري شعرٌ أقوى أسراً من نثوه ، متفوقٌ فيه على كتابته ، وربما سلكه في عداد
شعراء العصر المقدمين ، وقد قصر ابن سعيد مختاره على شعره^(٢) ، ولم يعرض شيئاً من
نثوه ، فلعله رأى فيه ما رأينا ، وأما العماد فقد أكثر من مختار نثوه وشعره جميعاً ، وأعجب
كلُّ من ابن الصيرفي ، والعماد ، وابن سعيد بوصفه لخيمة الفرج للأفضل بن بدر
الجمالی .

قال ابن الصيرفي : ومن مליح ما قال في الخيمة المنصورة قولُ ابن زيد الأنصاري^(٣) :

أخيمةٌ ما نصبت اليومَ أم فلكٌ ويقظةٌ ما نراه منك أم حلمٌ

ويورد ثمانية أبيات .

ويقول العماد : « وله قصيدةٌ في مدح أفضلهم يصف خيمة الفرج يدلُّ إحسانه فيها
على أن بحره طامى اللجج ، ودُرُّهُ نامى البهج^(٤) ، ويورد واحداً وعشرين بيتاً من
القصيدة .

أما ابن سعيد المغربي فيقول : وقوله يمدحُ الأفضل ويصف خيمةً له تسمى بخيمة
الفرج ، وهو من بدائعهِ^(٥) ويورد خمسة عشر بيتاً .

وفي هذه القصيدة يقول الأنصاري :

(١) الطرف : الكريم من الحيل .

(٢) النجوم الزاهرة ٢٣٨ - ٢٤١

(٣) الأفضليات ٢١٦

(٤) الخريدة ٦٨/٢

(٥) (النجوم الزاهرة في حل حضرة القاهرة) ص ٢٣٩

مجدأ فقد قصرت عن مجدك^(١) الأمم
 أحيمة ما نصبت الآن أم فللك
 ما كان يخطر في الأفكار قبلك أن
 حتى أتيت بها شماء شاهقة
 إن الدليل على تكوينها فللكأ
 يمد من في بلاد الصين ناظرة
 ترى الكناس وآرام الأطباء بها
 والطير قد لزمت فيها مواضعها
 لديك جيش وجيش في جوانبها
 إذا الصبا حركتها ماج موكبا
 أحيها خيلك اللاتى تغير بها
 علمت أبطالها أن يقدموا أبدا
 أمتهم أن يخافوا سطوة لردى
 كأنها جنة فالقاطنون بها
 [تعدو القمارى والبازي يحفظها
 علت فيخلنا لها سرا تحذته
 إن أنبت أرضها زهرا فلا عجب
 يا خيمة الفرج الميمون طالرها

ومنها :

ما قال لا قط مد شدت قائمة
 لو كنت شاهد شعري حين أظمت
 أزرئك اليوم من فكرى محبرة
 ترى النجوم لفظى فيك حاسدة
 وكم له يعم في طيها نعم
 إذن رأيت المعالي فيك تخصصم
 في ناظر الشمس من لأليها سقم
 تود لو ألتها في المدح تنظم

ومن شعره قصيدة تعكس حال العصر ورجاله ، وما كان يحدث به كل نفسه من بلوغ
 مكانة في غفلة من غوره أو غضبا ، أو دسا وتامرا .

(١) في النجوم « من أنشأوك »

يقول^(١) :

منال الثريا دون ما أنا طالبُ
وإني إذا لم يسمع الدهرُ بالنسي
تقربُ لي مُستبعداتِ مآربي
فما أنا ممن يقبضُ الفخرُ خطوهُ
لقيتُ من الأيامِ كلَّ عجيبةٍ
وكلُّ خليلٍ أرتجيه مما ذقُّ
إذا ما كسالك الدهرُ ثوباً من الغنى
وإياك سمَّ الأصدقاءُ إذا سرى
ولا تغررُ بمن صفا لك عهدُهُ
فلو على الغدوِ الزمانِ ضلالةُ

وذكر له العماد قصيدة تنهج منهج الشعر القديم رصينة اللفظ بدوية الصور في استهلالها . يقول في مطلعها :

مغابى اللوى حياك غادٍ من الويل
فلازل هطال الغمام إذا بكى
فكم لي في أطلال دوحك ليلةُ
وطئتُ دموعُ الطلِّ فيك دمَّ المخل
تبسمُ عن ألى من الروضِ مخضلاً
غدث سمةً في جبهة الزمنِ الغفل

ويقول وقد ذكر الطيف :

أطارقُ طيفٍ أم خيالٍ مُرجمُ
سرى وكأنَّ الأفقَ صفحةُ لجةٍ
وكم للكرى من ميةٍ قبل هديه
وما شيم الأيامُ أن تمنحَ المنى
ولكن رأت نعمى شهنشاةً في السورى
أراك به مرأى اليقين التوهّمُ
كواكبهُ فيها سفائنُ عوّمُ
أضاء بها وجهُ الدجى وهو أسحمُ
ويسمُ منها الكالخُ المتجهّمُ
فقد أصبحت من جوده تغلّم^(٢)

(١) المجموع الزاهرة ص ٢٣٨

(٢) البيت بهادة في الخريدة ٦٩/٢

(٣) وشاهنشاه لقب الأفضل بن بدر احتمال وهو لقب فارسي معناه ملك الملوك

وله من قصيدة يصفُ الطيف في مطلعها: (١)

سرى واصلاً طيف الكرى بعد ما صدأ فهل خطأ أهدى الزبارة أم عنداً
ولما أتى عطلاً من الدرّ جیده نظمت دمرعى فوق لَبَّايه عقداً

ومن نسيجه البدوي أبياتٌ نظمها في مدح أبي محمد بن أبي أسامة من كبار كتاب
الإنشاء ووجهاء الدولة في عصره . وكان يكتب للأفضل قبل ابن الصريف . يقول
الأنصاري :

لعلّ سنا البارقي المتجدد يُخْبِرُ عن ساكني نَهْمَسِدِ
ويا حُبداً خطرةً للنسيم تُجَدِّدُ من لوعةِ المَكْمِدِ
وفي ذلك الحى خصاصةً لها عنقُ الشايدِ الأغميدِ
تبيه بُغْرَةٌ بدرِ القمام وسالفيةِ الرُشا الأغميدِ
وتلحفُ عطفِ قضيبِ الأراكِ رداءً من الأتحمِ الأجميدِ
أعازلُ أنميّتِ لوماً على يروحُ بعدلكِ أو يفتدي
تلومُ زمانى على صمته وصوتى من ضربه المغمدِ
ففضلى يكي على نفسه بُكاءً ليدي على أربدِ^(٢)
ولو كان حظى لونَ الشبابِ لما حالَ عن صبغهِ الأسودِ
فلا تأيسنْ لمطلِ الزمانِ فإتّى منه على موعِدِ
ولا تشكُ دهركِ إلا إليك فما فى البريةِ من مُسعيدِ
ولا تغترزْ بعطايا اللثامِ فقد ينضحُ الماءُ من جَلْمِدِ^(٣)

وقال في الشراب والغزل :

وندمانى بدورِ التّم بدو بأغضابِ تيسُ على روابى
والمثانى الثالثِ والمثانى رفاقاً فى اصطحابِ واصطحابِ
فحيثُ والدجى يحكى المحساراً بصولِ الشيبِ من تحتِ الحصابِ
براحِ جَلتْ كَفَ المزجِ جادثِ لمفرقها بتاجِ من حبابِ
صفتِ وصفتْ زجاجتها وأضحثِ كأخلاقِ الأجلِ أبى شرابِ

(١) الخريدة ٧٢/٢

(٢) أربدُ أخ للبيد الشاعر بكاه و شعره كثيرا

(٣) القصيدة و الخريدة ٧٣/٢

ابن الخلال

موفق الدين أبو الحجاج يوسف الكاتب (توفي ٥٦٦ هـ)

كاتب الخليفة الحافظ لدين الله وصاحب ديوان الانشاء في عصره

قال عنه العماد الأصهباني : « هو صاحب ديوان الانشاء في مصر ، وإنسان ناظره ، وجامع مفاخره وله قوة على الترسيل ، يكتب كما شاء ، عاش كثيراً ، وعطل في آخر عمره ، وأضر ، ولزم بيته الى أن تعوض منه القبر . وتوفي بعد ملك الناصر (صلاح الدين) مصر بثلاث أو أربع سنين في ثالث عشرى جمادى الآخرة سنة ست وستين وخمسائة (١) .

وروى عنه على بن ظافر في بدائع البدائه خبراً قال (٢) :

هجاه ابن هانيء المحدث هجاء اتصل به فأضمر له الحقد بسببه مع فرط جلالة الرجل ، وفرط رياسته وحسن مباشرته للناس ، وسياسته . واتفق بعض المواسم التي جرت عادة ملوك مصر بالجلوس فيها لاستماع المدائح وبذل المنائح ، وزف بنات القرائح ، فجلس الحافظ الخليفة ، وحضر خواصه في ظاهر الرواق على مراتبهم ، فانتبهت التوبة في الانشاد الى القاسم بن هانيء ، فانشد ما اهتزت له المعاضف ، وفض ختام روضة ليس لها الا القلب والسمع جانٍ وقاطف ، فمال الحافظ الى القاضي موفق متعجباً ، وقال له متعجباً : كيف تسمع ! فاستحسن واستجاد حتى نسبه الى الاعجاز أو كاد ، وهو في خلال ذلك يصنع صنع الخامل ، ويحاول قرطسة المقاتل . فسأله الحافظ عن الرجل ، فأثنى على أدبه ، وثنى بحسبه حتى أوهمه الاعتناء به . ثم قال : ولو لم يكن له مما يمت به الا انتسابه الى أبي القاسم ابن هانيء شاعر هذه الدولة ومظهر مفاخرها وناظم مآثرها لكفى ، فكيف وفيه هذا الأدب الغضُّ النضير ، والشعر الذي لا نذ له ولا نظير ، لولا بيتٌ أظهر منه الضجج عند دخوله هذه البلاد . فقال له الحافظ : ما هو ؟ فتخرج من إنشاده ، وامتنع من إيراده ، فأبى الحافظ إلا أن يورده ، ففى أثناء ذلك صنع هذا البيت وأنشده :

(١) نكت اصبا - ٣١٦

(٢) بدع اسمه - ٣٩٠

تبا لمصر فقد صارت خلاتها عطناء تُنقل من كلب إلى كلب

ثُمَّعظم ذلك على الحافظ ، وأمر بقطع صلته ، وكاد أن يفرط في عقوبته ، ولم يحصل له انتعاش من جهته طوال مدته .

وقد أخذ عنه القاضي الفاضل فن الكتابة . وكان الفاضل قد سيره أبوه ، وهو قاضي عسقلان إلى ابن الخلال ليتخرج عليه في فن الكتابة ، ويتدرب به . فلما وصل إليه قال له : ما الذى أعددت لفن الكتابة من آلات . فقال : ليس عندي شيء سوى حفظ القرآن الكريم وكتاب الحماسة . فقال : في هذا بلاغ . ثم أمره بملازمته ، فلازمه وتدريب بين يديه ثم أمره بعد ذلك أن يحل شعر الحماسة ، فحلّه من أوله إلى آخره ، ثم أمره به فحلّه ثانية ، ويقال إن الموفق ابن الخلال كان يكتب إلى القاضي الفاضل وهو عاطل في بيته : « خادمه يوسف » . وكان الفاضل يقول : إلى متى يُخبأ الألف واللام يعنى يقول الخادم .

ولم يزل ابن الخلال بالديوان إلى أن طعن في السن ، وعجز عن الحركة ، فانقطع في بيته . وكان الفاضل يرعى له حقّ الصحبة والتعليم ، ويجرى عليه ما يحتاج إليه إلى أن مات رحمه الله تعالى .

وقال الصفدى^(١) : وكان الموفق بن الخلال خال القاضي الجليس بن الحباب فحصل لابن الخلال نكبة ، وحصل لابن الحباب بسبب خاله ابن الخلال صداع فكتب ابن الحباب إلى القاضي الرشيد بن الزبير :

تسمّع مقالِي يا ابن الزبير فأنت خليق بأن تسمّع
بليتنا بذي نسب شايبك قليل الجدى فى زمان الدعة
إذا ناله الخير كم نرجه وان صفعوه صفعنا معة

وجاء عن ابن حجة الحموى فى ثمرات الأوراق^(٢) .

قلت : الذى ثبت وتقرر عند المؤرخين وعلماء هذا الفن أن القاضي الفاضل رحمه الله تعالى أخذ علم الانشاء وحكمه عن موفق الدين ابن الخلال منشاء الخليفة الحافظ

١٠ بحث الميمان ٣١٦

٢) ثمرات الأوراق بتحقيق محمد أسد الفصل ابراهيم ص ١٣٨

العلوى . ورتبته فى الإنشاء معلومة ، ولكن جنحتُ الى الوقوف على شىء من نظمه لأنظر فى الرتبتين كما قررت ذلك فى نظم القاضى الفاضل ونثوه ، فوجدت قاضى القضاة شمس الدين ابن خلكان رحمه الله قد أورد له فى تاريخه نظماً ونثراً دلتنى على أن نظمه ونثوه رضيعا لبان ، وفرسا رهان » .

ابن قَادُوس^(١)

أبو الفتح محمود بن اسماعيل بن حميد الدمياطي (ت ٥٥٣ هـ)

وقيل توفي سنة ٥٥١ هـ

من كتاب الدولة الفاطمية في عصر الحافظ ، وعاصر القاضي الجليس ابن الحباب ، ولقب بالفضل كافي الكفاة . وكان القاضي الفاضل يسميه ذا البلاغتين : الشعر والنثر .

ونقل العماد في الخريدة^(٢) عن ابن الزبير في نعتة : كان يأخذ ثغور مصر رجلٌ يعرف باسماعيل بن حميد المنبوذ بابن قادوس ، وكان يهتم بالجمع والادخار ويدين بعباءة الدرهم والدينار ، ولاتندی حصاته ، ولا يظفر بغير الخيبة عُفاته ، ولا يرشح له كف ، ولا يعرف له عرفٌ ، إلا أن له رواءً وجِدَّةً وبنين وحفدة ، يطمع العُرُّ في نواله ، ومنال النجم دون مناله .

ولعل محموداً الكاتب هو ابن هذا الذي أشار إليه ابن الزبير . وعائش ابن قادوس كثيراً من شعراء بلاط الصالح بن رزك وكتابه .

ولقبه ابن شاعر بالكاتب المصري صاحب ديوان الانشاء بالديار المصرية^(٣) وأصله من دمياط . قيل ان القاضي الفاضل كان ممن اشتغل عليه ، وكان يعظمه ويسميه ذا البلاغتين .

قال ابن شاعر : « وكان لا يتمكن من اقتباس فرائده غالباً الا في ركوبه من القصر إلى منزله ، ومن منزله إلى القصر ، فيسايره ويجاربه في فنون الانشاء والأدب .

وكانت بينه وبين القاضي الرشيد بن الزبير مهاجاة ذكر ابن ظافر في البدائع^(٤) أنه نبذه بسواده فقال فيه :

(١) ترجمته في ابن ميسر ٩٧ والروصتين: ١٠٣/١ ، الدواداري ٥٩٦ وبمجموعة الوثائق الفاطمية ١٤٢

(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب ٢١٤/١

(٣) ١٠١/٤ فوات الوفيات -

(٤) بدائع البدائه ص ٥٤ ،

إن قلت من نار خلقت وفُقت كل الناس فهما
قلنا صدقت فما الذي أطفأك حتى صرت لهما

وكان الرشيد كثيرا ما يدعى الذكاء وأن خاطره من نار .

وكان ابن قادوس كثيرا ما يجالس ابن رزيك ومعه في المجلس جماعة من كتاب مصر
وشعرائها^(١)

القاضي الجليسي بن الجبّاب (توفي سنة ٥٦١ هـ)^(٢)

هو عبد العزيز بن الحسين بن الجبّاب . قال ابن شاعر : بالجيم والباء الواحدة المشددة
وبعد الألف باء .

الأغلبى السعدى الصقلى المعروف بالقاضي الجليسي أبو المعالي قال ابن نقطة : سُمى
بالجليسي لأنه كان يعلم الظاهر وأخويه أولاد الحافظ القرآن الكريم ، والأدب ، وكانت عاداتهم
يسمون مؤدبهم الجليسي .

تولى ديوان الإنشاء للفائز مع الموفق ابن الخلال . وكان من جلساء الوزير الصالح ابن
رزيك . قال عمارة اليمنى^(٣) : « ووجدت بحضرته — ابن رزيك — من أعيان أهل الأدب
الشيخ الجليسي أبا المعالي ابن الجبّاب ، والموفق ابن الخلال صاحب ديوان الإنشاء ، وأبا
الفتح محمود بن قادوس ، والمهذب أبا محمد الحسن بن الزبير . وما من هذه الحلقة أحد الا
ويضربُ في الفضائل النفسانية ، والرئاسة الإنسانية بأوفر نصيب ، ويرمى شاكلة الأشكال
فيصيب » .

قال ابن ظافر^(٤) : « كان الصالح طلائع بن رزيك الوزير لا يزال يحضر مجلسه في ليالى
الجمع جلساؤه وبعض أمرائه لسماع قراءة مسلم والبخارى وأمثالهما من كتب الحديث ،

(١) النكت العصرية ص ٣٥

(٢) ترجمته في فوات الوفيات ٣٣٢/٢ ، الخريدة قسم شعراء مصر ١٨٩/١ والنكت لسناره ص ٣٥ والتحرير الزاهرة
٢٩٢/٥

(٣) النكت ص ٣٤

(٤) قد أنق هذا بصورة نثر كاشى « في بعض المصادر والخبر سائق الحديث ص ٢٢٩

وكان الذى يقرأ رجلاً أبخر ، فعلله . به وقد حضر المجلس مع الأمير أبو على بن الزبير والقاضى الجليس أبى محمد عبد العزيز بن الجباب ، وقد أمار وجهه الى القاضى المهذب بن الزبير وقال له :

وأبخرَ قلتُ : لاتبلسُ بجنى

فقال الأمير :

إذا قابلت بالليل البخارى

فقال الجليس : ولم ؟ ، فبدره المهذب فقال:

فقلتُ وقد سئتُ بلا احتشامٍ لأنك دائماً من فيك خارى

وروى ابن ظافر قال : وأخبرنى بعض أصحابنا المصريين أن بعض جلساء الصالح بن زريك أنشد بمجلسه بيتاً من الأوزان التى يسميها المصريون « الزركالش » ، ويسميها العراقيون كان وكان :

النارُ بين ضلوعى ونا غريق فى دموعى
كنى فيلة قنديل أموت غريق وحرثى

وكان عنده القاضى الجليس أبو المعالى عبد العزيز بن الجباب ، والقاضى المهذب ابن الزبير ، فتقدم إليهما بنظم معناه . فصنعا بديها ، فكان مما صنعه الجليس :

هل عاذرٌ إن رُمْتُ خلج عذارى فى شَم سالفةٍ ولثم عذارٍ
متألف الأضداد فيه ولم تزل فى سالف الأيام ذات نثارٍ
وله من الزفرات نفع صواعقٍ وله من العبرات لُج بحارٍ
كذبالة القنديل قدر هلكها ما بين ماءٍ فى الزجاج وبارٍ

تولى ديوان الانشاء للفائز مع الموفق ابن الخلال .

قال العماد إن القاضى الجليس مات سنة إحدى وستين وخمسمائة وقد نيف على سبعين قال ابن شاعر . وكان القاضى الجليس ابن الجباب كبير الأنف ، وكان الخطيب بو القاسم هبة الله بن البدر العريف بابن الصياد مولعاً بأنفه وهجائه . وذكر أنفه فى أكثر من ألف مقطوع . فانتص له — للجليس — أبو الفتح ابن قادوس الشاعر فقال :

يامن يعيب أنوفنا الشَّم. التي ليست تعاب
الأنف خلقة ربنا وقرونك الشَّم اخصاب

ويروى العماد وابن شاعر له مقطعات من الشعر ومنها قوله :

حياً بتفاحية مخضبة من شقني حبه وتيمني
فقلك ما ان رأيت مشبهها فاحمر من خجلة فكذبني

ومنه (١)

وأصل بلّتي من قد غزالي من السقم الملح بعسكريين

وشعره عامة كشعر غيره من الكتاب من طبقتة ومن معاصريه .

وإن لم يصلنا شيء من كتابته حتى نقارن بين نظمه ونثره لتعرف كيف كاناً فرسئ
رهان . وجدير بالتنويه أن كتاب مصر في هذا العصر كانوا يهتمون بالكتابة والنظم ، وكانت
كتاباتهم تحفل بكثير من منظومهم على ما شاهدنا في الفصول السابقة . ولعل ذلك النمط
الذي تفشى في كتابات العصر كان ظاهرة واضحة عمّت وغلبت .

(١) من أبيات و دم ضبب -- ح ٢٢٢، ٢

الرقيق القيروانى (توفى فى حدود ٤٣٥ هـ)^(١)

والرقيق لقب اشتهر به كما عرف بالنديم ، وهو أبو إسحاق ابراهيم بن القاسم . ترجم له ابن رشيقي فى كتاب الأتمودج بين شعراء القيروان وقال عنه : « شاعر سهل الكلام ، لطيف الطبع . غلب عليه اسم الكتابة ، وعلم التاريخ ، وتأليف الأخبار ، وهو بذلك أحذق الناس » .

وتثقف كغيره من أئناء عصره من علماء المسلمين والعرب فحفظ القرآن ، وكثيرا من الشعر ، واطلع على الآداب العربية ، وما صنف من الكتب فيها ، وتعلم الأنساب والأيام وعلوم الدين والفقه وعلوم اللغة والعلوم العقلية .

وربما ألم كذلك ببعض الثقافات غير العربية ، وعرف لغات غير العربية كاللغة اليونانية لغة الروم البيزنطيين ، والتي كان يتقنها بعض العلماء والأدباء وكتاب الدولة ورؤسائها بحكم صلاتهم وعلاقاتهم بالروم .

واستهل عمله بالاشتغال فى ديوان الرسائل بالقيروان فى بلاط أمراء الصنهاجيين أيام تبعيتهم للدولة الفاطمية بالقاهرة ، فعاصر من بنى زهيرى المصور بن باديس ، والمعز بن باديس ، ولعله أمضى فى ديوانهم ما يقرب من عشرين عاماً .

وجاء فى مقدمة « تاريخ الفريقية »

« ولا شك أن اشتغاله بديوان الرسائل مدة نيف وعشرين سنة كان له تأثير فيما وصلنا عنه من التصانيف الكثيرة فى فنون مختلفة »

وكان لاشتغاله بالكتابة فى قصر الصنهاجيين بالقيروان أثره فى إلمامه بكثير من وثائق الدولة ، كما أنه كان قريبا من مصادر الأحداث ، مما جعل ما دونه فى تاريخه موضع الثقة ، بل إن كثيرا مما أورده لا نجده فى غيره من مصادر أخرى مما دفع المؤرخين الذين جاءوا من بعده إلى الاعتماد عليه والنقل عنه .

وقد أوفده باديس فى سفارة إلى القاهرة سنة ٣٨٨ هـ لتهنئة الخليفة الحاکم بأمر الله متولى الخلافة ، وقد اصطحب معه هدية جلييلة وانشد قصيدة بين يديه يذكر ولاء ابن باديس وهى

(١) راجع ترجمته فى موات العلماء نثر شامى ٤١/١

قصيدة جيدة يقول فيها :

إذا ما ابن شهر قد لبسنا شبابه بدا آخرُ من جانب الأفق يطلُّعُ
إلى أن أقرت جيزة النيل أعياناً كما قرَّ عيناً ظاعن حين يرجع

ويقول :

هدية مأمون السريرة ناصح أمين إذا خان الأيمن المضيغُ
وما مثل باديسر ظهير خلافة إذا اختير يوماً للظهيره موضعُ
فصير لها من دولة حتمية إذا ناب خطب أو تفاقم مطمع
حسام أمير المؤمنين وسهمه وسم زعاف في أعاديه منقغ

ومعروف أن الصنهاجيين كانوا نواب الفاطميين على أفريقيا يحكمون بتفويض منهم ،
ويخطبون لهم ويدينون لهم بالولاء حتى عهد المعز بن باديس الذي مال إلى قطع خطبتهم في
عهد الخليفة المستنصر والوزير اليازوري .

وظل الرقيق في رحلته إلى مصر والقاهرة رداً من الزمن يرتاد بعض أماكنها ومنازلها ،
وكان طبعاً أن يتنزه الرقيق فرصة وجوده بعاصمة الفاطميين ، بما تزخر به آنذاك من صور
الحضارة والرفاية ، لينهل من ملاحيا ومنازلها ، ويشبع نهمه إلى اللذات ، فيقضي مع شلة
من أنس إليهم من رفاق وقته في مجالس أنس وشراب ، ومتعة سماع وطعام ، ليلاً حاسة
السمع والبصر والبطن . وأرتاد بمصر ما ارتاد من منازلنا إلى بعضها كدير القصر
بالقرب من القسطنطينية ، وكان مشهوراً يقصده عليه القوم للفرجة .

وسجل الرقيق تلك الأيام بما عمله من ذكر جميلة في أبيات له مطبوعة بعاطفة الشوق
فقال :

هل الريح إن سارت مُشْرِقة تُسرى تسؤدى تحياني إلى ساكني مصر
فما خطرت الا بكيتُ صبايةً وخمئتُها ما ضاق عن حمله صدرى
تراو إذا هُبْتُ قبلاً بتشرهم شممتُ نسيم المسك من ذلك الثُخْر
وما أنس من شيء خلا العهدِ دونه فليس بخالٍ من ضميري ولا فكري
ليالٍ أنساها على غرة الصبا فطابت لنا إذ وافقت غرة الدهر
لعمري لئن كانت قبصاراً أعدها فلستُ بعمد سواها من العُمر

أخادغ دهرى أن يعوذ بفرصة
وترجع أيام خلث بمغاهـ
فكم لى بالأهرام أو ديسر نية
إلى الجيزة الدنيا وما قد تضمنت
وبالمقـ والبستان للعين منظر
وفى مسريقوس مستراد وملعب
وكم بين بستان الأمير وقصره
تراها كمرآة بدت فى زقاريف
وكم بث فى ديسر القصير مواصلاً
تبادرنى بالسراج بكـ غيرة
مسيحة خوطية كلما انتث
وكم ليلة لى بالقرافة جلتها
سقى الله صوب القصر تلك مغانياً

فينقد روح الوصل من راحة الهجر
من اللهو لا تنفك منى على ذكر
مصائد غزلان المكابد والقفر
جزيرتها ذات المواجر والجسر
أنيق إلى شاطى الخليج إلى العصر
إلى دير مرحناً إلى ساحل البحر
إلى البركة السهراء من زهر نضير
من السندس الموشى ينشر للتجر
نهارى بلى لا أفيق من السكر
إذ هتف الناقوس فى غرة الفجر
تشكك أذى الزنار من دقة الحصر
لما نلت من لدايتها ليلة القدر
وإن غيث بالتيل عن سبل القطر

وتشهد هذه القصيدة على ما نعته ابن رشيـ بقوله : « شاعر سهل الكلام ، محكمه لطيف الطبع قويه » ، ونوه عن اسلوبه الشعرى بقوله : « تلوح الكتابة على ألفاظه » .
وللرقيق من كتب الأدب التى وصلنا ذكرها ، وعرفنا محتاره كتاب « قطب السرور فى أوصاف الأنبة والخمر » . قال عنه ابن شاعر : الذى فضح العالمين فيه . وعندى منه نسخة .

ولعله يقصد بفضح العالمين ذكره أخبار من كانوا يشربون الأنبة والخمر من الخلفاء ، وقادة المسلمين ، وما عرضه من ملامتهم ، وصور متعتهم^(١) .
وترك ابن الرقيق عدة مؤلفات منها :

١ — كتاب تاريخ أفريقية والمغرب ويقع فى عدة مجلدات لا يعلم حصرها يتناول فيه تاريخ أفريقية والمغرب منذ الفتح الإسلامى وحتى القرن الخامس . وينقل عنه جماعة منهم ابن الأثير وابن عذارى وابن خلدون^(٢) . وابن فضل الله العمري ... وغيرهم .

(١) سبق أن عرضنا محموداً من ... الكتاب . وانكتاب تمامه نشره الجمع العسى بدمشق .

(٢) لم يصلنا من هذا الكتاب سوى نسخة صغيرة قام بشرها نوبس المجرى الخمى .

- ٢ — كتاب النساء . وقيل إنه كبير الحجم .
- ٣ — كتاب الراح والارتياح .
- ٤ — كتاب قطب السرور في الأنبذة والخمور^(١) .
- ٥ — كتاب نظم السلوك في مسامرة الملوك في أربع مجلدات .

(١) نشر بخارثة تونس ، وتحتفظ المكتبة الوطنية بباريس بسبعة مريئة منه وتم نشره مع دمشق .

التجسيي
اسماعيل بن أحمد بن زبادة البرقي
(من رجال القرن الخامس)

من أهل القيروان وسكن بالمهدية ، ويكنى أبا طاهر ، أخذ عن أبي إسحاق ابراهيم الحصرى نأليفه .

ذكر ابن الأبار أنه سمع من أبي القاسم سعيد بن أبي مخلد الأزدي العثماني وأبي القاسم عمار بن محمد الاسكندراني ، وأبي الحسن علي بن حبيش الشيباني الأديب . وروى عن أبي يعقوب النجيري أدب الكاتب لابن قتيبة .

وكان عالماً بالآداب مستبحراً شاعراً ، مجوداً من أهل التأليف والتصنيف مع جودة الضبط ، وبراعة الخط . دخل الأندلس بعد الأربعمئة ، ثم صار إلى مصر ، وكان بها في سنة خمس عشرة وأربعمئة زمن الظاهر ابن الحاكم وكان قد وفد إليها من الأندلس .
وذكر ابن الأبار أنه جاء في كتابه « الرائق بأزهار الحدائق » أنه كان بمالقة من الأندلس سنة ست وأربعمئة .

وجاء من الأندلس إلى مصر فنزل بالاسكندرية ، ومكث بها زمناً حدثت عن بعض علمائها وأدبائها . وكان قد قصد لها في طريق رحلته للحج كغيره من الأندلسيين والمغاربة .
ربما تردد على مصر أكثر من مرة ، ولعله بقي بها زمناً . فقد ذكر ابن الأبار أنه قد حدث عنه أبو مروان الطنبلي وقد لقيه بالاسكندرية في رحلته لأداء الفريضة « وكان وقوفه في موسم سنة ثمانٍ وثلاثين وأربعمئة (٤٣٨ هـ) زمن المستنصر الفاطمي .

ورافقه في رحلته إلى الاسكندرية أبو بكر محمد بن علي بن الحسن التميمي ثم الغوثي وعاد معه إلى المهديّة سنة ٤١٥ هـ . ويبدو أنه غادر مصر في زورته الأولى سنة ٤١٥ ، لأنه ذكر ممن أنشده بمصر سنة ٤١٥ أبا الحسن البصري الشريف العباسي .

ولما عاد إلى مصر مرة ثانية في موسم ٤٣٨ هـ أو قبلها غادرها إلى صقلية حيث التقى هناك ببعض شعرائها كآبي الحسن علي بن محمد الخياط الربيعي شاعر صقلية حينئذ . وأنشده كثيراً من شعره .

وحياة التجيبى حافلة ، ورحلاته كثيرة ، وعلاقاته بأدباء العصر من رجال القيروان أمثال عبد الكريم النهشلى وابن رشيق وابن شرف ، وبعض أدباء القيروان محتملة ، فقد ذكر هو عبد الكريم ، كما ان ابن رشيق ذكره في أتمودجه بين شعراء القيروان في عصره .
وللتجيبى عدة مؤلفات . منها :

١ — كتاب الرائق بازهار الحدائق ذكره ابن الأبار

٢ — وشرح المختار من شعر بشار^(١) .

ونذكر نموذجاً من شرحه لشعر بشار في تعليق له على أبيات للمتنبى .

قال المتنبى في وصف جيش :

وربّ جواب عن كتاب بعثته وعنوانه للناظرين قُتَامُ
تضيق به البيداء من قبل نشره وما فضّ بالبيداء عنه خُتَامُ
حروف هجاء الناس فيه ثلاثة جِساوُذُ ورمحُ ذابِلُ وُحْسَامُ

قال التجيبى^(٢) :

« ولما جعل المتنبى الجيش جواباً عن الكتاب استعار له ، ما يكون للكتاب من العنوان والحروف والختام والنشر ، فجعل عنوانه القتام ، لأن القتام يدل على الجيش كما يدل العنوان على الكتاب ممن هو ، وإلى من هو ، وجعل البيداء تضيق به ، وهو مجتمع ملموم كاجتماع الكتاب في حال طيه لكبره وعظمه وقوله قبل نشره ، فنشره تفرقه وإغارته ، وانبثاث فرسانه . وجعل حروفه الخيل والرماح والسيوف . فأعطى الاستعارة قسطها ، ووفى الصنعة حقها » .

وقال تعليقا على قول الشاعر^(٣) :

ما بال أنجم هذا الليل حائرة أضلّت القصد أم ليث على فلك
عادت سواربه وقفاً لا جراك بها كأنسها جُثثٌ صرعى بمحرك

وعلى ذكر هذا الشعر الكافي فقد كنتُ بمدينة مائقة من بلاد الأندلس سنة ست

(١) ضع الكتاب منية السيد محمد بدر الدين المنبى تصمة عنه التتيف :ندرة ١٩٣٤

(٢) شرح المختار ص ٥ .

(٣) شرح المختار ص ١٤ .

أربعمائة ، فاعتلتُ بها مديدةً انقطعتُ منها عن التصرف ، ولزمت المنزل . وكان يمرضني حينئذٍ رفيقان كانا معي يَلْمَانِ من شعبي ، ويرفقان بي ، وكنتُ إذا جئني الليلُ اشتد سهرى ، وخفقت حولي أوتار العيدان والطناير والمعازف من كل ناحية ، واختلطت الأصواتُ بالغناء ، فكان ذلك شديداً عليّ وزائداً في قلقي وتألّمي ، فكانت نفسي تعافُ تلك الضروب طبعاً ، وتكرهُ تلك الأصوات حيلةً ، وأودّ لو أجد مسكناً لا أسمع فيه شيئاً من ذلك . ويتعدّر عليّ وجوده لغلبة ذلك الشأن على أهل تلك الناحية ، وكثرة عندهم وإني لساهرٌ ليلةً بعد إغفاعة في أول ليلتي وقد سكنت تلك الألفاظ المكروهة وهدأت تلك الضروب المضطربة ، وإذا ضربتُ خفيّ معتدلاً حسنً . لا أسمع غيره ، فكانت نفسي أبتست به ، وسكنت إليه ، ولم تنفر منه نفاهاً من غيره . ولم أسمع معه صوتاً . وجعل الضربُ يرتفعُ شيئاً فشيئاً ، ونفسي تتبعه ، وسمعي يُصغي إليه إلى أن بلغ في الارتفاع إلى مالا غاية وراءه ، فارتحنتُ له ، ونسيتُ الألم ، وتداخلى سرورٌ وطرب ، خيّل إليّ أن أرض المنزل ارتفعت بي ، وأن حيطانه تمور حولي . وأنا في كل ذلك لا أسمع صوتاً . فقلتُ في نفسي : أما هذا الضربُ فلا زيادة عليه ، فليت شعري كيف صوتُ الضارب ، وأين يقع من ضربه . ولم ألبث أن اندفعت جاريةً تغطّي في هذا الشعر بصوتٍ أندى من النور غيبُ القطار ، وأحلى من البارد العذب على كبد الهائم الصبّ فلم أملك نفسي أن قمّتُ ورفيقتي نائمان ، ففتحتُ البابَ وتبعتُ الصوت ، وكان قريباً منى فاطلعتُ من وسط منزلي على دارٍ فسيحةٍ ، وفي وسط الدار بستانٌ كبير ، وفي وسط البستانِ نحو من عشرين رجلاً قد اصطَفَوْا وبين أيديهم شرابٌ وفاكهةٌ وجوارٍ قيام « بعيدان وطناير وآلات هو ، ومزامير لا يحرّكها ، والجاريةُ جالسةٌ ناحيةً ، وعمودها في حجرها ، وكلُّ يرمقها بصره ويوعبها سمعه ، وهي تغني وتضربُ ، وأنا قائمٌ بحيث أراهم ولا يروني . وكلّما غنت بيتاً حفظته ، إلى أن غنت عدة أبيات وقطعتُ . فعدتُ إلى موضعي يشهد الله وكأنما أنشيطتُ من عقال ، وكأنّ لم يكن بي ألم . وقد وعيتُ الأبيات وهي :

ما بال أنجم هذا الليل حائرةً	أضلّتُ القصد أم ليست على فلّك
عادت سَوَارِيهِ وَقفاً لا خَرَاكُ بها	كأنما جُثتُ صرعى بمُعْتَرِك
ما تنقضي ساعةً منه فتطمعني	به ، ولا هو في وجهي يُمنسلك
هل من بشرٍ بنور الصبح تُنقذني	بُشراه من طول وجهه غير مُتْرِك
فقد أجدُ التواءَ اللين لي شجنا	وأضجعتني تبارجني على الخمسك

وللتجيبى شعراً منه قوله : فى ثقيل مر به (١) :

قالوا تفاضيت عنا إذ مررت بنا أم أنت ذو مقلبة إغصناؤها لحلق
قلت اكنحالى بكم فى مقلتى رمداً إن الثقل قذى تشقى به الخدق
لا أمنح الطرف إلا من أسر به ولا أرى بسوى ذى الفضل أعطينى

وله فى صديق تخلف عن وعده . وكتب بها إليه :

أبا حسن عشر وابق واسم ولا يزل محلكت مرقوعاً إلى السبعة الشهب
علام ، وليم الخلف للوعد بعدما وفيت لمصيف فى مودتكم صب
تناقلت عنه بعد علمك أنه إليك فقير فى مقابلة الكتب
وقد جدت بالإحسان بدءاً ولم تعد فرخت وقد عرضت عرضك للعقب
فلو لم تجد يمنك بالقرس سالفاً لأرضى لم أطلب سحابك بالرب

وكان قد ذهب وهو بمصر إلى جهة أوسيم قرب الجزيرة — بينها وبين الفيوم ، فرأى هناك من نور الأحقوان ما لم ير مثله قط فى النضارة . وإشراق أصفهه وفقوعه فى صفاء أبيضه ونصوعه فقال :

كأن الأحقوان وقد تبدت محاسنه فراقث كل عين
عماد زبرجد وقباب تبر تحف بها شرافات اللجين

ومن شعره قوله (٢) :

وغيداء كالبدري المنير تطلعت أو الشمس بل أبهى من الشمس البدر
تراءت وأومت بالسلام وقبلت بناناً وألقت بالبنان على الصدر
لكادت لها نفسى تراجع غيها وبتك أسرار الصيانة والسر
فتنهتها قسراً وقلت لها اذكرى غمودك بالبيداء فى حالة القر
وقد شارفت حمانى فى شرف الردى وظنت ظنولى أنها آخر العمر
وقال رفيقى لا تخف ودموعه على الخد من جراً مخالفة تجرى
فحين كفاك الله ما تحدرينه ونجاك منه مجنحين إلى العدر

(١) شرح المختار ص ٨٣

(٢) المختار ص ١٧٨

عَدِمْتَ إِذْ نَبِي ، وَبَانَتْ مَرُوءَتِي وَأَسَخَطْتَ أَضْيَافِي وَبَسْتُ عَلَى غَمْرِي
لَيْسَ التَّظَنِّي مَا تَظَنَّنْتَ فَيَأْسَى وَبَوَى بِكَفِّ مِنْ مَسَاعِدَتِي صِفْرِي

قال : وأعدته أيضاً عند عدلي نالني ممن جهل حقيقة أمرى ، وخفى عنه مكنون سيرى .
لو تكسبت بالأدب ، ولقيت الملوك لنتك كل أرب ، وبلغت من الدنيا أعلا الرتب .
فقلت :

إلى كم أقر النفس في المربع المخيل وأقنع من حد المكاسب بالهزل
أكلف أقلامي مدى متاجلاً ولم أعتجل مهري ورمحي ولا نصلي
ومن كلف الأقسام لا البيض همته أقسن به بين المذلة والقبل
وقائلة فارق سكونك واضطرب فما الرزق إلا بالترحل والخل
علام تجشمت المشقة طالباً علوم ذوى الآداب في الحزن السهل
ولم تلق ملكاً يغمر الناس فضله ولا سرفة يشرى الخادم بالبذل
إذا لم تقل بالعلم مالاً ولا غلاً ولا جانباً م الأجر فالعلم كالجهل
فقلت لها منيت نفسك ضللة وعلت ما ضيتها قلبه العقل
إليك فما سمعي بمصغ إلى الذي تقويه فاقني من حيايك يا تملي^(١)
أبطلني يبي الرزق من غير ربه وذو العرش رزاق الرزى واسع الفضل
إذن لاسعت بي في الهياج طمرة وأسخطت أضيافي وعتت على التبل
جريت على آثار أسرق الأولى شأوا في مدى العلياء بالقول والفعل
ولا خير لي لو رج إذا طاب أصله ولم يك ذا طيب يدل على الأصل

* * * *

(١) تملي مرحة «تمت» اسم امرأة

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

- ١ — اتعاض الحنفا بأخبار الخلفاء/ للمقرزى
- ٢ — الإبانة عن سرقات المتنبي/ حققه وقدم له وشرحه إبراهيم الدسوقي البساطي ، ونشر ضمن مجموعة الذخائر (٣١) بدار المعارف بمصر سنة ١٩٦١ م .
- ٣ — أخبار مصر/ للمسبحي تحقيق وليم ج ميلورد — طبع الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٠ م .
- ٤ — أخبار مصر في سنتين/ للمحاسبى — طبع المجمع العلمى .
- ٥ — أدب الخواص للوزير المغربي/ تحقيق الشيخ محمد الجاسر — طبع الرياض سنة ١٩٨٠ م .
- ٦ — الإشارة إلى من نال الوزارة — للصيرفى .
- ٧ — الاعتبار/ تحقيق فيليب حتى طبع ليدن سنة ١٨٨٤ م ، برنستون سنة ١٨٨٦ ، ١٩٣٠ بالولايات المتحدة الأمريكية .
- ٨ — أعيان الشيعة .
- ٩ — الأفضليات تحقيق الدكتور/وليد قصاب ، الدكتور/عبد العزيز المانع — طبع دمشق (مطبوعات مجمع اللغة العربية سنة ١٩٨٧ م ، سنة ١٩٨٢ م) .
- ١٠ — الإيناس بعلم الأنساب تحقيق إبراهيم الإييارى وطبع ونشر دار الكتب الإسلامية ، دار الكتاب المصرى بالقاهرة ١٩٨٠ م .
- ١١ — بدائع البدائة لعلى بن ظافر الأزدى — تحقيق/أبى الفضل إبراهيم .
- ١٢ — البيان والإعراب للمقرزى دراسة د. عبد المجيد عابدين — طبع عالم الكتب بالقاهرة سنة ١٩٦١ م .
- ١٣ — تاريخ أفريقيا والمغرب للرقيق القيروانى تحقيق المنجى الكعبى نشر تونس .
- ١٤ — تاريخ الدولة الفاطمية للدكتور حسن إبراهيم حسن — طبع مكتبة النهضة سنة ١٩٧٢ م .

- ١٥- تاريخ الفاروق (أحمد بن يوسف بن على) تحقيق الدكتور بدوى عبد اللطيف
عوض - طبع دار الكتاب اللبنانى سنة ١٩٧٤ م .
- ١٦- تاريخ المسبوحى طبعة الورد تحقيق د. حسين نصار .
- ١٧- تاريخ الموسيقى العربية د. ج. فارمر ترجمة د. حسين نصار من سلسلة ألف
كتاب رقم (٧) - طبع مكتبة مصر بالفجالة ١٩٥٦ م .
- ١٨- التصوير عند العرب زكى محمد حسن ١٩٤٢ ك .
- ١٩- تعريف القدماء بأبى العلاء - جمع وتحقيق د. مصطفى السقا وبعض
الأساتذة - طبع الهيئة المصرية للكتاب سنة ١٩٤٤ .
- ٢٠- ثمرات الأوراق لابن حجة الحموى تحقيق/أبى الفضل إبراهيم ط. المطبعة
الوهابية ١٣٠٠ هـ .
- ٢١- حسن المحاضرة للسيوطى (جلال الدين) مطبعة الكتبى القاهرة ١٣٢١ هـ .
- ٢٢- الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع - آدم ميتز ترجمة محمد عبد الهادى أبو
ريدة .
- ٢٣- حياة القيروان د. ياغى - طبع المكتبة الإسلامية بدمشق .
- ٢٤- خريدة القصر وجريدة أهل العصر للعماد الأصفهاني - طبع مصر (القسم
الرابع - شعراء المغرب) .
- ٢٥- تحقيق عمر الدسوقى ب. على عبد العظيم - طبع دار نهضة مصر بالفجالة ١٩٦٤
م .
- ٢٦- خزانة الأدب لابن حجة الحموى طبع مصر سنة ١٣٠٤ هـ .
- ٢٧- الخطط المقرئية (المواعظ والاعبار بذكر الخطط والآثار) لتقى الدين أبى
العباس أحمد بن على المقرئى - مكتبة المثنى - بغداد .
- ٢٨- دعائم الإسلام للقاضى النعمان تحقيق آصفى فيضى نشر دار المعارف بمصر .
- ٢٩- الديارات للشابستى - طبع دار الكتاب بمصر .
- ٣٠- ديوان تميم بن المعز - طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة .
- ٣١- ديوان طلائع بن رزيك جمع/محمد هادى الأمينى - طبع المكتبة الأهلية بالنجف
١٩٦٤ م .
- ٣٢- ديوان ظافر الحداد تحقيق/د. حسين نصار - طبع مكتبة مصر بالفجالة ١٩٦٩
م .

- ٣٤ — الذخيرة لابن بسام تحقيق د. إحسان عباس — طبع دار الثقافة — بيروت .
- ٣٥ — الرسالة المصرية — أمية بن أبى الصلت — تحقيق عبد السلام هارون ج ١ (من نواذر المخطوطات) .
- ٣٦ — رسائل أبى العلاء — طبع اكسفورد .
- ٣٧ — رسالة الغفران تحقيق د. عائشة عبد الرحمن — ذخائر العرب رقم (٤) دار المعارف ١٩٧٧ م .
- ٣٨ — الروضتين لأبى شامة المقدسى — مطبعة وادى النيل القاهرة ١٢٨٧ هـ .
- ٣٩ — رياض النفوس للمالكي .
- ٤٠ — زهر الآداب تحقيق زكى مبارك لأبى إسحق إبراهيم الحصرى القيروانى .
- ٤١ — سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى — طبع دار الكتب العلمية — بيروت .
- ٤٢ — سقرنامه لناصر خسرو .
- ٤٣ — سيرة المؤيد داعى الدعاة تحقيق محمد كامل حسين دار الكتاب المصرى ١٩٤٩
- ٤٤ — شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد — طبع مصر سنة ١٣٥١ هـ .
- ٤٥ — شرح المختار من شعر بشار للتجيبى — طبع لجنة التأليف والنشر بالقاهرة ١٩٢٤ م .
- ٤٦ — صبح الأعشى فى صناعة الإنشا للقلقشندى — طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الهيئة العامة .
- ٤٧ — الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد لكامل الدين الأدفوى — تحقيق ومراجعة سعد محمد حسن ، د. طه الحاجرى طبع الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ م .
- ٤٨ — ظهر الإسلام أحمد أمين — طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- ٥٠ — العقد الفريد لابن عبد ربه — طبع درار الكتب المصرية بالقاهرة .
- ٥١ — عنوان المطربات المرقصات لنور الدين على .
- ٥٢ — عيون الأخبار تأليف الداعى المطلق إدريس عماد الدين تحقيق د. مصطفى غالب — طبع دار الأندلس — بيروت .
- ٥٣ — الفن الإسلامى لأرنست كونل — ترجمة د. أحمد موسى — طبع دار صادر بيروت ١٩٦٦ م .

- ٥٤— فوات الوفيات لابن شاکر الکتبی جزءان تحقیق محی الدین عبد الحمید .
- ٥٥— فی أدب مصر الفاطمیة للدکتور/محمد کامل حسین من سلسلة ألف کتاب —
طبع وزارة الثقافة المصریة .
- ٥٦— قانون دیوان الرسائل لعلی بن منجب الصیرفی تحقیق علی بهجت بمصر ١٩٠٥ .
- ٥٧— القاهرة مدینة ألف لیل طبع هیئة کتاب بالقاهرة .
- ٥٨— قطب السرور فی أوصاف الأنبذة والخمور للرقیق القیروانی — طبع الجمع
اللغوی بدمشق .
- ٥٩— کتاب المنازل والدیار لأسامة بن منقذ نشر المکتب الإسلامی للطباعة والنشر
بیروت — دمشق ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥ م .
- ٦٠— المؤلف والمختلف لأبی جعفر محمد بن حیب — طبع أوروبا بعنوان (المختلف
والمؤتلف فی أسماء القبائل) .
- ٦١— المؤنس فی أخبار تونس .
- ٦٢— المجالس المؤیدیة (المائة الأولى) تحقیق وتقديم د. مصطفی غالب — طبع دار
الأندلس بیروت ١٩٧٤ م .
- ٦٣— المجالس والمسایرات للقاضی النعمان .
- ٦٤— مجالس الإسلام — ترجمة عادل زعیر .
- ٦٥— مجمل تاریخ الأدب التونسی لحسن حسنی عبد الوهاب — طبع مکتبة المنار
بتونس .
- ٦٦— مجموعة الوثائق الفاطمیة للدکتور الشیال .
- ٦٧— المختار من قطب السرور للرقیق تحقیق عبد الحفیظ منصور طبع مؤسسات عبد
الکریم بن عبد الله — تونس ١٩٧٦ م .
- ٦٨— المختصر فی أخبار البشر لأبی الفداء — طبع القاهرة ١٣٢٥ هـ .
- ٦٩— مصادر الموسیقا العربیة ترجمة د. حسین نصار .
- ٧٠— معجم الأدباء لیاقوت الحموی — طبع هندیة ١٩٠٧ ، ١٩٢٧ م .
- ٧١— المغرب لابن سعید المغربی تحقیق د. زکی محمد حسن ود. شوقی ضیف ود.
سید الکاشف جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣ م .

- ٧٢ — مقدمة قانون الرسائل للصيرفي كتبها على بك جهجت الأثرى ونشر ١٩٠٥ م .
- ٧٣ — مناهج الفكر ومناهج العبر للوطواط تحقيق/عبد العال عبد المنعم الشامي — طبع الكويت ١٩٨١ م .
- ٧٤ — مواد البيان لعلی بن خلف — طبع الجامعة الليبية بطرابلس .
- ٧٥ — النجوم الزاهرة في حلی حضرة القاهرة لابن تغری بردی تحقيق د.حسين نصار — طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٥٦ م .
- ٧٦ — نزهة المشتاق في اختراق الآفاق .
- ٧٧ — نفخ الطيب للمقرى تحقيق إحسان عباس — طبعة صادر بيروت ١٩٦٨ م .
- ٧٨ — النكت العصرية في الوزارة المصرية لعمارة الجنى .
- ٧٩ — نكت الهميان ونكت العميان لصلاح الدين الصفدى — طبع أحمد زكى باشا بالقاهرة .
- ٨٠ — نهج البلاغة لعلی بن أبى طالب شرح محمد عبده تحقيق وتعليق محمد أحمد عاشور ومحمد إبراهيم البنا — مطبوعات دار الشعب .
- ٨١ — الوافى بالوفيات للصفدى — طبع المعهد الألماني .
- ٨٢ — ورقات عن الحضارة العربية بأفريقيا لحسن حسنى عبد الوهاب طبع تونس .
- ٨٣ — الوزير المغربى تأليف إحسان عباس طبع دار الشروق بعمان — الأردن ١٩٨٨ م .
- ٨٤ — وفيان الأعيان لابن خلكان تحقيق إحسان عباس طبع بيروت .

فهرس الموضوعات

رقم الصفحة	الموضوع
٧	تمهيد
	الباب الأول
١٧	الحالة السياسية
٢٦	— المعز وفتح مصر
٢٨	— العزيز بالله نزار
٣١	— الحاكم بأمر الله المنصور بن نزار
٣٨	— المستنصر بالله أبو تميم معد بن الظاهر
٤٠	— المستعلى
٤٤	— الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد
٤٧	— الظاهر بأمر الله
٤٨	— العاضد لدين الله
٤٩	رسوم الخلافة
٥٤	وزراء الفاطميين :
٥٤	١ — يعقوب بن كلس
٥٦	٢ — اليازورى (أبو محمد الحسن بن على)
٥٨	٣ — بدر الجمالى
٦٠	٤ — الأفضل بن بدر الجمالى
٦٣	٥ — طلائع بن رزيك
٦٦	جند الخلافة :
٦٨	— حال الأسطول
٧٠	— أحوال الدولة فى شمال أفريقيا
٧٤	— أحوال الشام والمشرق العربى
٨٠	— بين الفاطميين والحملانيين

٨٢	— بين الفاطميين والسلاجقة
٨٤	— بين الروم والبيزنطيين
٨٦	— الفاطميون والصليبيون

الباب الثاني

٨٩	الحياة الاجتماعية
	الاسكندرية ١٠٥ دمياط ١٠٨ تنيس ١١٥٩
١١٣	• الصعيد وأهم بلاده :
	مدينة أسيوط ١١٤ مدينة قوص ١١٥
	أسوان ١١٨ القسوطاط ١٢٠
	القاهرة ١٣٠
١٣٦	• مظاهر الترف في الأعياد والاحتفالات
١٤٩	• حياة عامة الناس في معاشهم
١٥١	• الحياة الدينية والسلوك الدينى
١٥٦	• موقف الفاطميين من أهل الذمة « اليهود والنصارى »

الباب الثالث

١٥٩	الحياة العقلية والفنية
	الآثار العلمية :
١٦٣	١ — الجامع الأزهر
١٦٣	٢ — المكتبة الكبرى بالقصر
١٦٥	الدعوة الفاطمية والتحول الفكرى :
١٧٤	— الوزير بن كلثوم وجهوده فى مختلف مجالات العلم
١٧٧	— داعى الدعوة شمس الدين الشيرازى
١٩٥	— المجالس المؤيدية
٢٠٠	العلوم العقلية والطبيعية :
٢٠٢	— علم التاريخ
٢٠٧	— علماء اللغة والأدب
	الفنون :
٢١٠	— العمارة والزخارف المعمارية

- ٢١٢ — النسيج والملبوسات .
٢١٦ — الموسيقى والغناء .

الباب الرابع

النشر

الكتابة والكتّاب

- (١) فنون النثر :
أ — الخطابة ٢٢٤
ب — الكتابة : ٢٢٢
١ — السجلات ٢٢٢
٢ — الرسائل ٢٢٦
(٢) الرسائل الموضوعية : ٢٥٨
أ — رسالة الغفران ٢٥٩
مشاهد الجنة وجولة ابن القارح (٢٦٣) جولته في الجحيم ٢٦٨
ب — الرسالة المصرية لابن أبي الصلت ٢٨٢
(٣) السِّيَر : ٢٩٥
أ — سيرة جوذر الصقل ٢٩٥
ب — سيرة المؤيد داعي الدعاة ٢٩٧
ج — الاعتبار ٢٩٩
(٤) الكتب الأدبية : ٣٠١
أ — الأفضليات لعل بن منجب الصيرفي ٣٠١
ب — لَمَنَحُ المُلْح ٣٠٩
ج — زهر الآداب لأبي إسحاق الحصرى القيرواني ت (٤١٣ هـ) ٣١٦
د — لباب الآداب لأسامة بن منقذ (٥٨٤ هـ) ٣١٨
هـ — الديارات للشابشتي ٣٢٧
و — قطب السرور في أوصاف الأنبياء والغمور ٣٢٨
ز — كتاب المنازل والديار لأسامة بن منقذ ٣٣٧
(٥) مؤلفات الكتابة والإنشاء : ٣٥١
١ — مواد البيان لعل بن خلف ٣٥١
أقسام الكتاب ٣٤٨ تعريف صناعة الكتابة ٣٥٠ ٣٥٢

٣٥٧	فصل من فضائلها من كتاب الله
٣٥٨	فصل من فضائلها من أهلها وأربابها
٣٦٢	القول في القسمة ٣٥٨ الباب الثاني في البلاغة وأقسامها
٣٨٠	٢ — قانون ديوان الرسائل لعلى بن منجب الصيرى
٣٨١	فصل في غرض الكتاب ٣٧٧ فصل في أحوال رئيس الديوان
٣٨٦	٣ — سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى .
٣٩٢	الكلام في الفصاحة ٣٨٨

الباب الخامس

مشاهير الكتاب والأدباء

٤٠٣	١ — الوزير المغربي (أبو القاسم الحسين بن على ٤١٨ هـ)
٤٢٥	كتابات ابن المغربي ومؤلفاته
٤٣١	رسائله
٤٤٢	٢ — ابن خيران (أبو محمد أحمد بن على ولي الدولة)
٤٥١	٣ — العميدى (أبو سعد محمد بن أحمد ت ٤٤٣ هـ)
٤٥٢	نموذج من كتابته
٤٥٧	٤ — على بن خلف (أبو سعد)
٤٥٨	٥ — ابن أوى الشخباء (الحسن بن عبد الصمد ت ٤٨٦)
٤٧٣	٦ — ابن الصيرى (أبو القاسم على بن سليمان بن منجب ت ٥٤٢ هـ)
٤٧٧	نماذج من كتاباته ٤٧٣ نسخة من السجل في وفاة المستعمل ٤٠٨
٤٨٣	رسالة العفو ٤٧٧ ملح الملح ٤٧٨ مقاله في وفاء النيل ٤٨٥
٤٨٧	٧ — الأنصارى (أبو على حسن بن زيد بن اسماعيل ت ٤٢٦ هـ)
٤٩٤	٨ — ابن الخلال (موفق الدين بن العجاج يوسف الكاتب ت ٥٦٦)
٤٩٧	٩ — ابن قادوس (أبو الفتح محمود بن اسماعيل بن حميد الدمياطى)
٤٩٨	١٠ — القاضي الجليس بن الجباب (ت ٥٦١ هـ)
٥٠١	١١ — الرقيق القمروانى (ت ٤٣٥ هـ)
٥٠٥	١٢ — التنجيبى (اسماعيل بن أحمد بن زيادة البرقى)

• فهرس المصادر والمراجع

• فهرس الموضوعات